تقديم

العلامة المحقق آية الله جعفر السبحاني

سيرة الأئمة عليهم السلام

عرض وتحليل للحياة الاجتماعية والسياسية والعلمية للأئمة المعصومين عليهم السلام

تأليف
مهدي البيشوائي

تعريب
حسين الواثقي

مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

قدّم لـه العلاّمـة المحقّق
آية الله جعفر السبحـاني

سيرة الأئمة عليهم السلام

عرض وتحليل للحياة الاجتماعية والسياسية
والعلمية للأئمّة المعصومين عليهم السلام

تأليف
مهدي البيشوائي

تعريب
حسين الواسطي

نشر مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

پيشوائي، مهدي
سيرة الأئمة عليهم السلام: عرض و تحليل للحياة الاجتماعية والسياسية والعلمية للأئمة المعصومين عليهم السلام/ تأليف مهدي البيشوائي؛ قدم له جعفر السبحاني؛ تعريب حسين الواسطي. ـ قم: مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، ١٤٢٦ ق. = ١٣٨٤
٦٦٩ ص.
كتابنامه به صورت زيرنويس
عنوان اصلى: سيره پيشوايان: نگرشى بر زندگى اجتماعى، سياسى و فرهنگى امامان معصوم عليهم السلام.
چاپ سوم. ISBN:964-357-042-8
١. ائمه اثنا عشر ـ سرگذشتنامه. الف. سبحاني تبريزي، جعفر، ١٣٠٨ ـ، مقدمه نويس. ب. واسطي، حسين، مترجم. ج. مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام. د. عنوان.
BP ٣٦/٥/ ٩پ ٩٠٤٣س ٢٩٧/٩٥

اسم الكتاب: .... سيرة الأئمة عليهم السلام
تقديم: .... آية الله جعفر السبحاني
المؤلف: .... مهدي البيشوائي
تعريب: .... حسين الواسطي
المطبعة: .... مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام
التاريخ: .... ١٤٢٦هـ. ق/ ١٣٨٤هـ.ش
الكمية: .... ٢٠٠٠ نسخة
الناشر: .... مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام
الصفّ والإخراج باللاينوترون: .... مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

E-mail: info@imamsadeq.org
http://www.imamsadeq.org

توزيع
مكتبة التوحيد
قم ـ ساحة الشهداء ـ ☎ ٧٧٤٥٤٥٧و٢٩٢٥١٥٢، فاكس ٢٩٢٢٣٣١

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجع فكرة تأليـف كتاب حول الأئمّة المعصومين عليهم السلام إلى سنين مضت حيث نشرت عدّة أعمال بين تأليف وتـرجمة حول حياة بعضهم عليهم السلام ولقيت ترحيباً واستقبالاً من قبل القرّاء الراغبين في مثل هذه الأعمال، و منـذ ذلك الحين أصبحت كتابة مجموعة كاملة عن حياتهم عليهم السلام وبنفس طريقة الأعمال السابقة أُمنية مقدّسة بالنسبة لي، غير انّ الوصول إلى هذا الهدف كـان يتطلب زمناً و إمكانيات كثيرة للدراسـة والتأليف لم تكن متوفرة لدي حينذاك، ومن ناحية أُخـرى كان الكثير من الأشخاص يراجعوني ويطلبون منّي أن أُعرّفهم على كتاب شامل يمكن الاعتماد عليه وباللغة الفارسية الحديثة ليغنيهم عن الرجوع إلى المصادر المتعددة. انّ الشعور بالحاجة وإبداء الرغبة من قبل الأشخاص المذكورين جدّدا أُمنيتي القديمة في نفسي.

ومضافاً إلى كلّ ذلك فان كـاتب السطور وخلال السنوات الأخيرة وعلاوة على تدريـس تاريـخ الإسلام درّس تاريـخ المعصومين وسيرتهم عدّة مـرّات في عدة مـراكز للتعليم العالي، وقد توفّرت جرّاء ذلك مجمـوعة من الكراريس المختصرة في هذا المجال ولكن لم تكن هناك الفرصة الكافيـة لإبدالها بكتاب منسق. ونظراً إلى الحاجة والترحيب المذكورين أُعيد النظر في الملزمات المذكورة، وقد تمّ التدقيق فيها مرّة أُخرى والرجوع إلى مصادر أكثر وتوسعـت الأبحاث والمواضيع واتّخذت مكانها المناسب وأصبح الكتاب بتوفيق الله تعالى كما تراه.

إنّ هذا الكتاب قد أعدّ لعامة القرّاء فقد أعرضنا فيه عن الخوض في الأبحاث التخصصية والبعيدة عن حاجتهم، كأبحاث تاريخ تكوّن الفِرَق الشيعية، والأبحاث الكلامية المعقدة، والمواضيع التي اختلف فيها وتحتاج كتاباً مستقلاً، وأمثال ذلك، وقد اكتفينا عند الضرورة بإشارة عابرة إليها وأحلنا القارئ إلى المصادر المثبتة في الهامش.

والجدير ذكره انّ كاتب السطور قد راجع مصادر الكتاب جميعاً بشكل مباشر وفي الوقت ذاته ثبّت هويتها بصورة كاملة حتى يسهل للقارئ الرجوع إليها، وكذلك يستطيع الراغبون بمزيد الاطّلاع الرجوع إلى هذه المعلومات أيضاً.

والأمر الآخر هو انّه وحسبما تقتضيه البحوث التأريخية قد استفيد في المرحلة الأُولى من المصادر القديمة المعتبرة والمعوّل عليها والقريبة من الأحداث زمنياً قدر الإمكان، ولم يغفل الكاتب في غضون ذلك عمّا كتب باللغة الفارسية لا سيما ما كتبه المعاصرون، وأينما وجدنا تحليلاً جيّداً وعرضاً رائعاً وقراءة جديدة ونقطة جذابة أفدنا منه.

وتقديراً لجهود الكتّاب وحفظاً للأمانة ذكرنا أحياناً ـ وبمقتضى جودة ترجمتهم لبعض المواضيع إلى الفارسية، أو لأنّ كتبهم كانت عوناً لي ـ أسماء كتبهم بجانب المصادر القديمة التي استفدنا منها. وكذلك نقلنا في بعض المواضع قسماً من أعمال المعاصرين بنصّه تارة، ومع بعض التصرفات الطفيفة في العبارة مع ذكر للمصدر وعرض موجز تارة أُخرى.

وأرى هنا لزاماً علي أن أشكر جهودهم، ولحسن الحظ قد كُتبت في السنوات الأخيرة أعمال وكتب قيمة من قبل كتّاب وباحثين حول سيرة الأئمّة المعصومين باللغة الفارسية كلّها مفيدة وجديرة بالثناء غير انّ كلاً منها تتبّع هدفاً معيناً، أو كُتبت بطريقة خاصة أو من المحتمل انّها كتبت لشريحة معينة. ومن هنا اختلف هذا الكتاب الذي بين يديك عن تلك الأعمال والكتب كثيراً، فطريقة طرح البحوث في هذا الكتاب بأن

يتم في سيرة كلّ إمام عرض الخطوط والمراحل العامة من حياته عرضاً شاملاً في البداية.ثمّ يشار إلى طبيعة الأجواء السياسية والاجتماعية السائدة في عصره بالتفصيل، وبعدها يتم دراسة الخطوط الرئيسية لحياة الإمام ونضج مواقفه السياسية والاجتماعية وتناسبها مع الظروف والأوضاع السائدة في المجتمع آنذاك.

وهكذا أخذ هذا الكتاب أمر اهتمام الأئمّة بعامل الزمن والظروف والمقتضيات والموانع في تبيين حياتهم المليئة بالجهاد والخدمات بعين الاعتبار وأولاه أهمية بالغة، ويمكن عد ذلك إحدى سمات هذا الكتاب وامتيازاته.

والنقطة الأُخرى هي انّه قدّرنا لسيرة كلّ إمام خمسين صفحة بشكل متوسط واحترازاً من مشكلة تعدد المجلدات جعلنا أبحاث الكتاب في مجلد واحد و إذا كان حجم الكتاب كبيراً نسبياً فهو لهذا السبب.

ومن المؤكد وعلى رغم جهود الكاتب، فإنّ هذا العمل لن يكون خالياً من العيوب، وأخيراً يجب أن أُؤكد بأنّ أكبر المشجعين للكاتب في إتمام هذا الكتاب هو الأُستاذ الكبير سماحة الشيخ آية الله السبحاني ـ مدّ ظله ـ أُستاذ الحوزة العلمية في قم الّذي أصر كثيراً على التسريع في إنهاء كتابته، والآن وتحت إشراف الأُستاذ يطبع وينشر هذا الكتاب من قبل مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام للأبحاث و التحقيق. ومن الله التوفيق وعليه التكلان

مهدي البيشوائي

قم ـ رجب ١٤١٤هـ ـ دي/ ١٣٧٢هـ.ش

مقدمة سماحة الشيخ آية الله جعفر السبحاني

بسم الله الرحمن الرحيم

التاريخ الماضي صحيفة كبيرة مفتوحة أمام صحيفة المستقبل المطوية، ومن خلال هذه الصحيفة المفتوحة ينبغي فتح ذلك القسم المطوي وتحديد معالم مسيرة المستقبل، وتعلّم دروس كثيرة من سيرة الماضين.

وحتى وقت قـريب كثيراً ما كان المؤرّخون رواة للأحـداث وساردين لها غير واقفين على أسباب الأحداث أو نتائجها السيئة أو الحسنـة، وكأنّهم كتبوا التاريخ لتسلية الناس ولهوهم أو انّهم يتركون هذا العبء على عاتق القرّاء.

إنّ الحداثة في كتابة التاريخ التي حولته من مجرد نقل الأحداث بصورة جافة وقصّها إلى عملية تحليـل وتمحيص هي خطوة كبيرة في مجالات العلوم الإنسـانية. أحدثت هذه المنهجية مسافة كبيرة بين نوعي التاريخ النقلي والتحليلي لدرجة انّها جعلـت هاتين المنهجيتين والطـريقتين في الكتـابـة وكأنّهما علمان مستقـلان عـن بعضهما. تتم الإفادة في هذا النوع من الكتابة مضافاً إلى النصوص التاريخية وأقوال الشهود والرواة من علوم عديدة، مثـل علم النفس وعلم الاجتماع والجغرافيا وعلم الآثار وغير ذلك. وتعرض الأحداث التاريخيـة على شكل متسلسل بأن يكون كلّ واحد منها متلواً بالآخر مع أسبابها ونتائجها.

إنّ نقطة الضعف الكامنة في هذا النوع من كتابة التاريخ هي انّه لا يكون التاريخ مصوناً ونزيهاً من التدخل والتصرف الغير مناسب والتفسير بالرأي الخاطئ وتختلط الأحداث التاريخية فيها بأهداف وأفكار ودوافع الكاتب الشخصية ويختفي وجه الحقيقة تحت ستار سميك من التفسيرات والتنظيرات.

ومن الواضح انّه لا يمكن أن يتّهم جميع كتاب التاريخ بالحكمية السابقة لأوانها غير انّه ينبغي تقبّل عدم نزاهة الكثير منهم من نقطة الضعف تلك.

كما أنّه لا يمكن اعتبار جميع المؤرّخين النقليين كتّاباً هادفين وواقعيين، لأنّ البعض منهم لم يكن بعيداً عن الأغراض والمصالح الشخصية وكان ينقل ما يؤيد أفكاره وعقيدته الدينية ومصالحه القومية ولا يتعرض إلى الوجه الآخر من الأحداث ولكن ينبغي القول عند المقارنة انّ كمية الخطأ في التاريخ التحليلي أكثر بكثير من كمية الخطأ في التاريخ النقلي. وفي عصرنا الشيء الذي جعل التاريخ التحليلي مزدهراً أكثر هو ظهور فلسفة التاريخ التي تمتاز عن علم التاريخ شأنها شأن فلسفات أيّ علم من العلوم. توضح فلسفة التاريخ الأسباب العامة لحدوث الأحداث وتكامل المجتمع، وتعلّمنا القوانين العامة للتطور والتكامل.

وبعبارة أُخرى: انّ فلسفة التاريخ تدرس وتبحث العلاقة القائمة بين الأحداث المختلفة، وتكشف عن أسباب ومسببات تلك الأحداث التاريخية.

إنّ أي نوع من البحث للحصول على القوانين العامة لحركة وتكامل المجتمع الإنساني هي خطوة في سبيل تطور فلسفة التاريخ وتكامله، أو علم مجتمع الإنسان وتقدّمه. وتكشف الدراسة العميقة لعلل تكامل أو تحولات وتغييرات حياة الإنسان بأنّ العوامل المحرّكة للتاريخ لا تنحصر في عامل واحد أو عاملين، بل هناك أسباب متنوعة وفي ظروف مختلفة هي التي تحرك عجلة الحياة في المجتمع الإنساني وتكتب بقلم التكوين صفحات تاريخه، ولم يكن هناك عامل

واحد هو الذي يحدد مسار حياة الإنسان على مر التاريخ. وقد حاول البعض أن يجعل محرك التاريخ منحصراً في عامل واحد. وهناك ممن يحملون نظرة ضيقة يدرس جانباً واحداً من حياة الإنسان لا كلّ الجوانب وكأنّ هذا البعض قد أقسم بأن لا يقدم أكثر من عامل واحد لتكامل وتطور تاريخ الإنسان ، أو انّه اعتبر عامله الذي يطمح إليه مفتاحاً سحرياً يمكنه أن يفتح جميع أبواب التاريخ المغلقة، فهم ولأجل أن لا يظهروا بمظهر أصحاب النظرة الضيقة يقدمون دائماً عاملاً واحداً ـ كالعامل الاقتصادي ـ على أنّه هو السبب الرئيسي لجميع الأحداث ويجعلون العوامل الأُخرى في الدرجة الثانية من ناحية التأثير.

إنّ الذين لا يعتقدون بوجود أكثر من عامل واحد محرك للتاريخ هم أُناس سذج بسطاء أُحاديو النظرة والرؤية ، ويكتفون بجانب واحد فقط، ويستأنس فكرهم بعامل واحد من العوامل الصانعة للتاريخ، ويغفلون عن العوامل الأُخرى، أو انّ أفكارهم الحزبية والسياسية ساقتهم إلى الاعتقاد باقتدار عامل خاص ـ الصراع الطبقي ـ وان يحسبوا العوامل الأُخرى ثانوية فوقية لا أساسية.

التاريخ والصراع الطبقي

اعتقدت الماركسية بأنّ تاريخ المجتمع الإنساني حصيلة صراع طبقي لطبقات مسحوقة وقسّمت الشعوب في العالم إلى فئتين:

فئة مرتبطة بالنظام الكلاسيكي، وهي ترى أنّ مصلحتها تكمن في بقاء ذلك النظام.

وفئة مناضلة ترى أنّ مصلحتها في تقويض النظام السائد الحاكم.

إنّ هذا النوع من التفسير لتحولات وتغييرات الإنسان يدلّ على حصر نشاطات الإنسان في الرغبات المادية الدنيوية.

وفي الوقت الذي توجد ميول وغـرائز أُخرى ضمن هذا الإطار تميل إلى أنّ شرف وقيمة الإنسان أعلى وأرقى من أن يفكـر في إطار مصالحه المادية الضيق وأن يعتبر حركة التاريخ معلولة لبطنه وشهوته فقط.

إنّ صفحات التاريخ الإنساني تشهد لمناضلات وجهود شخصيات قديرة وكبيرة تناولـت مقبض السيف وضحّت بـأرواحها وأبنائها في سبيـل الحفاظ على القيم الإنسانية ومكافحة الأوضاع الدينية والأخلاقية المتردية ومعالجتها.

والتاريخ خير شاهد على ذلـك، ويشهد انّ كثيراً من الحروب والصراعات التي نشبت لمحـو النظام الطبقي ـ و بعبارة أصـح لاسترجاع حقوق المستضعفين من المستكبريـن الجبابـرة ـ قد تمت تحت قيـادة رجال أحرار نهضـوا بدافـع حب الإنسان وحفظ حقوقه، بل وأكثر من ذلك بدوافع دينية إلهية.

وتروي آيـات القرآن بصراحة انّ الشخصيات المؤمنـة والمستضعفة والفقيرة كانت تشكّل الجزء الأكبر مـن أصحاب الأنبياء عليهم السلام والتي حاربت لدثر الشرك وآثاره المدمّرة وإيصـال الإنسان إلى درجة راقية درجة التعلّق بـالله تعالى والارتباط به، حتى أنّ أحد اعتراضات الطغاة المستكبريـن على الأنبياء هو التفاف الفقراء والمستضعفين حولهم.[١]

وعندمـا نقرأ حول نهضـة خاتم الـرسل صلى الله عليه وآله وسلم ودعوتـه نجد انّ طغـاة عصره ومستكبريه يشترطون للإيمان بالإسلام أن يطرد الفقراء والمستضعفين من حوله.

ولذلك نهى الله تعالى الـرسول عن طرد هذه الفئة التي حملـت أعباء الدعوة على عاتقها نزولاً عند رغبة بعض المستكبرين.[٢]

من يتصفّح التاريخ يجد هناك فئتين من البشر:

---

١. فقد قال أعداء هود عليه السلام له : ﴿ما نَراكَ اتَّبعك إلاّالّذين هم أَراذِلُنا بادي الرَّأي﴾ (هود/ ٢٧).

٢. ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذينَ يَدْعُونَ ربَّهُمْ بِالغداة وَالعشي﴾ (الأنعام/ ٥٢).

١ . فئة هي أسيرة رغباتها المادية، وهذه فئة وضيعة قاصرة العقل لدرجة انّها لا يدور في خلدها شيء غير مساندة النظام الحاكم وتبرير أعماله، وذلك لإشباع رغباتها وميولها النفسية.

٢ . وفئة أُخرى تطلب الحقّ وهي مبدئية هادفة،غاضبة، متحررة من ضغوط البيئة والطبيعة، وينصب عزمها وجهدها بصورة رئيسية على حفظ القيم الإنسانية والأخلاقية وعلى ترقية مستوى الإنسان الروحي المعنوي، وإذا كان محرّك التاريخ لدى الفئة الأُولى هو التمتع بالترف والرفاه المادي للإنسان، فإنّ إصلاح المجتمع وإحياءه والنهوض به وتحريره من الطبيعة الحيوانية والتعلّقات المادية والاهتمام بالقيم والمبادئ العليا كلّ ذلك يكون هو المحرّك له لدى الفئة الثانية، وهنا تجب دراسة دور الأنبياء والأولياء الإلهيّين في صنع التاريخ بدقة أكبر وأُفق أوسع، فقد كان للشخصيات الإلهية دور بارز لا يمكن إنكاره في ظهور النهضات الإصلاحية الكبيرة في التاريخ وكان منهاجهم الإلهي الذي يصل إليهم من خلال الوحي أكبر رأسمال للنهضة والثورة. انّ دورهم في زرع الإيمان في الشعوب و تعبئتها في سبيل الأهداف الإنسانية العليا، وبالتالي في قلب وجه المجتمع وواقعه لهو من بديهيات التاريخ ومسلماته. وقد أثبتت التجارب التاريخية بأنّ العلوم البشرية قد تنير درب الإنسان إلى حدٍ ما غير انّها لا تحدث ثورة ولا تصنع مجتمعاً.

لقد كان أنبياء الله ورسله وأولياؤه الصالحون هم الذين علّموا البشرية درس التحرر من أسر الجبابرة المستكبرين وكانوا بسبب ما يتمتعون به من قوة الإيمان فاعلين في دك قلاع الظلم أكثر من أي عامل آخر.

الفرويدية وتاريخ البشرية

وفي هذا الإطار ارتكبت الفرويدية خطأ أكبر فقد عدّ فرويد حركة التاريخ

معلولـة للغريـزة الجنسية، واعتقد بـأنّ لهذه الغريـزة دوراً كبيراً وأساسيـاً في جميع نشاطات الإنسان الفردية والاجتماعية.

فـالإنسان مـن وجهة نظـره هو حصيلـة سلسلة مـن المحاولات والجهـود المتـواصلة تنبـع جميعها بشكـل شعوري أو لا شعـوري من الغـريزة الجنسيـة،ولم يتّضح حتى الآن سبب اهتمام هذا الاتجاه بالغريزة الجنسية من بين غرائز الإنسان أكثر مـن غيرها، وقـد غضّ الطـرف عن الجوانــب الروحيـة فيه مـع أنّ البحوث العلمية قد اكتشفت قبل فرويد وبعده جوانب قديرة في النفس الإنسانية وأثبتت غرائز راقية كان لها دور في الإبداع في تاريخ الإنسان مثل:

١. الجانـب الروحـي والتوجّـه نحو مـا وراء الطبيعة الـذي أوجد الأديـان والمذاهب، وفي الواقع انّ وجود كلّ هذه المساجـد والمعابد والمراكز الدينية يشكل جانباًمن نشاطات تلك الغرائز.

٢. الجانب الأخـلاقي وحـب الحقّ والحقيقة وهـو ممّا لـه دور كبير في حياة الإنسان، ولو حـذف هذا الجانب الذي هو أحـد الجوانب الروحية لـلإنسان من حياته لمنيت باختلال واضطراب عجيب.

٣. حـبّ الفـن والجمال الذي أوجـد الفنـون المعماريـة الشرقية والغـربيـة واللوحـات الفنية الـرائعة ونضـد الفسيفساوات والصنـاعات اليـدوية الجميلـة والأدب الإنســاني نثراً وشعـراً، كـلّ ذلك يشكـل مظهـراً بـارزاً لهذا الجانب مـن الجوانب الروحية للإنسان.

٤. الجانــب العلمي وحـب كشف المجهـولات ومعـرفة أسبـاب الظواهـر والحوادث الذي ســاهم مسـاهمة كبيرة في الحضارات وانفتـاح العقل الإنســاني. وبالنظـر إلى هذه الجوانــب فكيف يضع فـرويد زمـام تاريخ الإنســان بيد غـريزة

وضيعة؟! وكـأنّه يعتقد ــ هو والماركسية ـ انّ إنسـانية الإنسان تتلخـص في بطنه وفرجه و ما شابه!

وعلى أية حال انّ تفسير حياة الإنسان الصاخبة على أساس النزاع الطبقي أو النظريـة الجنسية يشبـه تفسيرنا لـزلزال عظيـم دمر البيـوت والعمارات وقوض الجبال واستـأصلها على أساس انهدام كوخ خشبـي في تلك المنطقة التـي حدث فيها الزلـزال. ومن الواضح انّ الذين يتمتعـون بنظرة شمولية دقيقة يعـرضون عن هذه المحدودية الفكرية في تحليل الأحداث، ولا يغضون الطرف عن تأثير العوامل الأُخرى التي منها تأثير الشخصيات الإلهية في صنع تاريخ الإنسان.

وقـد خصّـص القرآن العظيـم ولـلأهميـةالتـي يـوليها بحـق لجهـود هـذه الشخصيـات الكبيرة في أحـداث تـاريـخ الإنسان وحضـارتـه قسماً مـن آيـاتـه بمواقفهم وجهودهـم المتواصلة، وقد أشار خلال ذلك إلى نقـاط ذات قيمة عالية واعتبر حيـاة الأنبيـاء المفعمة بـالنضـال والخدمـات عبرة للعلماء: ﴿**لَقَدْ كـانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولي الأَلْباب**﴾.[1]

ومن هذا المنطلـق كتب جماعة من العلماء والمفسّرين كتبـاً كثيرة حول حياة الأنبياء وسيرتهم يمكن أن تكون مفيدة لنا جداً. ومـن المؤكّد توجد في بعض هذه الكتابـات حقائق قرآنية قـد امتزجت بمجمـوعة من الإسرائيليات والمجـوسيات فـرسمت صـورة غير حقيقية عـن حيـاة الأنبياء المقـدسة، غير انّ أُولئـك العلماء الذين كتبوا واستلهـاماً من الآيات القرآنية والأحاديـث الصحيحة في هذا المجال قد قدموا خدمة عظيمة للمجتمع الإسلامي.

ونعيد ما قلناه في البداية هنا وهو انّـه يجب أن نقرأ هذا القسم من التاريخ،

١. يوسف:١١١.

بل و جميع كتب التاريخ من حيث إنّها تستطيع أن تعلمنا كمعلم صامت أسباب رقي الحضارات وسقوطها.

الأئمّة الإثنا عشر

ويفهم من الروايات والأحاديث التي نقلها السنّة والشيعة بوضوح انّ النبي الأكرم قد أخبر عن خلفائه الاثني عشر، وكما يروى لنا مسلم في صحيحه: لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة.[١]

وفي رواية أُخرى: لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفة. وقد أوردنا جميع الأحاديث التي نقلها أهل السنّة حول الخلفاء الاثني عشر في كتاب بحوث في الملل والنحل.[٢]

وفي الوقت ذاته تحير أئمة الحديث من أهل السنّة في تحديد هؤلاء الخلفاء الاثني عشر وتخبّطوا تخبّطاً عجيباً ولم يتمكنوا من تعيين اثني عشر خليفة يتصل بعضهم ببعض بهم يكون الإسلام عزيزاً منيعاً، لأنّا نعلم انّ الحكم الأموي بدأ بعد عصر خلافة الخلفاء الراشدين الأربعة وليس بإمكان أي مؤرخ خبير ومنصف أن يعدّ معاوية وابنه يزيد ومروان بن الحكم ضمن الخلفاء الاثني عشر الذين يكون بهم الإسلام عزيزاً وعظيماً.

وبعد انقراض الحكم الأموي بدأ عصر بني العباس الأسود الذي تسبب هو الآخر في الكثير من الحروب والمجازر وسفك الدماء. وعليه لا يمكن عدّ هؤلاء العباسيين مصاديق لخلفاء الرسول الاثني عشر. ومن بين كلّ ما تقدّم انّ

---

١. صحيح مسلم:٦/ ٣، باب الأمارة والخلافة.

٢. بحوث في الملل والنحل:٦/ ٥٨ـ ٦١.

المجموعة الـوحيدة التي تشكل المصـداق الحقيقي ـ باعتراف العـدو والصديق ـ لهؤلاء الخلفاء الاثنـي عشر هم الاثنـا عشر إماماً مـن الأئمة المعصـومين للشيعة الذين ورد ذكر أسمائهم وصفاتهم وكيفية حياتهم عن لسان النبي في كتب التاريخ وفي الروايات بشكل متواتر.

ويوجد هناك كلام لأحد علماء أهل السنّة حول الخلفاء الاثني عشر الذين أخبر عنهم الرسول ﷺ جدير بالالتفات إليه، ونحن نـورد هنا خلاصة منه للقرّاء الأعزاء: إنّ الأحاديث الدالة على كون الخلفاء بعده ﷺ اثنا عشر قد اشتهرت من طرق كثيرة، فبشرح الزمان وتعريف الكـون والمكان علم أنّ مراد رسول الله ﷺ من حديثـه هذا الأئمـة الاثنا عشر من أهـل بيته وعترتـه، إذ لا يمكن أن يحمـل هذا الحديث على الخلفاء بعده من أصحابه لقلّتهم عن اثني عشر ولا يمكن أن يحمله على الملوك الأموية لـزيادتهم على اثني عشر ولظلمهم الفاحش إلاّ عمـر بن عبد العزيز، ولكونهم غير بنـي هاشم، لأنّ النبيّ ﷺ قال : «كلّهم من بنـي هاشم» في رواية عبد الملك عن جـابر وإخفاء صوته ﷺ في هذا القول يرجـح هذه الرواية، لأنّهم لا يحسنـون خلافـة بني هـاشم، ولا يمكـن أن يحمله على الملـوك العباسيـة لزيادتهم على العـدد المذكور، ولقلّة رعايتهـم الآية ﴿قُلْ لاٰ أَسْـأَلُكُمْ عَلَيـهِ أَجراً إلاَّ الْمَوَدةَ فِي القُربىٰ﴾ وحديث الكساء، فلابدّ من أن يحمل هذا الحديث على الأئمة الاثني عشر مـن أهل بيتـه وعترته ﷺ، لأنّهم كانـوا أعلم أهل زمـانهم وأجلهم وأورعهـم وأتقاهـم وأعلاهـم نسباً، وأفضلهـم حسبـاً، وأكرمهـم عند الله، وكـان علومهم عن آبائهم متّصلاً بجدهم ﷺ وبالوراثة واللدنية.[١]

---

١. ينابيع المودة ـ للشيخ سليمان البلخي القندوزي ـ ص ٤٤٦ ط استانبول، عام ١٣٠١هـ. والطبعة الجديدة ج٣/ ٢٩٢، نشر دار الأُسوة، قم ـ ١٤١٦هـ.

الوحي والمحافظة على الدين

تؤكـد أحاديث الأئمـة الاثني عشر على أنّ خطـة الحفاظ على الديـن بعد رحيـل رسول الله هـو أن يتعين خليفته مـن خـلال تنصيصه هـو عليه أو على يـد خلفائه وانّ الأُمّة لا حقّ لها في انتخاب الخليفة.

لأنّه لو كان انتخابه من قبلهم لكان تحديد الاثنى عشر خليفة وحصرهم في بني هاشم منافياً لذلك الأصل الآنف الذكر. ولم تكتف الأحاديث المذكورة بذكر عدد الخلفاء وصفاتهم، بل انّ الرسول ﷺ وفي عدة مناسبات كان يذكر أسماءهم أيضاً، وقد عيّن خليفته الأوّل في بداية دعوته ورسالته.

ويشهد على ذلك حادثتـا يوم الدار[1] في السنة الثالثة مـن البعثة والغدير المشهورتان. وسنشير إلى سرّ ضرورة تعيين الخليفة من قبل الله تعالى بشكل موجز، وهو انّ الطريق الصحيح والسليم للحفـاظ على الدين والاحتراز من أي اختلاف وافتراق بين الأُمّـة أن يعين الـرسـول الأكـرم ﷺ ومن خـلال الوحـي خليفته أو خلفاءه وينص عليهم وأن لا يدع الأمر إلى أُمّته، لانّ إحـالة الأمر إليهم خطأ من ناحيتين:

ذلك انّ طبيعة وطريقـة حياتهم الاجتماعية ـ المتأثّرة مـن النظام القبلي ـ لم تكن لتسمح بأن يساهم أفراد المجتمع في الانتخابات ويختار في النهاية الشخص الأصلح بطريقة ديمقراطية وبحرية كما يقولون.

والناحيـة الثانيـة هي انّ ثـالوث الأعـداء كان يحدق بهذه الحكـومة الفتيـة ويترصّدها ويتحيّن الفرصة للقضاء عليها، وفي هذه الظروف وهذا المجتمع يكون بقاء الدين واستمراره منوط بتعيين الخليفـة من قبل القائد والمنظّر لهذه الثورة ولا

---

١. سيأتي تفصيل حادثة يوم الدار في هذا الكتاب في الصفحة ٣٨.

يصبح تـرك الأمر إلى الناس ـ الـذين لم يبلغوا الكمال الاجتماعي والنضـج الكافي ويسيرون ضمن إطار النظام القبلي وبأمر من شيـوخ القبائل ـ عديم الفائدة ـ ولا ينتهي إلى اختيـار الأصلح فقط بـل سيتسبب في تفـريق الأُمة وانقسـامها. والآن سنتاول هذين العاملين بتفصيل أكثر:

١. طبيعة الحياة في شبه الجزيرة العربية

كانت حياة الناس في شبه الجزيرة حياة قبلية وعشائرية وفي مثل هذه البيئة لا يكون هناك أي معنى لكلمات مثل الديمقراطية والحرية واحترام رأي الإنسان. ومن الواضـح انّ في مثل هذه الحياة وطبيعتها يكـون الرأي الأوّل والأخير هو رأي شيخ القبيلة وسيد العشيرة، ولو كان يترأس عشيرة من ألف شخص، فهذا يعني انّ هناك واحداً وألـف رأي في الظاهر، ولكن لم يكن هناك أكثـر من رأي واحد في الواقع وذلك هـو رأي شيخ القبيلة وسيدها، لأنّ الألف نفر يـدلون برأيهم تنفيذاً لأمره دون أدنى تأمّل أو تفكير.

انّ مثل هذا الاستفتاء الشعبي وإن كان ديمقـراطياً في الظاهر غير انّه ليس إلّا حكم الشخص الـواحد ذلك الشخص الأنـاني والمستبد برأيه الـذي يريد أن يتقلد حكم العشيرة بـالقوّة والحيلة أو كميراث للأسـلاف، ويجب الانتباه إلى انّه كان يتـواجد في المدينـة وحدهـا بعد رحيـل النبي جماعـة الأنصار الـذين كـانوا يتشكلـون مـن قبيلتين كبيرتين: الأوس والخزرج، شيـخ الأُولى أسيـد بـن خضير والثانية شيخها سعـد بن عبادة، ولو فرض أن ينتخب شخـص لتولي الحكم لكان الأوس يتبعون رأي سيدهـم والخزرج كذلك، ولكانت هذه القـاعدة تصدق على جميع القبائل التي كانت تعيش في نجـد والحجاز، فهل كان من الصحيح أن يترك الرسـول ـ و نظـراً للطبيعة الاجتماعية السـائدة آنذاك ــ أمر انتخـاب الخليفة إلى

الناس و في الـواقع إلى أسيادهـم؟ وتكـون الديمقراطيـة الخاوية من المعنى قنـاعاً خادعاً وذريعة مبررة لبعض العناصر النافذين ويفرض الشخص المرغوب فيه من وجهة نظرهم نتيجة لمحاسبات عشائرية ضيقة الأُفق والنظرة ولعلاقات قبلية على الأُمّة.

يجب أن يكون خليفـة رسول الله خير الأُمّـة كمالاً وعلماً ودراية وكفـاءة، ولم يكن لشيوخ القبائل وأسيادها الذين تربوا على الاستبداد وحبّ الرئاسة والسيادة أن ينتخبوا شخصاً مثل هذا.

٢. الأعداء يترصدون الإسلام

عندما رحل رسول الله ﷺكان هناك ثالوث نحس يهدّد كيان الإسلام، فمن جهة الشرق هناك امبراطـورية الساسانيين العظيمـة ـ حيث خسرو برويـز الذي مزّق رسـالة النبـي بكلّ وقـاحة ــ و من جهـة الغرب امبراطـورية الـروم الشرقية وحلفاؤهـا في البلاد العـربية، وأخيراً كان هنـاك وفي داخل شبـه الجزيرة العـربية المنافقـون الذين لا يقلّـون شأناً عن العـدوين السابقين والـذين كانـوا يترصدون الإسلام الفتي ويتحيّنون الفرصة لاستئصالـه. ففي هذه الظروف والأوضاع يكون أفضل القـرارات هو أن ينتخـب شخص من قبـل نفس النبـي يكون جـديراً لهذا الأمر وقيـادة الأُمّة، وبهذا ينسـد باب الفـرقة والاختـلاف ويمنع اختراق الأعـداء للعالم الإسلامي. نعم للحفاظ على كيان الإسـلام الذي فتح أعداءه الثلاثة فمهم كتنين خطير يريد ابتـلاعه كان يجب أن تعد خطـة من قبل صاحـب الشريعة يتم على أسـاسها تضييـق رقعـة الاختـلاف وإعداد المجتمـع ليـواجـه أعداءه بـدل الانشغال بالنزاعـات الداخلية فيقضى من اختاره الوحـي على العدوين الداخلي والخارجي من خلال تعبئة القوات المتحدة.

وهنا يكون كما قال الشيخ الرئيس: والاستخلاف بالنصّ أصوب، فانّ ذلك لا يؤدي إلى التشعب والتشاغب والاختلاف.[١]

توضح دراسة تاريخ الصحابة والتابعين ان طبيعة المجتمع آنذاك كانت طبيعة نزاعية. ومنذ ان دخل الرسول الأكرم ﷺ المدينة كان الاختلاف بين الأنصار والمهاجرين ملحوظاً فيهم، وكان يشتد في بعض الأحيان كما حدث في قضية الإفك[٢] وقد بلغ الاختلاف ذروته في اجتماع سقيفة بني ساعدة، الاجتماع الذي عقده الأنصار من جانبهم بعد رحيل رسول الله ﷺ ثم التحق بهم جماعة بدافع الوقوف ضدّ قراراتهم واستلام مقاليد الخلافة والسلطة.

ونظراً إلى ما تقدّم فانّ العقل يحكم بأن ترك مصير الأُمّة إليها في تلك الظروف العصيبة والحرجة ليس من مصلحة الإسلام ولا من مصلحة أتباعه، بل انّ قرار القائد الإلهي وهو انتخاب شخص تتوفر فيه الشروط المذكورة هو الأمر الوحيد الذي يمكن من خلاله استئصال الاختلاف وإقصاء غير المؤهلين والسير بالأُمة وقيادتها تحت لواء الإمام المنصوص عليه إلى الأمام.

حياة الأئمّة المعصومين

تعرفنا فيما مضى على طريقة كتابة التاريخ التحليلي وخصوصياته، وعرفنا أحد أكبر أسباب صنع التاريخ، وأخيراً شاهدنا مخطط الوحي ومنهجه الحكيم للحفاظ على الدين وبقائه. وقد حان الآن وقت البحث حول سيرة الأئمّة المعصومين وحياتهم التي تشكل موضوع هذا الكتاب بصورة مختصرة.

---

١. الشفاء، الالهيات، ج٢، ط ايران، ص ٥٥٨و ٥٦٤.

٢. صحيح البخاري:٥/ ١١٩، باب غزوة بني المصطلق.

إنّ دراسة كتب التـاريخ الإسلامي تـدل على انّ سيرة أهل البيت عليهم السلام من أهـمّ المواضيـع التـي شغلـت بـال المحـدثين والمؤرّخين بعـد سيرة الـرسـول الأعظم صلى الله عليه وآله، ولو أحصينـا عدد الكتب التـي أُلّفت حول منـذ بداية القـرن الثاني حتى اليوم لوجدنا انّه ليس بالإمكان حتى درج أسمائها في كتاب واحد فضلاً عن نفس الكتـب التي يحتاج جمعها إلى مكتبـة ضخمة. وقد كشفت ـ لحسن الحظ ـ الفهارس الموجـودة الستار عـن هذه الحقيقة سـواء التي أعـدها الشيعـة أو السنّة وفضلاً عـن كتاب كشف الظنون للكـاتب الجلبي (١٠١٧ـ ١٠٦٧هـ) وكتاب الذريعة للعلاّمة الطهراني (١٢٩٣ـ ١٣٨٩هـ) وكتاب مرآة الكتب للشهيد ثقة الإسلام (المتوفّى ١٣٣٠هـ) والفهـارس الموجودة في المكتبـات العالميـة فقد نجـح أخيراً المحقّق المحترم عبد الجبار الـرفاعي من خلال متابعاتـه وجهوده المتواصلة في مـراجعة المصـادر والفهـارس الموجودة أن يـؤلّـف معجماً عمّا كتـب عن أهـل البيت عليهم السلام، وكانت حصيلة جهوده مجموعة مـن ١١ مجلداً بالقطع الوزيري تحت عنوان «معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت».

وقد تعرف فيما يتعلق بحياة الـزهراء والأئمّة الاثني عشر معاً على ١٤٢٠٦ من الكتب التي أُلفت وكتبت باللغات الفارسية والعربية والأردية واللاتينية.

ونحن نذكرها هنا بشيء من التفصيل:

١. فاطمة الزهراء عليها السلام ٥٤٦ كتاباً.

٢. أمير المؤمنين عليه السلام ٤٩٥٦ كتاباً.

٣. الإمام الحسن عليه السلام ٢٠٥ كتاباً.

٤. الإمام الحسين عليه السلام ٣٢١٥ كتاباً.

٥. الإمام السجاد عليه السلام ٣٩٩ كتاباً.

٦. الإمام الباقر عليه السلام ٦٩ كتاباً.

٧. الإمام الصادق عليه السلام ٣٣١ كتاباً.

٨. الإمام الكاظم عليه السلام ٢١١ كتاباً.

٩. الإمام الرضا عليه السلام ٦٥١ كتاباً.

١٠. الإمام الجواد عليه السلام ٦٢ كتاباً.

١١. الإمام الهادي عليه السلام ٧٩ كتاباً.

١٢. الإمام العسكري عليه السلام ٦٦ كتاباً.

١٣. الإمام صاحب الزمان ـ عجّل الله تعالى فرجه الشريف ـ ١١٤٥ كتاباً.

١٤. أهل البيت عليهم السلام ٢٢٧١.

فيكون المجموع ١٤٢٠٦ كتاباً. هذا وقد ذكر انّ عدد الكتب التي أُلفت حول سيرة الرسول وتاريخه صلى الله عليه وآله وسلم قد بلغ ١١٤٢٧ كتاباً.

وقد يتصور انّه مع كلّ هذا الكم الهائل ممّا كتب فما الحاجة إذن إلى تأليف كتب أُخرى حول سيرتهم؟

ويجب أن نؤكد بأنّ حياة الأئمّة والأولياء الإلهيين شأنها شأن عالم الطبيعة فيها جوانب عديدة مهما اكتشفت وكتب عنها، فستظل هناك جوانب مجهولة تحتاج لمن يكتشفها ويميط لثام الغموض عنها.

وفضلاً عن ذلك انّ أكثر ما كتب حول الأئمّة فهو ينحصر في تجميع فضائلهم ومناقبهم ومعجزاتهم وبالتالي في نقل أحداث حياتهم بصورة جافة بعيدة كلّ البعد عن التحليل، ثمّ إنّ الكتب التحليلية التي يمكن أن تلبّي رغبات الباحثين والمحقّقين المعاصرين قليلة جداً، وانّ بعضاً منها لا يتمتع من ناحية طريقة كتابتها وبيانها بالمستوى المطلوب. هذا و من المؤكد انّه قد أُلّف

وكتب عن بعض الأئمّة مثل أمير المؤمنين وسيد الشهداء الحسين بن علي باللغة العربية ــ و ربما الفارسية ــ بما فيه الكفاية غير انّ هناك فراغاً كبيراً للكتب التحليلية العميقة والجامعة فيما يتعلق ببقية الأئمّة وحياتهم ويجب ـ للأسف ـ الاعتراف بهذه الحقيقة المرة، وهي انّه ليس الناس العاديون هم الذين يجهلون حياة الإمام الجواد أو الإمام الهادي أو الإمام العسكري عليهم السلام السياسية والأخلاقية والعلمية فقط، بل انّ أغلب الخطباء والكتّاب يفتقدون المعرفة الكافية بهم أيضاً. ويجب أن يهتم الكتّاب بهذا الأمر أكثر في العصر الحاضر الذي يطلب فيه الجيل الشاب معرفة أوسع بحياة الأئمة السياسية والأخلاقية والاجتماعية، وذلك لأنّ ما يهمنا من تاريخ الرسول والأئمّة المعصومين عليهم السلام ليس هو معرفة نفس حياتهم وسلوكهم بل معرفة نوع الحياة وكيفية سلوكهم الاجتماعي ومواقفهم السياسية والاجتماعية وطبيعة نشاطاتهم الثقافية، فإنّا عند ما نشاهد ومنذ القرون الأُولى من ظهور الإسلام انّ العلماء والمؤرخين المسلمين يكتبون حول حياة نبي الإسلام تحت عنوان سيرة النبي فذلك يكمن فيما ذكرناه.

ذلك انّ ما يفيدنا ويكون لنا مثالاً نقتدي به من حياة الرسول ودعوته ليس هو نفس حياته وتحركه صلى الله عليه وآله، بل نوع دعوته وتحركه وطريقة دعوته وكيفية مواجهته لأعداء الإسلام، انّ كلمة السيرة تعني في اللغة الحركة والمشي ومأخوذة من السير وبمعنى طريقة المشي أيضاً كما في الجلوس والجلسة فانّ الأُولى بمعنى القعود والثانية بمعنى كيفيةالجلوس ونوعه. هذا أوّلاً.

وثانياً: انّ نوع الحياة التي كانوا يعيشونها وكيفية مواقفهم السياسية ـ الاجتماعية يكون واضحاً أكثر عند ما نلم بظروفهم الاجتماعية والسياسية والثقافية الخاصة التي كانوا يعيشون فيها، و ذلك انّنا نعرف بأنّ الأئمة الأطهار كانوا يقيمون طريقة حياتهم الاجتماعية ومواقفهم السياسية وطبيعة نضالهم على أساس

من المحاسبات الدقيقة للظروف والأوضاع السائدة في عصرهم وتقييم الإمكانات والمقتضيات والموانع وتناسباً مع نوع المواجهة مع أعداء الإسلام. وعليه ما دمنا لم نتعرف على الأوضاع والظروف الخاصة التي كانوا يعيشون فيها آنذاك، فلن يكون لسيرة الأئمّة وحياتهم أي مفهوم ومعنى دقيق وواقعي. ولربما نجد من خلال مطالعة تاريخهم مواقف متناقضة لهم، لأنّنا نرىٰ أنّ البعض منهم يصالح العدو، والآخر يقاتل حتى النفس الأخير، وثالثاً يؤسّس جامعة ضخمة، والآخر يقوم بنشاط ثقافي محدود، وخامساً يرفض اقتراح الخلافة عليه، وآخر يقبل باقتراح ولاية العهد و... ولكن عندما نتعرف على طبيعة ظروفهم السائدة في حياة كلّ واحد منهم تغدو مواقفهم المتضادة ذات معنى، ونفهم انّه لم يكن هناك أي تناقض بين مبادئهم ومواقفهم في الواقع وانّهم يتبعون هدفاً واحداً غير انّ طبيعة تحرك كلّ واحد منهم للوصول إلى الهدف المطلوب تختلف حسب المقتضيات الزمنية وظروفها.

إنّ أئمّتنا كانوا يؤكدون كثيراً على عامل الزمن ومعرفته ـ باعتباره أمراً حيوياً ـ فقد قال نبي الإسلام : «رحم الله من حفظ لسانه، وعرف زمانه، واستقامت طريقته».[1]

وضمن حديث طويل قال الإمام الصادق عليه السلام : « ... والعالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس»[2] وحينئذٍ كيف كان هو يجهل هذه القاعدة الحيوية في مواجهة أحداث عصره؟!

يتناول هذا الكتاب الذي بين يديك ـ وهو حصيلة سنوات من البحث لكاتب قدير وصبور، وفي الوقت ذاته عميق ودقيق ـ سيرة الأئمّة الشيعة الأطهار وحياتهم بالتحليل والعرض في ضوء النقاط الهامة المذكورة آنفاً.

١. نهج الفصاحة:١، حرف الراء.

٢. أُصول الكافي:١/ ٢٦.

تقـوم خطة البحـث العامـة في هذا الكتـاب على أساس تقسيـم مراحـل إمامتهم عليهم السلام بعد رحلة رسول الله وحتى رحيل الإمام العسكري ٢٦٠ هـ إلى أربعة مراحل:

١. المرحلة الأُولى هي مرحلة المداراة والمسالمة المصلحيـة للإمام مع الجهاز الحاكم آنذاك، وتشمل هذه المرحلة فترة الخمسـة والعشرين عاماً التي تفصل بين رحيل النبي الأكرم وخلافة أمير المؤمنين.

٢. والثانية هي مرحلة تقلد السلطة لـلإمام وقد استغرقت هذه المرحلة فترة أربع سنوات وتسعة أشهر من خلافة أمير المؤمنين عليه السلام وبضعة شهور من خلافة الإمام الحسن عليه السلام.

٣. المرحلة الثالثة هي مرحلة المحاولات البنّاءة القصيرة زمنياً للقضاء على الحكـم الظـالم وتشكيل الحكـم الإسـلامـي العـادل. وتشمل هـذه المرحلـة فترة العشرين عاماً الـواقعة بين صلح الحسن عليه السلام ـ عام ٤١هـ ـ واستشهاد الحسين عليه السلام ـ عام ٦١هـ . فبعد انعقاد الهدنة الاضطراري بين الإمام المجتبى ومعاوية ـ وهو الذي سمّي صلحاً ـ راحت نشاطات الشبـه سرية للشيعة تبدأ وكانت ترمي إلى الـوصول إلى هـدفهـا الأخير وهو إرجـاع الخلافة إلى أهـل البيـت في الفرصـة المناسبة.

٤. المرحلة الرابعة هي مرحلة مواصلة النشاطات الشبه سرية للشيعة تحت اشراف الأئمّة وقيادتهم ضمن خطة طويلـة الأمد و يمكن تلخيص خصوصيات هذه المرحلة:

ألف: يأس الأئمّة من نجاح الكفاح العسكري.

ب: بـذل الجهود البنّـاءة على أمل إيجاد الحكـم الإسـلامي الـربّاني وتقلّـد السلطة من قبل الأئمّة في المدى البعيد.

ج: التمهيد لذلك من خلال النشاطات الثقـافية وتربية الكوادر الإنسانية

المطلوبة.

د: نشر الفكر الإسلامي الأصيل والكشف عن الانحرافات والبدع.

وقد حاول الكاتب والباحث القدير حجّة الإسلام والمسلمين الشيخ مهدي البيشوائي في كتابه القيم هـذا وبذل قصارى جهده أن يقدّم حول حيـاة كلّ واحد من الأئمّة عرضاً عاماً عـن الجو السياسي والاجتماعي والثقافي الذي أحاط بهم في ضوء الوثائق التاريخية بصورة واضحة، ثمّ بعد ذلك يقدم الخطوط الرئيسية وأكبر نشاطاتهم الإصلاحية التي تتناسب مع ظروفهم تلك.

وبهذه النظرة يضع المؤلف كلّ جانب من جوانب حياة أُولئك الكرام عليهم السلام كـالجانـب السياسي والنضـالي والجانـب الاجتماعـي والجانب الثقـافي والجانـب الروحي والإعجازي و... في موضعه المناسب وقد أثبت أنّ أنسب الأساليب ـ بل هو لا غير ـ هو ما اختار الإمام وسار على ضوئه.

إنّ الكتـاب الـذي بين يـديـك وهو حصيلـة سنين طـويلـة مـن البحـث والتأليف للمؤلف المحترم ونظراً إلى كيفية عرض وتقديم الأبحاث وطريقة الكتابة والاعتماد على المصادر و... يعد مـن بين أقرانه شيئاً جـديداً، ونأمل أن يلبـي رغبة من يشتـاق إلى قراءة حياة الأئمّة وسيرتهم. وأنـا بدوري أشكر الشيـخ البيشوائي الذي عرف بين كتّاب الحوزة العلمية في قم بالعمق والمتابعة والصبر في البحث لما قدمه مـن خدمة ثقافية عظيمة، وأسـأل الله تعالى أن يوفقه أكثر في سبيـل خدمة أهل البيت الأطهار عليهم السلام.

جعفر السبحاني

قم ـ الحوزة العلمية ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

٢٤/ ١١/ ١٣٧٢ هـ.ش ـ المصادف ٢/ رمضان/ ١٤١٤ هـ

أمير المؤمنين

علي بن أبي طالب عليه السلام

* في أحضان النبي
* أوّل من أسلم
* التضحيات الكبيرة
* ممثّل الرسول ومبعوثه الخاص
* على مفترق الطرق المصيري
* القتال في ثلاث جبهات

نبذة مختصرة من حياته عليه السلام

ولـد الإمـام علي في الثالـث عشر مـن رجـب عـام ٣٠ من عـام الفيـل في الكعبة.[١]

أُمّه فاطمة بنت أسد وأبوه أبو طالب.

استشهد في الواحد والعشرين من رمضان عام ٤٠ هجري في مدينة الكوفة ويقع ضريحه الطاهر في النجف الأشرف.

جوانب من حياته عليه السلام

ونظراً إلى أنّ الإمام كان قد ولد قبل بعثة الرسول بعشر سنوات وانّه كان مع الرسول صلى الله عليه وآله في أحداث تاريخ الإسلام جنباً إلى جنب وانّه عاش بعد وفاته صلى الله عليه وآله مدّة ثلاثين عاماً يمكن أن نقسم عمره البالغ ٦٣ عاماً إلى المراحل الخمس التالية:

١. من الولادة إلى بعثة نبي الإسلام.

٢. ومن البعثة إلى هجرته صلى الله عليه وآله إلى المدينة.

٣. ومن هجرة الرسول إلى وفاته صلى الله عليه وآله.

٤. من وفاة الرسول صلى الله عليه وآله حتى بداية خلافته عليه السلام .

٥. فترة خلافته عليه السلام .

---

١. مروج الذهب:٢/ ٣٤٩؛ تذكرة الخواص: ١٠؛ نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار:٧٦.

١ . من الولادة إلى بعثة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله

إننا وكما أشرنا إذا قسمنا مجموع عمر الإمام علي عليه السلام خمسة مراحل فانّ حياته قبل بعثة الرسول تكون المرحلة الأُولى منها ولم يكن عمره في هذه المرحلة يتجاوز العشرة أعوام حيث لم يبلغ الرسول أكثر من ثلاثين عاماً. حينما ولد الإمام والرسول قد بعث في الأربعين إذن لم يكن لعلي عليه السلام عندئذٍ أكثر من عشرة أعوام.

في أحضان النبي صلى الله عليه وآله

عاش علي عليه السلام خلال هذه المرحلة وهي الفترة الحساسة لتكوين شخصيته وتربيته روحياً ومعنوياً في بيت الرسول محمّد صلى الله عليه وآله وفي ظل تربيته.

وقد كتب المؤرّخون الإسلاميون حول ذلك:

وفي إحدى السنوات أصابت قريش أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثير، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله للعباس ـ وكان من أيسر بني هاشم ـ: إنّ أخاك أبو طالب كثير العيال فانطلق بنا فلنخفف عنه من عياله آخذ منهم واحداً، وتأخذ واحداً فنكفيهما عنه، فوافق العباس؛ فانطلقا حتى أتيا أبا طالب، وفاتحوه بالأمر فوافق أبو طالب بهذا الاقتراح، فأخذ الرسول علياً فضمه إليه، وأخذ العباس جعفراً، فلم يزل علي عليه السلام مع رسول الله في بيته حتى بعثه الله نبياً، فاتّبعه علي فأقرّبه وصدقه.[1]

قال رسول الله صلى الله عليه وآله بعد أن أخذ علياً من أبيه: اخترت من اختار الله لي عليكم علياً.[2]

---

١ . يمكن الرجوع إلى المصادر التالية: الكامل في التاريخ، ٢/ ٥٨؛ السيرة النبوية، ابن هشام:١/ ٢٦٢؛ تاريخ الطبري:٢/ ٢١٣؛ شرح نهج البلاغة:١٣/ ١١٩.

٢ . مقاتل الطالبيين:١٥.

وحيث قد قضى النبي محمّد ﷺ طفولته بعد وفاة عبد المطلب في بيت عمّه أبي طالب ونشـأ وترعرع تحت رعايته ووصـايته أراد أن يكافئه هو وزوجتـه فاطمة بنت أسد بـرعاية وتربية أحـد أبنائهما، وكان ﷺ يطمـح إلى علي عليه السلام وقد أشـار علي عليه السلام زمن خلافته في الخطبة القاصعة إلى هذه الفترة التربوية وقال:

«وقـد علمتـم مـوضعي مـن رسـول الله بـالقـرابـة القريبـة والمنـزلـة الخصيصة. وضعني في حجره وأنا ولد يضمّني إلى صدره، ويكنفني في فـراشه ويمسّني جسده، ويشمُّني عـرفه. وكـان يمضغ الشيء ثـم يلقمنيـه...، ولقد كنـت أتبعـه اتباع الفصيـل أثـر أُمّـه، يرفـع لي في كلّ يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاقتداء به».[1]

علي عليه السلام في غار حراء[2]

كان رسول الله ﷺ ـ قبل أن يبعـث ـ يجاور في غار حراء من كـلّ سنة شهراً وكان يطعـم في ذلك الشهر مـن جاءه من المساكين، فـإذا قضىٰ جواره مـن حراء كان أوّل ما يبـدأ به إذا انصرف أن يأتي المسجد الحرام قبل أن يدخـل بيته فيطوف حول الكعبة سبعاً أو ما شاء الله من ذلك ثمّ يعود إلى بيته.[3]

وقد دلت الروايات ونظراً إلى اهتمامه الكبير به على أنّ رسول الله كان يأخذ عليّاً معـه إلى غار حـراء و حينما هبط ملـك الوحـي على النبي لأوّل مـرّة وكرّمـه بالرسـالة كان علي بجانبه في ذلك الغـار، وكان ذلك اليوم من نفـس ذلك الشهر الذي كان الرسول يذهب فيه إلى جبل حراء للعبادة.وقد قال الإمام علي عليه السلام حول

---

١ .نهج البلاغة، صبحي الصالح، الخطبة ١٩٢.

٢ حراء جبل يقع في شمال مكة وغار حراء يقع في قمته.

٣. السيرة النبوية، ابن هشام:١/ ٢٥٢.

ذلك في الخطبة القاصعة:

«ولقد كان يجاور في كلّ سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري...ولقد سمعت رنّة الشيطان حين نزل الوحي عليه ﷺ فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنّة؟ فقال: هذا الشيطان قد أيس من عبادته، إنّك تسمع ما أسمع، وترى ما أرىٰ، إلاّ أنّك لست بنبي ولكنّك لوزير وانّك لعلى خير».[1]

قد يكون هذا الكلام مرتبطاً بعبادة الرسول ﷺ في حراء في فترة ما بعد البعثة غير انّ الروايات السابقة وانّ عبادته في حراء كانت قبل البعثة غالباً، تدلّ جميعها على أنّ هذا الكلام يتعلق بفترة ما قبل البعثة.

وعلى أية حال فانّ روح علي عليه السلام الطاهرة وتوجه واهتمام الرسول الدائم أوجبا أن يرى ويسمع بقلب يقظ وبصر ثاقب وأُذن صاغية أشياء وأصواتاً من غير المقدور رؤيتها وسماعها للناس العاديين وهو لمّا يزل يعيش فترة الطفولة. وكتب ابن أبي الحديد المعتزلي في شرح نهج البلاغة: قد ورد في كتب الصحاح انّه حينما أكرم الله محمّد بالرسالة وهبط عليه جبرئيل لأوّل مرّة كان علي معه.[2]

من البعثة إلى هجرته ﷺ إلى المدينة

تشكل هذه الفترة (من البعثة إلى هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة) المرحلة الثانية من حياة الإمام علي عليه السلام وهي فترة زمنية استغرقت ثلاثة عشر عاماً، وتشتمل هذه الفترة الزمنية على مجموعة كبيرة من الخدمات والجهود المتألّقة

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

٢. شرح نهج البلاغة :١٣/ ٢٠٨.

والأعمال العظيمة والبـارزة التي قدمها الإمـام في سبيل ازدهار واعتـلاء الإسلام، وهو مالم يتمتع به غيره من الشخصيات في تاريخ الإسلام.

أوّل من أسلم

إنّ أُولى مفـاخر الإمـام علي عليه السلام في هـذه المرحلـة هـو سبقـه في الإسـلام وتقدّمه، أو بعبارة أصحّ تجاهره بالإسلام القديم، لأنّه عليه السلام كان موحداً منذ نعومة أظفاره ولم يتلوث بالوثنية بتاتاً[1] حتى يكون إسلامه عبارة عن الرجوع عن عبادة الأصنام كما هو الحال عند كافة الصحابة.

إنّ للسبق في الإسلام قيمة عوّل عليها القـرآن الكريم وأشاد بها، وقد أعلن صراحة بأنّ للسابقين في الإسلام منزلة وقيمة هناك حيث يقول:

﴿وَالسّابِقُونَ السّابِقُونَ* أُولئِكَ الْمُقَرَّبُون﴾ .[2]

إنّ اهتمام القرآن الخاص بموضوع السبق في الإسلام والتقدّم فيه بقدر من الأهمية انّـه عدّ الذين آمنـوا قبل فتح مكـة وقدّموا أنفسهم وأمـوالهم في سبيل الله أفضل مـن الذين آمنـوا وجاهدوا بعد الفتـح، فكيف بالـذين آمنوا وأسلمـوا قبل الهجرة وفي السنين الأُولى من ظهور الإسلام هناك حيث يقول: ﴿لاٰ يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفَتـح وَقاتَلَ أُولئِكَ أَعظَمُ دَرَجةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِـنْ بَعْدُ وَقاتَلوا وَكلاً وَعَدَ اللهُ الحُسنىٰ﴾ .[3]

---

١. مناقب الخوارزمي:١٨.

٢. الواقعة/ ١٠ـ١١

٣. الحديد/ ١٠.

والسبب في أفضلية إيمان المسلمين قبل فتح مكة في العام الثامن من الهجرة هو انّهم آمنوا في الوقت الذي لم يبلغ الإسلام ذروة عظمته في جزيرة العرب ولم يزل مركز الوثنيين وعبدة الأصنام ــ أي مكة ــ قائماً كقلعة صامدة والأخطار تهدد نفوس وأموال المسلمين من كلّ حدب وصوب.

صحيح انّ المسلمين كانوا بعد مهاجرتهم إلى المدينة وإسلام الأوس والخزرج والقبائل المتواجدة في أطراف المدينة يتمتعون بتقدّم وأمان نسبيين، وانّهم كانوا ينتصرون في كثير من نزاعاتهم العسكرية غير انّ الخطر لمّا يرتفع بعد بشكل كامل، فإذا كان الإيمان بالإسلام وتقديم النفس والمال في هذه الظروف يتمتعان بقيمة وتقدير خاص، فانّه سيكون للتجاهر بالإيمان والإسلام في بداية دعوة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حيث لم تكن هناك قدرة غير قدرة قريش وسلطة غير سلطة الوثنيين قيمة أكبر وأكثر من ذلك بالتأكيد، ومن هنا كان السبق والتقدّم في الإسلام يعد مفخرة من المفاخر الكبيرة بين الصحابة.

وبهذا يتضح جيّداً مدى قيمة تقدم الإمام علي عليه السلام وسبقه في الإسلام.

أدلّة سبق الإمام علي وتقدّمه في الإسلام

إنّ أدلّة سبقه وتقدّمه في الإسلام كثيرة في الكتب الإسلامية لدرجة انّ سردها ونقلها جميعاً خارج عن نطاق هذا الكتاب وسعته، ولكنّنا نورد بعضاً منها على سبيل المثال:

أ: قد صرّح نبي الإسلام و قبل الكل بتقدّم علي عليه السلام وسبقه، وقال هو بين أصحابه: «أوّلكم وروداً عليّ الحوض أوّلكم إسلاماً علي بن أبي طالب». [1]

١. الاستيعاب: ٣/ ٢٨؛ شرح نهج البلاغة: ١٣/ ١١٩؛ المستدرك على الصحيحين: ٣/ ١٧.

ب: قد نقـل العلماء والمحدّثون: استنبـئ النبي يـوم الاثنين وصلى عليٌّ يوم الثلاثاء.[١]

ج: يقول الإمام في خطبة القاصعة: «ولم يجمـع بيت واحد يومئذٍ في الإسلام غير رسول الله وخديجة وأنا ثالثهما أرىٰ نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة».[٢]

د: ويذكر الإمام حول تقدّمه وسبقه في الإسلام بهذا النحو: «اللّهـمّ إنّي أوّل من أناب وسمع وأجاب ولم يسبقني إلاّ رسول الله بالصلاة».[٣]

هـ: قال علي ﷺ: «أنا عبد الله وأخو رسوله، وأنا الصديق الأكبر، لا يقولها بعدي إلاّ كاذب مفترى، صلّيت مع رسول الله قبل الناس سبع سنين».[٤]

و: قال عُفيف بن قيس الكندي:

«كنت في الجاهلية عطّاراً، فقدمت مكـة، فنزلت على العباس بن عبد المطلب، فبينا أنا جالس عنـده أنظر إلى الكعبة وقد تحلقت الشمس في السماء أقبل شـاب كأنّ وجهـه القمر حتـى رمى ببصره إلى السماء فنظر إلى الشمس ساعة، ثمّ أقبل حتـى دنا من الكعبة فصف قدميه يصلي، فخرج على أثره فتى كأنّ وجهه صفيحة يمانية فقام عن يمينه، فجاءت امرأة متلففة في ثيابها فقامـت خلفهما، فأهوى الشاب راكعاً فركعا معاً، ثمّ أهوى الأرض ساجداً فسجدا معه، فقلت للعباس: يا أبـا الفضـل أمر عظيـم! فقـال: أمـر والله عظيـم! أتدري مـن هـذا الشاب؟ قلت: لا، قال: هذا ابن أخي، هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، أتدري مـن هذا الفتى؟ قلت: لا، قال: هـذا ابن أخي علي

١. الاستيعاب:٣/ ٣٢؛ الكامل في التاريخ:٢/ ٥٧.
٢. نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢.
٣. نفس المصدر: الخطبة ١٣١.
٤. تاريخ الطبري:٢/ ٣١٢؛ الكامل في التاريخ:٢/ ٥٧؛ المستدرك:٣/ ١١٢.

بن أبي طـالـب، أتـدري مـن هذه المرأة؟ قلـت: لا، قـال: هذه ابنـة خويلد خديجة زوج محمّد هذا، وانّ محمداً هذا يذكر انّ إلهه إله السماء والأرض أمره بهذا الدين... والله ما أعلـم على وجه الأرض كلّها أحداً على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة».[1]

ويدلّ هـذا النص بوضوح على أنّـه لم يؤمن بـدعوة نبيّ الإسلام في البـداية وباستثناء زوجته خديجة سوى علي عليه السلام.

حامية رسول الله وخليفته

امتنع نبـي الإسلام مـدة ثلاث سنوات عـن الدعوة العـامة العلنيـة، وكان يـدعو فقـط وفي لقـاءات خاصـة الشخصيـات التي كـان يشعـر بأنّها مستعـدة للإسلام، وبعد تلك الثلاثة أعوام هبط ملـك الوحي وأبلغ أمر الله تعالى بأن يبدأ الرسول دعوته العامة من خلال دعوته أهله وعشيرته وهكذا كان أمر الله:

﴿وَأَنْذِرْ عَشيـرَتَكَ الأَقْـرَبين* وَٱخْفِـضْ جَناحَـكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَـكَ مِنَ الْمُؤْمِنينَ * فَإِنْ عَصَوكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمّا تَعْمَلُونَ﴾ .[2]

والسبب في اختيار دعوتـه للعشيرة مبدأً لانطلاق دعوته العامـة هو انّه إذا لم يؤمن بـالقائد الإلهي أقرباءه وعشيرته ولم يتبعـوه، فلن يكون هناك تأثير لـدعوته على البعداء عنـه، ذلك انّ لـلأقربـاء معرفة بخفـايا شخصيتـه وصفاتـه النفسية الحسنة والسيئة جيداً، ومن هنا كان إيمانهم دلالة على نزاهة صاحب الدعوة، كما أنّ ابتعاد أكثرهم وتخلّفهم عنه يدلّ تجرده من صدقه ونزاهته في ما يدعيه، ولذلك

١. راجع شرح نهج البلاغة:١٣/ ٢٢٦؛ تاريخ الطبري:٢/ ٢١٢ مـع اختلاف يسير، وقد ذكر ابن أبي الحديد ذلك عن عبد الله بن مسعود أيضاً وقد شاهد هو خلال سفره إلى مكة هذا المشهد أيضاً.

٢. الشعراء/ ٢١٤ـ٢١٦.

أمر النبي صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام بأن يعدّ وليمة غداء ويدعو خمسة وأربعين وجيهاً من وجهاء بني هاشم إليها وأن يعد طعاماً من اللحم مع اللبن. تسارع الجميع في الحضور لدى النبي صلى الله عليه وآله في الوقت المحدد وبعد تناول الطعام حالت أحاديث عمه أبي لهب وتهكّمه دون إعداد المجلس لفتح الحديث حول أهدافه، وانتهت الضيافة بلا جدوىٰ، وترك الضيوف بيته صلى الله عليه وآله، فقرر النبي أن يعد وليمة أُخرى في اليوم التالي وأن يدعوهم جميعاً ما عدا أبا لهب، وأعدّ عليّ الطعام وفقاً لأمر النبي باللحم مع اللبن مرّة أُخرى، ودعا كبار القوم وشيوخهم لتناول الغذاء ولاستماع كلمة النبي صلى الله عليه وآله وبعد حضورهم في الموعد المحدد وتناول طعامهم افتتح النبي صلى الله عليه وآله كلمته قائلاً: «إنّي والله ما أعلم أنّ شاباً في العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به، إنّي قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه فأيّكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟» قال هذه الكلمة ووقف قليلاً ليرى من يجيب دعوته، و في هذه الفترة ساد الحضور صمت عميق ممزوج بالحيرة والدهشة ناكسين رؤوسهم، وفجأة كسر علي عليه السلام ـ و لم يتعد عمره ١٤ عاماً[١]ـ ذلك الصمت ونهض ناظراً إلى الرسول، وقال: أنا يا رسول الله أكون وزيرك عليه، ثمّ مدّ يده للرسول صلى الله عليه وآله ليكون ذلك عهداً للتضحيات.

وفي هذه الأثناء أمر الرسول علياً بالجلوس وأعاد ما قاله صلى الله عليه وآله مرّة أُخرى، وأعاد علي عليه السلام إعلانه عن استعداده مرّة أُخرى، وأمره الرسول بالجلوس أيضاً، وفي المرة الثالثة لم يقم كما في السابق أحد سوى علي عليه السلام . فهو الوحيد الذي كان يقوم ويعلن عن حمايته عن هدف رسول الله المقدس، و في هذه اللحظات ضرب بيده على يد علي و قال في حقّه وبحضور وجهاء بني هاشم المقولة الشهيرة:

١. راجع حول سنّ علي عليه السلام حينما أعلن عن نصرته لرسول الله صلى الله عليه وآله وحين إسلامه، شرح نهج البلاغة:١٣/ ٢٣٤ـ٢٣٥.

«هذا عليٌّ أخي ووصيي وخليفتي فيكم».[١]

وهكذا يتم ترشيح أوّل وصي لرسول الإسلام على يد آخر السفراء الإلهيين في بداية دعوته التي لم يستجب لها حينها إلاّ نفر قليل.

وهنا يمكن أن نقيّم وبوضوح منزلة الإمامة في الإسلام وأهميتها من خلال انّ النبي أعلن عن نبوّته وإمامة علي عليه السلام في يوم واحد وانّه اليوم الذي قال فيه: أيّها الناس إنيّ رسول الله، هو نفس ذلك اليوم الذي قال فيه بأنّ علياً وصيي وخليفتي، وأن نلتفت إلى هذه الحقيقة وهي انّ هاتين المنزلتين النبوّة والإمامة لا تفترقان عن بعضهما، وانّ الإمامة امتداد لمنهاج الرسالة.

التضحية الكبيرة

إبّان حصول حلف العقبة الثانية في السنة الثالثة عشرة ليلة الثالث عشر من ذي الحجة بين رسول الإسلام وبين أهل يثرب الذي قد تم ضمنه استدعاؤه إلى تلك المدينة ووعدهم له بنصرته والدفاع عنه ومن اليوم التالي الذي بدأ المسلمون فيه بالهجرة تدريجاً عرف قادة قريش بأنّه تمّ اعداد مركز جديد لأجل نشر الدعوة الإسلامية في يثرب، ولهذا قد شعروا بالخطر لانّهم يخشون أن ينتقم منهم رسول الله بعد كلّ ذلك الأذى الذي آذوه به هو وأتباعه، وحتى لو فرض انّه لا يريد محاربتهم فهو يشكل خطراً لتجارة قريش التي تمر بقوافلها على مقربة من يثرب.

ولمواجهة هذا النوع من الخطر اجتمع أُولئك القادة نهاية شهر صفر سنة أربعة عشر من البعثة في دار الندوة للتوصل إلى حلّ لذلك.

١. تاريخ الطبري:٢/ ٢١٧؛ الكامل في التاريخ:٢/ ٦٣؛ شرح نهج البلاغة:١٣/ ٢١١.

اقترح بعض الحاضرين أن ينفى الرسول أو يسجن غير انّ هذا الاقتراح قد رفض وبالتالي قرّروا قتله، ولكن لم يكن قتل رسول الله بالأمر البسيط، لأنّ بني هاشم لن يدعوا الأمر يفوت بسلام وسيطالبون بثأره.

وقد قرروا أخيراً أن يعدّوا من كلّ قبيلة رجلاً شاباً حتى يهجموا على محمّد ﷺ هجمة رجل واحد ويقطعوه إرباً إرباً في فراشه، و في هذه الحالة لن يكون القاتل واحداً و لن يستطيع بنو هاشم الأخذ بثاره، لأنّهم يعجزون عن محاربة جميع القبائل ويرتضون لا محالة بقبول الفدية وتنتهي المسألة، اختارت قريش لتنفيذ خطتها الليلة الأُولى من ربيع الأوّل وقد ذكر الله تعالى فيما بعد جميع خططهم الثلاث وقال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَو يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الماكِرين﴾.[1]

وإثر قرار قريش هذا أطلع ملك الوحي رسول الله على خطة المشركين المشؤومة، وأبلغه أمر الله بأن اترك مكة واتّجه نحو يثرب. وهنا كان على النبي ﷺ أن يضللهم ويخفي أثره حتى يمكنه الخروج من مكة، ولأجل ذلك كانت هناك حاجة إلى شخصية مضحية تبيت في فراشه ﷺ، كي يتصوّر المهاجمون بأنّه ﷺ مازال هناك، و بالتالي يركزون على البيت ويغفلون عن سيطرة الطرق ومراقبتها، ولم تكن هذه الشخصية سوى علي ، ولهذا كشف رسول الله ﷺ عن خطة قريش لعلي وقال: «امضي إلى فراشي ونم في مضجعي والتف في بردي الحضرمي ليروا أنّي لم أخرج» فأطاع علي ما أمر به، وحاصر جلاوزة قريش ومرتزقتهم بيت رسول الله وداهموه بسيوف مسلولة، فنهض عليٌّ من الفراش.

أُولئك الذين كانوا يعتقدون إلى تلك اللحظة بنجاح ودقة خطتهم مئة بالمئة ظلّوا حيارى محبطين ينظرون إليه قائلين: أين محمّد؟ فأجاب: «هل

---

١. الأنفال/ ٣٠.

أودعتموه عندي لتسألوني عنه؟ قمتم بفعل اضطره إلى ترك البيت».

وفي هذه الأثناء هاجموا علياً عليه السلام ووفقاً لنقل الطبري آذوه وسحبوه إلى المسجد الحرام، وبعد احتجاز مؤقت أطلقوا سراحه، وانطلقوا باتجاه المدينة يقتفون أثر رسول الله في حين كان صلى الله عليه وآله مختبئاً في غار ثور.[١]

وقد خلّد القرآن المجيد تضحية علي عليه السلام العظيمة هذه في التاريخ وقدمه ضمن آية على أنّه من الذين يضّحون بأنفسهم في سبيل الله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبادِ﴾ .[٢]

قال المفسرون: قد نزلت هذه الآية حول التضحية العظيمة لعلي عليه السلام ليلة المبيت.[٣]

وقد احتج نفس الإمام عليه السلام في الشورى السداسية التي تشكّلت بأمر عمر لاختيار الخليفة بهذه الفضيلة الكبيرة على أصحاب الشورى وقال: نشدتكم بالله هل فيكم أحد اضطجع على فراش رسول حين أراد أن يسير إلى المدينة ووقاه بنفسه من المشركين حين أرادوا قتله غيري؟ قالوا: لا.[٤]

---

١. السيرة النبوية، ابن هشام :٢/ ١٢٤ـ١٢٨؛ الكامل في التاريخ:٢/ ١٠٢، ١٣٩٩هـ. ق. بيروت، دار صادر؛ الإرشاد، الشيخ المفيد: ٣٠؛ المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيشابوري:٣/ ٤، بيروت، دار المعرفة؛ تاريخ الأمم والملوك:٢/ ٢٤٤، بيروت، دار القاموس الحديث.

٢. البقرة/ ٢٠٧.

٣. شرح نهج البلاغة، تحقيق أبو الفضل إبراهيم:١٣/ ٢٦٢، ١٣٧٨هـ.ق؛ دلائل الصدق، حسن المظفر:٢/ ٨٠، و ينقل المرحوم المظفر عن المفسرين والعلماء البارزين لأهل السنّة مثل الثعلبي والقندوزي والحاكم بأنّ هذه الآية نزلت في علي عليه السلام.

٤. الخصال، الشيخ الصدوق، تحقيق الغفاري:٢/ ٥٦٠، ١٤٠٣هـ.ق؛ الاحتجاج:١/ ٧٥، المرتضوية، النجف، ١٣٥٠هـ.ق.

٣. من هجرة الرسول إلى وفاته صلى الله عليه وآله

علي عليه السلام أخو رسول الله

إنّ الإخوة الإسلامية والعلاقة الأخوية تعد مبدأً من المبادئ الاجتماعية للإسلام، وقد حاول نبي الإسلام وبأنحاء مختلفة ومتنوعة أن يوجد ويقوي هذه العلاقة، فإنّه وبعد أن دخل المدينة قرر أن يبرم عقد الأُخوّة والأخاء بين المهاجرين والأنصار من المسلمين، ولهذا الهدف قام يوماً من بين جموع المسلمين وقال: «**تآخوا في الله أخوين أخوين**» ثمّ تصافح المسلمون بعدها مصافحة الاخوة، وهكذا استحكمت الوحدة واشتد الترابط بينهم.

وقد روعي طبعاً في هذا الحلف التناسب بين المتآخين من ناحية الإيمان والفضيلة وإسلامية الشخصية ويتّضح هذا جيداً بالتدقيق في طبيعة الشخصيات التي تآخت فيما بينها، و بعد أن حصل كل واحد على أخيه من الحاضرين جاء علي عليه السلام وكان قد بقي وحده إلى رسول الله والدموع تفيض من عينيه وقال: «ما آخيت بيني و بين أحد» قال صلى الله عليه وآله:«أنت أخي في الدنيا والآخرة».[1] ثمّ آخى بينه صلى الله عليه وآله وبين علي عليه السلام .[2]

هذا الأمر يعكس درجة العظمة والفضيلة التي يتمتع بها عليٌّ جيداً، ويوضح مدى قرابته من رسول الله.

في الغزوات

تخلّلت حياة علي عليه السلام منذ هجرة الرسول وحتى وفاته صلى الله عليه وآله أحداث كثيرة

١. المستدرك على الصحيحين:١٣/ ١٤.

٢. الاستيعاب في معرفة الأصحاب:٣/ ٣٥.

والتي منها بشكل خاص تضحياته العظيمة في الغزوات وجبهات الحرب وقد كان لنبي الإسلام بعد هجرته إلى المدينة سبعٌ وعشرون غزوة[1] مع المشركين واليهود والمتمردين، وقد شارك عليّ عليه السلام في ست وعشرين منها، ولم يشارك في غزوة تبوك للظروف الحرجة والحسّاسة التي كانت تنذر بتدبير مؤامرة من قبل المنافقين عند غياب رسول الله في مركز الحكومة الإسلامية، وبقى فيها بأمر من الرسول صلى الله عليه وآله ومن حيث إنّ دراسة كلّ هذه الغزوات تفيض عن سعة هذا الكتاب، نعرض تالياً وعلى سبيل المثال دور علي عليه السلام في أربع ساحات من ساحات الجهاد الكبيرة في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله.

الف: في غزوة بدر

نحن نعلم بأنّ غزوة بدر كانت أوّل حرب بين المسلمين والمشركين بكلّ ما تعنيه كلمة الحرب من معنى، ولهذا السبب كانت تعد أوّل اختبار عسكري بين الجيشين، و من هذه الناحية كان الانتصار فيها هامّاً للغاية.

اندلعت هذه الحرب في العام الثاني من الهجرة. وكان قد علم رسول الله بأنّ هناك قافلة تجارية لقريش يترأسها أبو سفيان عدو الإسلام القديم آتية من الشام تريد مكة، وحيث إنّها تمر من طريق على مقربة من المدينة انطلق رسول الله ومعه ٣١٣ نفراً من المهاجرين والأنصار باتجاه بدر، وهو طريقها المعتاد بهدف السيطرة عليها. وقد كان دافع الرسول من هذه الحركة هو أن تعلم قريش بأنّ خطها التجاري في متناول أيدي القوات الإسلامية وإذا ما منعت من انتشار الدعوة الإسلامية وحرّية المسلمين فسوف ينقطع شريان حياتهم الاقتصادية بيد

١. يصطلح مؤرّخو السيرة على إطلاق الغزوة على تلك الحروب التي خاضها الجيش الإسلامي، تحت إمرة الرسول صلى الله عليه وآله.

تلك القوات. ومن ناحية أُخرى فإنّ أبا سفيان من حيث إنّه كان على علم بانطلاق المسلمين أبعد القافلة بسرعة عن منطقة الخطر من خلال سلوكه طريقاً جانبياً يقع على ضفاف البحر الأحمر، وتزامناً مع ذلك طلب التعزيزات من قادة قريش في مكة، وعلى أثر استنجاده بقريش انطلق نحو ٩٥٠ إلى ١٠٠٠ نفر من محاربيها باتجاه المدينة، وواجه هذا العدد المسلمين في ١٧ رمضان في حين كانت قوى الشرك ثلاثة أضعاف قوى الإسلام، وفي بداية الحرب تقدّم باتجاه وسط ساحة الحرب ثلاثة من شجعان قريش باسم: عتبة، وهو أبو هند زوجة أبي سفيان، وأخوه الأكبر شيبة، وابنه الوليد يطلبون أكفاءً لهم وأقرانهم، ينادون هل من مبارز؟ وفي هذه الأثناء دخل الساحة ثلاثة من شجعان الأنصار لمبارزتهم بعد أنّ عرّفوا أنفسهم فأحجم أبطال قريش من مبارزتهم، ونادوا: يا محمد! أرسل لمبارزتنا من هم أكفّاء لنا وأقراننا منّا. وحينئذٍ أمر رسول الله عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب و حمزة بن عبد المطلب وعلياً عليه السلام ليبارزوهم، فاتجه هؤلاء المجاهدون الشجعان الثلاثة إلى ساحة الحرب وعرّفوا أنفسهم، فقبلوهم للمبارزة، وقالوا: إنّهم أكفاء كرام.

تواجه من بين هؤلاء الثلاثة حمزة مع شيبة، وعبيدة مع عتبة، وعلي (وكان أصغرهم) مع الوليد خال معاوية وبدأ القتال، قتل عليٌّ وحمزة قرينيهما بينما كان القتال مستمراً بين عبيدة وعتبة ولم ينتصر أحد منهما على الآخر، ولهذا انطلق علي وحمزة بعد قتل صاحبيهما لمساعدة عبيدة وقضوا على عتبة أيضاً.[١]

وقد كتب علي في إحدى رسائله إلى معاوية مشيراً إلى هذا الحدث: وعندي السيف الذي اعضضته بجدّك وخالك وأخيك في مقام واحد.[٢]

---

١. السيرة النبوية، ابن هشام: ٢/ ٢٧٧؛ الكامل في التاريخ: ٢/ ١٢٥.
٢. نهج البلاغة، الرسالة ٦٤ وقد ذكر ذلك في الرسالة ٢٨ أيضاً.

واندلعت الحرب الجماعية بعد انتصار ثـلاثة من أبطال الإسلام الكبار على شجعان قـريش، وانتهـت بهزيمة سـاحقة لجيـش المشركين لدرجـة انّه قـد تأسّر سبعون منهم، وكان قد هلك أكثـر من نصف المقتولين بضربات سيف علي عليه السلام في هذه الحرب، وقـد ذكر المرحـوم الشيخ المفيـد ثلاثـة وثلاثين شخصـاً من قتلى المشركين في غزوة بدر وكتب:«وقد أثبتت رواة العامة الخاصة معاً أسماء الذين تولّى أمير المؤمنين قتلهـم ببـدر من المشركين سـوى مـن اختلـف فيه واشرك هـو فيـه غيره.[1]

ب: الشجاعة الفريدة في غزوة أُحد

أُصيبت قريش أثـر هزيمتها في بدر بإحباط نفسي شديـد، ولأجل تعويض هذه الخسـارة والهزيمة الكبيرة والأخذ بثأر قتـلاها قرّروا أن يهاجموا المدينـة بقوات مجهزة كبيرة، ونقـل رجال رسول الله وعيـونه في قريش قـرارها حول هـذا الموضوع، فشكّل صلى الله عليه وآله لجنة عسكـرية لمواجهـة العدو، واقترح بعـض من المسلمين بـأنّه مـن الأفضل للجيش الإسلامي أن يواجـه العدو خارج المدينة، وانطلق رسول الله صلى الله عليه وآله برفقـة ألف مقاتـل تاركاً المدينة متجهـاً نحو شمالها، وتخلّف عنهـم خلال المسير ثلاثمائة رجـل من أتبـاع عبد الله بـن أبيّ المنافـق الشهير أثر تثبيطـه وتحريضه لهم فتنزّل عـدد القوات الإسـلامية إلى سبعمائة مقاتـل،وفي صباح اليـوم السابـع من شوال من السنة الثالثة للهجرة اصطف الجيشان متقابلين في وادي جبل أُحد.

وقبل انـدلاعها درس نبي الإسـلام [وبإلقاء نظـرةعسكرية] سـاحة الحرب وتفحّصها، وقـد أثار انتبـاهه منفذ كـان من الممكن أن ينفـذ منه العـدو ويهاجم

---

١. الإرشاد: ٣٩.

المسلمين من الخلف خلاله، ولذلك وجّه شخصاً يدعى عبد الله بن جبير مع خمسين رامياً وأقرّهم على تلٍ حتى يمنعوا الاختراق المحتمل من ذلك المنفذ، وأمرﷺ بأن لا يترك ذلك المنفذ الحساس بأي حال من الأحوال سواء انتصر المسلمون أم انهزموا، ومن ناحية أُخرى كان لحامل اللواء دور كبير جداً في حروب ذلك العصر لذلك كانوا يعطون الراية أو اللواء لرجل قوي وشجاع، فانّ صمود وثبات حامل الراية وترفرفها في ساحة الحرب يبعث الطاقة في المقاتلين، وعلى العكس فإنّ موت حاملها وانتكاس الراية يسبب هبوطاً معنوياً في نفوسهم، ولهذا السبب يتم ترشيح مجموعة من أشجع المقاتلين قبل بدء الحرب لتولّي حمل الراية للحد من الهبوط النفسي للجنود.

قامت قريش بنفس هذه العملية في هذه الحرب واختارت حملة رايات من قبيلة بني عبد الدار المشهورة بالشجاعة غير انّ أصحاب رايتهم كانوا يلقون مصرعهم الواحد تلو الآخر على يد علي عليه السلام ، وكانت انتكاسات الراية المتتالية تبعث اليأس والعجز النفسي في نفوس مقاتلي قريش فلاذوا بالفرار.

ونقل عن الإمام الصادق عليه السلام بأنّه قال: «كان أصحاب اللواء يوم أُحد تسعة قتلهم علي بن أبي طالب عن آخرهم».[1]

وقال ابن الأثير: «وكان علي هو الذي هزم أصحاب لواء قريش».[2]

وعلى ما رواه المرحوم الشيخ الصدوق قد أكد عليٌّ عليه السلام في احتجاجاته على الشورى السداسية التي تشكّلت بهدف تعيين الخليفة بعد موت عمر على هذه النقطة، وقال:

١. الإرشاد: ٤٧.

٢. الكامل في التاريخ: ٢/ ١٥٤.

«نشدتكم بـالله هل فيكم أحد قتـل من بني عبدالـدار تسعة مبارزة غيري كلّهم يأخذ اللـواء، ثمّ جاء صوأب مولاهم كأنّـه قبة مبنية قد ازبدّ شدقاه واحمرت عيناه فاتقيتمـوه وحدتم عنه، وهو يقول: والله لا أقتل سـادتي إلاّ محمداً، فخـرجت إليه فـاختلفت أنـا و هو ضربتين فقطعته بنصفين وبقيت رجلاه وعجزه وفخده، غيري؟

قالوا: اللهم لا».[1]

وقد صدق كلّ أصحاب الشورى كلام علي عليه السلام.

وعلى أية حال هزم جيش قريش وأراد مقاتلوا فرقة عبد الله بن جبير مغادرة موقعهم بمجرد مشاهدتم لهذا المشهد بدافع تجميع الغنائم، فذكّرهم عبد الله بأمر الرسـول فلم يعبأوا بـه، وانحدر منهم مـا يزيد عـن ٤٠ من التل لجمـع الغنائم، وبقي عبد الله بن جبير مع ما يقل عن عشرة مقاتلين هناك.

وفي هذه الأثنـاء كان خالد بـن الوليد مع مجمـوعة من الفرسـان يترصّدون للمسلمين، وحيث قـد رأى ما هـم عليه هـاجمهم، وبعـد القضاء عليهـم واصل هجومـه على المسلمين من الخط الخلفـي، وقد تـزامن هـذا مع رفـرفة رايتهـم بيد إحدى نسـاء قريـش وتدعـى عمرة بنـت علقمة، وكـنّ قد أتين لتشجيـع جيش المشركين في ساحـة القتال، ومنذ ذلـك الحين تغيّرت معادلة الحرب كليـة واختل تنـاسق وانسجـام المسلمين العسكري والقتـالي، وانقطـع الاتصال بين المقـاتلين والقيادة وانهزم المسلمون، واستشهد حوالي سبعين مقاتلاً من بينهم: حمزة بن عبد المطلب ومصعب بـن عمير أحـد حملة رايـات الجيش الإسـلامـي و من مجاهـدي الإسلام.

---

١. الخصال: ٥٦٠.

ومن ناحيـة أُخرى هبطت معنويات كثير من المسلمين إذا أشـاع العدو نبأ قتل رسـول الله في ساحة القتال وتـراجع أغلب المسلمين أثر الضغـط العسكري الجديد لجيش المشركين، وتفرّقـوا، ولم يصمد إلى جانب الرسول سـوى عدد قليل، وتوالـت اللحظات الحرجة والمصيرية في تـاريخ الإسلام هنـاك حيث ينجلي دور علي عليه السلام الكبير، إذ كان يقارعهم بسيفه بشجاعة وببسالة لا مثيل لها مع رسول الله جنباً إلى جنب يحمي الوجود المقدس لقائد الإسلام العظيم من الهجمات المتوالية لكتائب المشركين الهائلة.

وكتب ابن الأثير في تاريخه:

«فلمّا قتلهم أبصر النبـي صلى الله عليه وآله جماعة مـن المشركين، فقال لعلي: احمل عليهم ففـرّقهم وقتّـل فيهم، ثـمّ أبصر جماعة أُخـرى فقال لـه: احمل عليهم، فحمل عليهـم وفرّقهم وقتل فيهم، فقال جبرائيـل: يا رسول الله هـذه المواساة ،فقـال رسـول الله صلى الله عليه وآله «إنّـه مني وأنـا منه » فقـال جبرائيل: وأنا منكما، قال فسمعوا صوتاً يقول: لا سيف إلاّ ذو الفقار ولا فتى إلاّ علي».[1]

وكتب ابن أبي الحديد أيضاً:

«لمّا فرّ معظـم أصحابه عنه يـوم أحد كثرت عليـه كتائب المشركين، وقصدته صلى الله عليه وآله كتيبة بني كنانة فيها بنوسفيان بن عويف، وهم خالد بن سفيان، وأبـو الشعشاء بـن سفيان، وأبو الحمـراء بن سفيـان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله :«يـا علي اكفنـي هذه الكتيبـة» فحمـل عليهـا وانّها لتقارب خمسين فارساً، وهو عليه السلام راجل فمازال يضربها بالسيف حتى

١. الكامل في التاريخ:٢/ ١٥٤.

تتفرّق عنه، ثمّ تجتمع عليه هكذا مراراً حتى قتل بني سفيان بن عويف الأربعة وتمام العشرة منها ممّن لا يعرف بأسمائهم، فقال جبرائيل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :يا محمد انّ هذه المواساة لقد عجبت الملائكة من مواساة هذا الفتى، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما يمنعه وهو مني وأنا منه»، فقال جبرائيل: وأنا منكما، قال: وسمع ذلك اليوم صوت من قبل السماء لا يرى شخص الصارخ به ينادي مراراً: «**لا سيف إلاّ ذو الفقار ولا فتى إلاّ علي**»، فسئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنه فقال: «هذا جبرائيل».[١]

ج: في غزوة الأحزاب (الخندق)

كانت غزوة الأحزاب كما يبدو من اسمها حرب اتّحدت فيها جميع القبائل والأحزاب المتعددة المعادية للإسلام للقضاء على الإسلام الفتي.

وقد عدّ بعض المؤرخين جيش الكفر في هذه الغزوة بأنّه تجاوز العشرة آلاف مقاتل في حين لم يتعد عدد المسلمين الثلاثة آلاف.

وكان قادة قريش الذين يتولّون قيادة هذا الجيش قد أعدّوا خطة جعلتهم يعتقدون بأنّهم سيقضون على الإسلام بشكل تام في هذه الحرب وانّهم سينتهون ويرتاح بالهم من محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأتباعه إلى الأبد.

عندما أُعلم رسول الله بانطلاق قريش شكل صلى الله عليه وآله وسلم لجنة عسكرية، وقد اقترح فيها سلمان بأن يحفر خندق عند منافذ المدينة ليمنع نفوذ العدو إليها، فقبل هذا

١. شرح نهج البلاغة: ١٤/ ٢٥٠ـ٢٥١. ويروي الخوارزمي بأنّ علياً احتج على أصحاب الشورى بهذه المواساة التي تبعها نداء السماء.

الاقتراح وحفر الخندق بجهود المسلمين خلال عدّة أيام ذلك الخندق الذي بلغ عرضه حداً يعجز فرسان العدو عن العبور قفزاً من خلاله وعمقه درجةً إذا دخله أحد لم يمكنه الخروج منه بسهولة.

وصل جيش الشرك بتعاون من اليهود وكانوا يتصورون بأنّهم سيواجهون المسلمين في أطراف المدينة كما في السابق، ولكن لم يجدوا لهم أثراً خارج المدينة هذه المرة وواصل الجيش في تقدّمه فوصل إلى بوابة المدينة، وقد أثارت رؤية خندق عميق عريض حول منافذ المدينة دهشتهم، لأنّه لم يسبق للعرب ان استخدمته في حروبها، فاضطروا إلى محاصرة المدينة من وراء الخندق ووفقاً لبعض الروايات استمر الحصار على المدينة حوالي شهر واحد، وكلّما فكّر جنود قريش في العبور من الخندق كانوا يجابهون بمقاومة المسلمين وحماة الخندق الذين كانوا مستقرين على مسافة قصيرة في مواضعهم الدفاعية، وكان الجيش الإسلامي يرد على أية فكرة اعتداء، بالنبال ورمي الحجر، كان التراشق بالنبال مستمراً في الليل والنهار ولم ينتصر أحد من الطرفين على الآخر، ومن ناحية أُخرى كان حصار المدينة على يد هذا الجيش الكبير العرمرم قد أضعف معنويات كثير من المسلمين واهبطها خاصة انّه قد شاع نبأ نقض العهد من قبل القبيلة اليهودية بني قريضة أيضاً، واتضح بأنّها وعدت الوثنيين بأنّه حالما يعبرون الخندق فإنّهم سيهاجمون المسلمين من الخلف.

الأيام الحسّاسة والحرجة

وقد صور القرآن الكريم ظرف المسلمين الحرج والمتأزم أبّان أحداث هذا الحصار جيداً في سورة الأحزاب:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا

عَلَيْهِمْ ريحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَكانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصيراً* إِذْ جاءُوكُمْ مِنْ فَوقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زاغَتِ الأَبْصارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الْحَناجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنونا* هُنالِكَ ابْتُلِيَ المُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلزالاً شَديداً* وَإِذْ يَقُولُ المُنافِقُونَ وَالَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاّ غُروراً* وَإِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْل يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُم فَارْجِعُوا وَيَستأذِنُ فَريقٌ مِنْهُمُ النبيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيوتَنا عَورةٌ وَما هِيَ بِعَورةٍ إِن يُريدُونَ إِلاّ فِراراً* ولو دُخِلَتْ عَليهِم مِنْ أَقطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الفتنَةَ لأَتوْها وما تَلَبَّثوا بِها إِلاّ يَسيراً﴾ .[1]

ومع أنّ المسلمين كانوا في وضعية حرجة كان الخندق حاجزاً أمام افتراق جيش الأحزاب، واستمرار هذه الحال أمراً عسيراً عليهم ذلك انّ الطقس كان يبرد شيئاً فشيئاً، ومن ناحية أُخرى ونظراً إلى أنّ الزاد والطعام والعلف الذي أعدّوه كان يكفي لحرب قصيرة الأمد كحربي بدر وأُحد، فانّ نفادها ومع تطاول مدّة الحصار كان يثير قلقهم وأُوشكوا يفقدون حماسهم ورغبتهم في القتال ودبّ التعب والتخاذل في نفوسهم. لذلك لم يرَ قادة الجيش بّداً غير إرسال محاربيهم الأقوياء والشجعان لاختراق الخندق وبشكل ينكسر فيه حاجز الحرب المعلقة، ومن هنا حاول خمسة أبطال من جيش الأحزاب استعراض قوتهم بخيولهم حول الخندق واخترقوه من خلال منفذ ضيق وصاروا إلى جانبه الآخر وطلبوا المبارزة من أقرانهم. وكان أحد هؤلاء المحاربين بطل عربي شهير يدعى عمرو بن عبدِوَدّ الذي كان من أقوى وأشجع رجال العرب، وكانوا يعدّونه بألف مقاتل، وحيث إنّه قد انتصر لوحده على مجموعة من أعدائه في أرض يقال لها يليل، اشتهر بفارس يليل،

١. الأحزاب/ ٩ ـ ١٤.

وكان عمرو قـد شارك في حرب بدر وجرح فيها، ولهذا السبـب لم يشارك في حرب أحـد، فجاء الآن إلى حـرب الخنـدق معلّماً ليمتاز عـن الآخـرين، وبعـد ان عبر الخنـدق رفع صـوتـه بنداء هـل من مبـارز؟ وحينما لم ينهـض أحد مـن المسلمين لمواجهته، تجرأ أكثر واستهزأ بعقائد المسلمين وقال: تقـولون إنّ من يقتل منكم في الجنةو من يقتل منّا في النار، فهل من أحد أرسله إلى الجنة أو يرسلني إلى النار؟ ثمّ أنشد أشعاراً قال فيها:

ولقد بححت من النداء لجمعكم هل من مبارز

وكـان قد بلـغ الـرعـب والخوف من صيحـات عمـرو المتـوالية في قلـوب المسلمين درجة ممّا جعلهم يتسمّرون في مكانهم عاجزين عن الحراك وعن أية ردة الفعل.[1]

وكان كلّما يرتفع نداء عمرو للمبارزة كان عليٌّ عليه السلام هو الوحيد الذي يقوم ويستـأذن الرسـول ليذهـب إلى ساحـة القتال، غير انّـه صلى الله عليه وآله لم يكن يـوافق، وقـد تكررت هذه الحالة ثلاث مرّات، وفي المرة الأخيرة التي استأذن علي عليه السلام فيها قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: « انّه عمرو بن عبدود» فقال علي:« وأنا علي».[2]

وفي النهاية وافـق نبي الإسلام وأعطاه سيفه وألبسه عمامتـه، و ما أن انطلق عليٌّ عليه السلام إلى ساحة القتال، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**برز الإسلام كلّه إلى الشرك كله**».[3]

وتوضيح هذه العبارة بشكل جيد انّ انتصار أحد هذين المقاتلين على الآخر يكون انتصاراً للكفر على الإيمان أو للإيمان على الكفر.

---

١. وقد صوّر الواقدي رعب المسلمين بهذه العبارة: كأنّ على رؤوسهم الطير. المغازي:٢/ ٤٧٠.

٢. شرح نهج البلاغة:١٣/ ٢٨٤.

٣. البحار:٢٠/ ٢١٥.

وبعبارة أُخرى: يكون قتالاً مصيرياً يحدد مستقبل الإسلام والشرك.

انطلق عليّ عليه السلام راجلاً نحو عمرو، و قال حينما واجهه: «إنّك كنت تقول في الجاهلية لا يدعوني أحد إلى واحدة من ثلاث إلاّ قبلتها» قال: أجل، قال عليه السلام :«فانّي أدعوك أن تشهد أن لاإله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله وتسلم لله ربّ العالمين». قال: يا ابن أخي أخّر هذا عني؛ قال: «فأُخرى ترجع إلى بلادك، فإن يكن محمد صادقاً كنت أسعد الناس، و إن غير ذلك كان الذي تريد» قال: هذا ما لا تتحدث به نساء قريش أبداً، وقد نذرت ما نذرت وحرّمت الدهن؛ قال: فالثالثة، قال «البراز» فضحك عمرو و قال: إنّ هذه الخصلة ما كنت أظن انّ أحداً من العرب يرومني عليها، إنّي لأكره ان أقتل مثلك وكان أبوك لي نديماً، فارجع فأنت غلام حَدَث؛ قال علي عليه السلام : «فأنا أحب أن أقتلك» غضب عمرو من قول علي، ونزل من فرسه بكبرياء، وعقل فرسه، فتقاتلا قتالاً شديداً، فأنزل عمرو ضربة قاصمة على رأس علي، فدفعها بترسه، فصار نصفين، وجرح رأسه عليه السلام فاستغل علي الفرصة وضربه بضربة قوية، فألقاه صريعاً، وكانت الغبرة المثارة تمنع من رؤية القتال فسمع التكبير ودبّ الفرح في قلوب المسلمين.[1]

تسبب مصرع عمرو في أن يهرب المقاتلون الأربعة الذين رافقوه عند اختراق الخندق، وكانوا ينتظرون ما ينتهي إليه قتال علي وعمرو. تمكن ثلاثة منهم من اختراق الخندق للرجوع إلى معسكرهم، سوى انّ أحدهم و يدعي نوفل قد سقط مع فرسه في الخندق عند هروبه، فنزل إليه علي عليه السلام وقتله أيضاً، وبقتل هذا البطل فقد جيش الأحزاب معنوياته ويأس عن إمكانية أي هجوم على المدينة بشكل تام وظلت القبائل المتعددة تفكّر كلّ واحدة منها بالرجوع إلى موطنها، وقد كانت آخر ضربة تلقّوها هي تلك التي جعلها الله تعالى على شكل رياح عاتية

١. المغازي:٢/ ٤٧١.

وأعاصير شديدة، وفي النهاية أخذوا الطريق إلى أوطانهم حاملين فشلهم الذريع.[١]

وبمناسبة هذا العمل العظيم قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام في ذلك اليوم:

«لو وزن اليوم عملك بعمل جميع أُمّة محمّد، لرجح عملك على عملهم، وذاك انّه لم يبق بيت من المشركين إلاّ وقد دخله ذل بقتل عمرو ولم يبق بيت من المسلمين إلاّ وقد دخله عزّ بقتل عمرو.[٢]

وقد نقل محدث أهل السنّة الشهير الحاكم النيشابوري كلام النبي صلى الله عليه وآله بهذه العبارة: «**لمبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن عبدود يوم الخندق أفضل من أعمال أُمّتي إلى يوم القيامة**».[٣]

وفلسفة هذا الكلام واضحة طبعاً، وذلك انّ الإسلام والقرآن في ذلك المشهد العسكري من ذلك اليوم كانا على شفا جرف ويمرّان في أكثر الفترات حراجة، وكانت الشخصية التي أنقذت الإسلام بتضحيتها الفريدة من الخطر وكفلت له الاستمرارية إلى يوم القيامة واستقوى الإسلام ببركة تلك التضحية هي شخصية علي عليه السلام، وعليه كانت عبادة الجميع منوطة بتضحيات علي عليه السلام.

---

١. وقد ذكرت أحداث قتال علي عليه السلام المصيري مع عمرو بن عبدود مضافاً إلى المصادر السابقة في الكتب التالية مع اختلاف يسير:

بحار الأنوار:٢٠/ ٢٠٣ـ ٢٠٦؛ الخصال: ٥٦٠؛ السيرة النبوية:٣/ ٢٣٦؛ الكامل في التاريخ:٢/ ١٨١؛ الإرشاد:٥٤؛ شرح نهج البلاغة:١٩/ ٦٢ـ ٦٤.

٢. البحار:٢٠/ ٢١٦.

٣. المستدرك على الصحيحين:٣/ ٣٢.

د: فاتح حصن خيبر

كـان قد قـرر رسول الله في العـام السابـق من الهجـرة أن يحارب يهود خيبر ويغزوهم، وكان دافعه في ذلك أمرين:

أ. كانت خيبر قد تحولت إلى مركز للمؤامرات والفتن ضدّ الدولة الإسلامية الحديثة، وقد شارك يهود هذه الحصن أعـداء الإسلام في الهجوم على المدينة مرات عديدة، وبشكل خاص في حرب الأحزاب حيـث كان لهم دور هام في تعزيز قوة ذلك الجيش وتقويته.

ب. وعلى الرغم من أنّ فارس والـروم كانتا وبصفتهما امبراطوريتين كبيرتين في نزاعات طويلـة مع بعضهما غير انّ ظهور الإسلام في الساحة على أنّـه قوة ثالثة لم يكن بالأمر الذي يمكن التسـامح فيه، ولهذا لم يكن من المستبعد أن يصير يهود خيبر أداة لكسرى أو لقيصر تسـانـدهما في دك الإسـلام، أو انّهم كما حـرّضـوا المشركين ضد الإسلام الفتي قد يحرضون هاتين الامبراطوريتين لأجل القضاء على هذا الديـن الجديد. دفع هذان الأمـران الرسول إلى أن ينطلق بـرفقة ألف وستمائة مقاتل نحو خيبر، وقـد كانت قلاع خيبر محصّنة ومستحكمة جـداً ومجهّزة بأجهزة دفاعية كثيرة، وكان المقاتلون اليهود يدافعـون عنها بقوة، وكانت الحصون والقلاع تتساقط الـواحدة تلو الأُخرى (ومع صعـوبة وبطء) بجهاد وبسالـة جنود جيش الإسلام، ولكن بقيـت حصن قموص التي كانـت أكبر الحصون ومركزاً لمقـاتليهم الشجعان تقـاوم ولم يكن بإمكـان مجاهدي الإسـلام فتحها، وكان الصـداع الذي أُصيب به رسول الله ﷺ قد منعـه أن يحضر ساحة القتـال ويقود الجيـش بنفسه، ومن هنـا كان ﷺ يعطي الـراية كل يـوم لواحـد من المسلمين ويحمّله مسـؤولية فتحها، ولكنّهم كانوا يعودون الواحد تلو الآخر بلا جدوى، وفي أحد الأيام أعطى

الراية لأبي بكر وفي اليوم الثاني أعطاها لعمر، و قد عاد كلاهما من دون أن يحقّقا نصراً وفتحاً إلى عسكر الإسلام، وقد كان استمرار هذه الحالة ومشاهدة ذلك أمراً ثقيلاً على رسول الله ﷺ فقال حينئذٍ: «**لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله**».[١]

وظلّ أصحاب رسول الله يفكّرون تلك الليلة في أنّه من هو الذي سيعطيه الرسول الراية غداً؟ وعند شروق الشمس اجتمع جنود الإسلام عند خيمة رسول الله ﷺ وكان كلّ واحد منهم يتمنّى أن يكون هو الشخص الذي يأخذ الراية منه، و قال حينئذٍ: «أين علي بن أبي طالب؟» فقالوا : يا رسول الله يشتكي عينيه، قال: «فأرسلوا إليه» فجاء فدعا النبي لشفاء عينيه فشفي. وقال:«يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا »فقال ﷺ: «فانفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقّ الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم».[٢]

انطلق عليٌّ في هذه المهمة وفتح تلك الحصن القوية الصامدة بشجاعة فريدة.

مبعوث الرسول ﷺ الخاص

كان قد مرّ أكثر من عشرين سنة والدين الإسلامي المعادي للشرك ظل في

١. وقد نقل ابن عبد البر حديث الرسول بهذا النحو: «لأعطينّ الراية رجلاً يحب الله ورسوله ليس بفرار يفتح الله على يديه». الاستيعاب في معرفة الأصحاب:٣/ ٣٦.

٢. صحيح مسلم:٧/ ١٢١. وذكرت مهمة علي عليه السلام الكبيرة هذه وحديث الرسول ﷺ في الكتب التالية باختلاف يسير: السيرة النبوية:٣/ ٣٤٩؛ الكامل في التاريخ:٢/ ٢١٩؛ المستدرك على الصحيحين:٣/ ١٠٩؛ صحيح البخاري:٥/ ١٨.

أرجاء الحجاز بين القبائل العربية المشركة، و قد كان أكثرهم قد تعرف على رأي الدين الإسلامي حول الأوثان والوثنية طيلة هذه الفترة، وعلموا بأن الوثنية ليست إلاّ تقليداً أعمى للأجداد والآباء. إن أوثانهم الباطلة على درجة من الذلة والعجز بحيث إنّها عاجزة ليس فقط على أن تفعل شيئاً للآخرين، بل تعجز حتى عن دفع أي مكروه عن نفسها أو أن تفيدها، فليس هذا النوع من الآلهة الحقيرة والبائسة جديراً بالثناء والخضوع اذن، وكانت هناك مجموعة تحمل ضميراً حياً وقلباً مستنيراً بسماع كلام الرسول الكريم قد أحدثت انقلاباً عميقاً في حياتها متجهة من الوثنية إلى التوحيد خاصة عند ما فتح رسول الله مكّة حيث استطاع الدعاة ممارسة الدعوة إلى هذا الدين في أجواء تسودها الحرية، وبالتالي مارست جموع كثيرة معتد بها عملية كسر الأصنام في المدن والنواحي والقرى، ودوّى نداء التوحيد الباعث على الحياة في أكثر أرجاء الحجاز، ولكن كانت هناك مجموعة أُخرى متعصبة جاهلة صعب عليها كثيراً ان تقلع عن تقاليدها السابقة، وهي في نزاع دائم مع طبيعتها الإنسانية وضميرها، فظلت متمسكة بعاداتها القبيحة ومعتقدة بالخرافات والأوهام المفعمة بالانحرافات الخلقية والاجتماعية وعليه كان قد حان ذلك الزمن الذي يدك الرسول الكريم فيه أي نوع من مظاهر الوثنية واللا إنسانية بقوة عسكرية يستخدمها وبشدّة لاستئصال تلك الوثنية التي هي مصدر الفساد الأخلاقي والاجتماعي وتمثل نوعاً ما اعتداءً على حرمة الإنسانية.

في هذه الفترة نزلت آيات سورة البراءة وكلف رسول الله بأن يعلن عن براءة الله ورسوله من المشركين في مناسك الحجّ في تلك الجموع الغفيرة التي يجتمع الحجاج فيها ويأتون من كان حدب وصوب إلى مكة وتبليغهم وبأعلى صوته بأن يوضحوا موقفهم خلال الأربعة أشهر الآتية، فإن أسلموا فحالهم كحال المسلمين وسوف يتمتعون كالآخرين بمزايا الإسلام المادية والمعنوية، وإذا استمروا في

عنادهـم فيجب أن يستعـدوا للقتال بعـد هذه المدّة وأن يعلمـوا انّهم حيثما قبض عليهم أو أُسروا فسيقتلـون. ونزلـت آيات سـورة البراءة في الوقـت الذي لم يقـرر الرسـول فيه المشاركـة في مناسك الحجّ، لأنّه كـان قد زار بيت الله في عـام الفتح الماضي، وكان ينوي الحجّ في السنة التالية، وهي ما سمّيت فيها بعد بحجّة الوداع، لذلك لم يجد غير أن يبعث أحداً ليبلغ الرسالةالإلهيـة فاستدعى أبا بكر في البداية واقرأه بعضاً من الآيات الأُولى لسورة البراءة ،وأرسله برفقة أربعين نفراً إلى مكة كي يقرأ هذه الآيات عليهم في عيد الأضحى وبينما أبـو بكر في طريقه إلى مكة، فإذا بالوحي الإلهي يهبط ويأمر الرسول بأن لا يؤديها عنك إلاّ أنت أو رجل منك.

فمن يا ترى هذا الإنسان الذي هو من رسول الله في رأي الوحي ولا يجدر بشخص آخر أن يقوم بهذه المسؤولية غيره؟ لم تمض فترة حتى استدعى الرسول ﷺ علياً عليه السلام وأمره بأن ينطلق إلى مكة ويدرك أبا بكـر في الطريق ويأخذ منه الآيات ويقول لـه بأنّ الله تعـالى أمر الرسـول بأن لا يقرأ هـذه الآيات للنـاس إلاّ أنت أو رجل منك وكلّفت أنا بهذه المهمة.

انطلق علي عليه السلام ومعه جابـر ومجموعة من الصحـابة وهو راكب على نـاقة رسول الله ﷺ الخاصة باتجاه مكة وأبلغ أبا بكر كـلام رسول الله فأعطاه هو الآيات وسلّمها.

دخل أمير المؤمنين مكـة وصعد في العاشر من ذي الحجـة على جمرة العقبة وقرأ الآيات الأُولى من سورة البراءة بصوت عـالٍ عليهم، وأتبعها بإنذار رسول الله وتحذيره المؤلف من أربعة بنود، وأسمعهم جميعهم.[١]

---

١. كان الإنذار يتألّف من البنود الأربعة التالية:

الف: إلغاء حلف الهدنة مع المشركين.

ب: أن لا يحضروا موسم الحج.

←

وبهذه الرسالة علم المشركون جميعاً بأنّ أمامهم أربعة أشهر فقط كي يحدّدوا موقفهم تجاه الحكومة الإسلامية.

وأثرت الآيات وانذار الرسول تأثيراً عجيباً على الكفّار حيث أسلموا ودخلوا دين التوحيد زرافات ووحداناً والأربعة الأشهر لم تنته بعد و لم تأت نهاية السنة العاشرة من الهجرة حتى استئصل الشرك في الحجاز كله، وعند ما علم أبو بكر بتنحيته عاد إلى المدينة منزعجاً وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله معاتباً وقال: «مالي يا رسول ؟!» قال صلى الله عليه وآله: «خير؟! غير انّه لا يبلّغ عني غيري أو رجل مني».[1]

٤ . من وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله إلى خلافته الظاهرية

وقبل البدء بهذا البحث نشير مقدمة إلى أنّ الإمامة قد مرت منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وآله في صفر سنة ١١ هجرية والى وفاة الإمام الحسن العسكري عليه السلام في ربيع الأوّل سنة ٢٦٠هـ بأربع مراحل تقريباً، وكانت كلّ مرحلة من هذه المراحل تمتاز من حيث مواقف الأئمّة تجاه السلطات الحاكمة بسمة معينة وهي:

أ: مرحلة الصبر والمداراة مع هذه السلطات، وتشتمل هذه المرحلة جميع الخمس وعشرين سنة الممتدة من عام وفاة الرسول الكريم ١١ هجرية إلى بداية خلافة أمير المؤمنين الظاهرية سنة ٣٥ هجرية.

ب: مرحلة استلام الإمام للسلطة وهي تشمل تلك الأربع سنوات والتسعة أشهر من خلافة أمير المؤمنين، وبعضاً من الشهور من خلافة الإمام الحسن عليه السلام ،

← ج: أن يمنع الناس وهم عراة من الطواف وقد كان ذلك سائداً حينها بين المشركين.

د: أن يمنع المشركون من دخول المسجد الحرام.

١ . روح المعاني، الآلوسي، ج١٠/ ٤٤، تفسير سورة التوبة.

وهذه المرحلة بالرغم من قصر مدتها، وحدوث الاضطرابات والأزمات التي كان يثيرها أعداء الإسلام لهذين العظيمين عليهما السلام فهي من أكثر سنين الحكومة الإسلامية ازدهاراً.

ج: مرحلة المحاولة البناءة القصيرة الأمد لتشكيل الحكومة الإسلامية، وتشمل فترةالعشرين عاماً الممتدة من عقد صلح الإمام الحسن عليه السلام في سنة ٤١هـ إلى شهادة الإمام الحسين سنة ٦١هـ. وبعد إحداث الصلح بدأت عملياً نشاطات الشيعة النصف سرية مع خطط ترمي إلى إعادةالسلطة لأهل البيت عليهم السلام في الفرصة المناسبة، ولم تكن هذه الفرصة البعيدة وفقاً للحسابات المعتادة، وكان الأمل في تحقّقها موجوداً مع انتهاء حياة معاوية الشريرة.

د: وأخيراً كانت المرحلة الرابعة هي متابعة هذا المنهاج في برامج طويلة الأمد، وقد استمرت قرابة قرنين من الزمن توالت فيها الانتصارات والانتكاسات في فترات متعددة متواكبة مع النجاح الكاسح في المجال الآيديولوجي والعقيدي المندمج في مئات الأساليب المتناسقة المكلّلة بآلاف الأكاليل من الإخلاص والتضحية.[1]

وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وقضية الخلافة

كان علي عليه السلام من أكثر الشخصيات الراقية جدارة في قيادة المجتمع الإسلامي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يكن في العالم الإسلامي شخص يبلغ مستوى الإمام علي عليه السلام في الفضل والتقوى والرؤية الفقهية والقضائية والجهاد في سبيل الله تعالى و في كافة الصفات الإنسانية العالية غير رسول الله صلى الله عليه وآله، وبسبب هذه الجدارة رُشّح عليه السلام من قبل رسول الله وبأمره تعالى في مناسبات عديدة لقيادة

---

١. الإمام الصادق عليه السلام، آية الله السيد علي الخامنئي، ص ٢١.

المسلمين المستقبلية وأهمها هو ما حدث في الغدير.

ومن هنا كان من المتوقع انّه سيتولّى الإمام علي عليه السلام الخلافة وقيادة المسلمين غير انّه لم يحدث ذلك من الناحية العملية، وانحرف خط الخلافة الإسلامية بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وأُقصي علي عليه السلام من الساحة السياسية ومركز القرار في قيادة المجتمع الإسلامي.

على مفترق الطرق المصيري

لم يتحمل علي عليه السلام هذا الانحراف ولا السكوت عليه، وانتقد الخليفة وأتباعه باستدلالاته وحججه الدامغة مرات عديدة غير انّ الأيام و مجرى الأحداث قد دلّتا على أنّ هذه الاعتراضات غير مجدية وانّ الخليفة وأتباعه يصرّون على الاحتفاظ بالسلطة والاستمرار، وظل علي عليه السلام حينئذٍ على مفترق طرق مصيري حسّاس وبين خيارين، فهو إمّا أن ينتفض مستخدماً القوة وبمساعدة أنصار أهل بيت الرسالة وأصحابه الحقيقيّين الذين لا يؤمنون بمشروعية وقانونية الحكومة الجديدة في وجهها ويستلم زمام الخلافة، أو يرضى بالأمر الواقع ويساهم بقدر الإمكان في معالجة قضايا المسلمين ويقوم بواجبه.

وانطلاقاً من أنّ السلطة والمنصب ليسا هدفاً في القيادات الإلهية، وانّ الهدف أسمى وأكبر من الاحتفاظ بالسلطة ووجود القيادة آلة لتحقق ذلك الهدف، فانّ القائد إذا ما قدّر له يوماً أن يكون بين خيارين وخيّر بين اختيار المنصب والسلطة واختيار الهدف والمبدأ ،فعليه التضحية با لمنصب والسلطة، ويقدّم الهدف والمبدأ وأن يعتبر الهدف أولى من السلطة والقيادة.

واجه عليٌّ هذه الحالة واختار الخيار الثاني وتوصل ومن خلال دراسة ظروف المجتمع الإسلامي إلى هذه النتيجة، وهي انّه لو أصر على الاستيلاء على السلطة

وعلى الاحتفاظ بالمنصب والقيادة فستحدث ظروف تضيع فيها جهود رسول الله ﷺ والدماء الطاهرة التي أُريقت في سبيل الله.

يذكر الإمام علي عليه السلام في خطبة الشقشقية هذا المفترق الصعب والحساس والخيارين المصيريّين وسبب اختياره للخيار الثاني بهذا النحو:

«فَسَدَلْتُ دُونَها ثَوْباً، وَطَوَيْتُ عَنْها كَشحاً، وطَفِقْتُ أرتَئي بَين أن أُصولَ بيدٍ جَذّاء، أو أصْبِرَ على طَخيةٍ عمياء، يَهْرَمُ فيها الكَبير وَيشيبُ فيها الصَغير، ويَكْدَحُ فيها مؤمِنٌ حَتّى يَلقىٰ ربَّهُ. فَرَأيْتُ أنَّ الصَّبرَ علىٰ هاتا احجى، فصبرتُ وفي العَيْنِ قَذىٰ وَفي الحَلْقِ شَجىٰ، أرىٰ تُراثي نَهباً».[1]

وقد أشار الإمام عليه السلام إلى صبره على انحراف الخلافة الإسلامية عن خطها الصحيح بدافع الحفاظ على الإسلام في مناسبات أُخرى أيضاً ومنها ما قاله في بداية خلافة عثمان عندما عملت الشورى لصالحه واستولى على السلطة واقفاً أمامهم: «لقد علمتم أنّي أحقّ الناس بها من غيري، ووالله لأسلمن ما سلمت أُمور المسلمين، ولم يكن فيها جور إلاّ عليّ خاصة».[2]

التحديات والأخطار الداخلية والخارجية

قد قلنا انّ علياً عليه السلام امتنع عن الكفاح المسلح، وذلك نظراً للأخطار والتحديات التي كانت من الممكن أن تظهر في المجتمع الإسلامي حال قيامه بذلك، وقد يسأل عن نوعية هذه التحديات التي كانت تواجه المجتمع الإسلامي الفتي آنذاك.

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ٣.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٧٤.

وجواباً على ذلـك يمكن عرض الأخطار والتحديات الـداخلية والخارجية والموانع التي جعلت علياً عليه السلام يغض النظر عن الكفاح بالنحو التالي:

أ: انّ الإمام لـو كان قد استخـدم القوة ومارس الكفـاح المسلح لاسترداد الخلافة، لكان يخسر كثيراً من الأعزاء الذين كانوا يؤمنون بإمامته إيماناً راسخاً من الأعماق.

وكان الإمـام عليه السلام يعـاني مـن قلـة النـاصر والمعين على هـذا الأمـر، ويقول: «فنظرت فـإذا ليس لي معين إلاّ أهل بيتي، فضننـت بهم عن الموت، و أغضيت على القذىٰ».[1]

ويقول أيضاً:

«لو وجدت أربعين ذوي عزم».[2]

كما صدّر الإمام عليه السلام في زمن خلافته بيـاناً سياسياً هاماً وأمـر بأن يقرأ على مسامع الناس كلّ جمعة امام عشرة شهود من كبار أصحابه، مؤكداً فيه ذلك:

«فنظرت فـإذا ليس لي رافد ولا معي مسـاعد إلاّ أهل بيتـي، فضننت بهم عن الهلاك، ولـو كان بعـد رسول الله عمـي حمزة وأخي جعفـر لم أبايع كـرهاً، ولكنّني منيت بـرجلين حديثي عهد بـالإسلام: العباس وعقيل، فضننت بأهل بيتي عـن الهلاك، فأغضيت عيني على القذى، وتجرعت ريقـي على الشجا، وصبرت على أمَرّ من العلقـم وآلم للقلب من وخز الشِّفار».[3]

مضافاً إلى هؤلاء سيقتل كثير من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله الذين يمثّلون الخط

---

١. شرح نهج البلاغـة:٢/ ٢٠، وجاء قـريب من هـذا المضمون في نهج البـلاغة، الخطبـة ٢٦، تحقيق صبحي الصالح.

٢. نفس المصدر٢٢.

٣. بحار الأنوار:٣/ ١٥ـ١٦ وجاء قريب منه في نهج البلاغة الخطبة ٢١٧.

المعارض لخلافته عليه السلام، وهؤلاء الصحابة وإن كان موقفهم مضاداً لموقف الإمام في مسألة الخلافة وكانوا يخالفون توليه الخلافة بسبب حقدهم وعقدهم النفسية غير انّهم كانوا يتفقون معه في القضايا الأُخرى وسيشكّل قتلهم (وهم يعدّون على أيّة حال قوة أمام الوثنية والنصرانية واليهودية) ضعفاً في مركز العالم الإسلامي.

وقد أشار الإمام عليه السلام إلى هذه النقطة الهامة عندما انطلق إلى البصرة للقضاء على الناكثين: طلحة والزبير في خطبة له وقال:

«إنّ الله لما قبض نبيّه استأثرت علينا قريش بالأمر ودفعتنا عن حقّ نحن أحق به من الناس كافّة، فرأيت ان الصبر على ذلك أفضل من تفريق كلمة المسلمين وسفك دمائهم والناس حديثو عهد بالإسلام والدين يمخض مخض الرطب، يفسده أدنى وهن ويعكسه أقلّ خلف».(١)

ب: كان هناك عدد غير قليل من القبائل والجماعات التي أسلمت في أواخر حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم تر التعاليم الإسلامية الضرورية ولما يدبّ في قلوبهم نور الإيمان بشكل كامل، وعندما علموا بنبأ وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رفعوا علم الارتداد والعودة إلى الوثنية، وأعلنوا عن معارضتهم للحكومة الإسلامية في المدينة، وامتنعوا عن دفع الضرائب الإسلامية، وشكّلوا خطراً على المدينة من خلال إعدادهم القوات العسكرية.

ولذلك كان أوّل عمل قامت به الحكومة الجديدة هو أنهّا عبّأت مجموعة من المسلمين لقتال المرتدين والقضاء على تمردهم، وفي النهاية تمّ ببركة جهود المسلمين اخماد نار فتنتهم.(٢)

---

١. بحث معمق حول حياة علي عليه السلام ص ٢٢٢ نقلاً عن شرح النهج لابن أبي الحديد.

٢. هذا الكلام لا يعني، طبعاً، انّ جميع ما قامت به حكومة أبي بكر صحيح كتسامحها في قتل مالك ابن نويرة.

لذلك لم يكن من الصحيح أن يرفع الإمام عليه السلام في هذا النوع من الظروف التي رفع أعداء الإسلام الرجعيين راية الارتداد فيها وتحدّوا الحكومة الإسلامية، راية أُخرى ويواجه الحكومة الفعلية.

وقد أشار إلى هذه النقطة في إحدى رسائله إلى أهل مصر وقال:

«فوالله ما كان يلقىٰ فى روعي ولا يخطر ببالي انّ العرب تزعج هذا الأمر من بعده صلى الله عليه وآله عن أهل بيته، ولا أنّهم مُنحّوه عني من بعده، فما راعني إلاّ انثيال الناس على فلان يبايعونه، فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمّد صلى الله عليه وآله، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم التي إنّما هي متاع أيّام قلائل، يزول منها ما كان كما يزول السراب، أو كما يتقشع السحاب، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق، واطمأن الدين وتنهنه» .[1]

وهكذا أثار هذا الموضوع في أيّام خلافته الأُولى من خلال خطبة من خطبه.

قال عبد الله بن جنادة: قدمت من الحجاز اريد العراق في أمارة علي عليه السلام، فمررت بمكّة فاعتمرت، ثمّ قدمت المدينة فدخلت مسجد النبي صلى الله عليه وآله إذ نودي الصلاة جامعة واجتمع الناس، وخرج علي عليه السلام متقلداً سيفه، فشخصت الأبصار نحوه فحمد الله.

ثمّ قال:

١. نهج البلاغة: الرسالة ٦٢؛ الغارات: ١/ ٣٠٦ مع اختلاف يسير في الألفاظ.

«أمّا بعـد فإنّـه لمّا قبض الله نبيّـه صلى الله عليه وآله قلنا نحـن أهله وورثتـه وعترته وأولياؤه دون الناس لا ينازعنا سلطانه أحدٌ ولا يطمع في حقّنا طامع إذ انبرى لنا قومنا فغصبونا سلطان نبينا فصارت الإمرة لغيرنا... وأيم الله لولا مخافة الفرقة بين المسلمين وأن يعود الكفـر ويبور الدين لكنّا على غير ما كنّا لهم عليه....»[1]

ج: إضافـة إلى خطورة المرتـدين كـان هناك ظهـور المتنبئين ومدّعـي النبوة الكذّابين أمثال مسيلمـة وطليحة وسجاح أيضاً، وقـد عبّأ كلٌ منهم مجمـوعة من القوات للهجـوم على المدينة، فهزموا على يـد المسلمين وبتعاونهم وتكاتفهـم بعد تحمّل كثير من العناء.

د: خطورة هجـوم الروم المحتمل كان يمكـن أن يبعث بدوره قلقـاً آخر في نفوس المسلمين ذلك انّ المسلمين كانـوا قد واجهوا الروم وقاتلوهـم ثلاث مرات إلى ذلك الحين، وكانت الروم تعتبر المسلمين خطراً حقيقياً لها، فلو كان علي عليه السلام يمارس الكفاح المسلـح وهو ممـا يعني قلقلة الـوضع الـداخلي للمسلمين وتوتيره، لكان يمنح الروم فرصة كبيرة لاستغلال هذا الوضع المتزلزل.

يتضح بالالتفات إلى النقاط السالفـة بشكل جيد انّه لماذا رجّح الإمام عليه السلام الصبر والسكوت على النهوض في وجـه السلطة وانّه كيف أنقذ العـالم الإسلامي بصبره واحتماله وبعـد نظره، وانّـه لولا حبه لـوحدة المسلمين وخـوفه مـن النتائج الوخيمة للفـرقة والاختلاف لما كان يسمـح أن يفلت زمام قيادة المسلمين مـن يد أوصياء وخلفاء رسول الله الحقيقيّين ويتلقّفه الآخرون .

١. شرح نهج البلاغة :١/ ٣٠٧. وقريب منه في ارشاد المفيد، ص ١٣١.

إنجازات أمير المؤمنين عليه السلام واهتماماته في زمن الخلفاء

تركزت نشاطات الإمام في هذه الفترة على الأُمور التالية:

أ: العبادة والعبودية لله وبالنحو الذي يليق بشأن شخصية مثل علي عليه السلام وقد وصلت عبادته إلى درجة انّ الإمام السجاد عليه السلام يعتبر عبادته وتهجّده الفريد هو لاشيء بالنسبة إلى عبادة جدّه العظيم.

ب: تفسير القرآن ومعالجة غوامض ومشاكل كثيرة من الآيات وتربية تلاميذ من مثل عبد الله بن عباس الذي يعد من أكبر مفسري الإسلام من بين الصحابة.

ج: الإجابة على شبهات وتساؤلات علماء الأديان العالمية لا سيما اليهود والنصارى منهم الذين كانوا يتوافدون إلى المدينة للبحث والاستقصاء حول دين النبي بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم وما كانوا يجدون من يجيب تساؤلاتهم سوى علي عليه السلام الذي بدت معرفته بالتوراة والإنجيل واضحة من خلال كلامه معهم، ولولا انّ علياً ملأ هذا الفراغ لكان المجتمع الإسلامي يغط في انتكاسة كبيرة. وعندما كان الإمام يقدم أجوبة مفحمة على جميع الشبهات والتساؤلات كان الفرح والإعجاب الكبير يغمران وجوه الخلفاء الجالسين في مكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

د: بيان الحكم الشرعي للمواضيع المستحدثة والتي لم يكن لها سابقة في الإسلام أو بأن تكون القضية بقدر من التعقيد والغموض بحيث يعجز القضاة عن الحكم فيها، وتشكل هذه النقطة جانباً هامّاً من حياة الإمام، فلو لم تكن هناك شخصية كالإمام علي عليه السلام بين الصحابة، تلك الشخصية التي هي أعلم الأُمّة بشهادة واعتراف الرسول الكريم وأعرفها بأُصول القضاء والتحكيم لظلت هناك قضايا كثيرة عالقة من صدر الإسلام بلا حلول.

وقد كانت هذه المواضيع المستحدثة تستوجب أن يكون هناك إمام واع معصوم كالنبي له معرفة كبيرة بأُصول وفروع الدين الإسلامي بين الناس بعد رسول الله ﷺ ليحمي علمه الواسع ومعرفته الكبيرة الأُمّة من الاتجاهات المنحرفة وعمليات الأخذ بالقياس والظن والحدس، ولم تتوفر هذه الموهبة العظيمة إلاّ في شخص أميرالمؤمنين باعتراف جميع أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نقلت كتب الحديث والتاريخ بعضاً من قضاء الإمام واستخدامه الرائع والبديع للآيات القرآنية وقد جمع بعض العلماء قسماً منها في كتا ب مستقل.[١]

هـ. تربية مجموعة من الذين كانوا يحملون ضميراً حياً وفطرة سليمة وروحاً مستعدة للسلوك الديني حتى يمكنهم الوصول إلى مدارج الكمالات المعنوية العالية والتعرف على مالا يمكن التعرف عليه با لمعرفة الظاهرية إلاّ بالرؤية القلبية والعين الباطنية.

و. العمل والسعي لأجل ضمان معيشة شريحة كبيرة من الفقراء والمساكين، وقد وصل الأمر بالإمام إلى أن يغرس الأشجار ويحفر القنوات ثمّ يوقفها ويجعلها وقفاً في سبيل الله.

ز. عندما كانت الخلافة تصل إلى طريق مسدود في القضايا السياسية وبعض القضايا والمشاكل الأُخرى كان الإمام عليه السلام المستشار الوحيد والمعتمد الذي يعالج المشاكل بموضوعية خاصة مع حلول واضحة، وقد جاءت بعض الاستشارات في نهج البلاغة وكتب التاريخ.

١. ومنها على سبيل المثال كتاب قضاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام من مؤلّفات العالم الكبير الشيخ محمد تقي التستري، وكتاب قضاء علي بن أبي طالب عليه السلام تأليف السيد إسماعيل رسول زاده.

الإمام علي ومعالجة مشاكل الخلفاء العلمية والسياسية

يشهد التاريخ بأنّ أبا بكر وعمر كانـا يراجعان الإمام في القضايا السياسية والدينية وتفسير القرآن والأحكام الفقهية للإسلام طيلة فترة خلافتهما وكانا يفيدان من استشـارته و إرشاداتـه وعلمه بأُصول الـدين وفروعـه بشكل تام ونـورد بعض الأمثلة من ذلك ممّا سجلته كتب التاريخ:

الحرب مع الروم

كان أحد أعـداء الحكومة الإسلامية الفتيـة هي الامبراطورية الـرومية التي كانـت تشكل خطراً للحكومـة الإسلامية مـن ناحية الشمال دائماً، وكان الـرسول الكريم ﷺ وحتى اللحظـات الأخيرة من حياته مـدركاً لهذا الخطر، وقـد أرسل في السنة الثامنة مـن الهجرة جيشاً بقيادة جعفر الطيار إلى ضفاف الشـام غير انّ هذا الجيش الإسلامي عاد إلى المدينة بلا جدوى وقد فقد ثلاثة من القادة ومجموعة من المقاتلين، وانطلق رسول الله ﷺ بجيش جرّار نحو تبوك في السنة التاسعة، ولكنّه عاد إلى المدينـة من غير مواجهة مـع العدو، وكان لهذه الحركة نتـائج بارزة وكبيرة مذكـورة في التاريـخ، ورغم كلّ ذلـك كان احتمال هجـوم الروم يقلـق رسول الله دائماً، ولهذا أعدّ جيشاً من المهاجريـن والأنصار في أيامه الأخيرة وهو على فراش الموت لينطلـق باتجاه ضفـاف الشـام. لم يغادر هـذا الجيـش المدينـة لسبب مـن الأسباب وفي حين كان الجيـش الإسلامي معسكراً في أطراف المدينـة توفي رسول الله والتحق بالرفيق الأعلى بعد ذلـك وبعد أن أقرّ الجو السياسي الخلافة في يد أبي بكر عاشت المدينة جواً هادئاً بعد الأزمة.

كان أبـو بكر الـذي تولّى القيـادة متردّداً في تنفيذ أمـر النبي لمحـاربة الـروم

كثيراً، ولهذا استشـار جماعة مـن الصحابـة وقدّم كـلٌ منهم رأيـاً لم يقتنع بـه، وفي النهايـة استشار الإمام في ذلك فشجعـه لتنفيذ أمر النبـي وقال عليه السلام : إن فعلـت ظفرت فاستبشر الخليفة لتشجيع الإمام و قال: بشّرت بخير.(١)

الخليفة الثاني واستشاراته السياسية للإمام

كان الإمام مستشاراً هـاماً في معالجة كثير من المشاكل السيـاسية والعلمية والاجتماعيـة في زمن الخليفـة الثـاني وسنشير إلى مثـال واحد مـن مجمـوع المرات العديدة التي استعان الخليفة الثاني فيها بفكر الإمام في القضايا السياسية. وقعت في السنة الـرابعة عشرة من الهجرة حـرب طاحنة بين جيش الإسـلام و بين جيش الفرس في القـادسية وانتهت بانتصـار المسلمين وقتل رستم فرّخ زاد القـائد العام للقوات الفـارسية مـع مجموعـة من المقـاتلين وانضم بهذا الانتصـار جميع أرجـاء العراق تحت لواء الإسلام واستولى المسلمون على المدائن التي كانت مركزاً للملوك الساسانيين وتراجع قادة الجيش الفارسي إلى داخل أراضيه.

وخشي المستشارون والعسكـريون الفرس من أن يـزحف الجيش الإسـلامي إلى داخل أراضيهم ويستولي على جميع أرجاء البلاد بالتدريج، ولأجل مواجهة هذا النوع من الهجوم الخطير أعـدَّ يزدجرد ملك فارس جيشاً قوامـه مائة وخمسون ألف مقاتل بقيادة فيروزان حتى يصد أي هجوم مفـاجئ، وإذا ساعدت الظروف يبدأ هو بالهجوم.

وكتب سعد بن أبي وقاص القائد العام للقوات الإسـلامية [وعلى رواية عمار بن ياسر الذي استولى على الكوفة] رسالة إلى عمر يطلعه فيها على تحشدات العدو

١. تاريخ اليعقوبي:٢/ ١٣٣.

وأضاف انّ جيش الكوفة مستعد لخوض المعركة وقبل أن يبدأنا العدو بالحرب نداهمه لإرعابه.دخل الخليفة المسجد واستدعى كبار الصحابة.

وأطلعهم على ما ينويه من ترك المدينة والانطلاق نحو مكان بين البصرة والكوفة ليقود الجيش من هناك، فقام طلحة في هذه الأثناء وشجّع الخليفة على ذلك وقال كلاماً تفوح منه رائحة التملّق جيداً، ثمّ قام عثمان بعد ذلك ولم يكتف بحثّ الخليفة على الانطلاق فقط، بل أضاف ان أكتب إلى جيش الشام واليمن بأن ينطلقوا جميعاً ويلحقوا بك حتى يمكنك مواجهة العدو بهذا الجيش الكبير . وحينئذٍ قام أمير المؤمنين عليه السلام و قال:

«إنّ هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلّة وهو دين الله الذي أظهره وجنده الذي أعدّه وأمدّه حتى ما يبلغ وطلع حيثما طلع ونحن على موعودٍ من الله والله منجز وعده وناصر جنده، ومكان القيّم بالأمر مكان النظام من الخرز يجمعه ويضمه، فإذا انقطع النظام تفرق الخرز وذهب ثمّ لم يجتمع بحذافيره أبدا والعرب اليوم و إن كانوا قليلاً فهم كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع، فكن قطباً واستدر الرحى بالعرب وأصلهم دونك نار الحرب، فانّك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك ممّا بين يديك.

إنّ الأعاجم إن ينظروا إليك غداً يقولون: هذا أصل العرب، فإذا قطعتموه استرحتم، فيكون ذلك أشد لكلبهم عليك وطمعهم فيك.

فأمّا ما ذكرت من مسير القوم إلى قتال المسلمين، فإنّ الله سبحانه هو أكره لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره، وأمّا ما ذكرت من

عددهم، فإنّا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، وإنّما كنا نقاتل بالنصر والمعونة».[١]

استجاب عمر لكلام الإمام بعد سماعه ولم يذهب.[٢]

ونظراً لهذه المعالجة والحلول قال عمر: أعوذ بالله من مشكلة ليس لها أبو الحسن.[٣]

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ١٤٦.

٢. الكامل في التاريخ:٣/ ٨، تاريخ الأُمم والملوك، الطبري:٤/ ٢٧٣؛ البداية والنهاية:٧/ ١٠٧.

٣. راجع لمزيد الاطلاع: الاصابة في تمييز الصحابة:٢/ ٥٠٩؛ الاستيعاب في معرفة الأصحاب:٣/ ٣٩؛ و كتاب تحليل لمواقف علي بن أبي طالب السياسية(بالفارسية) تأليف أصغر قائدان، الفصل الثالث والرابع، نشر أمير كبير.

٥. من الخلافة إلى الشهادة

كيف بويع أمير المؤمنين عليه السلام

أثار عثمان غضب الناس جرّاء فساده المالي والإداري وتصرّفه غير الشرعي في أموال المسلمين، وهكذا تنصيب بني أُميّة وأقربائه الغير مؤهلين في مناصب عالية، وتسليطهم على مقدّرات الأُمة وبالتالي تنحية الشخصيات الجديرة والمؤهلة من المهاجرين والأنصار، وحيث إنّه لم يستجب لاعتراضات ومطاليب المسلمين المتكررة والمشروعة فيما يتعلق بتنحية عمّاله وولاته الفاسدين ثارت الثورة على حكومته و انتهت بقتله، ثمّ بايع الناس علياً على أنّه خليفة على المسلمين، ومن هنا كانت حكومة الإمام علي عليه السلام التي وصلت إلى الحكم بعد مقتل عثمان حكومة ثورية وحصيلة انتفاضة شعبية في وجه فساد وظلم الحكومة السابقة.

إنّ أحد نماذج فساد حكومة عثمان هو إعادة الحكم بن أبي العاص وابنه مروان الذي طرده النبي إلى الطائف للمدينة، وهذا ممّا لم يجرأ حتى أبو بكر وعمر على فعله في خلافتهما، وزوّج مروان ابنته وولّاه مسؤولية ديوان الخلافة ممّا أثار غضب الناس وحوصر بيت عثمان مدة تسعة وأربعين يوماً من قبل الثوريين.[1] وكلّما حاول عثمان الخضوع واللين كان مروان يثير غضب الناس أكثر، و في النهاية داهم المسلمون بيت عثمان و أردوه قتيلاً.

---

١. المسعودي، مروج الذهب:٢/ ٣٤٦.

مكانة علي المتألّقة

الشيء الذي كان يفكر به الثوريون هو تنحية عثمان عن الخلافة على الرغم من أنّ اسم علي عليه السلام كان جارياً على الألسن طيلة فترة الحصار المضروب على بيت عثمان، ولكن لم يكن لديهم خطة واضحة للمستقبل لذلك اصطدموا بعد مقتل الخليفة بمشكلة اختيار الخليفة.

ومن ناحية أُخرى كان قد توفّي اثنان من أعضاء الشورى الستة، وهما :عبد الرحمان بن عوف و عثمان، و لم يكن هناك من بين الأربعة الموجودين ـ علي و طلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص ـ من هو أحب للناس وأكثر شعبية وفضلاً وماضياً متألقاً في الإسلام من علي عليه السلام، وهو ما جرّ الناس إلى شخصيته عليه السلام.

وبعد تقييم ودراسة الظروف والأوضاع وملاحظة التغييرات التي حصلت في زمن عثمان، وهكذا بعد ابتعاد المسلمين وانفصالهم الكبير عن خط الإسلام الحقيقي الأصيل أيقن علي عليه السلام بأنّه من الصعب جداً ممارسته الحكم بعد ذاك الفساد والانحراف المتخلّفين من حكومة عثمان، و قد لا يحتمل الناس وخاصة كبار القوم تعديلاته و إصلاحاته التي يرمي إليها ولا يطيقون عدالته، و لهذا السبب رفض الخلافة عندما عرض عليه الثوريون بيعتهم.

قد اتّفق المؤرخون على أنّ عثمان قتل في سنة ٣٥ هجرية ولكنّهم اختلفوا في يوم ذلك.[١]

وفي الوقت ذاته انّ المتيقن به هو وجود أربعة أو خمسة أيّام فصلت بين

---

١. يرى اليعقوبي ان قتل عثمان تمّ في ١٨ ذي الحجة سنة ٣٥(تاريخ اليعقوبي:٢/ ١٦٥) غير انّ المسعودي يقول انّه قتل لثلاثة أيام بقين من ذي الحجة(مروج الذهب:٢/ ٣٤٦).

مقتل عثمان وبيعة الناس لعلي عليه السلام.[١]

وكان الناس في هذه المدة يعيشون حالة من الفوضى والضياع وخلالها كان أصحاب الثورة يراجعون الإمام غير انّه كثيراً ما يبعد نفسه عن الأنظار، وحيث إنّهم كانوا يطالبونه بقبول بيعتهم وهو ما يزال يرى الظروف غير مناسبة لقبول الخلافة وانّ الحجّة لم تتم عليه بهذا الاقتراح قال: «دعوني والتمسوا غيري فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول، وانّ الآفاق قد أغامت والحجة قد تنكرت، واعلموا أنّي وإن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب، وان تركتموني فأنا كأحدكم ولعلّي اسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا لكم وزيراً خيرٌ لكم منّي أميراً».[٢]

وحيث قد كثر توافد المسلمين على الإمام عليه السلام وازدحامهم عليه واكتظت داره بهم وازداد إصرارهم عليه، تنفيساً عن عناء الاضطهاد السابق وشوقاً إلى العدالة شعر با لمسؤولية ولم يـر بداً غير قبول البيعة، وقد ذكر الإمام عليه السلام شغف الناس وإقبالهم وإصرارهم عندما طالبوه بالبيعة في عدّة مواضع من نهج البلاغة والتي منها:

«فتداكوا عليّ تداك الإبل الهيم يوم وردها، وقد أرسلها راعيها وخلعت

١. كتب اليعقوبي : استخلف علي يوم الثلاثاء لسبع ليالٍ بقين من ذي الحجة سنة ٣٥) وعليه تكون المدة الفاصلة خمسة أيام غير انّ المسعودي يقول: (بايع الناس علياً يوم قتل عثمان ثمّ يقول في صفحة أُخرى: «انّه بويع بعد أربعة أيام من قتل عثمان بيعة عامة» مروج الذهب:٢/ ٣٤٩ـ ٣٥٠. و يرى ابن الأثير انّ مقتل عثمان تمّ بتاريخ ١٨ ذي الحجّة وانّ البيعة لعلي تمت في ٢٥ من ذلك الشهر (الكامل في التاريخ:٣/ ١٧٩و١٩٤).ويصرح في الصفحة ١٩٢ بأنّ أهل المدينة قد عاشوا بعد مقتل عثمان خمسة أيام من الضياع وكانت المدينة تدار من قبل شخص يدعى غافقي بن حرب.

٢. نهج البلاغة : الخطبة ٩٢.

مثانيهـا حتى ظننت أنّهم قاتلي أو بعضهـم قاتل بعض ولـدي، وقد قلبت هذا الأمر بطنه وظهره حتى منعني النوم».[١]

ويجسد لنـا في موضـوع آخر ذلـك المشهد المثير لازدحـام الناس عليـه من كلّ جانـب ويرسم لوحـة حيّة تعبر عن شدة فـرح الناس وشوقهم وشغفهـم بعد تلقيهم نبأ قبول الخلافة.

ويقول: «وبسطتم يـدي فكففتها، ومددتموها فقبضتها، ثـم تداككتم عليّ تداك الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها حتى انقطعت النعل، وسقط الرداء، ووُطئ الضعيف، وبلـغ من سرور الناس ببيعتهم إيّاي أن ابتهج بها الصغير وهدج إليها الكبير، وتحامل نحوها العليل».[٢]

وقـد تحدث الإمام في خطبتـه عـن إقبال النـاس عليـه بحرارة وسرور عـن أسباب قبول الخلافة قائلاً:

«... فما راعنـي إلاّ والنـاس كعـرف الضبـع إلي ينثالـون عليّ مـن كلّ جانب حتـى لقد وطئ الحسنان[٣] وشق عطفـاي مجتمعين حولي كربيضة الغنم، فلمّا نهضت بالأمر نكثت طائفة ومرقت أُخرى وقسط آخـرون، كأنّهم لا يسمعـوا كلام الله سبحـانه يقـول: ﴿تِلْكَ الـدّارُ الآخِرَةَ نَجْعَلُها لِلَّـذِينَ لاٰ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاٰ فَسـاداً وَالعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

بلى والله لقـد سمعوهـا ووعوهـا، ولكنّهـم حليت الـدنيا في أعينهـم وراقهـم زبرجهـا، أمـا والذي فلـق الحبة وبـرأ النسمـة لولا حضـور

١. نهج البلاغة: الخطبة ٥٤.

٢. نهج البلاغة: الخطبة ٢٢٩.

٣. نص كـلام الإمام هـو (وطئ الحسنان) الـذي قد يعني: الحسـن والحسين، ولكن قـد فسر البعض الحسن بالابهام. راجع شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٠٠.

الحاضر وقيام الحجّة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارّوا على كظّة ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز».[١]

إنّ الحكم الإسلامي الذي مارسه علي عليه السلام على الرغم من قصر عمره إلاّ انّه كان نموذجاً كاملاً للحكومة الإسلامية التي أشاد صرحها النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة.

وعلى الرغم من أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يصل إلى كافة أهدافه الإصلاحية التي نادىٰ بها نتيجة المؤامرات الداخلية التي حيكت ضده، إلاّ انّه استطاع بلا شك أن يطرح نموذجاً ناجحاً للحكومة وفق تعاليم الإسلام ومعاييره.

إنّ استعراض مزايا وخصائص حكومة علي عليه السلام يخرجنا عن نطاق هذا البحث المكثف، إلاّ انّنا نكتفي بلمحة سريعة للخطوط العريضة لسيرته عليه السلام في الحكم باعتبارها شاخصاً بارزاً ومثمراً للغاية.

١. أشار علي عليه السلام إلى أنّ فلسفة قبوله للخلافة هي لأجل إجراء العدالة الاجتماعية في المجتمع على كافة المستويات لا سيما الاقتصادية، والاستفادة من الإمكانات العامة، ومكافحة الفوارق الطبقية الكبيرة في المجتمع، وقد أكد على أنّ الله أخذ على العلماء أن لا يقارّوا على كظّة ظالم ولا سغب مظلوم.

٢. انّ رؤية علي عليه السلام إلى الحكم تتلخص في أنّ الحكم والمنصب ليس إلاّ وسيلة لخدمة الناس وإحقاق الحقّ ودحض الباطل، لا انّه طعمة تدر الأرباح، وقد التزم الإمام بهذا المنهج إلى أبعد الحدود، حتّى تراه يجتنب عن إعطاء المهام الحساسة كالولاية وبيت المال إلى المتعطشين للسلطة كطلحة والزبير، ولهذا

---

١. نهج البلاغة، الخطبة٣.

السبب فقد أجّجوا نائرة الفتن ورفعوا لواء العصيان ضدّ الإمام عليه السلام.

٣. لقد عاش الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عند تصدّيه للخلافة غاية الزهد والبساطة في الحياة، كما كان يوصي عماله بالاعتدال والعزوف عن زخارف الدنيا وزبرجها وهذه الخصوصية أي عزوفه عن زخارف الدنيا هي من أبرز خصائصه الذاتية وسيرة حكمه.

٤. انّ المعيار الذي أكد عليه الإمام عليه السلام في انتخاب الولاة والعمال، هو أن تكون لهم سوابق في الإسلام، وتقوى، وكفاءة في إدارة سدة الحكم، والتزام بقيم الإسلام وغيرها من المعايير.

والشيء الذي لم يخطر ببال الإمام أبداً هو القرابة والعشيرة، كما يتضح ذلك حينما نصب (٥١) شخصاً كولاة وممثلين عنه في الولايات والإمارات المختلفة، فتجد فيهم من المهاجرين والأنصار، وأهل اليمن، والهاشمي وغير الهاشمي، والعراقي والحجازي، الشاب والكهل، ولا تجد في هذه القائمة أثراً لأسماء الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية و عبد الله بن جعفر (زوج زينب عليها السلام) على الرغم من تقارب أعمارهم وتمتعهم بكفاءة عالية في إدارة دفة الحكم و تصدي المسؤوليات، ويعلم ذلك من خلال المهام الصعبة التي أوكلت إليهم في الحروب ومواقع الخطر إلاّ انّ الإمام كان يحذر من تعيينهم في المناصب الحكومية.

٥. لم يكن الإمام يعتقد وخلافاً لمعظم الزعماء والرؤساء بأنّ الغاية تبرر الوسيلة ولم يتوصل إلى أهدافه المقدسة النبيلة بوسائل غير مشروعة قط، كما يظهر من جوابه لما عوتب على التسوية في العطاء وتصييره الناس أسوة فيه من غير تفضيل أولى السابقات والشرف.

«أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه، والله لا أطور به ما سمر سمير، وما أمّ نجم في السماء نجماً! ولو كان المال لي لسوَّيت

بينهم، فكيف وإنّما المال، مال الله».(١)

في حين انّ خصمه معاوية توصل بكلّ وسيلة غير مشروعة مهما كان الثمن للوصول إلى مآربه الشيطانية، وقد ساد الاعتقاد عند جماعة سذج انّ هذه من علامات ذكاء معاوية ودرايته وتفوقه على الإمام عليه السلام في السياسة، لذا تجد الإمام، يقول:

«والله ما معاوية بأدهى منّي، ولكنّه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن كلّ غدرة فجرة، وكلّ فجرة كفرة، و لكلّ غادر لواء يعرف به يوم القيامة».(٢)

٦. كان الإمام عليه السلام يراعي الأُصول والضوابط في تعامله مع أعدائه ومخالفيه، دون أن يصادر حرياتهم إلاّ إذا أجّجوا نائرة الفتن، ففي الأشهر الأُولى من خلافة الإمام عليه السلام همّ طلحة والزبير بالخروج من المدينة بعد أن يأسا منه في الحصول على الولاية وأقبلا على الإمام عليه السلام و قالا: إنّا نريد العمرة، فأذن لنا في الخروج.

فأذن لهما الإمام عليه السلام ، و روي أنّ علياً عليه السلام قال لبعض أصحابه: والله ما أرادا العمرة ولكنّهما أرادا الغدرة.(٣)

ويعكس هذا النص التاريخي انّ الإمام لم يصادر حريتهما قبل أن يرفعا لواء العصيان على الرغم من علمه عليه السلام بما يضمران له.

وأيضاً لما خالف الخوارج الإمام عليه السلام إثر جهلهم وعنادهم وسوء فهمهم اعتزلوا معسكر الإمام حين رجوعهم من صفين وأقاموا لهم معسكراً في النهروان فخاطبهم الإمام عليه السلام ـ بعد ان كانت مخالفتهم سياسية ولم تتعدى القيام بعمليات

---

١. نهج البلاغة، الخطبة١٢٦.
٢. نهج البلاغة، الخطبة٢٠٠.
٣. تاريخ اليعقوبي:٢/ ١٨٠.

عسكرية وتهديد الأمن ـ بقوله:

«أما انّ لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتمونا: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه، ولا نمنعكم الفيء مادامت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتّى تبدؤونا».[1]

وبهذه الصورة فقد سايرهم الإمام عليه السلام من منطلق القوة، إلى أن قاموا بنشر الرعب والخوف والإخلال بالأمن حينها اضطر الإمام عليه السلام إلى استعمال القوة بغية القضاء على فتنتهم.

٧. على الرغم من أنّ الإمام عليه السلام كان ينصب عمالاً وولاة صالحين وكفوئين إلاّ انّه في الوقت نفسه كان يجعل عليهم عيوناً لمراقبة تحركاتهم، و أدنى خطأ يصدر منهم فانّها تنقل إلى الإمام عليه السلام كي يتخذ الاجراءات المناسبة في حقّهم.

ومن أبرز تلك النماذج هو كتاب تقريع بعثه الإمام عليه السلام إلى عثمان بن حنيف الأنصاري عامله على البصرة و قد بلغه انّه دعي إلى وليمة قوم من أهلها فمضىٰ إليها.[2]

وجدير بالذكر انّ هذه الحادثة وقعت في الشهور الأُولى من خلافته عليه السلام، لأن ابن حنيف كان عامله على البصرة قبل حرب الجمل التي نشبت عقب شهور ستة من تسلم الإمام عليه السلام لمقاليد الخلافة، وفي هذه الفترة المضطربة فانّ الإمام قد انشغل بترتيب الوضع الداخلي بعد الفوضى التي سادت البلاد من جراء مقتل عثمان، إلاّ انّ هذا كلّه لم يمنع الإمام عليه السلام من بعث الكتاب المذكور إلى عامله تقريعاً له على ما صنع.

القتال في ثلاث جبهات

حمّلت خلافة الإمام عليه السلام وقيادته التي ساد فيها العدل وإحياء المبادئ

---

١. تاريخ الأُمم والملوك:٦/ ٤١، حوادث سنة ٣٧.

٢. نهج البلاغة: الكتاب ٤٥.

والقيم الإسلامية الأصيلة جماعتها عبأ ثقيلاً ممّا أدى إلى تشكيل خط معارض لحكومته، وانتهت هذه المعارضات إلى حدوث ثلاث حروب مع الناكثين والقاسطين والمارقين سنمرّ على كل منها مروراً سريعاً.

قتال الناكثين

وقد كان سبب هذه الحرب مع الناكثين (ناقضي العهد) هو انّ طلحةوالزبير اللّذين بايعا علياً قد طلبا منه أن يولّيهما اعمال البصرة والكوفة، ولكن الإمام رفض ذلك، و تركا المدينة سراً والتجآ إلى مكة وجيّشا جيشاً بأموال بيت المال المختلس من قبل بني أُمية وانطلقوا نحو البصرة واستولوا عليها.

فتحرّك علي عليه السلام تاركاً المدينة للقضاء عليهم، وحدثت حرب طاحنة قرب البصرة انتهت بانتصار عليّ وهزيمة الناكثين، وهذه هي حرب الجمل التي لها مساحة كبيرة في التاريخ، اندلعت هذه الحرب سنة ٣٦ هجرية.

قتال القاسطين

كان معاوية قد أعدّ ومنذ فترة سبقت خلافة الإمام علي عليه السلام مقدّمات الخلافة لنفسه في الشام، وما إن استلم الإمام الخلافة عزله عن الشام ولم يرض أن يقرّه عليها لحظةواحدة، وكان حصيلة هذا النزاع هو أن تقاتل جيش العراق وجيش الشام في أرض تدعىٰ صفين وكان انتصار لجيش علي عليه السلام لولا معاوية وخديعته التي أحدثت تمرداً بين جيش الإمام. وفي النتيجة وبعد الضغط الكبير على الإمام علي عليه السلام من قبل جيشه رضخ لتحكيم إبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص لكي ينظروا في مصالح الإسلام والمسلمين يبديا رأيهما،وقد كان الضغط على أمير المؤمنين لأجل قبوله بالتحكيم بدرجة انّه لو لم يقبل به لأودى ذلك إلى

موته ولواجه المسلمون أزمة كبيرة.

وبعد أن حان موعد إعلان رأي الحكمين خدع عمرو بن العاص أبا موسى وهو ما أدّىٰ إلى إفشاء خطة معاوية الشنيعة بين الجميع، وبعد ذلك خرج بعض من المسلمين الذين كانوا في صف الإمام عليه وانتقدوه لقبوله التحكيم الذي فرضوه هم أنفسهم عليه. وقد حدث قتال القاسطين عام ٣٧ هجرية.

قتال المارقين

والمارقون هم أُولئك الذين أجبروا علياً على قبول التحكيم، وندموا بعد عدّة أيام على ذلك، وطلبوا منه أن ينقض العهد من جهته، غير انّ الإمام عليه السلام لم يكن بذلك الشخص الذي ينقض عهده، ولهذاخرجوا على الإمام ووقفوا ضده وقاتلوه في النهروان وقد عرفوا بالخوارج لذلك. وانتصر الإمام في هذه الحرب غير انّ الأحقاد ظلّت دفينة في النفوس. اندلعت هذه الحرب في سنة ٣٨، وعلى رأي بعض المؤرّخين في سنة ٣٩ هجرية.

وأخيراً تضرج الإمام عليه السلام بدمه على يد أحد المارقين وهو عبد الرحمن بن ملجم المرادي في التاسع عشر من رمضان المبارك عام ٤٠ للهجرة أي بعد أربع سنوات و بضعة أشهر من حكوم الإمام علي عليه السلام.[1]

***

وفي الختام تجدر الإشارة إلى أنّ سيرة الإمام علي عليه السلام متعددة الأبعاد والجوانب، فمن العسير بمكان الإلمام بها، و لا ندعي انّنا قدمنا للقراء الأعزاء شيئاً جديداً و إنّما استعرضناها بهدف الحفاظ على تسلسل الموضوعات.

---

١. اعتمد في كتابة هذا الفصل مضافاً إلى المصادر المذكورة في الهامش على كتاب (بحث معمّق حول حياة علي عليه السلام) تأليف الأُستاذ الكبير جعفر السبحاني.

الإمام الحسن المجتبى عليه السلام

* ملاذ المساكين
* السخاء النادر
* دراسة أسباب الصلح مع معاوية
* دوافع الصلح عن لسان الإمام
* لماذا صالح الحسن عليه السلام وثار الحسين عليه السلام

نبذة مختصرة عن حياة الإمام عليه‌السلام

ولد إمام الشيعة الثـاني ـ و هو الثمرة الأُولى لزواج علي الميمون مـن كريمة النبي ـ في النصف من شهر رمضان للسنة الثالثة من الهجرة في المدينة.[1] لم يدرك الحسن بن علي من حياة جدّه العظيم إلاّ سنين قليلة حيث كان في حوالي السابعة من عمره عندما توفّـي النبي، وقد عاصر أباه أمير المؤمنين حوالي ثلاثين عاماً بعد جدّه، وتولّى الإمامة بعد استشهـاد علي عام أربعين مدة ١٠ سنوات، واستشهد ـ و بمؤامرة من معاوية ـ مسموماً عام ٥٠هـ في الثامنـة والأربعين من عمره، ودفن في مقبرة البقيع بالمدينة.

ملاذ المساكين

يتحمّل الأثرياء في الدين الإسلامي مسؤولية كبيرة تجاه الفقراء والمساكين في المجتمـع، وبموجـب الأواصر الـروحية العميقـة والعـلاقات الأخـويـة الدينيـة المترسّخة بين المسلمين يجب عليهم بـذل قصارى جهدهم لسد حـاجات الفقراء والمساكين في المجتمع، ولم يكتف نبي الإسلام وأئمّة ديننا بالتأكيد على ذلك فقط، بل كان كـلّ واحد منهم مثالاً بـارزاً ورائعاً لحب الإنسانية ورعـاية المحتاجين. لم

---

١. مناقب ابن شهـر آشوب:٤/ ٢٨؛ الإرشاد، المفيـد: ١٨٧؛ أُسد الغابـة:٢/ ١٠؛ الإصابـة في تمييز الصحابة:١/ ٣٢٨.

يكن الإمام الثاني يتمتـع بمكانة راقية من ناحية العلم والتقـوى والزهد والعبادة فقط، بـل كان أيضاً في قمّة السخـاء والجود، وأشهر من نار على علـم في الاعتناء بالمسـاكين والفقراء في عصره. كان وجوده بـاعثاً على الشعور بالأمـان في القلوب المنكسرة وملاذاً للفقراء والمسـاكين وبارقة أمل للمستضعفين، ومـا عاد فقير طرق بابه يوماً خالي الوفاض من عنده، ولا رجع مهموم منكسر القلب حمل شكواه إليه إلّاوقد وضع له بلسماً على جراحه، وكان كثيراً ما يحدث انّ الإمام يبادر هو بتقديم يد العون للآخرين وسد حاجاتهم قبيل أن يسأله الفقير ويتصبّب منه عرق الحياء وتبدو عليه مذلّة السؤال.

وكتب السيوطي في تاريخ الخلفاء: كان الحسن له مناقب كثيرة، سيداً حليماً، ذا سكينة ووقار وحشمة، جواداً ممدوحاً.[1]

درس وعبرة

كان الإمام الحسـن المجتبى عليه السلام يهب الفقـراء مبالـغ طائلـة دفعة واحـدة أحياناً ممّا يثير استغـراب الآخرين، والذي يبعث الإمام على ذلك هـو انّه يريد أن يغني الفقير إلى الأبد بحيث يستطيع أن يسد جميع حاجاته ويعيش حياة كريمة أو يستثمرهـا لصالحه. ولم يكـن الإمام ليرضـى بإعطـاء الفقير مالاً ليـوم واحد يسـد حاجته به بصعـوبة بالغة، لأجل ألاّ يضطر إلى مد يـده إلى هذا وذاك لكي يضمن الكفاف لنفسه.

أهل بيت العلم والفضيلة

مرّ رجل بعثمان بن عفان يوماً وهو قاعد على باب المسجد، فسأله، فأمر له

١. تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص ١٨٩.

بخمسة دراهم، فقال لـه الرجل: أرشـدني، فقال له عثمان: دونـك الفتية الـذين ترى، وأومأ بيده إلى نـاحية من المسجد فيها الحسن والحسين وعبـد الله بن جعفر، فمضى الرجل نحوهم حتى سلّـم عليهم وسألهم، فقال له الحسن عليه السلام :«يا هذا انّ المسألـة لا تحل إلاّ في إحدى ثلاث: دم مفجع، أو ديـن مقرع، أو فقر مـدقع، ففي أيّها تسـأل؟» فقال الـرجل في وجـه من هذه الثـلاثة، فـأمر لـه الحسن عليه السلام بخمسين ديناراً، وأمر له الحسين بتسعة وأربعين ديناراً ، وأمر له عبد الله بن جعفر بثمانية وأربعين دينـاراً، فانصرف الرجل، فمـرّ بعثمان فقال له: ماصنعـت؟ فقال: سألتك، فأمرت بها أمرت ولم تسألني فيما أسـأل، وانّ صاحب الوفرة ـ الحسن ـ لمّا سألته سألنـي فيما أسأل، فأعطاني كذا والثاني والثالـث كذا وكذا، فقال عثمان: و من لك بمثل هؤلاء الفتية، أُولئك فطموا العلم فطماً وحازوا الخير والحكمة.[1]

السخاء النادر

بذل الإمام الحسن قصارى جهده في الأعمال الخيرية والتي ترضي الله تعالى، وقد أنفق أموالاً طائلة في سبيل الله، وقد سجّل المؤرّخون والعلماء في حياته المفعمة بالفخر والاعتزاز سخاءه الفريد وعطـاءه العظيم وهو ما لم يلحظ في سيرة أيٍّ من العظماء، ويدلّ ذلـك أيضاً على عظمـة نفسه وعلى عدم مبـالاته بمظـاهر الـدنيا المخادعة، **فقد كتبوا انّه خرج من ماله لله مرتين، وقاسم الله ماله ثلاث مرات حتى كان يعطي نعلاً ويمسك نعلاً.**[2]

---

١. البحار:٤٣/ ٣٣٣.

١. تاريـخ الخلفاء:١٩٠؛ تـاريخ اليعقـوبي:٢/ ٢١٥؛ تذكـرة الخواص:١٩٦؛ إسعاف الـراغبين (في هامش نورالأبصار) ص ١٧٩.

مساعدة غير مباشرة

إنّ طبع الإمام الرقيق وعزة نفسه وكرمها لم يكونا ليسمحا بأن يعود أحد خائباً يائساً من داره، وكان يصادف أحياناً انّه لا يمكنه تقديم المساعدة مباشرة فيحاول أن يقدمها بصورة غير مباشرة، ويقضي للآخرين حاجتهم، كما اتّفق وهو في عنفوان شبابه أيّام الخليفة الثاني أن جاءه رجل فقير وسأله، فصادف عدم وجود شيء من المال في حوزته، و كان عليه السلام من ناحية أُخرى يستحيي أن يخرج الرجل من بيته خائباً فقال له:

«أرشدك إلى أمر تنال به ما أردت؟» فقال الرجل :وماهو؟ قال الإمام : «ماتت اليوم ابنة الخليفة، وهو حزين عليها، ولم يعزّيه أحد، فاذهب إليه وعزّه بما سأقوله لك فتنال ما أردت. قال الرجل: وكيف ذلك؟ إن قدمت إليه فقل: «**الحمد لله الذي سترها بجلوسك على قبرها، ولا هتكها بجلوسها على قبرك**». ففعل، وأثّرت هذه الكلمات العاطفية في نفس الخليفة بشكل كبير وقلّلت من حزنه، فأمر له بجائزة، ثمّ سأله: أمنك هذا الكلام؟ قال: لا، علّمنيه الحسن بن علي، فقال الخليفة: صدقت انّه ذو فصاحة وحلاوة في الكلام.[1]

دراسة دوافع صلح الإمام

إنّ من أكثر جوانب حياة الإمام الحسن أهمية وحساسية وإثارة للبحث والجدل، والذي أثار إشكاليات الأصدقاء السطحيين والأعداء المغرضين ومن لا خبرة لهم، هو ذلك الجانب المتعلّق بعملية صلحه مع معاوية واعتزاله الخلافة والحكم الإسلامي اضطراراً.

وقد تساءل البعض وبعد أن درسوا حياة الإمام الحسن وأحداث تلك الفترة

---

١. حياة الإمام الحسن، القرشي:١/ ٣٠٢.

عن دافعه في صلحه مع معاوية؟ أو لم يبايعه أتباع أبيه علي وشيعته؟! أو لم يكن من الأفضل أن يقوم الإمام الحسن بما قام به الإمام الحسين بعد ذلك ويقف في وجه معاوية وحينها إمّا كان ينتصر أو تزلزل شهادته أركان حكمه؟!

وقبل أن نجيب على هذه الأسئلة يلزم في البداية أن نلفت الانتباه إلى النقاط الثلاث التالية:

١. جهاد الإمام الحسن عليه السلام قبل الإمامة

كان الإمام الحسن عليه السلام ـ كما يشهد التاريخ ـ شخصاً شجاعاً مقداماً وشهماً، لا يعرف الخوف طريقه إليه، ولم يبخل يوماً في تقديم أي تضحية في سبيل تقدّم الإسلام وإعلاء كلمته، وكان دائم الاستعداد للجهاد في سبيل الله.

في حرب الجمل

كان الإمام الحسن يقاتل مع أبيه أمير المؤمنين جنباً إلى جنب وفي الخط الأمامي من ساحة القتال في حرب الجمل، وكان يتسابق مع أصحاب علي عليه السلام الشجعان البسلاء في ذلك، ويشن على قلب جيش الأعداء هجمات خطيرة وعنيفة.[1] وقبل بدء الحرب دخل الكوفة وبأمر من أبيه برفقة عمار بن ياسر وعدّة من أصحاب أمير المؤمنين ودعا أهلها للمشاركة في القتال.[2] دخلها في الوقت الذي كان أبو موسى الأشعري أحد عمّال عثمان على الكوفة، وقد أبقاه الإمام لأسباب في منصبه وهو يعارض حكومة أمير المؤمنين العادلة ويثبط المسلمين عن

١. مناقب ابن شهر آشوب: ٤/ ٢١.

٢. تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٧٠؛ الإمامة والسياسة، الدينوري: ١/ ٦٧.

الاصطفاف في جيش علي لمحاربة الناكثين، غير انّه ورغم ذلك استطاع أن يعبّأ جيشاً تعدى التسعة آلاف مقاتل وبعث بهم إلى ساحة القتال.(١)

في حرب صفين

وقد كان له دور فاعل في تعبئة القوات وإرسال الجيش إلى قتال معاوية في حرب صفين أيضاً، وكان يدعو أهل الكوفة إلى الجهاد بجانب أمير المؤمنين للقضاء على أعداء الإسلام وخونته.(٢)

وقد بلغ في استعداده للتضحية في سبيل الحقّ مبلغاً في حرب صفين جعل أمير المؤمنين يطلب من أصحابه أن يمنعوه هو وأخاه الحسين من مواصلة القتال لئلاّ ينقطع بهما نسل رسول الله صلى الله عليه وآله.(٣)

٢ .مناظرات الإمام الحسن الدامغة مع بني أُميّة

لم يتساهل الإمام الحسن عليه السلام يوماً في بيان الحقّ وإظهاره والدفاع عن الإسلام، فقد كان ينتقد الأعمال الغير إسلامية التي كان يقوم بها معاوية، ويكشف الغطاء عن ماضيه المشين المخزي علناً وبلا مهابة. تشهد له بذلك مناظراته واحتجاجاته المثيرة والدامغة معه هو وأتباعه ومرتزقته، أمثال: عمرو بن العاص، وعتبة بن أبي سفيان، والوليد بن عقبة، والمغيرة بن شعبة، ومروان بن الحكم.(٤)

وقد وصل به الأمر إلى أن ـ و ذلك بعد عقد الصلح الذي ازدادت به قوّة

---

١. الأخبار الطوال، ص ١٤٤ـ ١٤٥؛ الكامل في التاريخ:٣/ ٢٣١.

٢. وقعة صفين، نصر بن مزاحم، ص ١١٣.

٣. شرح نهج البلاغة: ١١/ ٢٥، الخطبة ٢٠٠.

٤. الاحتجاج: ١٤٤ـ ١٥٠.

معاوية وثبت موقعه أكثر من السابق ـ يرتقي المنبر حينما دخل معاوية الكوفة، ويشرح دوافع صلحه ومناقب آل علي بن أبي طالب، ثمّ تطرق بعد ذلك إلى مثالب ومساوئ معاوية، وبحضور الجميع ووجّه إليه نقداً لاذعاً وبصراحة شديدة.[١]

وبعد استشهاد أمير المؤمنين وصلح الحسن عبّأت الخوارج قواتها جميعاً لقتال معاوية، وقد سمع هذا الأخير انّ حوثرة الأسدي ـ وهو من قادة الخوارج ـ قد تمرّد عليه وجنّد له جيشاً. وأرسل معاوية ـ لتثبيت موقعه وتعزيزه ومحاولة منه للتظاهر بأنّ الإمام مطيع لأوامره ـ إلى الحسن و هو في طريقه إلى المدينة رسالة يدعوه فيها إلى القضاء على تمرّد حوثرة، ثمّ يواصل مسيره، فأجاب الإمام : «والله لقد كففت عنك، لحقن دماء المسلمين، انّي تركتك لصلاح الأُمّة وما أحب ذاك يسعني، أفأُقاتل عنك قوماً أنت والله أولى بالقتال منهم».[٢] تظهر في هذه الكلمات روح البسالة والشجاعة لا سيما تلك العبارة التي يحتقر فيها معاوية بكلّ عظمة حيث قال: فإنيّ تركتك لصلاح الأُمّة .

٣. قانون الصلح في الإسلام

وممّا ينبغي معرفته هو انّه لا يوجد هناك قانون واحد باسم الحرب والجهاد، فكما يأمر الإسلام المسلمين بالجهاد والقتال في ظروف معينة، كذلك يأمرهم بالصلح كلما لم تنفع الحرب في الوصول إلى الهدف. وقد شاهدنا كلتا الحالتين في سيرة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم ، فقد خاض المعركة في بدر وأُحد والأحزاب وحنين، بينما

---

١. نفس المصدر، ص ١٥٦.

٢. شرح نهج البلاغة: ٥/ ٩٨؛ الكامل في التاريخ: ٣/ ٤٠٩؛ كشف الغمة: ٢/ ١٩٩؛ الكامل في اللغة والأدب، المبرد: ٢/ ١٩٥.

صالح أعداء الإسلام واعتزل الحرب بشكل مؤقت كي يضمن تقدم الإسلام وإعلاء كلمته في ظل ذلك، ومن هذا القبيل كان صلح النبي مع بني ضَمْرة وبني أشجع وأهل مكة في الحديبية أيضاً.(١)

وعليه فكما أنّ النبي صلى الله عليه وآله تصالح مع الأعداء وفقاً لمصالح عليا قد تكون فوق درك بعض الناس وفهمهم في تلك الفترة، كذلك الحسن ـ و باعتبار انّه كان قائداً وإماماً قد أحاط بجميع جوانب الأمر علماً أفضل من أي شخص آخر ـ رأىٰ وبعمق انّ من صلاح الأُمّة الإسلامية وخيرها هو عدم استمرار الحرب، ومن هنا يجب أن لا يكون هذا الأمر مثاراً للنقد والاعتراض، بل ينبغي أن نحسب سيرة الإمام وسلوكه سلوكاً يضاهي سلوك الرسول ويطابقه.

و الآن ولأجل أن تتضح دوافع صلحه عليه السلام ونتائجه جيداً يجب علينا أن نتصفح التاريخ وندرس هذا الموضوع في ضوء الوثائق التاريخية الأصيلة.

وينبغي القول عموماً انّ الإمام الحسن عليه السلام لم يصالح في الواقع بل فُرض الصلح عليه، أي تعاونت الظروف المتردية مع العوامل الأُخرى بحيث أوجدت وضعاً جعل الصلح أمراً ضرورياً مفروضاً على الإمام و لم ير حلاً غير ذلك، بحيث لو كان أي شخص يعيش ظروفه لما كان يختار غير الصلح والهدنة، ذلك انّ الأوضاع والظروف خارج العالم الإسلامي والوضع الداخلي في العراق ومعسكره هو عليه السلام ، كلّ ذلك كان يدعو إلى عدم استمرارية الحرب، وسوف ندرس جميع ذلك بالصورة التالية.

---

١. شرح النهج: ٥/ ٩٨؛ ورداً على اعتراض أحدهم لصلحه مع معاوية وقد عوّل عليه السلام على عقود صلح الرسول قال عليه السلام : إنّ ما جعل رسول الله يصالح تلك القبائل جعلني أُصالح معاوية أيضاً، البحار: ٤٤/ ٢.

من ناحية السياسة الخارجية

فمن ناحية السياسة الخارجية لتلك الفترة لم تكن الحرب الأهلية الداخلية في صالح العالم الإسلامي، لأنّ الروم الشرقية التـي كانت قد تلقّت ضربات قوية من الإسـلام كانـت تتحيّن الفرصة المناسبة دائماً لضرب الإسـلام ضربة انتقـامية كبيرة كي تأمن سطوته وسلطته، وعنـدما وصل نبأ اصطفاف جيشي الإمام الحسن ومعـاوية أمـام بعضهما إلى قادة الـروم، راحوا يعتقـدون انّهم حصلوا على أفضـل فرصة ممكنـة لتحقيق أهدافهم، ولـذلك انطلقوا بجيش جـرّار للهجوم على العالم الإسلامي لينتقموا من المسلمين، فهل يبقى هنـاك خيار أمام شخصية مثل الإمام الحسن حملـت أعباء رسالـة الحفاظ على الإسـلام غير الصلح والهدنة الـذي وقى العالم الإسلامـي من هذا الخطر الكبير وفي هـذه الظروف الحرجة، وحتى لـو كان ذلك على حساب الضغوط النفسية ولوم الاصدقاء السذج السطحيين؟!

وكتب اليعقوبي المؤرّخ المعـروف: ورجع معاوية إلى الشـام سنة ٤١ وبلغه انّ طاغية الروم قد زحف في جموع كثيرة وخلـق عظيم، فخاف أن يشغله عمّا يحتاج إلى تدبيره وأحكامه، فوجه فصالحه على مائة ألف دينار.[١]

تدلّ هذه الوثيقة التاريخية على أنّـه عندما كان النزاع مشتداً بين الطرفين في المجتمع الإسلامي كان عـدو المسلمين المشترك على استعداد للهجوم عليه حيث كان العالم الإسلامـي عرضة لخطر حقيقي، ولو كانـت الحرب تندلع بين الإمام و معاويـة، لكانـت امبراطورية الـروم الشرقية هـي المنتصر الوحيـد وليس هما، غير انّ هذا الخطر قد اندفع بحكمة الإمام وتدبيره وسعة أُفق نظرته وتسامحه، وقد قال الإمام الباقر عليه السلام لشخص اعترض على صلح الإمام الحسن عليه السلام : «اسكت، فإنّه

١. تاريخ اليعقوبي:٢/ ٢٠٦.

أعلم بما صنع لولا ما صنع لكان أمر عظيم».[١]

من ناحية السياسة الداخلية

ما من شكّ في أنّه يجب على كلّ قائد يريد الانتصار على عدوه في ساحة القتال أن يتمتع بجبهة داخلية قوية مستقرة ومتحدة، لأنّ خوض الحرب بدونها سوف لن يجلب سوى الهزيمة الفادحة، وعند دراسة دوافع صلح الإمام الحسن من ناحية السياسة الداخلية والوضع الداخلي يلفت انتباهنا أمر مهم جداً، وهو فقدان تلك الجبهة الداخلية القوية المتحدة حيث لم يكن يتمتع أهل العراق لا سيما الكوفيون منهم بالاستعداد النفسي للقتال ولا بالانسجام والاتحاد في زمن الإمام.

الملل من الحرب

لقد كانت حروب الجمل وصفين والنهروان والحروب الخاطفة التي نشبت بين قوات معاوية وبين مراكز الحدود في العراق والحجاز و اليمن بعد التحكيم قد ولّدت عند أصحاب الإمام علي حنيناً إلى السلم والموادعة، فقد مرت عليهم خمس سنين وهم لا يضعون سلاحهم من حرب إلاّ ليشهروه في حرب أُخرى، وكانوا لا يقاتلون جماعات غريبة عنهم وإنّما يحاربون عشائرهم وإخوانهم بالأمس ومن عرفهم وعرفوه الذين أصبحوا الآن في معسكر معاوية.[٢]

---

١. بحار الأنوار:٤٤/ ١، و قد أفدنا لكتابة هذا الموضوع مضافاً إلى المصادر السابقة من كتيب يحمل عنوان فلسفة صلح إمام حسن بلا اسم المؤلف والناشر.

٢. قد قتل في حرب الجمل أكثر من ثلاثين ألفاً ؛ تاريخ اليعقوبي:٢/ ١٧٢ وقتل في النهروان أربعة آلاف من الخوارج؛ نفس المصدر:٢/ ١٨٢، وكانت خسائر الطرفين في صفين قد بلغت المائة وعشرة آلاف قتيل؛ مروج الذهب:٢/ ٣٩٣.

وقد عبّر الناس عن رغبتهم في الدعة وكراهيتهم للقتال بتثاقلهم عن حرب الفرق الشامية التي كانت تغير على الحجاز واليمن وحدود العراق، وتثاقلهم عن الاستجابة للإمام عليّ حين دعاهم للخروج ثانية إلى صفين.[1]

وكتب الدكتور طه حسين وبعد ذكر أحداث التحكيم ووخامة الظروف عند نهاية حرب صفين:

«وهمّ عليّ بعد ذلك بالمضيّ إلى الشام، ولكن المنافقين من أصحابه أشاروا عليه بالعودة إلى الكوفة ليصلحوا من أمرهم بعد هذه الموقعة وليذهبوا إلى عدوهم بما ينبغي لهم من العدد والعدة، فعاد بهم إلى الكوفة ولكنّه لم يخرج منها وتفرق أصحابه إلى أهلهم وأقبلوا على أعمالهم وزهدوا في الحرب حتى أيأسوا علياً منهم، فجعل يدعوهم ويلحّ في دعائهم، ولكنّهم لا يسمعون منه ولا يستجيبون لدعائه، حتى قال ذات يوم في خطبة له: «لقد أفسدتم علي رأيي بالعصيان، حتى قالت قريش ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب، لله أبوهم ومن يكون أعلم بها مني».[2]

فلما استشهد الإمام علي عليه السلام وبويع الحسن عليه السلام بالخلافة برزت هذه الظاهرة على أشدها وبخاصة حين دعاهم الحسن للتجهّز لحرب الشام حيث كانت الاستجابة بطيئة جداً. وعندما وصل خبر تحرك جيش معاوية باتجاه الكوفة، أمر الإمام الحسن أن يجتمع الناس في مسجدها، ثمّ خطب خطبة، وبعد أن أشار إلى تعبئة قوات معاوية، دعاهم إلى الجهاد في سبيل الله، والصمود والثبات في قتال أتباع الضلالة والفئة الباغية، وذكّرهم بضرورة الصبر والتضحية واحتمال

١. ثورة الحسين، محمد مهدي شمس الدين، ص ١٣٨ـ ١٤١.
٢. مرآة الإسلام، ص ٢٤٨ـ ٢٥٠، طه حسين.

الصعوبات، وبالنظر إلى أنّه كان على علم بمستوى الناس النفسي، قلق عليه السلام من عدم استجابتهم لدعوته، وهذا ما حدث بالفعل، فبعد ان أنهى خطبته المثيرة الجهادية، لزم الجميع الصمت ولم يستجب له أحد منهم ولا أيّدوه بكلمة، وقد كان هذا الموقف مؤسفاً ومحزناً إلى درجة انّ أحد أصحاب أمير المؤمنين البسلاء الذي كان حاضراً أنّبهم ووبّخهم ولامهم على هذا التثاقل والتخاذل ووصفهم بأنّهم أبطال مزيّفون جبناء، ودعاهم إلى قتال الشاميين والوقوف مع الإمام جنباً إلى جنب.[1]

ويدلّ هذا الأمر على مدى الخذلان والتثاقل الذي وصل إليه أهالي العراق آنذاك حيث خمدت في نفوسهم نار الحماس والجهاد ولم يكونوا على استعداد لخوض القتال.

وأخيراً وبعد خطب بعض أصحاب الحسن عليه السلام الكبار ومحاولاتهم لتعبئة القوات وحث الناس على القتال، انطلق الحسن مع نفر قليل من الكوفيين متجهاً نحو مكان يدعى «النُّخيلة» وعسكر هناك، وبعد انتظار لتعزيز القوات طال عشرة أيام اجتمع في معسكره أربعة آلاف مقاتل. ولأجل ذلك اضطر الإمام إلى العودة للكوفة للمحاولة مرة أُخرى لتعبئة قوات أكثر.[2]

المجتمع المتناقض

مضافاً إلى ذلك لم يكن المجتمع العراقي في تلك الفترة مجتمعاً مترابطاً ومتحداً يسوده الانسجام، بل كان مؤلفاً من شرائح وتيارات عديدة متناقضة بينها

١. مقاتل الطالبيين، الاصفهاني، ص ٣٩؛ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد:١٦/ ٣٨؛ أنساب الأشراف، البلاذري، ص ٦٠.

٢. صلح الحسن، آل ياسين، ص ١٠٢.

لا يجمعها أي تفاهم وتنسيق، فقد كان هناك أنصار الحزب الأموي الخطير، والخوارج الذين يوجبون محاربة الفريقين، والمسلمون الموالي الذين وفدوا إلى العراق من مناطق أُخرى حيث قد بلغ عددهم العشرين ألفاً، وأخيراً جماعة شكّاكون بلا عقيدة ثابتة يتأرجحون بين تأييد هذاالتيار وذاك.

هؤلاء جميعاً شكّلوا المجتمع العراقي في تلك الفترة، هذا مضافاً إلى تلك الشريحة التي تشايع خط أمير المؤمنين وأهل البيت.[١]

جيش متفكّك

وقد انعكست طبعاً ظاهرة التعدّدية العقائدية والتباين الفكري والتفكّك على جيش الإمام الحسن عليه السلام أيضاً وجعلت منه جيشاً لا يتمتع بالانسجام والتماسك، ولذلك كان من غير الممكن الاعتماد على هذا الجيش في مواجهة العدو الخارجي.

وقد كتب أُستاذ الشيعة المرحوم الشيخ المفيد والمؤرّخون الآخرون حول هذه الظاهرة الخطيرة في جيش الإمام: وبعث حجراً يأمر العمال بالمسير واستنفر الناس للجهاد فتثاقلوا عنه ثمّ خفوا ومعه أخلاط من الناس:

أ. بعضهم شيعة له ولأبيه.

ب. وبعضهم محكّمة ـ أي خوارج ـ يؤثرون قتال معاوية بكلّ حيلة ـ بغضاً بمعاوية لا حباً بالحسن ـ.

ج. وبعضهم أصحاب فتن وطمع في الغنائم.

د. وبعضهم شكّاك لا يرون للحسن أي أفضلية على معاوية.

---

١. نفس المصدر، ص ٦٨ ـ ٧٤.

هـ. وبعضهم أصحاب عصبية اتّبعوا رؤساء قبائلهم لا يرجعون إلى دين.[1]

وهكذا كان جيش الحسن يفتقد الوحدة والانسجام الضروريين في مواجهة عدو قوي كمعاوية.

وثيقة حية

قد لا تكون هناك وثيقة تعطي صورة شاملة عن طبيعة المجتمع العراقي وتخاذله في الحرب أكثر نطقاً وأبلغ من كلام نفس الإمام، فقد خطب خطبة جامعة حماسية في المدائن أي النقطة الأخيرة التي وصلها:

«والله ما ثنانا عن أهل الشام شك ولا ندم، وإنّما كنّا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر، فسلبت السلامة بالعداوة، والصبر بالجزع، وكنتم في منتدبكم إلى صفين ودينكم أمام دنياكم، فأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم، ألا وإنّا لكم كما كنّا ولستم لنا كما كنتم، ألا وقد أصبحتم بين قتيلين: قتيل بصفين تبكون له و قتيل بالنهروان تطلبون بثأره، فأمّا الباقي فثائر، ألا وإنّ معاوية دعانا إلى أمر ليس فيه عزّ ولا نصفة، فإن أردتم الموت رددناه عليه وحاكمناه إلى الله عزّ وجلّ بظباء السيوف، وإن أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضا».[2]

وما إن بلغ الإمام هذا الموضع من خطبته ناداه القوم من كلّ جانب: البقية البقية.

---

١. الإرشاد، المفيد، ص ١٨٩؛ الفصول المهمة، ابن صباغ المالكي، ١٦٧.

٢. أُسد الغابة في معرفة الصحابة: ٢/ ١٣ و١٤؛ الكامل في التاريخ: ٣/ ٤٠٦؛ بحار الأنوار: ٤٤/ ٢١؛ تذكرة الخواص، ابن الجوزي، ص ١٩٩.

إذن كيف يمكن للإمام أن يواجه عدوّاً قوياً مثل معاوية بالاعتماد على مثل هذا الجيش الفاقد لروح الجهاد؟! وهل يكـون النصر مرجواً أبداً معه وهو متركّب من تيارات وشرائح متضاربة متناقضة، الأمـر الذي يمكن أن يكون مصدر خطر بمجرد الغفلة عنه؟!

وإذا افترض انّ الإمام الحسـن ومعاوية قد تبـادلا مواقعهما، وكان معـاوية قائداً لمثل هذا الجيش، فهل كان بإمكانه أن يقوم بغير ما قام به الإمام؟!

نعم تعاونت هـذه الأسباب واجتمعت لتدفع بالمجتمـع الإسلامي إلى شفا وادي الدمار وخلّفت أحداثاً مريرة سنشير إليها.

تعبئة القوات من قبل الإمام الحسن عليه السلام

قد شـوّه بعض الكتّاب والمؤرّخين القدامـى والمعاصرين الحقائق التـاريخية وادّعى انّ الإمام الحسن لم ينـو قتال معاوية والاختلاف معه، بـل كان ومنذ الأيام الأُولى يتطلّع إلى الحصول على امتيازات مادية منـه ليتمتّع بحياة رغيدة مرفّهة، ولم يكن نزاعه مع معاوية إلاّ لتحقيق تلك الأهداف والوصول إلى هذه الامتيازات!

هناك وثائق حية تدلّ على وهـن هذه الافتراءات والتهم، وانّها لا تتلاءم مع الحقائق التـاريخية على الإطلاق، لأنّـه لو لم يشأ قتال معـاوية لما كان هنـاك معنى لتعبئته للقـوات وتجهيزه للجيـش، وقد أجمع المؤرّخـون على أنّه عليه السلام جهز جيشـاً واستعد للقتـال، غير انّ انعدام الانسجام ووجود التحـزّب في جيشه من نـاحية، وتفكّكه قبـل بدء الحرب ونشـوب النزاع أثر مـؤامرات معـاوية الغـادرة وخذلان الناس له من نـاحية أُخرى، دفعاه إلى أن يوقف الحرب ويخضـع للصلح والسلم، وعليـه بدأ عمـل الإمام بـالتحـرّك وإعلان الحرب وإعـداد الجيش، وانتهـى إلى

الصلح والهدنة، وهو يدرك بعمق طبيعة المجتمع الإسلامي وظروفه ويهمه مصالح الأمّة.[1]

وهنا نسترعي انتباه القرّاء إلى التفصيلات التالية.

ناكثو العهد

وكما أسلفنا لم يكن العراقيون على مرام واتجاه واحد، بل كانوا مذبذبين لا يعرفون الوفاء ولا يمكن الاعتماد عليهم والثقة بهم، يرفعون في كلّ يوم راية من الرايات وشعاراً من الشعارات، وطالما يخضعون للسلطات التي تحكمهم، وكما يقال يأكلون الرغيف بسعر اليوم.

وانطلاقاً من هذه الروح التي تحكمهم وتزامناً مع اشتداد تجهيز الجيوش وتعبئة القوات من الجانبين، خان بعض رؤساء القبائل والشخصيات المنحدرة من عوائل كبيرة الإمام الحسن وراسلوا معاوية وأعلنوا عن حمايتهم لحكمه وشجعوه على المسير نحو العراق سرّاً واعدين إيّاه أن يسلّموه الحسن حياً أو ميتاً إذا ما وصل هو إليهم، فأرسل معاوية نفس تلك الرسائل إلى الإمام، وقال له: كيف تقاتلني وأنت تثق وتعتمد على هؤلاء؟![2]

---

١. ولهذا السبب ألف عدّة من المؤرّخين المسلمين القدماء كتباً تحت عنوان ـ قيام الحسن ـ ومنها الكتابان التاليان:

ألف: قيام الحسن عليه السلام، تأليف هشام بن السائب الكلبي (المتوفّى ٢٠٥هـ).

ب: قيام الحسن عليه السلام، تأليف إبراهيم بن محمد الثقفي(المتوفّى عام ٢٨٣هـ). (امام در عينيّت جامعه، محمد رضا الحكيمي، ص ١٧١).

٢. الإرشاد: ١٩١، و ما يدعم هذه الحقيقة هو ما أجاب به الإمام الحسن أحد شيعته ،فقد قال عليه السلام ضمن سؤاله حول انّه لماذا أعرضت عن القتال؟:«والله لو كنت قاتلت معاوية لسلمني الناس إليه» ؛ البحار:٤٤/ ٢٠.

القائد الخائن

جعل الإمام الحسن عليه السلام عبيد الله بن عباس على مقدمة الجيش وأرسل معه اثني عشر ألفاً من المقاتلين بعد أن ترك الكوفة منطلقاً إلى قتال معاوية، ونصب كلاً من: قيس بن سعد وسعيد بن قيس، وهما من كبار أصحابه كمستشارين له يخلفانه إذا ما حدث حادث لواحد من هؤلاء الثلاثة على التوالي.[١]

حدّد الإمام مسير الجيش واتجاهه وأمر بأن يصد جيش معاوية أينما وجد، وأن يطلعوه على ذلك حتى ينطلق هو بأصل الجيش نحوهم ويلتحق بهم فوراً.[٢]

انطلق عبيد الله بمجموعته وعسكر بأرض تدعى« مسكن» قبال جيش معاوية.

لم يمضِ وقت طويل حتى أُبلغ الإمام بأنّ عبيد الله قد استلم مليون درهم من معاوية والتحق بمعسكره ليلاً برفقة ثمانية آلاف مقاتل.[٣]

وكان من الواضح مدى تأثير خيانة هذا القائد في زعزعة معنويات الجيش وضعضعة وضع الإمام العسكري في تلك الظروف الحرجة. ومهما كان فقد تولّى قيس بن سعد الذي كان رجلاً شجاعاً تقياً ووفياً لآل علي كثيراً قيادة الجيش بأمر من الإمام الحسن، وقد حاول أن يرفع من معنويات المقاتلين خلال خطبة حماسية، وأراد معاوية أن يغريه بالمال أيضاً غير انّه لم يبع نفسه وراح يواصل صموده أمام أعداء الإسلام.[٤]

---

١. لم يذكر اليعقوبي سعيد بن قيس وذكره المؤرّخون الآخرون.		٢. مقاتل الطالبيين: ٤٠.

٣. وقد قتل ولدي عبيد الله أحد قادة معاوية الدمويين بسر بن أرطأة، شرح النهج :٢/ ١٤، و كان يجدر بعبيد الله أن يمنعه ـ على أقل تقدير ـ لمعاوية الذي قتل ابنيه من هذا العمل الشائن، غير انّ تلك الشخصية المتخاذلة شتّت جيش الإمام بانضمامها إلى معاوية وخانت خيانة عظمى.

٤. مقاتل الطالبيين، ص ٤٢؛ تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢٠٤.

المؤامرات الغادرة

لم يكتف معاوية بشراء عبيد الله، بل راح وبدافع اختراق جيش الإمام الحسن وبث روح الفرقة والأراجيف من خلال جواسيسه ومرتزقته يشيع بين جيش الإمام انّ قيس بن سعد قد صالح معاوية، ويشيع في جيش قيس أيضاً انّ الحسن بن علي صالح معاوية هو الآخر.

وقد وصل بهم الأمر إلى أن أرسل معاوية عدّة ممن عُرفوا بحسن الظاهر لدى الناس للقاء الإمام الحسن فالتقوا به في معسكر المدائن، وبعد أن خرجوا من خيمته راحوا ينادون بصوت عال: إنّ الله قد حقن بابن رسول الله الدماء وسكن الفتنة وأجاب إلى الصلح. فصدّقهم الناس وكانوا يثقون بهم ولم يحاولوا استقصاء الحقيقة، فتمرّدوا على الإمام، وهاجموا خيمته وسلبوا ما فيها، ثمّ تفرّقوا بعد ان حاولوا قتله.[١]

خيانة الخوارج

انطلق الإمام تاركاً المدائن نحو ساباط، وكان قد كمن له أحد الخوارج في الطريق مسبقاً، فضربه ضربة قوية، فأخذ الإمام ينزف دماً أثر الجراح، ثمّ نقله بعض أصحابه المقربين إلى المدائن وتوخّمت حالته الصحية هناك، فراح معاوية يسيطر على الوضع باستغلاله لهذه الفرصة المتاحة، فاضطر الإمام الذي فقد قوته

---

١. وكما أسلفنا ونظراً إلى أنّ جيش الإمام قد تألّف من شرائح وتيارات عديدة بينها الخوارج وبعض الوصوليين لم يكن من الغريب أن يحاولوا قتله وسلبه وينادوا حينها انّ هذا الرجل باعنا لمعاوية وذلّ المسلمين!! فكم كان سبط النبي الأكبر مظلوماً حقاً؟!

العسكرية الرئيسية وظل وحيداً إلى قبول اقتراح الصلح والسلم.[١]

وعليه إذا الإمـام قد رضخ للصلح فـلأنّه لم يملك حلاً غير ذلـك كما كتب الطبري ومؤرّخون آخرون: فلمّا أفردوه أمضى الصلح.[٢]

رأي الإمام حول دوافع الصلح

وردّاً على اعتراض أحدهم على صلحـه وضع الإمام يده على هـذه الحقائق المريرة، ووضّح دوافع مبادرته هذه بالنحو التالي:

«والله مـا سلمت الأمـر إليـه، إلاّ أنّي لم أجد أنصـاراً، ولـو وجدت أنصـاراً لقاتلته ليلي ونهاري حتى يحكم الله بيني وبينه، ولكنّي عرفت أهل الكوفة وبلوتهم، ولا يصلح لي منهم مـن كان فاسداً، انّهم لا وفاء لهم ولا ذمـة في قول ولا في فعل، انّهم لمختلفون يقولون لنا انّ قلوبهم معنا وانّ سيوفهم لمشهورة علينا».[٣]

وقد خطب الإمام ـ و كان مستاء ومتأثراً من تثاقل أصحابه وتخاذلهم ـ خطبة قـال فيها: «يا عجباً من أُناس لا ديـن لهم ولا حياء، ويلكم والله انّ معاوية لا يفي لأحد منكم بما ضمنه في قتلي، وانّي إن وضعت يدي في يده فـأُسا له لم يتركني أدين لـدين جدي صلى الله عليه وآله، وانّي أقدر أن أعبد الله عزّ وجـلّ وحدي، وأيم الله لا رأيتم فرجاً ولا عـدلاً أبداً مع

١. تـاريخ اليعقـوبي:٢/ ٢٠٥، وقد اختلـف المؤرخون في نقـل الوقـائع التي انتهـت إلى نهب سرادق الحسن عليه السلام والهجوم عليـه، فقد كتب الطبري وابن الأثير وابـن حجر العسقلاني: فبينـا الحسن في المدائن إذ نادى منـاد في العسكر ألا انّ قيس بن سعـد قد قتل، فـانفروا فنفروا...(تاريـخ الأمم والملوك:٦/ ٩٢؛ الكامل في التاريخ:٣/ ٤٠٤؛ الاصابة في تمييز الصحابة:١/ ٣٣٠).

٢. تاريخ الطبري:٦/ ٩٢؛ أُسد الغابة:٢/ ١٤.

٣. بحار الأنوار:٤٤/ ١٤٧؛ الاحتجاج، ص ١٥٧.

ابن آكلة الأكباد وبني أُميّة وليسـومنكم سوء العذاب، وكأنّي انظر إلى أبنـائكم واقفين على أبـواب أبنائهـم يستسقونهم ويستطعمـونهم بما جعله الله لهم فـلا يسقون ولا يطعمون، ولـو وجدت أنصـاراً في قتال أعداء الله لما سلّمت الخلافة لمعاوية، لأنّها تحرم على بني أُميّة».(١)

وقد قـال الإمام المجتبى ذات يوم ــ و هو يعـرف طبيعة حكـومة معـاوية الخبيثة جيداً ــ كلاماً في مجلس حضر فيـه: «وأيم الله لا ترىٰ أُمّة محمـد خفضاً ما كانت سادتهم وقادتهم في بني أُمية».(٢)

وكـان هذا إنـذاراً للعراقيين الـذين تـركـوا قتال معـاوية بسبـب تخاذلهم ورغبتهـم في الـدعة والـراحـة، وهـم يجهلـون حقيقـة انّهم لن يصلـوا إلى آمـالهم وأُمنياتهم في ظل حكومة معاوية.

معاهدة الصلح وأهداف الإمام

عندما ارتأى الإمام الثاني انّ الحرب تتعارض مع المصالح العليا للمجتمع الإسلامـي والحفاظ على كيان الإسلام ودخـل السلم اضطراراً للظـروف العصيبة التي أُشير إليها تفصيـلاً مسبقاً، بذل قصارى جهده لضمان تحقيق أهـدافه العليا والمقدّسة بأقصى ما يمكن من خلال هذا الصلح بطريقة سلمية.

ومـن نـاحيـة أُخـرى ولأنّ معـاوية كـان مستعـداً لأن يقـدّم أي نـوع مـن الامتيـازات والتنازلات للـدخول في السلـم واستلام السلطـة، لدرجـة انّه أرسـل

١. جلاء العيون:١/ ٣٤٥ـ٣٤٦.

٢. شرح نهج البلاغة:١٦/ ٢٨.

صحيفة بيضاء مختومة إلى الإمام كتب فيها: أن اشترط في هذه الصحيفة ما شئت فهي لك،[1] استغل الإمام هذه الفرصة فكتب في معاهدة الصلح جميع القضايا الهامة والحسّاسة ذات الأولوية التي تمثل مبادئه الكبيرة، وطلب من معاوية الالتزام بما جاء فيها.

وعلى الرغم من أنّ نصوص معاهدة الصلح مبعثرة في كتب التاريخ، بل وأشار كلّ من المؤرّخين إلى بعض بنودها وموادها بيد انّه يمكن تأليف صورة كاملة من مجموع ما تبعثر منها في الكتب، وبإلقاء نظرة على تلك البنود التي وضعها الإمام وأصرّ على إدراجها، يمكن أن نفهم قوة التدبير العالية التي استخدمها على صعيد النضال السياسي للحصول على تلك الامتيازات.

والآن وقبل أن ندرس كلاً من بنود معاهدة الصلح على حدة، يمكننا حصر نصها في خمسة بنود كما في الصورة التالية:

البند الأوّل: تسليم الأمر ـ الخلافة ـ إلى معاوية على أن يعمل بكتاب الله وسنّة رسوله.

البند الثاني: أن تكون للحسن الخلافة من بعده، فإن حدث به حدث فلأخيه الحسين، وليس لمعاوية أن يعهد بها إلى أحد.

البند الثالث: أن يترك سب أمير المؤمنين والقنوت عليه في الصلاة، وأن لا يذكر علياً إلاّ بخير.

البند الرابع: استثناء ما في بيت المال وهو خمسة ملايين درهم وتكون بحوزة الإمام الحسن، وأن يفضّل بني هاشم في العطاء والصلات على بني أُمية، وأن يفرّق

---

١. الكامل في التاريخ: ٣/ ٤٠٥؛ الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ في هامش الاصابة: ١/ ٣٧١؛ تاريخ الطبري: ٦/ ٩٣.

في أولاد من قتل مع أمير المؤمنين يوم الجمل وصفين مليون درهم، و أن يجعل ذلك من خراج دار أبجرد.[١]

البند الخامس: الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله في شامهم وعراقهم وحجازهم ويمنهم، وأن يؤمن الأسود والأحمر، وأن يحتمل معاوية ما صدر من هفواتهم، وأن لا يتبع أحداً بما مضى، وأن لا يأخذ أهل العراق بأحنة وحقد، وعلى أمان أصحاب علي حيث كانوا، وأن لا ينال أحداً من شيعة علي بمكروه، وانّ أصحاب علي وشيعته آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم، وأن لا يتعقّب عليهم شيئاً ولا يتعرض لأحد منهم بسوء، ويوصل إلى كلّ ذي حق حقّه، وعلى أن لا يبغي للحسن بن علي ولا لأخيه الحسين ولا لأحد من أهل بيت الرسول غائلة سراً ولا جهراً، ولا يخيف أحداً منهم في أُفق من الآفاق.

فكتب معاوية جميع ذلك بخطه وختمه بخاتمه، وبذل عليه العهود المؤكدة والأيمان المغلّظة، وأشهد على ذلك جميع رؤساء أهل الشام.[٢]

وهكذا تتحقّق نبوءة نبي الإسلام التي أطلقها عندما شاهد الحسن بن علي وهو لم يزل طفلاً من على منبره وقال:

---

١. دار ابجرد هي إحدى المدن الخمس في ولاية فارس قديماً (لغتنامه دهخدا، كلمة دار أبجرد).
ولعلّ اختيار خراج دار ابجرد كان بسبب ـ و وفقاً للوثائق التاريخية ـ انّ أهلها استسلموا طوعاً بلا قتال للجيش الإسلامي وصالحوه ويختص خراجها كما أمر الإسلام بالرسول وأهل بيته واليتامى والمساكين وابن السبيل، لذلك شرط الإمام أن يدفع إلى عوائل شهداء الجمل وصفين من خراج هذه المدينة، لأنّ دخلها يختص بالإمام، مضافاً إلى ذلك انّ الفقراء من عوائل الشهداء كانوا المستحقين لهذا الخراج ، البحار: ٤٤/ ١٠.

٢. يراجع تفصيل معاهدة الصلح في كتاب صلح الحسن عليه السلام، تأليف الشيخ راضي آل ياسين، ص ٢٥٩ـ٢٦١.

«هذا ابني سيد، ولعلّ الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين».[(١)]

أهداف الإمام من الصلح مع معاوية

عندما يجد العظماء وقادة العالم أنفسهم في ظروف تتعارض مع أهدافهم وآرائهم، يحاولون وهم على مفترق طرق أن يسلكوا الطريق الذي يحمل خسارة أقلّ لهم دائماً، وهذه قاعدة أساسية في الحسابات السياسية والاجتماعية، والإمام المجتبى أيضاً وانطلاقاً من هذا المنهاج المعقول سعى جاهداً أن يحقّق أهدافه العالية في حدود الإمكان ولو نسبياً، ولذلك عندما اضطر إلى الصلح مع معاوية اشترط في تسليم السلطة له بأن يعمل بكتاب الله وسنّة نبيّه في قيادة المجتمع الإسلامي.

ومن الواضح انّ استلام السلطة وتشكيل الحكم الإسلامي ليس هو ما يرمي إليه الإمام، بل الدافع الحقيقي هو صيانة مبادئ الإسلام في المجتمع وقيادته في ضوء تلك المبادئ، فلو كانت تنفذ على يد معاوية وتطبّق، فانّ الهدف الحقيقي متحقّق ولو ضمن حدود معينة، ومضافاً إلى ذلك بمقدور الحسن عليه السلام أن يتولّى قيادة المجتمع الإسلامي بحرية بعد موت معاوية طبقاً للبند الثاني، ونظراً إلى أنّ معاوية كان يكبر الإمام بثلاثة وثلاثين عاماً[(٢)] و يعيش أيّامه الأخيرة، ويرجى أن

١. وقد روى هذا الخبر باختلاف يسير عن النبي في الكتب التالية: تذكرة الخواص، ص ١٩٤؛ أُسد الغابة:٢/ ١٢؛ نور الأبصار، ص ١٢١؛ الفصول المهمة، ص ١٥٨؛ الاصابة:١/ ٣٣٠؛ كشف الغمة ـ فارسي ـ :٢/ ٩٨؛ تهذيب التهذيب:٢/ ٢٩٨؛ الصواعق المحرقة، ص ٨٢؛ البداية والنهاية:٨/ ٣٦؛ الاستيعاب ــ في هامش الاصابة ـ:١/ ٣٦٩؛ حلية الأولياء:٢/ ٣٥؛ إسعاف الراغبين ـ في هامش نور الأبصار ـ ؛ مسند أحمد:٥/ ٣٨ــ ٤٤؛ أنساب الاشراف:٣/ ٤٢؛ عمدة الطالب، ص ٦٥؛ الطبقات الكبرى:١/ ٢٦.

٢. صلح الحسن ، آل ياسين ، ص ٢٧٨.

يلقى حتفه حسب الظروف الطبيعية، يتّضح مدى الفائدة التي يعود بها هذا الشرط ـ البند الثاني ـ على الإسلام والمسلمين طبقاً للحسابات العادية. وكان لكلّ واحد من بنود هذه المعاهدة أهميته أيضاً، لأنّه وفي الوقت الذي كان يسب فيه أمير المؤمنين ويشتم في الصلاة بجرأة كبيرة ـ حيث أصبح هذا العمل بدعة ذات جذور ـ و كان محبّو الإمام و شيعته وأهل البيت مطاردين مضطهدين ينكل بهم في كلّ مكان، فسيكون لهذا الإلزام الذي ألزم معاوية به قيمة عالية.

الاجتماع في الكوفة

دخل الجانبان الكوفة بقواتهما بعد إبرام معاهدة الصلح، واجتمعوا في مسجدها الكبير والناس كانوا ينتظرون أن يتم التأكيد على بنود المعاهدة من خلال خطب قائدي الفريقين بمرأى ومسمع منهم حتى لا يبقى مجال للشك والترديد في تطبيقها. ولم يكن هذا التوقع في غير محلّه فانّ إيراد الخطبة كان جزءاً من الصلح، ولذلك ارتقى معاوية المنبر وخطب خطبة غير انّه ليس فقط لم يؤكد على بنود المعاهدة، بل قال مستخفاً و مستهتراً: أتروني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج وقد علمت أنّكم تصلّون وتزكّون وتحجّون! ولكنّي قاتلتكم لأتأمّر عليكم وألي رقابكم. ثمّ قال: ألا وإنّ كلّ شرط وشيء أعطيت الحسن بن علي تحت قدمي هاتين.[1] وهكذا داس معاوية كلّ ما تعهد به وشرطه ونقض معاهدة الصلح علانية.

---

١. شرح نهج البلاغة:١٦/ ١٥؛ مقاتل الطالبيين، ص ٤٥؛ الإرشاد، ص ١٩١. قال أبو الفرج: خطب هذه الخطبة قبل دخول الكوفة.

جرائم معاوية

وتبعاً لهذه السياسة لم يكتف معاوية بعدم إجراء تعديل على طريقته هذه في التعامل فقط، بل ازداد طغياناً وإجراماً أكثر من السابق، فقد أشاع بدعة سب أمير المؤمنين وهتك حرمة ساحته المقدسة أكثر ممّا مضى، وضيّق الخناق على الشيعة وأصحاب علي الكبار الأوفياء لدرجة كبيرة، وقتل شخصية بارزة كحجر بن عدي وجماعة آخرين من الشخصيات الإسلامية الكبيرة، وتصاعد القتل والتنكيل والاضطهاد على شيعة علي حتى أصبح الشيعة بشكل عام إمّا سجناء أو مفقودين أو مشرّدين بعيداً يعيشون في أجواء يسودها الرعب والخوف. مضافاً إلى ذلك انّ معاوية لم يلتزم بالبند الذي على صيانة حرمة الإمام علي واحترامه هو وشيعته، وخالف كذلك البند المتعلّق بخراج دار أبجرد من تلك الوثيقة. وكتب الطبري حول هذا الموضوع:

وحال أهل البصرة بينه ـ يعني بين الحسن ـ و بين خراج «دار ابجرد» وقالوا فيئنا.[1]

وكتب ابن الأثير: وكان منعهم ـ يعني منع أهل البصرة ـ بأمر من معاوية.[2]

وعي الناس ويقظتهم

كان ينبغي على أُولئك الذين شقّت عليهم الحرب وملّوها لكثرة ما خاضوا منها وأطاعوا رؤساءهم وعلّقوا آمالاً على صلح معاوية تأثراً بإعلام ودعاية عماله

---

١. تاريخ الطبري:٦/ ٩٥.

٢. الكامل في التاريخ:٣/ ٤٠٥. و كتب البلاذري في أنساب الأشراف: ٤٧: أمر معاوية عامله على البصرة بأن يحرض الناس على الحسن بن علي عليهما السلام، فقام بذلك حتى قالوا: هذا فيئنا ولم نعطيه غيرنا.

ووعودهـم الزائفـة أن يستيقظوا ويعـوا انّهم ارتكبوا خطـأً كبيراً، عندمـا تثاقلـوا وتخاذلوا في القتـال، ولهثوا وراء وعـود معاوية، وأطـاعوا رؤساءهـم طاعـة عمياء، وكان هذا أمراً مستحيـلاً دون أن يروا عملهم هذا ونتائجه المشـؤومة والخطيرة بأُم أعينهم.

مضافاً إلى ذلك كان من الضروري أن يتعرّف المسلمون على الوجه الحقيقي للحكـم الأموي ويلمسـوا عمليـات الإرهـاب والاضطهاد والإقصـاء والتنكيـل والمطاردات الدائمـة التي يمارسها، وفي الواقع إنّ ما كـان يجب على الإمام الحسن وأصحابه المقرّبين فعله في تلك الآونة الحسّاسة من التاريخ هو الكشف عن تلك الحقائق عـلانية للجميـع، وبالتالي إعـدادهم فكريـاً وذهنياً لإدراك و فهـم تلك الحقائق المرة والثورة عليها.

وعليه إذا كـان الإمام الحسن قد قبـل الصلح، فليس لأنّـه أراد التخلّي عن المسؤوليـة ،بل لأجـل أن يبدأ الحرب على صعيد آخـر، وهذا مـا تؤيـده الأحداث التالية لمعـاهدة الصلح التي هـزّت العراقيين هزّاً، ويقول الطبري: إنّ معـاوية قد عسكـر بعد الصلـح في النخيلـة وجماعة مـن الخوارج قد خـرجـوا عليه ودخلـوا الكوفة، فبعـث إليهم فرقة عسكريـة من الشاميين، فقضى الخوارج عليهـم، فأمر معاوية أهل الكوفة بالقضاء عليهم ومحاربتهم وإلّا يسلبهم الأمان.[1]

وهكذا أصبـح العراقيون الـذين تثاقلـوا عن القتال بجـانب أمير المؤمنين والحسن بن علي مرغمين على قتال الخوارج في جيش معـاوية الذي كان عدواً لهم جميعاً.

وقد دلّ هـذا على أنّ السلام والاستقرار اللّـذين كـانوا يأملـون في الحصول عليهما في ظل حكم معاوية أصبح أمراً مستحيلاً.

---

١. تاريخ الطبري:٦/ ٩٥.

سياسة الإرهاب والتجويع

مضافاً إلى ذلك اتّبع معاوية سياسة لا إنسانية وتدميرية شاملة بالنسبة إلى العراقيين يمكن أن نسمّيها سياسة الإرهاب والتجويع، فكان تارة يضطهدهم وينكل بهم، وأخرى يحرمهم من حقوقهم وامتيازاتهم وكتب ابن أبي الحديد العالم السنّي الشهير: قتلت الشيعة بكلّ بلدة، وقطع بنو أمية أرجلهم وأيديهم على الظنّة، وكان كلّ من يذكر ويعرف بحب أهل البيت والانقطاع إليهم سجن أو نهب ماله أو هدمت داره، وقد بلغ الاضطهاد حدّاً جعل الرجل يقال له زنديق أو كافر أحب إليه أن يقال من شيعة علي، و كان أشد الناس بلاء حينئذٍ أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة علي عليه السلام، فاستعمل معاوية عليهم زياد بن سمية وضم إليه البصرة، فكان يتتبع الشيعة وهو بهم عارف، لأنّه كان منهم أيّام علي عليه السلام، فقتلهم تحت كلّ حجر ومدر، وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل وسمل العيون وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم وشردهم عن العراق، فلم يبق بها معروف منهم.

قمة الاضطهاد والإرهاب في الكوفة والبصرة

وكما أسلفنا كان أهل العراق لا سيما الكوفيون أشد نكبة وبلاءً من غيرهم، حتى أنّ الرجل من شيعة علي عليه السلام ليأتيه من يثق به فيدخل بيته، فيلقي إليه سرّه ويخاف من خادمه ومملوكه ولا يحدثه حتى يأخذ عليه الأيمان المغلّظة ليكتمن عليه.

وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق: ألاّ يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة، ثمّ كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان:

انظروا من قامت عليه البيّنة انّه يحب علياً وأهل بيته، فامحوه من الديوان

وأسقطوا رزقه وعطاءه.(١)

وقد استخلف زياد الذي ولي الكوفة ستة أشهر والبصرة كذلك تناوباً سمرة بن جندب على البصرة في غيابه فقتل ثمانية آلاف من الناس، فقال له زياد: هل تخاف أن تكون قتلت بريئاً؟ فرد عليه قائلاً: لو قتلت إليهم مثلهم ماخشيت.

وقال أبو سوار العدوي: قتل سمرة من قومي في غداة سبعة وأربعين رجلاً قد جمع القرآن.(٢)

الصلح تمهيد لثورة عاشوراء

هزت الأحداث الرهيبة العراقيين هزّاً وسلبتهم الراحة والدعة، وكشفت عن الوجه الحقيقي للحكم الأموي إلى حدود ما، وفي الوقت الذي كان رؤساء القبائل يرغدون بما عادت عليهم معاهدة الصلح ويتمتعون بعطايا وصلات معاوية، كان أهل العراق العاديون قد أدركوا طبيعة الحكم الأموي وحقيقته تلك الحكومة الظالمة المستبدة التي مشوا إليها بأقدامهم وأقاموها بأيديهم.(٣)

وولى معاوية المغيرة بن شعبة الكوفة، واستعمل عبد الله بن عامر على البصرة

١. شرح نهج البلاغة:١/ ٤٣ـ٤٥.

٢. تاريخ الطبري:٦/ ١٣٢.

٣. كان الإمام الحسن ﰉ يتوقع جميع هذه الأحداث ويعلم جيداً انّ قيادة المسلمين لو صارت بيد الأمويين، فسيكون المصير المظلم بانتظارهم لا سيما الشيعة، و لكن طالما انّ المسلمين لم يواجهوا هذه الأحداث المريرة بأنفسهم، فسوف لن يعرفوا مدى أهمية هذا الأمر، وعندما عاشوا تلك الأحداث المرعبة أدركوا حينها بأنّهم ضيعوا الفرصة وانّهم هيّأوا مقدّمات شقائهم بأنفسهم من حيث يدرون ولا يدرون. وقد أشار الحسن خلال خطبته التي تقدم جانباً منها سابقاً إلى المستقبل المظلم: «وأيم الله إن سلمت الأمر إليه لا رأيتم فرجاً ولا خفضاً مع بني أُمية و ليسومنكم سوء العذاب، وكأنّي أنظر إلى أبنائكم واقفين على أبواب أبنائهم يستسقونهم ويستطعمونهم بما جعله الله لهم، فلا يسقون ولا يطعمون».

وكان قد عاد إليها بعد ان غادرها إبّان قتل عثمان، وذهب معاوية إلى الشام مستقراً في دمشق يدير دولته من هناك.

وقد جعل أهل العراق يذكرون حياتهم أيّام علي فيحزنون عليها ويندمون على ما كان من تفريطهم في جنب خليفتهم ويندمون على ما كان من الصلح بينهم وبين أهل الشام، وجعلوا كلما لقي بعضهم بعضاً تلاوموا فيما كان وأجالوا الرأي فيما يمكن أن يكون، ولم تكد تمضي أعوام قليلة حتى جعلت وفودهم تفد إلى المدينة للقاء الحسن عليه السلام والقول له والاستماع منه. (١)

و عليه كانت فترة الصلح الذي أقامه الإمام فترة إعداد تدريجي للأُمّة لمواجهة الحكم الأموي حتى يحين اليوم الموعود يوم يكون المجتمع الإسلامي مستعداً للثورة.

الإعلان عن الاستعداد للثورة

يوم صالح الإمام الحسن عليه السلام لم يكن المجتمع قد بلغ ذلك المستوى من الوعي والاستيعاب بما يخدم هدف الإمام في تلك الفترة كان المجتمع أسير الأماني والآمال تلك الأماني والآمال التي بثّت فيه روح الهزيمة.

إذن كان هدف الحسن هو أن يهيّئ عقول الناس للثورة على حكم الأمويين، ويمنحهم الفرصة لاكتشافه بأنفسهم مع التنبيه على ما فيه من مظالم وجرائم وانتهاكات للأحكام الإسلامية ممّا يبعث الوعي ويبثّه في أفكار الناس. (٢)

١. علي وبنوه، الدكتور طه حسين، ٢٠٧.

٢. و من هنا يمكن القول بانّ معاهدة الصلح كانت كسيف ذي حدين لمعاوية كلّ منهما جارح مؤذٍ، لأنّه لو التزم بمفادها، لكان هذا تحقيقاً لهدف الإمام في حدود ما، وإلاّ فسيتسبب في خلق الكراهية الشاملة للسلطة الأموية وتحريض الناس لمواجهتها، وهذا أمرٌ لم يكن الإمام ليستبعده.

واستقوى هذا الاستعداد شيئاً فشيئاً وتوجهت شخصيات العراق الكبيرة إلى الحسين طالبين منه القيام والثورة.[١]

صدى الأحداث في المدينة

ولقد كان كلّ حدث من أحداث معاوية يجد ـ بعد استشهاد الإمام الحسن ـ صدى في المدينة حيث الإمام الحسين ويكون مداراً لاجتماعات يعقدها الإمام مع أقطاب الشيعة في العراق والحجاز وغيرهما من بلاد الإسلام، يدلنا على ذلك انّه حين قتل معاوية حجر بن عدي الكندي وأصحابه خرج نفر من أشراف الكوفة إلى الحسين فأخبروه الخبر وأثار هذا استنكار المؤمنين.

وهذا يوحي لنا بأنّ حركة منظمة كانت تعمل ضد الحكم الأموي في ذلك الحين وإن دعاتها هم هؤلاء الأتباع القليلون المخلصون الذين ضن بهم الحسن عن القتل، وانّ مهمة هؤلاء كانت بعث روح الثورة في النفوس عن طريق إظهار المظالم التي حفل بها عهد معاوية انتظاراً لليوم الموعود.[٢]

لما ذا قعد الإمام الحسن عليه السلام وقام الإمام الحسين عليه السلام؟

بينت الأبحاث السابقة دوافع صلح الإمام الحسن غير انّه قد بقى هناك سؤال وهو انّه لماذا قعد الحسن وقام الحسين؟ فإذا كان الصلح عملاً وجيهاً وصحيحاً فلماذا لم يصالح الحسين يزيد؟ وإذا كان الأصل هو الحرب فلماذا لم

---

١. ولكن الإمام الحسين بن علي عليهما السلام كان يأمرهم بطاعة الإمام الحسن عليه السلام ويقول لهم: «وأمّا أنا فليس رأيي اليوم ذلك، فالصقوا رحمكم الله بالأرض واكمنوا في البيوت واحترسوا من الظنة مادام معاوية حياً».

٢. ثورة الحسين عليه السلام ظروفها الاجتماعية وآثارها الإنسانية: ١٥٠ـ ١٥١.

يحارب الإمام الحسن؟

ويجب البحث عن إجابة هذا السؤال في الظروف المختلفة التي عاشها هذان الإمامان الكبيران وكيفية سلوك وشخصية كلّ من معاوية ويزيد وهنا سنشير إلى جوانب من اختلافات معاوية ويزيد، السلوكية.

حيل معاوية ومكره

حاول معاوية أبّان تولّيه السلطة أن يضفي بخططه وسياسته الماكرة على حكمه طابعاً دينياً إسلامياً دائماً، وكان يمنع من أن يعي الناس انحرافه عن خط السياسة الإسلامية الصحيحة، وبالرغم من انّه حرّف الإسلام عملياً واستبدل الخلافة الإسلامية البسيطة المتواضعة بالحكم الأموي الإرستقراطي وحوّل المجتمع الإسلامي إلى مجتمع غير إسلامي إلاّ أنّه كان يتظاهر بسلوكه المحافظ على تعاليم الدين و يغطي حقيقته، ويهتم بتطبيق بعض الأحكام الإسلامية في بلاطه، وماكان ليسمح بأن تتغيّر الصبغة الدينية في المجتمع.

وقد كان يدرك انّه ليس ينبغي له ـ وهو يحكم الناس بسلطان الدين ـ أن يرتكب من الأعمال ما يراه العامة تحدّياً للدين الذي يحكم بسلطانه، بل عليه أن يسبغ على أعماله غشاءً دينياً لتنسجم هذه الأعمال مع المنصب الذي وصل إليه، أمّاما لا يمكن تمويهه من التصرفات فليرتكبه في السر.

مضافاً إلى انّه كان لمعاوية اسلوب سياسي غير عادي في معالجة الأحداث والمشاكل، فهو يعالجها بطريقة خاصة يفتقر ابنه يزيد إلى المهارة في استخدامها، وكان سيخلق هذان الأمران شكاً وترديداً في نجاح الثورة وتأثير الشهادة الإيجابي في عهد معاوية، لأنّه و في تلك الظروف سوف لن يصدر عامة الناس حكماً صائباً

حول الثـورة على الأمويين ولن تثـار موجة الكراهيـة للسلطة الأمويـة، لأنّ الرأي العام كان ما يزال يجهل مدى انحراف معاوية عن الإسلام، ولذلك راحت بعض الشخصيـات اللاواعيـة تعتقـد انّ صراع الإمام الحسـن عليه السلام مـع معاويـة صراع سياسي على السلطة أكثر منه على الحقّ والباطل.

إنّ الشهادة في مثـل هذه الظروف لا تخدم أهـداف الثورة بل يعـرّض الرأي العام إلى الخطأ في الحكم والتقدير وإلى ضياع الحقيقة.

أجواء غير ملائمة

وكما لاحظنـا لم يكـن الجو السياسي في عهـد معـاويـة جواً مـلائماً يتمكـن المصلح فيه أن يحسـم أمراً في ضوء خطة معينـة وأن يجد المجتمع وجهته بدقـة بل كان جواً يجعل المصلح أن يكون مراقباً لتصرفـات القادة الفاسدين وأن يبدي ـ و بالنظر إلى إمكانيته وطبيعـة من حوله ونوع مواجهة العدو ـ رد فعـل مناسب حتى تنتصر بهذا النحو الحقيقية المهزومة على الخديعة المنتصرة.

كانت هذه هي المشكلة الرئيسية في عصر الإمام الحسن.

لم يكن في ذلك العصر لما كان يعرف بالشهادة التأثير المفروض وفي الواقع تحتاج الشهادة شـأنها شأن الكثير من الظواهـر إلى أرضية مناسبة حتـى تخرج من إطار الشهادة والإخـلاص الفرديين وتأخذ لنفسها طـابع ظاهرة اجتماعيـة مؤثرة، فيكون دم الشهيد بـاعثاً للحياة في شرايين الآخريـن، وقد دلّت الوثـائق التاريخية على أنّه لـو كان الإمام يثـور بجيش متثاقـل متخاذل كالـذي أحاط به ــ و تقدّم الحديث عنه ـ و يشهر سيفه في وجه معاوية لما كانوا يقتلونه ليكون البطل الشهيد بل كانـوا يأسرونه. فقد كان معاويـة يريد أن يمسح وصمة العار التـي لحقته هو

وعشيرته على يد جنود الإسلام بأسر واحد من أسياد آل محمد.

إذن ما كـان الإمام ليصبح ــ إذا ما هزم ــ شهيداً بطلاً بقتلـه كما حدث في عاشـوراء، بل كـان يعلق بمخـالب معاويـة وبالتـالي يتم القضـاء عليه بطـريقة مجهولة، وتكون هـذه واحدة من تلك الخسارات الكبيرة التي تلحـق موقف الحقّ وجبهته في تلك الأيام. فلو كان جيش الإمـام الحسن يمنى بالهزيمة على يد جيش معـاوية لكـان معاويـة يغير على البـلاد الإسلاميـة ومـدنها ويقوم فيهـا بالقتـل والتنكيل بكـلّ ما أُوتي مـن قوة لا سيما مكـة والمدينة والكـوفة والبصرة والحواضر الأُخرى التي كانت ضمن حدود دولة علي بن أبي طالب.

وهكذا يكون عدد القتلى ـ و على عكس نكبة عاشوراء ـ بالغاً ما لا نهاية له وما لا يمكن عده و إحصاؤه، إذن فقد كان هذا هو حقن الدماء الذي تحدث عنه الإمام.[1]

ولعله ولهذه الأسبـاب ولتصويبه صلـح الإمام الحسن امتنـع الإمام الحسين عـن الثورة بعـد استشهاد أخيـه العظيم في فترة العشر سنـوات الأخيرة من عهـد معاويـة أي من عام ٥٠ إلى عام ٦٠ هجـرية تقريبـاً، و كان عليه السلام ينتظر الفرصة المناسبة بلهفـة، واهتم بإعداد النـاس فكرياً ونفسياً، إذ لم يكـن رد فعل المجتمع الإسلامي والرأي العام معلوماً فيما إذا قام وثار في تلك الفترة.

يزيد شخصية المجتمع الإسلامي الكريهة

غير انّ هـذا الأمر يختلـف تماماً في يـزيد ــ كما سنشير إليه في سيرة الإمـام الحسين ـ ليس لأنّه لا يملـك نضج وحنكة ودراية الأب وسياسته فقـط، بل كان

١. امام در عينيت جامعه، محمد رضا الحكيمي: ١٢١، ١٣٣، ١٧١.

بعيداً كـل البعد حتى عـن التظاهر بمظاهـر الإسلام الذي أراد أن يحكـم الناس باسمـه. فقد كان شابـاً طائشاً نـزقاً شهوانيـاً عنيداً، ومن أبعد النـاس عن الحذر والحيطة والتروّي، كان إنساناً صغير العقل متهوراً ماجناً لاهياً سطحي التفكير.

إنّ حياة التحلـل التي عـاشها قبـل أن يلي الحكم والانسيـاق مع العـاطفة وتلبية كلّ رغبـاته كل ذلك جعلـه عاجزاً عن التظـاهر بالورع والتقـوىٰ والتلبس بلباس الـدين بعد ان حكـم المسلمين مثل ما كـان يفعل أبوه، بـل راح و بسبب طبيعته النـزقة يعـالن الناس بـارتكاب المحـرمات ويقارف مـن الآثام ويتظـاهر بشرب الخمر والفسـاد، وكان يـزيد بقدر مـن السذاجة السيـاسية بحيـث كشف للناس الطبيعة الواقعية والوجه الحقيقي لحكم الأمويين الذين كانوا العدو اللدود للإسـلام والمظهر التام للعودة إلى الجاهليـة واحياء النظام الإرستقراطـي في ذلك العصر.

وقد أثبتـت المجاهرة بـالفساد والإنفلات مـن القيود لـدى يزيد انّـه يفتقد الجدارة والمؤهّلات لتولّي الخلافة وقيادة المجتمع الإسلامي.

وعليه فلن يكون في وسع أنصار الحكـم الأموي أن يلوّثوا ثورة الحسين أمام الرأي العـام بأنّها ثـورة في سبيل الملـك، لأنّ العامـة ترى أنّ مبررات هـذه الثورة موجودة في سلوك يزيد نفسه هذا السلـوك الذي لا يلتقي مع الدين على صعيد، وكان الناس ستعتبر ثورة الحسين بن علي في مثل هذه الظروف هي ثورة ابن رسول الله على الحكومـة اللا شرعيـة حفاظـاً على الإسلام لا لأجـل الصراع السياسي ولا النزاع على السلطة.

اشتداد الحركة الثورية

ويجب أن نجد السبب الآخر لثورة الحسين بـن علي في وعي الناس والرأي

العام واتساع رقعة دعوة الشيعة ونفوذها بعد صلح الحسن، لأنّ الحركة التي انطلقت بعد الصلح ضد الحكم الأموي راحت تتسع في نطاقها شيئاً فشيئاً وتزداد في نفوذها يوماً بعد يوم و لقد كانت سياسة معاوية ـ من حيث يدري ولا يدري ـ سبباً في اشتداد هذه الحركة واتساعها، لأنّه كان يرى المجال مفتوحاً أمامه بعد استشهاد الإمام الحسن، فضيق الخناق على الناس لا سيما على الشيعة وأنصار أمير المؤمنين ولم يأل جهداً في اضطهادهم وظلمهم، أن انتهاكات معاوية المستمرة لحقوق المسلمين وإغاراته وهجماته المتكررة بجيشه الهمجي الظالم على البلدان الإسلامية المختلفة وقتل الأبرياء وايذاءهم ونقض معاهدة الصلح وأخذ البيعة لابنه يزيد، وأخيراً سمّ الإمام الحسن، كل ذلك شوّه وجه الحكم الأموي أكثر من السابق وزعزع مكانته.

وقد دفعت هذه الأحداث الشيعة إلى الترابط وترصيص الصفوف وتوحيدها أكثر وتقوية الجبهة المعادية للأمويين، وتمهيد الأرضية للثورة الحسينية.

وقال الدكتور طه حسين الأديب والكاتب المصري المعروف بعد توضيح التضييق والاضطهاد الذي كان يمارسه معاوية ضد الشيعة: إنّ الشيعة قد اشتد تحركهم في العشرة أعوام الأخيرة من عهد معاوية، وانتشرت دعوتهم في شرق العالم الإسلامي وجنوب البلاد العربية بشكل واسع، ومات معاوية حين مات وكثير من الناس وعامة أهل العراق بنوع خاص يرون بغض بني أمية وحب أهل البيت ديناً لأنفسهم.[1]

وهكذا عرفت الأمّة الإسلامية الوجه الحقيقي للحكم الأموي بما فيه الكفاية وذاقت طعم تعذيبه وإرهابه المرير وأدركت انتهاكه لحقوق المسلمين وارتفع القناع الذي كان يتقنّع به في بداية عهد معاوية وتعرّف الناس على حقيقته،

١. علي وبنوه، الدكتور طه حسين، ص ٢٩٥.

وبالتالي زالت جميع الموانع التي وقفت في طريق ثورة منتصرة وانفسح المجال أمام الثورة على الحكم الأموي تماماً، وكانت هذه الفترة هي الفترة التي أنزل فيها الحسين بن علي عليه السلام ضربة حاسمة قاضية على جسم الحكم الأموي الفاسد وفجّر تلك الثورة العظيمة الفريدة.

الثورة الملهمة

أحدثت ثورة الحسين تغييراً شاملاً في المجتمع الإسلامي، قلبت الأوضاع وحرّضت الرأي العام ضدّ الحكم الأموي، وتسببت في حدوث انتفاضات وثورات كبيرة متوالية، مثل: ثورة التوّابين، ثورة أهل المدينة، ثورة المختار الثقفي، وانتفاضة زيد بن علي، وانتفاضات كبيرة أُخرى؛ بينما لو كانت هذه الثورة تحدث في عهد الإمام الحسن و على يديه، لما كان لها مثل هذه الثمار والنتائج.

وفي الواقع انّ الحسين بن علي عليه السلام قد اتّبع منهج أخيه القدير، لأنّ الإمام الحسن قد تحمّل الكثير ـ و بكل شهامة ـ من الإشكاليات و الشبهات التي كان يثيرها سطحيو التفكير المتهوّرون، وهيّأ بتوقيعه على معاهدة الصلح وانطلاقاً من فهمه للواقع الذي عاش فيه أرضية الثورة بالتدريج وأعد الأذهان والرأي العام، وإذا ما تمهّدت الأرضية تماماً انطلق الحسين بن علي بثورة على مركز الفساد.

اختلاف في الأصحاب

وممّا يجب الالتفات إليه وفضلاً عن التغاير الموجود بين عصر الإمام الحسن وعصر الإمام الحسين كما تقدّم الحديث عنه هو الاختلاف الهام بين مستوى أصحاب هذين الإمامين أيضاً. فقد لاحظنا في الصفحات السابقة انّ جيش الإمام الحسن كان يضطرب بمجرد سماع شائعة واحدة وينثال جماعة على خيمته

ينهبونهاحتى البساط الذي تحت قدميه، ولاحظنا انّ أُولئك الذين أرادوا أن يقاتلوا جيش الشام مـع الإمام ويضحّوا بأرواحهـم في سبيل ذلك هم أنفسهـم أحدثوا الفتن والبلابل وتركوا الإمام وحيداً.

فلنقارن بينهـم و بين أصحاب الحسين الذين قـالوا يوم عاشـوراء :والله لو نعلم انّنـا نقتل فيـك ثمّ نحيـا ثمّ نحرق ونـذرّى، يفعل بنـا ذلك سبعين مـرة ما فارقناك حتى نلقى حمامنا دونك، فكيف وإنّما هي قتلة واحدة وتلك هي الشهادة ثمّ ننال الكرامة التي لا انقضاء لها.

نعم بهذا النوع من الرجال يمكن أن نلقي شرراً من الحماس باسم الشهادةفي تاريخ الإنسان ونحـدث صدى في كبد السماء اسمه عاشوراء لا مع قـوم لا نصر معهم ولا شهـادة بل يسلمـون المرء مكتوفاً إلى الأعـداء وحينئذٍ لـن يبقى غير ذل الأسر ليس إلاّ، ولهذا غيّـر الإمام الحسن صعيد الكفاح.

وبعبارة أُخرى غيّر السـاحة لا الجهة كمن يصلّـي على مركـب وهو يتجه نحو القبلـة فعندما يستبـدل هذا المركب بمـركب آخر فـانّه يغير مكانـه لا جهته وهي القبلـة.وقبلة رجال الحقّ هـي مقاتلة الباطـل دائماً سواء كان هـذا القتال في ساحـة كربـلاء أو في أزقة وأحيـاء الكوفـة ومسجد المدينـة أو سجن بغـداد. فقد انصب قتـال الإمام الحسـن على معاويـة الذي كـان أكبر حاجـز أمام نشر الحقّ والعـدالة في تلـك الفترة تارة على شكـل إعـداد الجيوش، وأُخـرى في إطار قبـول الصلح والهدنة.(١)

وجهان لرسالة واحدة

كتب العلاّمة المجاهد المرحوم «السيد شرف الدين العاملي» في المقدمة التي

١. امام در عينيت جامعه: ١٢٩ـ١٣٠.

كتبها لكتاب «صلح الحسن» القيّم تأليف العـالم البحّاثة الكبير «الشيخ راضي آل ياسين»: وكان أهمّ مـا يرمي إليه سلام الله عليـه أن يرفع اللثام عـن هؤلاء الطغاة ليحول بينهم و بين ما يبيّتون لـرسالة جده من الكيد، وقد تم لـه كلّ ما أراد حتى برح الخفاء وآذن أمر الأموية بـالجلاء والحمد لله ربّ العالمين.وبهذا استتب لصنوه سيد الشهـداء أن يثور ثورته التـي أوضح الله بها الكتاب وجعلـه فيها عبرة لأُولى الألباب، وقد كانا عليهما السلام وجهين لرسالة واحدة، كلّ وجه منهما في موضعه منها وفي زمانه من مراحلها يكافئ الآخر في النهوض بأعبائها ويوازنه بالتضحية في سبيلها.

فالحسـن لم يبخل بنفسـه، ولم يكن الحسين أسخـى منه بها في سبيـل الله ، وإنّما صان نفسه بجندها في جهاد صامت، فلمّا حان الوقت كانت شهادة كربلاء شهادة حسنية، قبـل أن تكون حسينية. وكان يـوم ساباط أعرق بمعـاني التضحية من يوم الطف لدى أُولي الألبـاب ممّن تعمّق، لأنّ الحسن عليه السلام أُعطي من البطولة دور الصابـر على احتمال المكاره في صورة مستكين قاعـد، وكانت شهـادة الطف حسنية أوّلاً وحسينية ثـانياً، لأنّ الحسن أنضج نتائجها ومهّـد أسبابها. كان نصر الحسـن الدامـي مـوقـوفاً على جلـو الحقيقـة التـي جلاهـا لأخيـه الحسين بصبره وحكمته، وبجلوها انتصر الحسين نصره العزيز وفتح الله له فتحه المبين، وكانا عليهما السلام كأنّهما متفقان على تصميم الخطة أن يكون للحسن دور الصابر الحكيم وللحسين دور الثائر الكريم، لتتألّف من الدورين خطة كاملة ذات غرض واحد، وقد وقف الناس بعد سـاباط والطف يمعنون في الأحداث فيرون في هـؤلاء الأمويين عصبة جاهلية منكرة....[1]

ونظراً إلى هـذه الحقائق يمكن القـول بأنّـه لو كان الإمـام الحسين في نفس

---

١. صلح الحسن عليه السلام : ١٢ـ١٣.

الظروف التاريخية لأخيه الكريم الإمام الحسن لكان يقوم بنفس ما قام به، ولو كان الإمام الحسن في عصر الحسين وظروفه لكان ينتهج نفس نهجه، لأنّ هذين الإمامين الكبيرين أدى كلّ منهما رسالته التاريخية وفقاً لظروفه التاريخية والزمنية الخاصة به، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وهو يتوقع هذه الأحداث والإشكاليات حول ابنيه العظيمين: «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا».[1]

الصلح أو الصلاح؟

نختم هذا الفصل بمقالة أحد الكتّاب و قد نشرت في إحدى مجلات طهران تحت عنوان «الصلح أو الصلاح؟».

يمكن أن نعتبر صلح الحسن أو بعبارة أُخرى مهادنته لمعاوية من أصعب مراحل مسيرة الإمامة في الإسلام وكان أكثر الهدنات ثورية في التاريخ وانّ احتمال معاناته ـ الصلح ـ المضنية لا يمكن لأحد غير ابن علي عليه السلام مهما أوتي من المعرفة العالية جداً بمراتب ودرجات الإيمان وقد كان هذا الصلح مثاراً للجدل والنقاش دائماً وحاول المغرضون بأقلامهم المغرضة والجاهلون بنظرتهم الجاهلة أن يحرّفوا هذه السيرة الإيمانية ويقذفوها في دائرة الغموض والإبهام.

انّ الأئمّة جميعاً مظهر للتقوى والسياسة وانّهم يشتركون جميعاً في التقوى والإيمان ويختلفون في الأسلوب والسياسة، فقد أصبح أسلوب علي وسياسته في مرحلتي الصمت والسكون والصراخ والحركة ملاذ الأمة وحلّها الوحيد وسار الحسن على خطا أبيه في المرحلة الأُولى والحسين في المرحلة الثانية، ولولا الصمت لما كان لعلي عليه السلام صراخ وصوت مدو وشهادة منذرة تبعث الحياة في النفوس

---

١. وقال ابن شهر آشوب في مناقبه ٣/ ٣٩٤: إنّ المسلمين أجمعوا على أنّ النبي قال هذا الحديث.

وهكذا صراخ وصوت الحسين المدوي وتضحياته ما كـانا ليسجّلا في التاريخ من دون صلح أخيه بهذا الشكل.

وانّ كلّ أُولئك الـذين اتهموا الحسن بطلب العـافية والدعة وتمنّوا متـأثرين بعواطفهـم: ليته اختار الشهـادة وخلق من سـاباط ـ اسـم مكان الصلح ويـومه ذلك الصلح الثوري المصيري وبعبارة أُخرى يوم عاشوراء الحسن ـ عاشوراء ثانية ومن الكوفة كربلاء أُخرى كانوا مخطئين إلى أبعد الحدود.

انتقاء أكثر أساليب الكفاح تأثيراً

ربما كان احتمال الشهادة أسهـل على الحسن، غير انّه وكباقـي الأئمّة كان عليه أن يفكّر بإنقاذ الإسلام والمسلمين وانتقاء أكثر أساليب الكفاح فاعلية فقط.

ولو دقّقنا وتعمّقنا قليلاً في عصر الحسن لما كنا نجـد هناك ما هو أنجع من سياسـة السلـم والصلح، لا سيما إذا كـان بدافـع تضخيم الدور الـرسالي وبهدف الحياة لأجل الموت بطريقة أفضل ولو كان يثـور ويقوم بكفاحه المسلح فريداً بلا أعوان لما كان هناك امتداد للإمامة.

ولعلّـه إذا كـان يملـك مثـل أخيـه اثنين وسبعين نـاصراً مـن الصـدّيقين والفدائيين كان ينتفـض بتلك الانتفاضة أيضـاً، و لكن ماذا يبقى أمـامه ليفعله عندمـا يجرده العدو من الأنصار ويجنـد حتى زوجته لقتلـه بالسم، ويدفـع بقادة جيشه للمساومة عليه وتسليمه إلى معاويـة مكتوف اليدين، وبالتالي يحرض قائد جيشه الذي كـان يفترض أن يستعين به في معركته على التمـرّد عليه، غير الصلح والسلم؟! والوحيـد الذي كان بإمكـان الحسن أن يعتمد عليه هـو الحسين الذي

كان ينتظره يوم عاشوراء الرسالي العظيم.[١]

ولا شكّ انّـه لولا صلـح الحسن مع معـاوية و كونها مقيـاساً اختبـارياً في نقض ما جاء فيه لما حدثت ثـورة الحسين أيضاً، ولو لم يشترط الحسن على معاوية بشرط يحرمه من حقّ الاستخلاف حتى ينقضه باستخلاف ابنه يزيد، لما كان هناك ذريعة مقبولة للحسين في ثورته ولا كان هناك دليل يستدل به شيعته.[٢]

ساباط وعاشوراء يفضحان جاهلية الأمويين الخبيثة

عندمـا ألقت الأمّة نظرة على سير الأحـداث في واقعتي ساباط وعـاشوراء أدركت بوضـوح جاهلية الأمويين الخبيثـة والقبيحة. فقد شاهـدت انّ الحسن قد ارتضى بالسلم بيـد انّ معاوية لم يفِ بأي شرط من شروط المعـاهدة المتفق عليها ونقض كلّ المواثيق فـلا هو سار على هدي كتاب الله وسنة رسـوله في حكمه، ولا جعل الحكم شـورى من بعده، ولا منحه لصـاحبه الحقيقي، ولا هو أوقـف سبّ علي وصان قداسةالمنبر من هذه البدعة الشائنة، ولا هو دفع الخراج الواجب عليه دفعه، ولا هو أبعد عن المسلمين المخلصين وأصحاب علي اضطهاده وملاحقاته ومطارداته الغادرة، بل سقى الحسن السم في النهاية أيضاً .

---

١. إنّه مـن البعيد عـن الموضوعيـة والإنصاف أن لا نـرى دور الإمام الحسـن عليه السلام في ثورة عـاشوراء، والواقع انّ ثورة عـاشوراء كانت حسنية قبل أن تكون حسينية، كما أنّـه من غير الإنصاف أن ننظر إلى الإمام الحسن عليه السلام نظرة الرجل المهزوم، بل ينبغي لنا أن ننظر إليه عليه السلام نظرة البطل الباسل الذي تحمّل الصلح بكلّ إباء وتضحية ليمهد الطريق أمام ثورة أخيه الحسين عليه السلام.

٢. ولا يجب التعويل على هذا الكلام الأخير بشكل قطعي. المؤلف.

أعظم تجسيد للإرادة والعجز

وببركة ثـورة الحسن الصـامتة وثـورة الحسين المدوية انكشـف الستار عمّا كان خافياً وظهرت الأفكارالدفينـة، انّ العبرة التي خنقت الحسن وضاق بها ذرعاً هي عبرة الإسـلام التي ظلـت تفور وتفـور من أعماق وجـوده وانقشعت بصرخـة الحسين المدوية.

إنّ ما انعقـدت نطفته في أحـزان وعبرات الحسن وتكـاملت خـلاياه في دم الحسين هو لب الإمامـة وأساسها، فقد كان الحسن أعظـم تجسيد للإرادة والعجز ذلك المقاتل المغـوار الذي أدهش الجميع بصولاته في سوح الـوغى، ذلك الخلف الذي نهل مـن نمير مدرسـة البسالـة والاعتزاز مـدرسة أبيـه علي حتى اللحظـة الأخيرة من حياته وأفاد منها الكثير من الحكمة والتعاليم.

وكم كان كريماً حليماً هناك حيث رأى انّ رسالته في ساحة الإمامة لا تكون إلاّ في الصلح والسلام فـارتضى به واحتمله وكان هذا هـو حُسن سيرة الحسن لا شيئاً آخر ذلك الحسن الذي أجلـس الصمت والصلح على حد السيف واحتفظ بحلول الإسلام الأُخرى في نطاق حمايته .

وقد تدارك بلسانه القاطع وخطبه المجلجلة وكلامه الدامغ صمت السيف تماماً ومهّد أكثر الأرضيات استعداداً لثورة الدم ثـورة أخيه، لدرجة انّ معاوية كان يرتعد ويـرتعش من كلماته وخطبـه تلك، فكان يدفع بـزبانيته ومرتـزقته إلى قطع سلسلة أحاديثه ليمنعوه من مواصلتها في الاجتماعات.

الجهاد في أوسع الميادين

خطا عليه السلام بأكبر خطوة إصلاحية وفتح باب مدرسة الأخلاق والحب والإصلاح في وقت كان يحكم فيه الفتنة والسلاح، وكمصلح لا يفكر في غير الخير والصلاح باع الشهرة برضا ربّه، ولم يختر الصلح في بداية الطريق بل في نهايته، واحتمله بعد الهزيمة في كلّ جبهات القتال.

انطلق جهاده المضني في أوسع الميادين وعلى مختلف الأصعدة فاختبر جيشه وتفحّص موضعه في ساحة القتال مع الأعداء وجرّب مواجهة الفتن والمكائد في جهاده مع أصحابه المنافقين، واستمد من قوة الإصلاح والإرشاد في جهاده لنفسه يكظم غضبه في احتمال الصلح المفروض... ولو ألقينا نظرة إجمالية على جهاد هذا المظلوم الصامت، لأصبح كلّ اعتراض اعتذاراً وكلّ نقد مدحاً....

الإمام الحسين بن علي عليه السلام

* موانع الثورة في عهد معاوية
* مواجهة الإمام لمعاوية
* حقيقة ثورة عاشوراء ودوافعها
* الحوراء زينب في قصر ابن زياد
* نتائج وآثار ثورة عاشوراء

نبذة مختصرة عن حياة الإمام عليه السلام

ولد الإمام المعصوم الثالث في الثالث أو الرابع من شعبان عام أربعة هجرية في المدينة، وهو الثمرة الثانية لزواج علي الميمون من فاطمة بنت النبي . وقد اشتهر الحسين في حياته بالشجاعة والتحرر والصمود أمام الظلم.[1]

مراحل حياة الحسين بن علي عليهما السلام

قضى الحسين ستة أعوام من طفولته في عهد جدّه الكريم، وعاش بعد وفاته صلى الله عليه وآله ثلاثة وثلاثين عاماً إلى جانب أبيه أمير المؤمنين وشاركه في الأحداث التي تزامنت مع خلافته مشاركة فعّالة، وسجّل حضوراً دام عشر سنوات في الساحة السياسية والاجتماعية مع أخيه جنباً إلى جنب بعد استشهاد أبيه سنة ٤٠ هـ وواصل بعد استشهاد أخيه عام ٥٠ هـ نزاعه مع معاوية بن أبي سفيان وهو في قمة قوته، وثار من بعد موته على حكم ابنه يزيد واستشهد في محرم عام واحد وستين هـ بأرض كربلاء، و تشكّل المرحلة الأخيرة من حياة الحسين ـ أي عهد إمامته ـ أهم مراحل حياته، و ستنصب بحوث هذا الكتاب على هذه المرحلة أكثر من غيرها.

---

١. شرح نهج البلاغة:٣/ ٢٤٩.

جهاد الحسين قبل إمامته

دافع الحسين منذ كان شاباً وهو يشاهد انحراف الحكم الإسلامي عن خطه الأصيل عن مواقف أبيه السياسية، وأيّدها كما حدث ذلك يوماً في عهد خلافة عمر بن الخطاب وقد دخل المسجد وشاهد عمر على المنبر، فصعد إليه وقال: «انزل من منبر أبي واجلس على منبر أبيك» فقال ـ وقد دهش من ذلك ـ: ما كان لأبي منبر. ثمّ أجلسه إلى جانبه وأخذه بعد ذلك إلى بيته، وسأله من علمك هذا الكلام فقال الحسين: «لا أحد».[١]

في ساحات قتال الناكثين والقاسطين

وقف الحسين إلى جانب أبيه أمير المؤمنين إبّان خلافته في جميع الأحداث السياسية والعسكرية وشارك أباه الكريم في المعارك الثلاث التي حدثت في عهده مشاركة كبيرة.[٢] وقد أُنيطت به قيادة ميسرة جيش أمير المؤمنين في حرب الجمل.[٣] ولعب دوراً هاماً في صفين، سواء بخطبه الحماسية الساخنة وتشجيعه لأنصار علي للمساهمة في المعركة أو بقتاله للقاسطين.[٤]

وكان أحد الشهود من ناحية أبيه في أحداث التحكيم.[٥]

وعاضد أخاه إمام زمانه الحسن بن علي بعد استشهاد أبيهما ورافقه عندما

---

١. الإصابة: ١/ ٣٣٣؛ تاريخ دمشق، ابن عساكر، الجزء المتعلّق بحياة الحسين بن علي عليهما السلام، ص ١٤١.

٢. الإصابة: ١/ ٣٣٣.

٣. تاريخ دمشق: ١٦٤.

٤. وقعة صفين، نصر بن مزاحم: ١١٤ و ٢٤٩ و ٥٣٠.

٥. وقعة صفين: ٥٠٧.

انطلق بقواته نحو الشام، ووقف إلى جانبه في ساحة القتال، واستدعاه الحسن هو وعبد الله بن جعفر لما اقترح معاوية الصلح عليه وتشاور معهما في ذلك.(١)

وأخيراً عاد مع أخيه بعد الصلح إلى المدينة ليقيم هناك.(٢)

الظروف السياسية والاجتماعية في عهد الإمام الحسين عليه السلام

وقد بلغ الانحراف عن مبادئ الإسلام الذي بدأ من السقيفة وازداد في عهد الخليفة عثمان إلى ذروته في عصر الإمام الحسين عليه السلام .

وقد شكّل معاوية في تلك الفترة التي كان والياً فيها من ناحية الخليفة الثاني والثالث حيث ثبّت موقعه تماماً، واستولى باسم خليفة المسلمين على مقدّرات الأُمّة الإسلامية وعبث بمصيرها، وسلّط العصابة الأموية اللا إسلامية على المسلمين وبالاستعانة بعمال ظلمة غاصبين، أمثال: زياد بن أبيه، وعمرو بن العاص، وسمرة بن جندب، و شكّل حكومة ملكية مستبدة، وشوّه وجه الإسلام. فمن ناحية طبق معاوية سياسة الحظر السياسي والاقتصادي على المسلمين الأحرار المخلصين، ورفض ـ بإقامته للمجازر وعمليات التعذيب والتنكيل وفرضه الفقر والتجويع عليهم ـ أيَّ مبادرة نقد واعتراض وأية حركة مناوئة له .

ومن ناحية ثانية وبإشعاله نار النزعات القومية والقبلية وتأجيجها حاول أن يضرب بعضها ببعض ليستنفد قواهم من خلال ذلك حتى لا يشكّلون خطراً على سلطانه هذا.

و قد خدّر الرأي العام وبمساعدة جلاوزته ومرتزقته بوضع الأحاديث

١. الكامل في التاريخ:٣/ ٤٠٥.

٢. الكامل في التاريخ:٣/ ٣٣٣.

وتفسير وتأويل آيـات القرآن بما يخدم مصالحه، وأسبغ صفـة الشرعية على حكمه من ناحية ثالثة.

وقد تـركت هذه السيـاسة الغير إسـلامية وما قـام به من إشـاعة وتـأسيس الفرق الباطلة كالجبريـة والمرجئة ـ و هما مذهبان يتماشيان مع سياستـه من ناحية العقيدة ـ آثاراً سيئة مدمرة في المجتمع وفرضت عليه سكوتاً مريراً مفعماً بالإذلال، ولقد كـانت هـذه السياسـة خليقة بـأن تحول الإنسان المسلـم من إنســان يفهم انّ الدين لا يجعل من المؤمنين عبيداً لطاغية يحكمهم باسم الدين إلى إنسان يؤيد الطغاة الحاكمين وجعلته يتحول إلى إنســان جبان خانع مراءٍ خلافـاً لمنطق القرآن والتعاليم النبوية.

وتاريخ هذه الفترةمن حياة المسلمين حافـل بالشواهد على أنّ هذا التحوّل كان قد بـدأ يظهر للعيان ويطبع المجتمـع الإسلامي بطابعـه، ويمكننا أن نخرج بفكرة واضحـة عن أثـر هذه السيـاسة في المجتمـع الإسلامـي حين نقارن بين ردّ الفعل الـذي واجه به المسلمـون سياسة عثمان وعماله و بين مـوقفهم من سيـاسة معاويـة، فقد كان رد الفعل لسيـاسة عثمان وعماله ثـورة عارمة من معظـم أقطار الأُمّـة الإسلاميـة من المدينـة ومكة والكـوفة والبصرة ومصر وغيرهـا من حـواضر المسلمين وبواديهم، فهل نجد ردّ فعل جماعياً كهذا لتحـديات معاوية في سياسته اللا إنسـانية للجماهير المسلمة مـع ملاحظة انّ الظلـم على عهد معاويـة أفدح، والاضطهاد والقتـل والإرهاب أعـمّ وأشمل، وحرمـان الأُمّة مـن حقوقهـا وثرواتها وانتاجها أظهر؟! غير انّنـا لم نر شيئاً من ذلك أبداً، فقد كـانت الجماهير خاضعة خضوعاً أعمى.

نعم كانـت ثمّة احتجاجات تنبعث مـن هنا تارة و من هنـاك أُخرى تدلّ على أنّ المجتمـع يتململ تحت وطـأة الاضطهاد والظلـم، كتلـك التي عبر عنهـا

موقف حجر بن عدي وعمر بن الحَمِق الخُزاعي وأضرابهما، ولكنّها لم تأخذ مداها ولم تعبر عن نفسها في حركة فعلية عامة، بـل كانت سرعان ما تهمد وتموت في مهدها حين كانـت السلطة تـأخذ طلائع هـذه الحركات فيقتلـون دون أن يحرك المجتمع ساكناً، وإذا حدث وتحرك فهو إنسان اشتري سكوته بالمال.[1]

موانع الثورة في عهد معاوية

وعلى الـرغم مـن هـذه الأجواء المفعمـة بـالاضطهـاد والإرهاب والظـروف المؤسفة، فإنّ الثورة أصبحت أمراً مستحيلاً، بل غير مجدٍ في تلك الفترة.

ويمكن عـدّ العاملين التاليين من أهـمّ موانع ثورة الإمـام الحسين في عهد معاوية:

الف: معاهدة صلح الحسن مع معاوية

ولو كـان الحسين يثور في عهـد معاوية كـان بإمكـانه أن يستغـل في سبيل تشويه ثورته هذه المعاهدة التي كانت نتيجة صلح الحسن مع معاوية، لأنّ الناس كانوا يعرفون أنّ الحسن والحسين قد عاهدا معاوية على السكوت عنه والتسليم له مادام حيـاً، ولو ثار الحسين على معـاوية لأمكن لمعـاوية أن يصوّره بصـورة منتهز ناقض لعهده وميثاقه، ونحن نعلم جيـداً أنّ الحسين ما كان يرى في عهده لمعاوية عهداً حقيقاً بالرعاية والوفاء، فقد كان عهداً بغير رضى واختيار، وقد كان عهداً تـمّ في ظروف لا يد للمرء في تغييرها، ولقد نقض معاوية هذا العهد ولم يعرف له حرمة ولم يحمل نفسـه مؤونة الـوفاء به، فلو كـان عهداً صحيحاً لكـان الحسين في حلّ منه، لأنّ معاوية نفسه قد تحلّل منه ولم يأل جهداً في نقضه.

---

١. ثورة الحسين ظروفها الاجتماعية وآثارها الإنسانية، محمد مهدي شمس الدين، ص ١٢٦ـ ١٢٧.

وعلى أيّ حال كانت معاهدة الصلح يمكن أن تكون ذريعة لإعلام معاوية ودعايته ضدّ ثورة الحسين الاحتمالية.

ومن جهة أُخرى يجب أن نرى كيف كان يحكم المجتمع على ثورة الحسين المحتملة؟

ومن الواضح انّ مجتمع الحسين الذي رأينا أنّه لم يكن يملك قابلية الثورة والأهلية للقيام بها ويؤثر السلامة والعافية كان يرى أنّه قد عاهد وعليه أن يفي بما عاهد، وعليه لو كان الإمام الحسين يقوم بثورته في عهد معاوية كان سيقدمها على أنّها نقض للعهد والميثاق، ويظهرها للرأي العام وكأنّها تمرّد غير مشروع .

ب: تظاهر معاوية الديني

تركت ثورة الحسين في عهد يزيد أثراً كبيراً وأضفى عليها وهجاً ساطعاً خلدها في ضمائر الناس وقلوبهم ذلك الأثر ــ كما لاحظنا ـ الذي دفع الناس عبر القرون الطويلة إلى تمثل ابطالها واستيحائهم في أعمال البطولة والفداء، وأكبر الظن انّ الحسين لو ثار في عهد معاوية لما كان لثورته كلّ هذا الوهج الساطع والأثر الكبير، وسر ذلك يكمن في دهاء ومكر معاوية وأُسلوبه الخاص في معالجة الأُمور، ومع أنّ معاوية قد حرف الإسلام عملياً واستبدل الخلافة الإسلامية البسيطة المتواضعة بالحكم الارستقراطي الملكي الأموي، وحول المجتمع إلى مجتمع غير إسلامي، غير انّه كان يدرك جيداً انّه ليس ينبغي له وهو يحكم الناس بسلطان الدين أن يرتكب من الأعمال ما يراه العامة تحدياً للدين الذي يحكم بسلطانه، بل عليه أن يضفي على أعماله طابعاً دينياً لتنسجم هذه الأعمال مع ما يتمتع به من المنصب، وأمّا ما لا يمكن تغطيته وتمويهه من التصرفات فليرتكبه في السر.

وهناك وثائق تاريخية تدلّ على أنّه كان ملحداً لا يؤمن بشيء ممّا جعل المغيرة

بن شعبة وهو في تحلّله يغتم لما سمعـه منه في بعض مجالسه معه، ويقول عنه: إنّه أخبث الناس.[1]

وعلى الرغم من ذلك فقد أظهره سلوكه المحافظ على تعاليم الدين بمظهر صعّب على الناس معرفته على حقيقته.

هذا وقد استغـل معاوية ظروفه جيـداً لإضفاء الطابع الـديني على منصبه، تارة بـدعواه انّـه يطالـب بدم عثمان، وأُخرى بإمـوّه به على الـرأي العام بعـد أمر التحكيم وصلحه مع الحسن وبيعة الناس له من جدارته وصلوحه للخلافة.

وعليه لو كان الإمام الحسين يثور في عهده، لكان من السهل عليه أن يقدّم ثورتـه إلى الرأي العـام على أنّها تعبير عن نزاع سيـاسي على السلطة وليســت ثورة للحقّ على الباطل.

مواجهة الإمام لمعاوية

وجميع تلـك الموانع لم تكـن لتجعل الحسين أن يلتـزم الصمت أزاء ظلـم معاويـة وانحرافه الكبيريـن، بل كان يبـذل قصارى جهـده في الوقوف ضـدّ كلّ التصرفـات الظـالمة التـي قـام بها معـاوية في تلـك الأجـواء المفعمـة بـالإرهـاب والاضطهاد، ونورد هنا ثـلاثة نماذج من جهاد الحسين ومواجهاتـه لمعاوية وحكمه وندرسها:

١. الخطب والرسائل الاعتراضية

قد تمّ تبادل عدّة رسائل في فترة العشرة أعـوام من إمامة الحسين ومواجهته السيـاسية بينـه و بين معاويـة عبّرت عن مـوقف الإمـام المتصلب والثـوري أزاء

١. وسوف نتحدّث حول دافع المغيرة من هذا الكلام في الصفحات التالية.

معاوية، وكان عليه السلام يوجه النقد اللاذع كلّما بدر من معاوية من أعمال غير إسلامية، ومن تلك المواقف موقفه تجاه أخذ البيعة ليزيد.

موقفه من البيعة ليزيد

واتباعاً لنشاطاته الواسعة لأخذ البيعة لابنه يزيد سافر معاوية إلى المدينة لأخذ البيعة من أهلها، ومن الشخصيات البارزة بشكل خاص وعلى رأسها الحسين عليه السلام، وبعد أن دخل المدينة التقى بالإمام وعبد الله بن عباس، فطرح خلال هذا اللقاء موضوع البيعة لابنه وحاول أن يقنعهما بذلك، فأجابه الحسين عليه السلام:

«...ولقد فضلت حتى أفرطت، واستأثرت حتى أجحفت، و منعت حَتّى محلت، وجرت حتى تجاوزت، ما بذلت لذي حقّ من اسم حقّه بنصيب، حتى أخذ الشيطان حظه الأوفر ونصيبه الأكمل، وفهمت ما ذكرت عن يزيد من اكتماله وسياسته لأُمّة محمّد، تريد أن توهم الناس في يزيد، كأنّك تصف محجوباً، أو تنعت غائباً، أو تخبر عمّا كان ممّا احتويته بعلم خاص، وقد دلّ يزيد من نفسه على موقع رأيه، فخذ ليزيد فيما أخذ فيه من استقرائه الكلاب المهارشة عند التهارش، والحمام السبق لأترابهن، والقيان ذوات المعازف وضرب الملاهي تجده باصراً. ودع عنك ما تحاول فما أغناك أن تلقى الله من وزر هذا الخلق بأكثر ممّا أنت لاقيه. فوالله ما برحت تقدح باطلاً في جور، وحنقاً في ظلم حتى ملأت الأسقية وما بينك وبين الموت إلّا غمضة، فتقدم على عمل محفوظ في يوم مشهود، ولات حين مناص...».[1]

---

١. الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري: ١/ ١٨٤.

قلق معاوية من ثورة الإمام الحسين عليه السلام

وفي سنة من سنين تلك الفترة كتب مروان بن الحكم ـ عامل معاوية على المدينة ـ إليه: أمّا بعد فإنّ عمر بن عثمان ذكر انّ رجالاً من أهل العراق ووجوه أهل الحجاز يختلفون إلى الحسين بن علي، وانّه لا يؤمن وثوبه. وأضاف مروان في رسالته: وقد بحثت عن هذا فبلغني انّه لا يريد الخلاف من يومه هذا، فاكتب إليّ برأيك.

فكتب معاوية بعد استلام هذا الخبر مضافاً إلى جواب رسالة مروان رسالة إلى الحسين عليه السلام، وهي: أمّا بعد فقد انتهت إليّ أُمور عنك إن كانت حقّاً فانّي أرغب بك عنها، ولعمر الله إنّ من أعطى عهد الله وميثاقه لجدير بالوفاء، وانّ أحقّ الناس بالوفاء من كان مثلك في خطرك وشرفك ومنزلتك التي أنزلك الله بها، ونفسك فاذكر، وبعهد الله أوف، فانّك متى تنكرني أنكرك، ومتى تكدني أكدك، فاتق شق عصا هذه الأُمّة.[١]

ردّ الإمام التاريخي على معاوية

وردّاً عليه كتب الإمام الحسين :

«أمّا بعد فقد بلغني كتابك تذكر فيه انّه انتهت إليك عني أُمور أنت لي عنها راغب وأنا بغيرها عندك جدير، فانّ الحسنات لا يهدي إليها ولا يسدّد إليها إلّا الله تعالى، وأمّا ما ذكرت انّه رقي إليك عني، فإنّما رقاه إليك الملاّقون المشّاؤون بالنميم المفرّقون بين الجمع وكذب الغاوون، ما أردت لك حرباً ولا عليك خلافاً، وانّي لأخشى الله في

١. اختيار معرفة الرجال، ص ٤٨.

تـرك ذلك منـك و مـن الاعذار فيـه إليـك و إلى أوليائك القـاسطين الملحدين حزب الظلمة وأولياء الشياطين.

ألست القاتل حجر بن عدي أخا كندة وأصحابـه المصلّين العابدين الذيـن كانـوا ينكرون الظلم ويستفظعـون البدع ويـأمرون بـالمعروف وينهـون عن المنكـر ولا يخافون في الله لـومـة لائم؟! ثمّ قتلتهـم ظلماً وعدوانـاً من بعـد ما أعطيتهـم الأيمان المغلّظة والمواثيـق المؤكّدة ألاّ تأخذهم بحدث كان بينك و بينهم جرأة على الله واستخفافاً بعهده.

أو لست قاتل عمرو بن الحمق صاحب رسول الله ﷺ العبد الصالح فقتلته بعد ما آمنته؟!

أو لست المدّعي زياد بن سميّة المولود على فراش عبيـد من ثقيف؟ فـزعمت انّـه ابـن أبيـك، وقد قـال رسـول الله ﷺ: «**الولد للفراش وللعاهر الحجر**» فتركت سنّـة رسول الله ﷺ وتبعت هواك بغير هدى من الله، ثمّ سلّطته على أهل الإسلام يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم ويسمل عيونهم ويصلبهم على جذوع النخل، كـأنّك لست من هذه الأُمّة وليسوا منك.

أو لست صاحـب الحضرمي الذي كتب فيه ابن سميّـة انّه على دين علي صلوات الله عليـه، فكتبت إليـه أن أقتل كـلّ من كـان على دين عليّ، فقتله، ومثّل بـه بأمرك. ودين عليّ هو ديـن ابن عمه ﷺ الذي كان يضرب عليـه أباك ويضربك، وبـه جلست مجلسك الـذي أنت فيه، ولـولا ذلك كـان أفضل شرفـك وشرف آبائك تجشّـم الرحلتين: رحلة الشتاء والصيف، التي بنا منّ الله عليكم فوضعها عنكم.

وقلت فيما قلت: لا ترد هذه الأمّة واتّق شق عصاها، إنّي لا أعلم فتنة

أعظم على هذه الأُمّة من ولايتك عليها، ولا أعظم نظراً لنفسي ولديني.

وقلت فيما قلت: انظر لنفسك ولدينك ولأُمّة محمد، وإنّي والله ما أعرف أفضل من جهادك، فإن أفعل فإنّه قربة إلى ربي، وإن لم أفعله فاستغفر الله لديني وأسأله التوفيق لما يحب ويرضى.

وقلت فيما قلت: متى تكدني أكدك، فكدني يا معاوية فيما بدالك، فلعمري لقديماً يكاد الصالحون، وانّي لأرجو أن لا تضر إلاّ نفسك، ولا تمحق إلاّ عملك، فكدني ما بدالك، واتق الله يا معاوية، واعلم أنّ لله كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها، واعلم أنّ الله ليس بناس لك قتلك بالظنّة وأخذك بالتهمة وأمارتك صبياً يشرب الشراب ويلعب بالكلاب ما أراك إلاّ قد أوبقت نفسك وأهلكت دينك وأضعت الرعية، والسلام».[1]

٢. الخطبةالدامغة والفاضحة في اجتماع الحجّ العظيم

حجّ الحسين قبل أن يموت معاوية بسنة أو سنتين في الفترة التي بلغ الكبت والاضطهاد من قبل حكمه ذروته على الشيعة، وقد دعا الإمام الحسين ومعه عبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر الصحابة والتابعين وأبرز شخصيات المجتمع الإسلامي آنذاك ممّن عرف بالنزاهة والصلاح وبني هاشم جميعاً أن

---

١. الإمامة والسياسة ، الدينوري:١/ ١٨٠، وذكرت هذه الرسالة في بحار الأنوار:٤٤/ ٢١٢ ؛ احتجاج الطبرسي:٢/ ١٦١؛ اختيار معرفة الرجال، ص ٤٨، مع اختلاف يسير في الألفاظ غير انّنا ذكرنا عبارات الإمامة والسياسة.

يجتمعوا في خيمته بمنـى، فاجتمع سبعمائة من التابعين ومائتان مـن الصحابة فقام خطيباً بهم:

«أمّا بعـد فإنّ الطـاغية قد صنـع بنا وبشيعتنا مـا قد علمتـم ورأيتم وشهدتـم وبلغكم، وإنّي أريد أن أسـألكم عـن أشياء فإن صـدقت فصدّقوني وإن كـذبت فكذّبوني، اسمعـوا مقالتي واكتموا قـولي، ثمّ ارجعوا إلى أمصاركم وقبائلكم من أمنتموه ووثقتم به فادعوهم إلى ما تعلمون، فإنّي أخاف أن يندرس هذا الحق ويذهب، والله متم نوره ولو كره الكافرون».[1]

ثمّ ذكـر بعد ذلك منـاقب أبيه أمير المؤمنين المتألّقـة ومناقب أهـل البيت، وأشار إلى بـدع وجرائم معاوية وأعمالـه اللا إسلاميـة، وهكذا فجّر ثورة إعـلامية ضخمة ضد السلطة الأموية الخبيثة وهيّأ الأرضية للثورة.

هذا وقد نقل الحسن بن علي بن شعبة وهو من العلماء الكبار في القرن الرابع خطبة الإمام في كتاب «تحف العقول» دون أن يتّضح محلّ إيرادهـا وزمانها، غير انّ القـرائن ومضمون الخطبـة يدلّان على أنّها هـي نفسهـا تلك الخطبـة التي خطبهـا الإمام في منى، ولتناسبها مع موضوع البحث نورد هنا بعضاً منها:

«...ثـمّ أنتم أيّتهـا العصـابـة بالعلـم مشهـورة، وبـالخير مذكـورة، وبالنصيحة معروفة، وبالله في أنفـس الناس مهابة، يهابكم الشريـف، ويكرمكـم الضعيف، ويؤثـركم من لا فضـل لكم عليه ولا يـد لكم عنده، تشفعون في الحوائج إذا امتنعت من طلّابها، وتمشون في الطريق بهيبة الملـوك وكرامـة الأكابـر، أليس كـلّ ذلك إنّما نلتمـوه بما يرجـى

---

١. كتاب سليم بن قيس الهلالي، ص ٢٠٦؛ الاحتجاج: ١٦١؛ الغدير: ١/ ١٩٨.

عنـدكـم مـن القيـام بحـقّ الله وإن كنتـم عـن أكثـر حقّـه تقصّرون فاستخففتم بحقّ الأئمّة.

فأمّا حقّ الضعفـاء فضيّعتم، وأمّا حقّكم بزعمكم فطلبتـم، فلا مالاً بذلتموه، ولا نفساً خاطرتم بها للّذي خلقها، ولا عشيرة عاديتموها في ذات الله، أنتم تتمنون على الله جنته ومجاورة رسله وأماناً من عذابه.

لقد خشيت عليكم أيّها المتمنّون على الله أن تحلّ بكم نقمة من نقماته، لأنّكم بلغتـم من كـرامة الله منـزلة فضّلتـم بها، ومن يعـرف بالله لا تكرمون وأنتم بالله في عباده تكرمـون، وقد ترون عهود الله منقوضة فلا تفزعون وأنتم لبعض ذمم آبائكم تفزعون، وذمة رسول الله ﷺ محقورة والعمى والبكم والزمن في المدائن مهملـة لا ترحمون، ولا في منزلتكم تعملون، ولا من عمل فيها تعنون، وبالإدهان والمصانعة عند الظلمة تأمنـون، كلّ ذلـك ممّا أمـركم الله به مـن النهي والتنـاهي وأنتـم عنه غافلون، وأنتم أعظم الناس مصيبـة لما غلبتم عليه من منازل العلماء، لو كنتم تسعـون ذلك بأنّ مجاري الأُمور والأحكـام على أيدي العلماء بالله الأُمنـاء على حلاله وحرامـه، فأنتم المسلـوبون تلك المنزلـة، وما سلبتم ذلـك إلاّ بتفرقكـم عن الحقّ واختلافكـم في السنّة بعـد البيّنة الواضحة، ولو صبرتم على الأذى وتحمّلتـم المؤونة في ذات الله كانت أُمور الله عليكـم ترد وعنكـم تصدر وإليكم تـرجع، ولكنّكـم مكّنتم الظلمـة مـن منـزلتكـم واستسلمتـم أُمـور الله في أيـديهم يعملـون بالشبهـات ويسيرون في الشهوات، سلّطهـم على ذلك فـراركم مـن الموت وإعجابكم بالحياة التي هي مفارقتكم، فأسلمتم الضعفاء في أيـديهم، فمـن بين مستبعد مقهـور، و بين مستضعـف على معيشتـه

مغلـوب، يتقلّبون في الملـك بآرائهـم ويستشعرون الخزي بـأهوائهـم اقتداءً بالأشرار وجرأة على الجبار، في كـلّ بلد منهم على منبره خطيب يصقـع، فالأرض لهم شـاغرة، وأيـديهم فيها مبسـوطة، والنـاس لهم خول، لا يـدفعون يد لامـس، فمن بين جبار عنيـد وذي سطوة على الضعفـة شديـد مطاع لا يعـرف المبـدئ المعيد، فيـا عجباً ومـالي لا أعجب والأرض من غاش غشوم ومتصدّق ظلوم وعامل على المؤمنين بهم غير رحيـم، فالله الحاكـم فيما فيه تنـازعنـا والقاضي بحكمـه فيما شجر بيننا.

اللّهمّ إنّك تعلم أنّـه لم يكن ما كان منّا تنافسـاً في سلطان ولا التماساً من فضول الحطام، ولكن لنرى المعـالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك، ويـأمن المظلـومون مـن عبادك، ويعمـل بفرائضـك وسننك وأحكامك، فإن لم تنصرونا وتنصفونـا قوي الظلمة عليكم وعملوا في إطفـاء نـور نبيكـم، وحسبنـا الله وعليـه تـوكلنـا وإليـه أنبنـا وإليـه المصير».[1]

٣. الاستيلاء على أموال حكومية

وفي تلك الأيام كانت هناك عِيرٌ قد اجتازت يثرب تحمل أموالاً من اليمن إلى دمشق، فعمد الإمام الحسين إلى الاستيلاء عليهـا، ووزّعها على المحتاجين من بني هاشم وغيرهم، وكتب إلى معاوية:

«من الحسين بن علي إلى معاوية بن أبي سفيان، أمّا بعد: فإنّ عيراً مرت بنا من اليمن تحمل أموالاً وحللاً وعنبراً وطيباً إليـك لتودعها خزائن دمشق، تعل بها

١. تحف العقول، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٩.

بعد النهل بني أبيك، وأنّي احتجت إليها فأخذتها والسلام» .

وقد استاء معاوية جداً من هذا العمل وردّ عليه ردّاً عنيفاً.[١]

وممّا لا شكّ فيه هو أنّ عمل الإمام هذا يعد خطوة واضحة في عدم الاعتراف بمشروعية سلطة معاوية ومعارضته المعلنة له في تلك الظروف التي لا يجرؤ أحد غيره عليه السلام على القيام بمثل هذا العمل.

حقيقة ودوافع ثورة عاشوراء

هناك تساؤلات تتعلّق بثورة الإمام الحسين عليه السلام يتوقّف وضوح دوافعها على الإجابة عليها وهي:

١. لو لم يضغط يزيد على الحسين عليه السلام لأخذ البيعة منه، فهل كان سيعارض سلطته؟

٢. ولو لم يدعو أهل الكوفة الإمام إلى العراق، فهل كانت ستحدث هذه الثورة؟

٣. وهل كانت هذه الثورة ثورة عفوية غير مدروسة وانتفاضة متفجّرة من تلك الانتفاضات الاجتماعية الثائرة التي يعرضها الماديون اليوم؟ أم هي ثورة واعية مدروسة؟

ولكي تتضح الإجابة على هذه التساؤلات نشير ابتداء إلى أنّه على عكس الظواهر الطبيعية التي عادة ما تكون أحادية الطبيعة والحقيقة، فإنّ الظواهر الاجتماعية قد تكون ذات جوانب وطبائع متنوعة، فالفلز لا يمكن أن يكون ذا طبيعة ذهبية وطبيعة نحاسية في آن واحد، بينما يمكن أن يكون للظواهر الاجتماعية جوانب متعددة في نفس الوقت وأن يؤثر فيها عدة أسباب، مثلاً قد تكون الثورة

---

١. حياة الإمام الحسين بن علي عليهما السلام، باقر شريف القرشي: ٢/ ٢٣١ نقلاً عن نهج البلاغة.

ردة فعل أي تكـون رداً لحدث فقط وفي الوقت ذاتـه تكون ذات طبيعة هجـومية، وعندما تكون الثورة ردّاً لفعل ما قد تعدّ سلبية بالنسبة إلى حدث وإيجابية إلى آخر، كانت ثـورة الحسين من هذا القبيل وقد أثّـر فيها جميع ما تقـدم، لأنّها انبثقت من عدة أسباب سنوضحها.

أسباب ثورة الحسين عليه السلام

حدثت الثورة الحسينية للدوافع والأسباب التالية:

١. طلب البيعة من الإمام الحسين ليزيد والضغط عليه بهذا القصد.

٢. دعوة أهالي الكوفة للحسين للوفود إلى العراق.

٣. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهـذا هو الشعار الذي انطلق به من المدينة منذ اليوم الأوّل.

والآن سندرس كلّ واحد من هذه الأسبـاب لنتعرف على طبيعة ثورة الإمام بالنظر إلى هذه الأسباب ومدى تأثير كلّ منها فيها.

١. رفض مبايعة يزيد

أوّل الأسباب مـن الناحية الزمنيـة هو مطالبـة الإمام الحسين عليه السلام بالبيعة ليزيد ورفضه عليه السلام لها كما يقول المؤرّخـون انّه قد كتب يـزيد بعد موت معـاوية في النصف من رجب عام ستين هجرية[1] إلى **الوليد بن عتبة بن أبي سفيان** والي المدينة: أن خذ البيعة من الحسين بن علي أخذاً ليـس فيه رخصة ولا تأخير. وما أن وصلت رسالة يـزيد استدعى عامـل المدينة الحسين بن علي عليهما السلام وفاتحه بـذلك، الحسين

١. الارشاد، ص ٢٠٠.

الذي كان يعارض ولاية العهد ليزيد منذ عهد معاوية بشدّة امتنع هذه المرة عنها أيضاً، لأنّ مبايعة يزيد لا تعني إسباغ الشرعية على خلافة شخصية شاذة مثل يزيد فقط، بل يعني تأييد انحراف كبير من مثل تأسيس نظام ملكي أسّسه معاوية.

استمر الضغط عدة أيّام من قبل عامل المدينة غير انّ الحسين قاوم ذلك، وجرّاء هذه المضايقات انطلق الإمام في ٢٨ رجب برفقة أهل بيته وجماعة من بني هاشم نحو مكة ودخلها في الثالث من شعبان.

وكان سبب اختيار مكّة من بين المدن الكثيرة هو انّها كانت حرماً آمناً، مضافاً إلى ذلك كان موسم الحجّ على وشك الاقتراب، ونظراً إلى الاجتماع القريب للحجاج في مكة كانت مكاناً مناسباً جداً للإعلان عن رسالة الإمام وتبيين أهدافه للمسلمين.

إلى هنا كانت ثورة الإمام الحسين ردّة فعل سلبي أمام طلب غير مشروع، لأنّ حكومة يزيد طالبته بالبيعة بالضغط والإلحاح وكان هو يمتنع عن ذلك، ولكن قد بدا واضحاً انّ الإمام قد أعرب عن رفضه لبيعة يزيد رغم ضغوطه وقبل أن يدعوه الكوفيون، وحتى لو لم يدعوه إلى المسير إليهم فإنّه كان سيرفض مبايعته.

٢. استدعاء أهل الكوفة للحسين عليه السلام

أقام الحسين عليه السلام في مكة بعد أن دخلها في الثالث من شعبان وراح يكشف عن طبيعة السلطة اللا إسلامية الحاكمة، وصل خبر معارضة الإمام الحسين عليه السلام لخلافة يزيد و إقامته في مكّة إلى العراق، واجتمع الكوفيون الذين كانوا ما يزالون يتذكّرون حكومة علي عليه السلام العادلة قبل ما يقارب العشرين عاماً، ومازالت آثار

تربيـة أمير المؤمنين وتعاليمه بـاقية في تلك المدينـة ولم يزل اليتامـى الذين ربّـاهم علي عليه السلام علىٰ يديه والأيـامى اللائي كان يرعـاهنّ بعطفه أحياء يـرزقون. اجتمعوا وبعد أن درسوا الظـروف قرروا أن يعصوا يزيد ولا يطيعوه، وأن يـدعوا الحسين بن علي عليه السلام ليقودهـم ويكون إمامـاً عليهم ويخضعوا لطـاعته، وبعد هـذا التشاور كتب وجهاء شيعة الكوفة وكبارهم من أمثال: سليمان بن صُـرَد، ومسيب بن نَجَبَة ورفاعة بن شداد البَجَلي، وحبيب بن مظاهر، رسائل وبعثوا بها إلى الحسين ودعوه أن يقدم إلى العراق ويكون إماماً عليهم.

وصلـت أوّل رسـالـة في العـاشر مـن رمضـان عـام ٦٠ هجـريـة إلى يـد الحسين عليه السلام.[١] وراحت مراسلة الشخصيات والجماعات من الكوفة للحسين عليه السلام تستمر حتى اجتمعت ستمائة رسالة عند الحسين في يوم واحد فقط، وبلغ مجموع الرسائل المرسلة بالتدريج اثني عشر ألف رسالة.[٢]

ونظراً إلى كلّ هذا الترحيب الحار والكبير وإلى السيـل الجارف من الرسائل والدعوات قبل الإمام الحسين عليه السلام دعوة العراقيين انطلاقاً من شعوره بالمسؤولية تجاه ذلك، وفي أوّل ردّ فعل إيجابي منـه بعث مسلم بن عقيل ابن عمه ممثّلاً عنه إلى الكوفة حتـى يدرس أوضاع وظروف العراق ويطلع الإمـام على ذلك، ثمّ إن رأى

---

١. الإرشاد، المفيد، ص ٢٠٣؛ مقتل الحسين عليه السلام، أبو مخنـف، ص ١٦، و من حيث إنّ مـا جاء في النسخة الموجـودة لمقتل أبي مخنف المعـروف الذي هو مـن أقدم المصـادر حول وقعة عـاشوراء لا يتطابق مع ما نقله الطبري والآخرون، ولذلك قـد سقط من القيمة والاعتبار اللازم، وقد استخرج حجة الإسـلام والمسلمين الشيخ حسـن الغفّاري روايات الطبري عـن أبي مخنف في هـذا المجال ونشرها بشكـل مستقل مـع مقدمة عـن حياة أبي مخنـف لوط بن يحيـى و تعليقات وتـوضيحات مفيدة، ونحن هنا في هذا الكتاب كلّما ذكرنا اسم هذا المقتل فانّا نقصد هذه النسخة.

٢. اللهوف على قتلى الطفوف ، ابن طاووس، ص ١٥.

الكوفيين مـازالوا أوفياء بما كتبـوا انطلق الإمام بـاتجاههم، وكما هو ملحـوظ نجد انّ مقابلـة الإمام مع دعوتهم كـانت مقابلـة إيجابية وتعدّ نـوعاً من التعاطـف مع العراقيين.

ويتضح بالالتفـات إلى ما تقدّم انّه بعد رفـض البيعة ليزيد لم يكـن للإمام الحسين عليه السلام في مكة مسؤولية ،لأنّه لم يبايع على أية حال، غير انّ دعوة الكوفيين له شكّلت منعطفاً جديداً في قضيته وحمّلته مسؤولية أُخرى.

ولعلّ تقدير الإمام وتقييمه كان بهذا النحو: الآن وقد دعاني أهل الكوفة مع كلّ هذا الإلحاح والترحيب، سـأنطلق نحو العراق، فإن وفوا بـوعودهم فخير على خير، وإن لم يكن ذلك أعود إلى مكة أو إلى إحدى المدن الإسلامية.

وهكذا كان الامتناع عن مبايعة يزيـد أسبق من دعوة الكوفيين من الناحية الزمنية، وقد وصلــت أوّل رسالة من الكوفة إلى الحسين بعد أربعين يومـاًمن إقامته في مكة.

إذن فليس امتناع الإمـام عن مبايعة يـزيد كان بسبب دعـوة الكوفيين، بل كان امتناعه عن ذلك قبل وصول دعوتهم ورسائلهـم.

وبعبارة أُخرى: حتى إذا لم تكن هناك كوفة ما ولا هناك من يدعوه وضاقت الأرض عليه بما رحبت، فإنّ الإمام كان سيظل رافضاً لبيعة يزيد.

٣. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

انطلـق الإمام الحسين ومنـذ اليـوم الأوّل من المدينـة حـامـلاً شعار الأمـر بالمعروف والنهي عـن المنكر، والواقع انّ القضية لم تكن قضيـة عرض البيعة عليه ورفضه لها ثمّ القيام بـالثورة لذلك، بل انّه كان يرى أنّ الثـورة ضرورية حتى لو لم

يطالبوه بالبيعة.

وهكذا الإمام بالنسبة إلى دعوة الكوفيين فإنّه لم يثر لدعوة الكوفيين له حيث قد لاحظنا تأخّر دعوتهم ومراسلتهم له عن امتناعه عن البيعة حوالي شهر ونصف الشهر، و من هذه الزاوية كان منطق الإمام الحسين منطق الشجب والاعتراض ومهاجمة الحكومة اللاإسلامية.

وقد كان منطقه هو انّه حيث إنّ العالم الإسلامي قد ساد فيه المنكر والفساد وتلوّث بها وكانت السلطة الحاكمة هي مصدر ذلك كلّه كان من الضروري أن يثور انطلاقاً من مسؤوليته الدينية وواجبه الإلهي، وكما أشرنا كان لهذه الأسباب الثلاثة دور في ثورة الحسين العظيمة، وأوجب كلّ واحد منها نوعاً خاصاً من المسؤولية بالنسبة إليه، فكان موقفه عليه السلام يختلف ازاء كلّ منها.

فكان موقف الإمام عليه السلام دفاعياً بالنسبة إلى الدافع الأوّل، لأنّهم أرادوا إجباره على البيعة وكان هو يحجم عن ذلك.

وكان موقفه ازاء الباعث الثاني موقفاً تعاطفياً، لأنّهم طلبوا منه أن يتجاوب معهم فأجابهم.

وأمّا السبب الثالث فقد كان موقف الإمام ازاءه موقفاً هجومياً متحرشاً ذلك انّه حتى لو لم يطالبوه بالبيعة، فكان عليه أن يهاجم السلطة ويعتبرها سلطة غير إسلامية ولا شرعية.

تقييم الدوافع الثلاثة

لنلاحظ أي الأسباب الثلاثة أكثر أهمية.

ولا شكّ انّ للاستجابة لدعوة الكوفيين أهمية كبيرة، لأنّ الإمام عليه السلام قد

أعلن عن استعداده باستجابته للناس الذين تمرّدوا على يزيد ودعوه للإمامة عليهم وفيما لو كانت الظروف مؤاتية ومناسبة لكان يبادر إلى تشكيل حكومة إسلامية، غير أنّ امتناعه عن مبايعة يزيد له أهمية أكبر من ذلك، لأنّه قد أعلن مراراً انّه لن يبايع يزيد مهما كان و مهما كانت الضغوط، وهذا الأمر يدلّ على صمود الإمام وثباته أمام الضغط والوعيد، ولكن يبقى للسبب الثالث أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أهميته القصوىٰ، ذلك انّ موقف الإمام لم يكن موقفاً دفاعياً ولا تعاطفياً مع من دعوه بل كان موقفاً هجومياً تحرشياً استنكارياً، لأنّ ممّا لا شكّ فيه هو انّه لو كانت دعوة الكوفيين للإمام هي الدافع الرئيسي للثورة كان على الإمام أن ينسحب ولغيّر موقفه عندما علم بتخاذلهم وعدم وفائهم وما كان يتجه نحو العراق، ولكننا نرى أنّ من أسخن خطب الإمام الحسين عليه السلام وأكثرها إثارة وحماسة هي تلك التي قالها بعد استشهاد مسلم.

ومن هنا يتضح مدى أهمية دور دافع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ثورته، وكم كان موقفه هجومياً صاخباً إزاء سلطة يزيد الفاسدة.[1]

إلى هنا اتضحت الإجابة على التساؤل الأوّل والثاني المطروحين في بداية هذا البحث وتبيّن أيضاً انّه حتى لو افترض أن يزيد لم يضغط على الحسين لأخذ البيعة منه فإنّه عليه السلام كان سيعارض سلطته، وعلمنا كذلك انّ الثورة كانت ستحدث من دون دعوة الكوفيين أيضاً.

بقي الآن أن نشير إلى بعض الوثائق الحية التي تمثّل درجة اهتمام الإمام الحسين عليه السلام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ثورته لكي تتضح إجابة التساؤل الثالث أيضاً.

١. ما عرض حول حقيقة ودوافع ثورة الإمام الحسين عليه السلام هنا قد أُفيد من بحوث الأُستاذ الشهيد المطهري في المجلد الثاني من كتابه الحماسة الحسينية.

الف: وصية الإمام الدينية السياسية

كتب الإمام الحسين عليه السلام قبل أن يترك المدينة وصية إلى أخيه محمد بن الحنفية ذكر خلالها انّه خرج لإصلاح الأُمّة الإسلامية، وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحياء سيرة جدّه وأبيه، وقد كتب بعد أن بين عقيدته في التوحيد والنبوة والمعاد بهذا النحو:

«إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي وأبي، أُريد أن آمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بالحق، ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتى يحكم الله بيني و بين القوم بالحق، وهو خير الحاكمين».[1]

وكما نلاحظ انّ الإمام حصر دوافع ثورته في أربعة أُمور:

أ. اصلاح الأُمّة .

ب . الأمر بالمعروف .

ج . النهي عن المنكر.

د . السير علىٰ سيرة جده صلى الله عليه وآله وسلم وأبيه علي عليه السلام وإحياء سنّتهما.

ب: السكوت الذي لا يغفر

عندما انطلق الإمام الحسين نحو العراق نزل بمكان يسمّى بيضة وخطب بأصحابه وأصحاب الحر خطبة بيّن خلالها دوافع ثورته:

«أيّها الناس انّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من رآى سلطاناً جائراً مستحلاً

---

١ . بحار الأنوار:٤٤/ ٣٢٩.

لحرام الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنّة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله، ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلّوا حرام الله وحرّموا حلاله وأنا أحقّ مَنْ غيّر».(١)

ج: تضييع السنّة وإشاعة البدع

أرسل الإمام الحسين عليه السلام بعد دخوله إلى مكة رسالة إلى رؤساء قبائل البصرة وبعد أن أشار إلى عهد الخلفاء الماضين الذين عزلوا أئمّة الإسلام الحقيقيّين عن القيادة السياسية والذين اختاروا الصمت حفاظاً على وحدة الأُمّة ومصالح الإسلام العليا وكتب فيها: «وقد بعثت برسولي هذا إليكم بهذا الكتاب، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وآله، فإنّ السنّة قد أُميتت، وانّ البدعة قد أُحييت، وأن تسمعوا قولي وتطيعوا أمري أهدكم سبيل الرشاد، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».(٢)

د: ألا ترون أنّ الحق لا يعمل به؟

وخطب الحسين عليه السلام في مسيره إلى العراق بمكان يدعى«ذي حُسُم» بأصحابه وقال:

«إنّ هذه الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت وأدبر معروفها، فلم يبقَ منها إلا

---

١. مقتل الحسين لأبي مخنف، ص ٨٥؛ تاريخ الطبري:٦/ ٢٢٩؛ الكامل في التاريخ :٤/ ٤٨، و قد نقل البلاذري بعضاً من هذه الخطبة في أنساب الأشراف:٣/ ١٧١.

١. تاريخ الطبري:٦/ ٢٠٠؛ مقتل أبي مخنف ص ٨٦.

صبابة كصبابة الإناء وخسيس العيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون الحقّ ، لا يعمل به وانّ الباطل لا ينتهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقاً فأنّي لا أرى الموت إلاّ سعادة ولا الحياة مع الظالمين إلاّ برما، انّ الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درّت معائشهم، فإذا محّصوا بالبلاء، قلّ الديانون».[1]

الثورة الواعية

ووفقاً للتفسير الذي يقدّمه المادّيون اليوم عن الثورات الاجتماعية، فإنّ عملية التغيّر والثورة في مجتمع ما تكون كالانفجار الذي يحدث نتيجة تراكم البخار في قدر وانسداد ثغرات الأمان فيه حيث يتم ذلك سواء شاء الإنسان أم لم يشأ ذلك، لأنّه عندما تزداد الفوارق الطبقية والضغوط تبعاً لها يطفح كيل صبر المجتمع جرّاء الظلم والضغوط ويصبح التغيير والثورة والانفجار ظاهرة طبيعية.

وبعبارة أُخرى: انّ الثورة الانفجارية في نموذجها الصغير تشبه انفجار عقدة الشخصية الغاضبة النفسية التي تفرغ ما بداخلها لا شعورياً عندما تضيق ذرعاً مع أنّها قد تندم بعد ذلك.

وبالالتفات إلى ما قدمناه من أمثلة لخطب ورسائل الإمام الحسين عليه السلام ، يتّضح جيداً أنّ ثورة هذا الإمام العظيم لا تنطبق عليها تلك القاعدة، بل انّ ثورته ثورة منطلقة من الوعي والشعور بالمسؤولية مع الالتفات إلى كلّ المخاطر

---

١. تحف العقول:٢٤٥؛ مقتل أبي مخنف:٨٦؛ تاريخ الطبري:٢٢٩، وقد نقل الخطبة باختلاف طفيف ابن عساكر في تاريخ دمشق ، ٢١٤، والسيد ابن طاووس في اللهوف: ٣٣، والمجلسي في البحار الأنوار:٤٤/ ١٩٢، ووفقاً لما نقله ابن عساكر والمجلسي فانّ الإمام عليه السلام خطبها في كربلاء بعد ان اصطدم بجيش عمر بن سعد.

والعواقب. لم يرد الحسين أن يختار الشهادة عن وعي ورغبة وحده فقط، بل أراد لأصحابه أن يكونوا كذلك أيضاً، ولذلك ترك الخيار لهم ليلة عاشوراء وقال بأنّ من شاء فليذهب، وأعلن انّه من مكث معه إلى الغد فانّه مقتول لا محالة، غير انهّم رغم كلّ ذلك اختاروا البقاء والشهادة؛ ومضافاً إلى كلّ ذلك فإنّه لا دور للقادة والشخصيات في الثورات الكبيرة على رأي الماديّين، بل انّهم يلعبون دور القابلة في توليد الأطفال، ونظراً إلى أنّ حدوث وظهور هذا النوع من الثورات خارج عن إرادة أبطال الثورة فهي لا تتمتع بأية قيمة أخلاقية، بينما نجد انّ دور قيادةالإمام الحسين عليه السلام في ثورة عاشوراء دور بارز وأشهر من نار على علم.

نفوذ العصابة الأموية في مركز السلطة

اتّضح ممّا قدمناه حول دور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ثورة الإمام الحسين عليه السلام، أنّ الدافع الأساسي لثورته هو انحراف الحكومة الإسلامية عن خطّها الحقيقي، وإحياء البدع، وضياع سنّة رسول الله، وانتشار الفساد والانحراف الديني، وكلّ ما هو غير إسلامي في مجتمع ذلك العصر.

ونؤكد توضيحاً أكثر من ذي قبل انّه كانت الحكومة الإسلامية ومقدّرات الأُمّة آنذاك بحوزة العصابة اللاإسلامية والجاهلية من الأمويين ، هذه العصابة التي أسلمت في الظاهر في فتح مكة بعد سنين عديدة من محاربة رسول الله صلى الله عليه وآله غير انهّا أخفت كفرها ونفاقها ونشطت بشكل سرّي بعد وفاة الرسول متظاهرة بزي إسلامي، وأخذت تسيطر على جهاز الحكومة الإسلامية، وحازت على المناصب الحسّاسة فيها بالتدريج حتى تربعت على عرش السلطة من خلال معاوية بعد استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام.

ومع أنّ قادة هذه العصابة ورموزها الكبار كانوا يخفون أهدافهم الدنيئة

لأجـل ضرب الإسلام مـن الداخـل وإحيـاء نظام الجاهليـة، غير انّ إلقاء نظـرة فاحصة على سلوكهم وأعمالهم يوضح ذلـك بشكل جيد، وكذلك يدلّ على ذلك ما كانوا يكشفونه عن أهدافهم أحياناً في اجتماعاتهم الخاصة ظانّين انّ ما يقولونه لا يتسرب إلى الخارج، كما قال أبو سفيان رأس هذه العصابة يوم بويع عثمان أوّل خليفة أموي ـ و قد اجتمع في داره بنو أُمية وأغلقوها عليهم ـ: «أعندكم أحد من غيركم؟ قالوا: لا، قال:

يا بني أُمية تلقّفوها تلقّف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما من عذاب ولا حساب ولا جنة ولا نار ولا بعث ولا قيامة.[١]

وهذا هو أبو سفيان الذي قال في عهد عثمان عندما مرّ علىٰ قبر حمزة بن عبد المطلب وركله بقدمه: إنّ الدين الذي قاتلتمونا أمس عليه بالسيف أصبح اليوم كرة بيد صبياننا يلعبون بها.[٢]

سياسة معاوية اللا إسلامية

قد كشـف معاوية بن أبي سفيـان ـ عندمـا كان حاكماً ـ في أحـد مجالسه الليلية مع المغيرة بن شعبـة ـ و هو أحد عماله عن أملـه في القضاء على الإسلام، وقد أفشـى مطرف بـن المغيرة ذلك و قـال: «وفدت مـع أبي المغيرة إلى معاويـة، فكـان أبي يأتيـه يتّحدث عنـده ثـمّ ينصرف إلي، فيذكـر معـاوية ويـذكر عقلـه ويعجب ممّـا يرىٰ منـه، إذ جاء ذات ليلة فـأمسك عن العشـاء، فرأيتـه مغتمّـاً، فانتظرته سـاعة، وظننت انّه لشيء حدث فينا أو في عملنـا، فقلت له: مالي أراك

---

١. شرح النهـج:٩/ ٥٣، الخطبـة ١٣٩. و قـد نقـل كـلام أبي سفيـان هـذا ابـن عبـد البر في كتـاب الاستيعـاب في معرفـة الأصحـاب (في هـامش الإصـابـة):٤/ ٨٧، والمقـريزي في كتـاب النـزاع والتخاصـم فيما بين بني أُمية وبني هاشم مع اختلاف في أنّه قال هذا الكلام يخاطب به عثمان.

٢. قاموس الرجال ، الشيخ محمد تقي التستري:١٠/ ٨٠.

مغتمّاً منذ الليلة؟ قال: يا بني إنّي جئت من عند أخبث الناس، قلت له: وما ذاك؟ قال: قلت له وقد خلوت به: إنّك قد بلغت مناك يا أمير المؤمنين فلو أظهرت عدلاً وبسطت خيراً، فانّك قد كبرت ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم، فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه؟ فقال لي : هيهات هيهات ملك أخو تيم فعدل وفعل ما فعل، فوالله ماعدا ان هلك فهلك ذكره إلاّ أن يقول قائل أبو بكر؛ ثمّ ملك أخو عدي فاجتهد وشمر عشر سنين، فوالله ماعدا ان هلك فهلك ذكره، إلاّ أن يقول قائل عمر؛ ثم ملك أخونا عثمان فملك رجل لم يكن أحد في مثل نسبه فعمل ماعمل و عمل به، فوالله ما عدا ان هلك فهلك ذكره وذكر ما فعل به، وانّ أخا هاشم يصرخ به في كلّ يوم خمس مرات: أشهد أنّ محمّداً رسول الله، فأي عمل يبقى بعد هذا لا أمّ لك، والله ألا دفناً دفناً!!

يكشف حديث معاوية هذا عن كفره بشكل واضح، وعندما سمع المأمون الخليفة العباسي هذا الحديث من الرواة والمحدّثين أصدر بياناً يوجب فيه لعن معاوية في جميع أرجاء العالم الإسلامي.(١)

روى الجاحظ في كتاب «السفيانية» أنّ أبا ذر لمّا نفي إلى الشام، أقبل على معاوية، وقال له وبعد مشادّة كلامية بينهما: ما أنا بعدوٍّ لله ولا لرسوله، بل أنت و أبوك عدوّان لله ولرسوله، أظهرتما الإسلام وأبطنتما الكفر، ولقد لعنك رسول الله صلى الله عليه وآله ودعا عليك مرات ألاّ تشبع.(٢)

وأيضاً كتب ابن أبي الحديد المعتزلي يقول: معاوية مطعون في دينه عند شيوخنا ـ رحمهم الله ـ يُرمى بالزندقة، وقد ذكرنا في «نقض العثمانية» علىٰ شيخنا أبي عثمان الجاحظ ما رواه أصحابنا في كتبهم الكلامية عنه من الإلحاد والتعرّض

١. مروج الذهب:٣/ ٤٥٤، سيرة المأمون.

٢. شرح نهج البلاغة:٨/ ٢٥٧؛ السيد علي خان المدني: الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة:٢٤٣.

لرسول الله وما تظاهر به من الجبر والإرجاء.[١]

ويدل كلّ ذلك على أنّه كيف كانت العصابة الأموية تريد القضاء على الإسلام وتتبنّى مشروعاً رجعياً.

فضائح يزيد

لم يكن يزيد الذي تربىٰ في أحضان مثل هذه العائلة وترعرع على ثقافة مثل هذه العصابة الكبيرة ليؤمن بالدين الإسلامي الذي كان يريد أن يحكم الأُمّة بسلطانه، فقد كان يزيد شاباً غير ناضج، شهوانياً أنانياً، و من أبعد الناس عن الحيطة والتروّي، وكان صغير العقل، متهوّراً، ماجناً، لا يهم بشيء إلاّ ركبه، وسطحي التفكير.

يزيد الذي عاش حياة التحلّل ـ قبل أن يلي الحكم ـ والانسياق مع العاطفة وتلبية كل رغباته، كلّ ذلك جعله عاجزاً عن التظاهر بالورع والتقوىٰ والتلبّس بلباس الدين مثل أبيه بعد ان حكم المسلمين، بل راح وبسبب طبيعته النزقة وتهوّره يعالن الناس بارتكاب المحرمات، ولم يأل جهداً في استخدامه أية وسيلة لإرضاء رغباته وشهواته. كان يعالن بشرب الخمر، ويتظاهر بالفسق واقتراف المعاصي، ويشرب الخمر في لياليه الحمراء وحفلاته الارستقراطية، وينشد الأشعار تهوّراً.

معشر الندمان قوموا ... واسمعوا صوت الأغاني
واشربوا كأس مدام ... واتركوا ذكر المعاني
شغلتني نغمة العيداني ... عن صوت الأذان
وتعوضت عن الحور ... خموراً في الدنان[٢]

---

١. شرح نهج البلاغة: ١/ ٣٤٠.

٢. تذكرة الخواص: ٢٩١.

فقد كان ينفي صراحةً الإسلام ونـزول الوحي على النبي محمد ﷺ ويعد كلّ ذلك وهماً لا أكثـر كما ضمّن ذلك أشعـاره التي قـالها بعد انتصاره الظـاهري على الحسين بن علي عليه السلام.

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحـي نزل

ثمّ طفحت أحقاده الدفينة على قادة الإسلام الذين قتلوا قومه في معركة بدر تحت رايـة الإسلام وتـذكّـر ذلـك، وراح يجعل قتـل الإمـام الحسين عليه السلام انتقاماً لأُولئك وقال:

ليـت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلّـوا و استهلّـوا فرحـاً ثـمّ قالـوا يا يزيد لا تشل[١]

وفي أحد الأعـوام أرسل معاويـة يزيد بجيش لمحـاربة الروم (وكـأنّه أراد أن يتظاهر بأنّ يزيد ليس رجل المواقف اللهوية فقط بل رجل المواقف الحربية أيضاً!) وأرسل معه سفيان بن عوف الغامدي، ورافق يزيد في رحلته هذه عشيقته أُمّ كلثوم.

وصل سفيـان بالجيش إلى أرض الـروم قبله وأُصيب جيـش المسلمين لسوء المناخ والأحوال الجوية بمرض الجدري والحمى بمكان يسمى الغَذْقَذونة.[٢]

وقال يزيد عندما أُخبر الخبر وهـو نازل في دير اسمه دير «مُرّان»[٣] ومعه أُمّ كلثوم للاستجمام واللهو والمجون منشداً:

---

١. تتمة المنتهى في وقائع أيام الخلفاء، الشيخ عباس القمي، ص ٤٤.

٢. الغذقذونة منطقة تفصل بين الشام والروم ويقع ضمنها طرطوس والمصيصة.

٣. دير« مـرّان» مكان على مقربة مـن دمشق، قال ياقـوت الحموي: مران بضم الحرف الأوّل تثنيـة مرّ معجم البلدان. مادة ـ دير ـ كانت الأديرة المسيحية في العالم الإسلامي مراكز لأفظع ألوان الفسق والفجور واللعب، وكان يؤمها جميع الماجنين والمتحلّلين من الأُمويّين والعباسيين للاستمتاع فيها، وهي محال للعبادة، ولذلك نجد يزيد قد قصد دير« مرّان» وهي تقع في منطقة خصبة ذات خضار وأشجار وطبيعة خلاّبة تصلح لقضاء النزوات.

مـــا إن ابـالي بها لاقـــت جموعهـــم بـالغذ قـذونة مـن حمىٰ و من مـوم
إذا اتكـأت على الانماط في غـــرف بـديـــر مُـرّان عنـــدي أُمّ كلثوم[١]

فمن كان يتمتع بهذا المستوىٰ من التعاطف والإشفاق على جيشه وشباب العالم الإســلامي، فإنّـه سيتضح جيداً كيـف يكون حال الأُمّـة الإسلامية عنـدما يستولي علىٰ مقاليد الحكم ومقدرات الأُمّة.

تحوّل بلاط يزيـد إلى مركز يشكل أنـواع الفساد وارتكاب المحرمـات، وقد اتسعت رقعـة انحراف وفساد بلاطـه في المجتمع مع قصر مدّة حكـومته إلى الحدّ الذي تلوّثت فيه مدن مقدّسة من قبيل مكة والمدينة.[٢]

وقد لقـىٰ يزيـد حتفه جـراء الجري وراء إشباع ميـوله الجامحة والإفـراط في معاقرة الخمرة حيث مات مسموماً بها.[٣]

قال المسعودي أحد المؤرّخين المشهورين: سار يزيد في الناس بسيرة فرعون، بل كان فرعون أعدل منه.[٤]

إنّ الأدلّة والوثائق الدالّة على انحراف وفساد يزيد وحياته الشائنة وسلطته الوضيعة بـدرجة من الوفرة والكثـرة بحيث يتعذّر علينا تنـاولها في بحثنا المضغوط هذا، ونعتقد انّ ما قدمناه يكفي للتعريف بشخصيته المنحطة.

---

١. تاريخ اليعقوبي:٢/ ١٦٠؛ أنساب الأشراف:٤/ ٣؛ معجم البلدان،ص ٥٣٤ مع اختلاف بسيط في الألفاظ.
٢. مروج الذهب:٣/ ٦٧.
٣. مقتل الحسين ، أخطب خوارزم:٢/ ١٨٣.
٤. مروج الذهب:٣/ ٦٨.

ميول يزيد إلى المسيحية المنحرفة

وفضلاً عن كلّ ذلك فانّ يزيد نشأ نشأة مسيحية، أو أنّه كان يميل إلى المسيحية على أقلّ تقدير.

وقد كتب الأُستاذ عبد الله العلائلي مشيراً إلى هذه الحقيقة: ويبدو مستغرباً باديُ ذي بدء أن نعرف أن يزيد نشأ نشأة مسيحية تبعد كثيراً عن عرف الإسلام وتزيد القارئ الدهشة إلى حد الإنكار، ولكن لا يبقى في الأمر ما يدعو إلى الدهشة إذا علمنا أن يزيد يرجع بالأُمومة إلى بني كلب، هذه القبيلة التي كانت تدين بالمسيحية قبل الإسلام، ومن بديهيات علم الاجتماع انّ انسلاخ شعب كبير من عقائده يستغرق زمناً طويلاً، والتاريخ يحدّثنا انّ يزيد نشأ فيها ـ القبيلة ـ إلى طور الشباب، ومعنى هذا انّه أمضى الدور الذي هو محط أنظار المربين وعنايتهم، وبذلك ثبت على لون من التربية النابية تمازجها خشونة البادية وجفاء الطبع.[1]

على أنّ طائفة من المؤرّخين، ومنهم لامنس المسيحي في كتاب «معاوية» وكتاب «يزيد» ترجح ـ ولا يبعد أن يكون صحيحاً ـ انّ من أساتذة يزيد بعض مسيحيّي الشام، ولا يخفى ما يكون لهذه التربية من أثر سيّء في من سيكون ولي أمر المسلمين.

ثمّ يضيف العلائلي: إنّ تحريضه للأخطل الشاعر المسيحي ليهجو الأنصار، وعهده بابنه إلى مسيحي مما لا اختلاف فيه بين المؤرّخين، ولا يمكن أن تعلّل هذه الصلة الوثيقة والتعلّق الشديد بالأخطل وغيره من المسيحيين إلاّ إلى مكان التربية ذات الصبغة المسيحية وبشهادة التاريخ لم يكن يزيد يخفي ميوله المسيحية. بل كان يقول جهاراً:

---

١. سمو المعنى في سمو الذات، ص ٥٨.

فإن حرمت على دين أحمد فخذها على دين المسيح بن مريم[١]

وممّا يجب أن يعلم هو انّه كان هناك نفوذ للدولة الرومية في بلاط الأمويين، وكان بعض نصارى الروم لهم مناصب استشارية في ذلك البلاط، كما أنّ تنصيب عبيد الله بن زياد الذي كان والياً على البصرة لولاية الكوفة التي كان النعمان بن بشير والياً عليها مع إبقائه على ولاية البصرة إنّما كان باقتراح سَرْجَون الرومي[٢] على يزيد بذلك.[٣]

---

١. تتمة المنتهى في وقائع أيّام الخلفاء ص ٤٣. طبعاً انّ شرب الخمرة حرام في الدين المسيحي الحقيقي كما في الإسلام وميوله ـ يزيد ـ إلى المسيحية كانت في الواقع ميوله إلى الانحراف الذي دب في هذا الدين في وقت متأخّر.

٢. كما أنّه قال بعض العلماء بأنّ سرجون معرب عن كلمة سرجيوس.

٣. مقتل الحسين: ٢٢؛ تاريخ الطبري:٦/ ١٩٩؛ الكامل في التاريخ:٤/ ٢٣؛ الإرشاد، ص ٢٠٥؛ تجارب الأُمم أبو علي مسكويه:٢/ ٤٢، وعلى ما نقل فردينان توتل المسيحي في معجم أعلام الشرق والغرب كان منصور بن سرجون وزير المالية لمعاوية وهو أبو يوحنا الدمشقي، وكتب آية الله الصافي في كتاب پرتوى از عظمت حسين في هذا المجال: قال العقاد في كتابه «معاوية بن أبي سفيان في الميزان» ص ١٦٨: إنّ معاوية سلم تولّى الأُمور المالية لسرجون بن منصور ثمّ لابنه منصور بعده.

وكتب أبو علي مسكوية: كاتب ديوان خراج سلطة معاوية ويزيد هو سرجون بن منصور الرومي تجارب الأمم:٢/ ٢١١و٢٩١.

ومن ناحية أُخرى نُقل عن الإمام الصادق عليه السلام بأنّه عندما نقل السجاد عليه السلام مع باقي أهل بيت الحسين إلى دار خربة في دمشق قال أحدهم: وضعونا هنا حتى يقع السقف علينا فيقتلنا وقال الحرس بلغتهم الرومية: انظر إليهم يخافون من وقوع السقف مع أنّهم سيؤخذون غداً وتضرب أعناقهم.

قال الإمام السجاد عليه السلام: لم يكن منا من يعرف اللغة الرومية جيداً مثلي حينها (بصائر الدرجات:٨/ ٣٣٨، باب ١٢) وتدلّ هذه الرواية على أنّ حرّاس سلطة يزيد كانوا يتكلمون باللغة الرومية، ويحتمل جداً انّهم روميون أصلاً، و طبعاً انّ معرفة الإمام الرابع باللغة الرومية قد تمت في ضوء علم الإمامة، وهذه الرواية وردت في باب علم الأئمّة.

والآن وقد اتّضحت لـدينا حقيقة يزيد الـوضيعة وكفره وعداوتـه للإسلام، نفهم جيداً دوافع ثورة الإمام الحسين على سلطته، ويتضـح لنا جيداً بأنّ حكومته كانت غير شرعية من وجهة نظر الإمام الحسين عليه السلام ليس بسبب انّها كـانت أوّل من أبدع النظام الملكي الوراثي في الإسـلام فقط، بل بسبب عدم جدارة شخصية يزيد نفسه أيضاً. وعليه حيث إنّ موانع الثورة كانت قد زالت بموت معاوية كان على الحسين أن يعلن عن معارضته وقد آن أوانها، ولو كان يبايع يزيد لكانت بيعته هذه أكبر حجّة على شرعية سلطته.

وقـد تجلّى سبب معـارضة الإمـام الحسين عليه السلام في رسـائله وخطبـه بشكـل واضح، وفي تلـك الأيّام التي كـان الحسين بن علي عليهما السلام معرضاً لمضـايقات أخذ البيعة منـه قال رداً على الـوليد الـذي اقترح عليه مبـايعة يـزيد: إنّـا لله وإنّا إليـه راجعون، وعلى الإسلام السلام إذ قد بليت الأُمّة براع مثل يزيد.[1]

وقد وضـح صفات الحاكـم الإسلامـي ضمن ردوده على رسـائل الكوفيين بهذا النحو: «مـا الإمام إلاّ العـامل بالكتـاب والآخذ بـالقسط، أو الـدائن بالحقّ والحابس نفسه على ذات الله».[2]

حملة لواء ثورة كربلاء

كلّ ثورة وانتفاضة تتشكّل من عنصرين أساسيين هما: الدم، والرسالة.

ويراد مـن عنصر الدم هـو الكفاح الـدامي والمسلـح الذي يقتضي القتـل والاستشهاد والتضحية في سبيل المبادئ والقيم المقدسة.

---

١. اللهوف على قتلى الطفوف، قم منشورات مكتبة الداوري: ١١.

٢. الإرشـاد: قم، مكتبـة بصيرتي، ص ٢٠٤؛ مقتل الحسين: ١٧ ؛ تـاريـخ الأُمم والملـوك: ج٦، ص ١٩٦.

والمراد من العنصر الرسالي أيضاً هو إيصال وبث رسالة الثورة وتبيين مبادئها وأهدافها. ولا يقل العنصر الثاني في نجاح ثورة من الثورات أهمية عن العنصر الأوّل، لأنّه إذا لم يتم تبيين وتوضيح أهدافها ومبادئها للمجتمع فقدت الثورة دعمها الشعبي وانصهرت في بوتقة النسيان وصارت عرضة للتغيير والتحريف علىٰ يد أعدائها.

وعندما نلقي نظرة فاحصة على ثورة الإمام الحسين عليه السلام المقدسة نجد انّ هذين العنصرين متوفران فيها بشكل تام، إذ كانت ثورته عليه السلام حتى عصر يوم عاشوراء رمزاً للعنصر الأوّل، أعني: عنصر الدم والشهادة والتضحية، وقد تسلم لواءه الحسين عليه السلام بنفسه؛ بينما بدأ يأخذ العنصر الثاني في الظهور من عصر ذلك اليوم، وقد حمل لواء هذا كلٌ من الإمام زين العابدين عليه السلام والحوراء زينب الكبرىٰ عليها السلام، فقد نشرا رسالةالثورة والشهادة الدامية للحسين وأصحابه بخطبهما الساخنة بين الناس والرأي العام، ونقرا ناقوس فضيحة الطغمة الأموية.

ونظراً للدعاية المضلّلة والكبيرة والواسعة التي استخدمها الحكم الأموي منذ عهد معاوية ضدّ أهل البيت خصوصاً في الشام، فلو لم يبادر بقية أهل بيت الحسين عليه السلام إلى فضح الأعداء وبث الوعي بين الرأي العام لكان أعداء الإسلام ومرتزقتهم الطغاة يحرّفون ثورة الإمام الكبيرة الخالدة في التاريخ ويشوّهونها أيّما تشويه، كما حاول بعض أُولئك أن يحرّف حقيقة قتل الإمام الحسن عليه السلام و قال مات الحسن مسلولاً، أو كان يدّعي بعض آخر بأنّ الحسين مات بالسرطان، ولكن الإعلام والدعاية الواسعة النطاق التي استخدمها كلّ من السجاد والحوراء زينب عليهما السلام في فترة الأسر ــ وهي الفرصة التي هيّأتها أحقاد يزيد التافهة لهما ـ أحبطت محاولة التضليل والتعتيم فيما يتعلق بحقيقة ثورة الإمام عليه السلام، والآن ولكي

يتضح دور أسرىٰ كربـلاء الأحرار التاريخي في توعيـة الرأي العام وإيصال رسـالة الثورة الحسينية العظيمة ــ بشكل جيد ـ يجب هنا أن نعود إلى الـوراء قليلاً ونلقي نظرة على تاريخ حكم معاوية في الشام.

فترة حكم معاوية في الشام

وممّا ينبغي الالتفـات إليه هو انّه ومنذ ان استولى المسلمـون على الشام لم تر من القـادة غير خالد بن الوليد ومعاوية بـن أبي سفيان، ولم يدرك أهاليهـا صحبة الرسول ولا عـرفوا نهج أصحابه، بل ولم يعـرفوا ـ على الأقل ــ الإسلام على النحو الذي كان معروفاً بين أهل المدينة.

صحيح انّ هناك مائة وثلاثة عشر صحابياً شاركوا في فتح الشام أو سكنوا فيها بالتدريج، غير انّ مراجعة سيرة هؤلاء الصحابة تكشف عن أنّهم لم يدركوا ـ ماعدا القليـل منهم ـ صحبة رسول الله إلاّ فترة وجيـزة ولم يرووا عنه ﷺ إلاّ بضعة أحاديـث، ومضافـاً إلى ذلك انّـه قدمات أغلـب هؤلاء خـلال فترة خلافـة عمر وعثمان وإلى بداية حكم معاوية ولم يتبقىٰ منهم عندما ثار الحسين واستشهد عليه السلام سوى أحد عشر صحابياً، وكانوا يعيشون في الشام وقد بلغ الواحد منهم السبعين والثمانين من العمـر وفضّلوا حياة العزلـة عن الناس على الاحتكـاك بهم، ولم يكن لهم نفوذ في الرأي العام، وبالتالي كان الجيل الشاب ـ من هم في عمر يزيد ـ يجهل الإسلام الحقيقـي، ولعلّهم كانوا يتصـوّرون الإسلام نظامـاً حكومياً مثل حكـومة أُولئك الذين حكموهم قبل هؤلاء.

وكانـت فخفخة بلاط معاويـة وفخامته وبـذخه وعبثه بأمـوال بيت المال واهتمامـه بسيرة الطغاة المعهـودة، مثـل تشييد القصـور الفخمـة وتشكيل حـرس التشريفات الخاص وبالتـالي نفي وتصفيةالمعارضين أمراً طبيعيـاً لهم، لأنّهم كانوا

قد عاشوا وشاهدوا خلال الخمسين سنة الماضية هذا النوع من الحكم سابقاً .

ولا شكّ كان هناك من يعتقد بأنّ المدينة في عهد الرسول صلى الله عليه وآله كانت تعيش هذا النوع من الحكم أيضاً[١] و في النهاية كان الشاميون يرون سلوك معاوية بن أبي سفيان سلوكاً إسلامياً. حكم معاوية الشام ٤٢ عاماً، خمسة أعوام منها في عهد الخليفة الثاني، وحوالي اثني عشر منها في عهد الخليفة الثالث، وما يقل عن خمسة أعوام في عهد خلافة أمير المؤمنين عليه السلام، وحوالي ستة أشهر في خلافة الإمام الحسن الظاهرية، وأخيراً حكم باسم الخلافة الإسلامية فترة تقارب العشرين سنة.[٢]

الإعلام المضلّل

وخلال هذه الفترة الطويلة نسبياً علّم معاوية الشاميّين بطريقة أماتت فيهم الوعي الديني، وجعلهم يسلّمون له رقابهم طاعة وخضوعاً بلا أدنى اعتراض.

لم يكن معاوية يسيطر على الشاميّين من الناحية العسكرية والسياسية فقط، بل كان يهيمن عليهم فكرياً ودينياً أيضاً، وخلق منهم أُناساً صماً بكماً لا يفقهون، ليملي عليهم بما يشاء ممّا يضفي عليه طابع التعاليم الإسلامية دون اعتراض، وقد نجح وبما يتمتع به من دهاء وخديعة متميزين نجاحاً باهراً ملحوظاً في هذا المجال.

كلّنا يعرف مكره وخديعته في تشويه وجوه متألّقة من مثل علي عليه السلام وبدعته في سبّه، وفي خديعة مفضوحة تخدع العوّام أشاع معاوية بعد استشهاد عمار بن ياسر ـ المقاتل التسعيني والمجاهد الإسلامي القديم والكبير ـ في صفين بين يدي

---

١. الدكتور جعفر الشهيدي، ثورة الحسين عليه السلام، ص ١٨٥.

٢. تاريخ عاشوراء، ص ٤٧.

علي عليه السلام والذي تنبّأ الرسول ﷺ باستشهاده على يد الفئة الباغية في جيشه الشامي بأنّ علياً هو قاتل عمار، لأنّه ورّطه في هذه المعركة وتسبب في قتله.[١]

ويؤكد ما قلناه قصة الناقة والجمل، و قضية صلاة الجمعة في يوم الأربعاء المخزية، وهي كما يقول المسعودي:

...إنّ رجلاً من أهل الكوفة دخل على بعير له إلى دمشق في حال منصرفهم عن صفين، فتعلّق به رجل من دمشق فقال: هذه ناقتي، أُخذت منّي بصفين، فارتفع أمرهما إلى معاوية، وأقام الدمشقي خمسين رجلاً بيّنة يشهدون أنّها ناقته، فقضى معاوية على الكوفي، وأمره بتسليم البعير إليه، فقال الكوفي: أصلحك الله! إنّه جمل وليس بناقة، فقال معاوية: هذا حكم قد مضى، ودسّ إلى الكوفي بعد تفرّقهم فأحضره، وسأله عن ثمن بعيره، فدفع إليه ضعفه، وبرّه، وأحسن إليه، وقال له: أبلغ عليّاً أنّي أقاتله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل!

وقد بلغ من أمرهم في طاعتهم له أنّه صلّى بهم عند مسيرهم إلى صفين، الجمعة في يوم الأربعاء وأعاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها....[٢]

وقد شوّهت السلطة الأموية مكانة أهل بيت الرسول الطاهرين في أعين أهل الشام وجعلت من بني أُمية أقرباء لرسول الله بإعلامهم المظلّل والحاقد إلى الحد الذي دفع بالمؤرخين أن يكتبوا: وقدم بعد غلبة العباسيين وتوطد حكم أبي العباس السفاح قدم إليه عشرة من أُمراء الشام، وأقسموا بأنّهم ما عرفوا قبل قتل مروان ـ آخر خلفاء الأمويين ـ قرابة لرسول الله ترثه حتى ملكتم أنتم.[٣]

---

١. أنساب الأشراف، البلاذري: ٣١٧.

٢. مروج الذهب: ٣/ ٣١.

٣. شرح نهج البلاغة: ٧/ ١٥٩.

وعليه فلا عجب من أن نقرأ في كتب المقاتل: أُتي بحرم رسول الله صلى الله عليه وآله حتى أدخلوا مدينة دمشق من باب يقال له باب توماء ثمّ ، أُتي بهم حتى وقفوا على باب المسجد، وإذا بشيخ قد أقبل حتى دنا منهم و قال: الحمد لله الذي قتلكم وأهلككم وأراح الرجال من سطوتكم وأمكن أمير المؤمنين منكم!! سكت علي بن الحسين عليهما السلام حتى يفرغ الرجل الشامي ما في نفسه، فقال له:«يا شيخ هل قرأت القرآن؟» فقال: نعم قد قرأته، قال:« فعرفت هذه الآية: ﴿قُلْ لاٰ أَسأَلُكُمْ عَلَيهِ أَجْراً إلاّالمَودَّةَ فِي القُربىٰ﴾ ؟»[1]، قال الشيخ: قد قرأت ذلك.

قال عليه السلام :«وهذه الآية ﴿وآتِ ذَا القُربىٰ حَقّه﴾[2]؟» قال الشيخ: قد قرأت تلك، وقال عليه السلام :«وهذه الآية ﴿إنّما يُريدُ الله لِيذهبَ عَنكُمُ الرِّجس أَهل البَيت وَيُطهّرَكُمْ تَطْهيراً﴾ ؟»[3]قال الشيخ: قد قرأت ذلك.

فقال علي بن الحسين عليهما السلام : «يا شيخ نزلت هذه الآيات فينا، فنحن ذو القربى، و نحن أهل البيت الذين خصصنا بالطهارة من الرجس» فعلم الشيخ أنّ ما سمعه عن هؤلاء ما هو إلاّ أباطيل وليسوا هم بالخوارج، بل أبناء رسول الله، و بقي ساعة ساكتاً نادماً على ما تكلّمه، ثمّ رفع رأسه إلى السماء و قال: اللّهمّ إنّي تائب إليك ممّا تكلّمته ومن بغض هؤلاء القوم، اللّهم إنّي أبرأ إليك من عدو محمد وآل محمّد.[4]

١. الشورى:٢٢.

٢.الإسراء:٢٦

٣.الأحزاب:٣٣.

٤. مقتل الحسين، أخطب خوارزم:٢/ ٦١؛ اللهوف على قتلى الطفوف السيد ابن طاووس ، ص ٧٤؛ سيرة علي بن الحسين عليهما السلام ، الدكتور جعفر الشهيدي، ص ٦٦.

ما حصل عليه الأسرى في الشام

ويتّضح الآن وبالنظر إلى الحملة الإعلامية الضخمة المضرة التي شنت ضد أهل البيت أهمية أخذ البقية الباقيـة من أهل بيت الإمام الحسين إلى الشام بشكل جيد، لأنّهم استطاعـوا من خلال ذهابهم إلى هناك أن يمحوا آثـار الإعلام الحاقد والمضلّـل الذي دام أربعين عـاماً، وأن يكشفـوا القنـاع عن وجـه الحكم الأمـوي الكريه بشكل كامل وأن ينبهوا الناس من غفلتهم بحيث يمكن القول بأنّهم كانوا عندمـا عادوا إلى المدينة بمثـابة الجيش الفـاتح المنتصر الذي أدّى واجبـه بصورة ممتازة ، ولأجـل أن تتّضح عظمـة المهمة والـرسالـة التي قـام بها حملة لـواء الثورة الحسينية بصورة جيدة من المناسب أن نشير إلى نموذجين تاريخيين من ذلك:

الف: أهل البيت بعيداً عن نكبة الحرّة

بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام وتزامناً مع أقطار العالم الإسلامي الأُخرى أخذت المدينة التـي كانت مركـزاً لعشيرة الرسول صلى الله عليه وآله تثور شيئاً فشيئـاً، وظنّاً منه بحصافتـه أرسل والي المدينـة جماعة مـن وجهاء المدينـة إلى «دمشق» حتـى يلتقوا بالخليفة الشاب ويكرمهم كي يحثّوا النـاس عند عودتهم على طاعته؛ غير انّ يزيد الذي لم يتربىٰ تربية صحيحة، ولم يتمتع بـأية حيطة وحصافة في الرأي، ولا حتى يراعي الحفاظ على تعاليـم الإسلام في الظاهر، راح يشرب الخمر ويلاعب الكلاب و يرتكـب المحرمات أمام أعينهـم، وما أن عاد مبعـوثو المدينة من الشام أطلقوا صيحاتهم و قـالوا: يـزيد شارب للخمـر وملاعب للكـلاب وفاسـق، ولا يمكن لشخص مثل هذا أن يكون خليفة للمسلمين و إماماً لهم.

و في النهاية عمّـت المدينة ثورة عارمـة، و طرد الناس عامـل المدينة و بني أُمية منها.

وعند وصول أخبار هذه الأحداث إلى الشام أرسل يزيد جيشاً لقمع أهالي المدينة، و قلد «مسلّم بن عُقْبَة» ـ و كان طاعناً في السن ـ قيادة الجيش، وحاصر مسلم المدينة ولم يكن باستطاعتهم الاستمرار في الصمود فاستسلموا، فأخذ جيش الشام يقتل الناس وينكل بهم، ولم يدخر وسعاً في اقتراف أنواع القبائح والجرائم، فلم يسلم من طائلة سيوفهم الرجال الأتقياء والمؤمنون والمتهجدون، ولم يتركوا حرمة لم يهتكوها، ولم تأمن امرأة ولا فتاة من اعتداء هؤلاء الهمج.[١]

وقد أطلق على هذه المأساة اسم واقعة الحرة، هذا وقد ظل بيت الإمام زين العابدين و بيوت بني هاشم مأمونة من الاعتداء، ولهذا لاذ العشرات من عوائل المسلمين ببيته عليه السلام أبّان الحصار ونجوا.

وكتب الطبري: لما بعث يزيد مسلم بن عقبة إلى المدينة قال له : إنّ علي بن الحسين ليس منهم فأكرمه .[٢]

و كتب الشيخ المفيد: إنّ مسلم بن عقبة لما قدم المدينة أرسل إلى علي بن الحسين فأتاه، فلما صار إليه قربه وأكرمه و قال له: أوصاني أمير المؤمنين ببرّك وصلتك وتمييزك عن غيرك، فجزاه خيراً ثمّ قال لمن حوله: أسرجوا له بغلتي، و قال له: انصرف إلى أهلك، فإنّي أرى أن قد أفزعناهم وأتعبناك بمشيك إلينا، ولو كان بأيدينا ما نقوى به على صلتك بقدر حقّك لوصلناك.[٣]

وممّا لا شكّ فيه هو انّ أحد الأسباب التي تكمن وراء سلوك مسلم ـ و هذا ما سنتحدث عنه في سيرة الإمام الرابع ـ هو أنّ الإمام السجاد قد عزل نفسه ولم يشارك الثائرين في ثورتهم، ومن المؤكد أيضاً انّ سلطة يزيد دفعت ثمن قتل

---

١. تاريخ تحليل إسلام، الشهيدي، ص ١٧٠.

٢. تاريخ الطبري: ٧/ ٤٢١.

٣. الإرشاد، ص ٢٦٠.

الحسين باهظاً، وهي لم تزل رازحة تحت ضغوط الرأي العام، وكذلك لم يشأ أن يشوّه سمعته بإيذاء أهل البيت أكثر من ذلك.

ب: أمر عبد الملك بن مروان للحجاج

كتب اليعقوبي: «لما ولي عبد الملك بن مروان، كتب إلى الحجاج وكان عامله على الحجاز:

أمّا بعد فحسبي دماء بني عبد المطلب، فأنّي رأيت آل أبي سفيان لما ولغوا فيها لم يلبثوا بعدها إلاّ قليلاً.[1]

و إذا ما عرفنا انّ عبد الملك بن مروان كان من الحكام الأمويين الدهاة والسياسيين[2]، وانّه وصل إلى سدّة الحكم بعد مأساة كربلاء، فسوف ندرك مدى أهمية اعترافه، هذا الأمر يدلّ على أنّه بالرغم من الاضطهاد الذي مارسه آل أبي سفيان بحقّ آل أبي طالب، فأنّهم لم يحقّقوا أهدافهم المشؤومة، ولم يحصدوا من فعلتهم تلك غير الخزي والشنار واللعن الأبدي.

تدمير الدعامة الفكرية للأمويّين

من المتعارف عليه في المجتمعات البشرية هو انّ أيّة سلطة ونظام مهما

---

١. تاريخ اليعقوبي:٣/ ٤٩(ضمن أحداث عهد حكم عمر بن عبد العزيز) وقد نقل هذا الأمر في كتاب الاختصاص للشيخ المفيد، ص ٣١٥ و بحار الأنوار:٤٦/ ١١٩ عن الإمام الصادق عليه السلام بهذا النحو: لمّا ولي عبد الملك بن مروان فاستقامت له الأشياء كتب إلى الحجاج كتاباً خطه بيده كتب فيه : بسم الله الرحمن الرّحيم من عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف أمّا بعد فحسبي دماء بني عبد المطلب فأنّي رأيت آل أبي سفيان لما ولغوا فيها لم يلبثوا إلاّ قليلاً.

٢. الفخري في الآداب السلطانية، ص ١٢٢.

بلغت سطوته وقدرته فانّه يحتاج في النهايـة إلى دعامة فكرية آيديولوجية وفلسفية حيث يتم تبرير سلوك ذلك النظام السياسي والاقتصادي في ضوئها.

وبعبـارة أُخـرى: تحتـاج السلطـات الحاكمـــة الظـالمة مضـافـاً لـلأدوات العسكريةالبوليسية إلى آليات فكرية ونفسية كي يتسنّى لها أن تجعل الجماهير طوع إرادتها، ذلك انّه إذا كان للشعب آيديولوجية صحيحة وكان النظام الحاكم نظاماً منحرفاً أصبح من الصعب خضوع الشعب له.

ومن هنا تتضح ضرورة وجود دعامة فكرية وآيديولوجية لمثل هذا النوع من الحكومات بشكل جيد.

ومن المؤكـد قد تكـون هذه الـدعامـة علىٰ شاكلـة تيار أو اتجاه فلسفـي أو بشكل مذهب وعقيدة دينية طبقاً لاختلاف المجتمعات .

و قد رأى الحكم الأمـوي الطاغي واللاإسـلامي نفسه في حاجـة ماسّة إلى مثل هذه الدعامة الآيديولوجية، ومن حيث إنّ المجتمع مجتمع إسلامي اضطر أن يسبغ علىٰ جـرائمه طـابعاً مـن التبريرات الـدينية ليخـدّر و من خـلال مسلسل إعلامي ديني فكر الجماهير. ويجب ألاّ تظن بـأنّ الحكـم الأموي كان غير مهتم بما يحكم به الشعب عليه، وانّه كان يقول مع ما يقوم به من جرائم: ليقول الشعب ما يريد، لا بل يريدون الرأي العام أن يبثـوا مجموعة من الأفكار والعقائد بين الناس حتى تستقبل أذهانهم الوضعية الراهنـة وتعد من أفضل الوضعيات وعليهم يجب الحفاظ عليها.

الجبرية

أحد أساليب تخدير الجماهير والرأي العام وإخضـاعهم هي إشاعة عقيدة الجبرية وعنـدما تريد الحكـومات الطاغيـة تبرير كيانها تصير ذات نزعـة جبرية

عادة، أي انّهم ينسبون كلّ شيء إلى الله، ويوحون للآخرين في كلّ ما يقومون به من إعمال بأنّ الله هو الذي أراد أن يكون ذلك، ولولا المصلحة التي يعرفها الباري في ذلك الأمر لما كان يحدث. إنّ منطق الجبريين هو انّ ما هو كائن هو الذي يجب أن يكون، و انّ ما هو غيركائن هو الذي يجب ألاّ يكون.[١]

وقد كانت عقيدة الجبر إحدى الدعائم الفكرية والدينية للحكم الأموي، وقد أراد الأمويون من خلال إشاعة عقيدة الجبر أن يخنقوا أية روح معارضة في المهد، واحتضنوا عقيدة الجبر لأجل تثبيت سلطتهم والمنع من حدوث أية ثورة شعبية من المسلمين، ودافعوا عن أصحاب هذا المذهب حيث كانوا يواجهون خطر نفوذ عقيدة القدرية، التي كانت تقول بحرية الإرادة والاختيار لدى الإنسان، وانّه هو الذي يختار نوع السلوك والعمل الذي يمارسه في حياته[٢]، وإذا كان حراً فهو مسؤول عن أفعاله، لأنّ كلّ حرية تستتبع المسؤولية حتماً. وقد شكلت هذه العقيدة ـ القدرية ـ خطراً كبيراً على الأمويين الذين كانوا يخشون معارضة المسلمين لهم، ولذلك فقد اضطهدوا هذه العقيدة ودعاتها، وتمسّكوا بالعقيدة المضادة لها أي عقيدة الجبر التي تلائمهم في ميدان النضال السياسي، لأنّها توحي إلى الناس بأنّ وجود الأمويين وتصرفاتهم مهما كانت شاذة وظالمة ليست سوى قدر محتوم من قبل الله لا يمكن تغييره ولا تبديله فلا جدوىٰ من الثورة عليه.

قد كان معاوية يتظاهر بالجبر لأجل تبرير أفعاله أمام الجماهير بأنّها مقدورة لا سبيل إلى تبديلها، مضافاً إلى ذلك فانّ أفعاله واقترافه المحرّمات لا يثير أية إشكالية ضدّه، لأنّه خليفة المسلمين وحاكم ديني.

---

١. الحماسة الحسينية، المطهري:١/ ٣١٢ـ٣١٣.

٢. فجر الإسلام، أحمد أمين، ص ٢٨٤.

ومن الواضح انّ شخصاً مثل معاوية لا يجهل الفوائد الكبيرة التي يمكن أن تقدّمها له عقيدة الجبر، فقد كان يعلم هو والأمويون انّ سلطتهم غير محتملة ولا تطاق من المسلمين، ويعلمون انّهم في نظر أكثر الناس أُناس مخادعون، وانّهم أعداء لأهل بيت النبي، وقتلة لأشخاص مقدّسين لا ذنب لهم.

وإن كانت هناك عقيدة تمنع الناس عن أن يثوروا عليهم وعلى أعمالهم لكانت تلك العقيدة هي عقيدة الجبر. هذه العقيدة التي توحي إلى الناس بأنّ الله قد حكم منذ الأزل أن تصل هذه الأُسر إلى الحكم فأعمالهم وتصرّفاتهم ليست إلّا نتيجة لقدر إلهي محتوم، ولذلك كان مفيد جداً لهم ولدولتهم أن تتأصل هذه الأفكار في أذهان المسلمين.[١]

استخدام الأدب التخديري

وقد استغل الشعر إلى جانب النصوص الدينية في سبيل تعزيز هذه الأفكار، فقد كان معاوية قادراً على أن يفيد مما لشعراء عصره من تأثير عظيم في الرأي العام بما يخدم مصالحه وأهدافه، فكان معاوية و ملوك بني أُمية من بعده يسمعون راضين شعراءهم، بل ويحملون هؤلاء الشعراء على أن يقولوا الشعر الذي يمجدونهم فيه بنعوت تجعل سلطانهم وسيادتهم قدراً مقدوراً من الله، ومن أجل ذلك لا يمكن أن يثور المؤمن ضدّهم.

إنّ مرتزقة معاوية كلّفوا بأن يصوغوا أفكاره الخاصة بما يشيع بين العامة، سواء كان ذلك بالرواية عن النبي صلى الله عليه وآله أو بالشعر.[٢]

---

١. ثورة الحسين، محمد مهدي شمس الدين، ص ١١٨ـ ١٢٠.

٢. ثورة الحسين، شمس الدين، ص ١٢٠ـ ١٢٣.

السيدة زينب في قصر ابن زياد

بدأ مرتزقة يزيد بعد واقعة عاشوراء حملتهم الإعلامية باستخدامهم تلك الأساليب وراحوا يبثون بين الناس بأنّ انتصار يزيد الظاهري هذا هو إرادةالله، وبعد استشهاد الحسين عليه السلام أذن عبيد الله بن زياد إذناً عاماً وجمع الناس في مسجد الكوفة، وراح يتظاهر بمظهر الرجل المتديّن التقي، وقال: **الحمد لله الذي أظهر الحقّ ونصر أمير المؤمنين وأشياعه وقتل الكذاب بن الكذاب.**[1] ولكن الحوراء زينب والإمام السجاد عليهما السلام كانا يعرفان خطة العدو الإعلامية هذه، فركزا عليها وراحا يصبان بالخطب الساخنة والحجج الدامغة نار غضب الحقّ على الأمويين وآيديولوجيتهم وحمّلا يزيد واليزيديين مسؤولية جميع الجرائم والجنايات .

ومن نماذج اصطدام هاتين الآيديولوجيتين هو ما حدث في قصر ابن زياد عندما أدخل فيه نساء الحسين وأولاده ورهطه، وكان عبيد الله قد أعدّ في ذلك اليوم اجتماعاً عاماً وجيء برأس الحسين فوضع بين يديه، وكانت السيدة زينب قد دخلت القصر متنكرة وعليها أرذل ثيابها بلا مبالاة وجلست في زاوية من زواياه وقد أحاطت بها النساء والإماء ، فقال ابن زياد وقد وقعت عينه عليها: من هذه انحازت وجلست ناحية ومعها نساؤها. فلم تجبه، فأعاد ثانية يسأل عنها، فقالت إحدى إمائها : هذه بنت فاطمة بنت رسول الله، فأقبل عليها ابن زياد فقال لها: الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم واكذب أُحدوثتكم.

فأجابت زينب: **«الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه محمد صلى الله عليه وآله وهو منّا، وطهّرنا من الرجس، إنّما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر وهو غيرنا ـ تعني: أنت وجماعتك ـ والحمد لله».**[2]

---

١. اللهوف على قتلى الطفوف، ص ٦٩.

٢. الإرشاد، المفيد، ص ٢٤٤.

قال: كيف رأيت فعل الله بأهل بيتك؟

قالت عليها السلام: «ما رأيت إلاّ جميلاً، هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم، فتحاج وتخاصم، فانظر لمن الفلج يومئذ، ثكلتك أُمّك يابن مرجانة».

فغضب ابن زياد (من جرأتها وصراحتها، ومن أنّها خاطبته باسم جدته سيئة الصيت) وهمّ بها، فقال له عمر بن حريث: أيّها الأمير انّها امرأة، والمرأة لا تؤاخذ بشيء من منطقها.

فقال لها ابن زياد: لقد شفى الله قلبي من طاغيتك الحسين والعصاة المردة من أهل بيتك.

فقالت:«لعمري لقد قتلت كهلي وقطعت فرعي واجتثثت أصلي، فإن كان هذا شفاؤك فقد اشتفيت».

فقال ابن زياد وقد أعجبته فصاحتها بغضب وسخرية: هذه سجّاعة، ولعمري كان أبوك شاعراً.

فقالت: ما للمرأة والسجاعة؟(هل هذا مقام سجع).[1]

وأراد ابن زياد أن يوحي من خلال ذلك إلى الحاضرين بأنّ المفضوح هو الذي انهزم عسكرياً في الظاهر،لأنّه لو كان على الحقّ لكان ينتصر من الناحية العسكرية.

غير انّ زينب الكبرى عليها السلام التي كانت تعرف جيداً المنطلق الذي ينطلق منه ابن زياد في كلامه راحت تدك آيديولوجيته، وأعلنت بكلامها هذا بأنّ الشرف والفضل ليس بالانتصار والقوّة الظاهرية بل بالحقّ وطلب الحقيقة، وانّ المفضوح

---

١. اللهوف على قتلى الطفوف، ص ٦٨.

ليس من استشهد في سبيل الله، بل من ظلم وطغى وانحرف عن الحق والحقيقة.

كان ابن زياد يتوقع من زينب المفجوعة بعزيزها أن تركع بالضربة الأُولى وتذرف الدموع وتطلق العويل، ولكن الحوراء زينب عليها السلام بطلة كربلاء ردّت عليه ردّاً كالصاعقة مزّق كيانه و كسر كبرياءه .

من أين يمكننا أن نجد امرأة قتل ستة أو سبعة من إخوتها واستشهد ابنها فلذة كبدها وذبح عشرة من أبناء إخوانها وعمومتها وأُسرت هي مع كلّ أخواتها وبناتهن، تقوم وتقف وتدافع عن حقّها وعن شهدائها وهي أسيرة منكوبة مفجوعة؟! وأين يحدث كلّ هذا؟ في مدينة كانت عاصمة خلافة أبيها التي أمضى من عمره حوالي أربعة أعوام فيها.

ورغم كلّ هذا وكل ما يدعو إلى الحزن والأسىٰ نراها لا تنطق ببنت شفة عتاباً وجزعاً، بل تقول فضلاً عن ذلك وبصراحة تامة لم نر ما لم نرغب فيه و إن استشهد رجالنا فلأنّهم عزموا على ذلك، ولو كان غير ذلك لكان مدعاة للحزن والأسىٰ والألم، وهم الآن قاموا بواجبهم بما يرضي الله وتقلّدوا وسام فخر الشهادة، فما عسانا أن نفعل ما هو خليق بنا غير الحمد لله والثناء عليه لما منّ به علينا من النصر والتوفيق.[1]

خطبة العقيلة زينب في الكوفة

هنا الكوفة وهي تختلف عن دمشق، الكوفة مدينة كانت ومنذ عشرين سنة عاصمة خلافة الإمام علي ومركزاً للشيعة وأهاليها ـ و هم من العراقيين ـ يرغبون في دولة عادلة إسلامية والتحرّر من قيود الطغاة ويميلون إلى أهل البيت، غير انّهم ليسوا مستعدين لدفع ثمن مثل هذه النعمة.

١ . دراسة تاريخ عاشوراء، الدكتور محمد إبراهيم آيتي، ص ٢٠٣ .

إنّهم يريـدون الحياة الـدنيا أو الجاه والمنصب كما أنّهم يـريدون التحـرر من عبوديـة الطواغيـت، ولكنّهم لا يريـدون ما فيه خسـارة وضرر، فإذا حـدث ضيق عليهم أو ما يهدد مصـالحهم فانّهم يتخلّون عـن جميع مبادئهم، يحمـل كلّ منهم ازدواجية في شخصيتـه، يعانون من تنـاقض في داخلهم، فمـن ناحية يدعـون ابن رسول الله صلى الله عليه وآله بكلّ حماس وحرارة، و من ناحية أُخرى لا ينسون عهودهم ووعودهم عندما يرون أنفسهم في خطر فقـط بل يتعاونون على قتله، فلابـدّ من إيقاظ هؤلاء وإرشادهـم إلى أخطائهـم، وأن يقال لهم بـأنّكم لا تعلمـون أي جريمـة عظمى اقترفتم بقتل الحسين بن علي عليهما السلام ، كانت هذه المهمة على عاتق العقيلة زينب من بين النساء أكثر من غيرها، لأنّ النساء اللواتي تعدّى عمـرهن الثلاثين عاماً يعرفن زينب منذ عشرين عاماً عندما كان علي عليه السلام خليفة المسلمين في هذه المدينة وكنّ يعرفـن منزلتها وقدرهـا لدى علي عليه السلام ومكانتهـا عند آبائهـن وأزواجهن، كـانت زينب شخصية معروفة بالنسبة لهم وهاهنا الآن يُثير مشهد أسرها المحزن وهي بين الأسرى الذكريات الماضية. فتستغل زينب هـذه الفرصة فتبدأ بالحديث، فيسمع الناس صوتاً مألـوفاً وكأنّ علياً عليه السلام هو الـذي يتحدث، فالكلام هـو كلام علي، والصوت هو نفـس صوت الإمام ، أو ليس المتحدث هو علي أم هـي ابنته؟! نعم هي الحوراء زينب الكبرىٰ وهي التي تتحدث.

وكتب أحمد ابن أبي طاهر المعروف بـابن طيفور (٢٠٤ـ ٢٨٠هـ) في كتاب «بلاغـات النساء» وهو يحوي مجموعـة من الكلمات والخطب الفصيحـة والبليغة لنساء العرب والإسلام، وهو من أقدم المصادر:

قال حذام الأسدي[1] دخلت الكوفـة سنة إحدى وستين، وهي السنـة التي

---

١. وقد ذكر في كتاب اللهوف انّ راوي الخطبة هو بشير بن خزيم الأسدي والموجود في نسخة بلاغات النساء هو خدام و حذيم أيضاً.

قتل فيها الحسين عليه السلام، فرأيت نساء الكوفة يشققن الجيوب ويبكين، ورأيت علي بن الحسين عليه السلام و هو يقول بصوت ضئيل وقد نحل من المرض: «يا أهل الكوفة إنّكم تبكون علينا فمن قتلنا غيركم؟» ورأيت أُمّ كلثوم عليها السلام[1] ولم أر خفرة قط أنطق منها، كأنّما تفرغ على لسان أمير المؤمنين عليه السلام، وقد أومأت إلى الناس أن اسكتوا، فلما سكنت الأنفاس وهدأت الأجراس، قالت:

«يا أهل الكوفة يا أهل الغدر والختل أتبكون؟! فلا رقأت الدمعة ولا هدأت الرنّة، إنّما مثلكم مثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً، تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم، ألا وهل فيكم إلاّ الصلف النطف والصدر الشنف وملق الإماء وغمز الأعداء؟ وهل أنتم إلاّ كمرعى على دمنة، أو كفضة على ملحودة، ألا ساء ما قدّمت أنفسكم أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون، أتبكون وتنحبون؟!

أي والله فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً، فلقد ذهبتم بعارها وشنارها ولن ترحضوها بغسل بعدها أبداً، وانّى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة ومعدن الرسالة وسيد شباب أهل الجنة وملاذ خيرتكم ومفزع نازلتكم ومنار محجتكم ومدره حجتكم، سنتكم ألا ساء ما تزرون وبعداً لكم وسحقاً، فلقد خاب السعي وتبت الأيدي وخسرت الصفقة وبؤتم بغضب من الله وضربت عليكم الذلة والمسكنة، ويلكم يا أهل الكوفة أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم؟! وأي كريمة له أبرزتم؟! وأي دم له سفكتم؟! وأي حرمة له انتهكتم؟! ولقد جئتم بها صلعاء عنقاء سوداء فقماء خرقاء شوهاء كطلاع الأرض أو ملء السماء،

---

١. كلما ذكر اسم أُمّ كلثوم بشكل مطلق فالمراد هو زينب الكبرى بنت علي عليه السلام الكبيرة.

أفعجبتم ان مطرت السماء دماً ولعذاب الآخرة أخزى وأنتم لا تنصرون؟! فلا يستخفنّكم المهل، فانّه لا يحفزه البدار ولا يخاف الثار وانّ ربكم لبالمرصاد».

و قد حرّكت هذه العبارات التي خرجت من روح مفجوعة تتقوى من بحر مفعم بالإيمان بالله مشاعر الجميع وهيّجتها وقرع الحاضرون أسنانهم يأسفون يتحسرون ،و في هذا المشهد المأساوي والدرس الكبير أنشد شيخ من الجعفيين وقد اخضلّت لحيته من البكاء شعراً وقال:

كهولهم خير الكهول ونسلهم إذا عد نسل لا يبور ولا يخزى[1]

الحوراء زينب عليها السلام في قصر يزيد

أمر يزيد بارسال الأسرى ورؤوس الشهداء إلى الشام، فانطلقت قافلة الأسرىٰ نحو الشام، كان جلاوزة ابن زياد أجلافاً غلاظاً، وكان بلاط الشام ينتظر هذه القافلة التي كانت رسول النصر إليهم على أحر من الجمر، وكما ينقل المؤرّخون دخلت قافلة الأسرى المدينة من بوابة الساعات تخترق الآلاف من المشاهدين، ساد ذلك اليوم مدينة دمشق الفرح والابتهاج واحتفلوا بنصر يزيد، سار موكب الأسرى من بين الجموع المحتشدة تجوب الشوارع والأزقة حتى وصلت إلى قصر يزيد الشامخ.

جلس أهل البلاط في مكانهم المخصص لهم وارتقى يزيد كرسيه متسربلاً بكبريائه وزهوه الكبير استعداداً للقاء الأسرى،و على العكس من مجلس ابن زياد فانّ مجلس يزيد لم يحضره كلّ من هب ودب، بل حضره كبار مسؤولي الدولة

١. بلاغات النساء، ص ٢٤؛ ثورة الحسين، الدكتور الشهيدي، ص ١٨٢.

ورؤساء القبائل وبعض السفراء الأجانب، ولهذا كان مجلساً هاماً للغاية.

دخل الأسرى وجلسوا في الناحية المقررة لهم في القصر، و ما أن وقعت عينه على أسرى أهل بيت النبي، وشاهدهم واقفين أمامه أمر بطشت ليوضع رأس الإمام الحسين فيه، وأخذ ينكث بمخصرته في ثنايا الإمام، وهو يتمثل بأبيات شاعر من مشركي قريش هو عبد الله بن الزبعرى السهمي مجدداً أحقاده الجاهلية:

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل

لأهلّوا واستهلّوا فرحاً ... ثمّ قالوا يا يزيد لا تشل

فجزيناهم ببدر مثلها ... وأقمنا ميل بدر فاعتدل[1]

صيحة زينب عليها السلام

لو كان المجلس ينتهي إلى هذا الحد لكان يزيد هو المنتصر، أو أنّ ما كان يأمر به فينفذ ما كان يبدو قبيحاً في الأنظار، ولكن زينب لم تسمح بأن ينتهي الأمر بهذه السهولة، فعكّرت عليه صفو الانتصار ومرّرت حلاوته في فمه وسلبته نشوته.

وأفهمت الحاضرين بأنّ هؤلاء الواقفين هم أولاد الرسول الذي يحكم يزيد الناس بسلطان دينه.

وبدأت عليها السلام بشجاعة ورباطة جأش خطبتها مخاطبة إيّاه:

«صدق الله ورسوله يا يزيد **﴿ثمّ كان عاقبة الذين أساءوا ان كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾**، أظننت يا يزيد انّه حين أخذت

1. بلاغات النساء، ص ٢٠.

علينا بأطراف الأرض وأكناف السماء فأصبحنا نساق كما يساق الأُسارى انّ بنا هواناً على الله وبك كرامة عليه، وانّ هذا لعظيم خطرك، فشمخت بأنفك ونظرت في عطفيك جذلان فرحاً حين رأيت الدنيا مستوسقة لك والأُمور متسقة عليك، وقد أمهلت نفسك، وهو قول الله تبارك وتعالى: **﴿لا يحسبن الّذين كفروا انّما نملي لهم خيراً لأنفسهم إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾** .

أمن العدل يابن الطلقاء[1] تخديرك نساؤك وإماؤك وسوقك بنات رسول الله ﷺ سبايا قد هتكت ستورهن وأصلحت صوتهن، مكتئبات، تخدى بهن الأباعر، ويحدو بهنّ الأعادي من بلد إلى بلد لا يراقبن ولا يؤوين يتشوّفهن القريب والبعيد، ليس معهن ولي من رجالهن.

وكيف يستبطأ في بغضنا من نظر إلينا بالشنق والشنآن والإحن والأضغان، أتقول ليت أشياخي ببدر شهدوا غير متأثم ولا مستعظم وأنت تنكث ثنايا أبي عبد الله بمخصرتك، ولم لا تكون كذلك وقد نكأت القرحة واستأصلت الشأفة بإراقتك دماء ذرية رسول الله ﷺ ونجوم الأرض من آل عبد المطلب، فلتردن وشيكاً موردهم و لتودن انّك عميت وبكمت وانّك لم تقل فاستهلوا وأهلوا فرحاً، اللّهم خذ بحقنا وانتقم لنا ممن ظلمنا، والله ما فريت إلاّ في جلدك، ولا حززت إلاّ في لحمك، وسترد على رسول الله ﷺ برغمك وعترته ولحمته في

١ .إشارة منها إلى عفو جدّها رسول الله ﷺ عن أبي سفيان (جدّ يزيد) ورهط من زعماء قريش لما خافوا أن يجازيهم رسول الله ﷺ عند فتح مكة، فخاطبهم بقوله: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

حظيرة القدس يوم يجمع الله شملهم ملمومين من الشعث وهو قول الله تبارك و تعالى: ﴿**ولا تَحْسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربّهم يرزقون**﴾، وسيعلم من بوّأك ومكّنك من رقاب المؤمنين إذا كان الحكم الله والخصم محمد ﷺ وجوارحك شاهدة عليك، فبئس للظالمين بدلاً أيّكم شر مكاناً وأضعف جنداً.

إنّي والله يا عدو الله وابن عدوه استصغر قدرك واستعظم تقريعك، غير انّ العيون عبرى والصدور حرّى، وما يجزي ذلك أو يغني عنّا وقد قتل الحسين عليه السلام وحزب الشيطان يقربنا إلى حزب السفهاء ليعطوهم أموال الله على انتهاك محارم الله، فهذه الأيدي تنطف من دمائنا، وهذه الأفواه تتحلب من لحومنا وتلك الجثث الزواكي تنتابها العواسل وتعفرها أُمهات الفراعل، فلئن اتخذتنا مغنماً لتتخذن مغرماً حين لا تجد إلاّ ما قدمت يداك تستصرخ بابن مرجانة ويستصرخ بك وتتعادى وأتباعك عند الميزان، وقد وجدت أفضل زاد زوّدك معاوية قتلك ذرية محمد ﷺ، فوالله ما تقيت غير الله ولا شكواي إلاّ إلى الله، فكدكيدك واسع سعيك وناصب جهدك فوالله ما يرحض عنك عار ما أتيت إلينا أبداً، والحمد لله الذي ختم بالسعادة والمغفرة لسادات شبان الجنان فأوجب لهم الجنة، أسأل الله أن يرفع لهم الدرجات وأن يوجب لهم المزيد من فضله فانّه ولي قدير.[١]

إنّ رد الفعل لهذه الكلمات الصادرة من قلب مفجوع مفعم بالتقوى والإيمان واضح للجميع حتى لو كان الرجل أقسى الرجال، فإنّه عندما يواجه

١. بلاغات النساء، ص ١٢ـ ٢٣.

الإيمان والتقـوى يلمس عجـزه وقوة الخصـم وتراه أعجـز من أن يتخـذ قراراً ولـو للحظات.

ساد القصر صمـت قاتل، ولمّا شـاهد يزيـد اشمئزاز الحاضرين وتقـزّزهم قال: قتل الله ابن مرجانة لم أكن أرضى بقتل الحسين.[١]

حرب الإمام السجاد عليه السلام الإعلامية

ولأجل التحرر من الذلة والعبوديـة واستعادة العزة والحرية و إعداد الأرضية لثورة جذريـة كبيرة وعلى نطاق واسع ضد الظلم والاضطهـاد والانحراف، لم يعد هناك غير بث الوعي بين الناس وتوعيتهم.

إذن فلابـدّ من تـوعية الجماهير و إرشادهـا وتعليمها لتشعر بـا لمسؤوليـة ثمّ تأخذ الثورة بالحدوث بشكل ذاتي.

وهذا هو قسم من مخطط الإمام الحسين و قد نفذه هو وأصحابه من خلال شهادتهم في المرحلة الأولى، ووقع تنفيـذ المرحلة الثانية ـ وهي إيصـال رسالة ثورة كربلاء وبث مبادئها ـ على عاتق الإمام زين العابدين و زينب الكبرى عليهما السلام.

وقد كان هذا النوع من الكفاح هو السبيـل الوحيد الذي يمكن من خلاله القضاء على الإعلام المضلّل والتحـريف الذي دام أكثر من ثلاثين عـاماً، وبه يتم القيام بثورة جذرية على الأمويين وجعل قصر يزيد متزلزلاً إلى الأبد.

بدأت المرحلـة الثانية مـن هذه الحرب التي اقترنـت بمظلومية أهـل البيت وانطلقت من عصر عاشوراء واستمـرت بخطبة زينب بنت أمير المؤمنين في سوق

---

١. ثورة الحسين، جعفر الشهيدي، ص ١٨٧ ـ ١٨٩، مع اختلاف يسير في العبارة.

الكوفة و بكلام زين العابدين الوجيز البسيط والمؤثر والمثير في الوقت ذاته في تلك المدينة أيضاً:

أشار الإمام إلى الجموع التي جاءت لمشاهدة الأسرى أن يسكتوا، فسكتوا، ثمّ قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«أيّها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أُعرّفه بنفسي، أنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أنا ابن المذبوح بشط الفرات بغير ذحل ولا تراث، أنا ابن من انتهك حريمه وسلب نعيمه وانتهب ماله وسبي عياله، أنا ابن من قتل صبراً و كفى بذلك فخراً.

أيّها الناس ناشدتكم الله هل تعلمون أنّكم كتبتم إلى أبي وخدعتموه وأعطيتموه من أنفسكم العهد والميثاق والبيعة وقاتلتموه وخذلتموه؟ فتباً لما قدّمتم لأنفسكم وسوءاً لرأيكم، بأية عين تنظرون إلى رسول الله إذ يقول لكم قتلتم عترتي وهتكتم حرمتي فلستم من أُمّتي».

أثارت هذه الكلمات القصيرة اللاذعة ضجة وصخباً في تلك الأجواء المفعمة بالرعب والارهاب بلغ تأثيرها في أعماق نفس الكوفيين حداً جعل الأصوات والنياحة ترتفع من كلّ ناحية فجأة، والناس يقولون لبعضهم: هلكتم وما تعلمون.

فقال السجاد عليه السلام: «رحم الله امرءاً قبل نصيحتي، وحفظ وصيتي في الله وفي رسوله وأهل بيته، فإنّ لنا في رسول الله اسوة حسنة».

فقالوا بأجمعهم: نحن كلّنا يابن رسول الله سامعون مطيعون حافظون لذمامك غير زاهدين فيك، ولا راغبين عنك، فأمرنا بأمرك يرحمك الله فانّا حرب

لحربك وسلم لسلمك، ولنأخذن يزيد ونبرأ ممن ظلمك وظلمنا.

فقال عليه السلام :«هيهات هيهات: أيّها الغدرة المكرة، حيل بينكم و بين شهوات أنفسكم، أتريدون أن تأتوا إليّ كما أتيتم إلى أبي، كلاّ وربّ الراقصات فانّ الجرح لما يندمل، قتل أبي صلوات الله عليه بالأمس وأهل بيته معه و لم ينسني ثكل رسول الله وثكل أبي و بني أبي، ووجده بين لهاتي، ومرارته بين حناجري وحلقي، وغصصه تجري في فراش صدري، ومسألتي أن لا تكونوا لنا ولا علينا».[١]

حوار السجاد عليه السلام مع ابن زياد

وكما أشرنا مسبقاً كان الحكم الأموي يستفيد من عقيدة الجبر ويستغلها وينسب أعماله وجرائمه إلى الله وإرادته، ومن خلالها يخدّر الرأي العام، ولأنّ الإمام السجاد وزينب كانا على معرفة بهذا المخطط الإعلامي للأعداء مضيا قدماً في محاربته والمصداق البارز لهذه الحرب هو الحوار الذي دار بين الإمام السجاد وابن زياد في الكوفة، فبعد أن أدخل الأسرى من أهل البيت في قصره بمرأى الجميع وبعد ان دار حوار ساخن بين زينب وبينه التفت إلى علي بن الحسين عليه السلام و قال: من هذا؟ فقيل: علي بن الحسين، فقال: أليس قد قتل الله علي بن الحسين؟ فقال له الإمام: «قد كان لي أخ يسمّى علي بن الحسين قتله الناس» فقال: بل قتله

١. اللهوف، ص ٦٦ ، زندگانى على بن الحسين، شهيدي، ص ٥٦؛ امام چهارم، علي الحسني، ص ٣٨ـ ٤٠، ويحتمل انّه عليه السلام خطب هذه الخطبة بعد عودتهم من الشام في الكوفة، لأنّ الخطبة طويلة ،وحينما نقلوا إلى الشام لم تكن حرية الكلام ولا الوقت اللازم هذا، ويقول الطبرسي في بداية هذه الخطبة: احتجاج علي بن الحسين عليه السلام على أهل الكوفة حين خرج من الفسطاط وتوبيخه إياهم على غدرهم ونكثهم ، الاحتجاج:٢/ ١٦٦، و نحن نعلم أنّه لم يكن هناك وجود للفسطاط حينما أخذوا إلى الشام.

الله، فقال عليه السلام: ﴿اللهُ يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها﴾[1]

فقال ابن زياد: وبك جرأة على جوابي فـاذهبوا به فاضربوا عنقه، فسمعت به عمته زينب حافظة وديعة الإمامة فقالت: يا ابن زياد انّك لم تبق منّا أحداً، فإن كنت عزمت على قتله فاقتلني.

فقال السجاد عليه السلام لعمته: «اسكتي يا عمتي حتى أُكلمه» ثم أقبل إليه فقال: «أبالقتل تهددني يا ابن زياد أما علمت انّ القتل لنا عادة وكرامتنا الشهادة».[2]

خطبة الإمام السجاد عليه السلام في الشام

وكما أشرنا مسبقاً كان للبقية الباقية من أهل بيت الإمام الحسين دور كبير في الكشف عن حقيقة سلطة يزيد الخبيثة وإيصال رسالة الثورة الحسينية وبث مبادئها من خلال رحلتهم إلى الشام. فقد أدّوا واجبهم المقدّس وجاهدوا ـ و بزي الأسر ـ بنفس ذلك الجهاد الذي جاهد به الحسين بزي الدم والشهادة، و كان وقوفهم في الشام قد منحهم فرصة مناسبة لتوعية الشاميين الذين لم يكن لديهم أية معرفة صحيحة وسليمة عن الإسلام وأهل البيت عليهم السلام جرّاء الإعلام المضلّل الذي مارسه معاوية طيلة الأربعين عاماً من حكمه. لذلك حاول آل الحسين أن يستغلوا أي فرصة ممكنة لهذا الغرض.

انّ لخطبة الإمام السجاد التي خطبها في أحد أيّام وقوفه في الشام دوراً كبيراً حاسماً، وقد فضحت يزيد وسلطته للداني والبعيد، وكتب المرحوم العلاّمة المجلسي

١. الزمر: ٤٢.

٢. اللهوف على قتلى الطفوف، ص ٦٨.

نقلاً عن صاحب المناقب وغيره:

وروي انّ يزيد دعا الخاطب وأمره أن يصعد المنبر ويذم الحسين وأباه عليهما السلام، فصعد وبالغ في سبّ أمير المؤمنين والحسين عليهما السلام والمدح لمعاوية ويزيد فصاح به الإمام السجاد عليه السلام: **«ويلك أيها الخاطب، اشتريت مرضاة المخلوق بسخط الخالق، فتبوّأ مقعدك من النار»**. ثمّ قال: «أتأذن لي يا يزيد أن أصعد المنبر فأتكلم بكلمات فيهن لله رضا ولهؤلاء الجلساء أجر» فأبى يزيد، فقال الناس، يا أمير المؤمنين إئذن فليصعد فلعلنا نسمع منه شيئاً، فقال: إنّه إن صعد لم ينزل إلّا بفضيحتي وبفضيحة آل أبي سفيان.

فقيل له: وما قد يحسن هذا؟ فقال: إنّه من أهل بيت زقّوا العلم زقّاً، فلم يزالوا به حتى اذن له، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ خطب خطبة أبكى بها العيون وأوجل منها القلوب.

ثمّ قال:

«أيّها الناس أُعطينا ستاً وفضلنا بسبع، أعطينا: العلم والحلم والسماحة والفصاحة والشجاعة والمحبة في قلوب المؤمنين.

وفضّلنا بأنّ منّا النبي المختار محمداً صلى الله عليه وآله، ومنّا الصديق، ومنّا الطيّار ومنّا أسد الله وأسد رسول الله، ومنّا خيرة نساء العالمين، ومنّا سبطا هذه الأمّة الحسن والحسين[1].

أيّها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي، أنا ابن مكة ومنى، أنا ابن زمزم والصفا، أنا ابن من حمل الركن بأطراف

---

١. نقل بعض المؤرخين خطبة السجاد مع عبارة «فضلنا بسبع» دون ذكر الفضيلة السابعة، وذكر بعض آخر على أنّها «منّا البتول» و آخر «منّا المهدي».

الرداء[١]، أنا ابن خير من أتزر وارتدى، أنا ابن خير من انتعل واحتفى، أنا ابن خير من طاف وسعى، أنا ابن من حجّ ولبّى، أنا ابن من حمل على البراق في الهواء أنا ابن من أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، أنا ابن من بلغ به جبرئيل سدرة المنتهى، أنا ابن من دنا فتدلّى فكان من ربّه كقاب قوسين أو أدنى، أنا ابن من صلّى بملائكة السماء، أنا ابن من أوحى الله الجليل إليه ما أوحى، أنا ابن محمد المصطفى، أنا ابن علي المرتضى، أنا ابن من ضرب خراطيم الخلق حتى قالوا لاإله إلاّالله.

أنا ابن من ضرب بين يدي رسول الله بسيفين[٢] ، وطعن برمحين، وهاجر الهجرتين[٣] ، وبايع البيعتين، وقاتل ببدر وحنين، ولم يكفر بالله طرفة عين.

أنا ابن صالح المؤمنين ووارث النبيين وقامع الملحدين ويعسوب المسلمين ونور المجاهدين وزين العابدين وتاج البكّائين وأمير الصابرين وأفضل العالمين وأفضل القائمين من آل طه وياسين.

١. يشير بذلك إلى وضع الحجر الأسود في الرداء ورفعه به باقتراح النبي الكريم وهو في ٣٥ من العمر لحل النزاع بين القبائل آنذاك.

٢. قد تكون إشارة إلى كسر سيف علي في معركة أُحد ومنحه سيف ذا الفقار من قبل الله تعالى، وقد تكون إشارة إلى وقعة كان الإمام يحارب فيها بسيفين وذلك بقرينة الرمحين.

٣. يوجد هناك أربعة احتمالات حول هجرة علي عليه السلام مرتين وهي:

الف: هجرته من مكة إلى المدينة في بداية الدعوة، ثمّ هجرته من المدينة إلى اليمن لإرشاد الناس أواخر حياة النبي.

ب: هجرته من مكة إلى المدينة ثم منها إلى الكوفة بعد رحيل النبي وأثناء خلافته.

ج: هجرته عليه السلام من مكة إلى شعب أبي طالب، وقد استغرقت ثلاثة أعوام، ثمّ هجرته من مكة إلى المدينة. امام چهارم ، الحسني، ص ٦٦.

أنا ابن المؤيد بجبرئيل، المنصور بميكائيل.

أنا ابن المحامي عن حرم المسلمين، و قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين والمجاهد أعداءه الناصبين، وأفضل من مشى من قريش أجمعين، وأوّل من استجاب لله ولرسوله من المؤمنين، وأوّل السابقين وقاصم المعتدين ومبيد المشركين، وسهم مرامي الله على المنافقين، ولسان حكمة العابدين، وناصر دين الله وولي أمر الله وبستان حكمة الله وعيبة علمه.

ثمّ قال: أنا ابن فاطمة الزهراء ، أنا ابن سيدة النساء...».

فلم يزل الإمام يعرّف نفسه ويقدّمها، ويعرف في الواقع أصل الإمامة والرسالة حتى ضجّ الناس بالبكاء والنحيب والأنين وخاف يزيد أن تكون فتنة، فأمر المؤذن ، فقال: الله أكبر الله أكبر.

فقال الإمام:« الله أكبر من كلّ شيء، فلما قال: أشهد أنّ محمّداً رسول الله التفت الإمام إلى يزيد وقال: محمّد هذا جدي أم جدّك يا يزيد؟ فإن زعمت انّه جدّك فقد كذبت وكفرت، وإن زعمت انّه جدي فلِمَ قتلت عترته؟». [1]

وكتب عماد الدين الطبري من علماء القرن السابع الهجري في كتاب كامل بهائي عند نهاية خطبة السجاد: ...قال الإمام السجاد: «يا يزيد هذا الرسول العزيز الكريم جدّي أم جدّك؟ فإن زعمت انّه جدّك فقد كذبت ويعلم الناس ذلك، وإن زعمت انّه جدّي فلم قتلت أبي بلا ذنب ونهبت ماله وأسرت نساءه» .

قال الإمام ذلك وضرب بيده وشق ثيابه وراح يبكي وقال: «والله لو كان على

---

١. البحار، ج٤٥، ص ١٣٧.

الأرض أحد جدّه رسول الله غيري فلم قتل هذا الرجل أبي ظلماً وأسرونا كما يأسر أهل الروم؟».

فقال عليه السلام: «فعلت فعلتك هذه يا يزيد وتقول محمّد رسول الله وتستقبل القبلة؟! ويلك خصمك جدّي وأبي يوم القيامة».

وفي هذه الأثناء أمر يزيد اللعين المؤذن أن أذن، فسمعت ضجة وصخب عظيم بين الناس وتفرقوا، منهم من صلىّ ومنهم من لم يصلّ.[1]

نتائج وآثار ثورة عاشوراء

تركت ثورة الحسين عليه السلام آثاراً كبيرة في المجتمع الإسلامي نشير إلى بعض منها على سبيل المثال بالصورة التالية:

الف: فضح السلطة الحاكمة

ولأنّ السلطة الأموية تسبغ على نفسها صفة الشرعية والدينية وتحكم المجتمع الإسلامي باسم الدين وخلافة رسول الله، وتعمد إلى تقوية مكانتها الدينية بين الناس من خلال أساليب عديدة، كوضع الحديث، وتسخير الشعراء والمحدّثين، وتأسيس الفرق الجبرية و... لذلك أنزلت ثورة الإمام الحسين واستشهاده ضربة قاصمة على جسمها وفضحتها، لا سيما انّ جيش يزيد وجلاوزته قد قاموا بإعمال غير إنسانية تنافي المروءة، مثل قطع الماء ومنعه على الإمام وأصحابه وأهل بيته، وقتل الأطفال، وأسر النساء وأولاد بيت النبوة، وغير ذلك التي ساعدت في فضحها وفضيحتها أكثر ممّا كرّهت يزيد بشكل كبير لدى

١. كامل بهائي، ص ٣٠١.

الجماهير، وخلقت منه شخصية بشعة في أعينهم حتى قال «مجاهد» و هو ممّن عاصر تلك الفترة: والله أخذ الناس جميعاً يلعنون يزيد ويسبّونه ويعيبون عليه ويعرضون عنه.(١)

وراح يزيد الذي كان مسروراً للغاية بانتصاره ولم تسعه الأرض فرحاً وغروراً بالنصر يتخبط مبهوتاً أمام شجب واستنكار الرأي العام، فحاول أن يلقي مسؤولية قتل الحسين على عاتق عبيد الله بن زياد.

وقال المؤرخون: إنّه استدعى ابن زياد وأعطاه أموالاً كثيرة وتحفاً عظيمة، وقرّب مجلسه، ورفع منزلته، وأدخله على نسائه، وجعله نديمه.(٢)

وحينما بلغ استنكار الرأي العام ذروته، قام يزيد باستدارة سريعة يبرئ نفسه من دم الإمام ويلقي اللوم على ابن زياد.

فقد كتب ابن الأثير: ولما وصل رأس الحسين إلى يزيد حسنت حال ابن زياد عنده وزاده ووصله وسرّه ما فعل، ثمّ لم يلبث إلاّ يسيراً حتى بلغه بغض الناس له ولعنهم وسبّهم، فندم على قتل الحسين، فكان يقول: و ما عليّ لو احتملت الأذى وأنزلت الحسين معي في داري وحكمته فيما يريد وإن كان علي في ذلك وهن في سلطاني حفظاً لرسول الله ورعاية لحقه وقرابته، لعن الله ابن مرجانة، فانّه اضطره وانّه سأله أن يضع يده(٣) في يدي أو يلحق بثغر حتى يتوفّاه الله، فلم يجبه إلى ذلك فقتله، فبغّضني بقتله إلى المسلمين، وزرع في قلوبهم العداوة، فأبغضني البرّ

١. تذكرة الخواص، سبط بن الجوزي، ص ٢٦٢. ٢. نفس المصدر، ص ٢٩٠.

٣. ومن المؤكد انّ هذه العبارة من إضافات يزيد أو مؤرّخي البلاط، لأنّ الإمام الحسين لم يقل أبداً انّه مستعد لمبايعة يزيد ووضع يده في يده، ذلك انّ ثورة عاشوراء من بدايتها إلى نهايتها كانت رفضاً لبيعة يزيد من الأساس.

والفاجر بما استعظموه من قتلي الحسين، مالي ولابن مرجانة لعنه الله وغضب عليه.[١]

ومع أنّ يزيد عامل النساء والأطفال من أهل البيت بقساوة غروراً وحقداً، وأمر بوضعهم في دار خربة في البداية، تراه و بعد مدة قصيرة وتحت تأثير الرأي العام وشجبه يعاملهم معاملة حسنة ويغيّر مكان إقامتهم، و يقول لهم: إن كنتم راغبين أرسلكم إلى المدينة.

كتب عماد الدين الطبري حول ذلك: أرسلت زينب شخصاً ليستأذن من يزيد لإقامة العزاء على الحسين، فإذن لهم: و قال: يجب أن يأخذوا إلى دار الحجارة كي ينحن ويبكين هناك، وجعلن يبكين سبعة أيام، فكان يجتمع عندهن كثير من الناس ممّا لا يمكن إحصاؤه وهم الناس بالهجوم على قصر يزيد و قتله، فجاء مروان[٢] و قد علم بهذا الأمر إلى يزيد و قال له: ليس يصلح لسلطانك بقاء أولاد ونساء الحسين وأهل بيته هنا، فيحسن بك أن تردهم إلى المدينة، الله الله ليطيعن سلطانك، فدعا يزيد الإمام زين العابدين وأجلسه بجانبه وأكرمه وقال:

---

١. الكامل في التاريخ:٤/ ٨٧، و قد نقل ذلك الطبري في تاريخه:٦/ ٢٦٦، والسبط ابن الجوزي ص ٢٦١ـ ٢٦٥ بإيجاز ، وقد كان ابن زياد أيضاً قلقاً من عواقب الجريمة التي ارتكبها، ويشهد لذلك الحوار الذي دار بينه و بين عمر بن سعد.

وقد نقله كلّ من الطبري و أبي مخنف بالصورة التالية : ثمّ إنّ ابن زياد قال لعمر بن سعد بعد عودته من قتل الحسين: يا عمر ايتني بالكتاب الذي كتبته إليك في قتل الحسين. قال عمر: مضيت لأمرك وضاع الكتاب قال ابن زياد: لتجئني به قال: ضاع قال: والله لتجئني به قال: ترك والله يقرأ على عجائز قريش بالمدينة اعتذاراً إليهن، أما والله لقد نصحتك نصيحة لو نصحتها أبي سعد بن أبي وقاص لكنت أدّيت حقّه، فقال عثمان بن زياد أخو عبيد الله: صدق والله لوددت انّه ليس من بني زياد رجل إلاّ وفي أنفه خزامة إلى يوم القيامة وانّ الحسين لم يقتل. وقال الراوي ـ وكان قد شهد الحوار ـ والله ما أنكر ابن زياد ذلك. تاريخ الطبري:٦/ ٢٦٨.

٢. كان مروان بالمدينة بعد موت معاوية إلاّ إذا قلنا انّه جاء إلى الشام خلال هذه الفترة.

لعن الله ابن مرجانة والله لو انّي صاحب أبيك ما سألني خصلة أبداً إلا أعطيته إيّاها، ولكن الله قضى ما رأيت، فكاتبني من المدينة وانه إلي كل حاجة وتقدم بكسوته وكسوة أهله، ولكن قيل انّ أهل البيت لم يقبلوا ذلك.[١]

هذا ولم يدم عمر يزيد أكثر من أربع سنوات بعد مأساة كربلاء، غير انّه ترك هذا العار والفضيحة إرثاً لبني أمية يلاحقهم ممّا دفع بالخلفاء الأمويين فيما بعد ممن كان له أدنى عقل ودراية أن يحترز من التورط في تكرار أعمال يزيد كما كتب اليعقوبي مؤرخ الإسلام الشهير:

كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج الذي كان عامله على الحجاز: فحسبي دماء بني عبد المطلب، فإنّي رأيت آل أبي سفيان لمّا ولغوا فيها لم يلبثوا بعدها إلاّ قليلاً.[٢]

ب: إحياء سنّة الشهادة

حينما جاء نبي الإسلام بدين جديد يقوم على الإيمان بالله، أحيا في الواقع سنّة الشهادة وأُسسها، وقد كانت الشهادة والرغبة فيها في سبيل الله ولأجل انتصار الحقّ السبب الأوّل والرئيس في كثير من انتصارات المسلمين الكبيرة، ولكن بعد رحيل رسول الله ﷺ ونتيجة لانحراف الحكم الإسلامي عن طريقه الحقيقي وجرّاء كثرة الفتوحات وازدياد الغنائم وتراكمها في مركز الخلافة وأسباب أُخرى ،فقد المسلمون روحهم الجهادية واعتادوا على الدعة و العافية حتى راح الناس يطيعون ـ خوفاً من ضياع حياة الدعة والراحة والتورّط في النزاعات

١. كامل بهائي، عماد الدين الطبري، ٣٠٢.
٢. تاريخ اليعقوبي: ٣/ ٤٩، ضمن أحداث عهد حكم عمر بن عبد العزيز، وقد نقلنا هذا النصّ مسبقاً في هذا الكتاب.

الاجتماعية ـ كلّ من أمسك بمقاليد الحكم طاعة عمياء وبكلّ بساطة، وهكذا استغلّ الحكام الطغاة نفسيتهم وروحهم هذه وحكموا باسم الإسلام، وكان كلّما طال عمر الحكم الأموي كانت تتردّى وتسيء أكثر، حتى بلغت في نهايات عهد معاوية وبداية عهد يزيد ذروتها في التردّي، وكان رؤساء القبائل ورجال الدين في تلك الفترة عبيداً لزخارف الدنيا والسلطة يتاجرون بكرامتهم وضمائرهم ويلهثون وراء الأموال لهثاً، وعلى الرغم من أنّهم ـ رجال الدين والسياسة ـ كانوا على علم بنسب عبيد الله بن زياد الوضيع بصورة تامة تراهم يطأطأون رؤوسهم أمامه تعظيماً، ولم يكونوا طوع إرادة يزيد وابن زياد فقط، بل كانوا يبالغون حتى في طاعة جلاوزتهما ومن يخدمهما، وذلك طمعاً بما في أيديهم من الأموال والسلطة وما لهم من المكانة والوساطة لدى ذينك الطاغيتين.

وهناك مجموعة أُخرى لا تقلّ وضاعة عن الصنف الأوّل، وهي المجموعة المتمثّلة بالزهّاد والمتدينين المرائين المخادعين الذين كانوا يتظاهرون بالزهد والإيمان حتى يحصلوا من خلال ظاهرهم الخادع على اللقمة الدسمة، وهؤلاء ما أن يلفتون انتباه الطغاة إليهم تجدهم يصبحون أبواقاً من أبواق السلطة و ينضوون تحت لوائها.

فقد كان الناس في تلك الفترة يعرفون هذه الأصناف جيداً، وقد اعتادوا على سلوكهم الوضيع حتى أصبح أمراً طبيعياً وعادياً لهم، ولم يثر فيهم أية مبادرة شجب واستنكار.

وكانت طبيعة الحياة آنذاك بالنسبة إلى الناس العاديين بنحوٍ جعلتهم يركزون اهتمامهم على ضمان سد احتياجاتهم الشخصية فقط، وكان الواحد منهم يعمل لحياته الخاصة ويكدح لتحقيق أهدافه وطموحاته الشخصية، ولا يفكر بشيء سوى الحصول على ما يشبع رغباته هو، ولذلك لم يكن المجتمع ولا مشاكله

الكبيرة موضع اهتمام الإنسان على الإطلاق، والشيء الوحيد الذي يعير له هذا الصنف أهمية كبيرة ويواظب عليه هو أن لا ينقطع عنهم العطاء والراتب الذي يتقاضونه، ولحرصهم على ذلك راحوا ينفذون أوامر أسيادهم بالحرف الواحد ويلتزمون الصمت أمام مشهد من مشاهد الظلم والفساد والانحراف يشاهدونه ولا ينطقون ببنت شفة.

غيّرت ثورة الإمام الحسين هذه الوضعية وقلبتها وأحيت سنّة الشهادة في المجتمع الإسلامي، وقد كشف الحسين بثورته هذه القناع عن حياة المسلمين الملوثة والوضيعة وفتح أمامهم طريقاً جديداً فيه كلّ العناء والحرمان سوى الذلّة والخنوع والخضوع، ولأجل أن يتضح مدى تأثير ثورة الإمام في بعث الروح الثورية والاستشهادية في الأُمّة الإسلامية في ذلك العصر، يجب أن نلتفت إلى أنّ ذلك المجتمع قد قضى وعاش فترة عشرين عاماً من الصمت والخنوع قبل ثورة عاشوراء، ومع أنّ موجبات الثورة كانت متوفرة خلال هذه الفترة الطويلة نسبياً لم تحدث أية انتفاضة اجتماعية ولو محدودة، باستثناء الاحتجاجات التي كانت تنبعث من هنا وهناك بشكل مؤقت من قبيل اعتراضات حجر بن عدي الكندي.

وفي تحرك أهل الكوفة الذي انتهى إلى مجيء مسلم بن عقيل نجد انّه كيف انفضوا من حوله، وهو مبعوث سيد الشهداء الباسل، وتخلّوا عنه بمجرد سماع تهديد كاذب بزحف جيش الشام نحوهم.

أيقظت مأساة كربلاء الضمير الديني في المجتمع، وأحدثت تغيراً روحياً امتد تأثيره إلى كافة أرجاء العالم الإسلامي، وكان هذا كافٍ لدفع الناس للدفاع عن شخصيتهم وكرامتهم ودينهم، ولإيقاد روح النضال والجهاد التي أُخمدت جذوتها في المجتمع مرّة أُخرى، وبعث الحياة من جديد في القلوب الميتة والأجسام

المتاقلة لتحريكها وتنشيطها.

هذا وقد كان من آثار هذا التأثير ثورة واحتجاج **عبد الله بن عفيف الأزدي** في الكوفة، وذلك حينما بدأ ابن زياد خطبته الأُولى بسبّ الإمام الحسين بعد المعركة لإعلان انتصاره ممّا جعله يواجه غضب واستنكار ابن عفيف واحتجاجه الذي كان رجلاً أعمى[١]، فأمر ابن زياد باعتقاله فحمله أبناء عشيرته إلى داره، فأرسل ابن زياد جماعة من جلاوزته لاعتقاله، فواجههم عبد الله بن عفيف ببسالة وصمد أمامهم، غير انّه اعتقل واستشهد في النهاية.[٢]

ج: الثورة والانتفاضة في الأُمّة الإسلامية

فجّرت ثورة الإمام الحسين العظيمة الكثير من الثورات والانتفاضات في المجتمع الإسلامي، نشير إلى بعض منها على سبيل المثال:

١. ثورة التوابين

كانت **ثورة التوابين** أوّل رد فعل مباشر لاستشهاد الإمام الحسين في الكوفة، فبعد ان استشهد الإمام عليه السلام وعاد ابن زياد من معسكره في النخيلة إلى الكوفة أخذ الشيعة الذين حرموا من الفرصة الذهبية للقتال مع الإمام في ملحمة عاشوراء يندمون كثيراً، وراحوا يلومون أنفسهم، وانتبهوا لتوهّم إلى الخطأ الكبير الذي ارتكبوه، لأنّهم هم الذين دعوا الحسين ثم تخلّوا عن نصرته وجاء إلى العراق

---

١. كان عبد الله بن عفيف من أصحاب علي عليه السلام، وفقد إحدى عينيه في حرب الجمل والأُخرى في صفين.

٢. تاريخ الطبري:٦/ ٢٦٣؛ مقتل الحسين عليه السلام:٢٠٧، اللهوف على قتلى الطفوف:٦٩.

تلبية لطلبهم واستشهد على مقربة منهم فلـم يحركوا ساكناً، وشعرت هذه الجماعة بأنّ عار هذه الخطيئـة التي ارتكبوها سوف لن يذهـب عنهم إلاّ إذا انتقموا لدم الحسين من قاتليه أو استشهدوا في سبيل ذلك.

وبسبب هذا الشعور راح الشيعيون يراجعون خمسة من رؤسائهم وشيوخهم في الكوفة؛ أمثال **سليمان بن صُـرَد الخزاعي، مسيب بن نَجَبَة الفزاري، عبد الله بن سعد بن نُفَيْل الأزدي، وعبد الله بن وال التميمي، ورفاعة بن شداد البَجَلي**، ويجتمعون بهم في دار سليمان.

وأوّل من فتح الحديـث هو المسيب بن نجبـة وقال بعد مقدمـة: ...وقد كنّا مغرمين بتـزكية أنفسنـا فوجـدنا الله كاذبين في كـلّ موطـن من مـواطن ابـن بنت نبيه صلى الله عليه وآله وقد بلغنا قبـل ذلك كتبه ورسله واعـذر إلينا، فسألنا نصره عـوداً وبدءاً وعلانيـة، فبخلنا عنه بأنفسنـا حتى قتل إلى جانبنـا، لا نحن نصرناه بأيـدينا، ولا جادلنا عنه بألسنتنا، ولا قوّيناه بأموالنا، ولا طلبنا له النصرة إلى عشائرنا، فما عذرنا عند ربّنا وعنـد لقاء نبيّنا وقد قتـل فينا ولد حبيبه وذريّتـه ونسله؟! لا والله لا عذر دون أن تقتلوا قاتله والموالين عليه، أو تقتلوا في طلب ذلك، فعسى ربنا أن يرضى عنّا عند ذلك.

وبعد عدة خطب حماسية أُخرى، قام سليمان بن صرد الخزاعي الذي انتخب قائداً للمجمـوعة فخطـب قائلاً: إنّا كنّـا نمد أعناقنـا إلى قدوم آل بيـت نبينا صلى الله عليه وآله ونمنّيهم النصر ونحثّهم على القـدوم، فلمّـا قدموا ونينـا وعجزنا وادهنا وتـربصنا حتى قتـل فينا ولد نبينـا... ألا انهضوا فقد سخـط عليكم ربّكم، ولا تـرجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى الله، والله ما أظنـه راضياً دون أن تناجزوا من قتله، ألا لا تهابوا الموت، فما هـابه أحد قط إلاّ ذلّ، وكـونوا كبني إسرائيل إذ قـال لهم نبيّهم

﴿إنّكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم﴾ .(١)

وبعد هذا الاجتماع أطلع سليمان بن صرد سعد بن حذيفة بن اليمان والشيعة الآخرين في المدائن على واقع الأمر، واستنصرهم، فلبّوا دعوته.

وكتب سليمان إلى المثنى بن مخرمة العبدي والشيعة في البصرة فأجابوه إلى ذلك.

دوافع التوّابين

كان التوابون يعتقدون بأنّ الحكم الأموي هو المسؤول في الدرجة الأُولى عن قتل الحسين لا الافراد، ولهذا انطلقوا نحو الشام بدافع الانتقام والثأر وقالوا فننطلق بعد الانتقام من بني أُميّة إلى طواغيت الكوفة ومجرميها.

وكما هو ملحوظ فإنّ دافع هذه الحركة هو الشعور بالندم من الذنب والرغبة في تلافي الخطيئة التي اقترفوها، ونلاحظ ذلك خلال كلامهم ورسائلهم وخطبهم حيث يلاحظ فيها الشعور العميق بالندم والرغبة الجامحة والملحة في غسل الخطيئة، ومن يمر عليها مروراً سريعاً يجد الأمر واضحاً جداً، وكان هذا هو الدافع الذي جعل التقييم الظاهري ان يعتبر ويقدم ثورة التوابين على أنّها ثورة انتحارية، كان التوابون يريدون الانتقام والثأر لدم لحسين وتدارك ما ارتكبوه من ذنب وخطيئة ليس غير.

وما كانت هذه الثلة تطلب فتحاً ونصراً وغنماً وحكماً، بل كان الانتقام هو هدفهم الأوّل والأخير، وكانوا حينما غادروا ديارهم على يقين من أنّهم سوف لن يعودوا إليها كانوا عطاشى الموت يتعطشون إليه في سبيل أهدافهم، بحيث نجد

---

١. البقرة: ٥٤.

عدوهم يقدّم لهم الأمان فيرفضونه، لأنّهم يعتبرونه خديعة لإفشال الثورة.

قوات التوّابين

لم يكن الشيعة وحدهم هم الذي التحقوا بثورة التوابين وناصروها، بل راح كلّ من يريد تغيير الواقع الفاسد والخروج من تحت نير الظلم الأموي واضطهاده من خلال حركة دامية يلتحق بها ويناصر أصحابها التوابين، وبالطبع لم ينضم إليهم وإلى ثورتهم الكثير بسبب انّ ثورتهم ثورة انتقامية استشهادية لم يفكر أصحابها بغير هدف الثأر أو الاستشهاد في سبيل ذلك.

كان عدد من بايع سليمان بن صرد وسجل في ديوانه ستة عشر ألفاً، فلم يأته منهم سوى خمسة آلاف [1] بينما كان عدد جيش الشام ثلاثين ألفاً، ومن المؤكد انّ سبب هذا الأمر واضح، لأنّ الشخصيات التي تتمتع بدرجة عالية من التضحية في سبيل العقيدة هي وحدها فقط تنجذب إلى العمليات الاستشهادية الانتحارية، وواضح أيضاً انّ هذا النوع من الشخصيات قليل في كلّ زمان.

عمليات التوّابين

بدأت حركة التوابين سنة إحدى وستين هجرية، فمازالوا منذ ذلك الحين يجمعون آلة الحرب ويدعون الناس في السر إلى الطلب بدم الحسين، فكان الناس من الشيعة وغيرهم يجيبونهم ويلتحقون بهم زرافات ووحداناً، ولم يزالوا على تلك الحال حتى مات يزيد، فأخذوا يبثّون دعاتهم إلى الناس في البلاد يدعونهم لمناصرتهم، وخلال هذه الفترة راحوا يتجهزون للقتال ويعدّون عدة الحرب علانية

---

١. وكان قد انطلق سبعون مقاتلاً من المدائن وثلاثمائة من البصرة للالتحاق بالتوابين، غير انّهم وصلوا إليهم وقد هزموا.

بلا توخي الحذر والحيطة إلى أن جاءت ليلة الجمعـة الخامس من ربيع الثاني عام ٦٥ هجرية واتّقدت جـذوة الثورة، فانطلقوا تلك الليلة نحـو تربة الإمام الحسين الطاهـرة، فلمّا وصلوا إليهـا أطلقوا صيحة مـن الأعماق فقدوا فيهـا سيطرتهم على أنفسهم ومزجوها بهذه الكلمات:

اللّهم ارحم حسيناً الشهيد ابن الشهيد، المهدي ابن المهدي، الصدِّيق ابن الصدِّيق.

اللّهمّ إنّا نشهدك انّا على دينهم وسبيلهم وأعداء قاتليهم وأولياء محبيهم.

اللّهم إنّا خذلنا ابن بنت نبينا صلى الله عليه وآله وسلم واغفر لنا ما مضى منّا وتب علينا وارحم حسيناً وأصحـابه الشهداء الصديقين، وانّـا نشهدك انّا على دينهم وعلى مـا قتلوا عليه وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين.

وبعد انتهاء هذا المشهد المثير تركوا الضريح منطلقين نحو الشام، وواجهوا جيش الشاميين بقيادة عبيد الله بن زياد في أرض تسمى «عين الوردة» وهزموا بعد اقتتال شـديد دام ثلاثة أيّـام، واستشهد قادة الثـورة سوى «رفاعة»، فعـادت بقية القوات تحت قيادته إلى الكوفة وانضموا إلى حـركة المختار وأنصاره الذين نشطوا هناك.[1]

وبالـرغم من أنّ ثورة التـوابين لم تكن ذات أهداف اجتماعيـة وقضي عليها بسرعة، لكنّهـا تركـت تأثيراً كبيراً على أهالي الكـوفة وهيّأت الـرأي العام لمحـاربة الحكم الأموي.

١. مقتل الحسين، لأبي مخنف، ص ٢٤٨ـ ٣١٠؛ الكامل في التاريخ: ٤/ ١٥٨ـ ١٨٦.

٢. ثورة المختار

ثار المختار بن أبي عبيد الثقفي عام ستة وستين هجرية في العراق ليطلب بثأر الحسين من قاتليه، وكان قد اعتقل من قبل ابن زياد حينما دخل مسلم بن عقيل الكوفة وناصره وتعاون معه وأُطلق سراحه بشفاعة عبد الله بن عمر، زوج أُخته لدى يزيد بعد واقعة عاشوراء، وكان عبد الله بن الزبير في تلك الفترة قد ادّعى خلافة المسلمين لنفسه في مكة فانطلق المختار نحوه وانضم إليه.

وحينما بلغ المختار سنة أربع وستين هجرية وبعد خمسة أشهر من وفاة يزيد انّ أهل العراق مستعدين للثورة على الأمويين وعدم رغبتهم في دولة عبد الله بن الزبير انطلق باتجاه الكوفة وبدأ تحركاته.[1]

سبب فشل ابن الزبير في العراق

ولأجل أن نعرف السبب في التفاف العراقيين حول ابن الزبير في البداية ثمّ تخلّيهم عنه وإجابتهم لدعوة المختار بعد ذلك يجب أن نتنبه إلى أنّ المجتمع العراقي آنذاك كان يطالب بأمرين:

١. الإصلاحات الاجتماعية وحماية الموالي، وهم المسلمون غير العرب الذين اضطهدوا وظلموا في عهد الحكم الأموي.

٢. الثأر لبني هاشم من الأمويين

فبايع أهل العراق ابن الزبير على أصل تحقيق هذين الأمرين لهم، لأنّه كما

---

١. الكامل في اللغة والأدب:٢/ ١١٢ـ ١١٦؛ مقتل الخوارزمي:٢/ ٢٠٢. وقد كان التوابون في تلك الفترة منشغلين بتعبئة قواتهم و إعداد العدّة، ولكن المختار كان يقول:إنّ سليمان ليس له بصر بالحرب وسيمنى بالهزيمة.

كان عدواً للأمويين كان يتظاهر بالصلاح والـزهد والرغبة عن الدنيا، غير انّه قد ثبت فعلاً انّ حكم ابن الزبير لا يختلف عن الحكم الأموي كثيراً.

صحيح انّه خلّص العراق من سيطـرة الأمويين غير انّه أبقىٰ على المجرمين والقتلة الخطيرين، أمثال الشمر بن ذي الجوشن وشبث بن ربعي وعمرو بن الحجاج الذين كان لهم دور بارز في مأساة كربـلاء و قتل الحسين، بل فعل أكثر من ذلك فقد قرّبهم إلى سلطته، كما أنّه لم يحقق أمنيـة العراقيين في تطبيق العدالة أيضاً، لأنّ الموالي كانـوا على حالهم مـن الحرمان كما كانـوا في عهد الحكـم الأموي، وكـانت السيطـرة والإمكانيـات محصـورة في يد رؤسـاء القبائل وشيـوخها، ولذلـك تخلّى العراقيون عنه و التفوا حول المختار، إذ لم يحقّق ابن الزبير أهدافهم المنشودة.

ربط المختار دعوته بمحمد بن الحنفية بن أمير المؤمنين وبدا انّه أرسـل من قبله ممّا جعل الناس يطمأنّون إلى حركته، وجعل شعاره: يا لثارات الحسين، فبعث ذلك الأمل في العراقيين لتحقيق أهدافهم.

وقد دافع المختـار عن الموالي بعـد استلامـه السلطـة، و خطا خطـوات في ضمان حقوقهـم الاجتماعية، فـأثار ذلك وجهـاء ورؤساء القبـائل العربيـة ضدّه، فأخذوا يشكّلون الاجتماعات ويخطّطون للنيل منه واستعدوا وبمساندة قوات عبد الله بن الزبير لمحـاربته، وقد كان قتلـة الحسين في مقدمة هؤلاء، وكفـى هذا الأمر وحده في جعل الثوريين أكثر صموداً ومضياً في الوصول إلى النصر.

فاقتفى المختـار أثر قتلة الإمام الحسين بإمعان، وقضـى عليهم وقتلهم شر قتلـة، حتى قتـل منهم مـائتين وثمانين شخصـاً في يوم واحـد، وهدم دور بعـض قادتهم المجرمين الـذين لاذوا بالفرار، وكـان من بينها دار محمد بـن الأشعث فقد هدمها و بنـى بلبنها وطينها دار حجر بـن عدي الشهيد الكندي وصـاحب علي

المخلص الذي هدم داره زياد بن أبيه.[١]

سقوط الحكم الأموي

إنّما بحثنا بحثاً إجمالياً حول ثورة التوابين والمختار، لأجل انّ هاتين الثورتين التاريخيتين قد حدثتا بعد فترة قليلة من استشهاد الإمام الحسين، وإلاّ فهناك العديد من الثورات التي انبعثت مستلهمة من ثورة الإمام ولا تنحصر فيما ذكر، فقد حدثت عدة ثورات في السنوات التالية كانت أكبرها ثورة العباسيين التي نجحت عام ١٣٢هـ وقضت على الحكم الأموي، و قد كان أحد الأسباب لانتصار العباسيين في ثورتهم هذه هو التعريف والتشهير بظلم الأمويين لبني هاشم و مظلوميتهم، وكان للتذكير بمأساة استشهاد الإمام الحسين التأثير الأعظم في استثارة غضب الناس على الحكم الأموي.

وراح أحد الكتاب المعاصرين من مصر، يقول:

> أنّني أرى ــ وهذا رأي خاص ــ انّ الحسين انتصر على المدى البعيد، فهو وإن لم يظفر بمراده في معركة حربية ومواجهة عسكرية إلاّ أنّ نيله الشهادة في ذاته كان انتصاراً لله. ثـمّ إنّه زرع بذور الحيلة والحقد والسخيمة في قلوب الناس جميعاً نحو بني أُميّة، ولا يخامرني شكّ في انّ الحسين انتصر على المدى البعيد، وكان استشهاده سبباً مباشراً في زلزلة عرش دولة الأمويين، مع انصباب جام اللعنات والسخطات عليهم من جراء هذه الجريمة البشعة.[٢]

---

١. الكامل في التاريخ: ٤/ ٢١١ ـ ٢٤٤.

٢. مقتل الحسين عليه السلام (مقتبس من تاريخ الطبري)؛ آراء ونظريات ابن تيمية حول مرقد رأس الحسين الواقع في مدينة القاهرة، والمقدمة للدكتور السيد الجميلي، ٢٣.

وثمة سند تاريخي آخر في هذا الصدد يدلّ على أنّ استشهاد الإمام الحسين عليه السلام قد ألحق عاراً أبدياً بقتلة الحسين عليه السلام وأعقابهم على المدى البعيد، مازال شاخصاً في صفحات التاريخ دون أن يمحىٰ على الرغم من مرور عقود طويلة من الزمن. وهذا السند يشير إلى جانب من جوانب سيرة القاضي شريك بن عبد الله حفيد سنان بن أنس[١] أحد القتلة الأوغاد الذين شاركوا في مأساة كربلاء.

فقد كتب الخطيب البغدادي بعد أن تناول سيرته يقول:

> قدم شريك [بن عبد الله القاضي] البصرة، فأبىٰ أن يحدثهم، فاتّبعوه حين خرج، وجعلوا يرجمونه بالحجارة في السفينة، ويقولون: يابن قاتل الحسين.[٢]

وعلى أية حال، فبعد الإشارة إلى هذين السندين تتضح أهمية القضية التالية:

أوّلاً: انّ البصرة بعد مقتل عثمان وحرب الجمل أضحت معقلاً للعثمانية التي كانت تحمل حقداً وضغناً لأهل البيت عليهم السلام وتكنّ ولاءً لنبي أُميّة.

ثانياً: الحقبة الطويلة التي كانت تفصل بين استشهاد الحسين عليه السلام وسفر القاضي(٩٥ـ١٧٧) إلى البصرة.[٣]

وقد كتب المؤرّخون: ولمّا أتى أبو العباس ـ أوّل خليفة عباسي ـ برأس مروان سجد فأطال ثمّ رفع رأسه و قال ـ مخاطباً الرأس ـ :

---

١. ميزان الاعتدال: ٢/ ٢٧٠؛ معجم رجال الحديث: ١٠/ ٢٧.

٢. تاريخ بغداد: ٩/ ٢٩٣.

٣. ميزان الاعتدال: ٢/ ٢٧٣ـ٢٧٤.

الحمد لله الذي لم يبق ثارنا قبلك وقبل رهطك، الحمد لله الذي أظفرنا بك وأظهرنا عليك، ما أبالي متى طرقني الموت وقد قتلت بالحسين ألفين من بني أُمية...[1]

وحينما ألقى بجثث زعماء بني أمية بين يديه (أبو العباس السفاح)، و لم يزل بها رمق دعا بالغذاء وأمر ببساط فبسط عليهم، وجلس فوقهم يأكل وهم يضطربون تحته، فلمّا فرغ قال: ما أعلم أنّي أكلت أكلة قط كانت أطيب ولا أهنأ في نفسي من هذه ثمّ قال: جرّوهم بأرجلهم وألقوهم في الطريق ليلعنهم الناس أمواتاً كما لعنوهم أحياءً.

ولم تمض فترة طويلة حتى رأى الناس الكلاب تجرهم بأرجلهم وعليهم سراويلات الوشي.[2]

---

١. شرح نهج البلاغة: ٧/ ١٣٠، و قد نقل المسعودي ذلك أيضاً في مروج الذهب: ٣/ ٢٥٧، ولكنّه ذكر مائتين بدل الألفين.

٢. شرح النهج: ٧/ ١٣٩، ابن أبي الحديد.

الإمام علي بن الحسين

زين العابدين عليه السلام

* حامل لواء ثورة كربلاء في عصر الإرهاب.
* لماذا لم يثر الإمام؟
* جهاد الإمام على أكثر من صعيد.
* الصحيفة السجادية كنز من العلوم والمعارف.
* ملاذ المساكين.
* المركز التربوي.

نبذة مختصرة عن حياة الإمام عليه السلام

هو ابن الحسين بن علي ثالث أئمّة الشيعة في العالم، وأُمّه شهربانويه.[1]

وأشهر ألقابه: زين العابدين، والسجاد.

ولد الإمام السجاد سنة ثمانية وثلاثين للهجرة[2]، و قضى طفولته في المدينة، وأدرك سنتين من خلافة جدّه أمير المؤمنين عليه السلام ، وعاصر بعدها فترة عشرة أعوام من إمامة عمّه الحسن المجتبى التي تولى الخلافة الإسلامية لستة أشهر منها فقط، وبعد استشهاد عمّه سنة ٥٠هـ عاش إلى جانب أبيه مدّة عشر سنوات من إمامته وهو يجاهد معاوية الذي كان في قمة قوته.

---

١. أُصول الكافي:١/ ٤٦٧؛ الارشاد، ص ٢٥٣؛ اعلام الورىٰ، ص ٢٥٦؛ تاريخ قم، حسن القمي، ص ١٩٦؛ كشف الغمة:٢/ ٢٨٦، وقد اختلف المؤرخون كثيراً حول اسم أمّ الإمام الرابع وذكروا لها مضافاً إلى شهربانويه اثني عشر اسماً مثل: شاه زنان ، جهان شاه، شهرناز، جهان بانويه، خوله، سلافة و... وللمزيد يراجع: زندگانى على بن الحسين، الدكتور جعفر الشهيدي، ص ٢٧-٢٩، و كتاب رى باستان، الدكتور حسين كريمان:١/ ٤٠٣ـ ٤١٦، و قد ذكر بمناسبة البحث حول مقبرة بي بي شهربانو التي اشتهرت بين العامة على أنّها مدفن شهربانويه زوجة الإمام الحسين، عدة آراء حول اسمها ورفض انتساب هذه المقبرة إليها.

٢. الإرشاد، ص ٢٥٣؛ تاج المواليد، الطبرسي، ضمن المجموعة النفيسة، ص ١١٢؛ مسار الشيعة، المفيد ضمن تلك المجموعة أيضاً، ص ٦٧؛ دلائل الإمامة، الطبري، ص ٨٠؛ أُصول الكافي:١/ ٤٦٦؛ تذكرة الخواص، ص ٣٢٤؛ إثبات الوصية، ص ١٦٧؛ روضة الواعظين، ص ٢٢٦؛ اعلام الورى، ص ٢٥٦؛ تاريخ الأئمّة، البغدادي، ص٩، و قد قال بعض المؤرّخين: إنّ ولادته كانت عام ٣٦ أو ٣٧.

وحضر عام ٦١ هـ أحداث ثورة أبيه الحسين واستشهاده في كربلاء.

تولى الإمامة بعد تلك النكبة وأُخذ أسيراً مع أسرى المخيم الحسيني إلى الكوفة والشام.

وقد كان خلال هذه الرحلة هو الذي يتولى رعاية الأسرى ويتفقدهم، وهو الملاذ الذي يلوذون به في محنتهم، وقد فضح خلال هذه الفترة الحكم اليزيدي بخطبه الساخنة، واختار الإقامة بعد عودته من الشام في المدينة، وعاش فيها حتى استشهد عام ٩٤ أو ٩٥هـ. و دفن في مقبرة البقيع المعروفة بجانب عمّه الإمام الحسن.

الخلفاء المعاصرون للإمام

عاصر الإمام علي بن الحسين (عليهما السلام) ستة من الحكام وهم:

١. **يزيد بن معاوية ـ (٦١ـ ٦٤).**[١]

٢. **عبد الله بن الزبير ـ (٦١ـ ٧٣).**[٢]

٣. **معاوية بن يزيد (بضعة شهور من عام ٦٤).**

---

١. تشير الأعداد التي بين القوسين إلى فترة حكم الخلفاء في عهد الإمام السجّاد.

٢. كان عبد الله بن الزبير من أُولئك الذين لم يبايعوا يزيد، فقد هرب إلى مكة بعد موت معاوية وقبل انطلاق الإمام الحسين بقليل. ونشط سياسياً هناك . وبعد استشهاد الإمام الحسين ولعدم وجود من ينافسه هناك حصل على بعض الأنصار وادّعى لنفسه الخلافة، ولم يتمكن يزيد حتى أواخر حكمه من القضاء عليه، وظل رافعاً راية خلافته حتى عام ٧٣. وقد أخضع عبد الله الحجاز والعراق ومصر وبعضاً من الشرق الإسلامي لحكمه، وانحصر حكم الأمويين داخل حدود الشام وبعض المناطق. فقد كان يحكم من عام ٦١ إلى ٧٣ خليفتان في منطقتين من العالم الإسلامي، ولكن خضعت جميع البلاد الإسلامية بعد هزيمة عبد الله على يد قوات عبد الملك عام ٧٣ لحكم المروانيين فعادت إلى الشام مركزيّتها مرّة أُخرى.

٤. مروان بن الحكم ـ (تسعة أشهر من عام ٦٥).
٥. عبد الملك بن مروان ـ (٦٥ـ ٨٦).
٦. الوليد بن عبد الملك ـ (٨٦ـ ٩٦).

مرض الإمام مصلحة ربانية

حينما يذكر كثير من الناس الجهلاء الإمام الرابع يصفونه ـ و للأسف الشديد ـ بالإمام المريض و يتصوّرونه بعد إسباغ هذه الصفة عليه شخصاً معذباً عاجزاً ذا وجه ممتقع شاحب ونفسية متشائمة، في حين انّ الواقع غير ذلك، لأنّه كان مريضاً في كربلاء فقط و لمدة قصيرة وتحسّنت صحته بعدها، وأصبح يتمتع بصحة جسمية فترة حوالي ٣٥ عاماً مثل بقية الأئمّة.

ولا شكّ انّ في مرضه المؤقت في تلك الأحداث مصلحة ربانية ليكون معذوراً من الجهاد[١]، و يصان وجوده المقدس من خطر القتل على يد جلاوزة يزيد وبذلك تستمر سلسلة الإمامة. ولو لم يمرض الإمام لوجب عليه المشاركة في جهاد اليزيديين، وحينئذٍ يصبح شهيداً مثل إخوته وأصحاب أبيه فتنطفئ شعلة الهداية بذلك.

قال السبط ابن الجوزي: وتركوا علي بن الحسين لمرضه.[٢]

وقال محمد بن سعد: كان علي بن الحسين مع أبيه وهو ابن أربع وعشرين سنة ولا يصح ما قيل انّه كان صغيراً لم ينبت، بل قعد به المرض عن القتال.[٣]

وأضاف: ثمّ انتهى الشمر بعد قتل الحسين بن علي إلى علي بن الحسين وهو

١. إثبات الوصية، المسعودي، ص ١٦٧؛ تذكرة الخواص، ص ٣٢٤.
٢. تذكرة الخواص، ٣٢٤؛ شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي: ١/ ١٠٥.
٣. الطبقات الكبرى: ٥/ ٢٢١.

منبسط على فراش وهو شديد المرض فقال الشمر: اقتلوه، فقال بعض من معه: سبحان الله أنقتل غلاماً مريضاً لم يقاتل؟

وجاء عمر بن سعد فقال: لا تعرضوا لهؤلاء النساء، ولا تتعرّضوا لهذا المريض.[١]

وكتب الشيخ المفيد نقلاً عن حميد بن مسلم أحد جنود جيش يزيد: ثمّ انتهينا إلى علي بن الحسين وهو منبسط على فراش، وهو شديد المرض، ومع شمر جماعة من الرجالة، فقالوا له: ألا تقتل هذا العليل؟ فقلت: سبحان الله أيقتل الصبيان[٢] إنّما هذا صبي وانّه لما به، فلم أزل حتى دفعتهم عنه، وجاء عمر بن سعد فصاح النساء في وجهه وبكين، فقال لأصحابه: لا يدخل أحد منكم بيوت هؤلاء، ولا تتعرّضوا لهذا الغلام.[٣]

وكما لاحظنا كان مرض الإمام الرابع مصلحة ربانية أوجبت المحافظة والإبقاء على حياته ولم يكن عجزاً نفسياً وضعفاً أمام الأعداء على الإطلاق، ولم يكن الإمام في ظروف الأسر المؤلمة والمريرة ملاذاً للأسرى وصدراً دافئاً للقلوب المعذبة فقط، بل كان يواجه الأعداء بكلّ شجاعة وشهامة، وخير دليل على ذلك خطبه وحواراته الساخنة مع الأعداء في الكوفة والشام كما حدث من غضب ابن زياد وأمره بقتل الإمام إثر الحوار الحاد الذي دار بينهما في قصره، ولكنّه عليه السلام أجاب: «أبالقتل تهددني، أما علمت أنّ القتل لنا عادة وكرامتنا الشهادة».[٤]

---

١. الطبقات الكبرى:٥/ ٢١٢؛ البداية والنهاية:٩/ ١٠٤.
٢. ولعلّ حميد بن مسلم نعت الإمام بالضعف والصبي لإثارة شفقتهم وعطفهم، أو انّه نسب هذا إلى نفسه حتى يقلّل من عظم ذنبه لدى الشيعة.
٣. الإرشاد، ص ٢٤٢؛ تاريخ الطبري:٦/ ٢٦٠؛ مقتل الحسين، الخوارزمي:٢/ ٣٨.
٤. مقتل الخوارزمي:٢/ ٤٣.

حامل لواء التعريف بثورة كربلاء

وكما أشرنا كان الإمام السجاد حاضراً في نكبة كربلاء وأصبح بعد استشهاد أبيه الحسين عليه السلام سيد البيت الحسيني وحامل لواء التعريف بثورة الدم والشهادة، وأخذ يفضح بخطبه وحواراته الحكم الأموي الخبيث ويبث الوعي بين الناس، وإذا أخذنا الحملة الإعلامية المضلّلة التي قام بها الحكم الأموي على نطاق واسع منذ عهد معاوية فصاعداً ضد البيت النبوي في العالم الإسلامي والشام خاصة بعين الاعتبار، فلن يبقى هناك شكّ في أنّه لو لم يمارس المتبقون من آل الحسين دورهم في فضح الجهاز الحاكم وتوعية الرأي العام، لحاول أعداء الإسلام ومرتزقتهم أن يشوّهوا ثورة الحسين العظيمة ويحرفوا مبادئها التي انطلقت لأجلها في التاريخ، غير انّ حملة الإمام السجاد الإعلامية وبقية أهل البيت في فترة الأسر وحينما فسحت غباوة يزيد وأحقاده المجال لهم، لم تسمح لحدوث هذاالتشويه والتحريف على يد أعداء أبيه عليه السلام وراح يدق على ناقوس فضيحة يزيد وأعوانه.

وحيث كنا قد أشرنا إلى الحرب الإعلامية التي شنّها الإمام السجاد في سيرة الإمام الحسين بالتفصيل نكتفي هنا بهذا المقدار.

عصر القمع والإرهاب

وطبقاً للتقسيم الرباعي الذي قسّمنا الإمامة مرحلياً على أساسه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ و هو ما وضحناه في سيرة أمير المؤمنين ـ تكون حياة الإمام السجاد في المرحلة الرابعة منها وهي:

١. مرحلة اليأس من الانتصار عن طريق الكفاح العسكري.

٢. المحاولات والجهود البنّاءة على أمل إيجاد حكم إسلامي بيد أهل البيت على

المدى البعيد.

٣. إعداد الأرضية اللازمة للوصول إلى هذاالهدف من خلال المشاريع الثقافية وتربية الطاقات المطلوبة.

٤. التعريف بالفكر الإسلامي الأصيل والكشف عن الانحرافات والأفكار المنحرفة.

وتوضيح ذلك: هو انّ مأساة عاشوراء المؤلمة أنزلت ضربة مدمرة على الحركة الشيعية حيث بمجرد ان ذاع خبرها في أصقاع العالم الإسلامي في تلك الفترة ساد الأوساط الشيعية في العراق والحجاز خاصة رعب وخوف كبير، لأنّه أصبح متيقناً انّ يزيد الذي كان مستعداً لقتل ابن رسول الله مع ماله من منزلة وتقدير وقداسة في العالم الإسلامي وأسر نسائه وأطفاله لتوطيد حكمه، فهو لعلى استعداد أن يرتكب أية جريمة للحفاظ عليه.[1]

إنّ الرعب والإرهاب الذي تجلّت آثاره في الكوفة والبصرة والمدينة قد استفحلا بحدوث واقعة الحرة وقد قمعت انتفاضة أهل المدينة بقسوة كبيرة على يد جلاوزة يزيد عام ٦٣ هـ وساد المناطق التي يقطنها أهل البيت وشيعتهم كالمدينة في الحجاز والكوفة في العراق جو من الرعب والإرهاب، فضعفت الحركة الشيعية التي كانت تعد من أعداء البيت الأموي وأُصيبت بنوع من الفتور واختل وتلاشى تنظيمها.

وفي إشارة إلى هذه الأجواء قال الإمام السجاد عليه السلام: **«ما بمكة والمدينة عشرون رجلاً يحبنا»**.[2]

---

١. كان أسر النساء والأطفال وتسيير الرؤوس في المدن هو لأجل إلقاء الرعب في نفوس المعارضين.

٢. بحار الأنوار:٤٦/ ١٤٣؛ شرح نهج البلاغة:٤/ ١٠٤.

وصرح المؤرخ الشهير المسعودي: قام أبو محمد علي بن الحسين بالأمر مستخفياً على تقية شديدة في زمان صعب.[١]

وقال الإمام الصادق عليه السلام راسماً لهذه الأوضاع المريرة والمأساوية :«ارتد الناس بعد الحسين إلاّ ثلاثة: أبو خالد الكابلي، ويحيى بن أُم الطويل، و جبير بن مطعم».[٢]

ثمّ إنّ الناس لحقوا وكثروا وجاء يحيى بن أُمّ الطويل مسجد النبي في المدينة فنادى بالناس و قال: كفرنا بكم وبدا بيننا و بينكم العداوة والبغضاء أبداً.[٣]

ومن الواضح انّ اتخاذ هذا النوع من المواقف الصريحة الواضحة في تلك الظروف لا يبدر إلاّ من القلة القليلة من الشخصيات المضحية المتفانية مثل يحيى بن أُم الطويل الذي أعدّ نفسه لتحمل كلّ نتائجها الخطيرة، ولذلك قطع الحجاج يديه ورجليه بذنب حبه وتشيّعه لأمير المؤمنين.[٤]

وقال الفضل بن شاذان ـ أحد أبرز العلماء والمحدّثين الشيعة في أواسط

---

١. إثبات الوصية، ص ١٦٧.

٢. وعلى رأي الباحث الكبير الشيخ محمد تقي التستري فانّ الصحيح هو حكيم بن جبير بن مطعم بدل جبير بن مطعم؛ قاموس الرجال:٩/ ٣٩٩، ومحمد بن جبير كما في حديث ابن شاذان الذي سيأتي قريباً.

٣. الاختصاص، المفيد، ص ٦٤؛ البحار:٤٦/ ١٤٤؛ اختيار معرفة الرجال، ص ١٢٣، وقد نقل في هذا الكتاب رواية أُخرى أُضيف فيها اسم جابر بن عبد الله الأنصاري أيضاً إلى الثلاثة المذكورين آنفاً. هذا والقسم الأخير من كلام يحيى بن أُمّ الطويل هو من كلام إبراهيم عليه السلام وشيعته يخاطبون به الوثنيين في عصرهم كما ينقل القرآن الكريم: ﴿كَفَرنا بِكُمْ بدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده﴾ (الممتحنة:٤). وكان يحيى لا يقول هذا الكلام في الحجاز فقط، بل كان يلقيه في العراق ـ الكوفة ـ أيضاً فكان يتبرّأ من المروانييّن واللاعنين علياً صراحة، ويوصي الشيعة بالابتعاد عن أعداء علي. أُصول الكافي:٢/ ٣٧٩.

٤. اختيار معرفة الرجال، ص ١٢٣.

القرن الثالث الهجري ومن تلامذة الإمام الجواد والهادي والعسكري عليهم السلام ـ :ولم يكن في زمن علي بن الحسين في أوّل أمره إلاّ خمسة أنفس: **سعيد بن جبير، سعيد بن المسيب، محمد بن جبير بن مطعم، يحيى بن أُمّ الطويل، أبو خالد الكابلي.**[١]

حكومة عبد الملك السوداء

تزامن عهد الإمام السجاد عليه السلام مع أحلك فترات الحكم الأموي في تاريخ الإسلام، ومع أنّ الحكم الذي سبقه كان حكماً إسلامياً منحرفاً انتهى به الأمر إلى الاستبداد، غير انّ هناك ميزة تميز بها عصر السجاد عن الأزمنة الماضية، وهي انّ الحكام فيه ينتهكون حرمة المقدسات الإسلامية علانية دون تحفظ ،ويدوسون على المبادئ الإسلامية بأرجلهم بشكل سافر، ولم يكن لأحد الشجاعة في الاعتراض عليهم.

وأكثر ما تزامنت إمامة السجاد مع عهد حكم عبد الملك بن مروان الذي دام واحداً وعشرين عاماً، وقد قال عنه المؤرخون: إنّه كان عاقلاً حازماً أديباً لبيباًعالماً.[٢]

و قال صاحب الفخري: كان عبد الملك لبيباً، عاقلاً عالماً، ملكاً جباراً، قوي الهيبة، شديد السياسة، حسن التدبير للدنيا.[٣]

وكتب هندوشاه: كان رجلاً عاقلاً عالماً، فصيحاً فقيهاً، له معرفة بالأخبار ولطائف الشعر، حسن التدبير.[٤]

وقد كان عبد الملك قبل الخلافة أحد فقهاء [٥] المدينة، وكان مشهوراً بالزهد

---

١. نفس المصدر ص ١١٥.
٢. الكامل في التاريخ:٤/ ٥٢٠.
٣. الفخري، ص ١٢٢ـ ١٢٤.
٤. تجارب السلف، ص ٧٥.
٥. الفخري، ص ١٢٢؛ تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص ٢١٦.

والعبادة والورع، وكان يسمّى حمامة المسجد لمداومته تلاوة القرآن[1]، فلمّا مات أبوه وبُشّر بالخلافة أطبق المصحف وقال: **هذا فراق بيني و بينك وهذا آخر العهد بك.**[2]

إنّه فارق القرآن حقاً، وقد انمسخت شخصيته جرّاء غروره بقوته وقدرته لدرجة جعلت المؤرّخين يذكرون صحيفة أعماله السوداء بمرارة، فقد كتب السيوطي وابن الأثير: وهو أوّل من غدر في الإسلام، وأوّل من نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء ـ و قد قتل عمرو بن سعيد بن العاص بعد منحه الأمان ـ و أوّل من نهى عن الأمر بالمعروف.[3]

وبعد سنتين من انتصاره على عبد الله بن الزبير في مكة عام ٧٥هـ وخلال سفرة حجه بالناس خطب عبد الملك بالمدينة وقال: فإنّي لست بالخليفة المستضعف ـ يعني عثمان ـ و لا بالخليفة المداهن ـ معاوية ـ و لا بالخليفة المأفون ـ يزيد ـ ألا و إنيّ لا أُداوي هذه الأُمّة إلاّ بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم، وانكم تكلّفوننا أعمال المهاجرين الأوّلين ولا تعملون أعمالهم، وانّكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون ذلك من أنفسكم، والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلاّ ضربت عنقه.[4]

وقال العبارة الأخيرة، لأنّ الخطباء وأئمّة صلاة الجمعة كانوا يبدأون

١. تجارب السلف، ص ٧٦.
٢. تاريخ الخلفاء، ص ٢١٧؛ الفخري، ص ١٢٢؛ الكامل في اللغة، المبرد:٢/ ١٩٢؛ تجارب السلف، ص ٧٦، تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان:٤/ ١٠٠.
٣. تاريخ الخلفاء، ص ٢١٨؛ الكامل في التاريخ:٤/ ٥٢٢، وقد كان معاوية يقوم ببعض هذه الأعمال في السابق أيضاً.
٤. تاريخ الخلفاء:٢١٨؛ زندگانى على بن الحسين، الشهيدي، ص ٩٨؛ تاريخ اليعقوبي:٣/ ٢٠؛ تاريخ التمدن الإسلامي:٤/ ٩٩.

خطبتهم بجملة : **اتق الله.**[١]

ومن الواضح حينما يتحدث من يدعو نفسه خليفة للرسول ﷺ في مدينته وبجانب ضريحه بهذا الكلام ويهاجم سنّته، فإنّه يتضح حال سلوك عماله وولاته وأعمالهم وكلامهم في باقي الولايات النائية، وقد اعتاد عبد الملك في حكمه الطويل على الظلم والانحراف والفساد والإرهاب حتى انطفأ نور الإيمان في قلبه إلى الأبد، وقد اعترف هو بنفسه بهذه الحقيقة يوماً، و قال لسعيد بن المسيب: صرت اعمل الخير فلا أُسرّبه وأصنع الشر فلا أُساء به؛ فقال سعيد: **الآن تكامل فيك موت القلب.**[٢]

وكان عبد الملك كثيراً ما يجلس إلى أم الدرداء فقالت له مرة :بلغني يا أمير المؤمنين انّك شربت الطلاء بعد النسك والعبادة؟! قال: **أي والله والدماء قد شربتها.**[٣]

وهو الذي كان يتعوذ بالله حينما جهز يزيد جيشاً إلى مكة للقضاء على عبد الله بن الزبير ويتقزّز من ذلك، راح بعد تقلّده الخلافة غير مكتفٍ بهذه الأعمال يرسل رجلاً سفّاكاً كالحجاج لضرب الكعبة بالمنجنيق للقضاء على عبد الله بن الزبير فيها.[٤]

الولاة الطغاة

وقد أحدث ولاة عبد الملك وعماله في البلدان الإسلامية المتعددة ومشياً على هديه سلطة الرعب والإرهاب، وكانوا يعاملون الرعية معاملة همجية ويقمعونهم.

١. زندگانی علی بن الحسین، ص ٩٨.
٢. الفخري، ص ١٢٢؛ الكامل في التاريخ:٤/ ٥٢١؛ تجارب السلف، ص ٧٦.
٣.تاريخ الخلفاء:٢١٦.
٤. تاريخ الخلفاء، ص ٢١٧؛ تجارب السلف، ص ٧٦.

كتب المسعودي: وكان له ـ عبد الملك ـ إقدام على الدماء، وكان عماله على مثل مذهبه، كالحجاج بالعراق، والمهلب بخراسان، وهشام بن إسماعيل بالمدينة.[١]

وكان هشام هذا وعامله على المدينة قاسياً مع الناس وساءت سيرته، وأظهر العداوة لآل الرسول، وبلغ حداً في ذلك جعل الوليد بن عبد الملك يعزله عنها بعد موت أبيه.[٢]

و كان الأسوأ من الجميع هو الحجاج الذي بلغت جرائمه في الإسلام قمة الشهرة، وقد ولّاه عبد الملك بعد القضاء على ابن الزبير كلاًمن مكة والمدينة والطائف لمدة سنتين.[٣] وختم الحجاج أعناق قوم من أصحاب رسول الله ليذلّهم بذلك، منهم: جابر بن عبد الله الأنصاري، أنس بن مالك، سهل بن سعد الساعدي، وجماعة معهم، وذلك تحت ذريعة انّهم من قتلة عثمان[٤].

وقال لما ترك المدينة: الحمد لله الذي أخرجني من أمّ نتن، أهلها أخبث بلد وأغشّه لأميرالمؤمنين وأحسدهم له على نعمة الله، والله لو ما كانت تأتيني كتب أمير المؤمنين فيهم، لجعلتها مثل جوف الحمار أعواداً يعودون بها، ورمّة قد بليت، يقولون: منبر رسول الله و قبر رسول الله.[٥]

١. مروج الذهب:٣/ ٩١.
٢. تاريخ اليعقوبي:٣/ ٢٧ـ٢٩؛ الطبقات الكبرى: ٥/ ٢٢٠.
٣. الإمامة والسياسة:٢/ ٣١.
٤. تاريخ اليعقوبي:٣/ ١٨. قال ابن الأثير وقد ختم أيديهم كما يفعل بأهل الذمة؛ الكامل في التاريخ:٤/ ٣٥٩.
٥. الكامل في التاريخ:٤/ ٣٥٩؛ تاريخ تحليلي إسلام، الشهيدي، ص ١٨٢، نقلاً عن مشكاة الأدب. وأنا اعتذر من ساحة الرسول المقدسة لنقل هذا الكلام المخجل هنا، وقد كان ذلك للضرورة ولاطّلاع الآخرين على حقيقة الحكم الأموي الخبيث.

الحجاج في العراق

وبعد ان أخضع الحجاج مكة والمدينة ،علم عبد الملك بأنّ العراقيين يناسبهم شخص كالحجاج يقمعهم ويسيطر عليهم، ولهذا ولّاه عام ٧٥ العراق ـ الكوفة والبصرة ـ وعندما جاء الكوفة لم يتصرف كما هو المعهود لدى الأُمراء، فقدمها وصعد المنبر متلّثماً بعمامته متنكباً قوسه وكنانته، فجلس على المنبر ملياً لايتكلم.

وأخذ الناس يتهامسون من هذا؟ فقال أحدهم: لنحصبه؟ فقالوا: لا أصبرحتى نسمع ما يقول؟

وما أن ساد الصمت أجواء المسجد أماط الحجاج اللثام عن وجهه وقال: والله إنّي أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وانّي لصاحبها، كأنّي أنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم واللحىٰ. ثمّ استمر في تهديده وأرعب الناس رعباً شديداً حتى الحصباء التي جمعها رجل ليحصبه بها تناثرت من يده دون أن يشعر! [١]

وقد كان دخول الحجاج البصرة بنفس الطريقة التي دخل بها الكوفة وقد وصف ابن قتيبة ذلك: توجّه الحجاج ومعه ألفا رجل من مقاتلة الشام و جملتهم آلاف من أخلاط الناس، وتقدّم بألفي رجل وتحرّى دخول البصرة يوم الجمعة في حين أوان الصلاة، فلمّا دنا من البصرة أمرهم أن يتفرقوا على أبواب المسجد، على كلّ باب مائة رجل بأسيافهم تحت أرديتهم، وعهد إليهم ان إذا سمعتم الجلبة في داخل المسجد والوقيعة فيهم، فلا يخرجن خارج من باب المسجد حتى يسبقه رأسه إلى الأرض. فجلس رجاله على أبواب المسجد ينتظرون، ودخل الحجاج و

---

١. الكامل في اللغة والأدب، المبرد: ١/ ٣١١؛ الكامل في التاريخ: ٤/ ٣٧٥؛ مروج الذهب: ٣/ ١٢٧؛ تاريخ اليعقوبي: ٣/ ١٩؛ تاريخ تحليلى إسلام، ص ١٨٤؛ الفتوح: ٧/ ٦ اعثم الكوفي.

بين يديه مائة رجل كلّ منهم مرتد بردائه وسيفه تحت ردائه، فدخل المسجد وقد أخفى هو أيضاً سيفه تحت ردائه، وقد قال لجماعته: إنّي إذا دخلت المسجد فسألكم في خطبتي وسيحصبوني، فإذا رأيتموني قد وضعت عمامتي على ركبتي فضعوا أسيافكم وامتشقوها.

فصعد المنبر حينما حان وقت الصلاة وخطب فقال: إنّ أمير المؤمنين عبد الملك قد ولاّني مصركم وقسيمة فيئكم، وأمرني بإنصاف مظلومكم، وإمضاء الحكم على ظالمكم، وصرف الثواب إلى المجلس البريء والعقاب إلى العاصي ... وأنّه قلّدني بسيفين حين توليته إياي عليكم: سيف رحمة وسيف عذاب نقمة، فأمّا سيف الرحمة فسقط مني في الطريق، وأمّا سيف النقمة فهو هذا.

فحصبه الناس، فلماّ أكثروا عليه خلع عمامته فوضعها على ركبتيه، فجعلت السيوف تبري الرقاب. فلمّا سمع الخارجون الكائنون على الأبواب وقيعة الداخلين، ورأوا تسارع الناس إلى الخروج تلقوهم بالسيوف فاردعوا الناس إلى جوف المسجد، ولم يتركوا خارجاً يخرج، فقتل منهم بضعة وسبعين ألفاً حتى سالت الدماء إلى باب المسجد وإلى السكك.[1]

وهكذا خلق الحجاج من العراق مسرحاً للرعب والقمع والإرهاب، وقد قتل الكثير من الناس الأتقياء والناسكين والأبرياء، وبلغ الرعب الذي أوجده في النفوس مبلغاً ليشمل مناطق خوزستان والشرق بجميع أرجائه.

موجة من القتل والإرهاب

كتب المسعودي المؤرخ الشهير: وكان تأمّره على الناس عشرين سنة، وأُحصي

١. الإمامة والسياسة، ابن قتيبة:٢/ ٣٠.

من قتله صبراً سوى من قتل في عساكره وحروبه فوجد مائة وعشرين ألفاً، ومات وفي حبسه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة منهن ستة عشر ألفاً مجردة، وكان يحبس النساء والرجال في موضع واحد، ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من الشمس في الصيف ولا من المطر والبرد في الشتاء.(١)

الجوانب المضيئة والمظلمة في صحيفة أعمال الوليد بن عبد الملك

تقلّد الوليد الخلافة بعد موت أبيه عبد الملك، وقد أثنى عليه بعض المؤرّخين وفضّلوه على أبيه وجده مروان وكثير من حكّام بني أُميّة، ذلك انّه لم يقم أي واحد من الحكام الأمويين بمثل ما قام به عمر بن عبد العزيز من الأعمال الإصلاحية والإنسانية، وقد قام أبّان حكمه ببناء الجوامع وترميم المساجد وتوسيعها، وحثّ ولاته على ذلك وشجعهم، ويقول المؤرخون:

وبنى الوليد المسجد الجامع بدمشق، ووسّع مسجد النبي والمسجد الأقصى، وأمر ببناء المساجد في كلّ مكان خلا ممّا يصلّى فيه، وبنى الثغور والقلاع على الحدود لحماية البلاد الإسلامية، وأحدث الطرق، وحفر الآبار في أرجاء البلاد، وأسّس المدارس والمستشفيات، وألغى الصدقات، وأجرى على العميان والمساكين والمقعدين الأرزاق، وعمل دوراً للعميان والمساكين والمجذومين، ووظّف الأطباء والمرضين لرعايتهم وأمر بإطعامهم والاهتمام والسهر على راحتهم، وهكذا بنى دوراً لرعاية وتربية وتعليم اليتامى، وغالباً ما كان يشرف بنفسه على أوضاع المدينة والأسواق، ويراقب ارتفاع الأسعار ونزولها.(٢)

١. مروج الذهب:٣/ ١٦٦ـ١٦٧.

٢. مختصر تاريخ العرب، سيد امير علي، ص ١٢٣؛ تاريخ اليعقوبي:٣/ ٣٦؛ الفخري، ص ١٢٧؛ الكامل في التاريخ:٥/ ٩ـ١٠؛ تاريخ الخلفاء، ص ٢٢٣ـ ٢٢٤.

انحرافات الوليد

وعلى الرغم من وجود جوانب مشرقة في حياة الوليد وحكمه نجد هناك جوانب مظلمة جداً وانحرافات سافرة ينبغي أن لا نغفل عنها.

ووفقاً لما قاله المؤرّخون، فإنّ الوليد كان جباراً ظالماً، وقد ربّاه والداه على الخلاعة واللا مبالاة، ولذا كان يفتقد المؤهلات الإنسانية وأدبها[١] وكان لحاناً لا يجيد النحو، وبقي يجهله حتى اللحظة الأخيرة من حياته، وكثيراً ما كان يلحن في حواره مع الآخرين، فقد لحن مرة وهو في مجلس أبيه في حوار له مع أحد العرب، فعاتبه أبوه على ذلك، وقال له: لا يلي العرب إلاّ من يحسن كلامهم، فدخل الوليد بيتاً ومعه جماعة من علماء النحو وأقام مدة ستة أشهر يشتغل فيه، فخرج أجهل ممّا كان يوم دخوله.[٢]

ولعل أحد أسباب اهتمامه بالعلوم ونشرها هو حرمانه منها، فأراد بذلك التغطية على نقطة الضعف التي تكمن فيه.

القادة الجائرون

سلّط الوليد من الولاة من كلّ مجرم سفّاك أُمراءَ وحكّاماً على رقاب المسلمين يتحكّمون بمصيرهم، ويضيّقون الخناق عليهم، وكان الحجاج بن يوسف ممن أبقاهم الوليد على عملهم بعد موت أبيه عبد الملك.

وكانت الشام تخضع لسيطرة الوليد نفسه، والعراق تحت سلطة الحجاج، والحجاز لعثمان بن حيان، ومصر لقرة بن شريك، وكان كلّ منهم ناراً على علم في

١. تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص ٢٢٣.
٢. الكامل في التاريخ: ٥/ ١١؛ الفخري، ص ١٢٧.

الإرهاب والقمع والجريمة، وكان عمر بن عبد العزيز ابن أخي الوليد الذي عرف بالعدل وحبه لـه يقول مشيراً بذلك إلى سلطة هؤلاء في البـلاد: اللّهمّ قد امتلأت الأرض جوراً فنجّ الناس من هذا البلاء.[١]

وكأنّ الإمام السجاد حينما قسّم الناس ستـة أقسام في ذلك الزمان يشير إلى هذه المظـالم والجرائم التي كـان يمارسها هؤلاء الطغـاة ضد المسلمين حيـث شبّه الحكام بـالأسود والمسلمين بـالشياه، وقـد أحاط بهم أسـد وذئب وثعلب وكلـب وخنزير فتجز شعورهم وتؤكل لحومهم وتسلخ جلودهم وتكسر عظامهم.[٢]

لماذا لم يثر الإمام السجاد عليه السلام؟

الآن وقد اتّضـح الجو السياسي لعصر الإمام السجـاد إلى حدود مـا، ندرك حينئذٍ السر في عدم ثورته جيداً، لأنّه و بسبب تفشي الرعب والإرهاب في المجتمع والسيطرة الكبيرة التي يتمتع بها الحكم الأموي في البلاد كان سيؤول أمر أية حركة ثورية إلى الفشل، ولم تكن لتبقى بعيداً عن عيون جواسيس الجهاز الحاكم ومرتزقته مهما كانـت، كما أخبر عبد الملـك أحد جـواسيسه ذات مـرة بأنّـه كان لعلي بـن الحسين جارية أعتقها ثـمّ تزوّجها، فكتب رسالة إليه يعيـب فيها على الإمام فعلته تلك ويؤاخذه عليها، وانّه لماذا لم يتزوج بمن تليق به من قريش.

فأجابه عليه السلام بأنّه ليس هناك فوق رسول الله مرتق في مجد، ولا مستزاد في كرم، انّ رسول الله أنكح عبده ونكح أمته، انّ الله رفع بالإسلام الخسة وأتم به الناقصة، وأكرم به من اللؤم، فلا لؤم على مسلم إنّما اللؤم لؤم الجاهلية.[٣]

---

١. الكامل في التاريخ:٥/ ١١.
٢. الخصال للصدوق، ص ٣٣٩.
٣. فروع الكافي، الكليني:٥/ ٣٤٤، كتاب النكـاح؛ الطبقات الكبرى، ابـن سعد:٥/ ٢١٤؛ بحـار الأنوار:٤٦/ ١٠٥؛ عيون الأخبار، ابن قتيبة: ٤/ ٨.

أراد عبد الملـك بعمله هذا أن يحذّر الإمام ويقـول له بأنّني على علـم بكل تصرفاتك وأعمالك حتى الأُمور الشخصية منها!!

إذن في هذه الظروف كيف كان يمكن أن تحدث هنـاك حركة ثورية؟ وكأنّ الإمام السجاد عليه السلام كان يـدرك طبيعة الظروف المريـرة والحرجة المحيطـة به حينما دعا الله سبحانه و تعالى في دعائه:

«...فكـم من عـدو انتضى عليّ سيـف عداوتـه، وشحذ لي ظبـة مديته، وارهف لي شباحدّه، وداف لي قواتل سمومه، وسدّد نحوي صوائب سهـامه، ولم تنم عني عين حـراسته، واضمر أن يسـومني المكروه، ويجرعنـي زعاق مرارتـه، فنظرت يا إلهي إلى ضعفـي عن احتمال الفوادح، وعجـزي عن الانتصار ممـن قصدني بمحـاربته، ووحدتي في كثير عدد من ناواني، وارصد لي بالبلاء فيما لم اعمل فيه فكري، فابتدأتني بنصرك، وشددت أزري بقوتك...».[1]

على مفترق الطرق الصعب

بالالتفات إلى مـا تقدم ندرك انّ الإمام السجـاد واجه بعد واقعة عـاشوراء مفترقاً صعباً، فكان عليه إمّا أن يقوم بثورة عارمـة قوية من خلال تحريك عواطف ومشاعـر أصحابـه وأنصاره، العمـل الذي هـو أسهل مـا يكون لـديه وأن يـرفع رايـةالعداء والمعـارضة ويخلـق مأسـاة مثيرة، ولكن عليـه أن ينطفئ مثـل السراج ويفسح المجـال ليصول ويجول الأمويـون في الميادين الفكـرية والسياسيـة، لعدم توفر الظروف المناسبة لحركة كبيرة تحتاج إلى صمود وثبات مثل هذه.

---

١. الصحيفة السجادية ، دعاء دفع كيد الأعداء (الدعاء٤٩).

أو يضبط المشـاعر والعواطف السطحيـةالساذجة بعمق التفكير والتـأمل الكبير ويعـدّ المقدمـة الضرورية لعملـه الضخم هـذا، وهي خلـق الفكر الـرائد والجيـش العقائدي للنهـوض بالمشروع الأسـاسي ـ مشروع إحيـاء الإسلام وخلـق مجتمع إسلامي جديد ـ حفاظاً على حياته وحياة الثلة القليلة من أصحابه المعتمد عليهم، ولإبقاء الحضور الدائم في الساحة مـادام حياً وما دام هو بعيداً عن العين المترصدة والمرعـوبة للجهـاز الأموي ومـواصلة المعـركة (خلـق الطبقة الصـالحة وإبداع وتعليم الفكر الرائد) في الخفاء وبلاهوادة، ثمّ يحاول مواصلةالمسير في هذا الدرب الذي هولا شكّ أقرب إلى الهدف ويحيلها إلى الإمام الذي يليه.

ولا شكّ انّ الخيار والطـريق الأوّل هو طريـق الفدائيين والتضحيات، غير انّ القائد المبدئي الذي يمتد تأثير نشاطاته إلى خارج نطاق زمانه الذي يعيش فيه ويشمل حيـاة التاريخ على طولها لا يكفـي أن يكون مضحياً، بـل يجب أن يكون متمتعاً بـالإضافة إلى التضحية بعمـق التفكير وبعده والتروّي والحيطةوهـذه هي الظروف التي جعلت الطريق الثاني أمراً محتوماً للإمام.[1]

ثورة أهالي المدينة

والمفروض أن نفسر امتناع تعاون الإمام السجاد مع منتفضي المدينة من هذا المنطلق، حـدثت انتفاضـة المدينة عام ٦٣ أو ٦٢ هجـرية وعـرفت باسـم واقعة الحرّة.[2]

١. الإمام الصادق عليه السلام، آية الله السيد علي الخامنئي، ص٢٤.

٢. وتطلق كلمة الحرة على الأرض المحروقةالمغطاة بأحجار بـركانية، وكانت أطراف المدينة تتمتع بهذه الخصوصية، وكان جيش الشام قد دخل المدينة من خـلال حرّة واقم، لذلك سميت هذه الواقعة بواقعة الحرّة.

وكان الباعث على هذه الثورة هو انّه قد سادت موجة من الغضب والرفض أرجاء العالم الإسلامي ضد يزيد أثر استشهاد الإمام الحسين ، وقد ثارت المدينة أيضاً وهي معقل أهل البيت والصحابة والتابعين .

أرسل عامل المدينة عثمان بن محمد بن أبي سفيان ـ وهو لا يقل عن يزيد سذاجة ونزقاً وغطرسة ـ جماعة من كبار المدينة بالنيابة عن أهاليها إلى الشام وبتوصية من يزيد[1] حتى يشاهدوا الخليفة الشاب عن كثب ويتمتعوا بكرمه وإحسانه، ثمّ بعد ذلك يحثّون أهل المدينة على طاعته والخضوع له.

ولتنفيذ هذا المخطط أرسل عثمان مجموعة مركبة من: المنذر بن الزبير بن العوام، **عبد الله بن أبي عمرو المخزومي، وعبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة** مع عدة شخصيات بارزة للقاء يزيد في دمشق، فراح يزيد ولعدم تمتعه بالتربيةالإسلامية والمستشارين ليوصوه باتزان السلوك أمامهم على الأقل ولا حيطة أبيه ليعرب انّ الذي يحكم المسلمين باسم الإسلام فعليه ـ على الأقل ـ أن يحافظ على تعاليم الإسلام ويتظاهر بذلك، راح ـ و بحضور تلك الشخصيات ـ يلاعب الكلاب ويتجاهر بشرب الخمر ويقيم مجالس اللهو و الفجور والغناء دون انقطاع، غير انّه استقبلهم استقبالاً حاراً ولقيهم بحفاوة وأكرمهم وأحسن إليهم وقدّم لهم الهدايا والأموال الطائلة بما يزيد على الخمسين والمائة ألف دينار، و كان يعتقد انّهم سيمطرونه بالإطراء والمديح والثناء حينما يعودون إلى المدينة بعد كلّ هذه الحفاوة والتكريم والهدايا التي قدمها لهم في قصر دمشق الأخضر، ولكن هذا اللقاء لم يثمر النتيجة المطلوبة فقط، بل صار وبالاً عليه وحدث عكس ما كان يتوقعه تماماً.

رجعت تلك الشخصيات إلى المدينة ماعدا المنذر بن الزبير الذي ذهب إلى

١. أنساب الأشراف، البلاذري: ٤/ ٣١.

البصرة، وأعلنوا في اجتماع لهم بالناس: «قدمنا من عند رجل ليس له دين يشرب الخمر ويضرب بالطنابير ويعزف عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويسمر عنده الخرّاب ـ و هم اللصوص ـ وانّا نشهدكم أنّا قد خلعناه».

وقال ابن حنظلة:

«جئتكم من عند رجل لو لم أجد إلاّ بنيّ هؤلاء لجاهدته بهم، وقد أعطاني وأكرمني وما قبلت منه عطاءه إلاّ لأتقوّى به».

فبايع الناس أثر ذلك عبد الله بن حنظلة وطردوا عامل المدينة وجميع الأمويين منها، وبعد أن اطّلع يزيد على الأمر أرسل مسلم بن عُقْبَة الذي كان طاعناً في السن ومطيعاً لبني أُمية مع جيش جرّار لقمع الانتفاضة والقضاء عليها، وقال له: «ادع القوم ثلاثاً فإن أجابوك وإلاّ فقاتلهم، فإذا ظهرت عليهم فانهبها ثلاثاً، فكلّ ما فيها من مال أو دابة أو سلاح أو طعام فهو للجند».

هاجم جيش الشام المدينة واندلعت حرب دامية بين الفريقين، وانهزم الثوريون في النهاية، وقتل قادة الانتفاضة، فراح مسلم يقتلهم بشكل جماعي لمدة ثلاثة أيام وينهب أموالهم، وقد اقترف مقاتلو الجيش الشامي جرائم فظيعة يخجل القلم من كتابتها، و قد سمّي مسلم لقيامه بهذه المجازر مسرفاً، وبعد ان انتهت المجازر دعا مسلم الناس إلى البيعة ليزيد على أنّهم خول وخدم له.[1]

دور عبد الله بن الزبير

دخل عبد الله بن الزبير وكان رجلاً يطمح إلى السلطة ظاهر الصلاح مكة

١. أنساب الأشراف، البلاذري: ٤/ ٣٠ـ ٤٦؛ الكامل في التاريخ: ٤/ ١٠٢، ١٠٣، ١١١، ١٢١؛ مروج الذهب: ٣/ ٦٨ـ ٧١.

وأقام فيها قبل أن يأتيها الحسين عليه السلام عام ٦٠ هجرية، و قد ألقى وجود الإمام الحسين عليه السلام هناك الظل عليها، فتغافلت الناس عنه، و انفسح له المجال بعد استشهاد الإمام ليعلن عن رفضة ليزيد ويواصل نشاطه السياسي.

و لم تكن لعبد الله علاقة طيبة مع أهل بيت أمير المؤمنين، و قد كان له دور هام في إشعال فتنة الجمل، وحذف أبان نشاطه في مكة الصلاة على الرسول من أوّل الخطبة، وحينما سألوه عن ذلك قال: إنّ له أهل سوء يشرأبون لذكره ويرفعون رؤوسهم إذا سمعوا به.(١)

ونظراً لهذا العداء كان الإمام السجاد عليه السلام يبدي قلقاً من فتنته، وطبقاً لما كتبه المؤرخون كان لعبد الله بن الزبير دور في ثورة أهل المدينة وتمردهم.(٢)

فقد عنّف العراقيّين ولامهم ـ ولدوافع سياسية ـ لأنّهم دعوا الإمام الحسين ثمّ خذلوه وتقاعسوا عن نصرته وكان كثيراً ما يذم يزيد وينعته بالشارب للخمر والملاعب للكلاب والفاسق وقد دعا الناس لخلعه.(٣)

وأضاف المؤرّخون أيضاً انّ طرد عامل المدينة وبني أُمية منها كان بموافقته على ذلك.(٤)

لماذا لم يتعاون الإمام السجاد عليه السلام مع أصحاب ثورة المدينة؟

الآن حان أوان دراسة الأسباب التي دعت الإمام السجاد لعدم تعاونه مع المنتفضين ويمكن تلخيص تلك الأسباب بهذا النحو:

أ. انّ الإمام كان يتوقع (نظراً لأجواء الرعب والاضطهاد التي سادت بعد

١. تاريخ اليعقوبي:٣/ ٨.
٢. كشف الغمة،الاربلي:٢/ ٢٩٩.
٣. أنساب الأشراف:٤/ ٣٠.
٤. مروج الذهب:٣/ ٦٩.

استشهاد الإمام الحسين) فشل هذه الثورة، وكان يرىٰ أنّه لو شارك فيها لكان يقتل ليس هو وحده فقط بل جميع أصحابه وبقية الطاقات الشيعية دون جدوى.

ب. ونظراً إلى ماضي ابن الزبير ونفوذه في صفوف المنتفضين، فإنّ هذه الثورة ما كانت لأن تكون ثورة شيعية محضة، ولم يشأ الإمام أن يجعل شخصاً مثل عبد الله بن الزبير الطالب للسلطة جسراً للانتصار.

ج. انّ الثوريين ـ و كما تقدم ـ كانوا قد انتخبوا عبد الله بن حنظلة قائداً لهم ولم يستشيروا الإمام في ذلك على الإطلاق، ومع أنّ قادة الثورة كانوا أشخاصاً صالحين وكانت اعتراضاتهم على حكم يزيد حقة وصحيحة تماماً، لكنّه كان واضحاً انّ هذه الانتفاضة ليست انتفاضة شيعية خالصة، ولا يعلم إذا نجحت انّها ستنتهي لصالح الشيعة. وكأنّ الإمام قد أخذ هذه الأُمور بعين الاعتبار حينما لم يشارك في تلك الثورة منذ انطلاقتها وكان يزيد يعلم ذلك، ومن ناحية أُخرى انّ مأساة كربلاء وأثرها في الرأي العام جعلته يدفع ثمناً باهظاً، فأوصى مسلم بن عقبة بأن لا يتعرّض لعلي بن الحسين.

مجير المستجيرين

عندما طردوا بني أُميّة من المدينة رجا مروان الإمام بأن يضع أهله مع حرمه، فتقبّل الإمام ذلك بكرمه، لذلك تحوّلت دار الإمام السجاد أبّان إباحة المدينة بالقتل والنهب إلى ملجأ ممتاز ضم أربعمائة امرأة طيلة فترة الواقعة، وكان الإمام احتفى بهم بحفاوة خاصة.

طلب مسلم بن عقبة الإمام بعد نهاية المجزرة وحينما حضر الإمام لديه أجلسه بقربه وأحسن إليه وأكرمه، ثمّ وافق على عودته إلى البيت.[1]

---

١. كشف الغمة: ٢/ ٣١٩؛ أعيان الشيعة: ١/ ٦٣٠ و ٦٣٣.

الأصعدة التي حارب الإمام فيها ظلم وانحراف عصره

وعلى كلّ حال بدأ الإمام باختياره الطريق الثاني سلسلة من برامجه الإرشادية والثقافية ومعركته الغير مباشرة دون أن يثير حفيظة الجهاز الحاكم، وقد قام بنشاطات وفعاليات يمكن تلخيص أهمها بالصورة التالية:

أ. إحياء ذكرى عاشوراء

وحيث كان لاستشهاد الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه أثر بليغ في الرأي العام، جعل الحكم الأموي يدفع الثمن غالياًجداً وأثار التساؤل حول شرعيّته، واصل الإمام ـ ولكي تخلّد هذه المأساة ولا تُنسى ـ نضاله السلبي من خلال البكاء على الشهداء و إحياء ذكراهم.

ولا شكّ في أنّه كان لهذه الدموع الساخنة باعث عاطفي، لأنّ مأساة كربلاء وعظمة مصابها كانت حدثاً ضخماً ومؤلماً للغاية، لدرجة انّ الذين شاهدوها عن كثب لم ينسوها طيلة حياتهم، غير أن تعامل الإمام السجاد معها كان يجني من خلاله نتائج سياسية، فإنّ التذكير بتلك المأساة باستمرار يمنع أن تمسح جرائم الحكم الأموي من الذاكرة، فكان الإمام كلما أراد أن يشرب الماء وتقع عينه عليه تفيض عيناه بالدموع، ولماّ سئل عن ذلك، فقال: «كيف لا أبكي وقد منع أبي من الماء الذي كان مطلقاً للسباع والوحوش».

وكان يقول: «إنّي لم أذكر مصرع بني فاطمة إلاّ خنقتني العبرة».

وقال له خادمه مرةً: أما آن لحزنك أن ينقضي؟ فقال عليه السلام له: «ويحك انّ يعقوب النبي عليه السلام كان له اثنا عشر ابناً، فغيّب الله واحداً منهم، فابيضّت عيناه من كثرة بكائه عليه، واحدودب ظهره من الغم و كان ابنه حياً في الدنيا، وأنا

نظرت إلى أبي وأخي وعمي وسبعة عشر من أهل بيتي مقتولين حولي، فكيف ينقضي حزني؟».[١]

وقال سهل بن شعيب أحد وجهاء مصر: دخلت على علي بن الحسين عليه السلام فقلت: كيف أصبحت أصلحك الله؟ فقال:

«ما كنت أرى شيخاً من أهل المصر مثلك لا يدري كيف أصبحنا!! فأمّا إذ لم تدري أو تعلم فسأخبرك: **أصبحنا في قومنا بمنزلة بني إسرائيل في آل فرعون إذ كانوا يذبّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، وأصبح شيخنا وسيدنا يتقرب إلى عدونا بشتمه أو سبه على المنابر...**».[٢]

ب. إرشاد الأُمّة ونصيحتها

لم يكن باستطاعة الإمام السجاد عليه السلام أن يقدّم ويوضّح مفاهيمه الخاصة علانية وبصراحة، لأنّه كان يعيش في جوٍ من الرعب والإرهاب، لذلك استخدم اسلوب الوعظ والإرشاد، وعرّف الناس من خلال الموعظة على الفكر الإسلامي الصحيح ذلك الفكر الذي تعرض إثر الإعلام المضلّل الذي مارسه الطغاة على مر التاريخ للنسيان والتحريف، نهض من جديد وقدمه الإمام إلى الناس كما كان و بكلّ ما يتمتع به من أصالة، وكان عليه السلام يبين لهم التعاليم الإسلامية في حدود استطاعته.

وتوضّح دراسةتلك المواعظ والتعاليم انّ الإمام كان يلقي عليهم وضمن تقديمه النصح والموعظة ما كان يريده أن يرسخ في أذهانهم ويبقىٰ بطريقة

---

١. بحارالأنوار:٤٦/ ١٠٨؛ البداية والنهاية:٩/ ١٠٧؛ حلية الأولياء:٣/ ١٤٠؛ أعيان الشيعة:١/ ٦٣١ـ٦٣٦؛ كشف الغمة:٢/ ٣١٤؛ الخصال، الصدوق، ص ٥١٨.

٢. الطبقات الكبرى، ابن سعد:٥/ ٢١٩ـ٢٢٠.

عقلانية وذكية جـداً، وهذا من أفضل أنماط انتقال الفكر الإسـلامي الصحيح في تلك الظروف، لأنّ هـذه التعاليم لا تثير حفيظة الجهاز الحاكم على الـرغم من أنّ لها آثار ونتائج سياسية ضد ذلك الجهاز، وقد وضّح وبيّن الإمام ـ ضمنياً ـ حقيقة الإمامة ـ أي نظام الحكم الإسلامـي وقيادة المجتمع بقيادة الإمـام المعصوم وبثّ الوعي بين الناس ـ وعرّفهم حقيقة ما يجري في المجتمع الإسـلامي لتلك الفترة ـ أي تسلّـط الحكـام الطغـاة وقـادة الكفـر والفسـق والنفـاق ـ وكـان يفهمهـم بأنّ الحكومة التـي هي مثل حكومة عبد الملـك ليست هي الحكومة التي يـريدها الإسلام.

إنّ أهمية هـذا الأمر هي مـن ناحية انّه طـالما لم تنتبه الأُمّة إلى هـذه الحقيقة وتخرج من حالة الجمود والتخدير التي أصابتها على مر الأيام، فانّه لن يكون هناك أمل و إمكانية في تغيير الأوضاع وتشكيل الحكم الإسلامي المراد، ومثال هذا النوع من التعاليم والمواعظ التي كان يقدّمها الإمام السجاد، وهي خير شاهد على تلك الحقيقة المذكـورة هو كـلامه التفصيلي الذي كـان يلقيه كـل يوم جمعـة في مسجد النبي على أصحابه والآخرين كما صرّح بذلك المحدِّثون.

ونحن هنا نورد بعضاً من ذلك الكلام على سبيل المثال.

«أيّها الناس اتّقوا الله واعلموا أنّكم إليه راجعون، فتجد كلّ نفس ما عملت من خير محضراً، ومـا عملت مـن سوء تـودّ لو انّ بينهـا وبينه أمـداً بعيداً... ألا و إنّ أوّل ما يسألانك ـ منكر و نكير ـ عن ربّك الذي كنت تعبده وعن نبيك الذي أرسل إليـك، وعن دينك الذي تـدين بـه، و عن كتابك الذي كنت تتلـوه، وعن إمامك الذي كنت تتولّاه».[1]

---

١. تحف العقول، ابن شعبـة، ص ٢٤٩؛ الروضة من الكـافي، ص ٧٢؛ الأمالي، الصدوق، ص ٣٠١، (المجلس الثاني).

في هذا الكلام عدّة أُمور تثير الانتباه:

١. تكرار هـذا الكلام في كـلّ جمعة تبيّـن أهميته ودرجـة اهتمام الإمام بهذا النوع من القضايا.

٢. ونظراً إلى أنّ كلام الإمام يبدأ بعبارة «أيها الناس» فإنّه يعلم بأنّ مخاطبي الإمام ليسوا هم الشيعة خاصة، بل نطاق خطابه أوسع من ذلك.

٣. قد عـوّل الإمام خلال كـلامه مـرة بصراحة وأُخرى بشكـل ضمني على آيات مـن القرآن واستدلّ بها، و هـذا بسبب انّ مخاطبيه هم عـامة الناس وكـانوا ينظرون إليه على أنّـه إمام، ولذلك كان يستشهـد بالآيات لإثبات أمـر ما غير انّه حينما يقصد بكلامـه خصوص الشيعة فقط، فلم ير ضرورة في الاستشهـاد بآيات القرآن.[1]

تربية الكوادر

وهناك نموذج آخر من كلام الإمام وهي موعظة طويلة نسبياً ينقلها أبو حمزة الثمالي ـ أحد أفضل وأقرب أصحاب السجاد عليه السلام ـ يكشف لنا نص هذه الرواية انّ هذا الكلام قد ألقاه بين خاصة من الشيعة، يقول الإمام:

«كفانا الله وإيّاكـم كيد الظالمين وبغي الحاسدين وبطـش الجبارين، أيّها المؤمنون لا يفتننّكم الطواغيت وأتباعهم من أهل الرغبة في الدنيا المائلون إليها المفتـونون بها المقبلون عليها وعلى حطـامها الهامد وهشيمهـا البائد غداً... لعمـري استدبرتـم من الأُمور الماضيـة في الأيام الخالية مـن الفتن المتراكمـة والانهماك فيها مـا تستدلـون به على تجنّـب الغواة وأهل البدع والبغي والفساد في الأرض بغير الحق، فاستعينوا بـالله وارجعوا إلى طاعته

١. دراسة حول حياة الإمام السجاد عليه السلام، آية الله السيد علي الخامنئي، ص ٣٦ـ٣٨.

وطاعة من هو أولى بالطاعة من طاعة من اتبع وأطيع... فقدّموا أمر الله وطاعته وطاعة من أوجب الله طاعته بين يدي الأُمور كلّها، ولا تقدّموا الأُمور الواردة عليكم من طاعة الطواغيت وفتنة زهرة الدنيا... وإيّاكم وصحبة العاصين ومعونة الظالمين ومجاورة الفاسقين، احذروا فتنتهم، وتباعدوا من ساحتهم، واعلموا أنّه من خالف أولياء الله ودان بغير دين الله واستبد بأمره دون أمر ولي الله في نار تلتهب...».[1]

تفسّخ أخلاق الأُمّة

إنّ أهمية وضرورة هذه التعاليم والنصائح والمواعظ التي يقدّمها الإمام تتضح حينما ندرس المدى الذي وصلت إليه الأُمّة في انحطاطها في عهد حكم عبد الملك وابنه الوليد وإهمال السنّة والآداب والتعاليم الإسلامية في ذلك العصر، فنحن نعلم أنّ رقعة الفساد المالي والانحطاط الخلقي قد اتسعت منذ حوالي عام ٣٠ هجرية في المجتمع الإسلامي، فراح أشراف قريش الذين كانوا يتمتعون بدخل كبير من خزينة بيت المال ومن عطاء خلفاء عصرهم يجمعون الأموال ويكنزون الذهب والفضة.

وهكذا سادت الرفاهية والارستقراطية واللهث وراء زخارف الحياة وزروقتها في المجتمع الإسلامي.

فقد أثرى الأثرياء ثراءً أكثر واشتروا الضياع والبساتين والجواري والغلمان خصوصاً الجواري اللاّتي رُبِّين للغناء والحفلات الساهرة بعد أن انتشرت مجالس اللهو والمجون والغناء بين الطبقات الأُخرى أيضاً، و قد بلغ هذا التفسّخ

---

١. تحف العقول، ص ٢٥٢؛ الروضة من الكافي، ص ١٥.

والانحطاط الخلقي ذروته في عهد يزيد لدرجة انّ مدينتيّ مكة والمدينة المقدّستين لم تكونا مصونتين من هذه الظواهر الملوّثة.

كتب المسعودي: وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق، وفي أيّامه ظهر الغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاهي، وأظهر الناس شرب الشراب.(١)

وقد استمر هذا الوضع حتى أيّام عبد الملك أيضاً، وأضاف شوقي ضيف ـ بعد أن بيّن ازدياد الفوارق الطبقية والارستقراطية والرفاهية في مكة والمدينة ـ قائلاً:

كأنّ مدينتي الحجاز هاتين بنيتا لأجل المغنّين والمطربين، وقد وصل الحال فيها لأن يرتاد الفقهاء والنساك مجالسهم فضلاً عن الناس العاديّين.(٢)

وكان القاضي أبو يوسف يقول لبعض أهل المدينة: ما أعجب أمركم يا أهل المدينة في هذه الأغاني ما منكم شريف ولا دنيء يتحاشىٰ عنها.(٣)

وصلت بيئة المدينة حداً من الاهتمام بالغناء بحيث لا ينكره عالمهم، ولا يدفعه عابدهم.(٤)

وقد شهد مرة دحمان المغني الشهير عند عبد العزيز المخزومي قاضي يثرب ـ المدينة ـ لرجل من أهل المدينة على رجل من أهل العراق، فأجاز القاضي شهادته وعدله.

فقال له العراقي: إنّه دحمان؟! فقال عبد العزيز: أعرفه ولو كنت جهلته

---

١. مروج الذهب:٣/ ٦٧.

٢. تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي:٢/ ٣٤٧. وبالطبع فانّ هذا الاتجاه الذي كان سائداً عند الفقهاء والزهّاد ـ خلافاً للشيعة ـ له جذور في الإسلام الذي يصب في مصالح خلفاء الجور، ويبتعد عن تعاليم القرآن و أهل البيت عليهم السلام، ومع الأسف فمازالت آثاره باقية في بعض مجتمعات أهل السنة.

٣. العقد الفريد:٦/ ١١؛ حياة الإمام زين العابدين عليه السلام:٢/ ٤٠٩.

٤. الاغاني:٨/ ٢٢٥.

لسألت عنه.

فقال العراقي: إنّه يغنّي ويعلّم الجواري الغناء؟!

فقال القاضي: غفر الله لك و لنا، وأيّنا لا يغنّي اذهب ادفع له حقّه.(١)

وكانت تقام في المدينة حفلات الرقص والغناء وربما كانت مختلطة بين النساء والرجال دون أن توضع بينهما ستارة.(٢)

و كانت عائشة بنت طلحة تقيم حفلات مختلطة من الرجال والنساء وتغنّي فيها عزّة الميلاء.(٣)

وقد آل أمرهم إلى أنّه حينما أرادت إحدى المغنيات المشهورات وتدعى جميلة أن تحج خرج الناس لاستقبالها استقبالاً لم يشاهد مثله في استقبال رجل فقيه ومحدث أو مفسر أو قاض وناسك.

وقد رووا انّ جميلة حجّت وخرج معها من المغنّين مشيّعين وهم من الرجال المشهورين الحذاق بالغناء مثل : **هيت، طُويس، الدلاّل، برد الفؤاد، نومةُ الضحى، فند، رحمة، هبة الله، معبد، مالك، ابن عائشة، ونافع بن طنبورة، بُدَيح المليح، ونافع الخير ـ و قالوا بلغ عددهم ثلاثين ـ ،و من المغنّيات: الفرهة، عزة الميلاء، حبابة، سلامة، خُليدة، عقيلة، الشماسية، فرعة، بلبلة، لذة العيش، سُعَيدة، والزرقاء.**

وقد رافقها بعضهم حتى النهاية، ولمّا قاربوا مكة تلقّاهم جماعة من أشراف مكة، ولمّا قدمت المدينة تلقّاها أهلها وأشرافهم من الرجال والنساء وخرجوا من بيوتهم، فوقفوا على أبواب دورهم ينظرون إلى جمعها إعجاباً وشوقاً.(٤)

---

١. نفس المصدر:٦/ ٢١.
٢. حياة زين العابدين:٢/ ٤١٠.
٣. نفس المصدر، ص ٤١١.
٤. الاغاني:٨/ ٢٠٨ـ ٢١٠؛ اعلام النساء، كحالة :١/ ٢١١ـ ٢١٤؛ زندگانى على بن الحسين، ص ١٠٤.

وهذه الروايات توضح لنا جانباً من انحطاط القيم في مجتمع المدينة آنذاك.

إنّ الأشخاص الذين شايعوا جميلة ورافقوها في سفرتها هذه كانوا من كبار المغنّين وأشهرهم في تلك الفترة، فإذا افترضنا انّ لكلّ واحد من المغنّين والمغنيات تلميذاً أو تلميذة يتعلّمان الغناء عليه، ولم نستبعد احتمال وجود مجموعة أُخرى من المغنّين والمغنّيات لم يحضروا مشايعة جميلة، فسنحصل على كم هائل من المغنّين والمغنّيات يصعب التصديق به!!

إذن حينما يصل الوضع الاجتماعي لقبلةالمسلمين ومركز الحكم الإسلامي لهذه الدرجة من الانحطاط، فسيكون بإمكاننا تصور الحال التي وصلت إليها مدن دمشق، البصرة، والمدن الكبيرة الأُخرى.[1]

ضرورة بيان أحكام الإسلام وبث الثقافة الإسلامية الأصيلة

وإلى جانب هذه الوضعية المؤسفة إذا ما أخذنا جهل الناس بتعاليم الإسلام وغفلتهم عن ظهور البدع والأفكار المنحرفة بعين الاعتبار، فسوف يتجلّى عمق هذه الكارثة بشكل أوضح، ونفهم جيداً انّ الإمام السجاد وانطلاقاً من فهمه العميق لمشكلة المجتمع راح يبث الوعي بين الناس بكلماته ومواعظه، والآن نسترعي انتباهكم لنماذج من إهمال تعاليم الإسلام وجهل الناس بواجباتهم الإسلامية وغفلتهم عن الأفكار المنحرفة.

أ. طبقاً لما يقوله بعض العلماء: كان بنو هاشم يجهلون كيفية أداء الصلاة ومناسك الحجّ فترة إمامة السجاد عليه السلام، وانّ الشيعة لم يكونوا يعرفون من الأحكام الدينية غير ما سمعوه من الأفواه.[2]

---

١. زندگانى على بن الحسين، ص ١٠٤.

٢. دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام: ١/ ٥٦، مقالة الإمام السجاد عليه السلام باعث الإسلام من جديد. السيد جعفر مرتضى العاملي نقلاً عن كشف القناع عن حجّية الإجماع، ص ٦٧.

فحينما يكون حال فريضة كالصلاة التي هي من أركان الإسلام وتجب على كلّ مسلم خمس مرات في اليوم بهذا المستوىٰ في بني هاشم الذين يجب أن يكونوا أعلم وأعرف من الجميع في هذا، يمكن حينئذٍ أن نحدد مستوى الوعي الديني بين الناس في المدن الأُخرى ومستوى معرفة المسلمين حول تعاليم الإسلام ومدى ذلك؟!

ب. كان أنس بن مالك الصحابي المعروف يقول: ما أعرف شيئاً ممّا كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، قيل: الصلاة؟ قال: أليس صنعتم ما صنعتم فيها.[1]

ج. حجّ عمر بن عبد العزيز متولياً أمارة الحاج في عهد خلافة الوليد بن عبد الملك عام ٨٧ غير انّه لم يؤد مناسك الوقوف في يوم عيد الأضحىٰ بشكل صحيح واخطأ.[2]

د. قال محمد بن مسلم بن شهاب الزهري: أتينا أنس بن مالك في دمشق فرأيناه جالساً وحده وهو يبكي، فلما سألناه عن ذلك؟ قال: لا أعرف شيئاً مما أدركت إلاّ هذه الصلاة وقد ضيّعت.

هـ. وبعد فترة قليلة من عصر أنس كان الحسن البصري يقول: لو خرج عليكم رسول الله صلى الله عليه وآله ما عرف منكم إلاّ قبلتكم.[3]

و. وعن أُمّ الدّرداء قالت: دخل أبو الدّرداء وهو غضبان، فقلت ما أغضبك؟ فقال: ما أعرف فيهم شيئاً من أمر محمد إلاّ أنّهم يصلّون جميعاً.[4]

١. دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام:١/ ٥٦، مرتضى العاملي، مقالة الإمام السجاد عليه السلام؛ ضحى الإسلام:١/ ٣٦٥.
٢. تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص ٢٢٤.
٣. جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البرّ القرطبي:٢/ ٢٠٠.
٤. الاعتصام، الشاطبي الغرناطي:١/ ٢٦.

ج. عرض العلوم والمعارف في درس الدعاء

ومن أساليب الإمام السجاد عليه السلام النضالية والإعلامية الأُخرى هو عرض المعارف الإسلامية في إطار الدعاء ونعلم بأنّ الدعاء اتّصال معنوي بين الإنسان وربه، وذو أثر تربوي هام، ومن هنا كان الدعاء من وجهة نظر الإسلام ذا مكانة خاصة، وإذا جمعت الأدعية التي وصلتنا من نبي الإسلام والأئمّة المعصومين معاً لكان لدينا مجموعة كبيرة منها.

إنّ هذه الأدعية مدرسة تربوية عظيمة تلعب دوراً هاماً في تربية الإنسان روحياً.

الصحيفة السجادية

ونظراً لجو الرعب والاضطهاد الذي كان سائداً زمن الإمام السجاد أخذ الإمام يطرح ويقدم أهدافه ومبادئه في إطار الدعاء والمناجاة، و قد عرفت أدعية الإمام السجاد عليه السلام باسم الصحيفة السجادية، وتعد بعد القرآن ونهج البلاغة من أعظم وأهمّ كنوز المعارف الإلهية القيّمة، بحيث لقبت ومنذ زمن بعيد من قبل العلماء البارزين **بأُخت القرآن**[1]، و**إنجيل أهل البيت وزبور آل محمّد**.[2]

وليست الصحيفة السجادية تقتصر على التضرع لله والدعاء والخشوع وبيان الحاجة في ساحة قدسه، بل هي بحر بلا شاطئ من العلوم والمعارف الإسلامية قدم فيها القضايا العقائدية والثقافية والاجتماعية والسياسية وقسماً من القوانين الطبيعية والأحكام الشرعية في إطار الدعاء.

---

١. الذريعة إلى تصانيف الشيعة، الشيخ آقا بزرگ: ١٥/ ١٨.

٢. رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين، المقدمة، ص ٤ـ٥ ؛ معالم العلماء، ابن شهر آشوب، ص ١٢٥ و١٣١.

وقد أرسل المرجع الديني الراحل المرحوم آية الله العظمى النجفي المرعشي رحمه الله عام ١٣٥٣ هجرية نسخة من الصحيفة السجادية إلى العلاّمة المعاصر مؤلف تفسير الطنطاوي ـ مفتي الإسكندرية ـ فكتب إليه بعد أن شكره على هذه الهدية القيمة:

ولسوء حظنا هو انّنا لم نحصل على هذا العمل القيم والخالد الذي هو تراث النبوة، وكنت كلّما أنظر فيها أراها فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق.[1]

ولأهمية الصحيفة السجادية الكبيرة في تاريخ الإسلام كتبت عدّة شروح باللغتين العربية والفارسية عليها، وقد ذكر المرحوم العلاّمة آقا بزرگ الطهراني في كتابه القيّم «الذريعة» مائة وخمسين شرحاً لها ما عدا الترجمات.[2] مضافاً إلى تلك الشروح فقد ترجمها العلماء قديماً وحديثاً عدّة مرات، وقدنشر وطبع بعضاً منها في السنوات الأخيرة. تشتمل الصحيفة السجادية على أربعة وخمسين دعاءً، وهي:

١. التحميد لله تعالى، ٢. الصلاة على محمّد صلى الله عليه وآله ٣. الصلاة على حملة العرش، ٤. الصلاة على مصدّقي الرسل، ٥. دعاؤه لنفسه وخاصّته، ٦. دعاؤه عند الصباح والمساء، ٧. دعاؤه في المهمات، ٨. دعاؤه في الاستعاذة، ٩. دعاؤه في الاشتياق، ١٠. دعاؤه في اللجوء إلى الله، ١١. دعاؤه بخواتيم الخير، ١٢. دعاؤه في الاعتراف، ١٣. دعاؤه في طلب الحوائج، ١٤. دعاؤه في الظلامات، ١٥. دعاؤه عند المرض، ١٦. دعاؤه في الاستقالة، ١٧. دعاؤه على الشيطان، ١٨.

---

١. صحيفه سجاديه، ترجمة سيد صدر الدين الصدر البلاغي ص ٣٧.

٢. الذريعة: ١٣/ ٣٤٥ــ ٣٥٩. وللتعرّف على روايات واسناد الصحيفة السجادية فليراجع إلى: رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين؛ مقدمة كتاب « الإمام زين العابدين»، للسيد عبد الرزاق الموسوي المقرّم، ص ٩٥ـ١١٨.

دعاؤه في المحذورات، ١٩. دعاؤه في الاستسقاء، ٢٠. دعاؤه في مكارم الأخلاق، ٢١. دعاؤه في الاستكفاء، ٢٢. دعاؤه عند الشدة، ٢٣. دعاؤه بالعافية، ٢٤. دعاؤه لأبويه، ٢٥. دعاؤه لولده، ٢٦. دعاؤه لجيرانه وأوليائه، ٢٧. دعاؤه لأهل الثغور، ٢٨. دعاؤه في التفرغ، ٢٩. دعاؤه إذا قُتِر عليه الرزق، ٣٠. دعاؤه في المعونة على قضاء الدين، ٣١. دعاؤه بالتوبة، ٣٢. دعاؤه في صلاة الليل، ٣٣. دعاؤه في الاستخارة، ٣٤. دعاؤه إذا ابتلى ورأى مبتلى بفضيحة أو ذنب، ٣٥. دعاؤه في الرضا بالقضاء، ٣٦. دعاؤه عند سماع الرعد، ٣٧. دعاؤه في الشكر، ٣٨. دعاؤه في الاعتذار، ٣٩. دعاؤه في طلب العفو، ٤٠. دعاؤه عند ذكر الموت، ٤١. دعاؤه في طلب الستر والوقاية، ٤٢. دعاؤه عند ختم القرآن، ٤٣. دعاؤه إذا نظر إلى الهلال، ٤٤. دعاؤه لدخول شهر رمضان، ٤٥. دعاؤه لوداع شهر رمضان، ٤٦. دعاؤه للعيدين والجمعة، ٤٧. دعاؤه في يوم عرفة، ٤٨. دعاؤه يوم الأضحى والجمعة، ٤٩. دعاؤه في دفع كيد الأعداء، ٥٠. دعاؤه في الرهبة، ٥١. دعاؤه في التضرع، ٥٢. دعاؤه في الإلحاح ، ٥٣. دعاؤه في التذلّل، ٥٤. دعاؤه في استكشاف الهموم.[١]

الجوانب السياسية للصحيفة السجادية

وكما أشرنا لا تحوي الصحيفة السجادية أدعية المناجاة والتضرّع وبيان

١. قال المتوكل بن هارون راوي الصحيفة: كانت هذه الأدعية ٧٥ باباً نسيت ١١ باباً منها وحفظت الباقي، واحتمل المرحوم السيد علي خان المدني بعد نقله لعبارة المتوكل بأنّه قد حذفت أبواب أُخرى على يد الرواة أو انّهم نسوها فبلغ عدد الأدعية ٥٤ ؛ رياض السالكين، ص ٢٩، المقدمة، و يوجد الآن مضافاً إلى تلك الصحيفة المعروفة والتي تعرف بالصحيفة الكاملة خمس صحف أُخرى قدجمعها العلماء وهي تحوي أدعية أُخرى للإمام السجاد ونشرت تحت عنوان الصحيفة الثانية والثالثة و... ؛ الذريعة: ١٥/ ١٩ـ٢١.

الحاجة والسؤال والخضوع فقط، بل تتمتع بجوانب سياسية واجتماعية وثقافية وعقائدية أيضاً.

فقد تعرّض الإمام السجاد في أدعيته مرات عديدة للقضايا السياسية خصوصاً قضية الإمامة وقيادة المجتمع الإسلامي، نورد قسماً منها على سبيل المثال:

أ. قال السجاد عليه السلام في دعائه العشرين (دعاؤه في مكارم الأخلاق):

«...اللّهمّ صلّ على محمّد وآله واجعل لي يداً على من ظلمني، ولساناً على من خاصمني، وظفراً بمن عاندني، وهب لي مكراً على من كايدني، وقدرة على من اضطهدني، وتكذيباً لمن قصبني، وسلامة ممن توعّدني...».

يا ترى من أُولئك الذين يظلمون الإمام ويضطهدونه ويكايدونه ويكذبونه غير عمّال عبد الملك من مثل هشام بن إسماعيل المخزومي؟!

الواقع انّ دعاء الإمام هذا شكاية ممّا يتلقّاه من ظلم واضطهاد من حكام عصره، ولهذا كان لهذا الدعاء طابع سياسي.

ب. وفي دعاء كان الإمام يدعو به يوم عيد الأضحى والجمعة:

«...اللّهمّ انّ هذا المقام ـ مقام الإمامة والقيادة وزعامة الأُمة الإسلامية التي من شؤونها ولوازمها هو إقامة الصلاة يوم الجمعة وعيد الأضحى وإيراد الخطبة ـ لخلفائك وأصفيائك ومواضع أُمنائك في الدرجة الرفيعة التي اختصصتهم بها قد ابتزوها وأنت المقدر لذلك لا يغالب أمرك... حتى عاد صفوتك وخلفاؤك مغلوبين مقهورين مبتزين، يرون حكمك مبدلاً، وكتابك منبوذاً، وفرائضك محرّفة عن جهات أشراعك، وسنن نبيك متروكة، اللّهم العن أعداءهم من الأوّلين

والآخرين ومن رضي بفعالهم وأشياعهم وأتباعهم...».

يصرح الإمام في هذا الـدعاء بالإمامة وقيـادة الأُمّة التي تختص بـأهل بيت النبي، ويذكر اغتصابها على يد الظالمين، وبالتالي يرفض شرعية الحكم الأموي.

ج. وقال الإمام في دعاء عرفة:

«ربّ صلّ على أطـائب أهل بيتـه الذيـن اخترتهم لأمرك، وجعلتهـم خزنـة علمك وحفظة دينـك، وخلفائك في أرضـك، وحججك على عبادك، وطهّـرتهم من الرجـس والدنس تطهيراً بإرادتـك، وجعلتهم الوسيلةإليك والمسلك إلى جنتك...

اللّهم إنّك أيّدت دينك في كلّ أوان بإمام أقمته علماً لعبادك ومناراً في بلادك، بعد أن وصلت حبله بحبلك، وجعلته الذريعة إلى رضوانك، وافترضت طاعته وحذّرت معصيته، وأمرت بامتثال أمره والانتهاء عند نهيه، وألاّ يتقدّمه متقدّم ولا يتأخّر عنه متأخّر...».

يتحدّث الإمام هنا في هذا الدعـاء عن دور الأئمّة والقادة الإلهيّين من بيت النبوة ومكانتهم الخاصة ومميّزاتهم، وهذا يعني بالدقة رفض شرعية الحكم الموجود آنذاك .

د. مواجهة علماء البلاط

إنّ من أروع مراحل حيـاة الأئمّة هو صدامهم ومواجهتهـم لرؤوس أدعياء الفكـر والثقافـة من معـاصريهم في المجتمـع الإسلامـي، أي الفقهاء والمحـدّثين والمفسرين والقرّاء وقضاة البلاط الرجعيين. كان هـؤلاء هم الذين يوجّهون أفكار الناس و ذهنيتهـم إلى ما ينصـب في مصالـح السلطات الظـالمة ويملون عليهـم الأفكار التي يـريدها الحكام الأمـويون والعباسيون أن تسـود بينهم ويحثّونهم على

التسليم إليها ويعدون الأرضية الفكرية لشرعية حكوماتهم.

والنموذج البارز في حياة الإمام الرابع السياسية لهذا النوع من الصدام هو مواجهته الحادة لمحمد بن مسلم الزهري (٥٨ـ ١٢٤ هـ) محدّث البلاط.

فقد كان أحد التابعين وفقهاء عصره ومن محدّثي المدينة الكبار، وكان أحد الفقهاء السبعة[١]، وأحد الأعلام المشهورين ورأى عشرة من الصحابة، وقد روى عنه جماعة من كبار الفقه والحديث.[٢]

وفي ضوء هذه الخلفية تمتع الزهري بوجاهة وشهرة كبيرة في الأوساط العلمية والفقهية لذلك العصر، لدرجة انّ مالك بن أنس كان يقول: لم أر في المدينة إلاّ محدثاً وفقيهاً واحداً وهو ابن شهاب الزهري.[٣]

و قيل لمكحول: من أعلم من لقيت؟ قال: الزهري، قيل: ثمّ من؟ قال: الزهري، قيل: ثمّ من؟ قال: الزهري.[٤]

وعلى الرغم من ذلك كان الزهري منبّهراً بعظمة الإمام السجاد عليه السلام العلمية وزهده وتقواه ومعجباً بمستواه الروحي، فكان يقول: ما رأيت قرشياً أورع منه ولا أفضل.[٥]

و يقول أيضاً، أفضل من رأيت، وأعلم من بني هاشم هو علي بن الحسين.[٦]

وكان كلّما ذكر الإمام السجاد عليه السلام يبكي، وكان يذكره باسم زين

١. وأمّا سائر الفقهاء السبعة عند أهل السنة، فهم ــ كما نقله ابن سعد ــ: سعيد بن المسيب، سليمان بن يسار، عكرمة مولى ابن عباس، أبو بكر بن عبد الرحمن، عطاء بن أبي رباح، وعروة بن الزبير (الطبقات الكبرى:٢/ ٣٧٨ـ٣٧٩).

٢. سفينة البحار:١/ ٥٧٣؛ تتمة المنتهى، ص ٨٧؛ شذرات الذهب:١/ ١٦٢.

٣. الطبقات:٢/ ٣٨٨.

٤. البداية والنهاية:٩/ ٣٤٣.

٥. نفس المصدر:٩/ ١٠٤.

٦. مناقب آل أبي طالب:٤/ ١٥٩.

العابدين.[١]

وقد أفاد كثيراً منه و نقل عنه عدّة روايات.[٢]

وكان الزهري عاملاً لبني أُميّة على أحد الأعمال، وفي يوم من أيام ولايته عزّر رجلاً فمات إثر ذلك، وقد اهتز كيان الزهري من هذا الحادث واغتم لذلك، وهام على وجهه وترك أهله وماله، وقال: لا أظلني سقف بعدها، فلما اجتمع بعلي السجاد، فقال له: «قنوطك يا زهري من رحمة الله التي وسعت كلّ شيء أعظم من ذنبك» وأمره بالتوبة، وأن يبعث الدية إلى أهله وأن يرجع لأهله، والزهري ومع ما يتمتع به من العلم والفقاهة لم يلتفت إلى هذا الأمر، وفرح بهذا الإرشاد، وكان يقول بعدها علي بن الحسين أعظم الناس علي منّة.[٣]

تلمذ الزهري لدى الإمام السجاد عليه السلام

اشتد الجدل حول عقيدة ومذهب الزهري بين علمائنا، فبعضهم يراه من شيعة وأصحاب الإمام السجاد ويقدّمون أدلّة لرأيهم، والبعض الآخر ينتقده ويعده من أعداء أهل البيت ومن الموالين لبني أُمية.

وقد جمع مؤلّف «روضات الجنات» بين الرأيين بهذا النحو: إنّه كان في مبتدأ عمره كما عرفته من جملة علماء أهل السنّة و ندماء حزب الشيطان ـ بني أُمية ـ ثمّ

١. كشف الغمّة في معرف الأئمّة: ٢/ ٢٨٨.

٢. للتعرّف على هذه الروايات يراجع الكتب التالية: بحار الأنوار: ٤٦/ ٥٧، ٦٤، ٦٥، ٧٣، ٨٢، ١٠٧ و ١٥٠؛ الاحتجاج: ٢/ ٥١؛ الاستبصار: ٢/ ٨٠؛ كشف الغمة: ٢/ ٣١٥؛ حلية الأولياء: ٣/ ١٤١؛ أُصول الكافي: ٢/ ١٣٠؛ فروع الكافي: ٤/ ٨٣ و ٥/ ٣٦.

٣. مناقب آل أبي طالب: ٤/ ٥٩؛ كشف الغمة: ٢/ ٣١٩ـ٣٢٠؛ الطبقات الكبرى: ٥/ ٢١٤؛ البداية والنهاية: ٩/ ١٠٦.

إنّ علمه وإدراكه أدركاه وأرشداه إلى الحقّ المبين، فصيّراه في أواخر عمره من الراجعين إلى الإمام زين العابدين في زمرة المستنصرين منه.[١]

غير انّه و على العكس من رأيه توجد هناك وثائق وأدلّة تاريخية كثيرة تدلّ على أنّه في بداية أمره وأبّان شبابه في المدنية كان على علاقة بالإمام السجاد، وكان يستفيد من مجلس درسه ومدرسته غير انّه مال فيما بعد إلى بني أُمية وتولاّهم وانخرط في بلاطهم، وما كان يقوله الأمويون أحياناً طعناً وتجريحاً له: ما يفعل نبيّك ـ علي بن الحسين ـ؟![٢] ربما يخص هذه المرحلة من حياته. و بعد قليل سندرس حياته ونبحث الأدلة الدالة على علاقته بالبلاط الأموي.

الزهري في بلاط بني أُمية

قد عدّه ابن أبي الحديد أحد المبغضين لعلي عليه السلام وكتب: سمع علي بن الحسين يوماً انّ الزهري وعروة بن الزبير جالسان في مسجد النبي يذكران علياً فنالا منه، فجاء علي بن الحسين حتى وقف عليهما ووبّخهما.[٣]

ورغبة في الثراء والعافية والرفاه الذي يوجد عند بني أمية توجّه الزهري في عهد عبد الملك إلى دمشق و اتّخذ من علمه ومعرفته سلّماً للتمتع بالمظاهر الدنيوية، ولفت انتباه عبد الملك إليه، فأكرمه وعيّن له راتباً وقضا ديونه و منحه خادماً، وهكذا انخرط الزهري في عداد المقرّبين والندماء لعبد الملك.[٤]

وكتب ابن سعد: وكان قبيصة بن ذؤيب علىٰ خاتم عبد الملك بن مروان

---

١. روضات الجنات:٧/ ٢٤٥، وحول هذين الرأيين راجع سفينة البحار:١/ ٥٧٣، مادة زهر؛ قاموس الرجال:٨/ ٣٨٧؛ رجال الطوسي، ص ١٠١.

٢. مناقب آل أبي طالب:٤/ ١٥٩.

٣. شرح نهج البلاغة:٤/ ١٠٢.

٤. البداية والنهاية:٩/ ٣٤١و ٣٤٦.

وهـو أدخل الـزهـري على عبد الملـك بـن مـروان ففرض لـه ووصلـه وصار مـن أصحابه.[١]

ومن هنـا بدأت عـلاقة الزهـري ببلاط الأمويّين الـوضيع، فقـد ذاق طعم حلاوة الدعة والرفـاهية والملذّات الدنيوية في بلاط عبد الملـك، ولذلك ظلّ على هذه الحال حتى في بلاط أبنائه مثل: الـوليد، سليمان، يزيد، و هشام، و هكذا في بلاط عمر بن عبد العزيز.

فقد ولّاه يزيد بن عبد الملك منصب القضاء، وقد تمتع في حكم هشام بن عبد الملك بتقـدير واحترام خـاص فجعله معلّماً لأولاده، وبقـي على هذه الحال حتـى نهاية حياته.[٢]

وسدّد هشام عنه ديونه البالغة ثمانين ألف درهم.[٣]

وكتب ابن سعد بأنّـه جاء الزهري هشاماً في الرصافـة وكان مقيماً عندهم ـ بني أُمية ـ قبل ذلك مدّة عشرين عاماً[٤].

و هكذا ينقل عـن سفيان بن عيينة بأنّـه جاء الزهري برفقـة هشام الخليفة آنـذاك عام مـائة وثلاثـة وعشريـن إلى مكة وأقـام هنـاك حتى عـام مائة وأربعـة وعشرين.[٥]

وقد طـابت لـه حياة البـلاط والرفاهيـة التي كـان يتمتع بها وأدمـن عليها لدرجة انّه حينما قـالوا له: لو انّك الآن في آخر عمرك أقمـت بالمدينة فقعدت إلى مسجـد رسـول الله ودرجـت وجلسنـا إلى عمـود من أعمـدتـه فـذكـرت النـاس وعلّمتهم؟

١. الطبقات الكبرى:٧/ ٤٤٧ (ترجمة قبيصة).
٢. البداية والنهاية:٩/ ٣٤١؛ وفيات الأعيان:٤/ ١٧٨.
٣. البداية والنهاية:٩/ ٣٤٣.
٤. الطبقات الكبرى:٧/ ٤٧٤.
٥. نفس المصدر:٥/ ٤٩٧.

فقال: لو انّي فعلت ذلك لوطئ عقبي، و لا ينبغي لي أن أفعل ذلك حتى أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة.(١)

احتياج الخلفاء الظالمين إلى وعّاظ السلاطين

إنّنا نعلم بأنّ الظلمة اللا إسلاميين من الخلفاء لم يكن أمامهم كي يحكموا المسلمين سوى توجيه إيمانهم القلبي نحو شرعية ما يقومون به من أعمال، لأنّه لم يمض وقت طويل على صدر الإسلام في تلك الفترة وكان إيمان الناس بالإسلام راسخاً، ولو كان الرأي العام يدرك بأنّ البيعة التي بايع بها الظالمين بيعة غير صحيحة ولا تليق بخلافة رسول الله لما كان يستسلم لهم، وإن لم نقبل هذا الأمر على جميع الناس أيضاً فلا شكّ كان هناك الكثير من الناس يتقبل الحالة اللا إسلامية للجهاز الحاكم انطلاقاً من عقيدتهم القلبية، أي انّهم كانوا يتصوّرون انّ وضع الجهاز الحاكم هو وضع إسلامي.

ولذلك حاول الخلفاء الظلمة وبدافع إضفاء صفة الشرعية على حكمهم أن يجمعوا المحدّثين وعلماء الدين في بلاطهم ويحثّوهم على وضع أحاديث على لسان نبي الإسلام وصحابته الكبار لصالحهم حتى تتهيّأ من خلال ذلك الأرضية الذهنية والفكرية لتقبّل حكمهم في المجتمع.(٢)

وعلى هذا الأساس كان الدافع من جرّ الزهري إليهم هو استغلال موقعه الديني، وهو بدوره فرّغ نفسه لخدمتهم بشكل تام وألّف الكتب ووضع الأحاديث لصالحهم، وبذلك ساعدهم في تحقيق أهدافهم المشؤومة.

وقال شخص يدعى معمر: كنّا نرى انّا قد أكثرنا عن الزهري حتى قتل

١. البداية والنهاية:٩/ ٣٤٨.

٢.دراسة حياة الإمام السجاد عليه السلام ص ٥٦، السيد علي الخامنئي.

الوليـد، فإذا الدفـاتر قـد حملت على الدواب مـن خزانته، وكـان يقال هـذا علـم الزهري.[١]

أي انّه ولكثرة ما كتب الزهري وألّف للوليد بناء على طلبه لوضع الأحاديث حينما أرادوا أن يخرجوها من خزانة الوليد اضطروا أن يحملوها على المراكب و نفس الزهري كان يقول: كنّا نكره كتاب العلم حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأُمراء، فرأينا أن لا نمنعه أحداً من المسلمين.[٢]

وكتب ابن كثير: انّ هشام بن عبد الملك سأل الـزهري أن يكتب لنبيه شيئاً من حديثه، ومن ذلك اليوم كتب الناس الحديث.[٣]

وسأل هشام بن عبـد الملك الزهري يوماً أن يكتب شيئاً مـن حديثه، فأملى على كاتبه أربعمائة حديث، ثمّ خرج على أهل الحديث فحدّثهم بها.[٤]

وأصدر عمر بن عبد العزيز أمراً جاء فيه: عليكم بابن شهاب الزهري، فانّه ما بقي أحد أعلم بسنة ماضيه منه.[٥]

---

١. البداية والنهاية:٩/ ٣٤٦؛ الطبقات الكبرى:٢/ ٣٨٩؛ تذكرة الحفاظ:١/ ١١٢.

٢. الطبقات الكبرى:٢/ ٣٨٩؛ البداية والنهاية:٩/ ٣٤١.

٣. البداية والنهاية:٩/ ٣٤١.

٤. تهذيب التهذيب:٩/ ٤٤٩؛ تذكرة الحفاظ:١/ ١١٠.

٥. البداية والنهايـة:٩/ ٣٤٣. انّ منع تدوين الحديث وكتابته بدأ بعـد رحيل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومنذ عهد عمر بـن الخطاب واستمـر حتى نهاية القـرن الأوّل ورفعه عمـر بن عبد العـزيز بشكـل رسمي، ويعتقد من يحلّل التاريخ الإسلامي انّه كـان لهذا المنع دافع سياسي وهو القضاء على المكانة التي كان يتمتع بها أمير المؤمنين علي عليه السلام في تلك الفترة وإخفاؤهـا، لأنّ علياً كان قد كتـب كتباً دوّن فيها أحاديث الرسول في حياته وفي مجالات متعدّدة، فإنّ بث ونشر هذه الأحاديث سيتضارب مع مصلحة الخليفة من النـاحية السياسية، لأنّ كلاً منها يثبـت حقّ الإمام علي عليه السلام ويشكّل ←

وهنا يجب علينا أن نـرى كلّ هذه الكتب والأوراق التي ملئت بـالأحاديث بأمر من الوليـد وهشام ما هي نوعية الأحاديث التي دونـت فيها؟ وممّا لاشك فيه هو انّـه لا يوجـد ولا حتى حديـث واحد في شجـب من هم على شـاكلة الـوليد وهشام، بل سنجد فيهـا ذلك النوع من الأحاديث التـي تضفي صفة الشرعية على أعمالهم الخبيثة الغير إسـلامية، وتقلّـل من شـأن ومكانـة منافسيهـم وخصومهـم السياسيّين، أي بني هاشم.

والوثيقة التاريخيـة المذكورة أدناه دليل ساطع على نوع الأحـاديث التي كان يرغب إليها هشام.

كتب هشام بن عبد الملك إلى الأعمش ان أكتب لي فضائل عثمان ومساوئ عليّ، فأخذ كتابه ولقمه شاة عنده وقال لرسوله: هذا جوابك!

فألحّ عليه الرّسول في الجواب وتحمّل عليه باخوانه وقال: إن لم آت بالجواب قتلني. فكتب: بسم الله الرحمن الرّحيم ، أمّا بعد، **لو كان لعثمان مناقب أهل الأرض ما نفعك، ولو كان لعليّ مساوي أهل الأرض ما ضرّتك، فعليك نفسك والسلام.**[1]

أحاديث الزهري الموضوعة

وضع الـزهري أحاديث تصـب في صالح بنـي أُمية، لتبرير سياستهـم اللا

← وثيقة حية، ومـن هنا منع عمر كتابة الحديـث، وهكذا نجد انّه كما كان لمنع تـدوين الحديث دافع سياسي كان لغو هذا المنع من قبل هشام كذلك.

وسنوضـح ذلك في سيرة الإمـام الباقـر أكثر، وعلى أيّة حـال لم تعبأ الشيعـة بهذا المنع وراحـوا يكتبون الحديث ويروونه بعد رحيل النبي مباشرة فكانوا سبّاقين في كتابته وتدوينه.

١ . شذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي: ١/ ٢٢١.

دينية، وللطعن في البيت الهاشمي نورد هنا نماذج منها:

أ. نسب الزهري إلى نبي الإسلام بأنّه ﷺ قال: لا تشدُّ الرحال إلاّ إلى ثلاثةمساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، ومسجد الأقصى وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام». [١]

و قد نقل هذا الحديث كلّ من: مسلم، وأبو داود والنسائي، وهم ثلاثةمن أكبر علماء السنّة في الحديث عن طريق أبي هريرة بهذا النحو: لا تشد الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد: مسجد الحرام، ومسجدي هذا، ومسجد الأقصى». [٢] ولم يوجد في أي واحد منها عبارة: وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام!

ومن الواضح انّ هذه الإضافة قد تمت بأمر من عبد الملك على يد الزهري، وتتعلّق بالفترة التي كان عبد الله بن الزبير فيها مستولياً على مكة، وكان حكم عبد الملك منحصراً في الشام حينما كان النزاع العسكري والسياسي في ذروته.

في ذلك الوقت الذي كان كلّما أراد أهل الشام الحج كانوا لابد وأن يقيموا في مكة بضعة أيام، وكانت هذه فرصة مناسبة وجيدة لعبد الله بن الزبير لممارسة سياسته الإعلامية ضد عبد الملك، وكان هذا الأمر يعرّض شرعية حكومته للخطر في مركز الخلافة، ولعدم رغبته في تأثر الحجاج بالإعلام المضاد منع الحج على الشاميين وأخذ الناس يتذمّرون من ذلك وانّه لِمَ تمنعنا من الحج الواجب؟ فقال عبد الملك: ابن شهاب الزهري يروي عن رسول الله أنّه قال : لا تشد الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد: مسجد الحرام، ومسجدي هذا، ومسجد الأقصى وهو يقوم

---

١. تاريخ اليعقوبي:٣/ ٨.

٢. صحيح مسلم:٤/ ١٢٦، كتاب الحج؛ سنن أبي داود، ص ٢١٦؛ سنن النسائي بشرح السيوطي:٢/ ٣٧ـ ٣٨. وسنن الترمذي(الجامع الصحيح):٢/ ١٤٨، باب ٢٤٣، حديث٣٢٦ عن طريق أبي سعيد الخدري.

لكم مقام المسجد الحرام، وهذه الصخرة التي وضع رسول الله ﷺ قدمه عليها ليلة الإسراء تقوم مقام الكعبة!

ثمّ بني عليها وبأمر من عبد الملك قبة، وضرب عليها ستائر من الحرير، وجعل لها السدنة، وحثّ الناس على الطواف حولها، وأمست هذه العادة باقية طيلة الحكم الأموي.[١]

وهكذا يلاحظ بأنّ الدافع من وراء وضع العبارة الأخيرة وإضافتها إلى الحديث[٢] على يد الزهري هو إمالة الناس عن السفر إلى بيت الله ـ الذي كان تحت سيطرة عبد الله بن الزبير ـ ودفعهم نحو فلسطين التي كانت تحت سيطرة عبد الملك ومن اعمال الشام، وفي النتيجة حاول الزهري من خلال كلّ ذلك تقوية موقع عبد الملك والحكم الأموي المتمثل به.

ب. وكان الزهري ولأجل أن يقلّل من حدة كراهية الناس لآل مروان ويحرّف موقف الإمام السجاد الإلهي اتجاههم راح يذكره عليه السلام بهذا النحو: «وكان علي بن الحسين من أفضل أهل بيته وأحسنهم طاعة، وأحبهم إلى مروان وابنه عبد الملك».[٣]

في حين انّ درجةعداوة آل مروان لآل علي غير خافية على أحد، وانّ درجة كراهية العلويين لآل مروان واضحة للجميع هي الأُخرى، فلن يصدّق أحد بتهمة طاعة الإمام السجاد لآل مروان فضلاً عن تصديق انّه أطوع الأئمة.

ج. يروي الزهري عن عائشة أنّها قالت:

كنت يوماً عند رسول الله فجاء العباس وعلي فقال رسول الله: يا عائشة

---

١. تاريخ اليعقوبي:٣/ ٨. ويراجع: أضواء على السنة المحمدية، محمود أبو رية، ص ١٥٧.

٢. وإن كان هناك مناقشة في أصل الحديث أيضاً.

٣. الطبقات الكبرى:٥/ ٢١٥؛ البداية والنهاية:٩/ ١٠٦.

هذان يموتان على غير ديني.[١]

ومن الواضح انّ هذا الحديث وضع بدافع الحط من مكانة علي الكبيرة وتألّقه ولإرضاء آل مروان و إلا فمن هذا الذي يصدق بصحة هذا الحديث؟!

والطريف هو انّ الزهري ينقل هذا الحديث عن عروة بن الزبير عن عائشة، والجميع يعلمون كم كانت عائشة تحقد على علي عليه السلام ؟ كما أنّ عروة أيضاً كان من أعداء أهل بيت النبوة، وهذا ابن أبي الحديد يصرح بأنّه مثل أبي هريرة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة الذين كانوا من مرتزقة معاوية في وضع الحديث في طعن علي عليه السلام.[٢]

د. روى الزهري بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله طرق علياً وفاطمة عليهما السلام فقال لهما: ألا تصليان؟ قال علي فقلت: يا رسول الله إنّما أنفسنا بيد الله عزّوجلّ فإن شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف النبي وهو يقول: ﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾.[٣][٤]

إنّ الزهري وبوضعه لهذه القصة الكاذبة يريد أن يصور علياً بصورة إنسان جبري مجادل، إنّ كذب هذه الرواية بحدٍ يُغني عن أي فحص ودراسة.عجباً يجادل وليد الكعبة وقتيل المحراب رسول الله في الصلاة؟!

هـ. يذكر الزهري قصة على لسان علي عليه السلام بالصورة التالية:

انّ علياً قال: كانت لي شارف من نصيبي من المغنم يوم بدر، وكان النبي صلى الله عليه وآله أعطاني ممّا أفاء الله عليه من الخمس يومئذ، فلما أردت أن أبتني بفاطمة عليها السلام بنت النبي صلى الله عليه وآله واعدتُ رجلاً صوّاغاً في بني قينقاع أن يرتحل معي فنأتي باذخر فأردت أن

١. شرح نهج البلاغة: ٤/ ٦٣. ٢. نفس المصدر.

٣. الكهف: ٥٤.

٤. صحيح البخاري: ٩/ ١٠٦، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة؛ أجوبة مسائل جار الله: ٦٩؛ حلية الأولياء: ٣/ ١٤٣.

أبيعه من الصواغين فنستعين به في وليمة عرسي، فبينا أنا أجمع لشارفيّ من الأقتاب والغرائر والحبال وشارفاي مناخان إلى جنب حجرة رجل من الأنصار، حتى جمعت ما جمعت، فإذا أنا بشارفيّ قد أُجبّت أسنمتها، وبقرت خواصرهما، وأخذ من أكبادهما، فلم أملك عينيّ حين رأيت المنظر، قلت: من فعل هذا؟ قالوا: فعله حمزة بن عبد المطلب، وهو في هذا البيت في شرب من الأنصار، عنده قينة وأصحابه، فقالت في غنائها (ألا يا حمز للشُّرف النِّواء)، فوثب حمزة إلى السيف فأجب اسنمتها، وبقر خواصرهما، وأخذ من أكبادهما، قال علي فانطلقت حتى أدخل على النبي ﷺ وعنده زيد بن حارثة، وعرف النبي ﷺ الذي لقيت، فقال: مالك؟ قلت: يا رسول الله ما رأيت كاليوم، عدا حمزة على ناقتيّ فأجبّ اسنمتها، وبقر خواصرهما، وها هو ذا في بيت معه شرب، فدعا النبي ﷺ بردائه فارتدىٰ، ثمّ انطلق يمشي، واتبعته أنا وزيد بن حارثة حتى جاء البيت الذي فيه حمزة، فاستأذن عليه، فأذن له، فطفق النبي ﷺ يلوم حمزة فيما فعل فإذا حمزة ثمل، محمرة عيناه، فنظر حمزة إلى النبي ﷺ ثم صعّد النظر فنظر إلى ركبته ثمّ صعد النظر فنظر إلى وجهه، ثمّ قال حمزة: وهل أنتم إلاّ عبيد لأبي، فعرف النبي ﷺ أنّه ثمل، فنكص رسول الله ﷺ على عقبيه القهقهرىٰ فخرج و خرجنا معه.[1]

وحاول الزهري بوضعه هذه القصة المضحكة أن يرسم لشخصية عظيمة ومتألّقة مثل حمزة سيد الشهداء الذي صلّى نبيّ الإسلام على جثمانه المضمخ بالدماء سبعين مرّة في ساحة الحرب، صورة الإنسان المتحلّل السكّير الذي لا يحترم أية قيمة من القيم والذي لا تتناسب أعماله مع أي مبدأ أخلاقي وديني، ومن الواضح انّ هذه التهم والافتراءات الباطلة التي يوجهها الزهري المرتزق

---

١. صحيح البخاري:٥/ ٨٣، باب قصة غزوة بدر؛ أجوبة مسائل جار الله، ٧٠؛ حلية الأولياء:٣/ ١٤٤.

كانت بدافع تقديم حمزة وتعريفه على أنّه مثل الأمويين غارق في الفساد وملوث مثلهم، وبذلك يخلق لأسياده الأمويين شريكاً في الجريمة.(١)

رسالة الإمام السجاد عليه السلام القاصعة إلى الزهري

ونظراً إلى هذا الماضي الأسود الذي يحمله الزهري كتب الإمام السجاد إليه رسالة حادة اللهجة وبدافع الخير والنصيحة، وهي:

«كفانا الله وإيّاك من الفتن ورحمك من النار، فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك بها أن يرحمك، فقد أثقلتك نعم الله بما أصحّ من بدنك، وأطال من عمرك، وقامت عليك حجج الله بما حمّلك من كتابه وفقّهك من دينه وعرّفك من سنّة نبيّه محمد ﷺ، فرض لك في كلّ نعمة أنعم بها عليك وفي كلّ حجة احتج بها عليك الفرض، فما قضى إلاّ ابتلى شكرك في ذلك وأبدى فيه فضله عليك فقال: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابي لَشَديد﴾ .(٢)

فانظر أي رجل تكون غداً إذا وقفت بين يدي الله فسألك عن نعمه عليك كيف رعيتها ؟ وعن حججه عليك كيف قضيتها؟ ولا تحسبنّ الله قابلاً منك بالتعذير، ولا راضياً منك بالتقصير، هيهات هيهات ليس كذلك أخذ على العلماء في كتابه إذ قال: ﴿لتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾.(٣)

واعلم أنّ أدنى ما كتمت وأخفّ ما احتملت أن آنست وحشة الظالم، وسهلت له طريق الغي بدنّوك منه حين دنوت، وإجابتك له حين دُعيت، فما أخوفني أن تكون تبوء بإثمك غداً مع الخونة، وأن تسأل عمّا أخذت بإعانتك على

---

١. يراجع للمزيد من الاطلاع على وضع هذا الحديث كتاب الصحيح من سيرة النبي الأعظم، للسيد جعفر مرتضى العاملي: ٤/ ٤٠، غزوة بدر.

٢. ابراهيم: ٧.

٣. آل عمران: ١٨٧.

ظلم الظلمة انّك أخذت ما ليس لك ممن أعطاك، ودنوت ممّن لم يردّ على أحد حقاً ولم ترد باطلاً حين أدناك، وأحببت من حادّ الله.

أو ليس بدعائه إيّاك حين دعاك جعلوك قطباً أداروا بك رحى مظالمهم، وجسراً يعبرون عليك إلى بلاياهم، وسُلّماً إلى ضلالتهم، داعياً إلى غيّهم سالكاً سبيلهم، يدخلون بك الشك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهّال إليهم، فلم يبلغ أخص وزرائهم ولا أقوى أعوانهم إلاّ دون ما بلغت من إصلاح فسادهم واختلاف الخاصة والعامة إليهم.

فما أقلّ ما أعطوك في قدر ما أخذوا منك.

وما أيسر ما عمروا لك، فكيف ما خرّبوا عليك.

فانظر لنفسك فانّه لا ينظر لها غيرك، وحاسبها حساب رجل مسؤول، وانظر كيف شكرك لمن غذّاك بنعمه صغيراً وكبيراً، فما أخوفني أن تكون كما قال الله في كتابه: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هٰذا الأَدْنىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا﴾ .(١)

إنّك لست في دار مقام أنت في دار قد آذنت برحيل فما بقاء المرء بعد قرنائه؟! طوبى لمن كان في الدنيا على وجل، يابؤس لمن يموت وتبقى ذنوبه من بعد، احذر فقد نبّئت، وبادر فقد أُجلت، انّك تعامل من لا يجهل، وانّ الذي يحفظ عليك لا يغفل، تجهّز فقد دنا منك سفر بعيد، وداو ذنبك فقد دخله سقم شديد، ولا تحسب انّي أردت توبيخك وتعنيفك وتعييرك، لكنّي أردت أن ينعش الله ما قد فات من رأيك، ويرد إليك ما عزب من دينك، وذكرت قول الله تعالى في كتابه: ﴿وَذكِّر فانَّ الذكرىٰ تَنفع المؤمنين﴾ .(٢)

---

١. الأعراف: ١٦٩.　　٢. الذاريات: ٥٥.

أغفلت ذكر من مضى من أسنانك وأقرانك، وبقيت بعدهم كقرن أعضب؟!

انظر هل ابتلوا بمثل ما ابتليت؟ أم هل وقعوا في مثل ما وقعت فيه؟ أم هل تراهم ذكرت خيراً علموه وعلمت شيئاً جهلوه، بل خطيت بما حلّ من حالك في صدور العامة وكلفهم بك، إذ صاروا يقتدون برأيك، ويعملون بأمرك، إن أحللت أحلّوا، وإن حرّمت حرّموا، وليس ذلك عندك ولكن أظهرهم عليك رغبتهم فيما لديك ذهاب علمائهم وغلبة الجهل عليك وعليهم وحب الرئاسة وطلب الدنيا منك ومنهم.

أما ترى ما أنت فيه من الجهل والغرّة وما الناس فيه من البلاء والفتنة؟! قد ابتليتهم وفتنتهم بالشغل عن مكاسبهم مما رأوا فتاقت نفوسهم إلى أن يبلغوا من العلم ما بلغت أيدركوا به مثل الذي أدركت؟ فوقعوا منك في بحر لا يدرك عمقه وفي بلاء لا يقدر قدره فالله لنا ولك وهو المستعان.

أمّا بعد فأعرض عن كلّ ما أنت فيه حتى تلحق بالصالحين الذين دفنوا في أسمالهم لاصقة بطونهم بظهورهم ليس بينهم وبين الله حجاب ولا تفتنهم الدنيا ولا يفتنون بها، رغبوا فطلبوا فما لبثوا ان لحقوا، فإذا كانت الدنيا تبلغ من مثلك هذا المبلغ مع كبر سنّك ورسوخ علمك وحضور أجلك[1]؛ فكيف يسلم الحدث في سنّه، الجاهل في علمه، المأفون في رأيه، المدخول في عقله؟!

إنّا لله وإنّا إليه راجعون على من المعول؟ وعند من المستعتب؟ نشكو إلى الله

---

١. لو فرض انّ الإمام كتب رسالته تلك في أواخر عمره مع الأخذ بنظر الاعتبار انّ الزهري ولد عام ٥٨هـ وانّ الإمام استشهد عام ٩٤ أو ٩٥، فسنّ الزهري في ذلك الزمان لم يتجاوز ٣٦ سنة ولم يبلغ مرحلة الكهولة بعد، وهنا نطرح عدّة احتمالات: أحدها انّ الزهري ولد قبل عام ٥٨هـ وانّ تاريخ ولادته قد صُحف، فقد كتب ابن خلكان انّ تاريخ ولادته عام ٥١هـ وكتب الذهبي انّه عام ٥٠هـ.

بثّنا وما نرىٰ فيك، ونحتسب عند الله مصيبتنا بك.

فانظر كيف شكرك لمن غذّاك صغيراً وكبيراً؟! وكيف إعظامك لمن جعلك بدينه في الناس جميلاً ؟! وكيف صيانتك لكسوة من جعلك بكسوته في الناس ستيراً؟! وكيف قربك أو بعدك ممّن أمرك أن تكون منه قريباً ذليلاً؟!

ما لك لا تنتبه من نعستك وتستقيل من عثرتك فتقول: والله ما قمت لله مقاماً واحداً أحييت به له ديناً أو أمتّ له فيه باطلاً فهذا شكرك من استحملك! ما أخوفني أن تكون كمن قال الله تعالى في كتابه: ﴿أَضاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾ .[1]

ما استحملك كتابه واستودعك علمه فأضعتها، فنحمد الله الذي عافانا ممّا ابتلاك والسلام».[2]

درس التحرّر

يجب أن لا يعتقد بأنّ الحكام الأمويين لم يفكّروا بنصب المصائد للإمام السجاد مثلما نصبوها للزهري وأمثاله، فقد كان عليه السلام لا يعبأ بما يقومون به من إغراءات ووعود وتهديد وكلّما حاولوا أن يستميلوه إليهم كان يخيب أملهم، ونعرض هنا نموذجين يشهدان على ذلك:

أ. كان عبد الملك بن مروان يطوف بالبيت وعلي بن الحسين يطوف بين يديه لا يلتفت إليه ولم يكن عبد الملك يعرفه بوجهه، فقال: من هذا الذي يطوف بين أيدينا ولا يلتفت إلينا؟ فقيل: هذا علي بن الحسين، فجلس مكانه وقال: ردّوه إليّ ، فقال له:يا علي إنّي لست قاتل أبيك فما يمنعك من المصير إليّ ؟

١ .مريم:٥٩.

٢. تحف العقول عن آل الرسول، ص ٢٧٤ـ ٢٧٧، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري؛ الإمام زين العابدين، عبد الرزاق الموسوي المقرم، ص ١٥٤ـ ١٥٩.

فقال عليه السلام :«إنّ قاتل أبي أفسد بها فعله، دنياه عليه وأفسد أبي عليه بذلك آخرته، فإن أحببت أن تكون كهو فكن» .

فقال: كلا، ولكن صر إلينا لتنال من دنيانا.

فجلس زين العابدين وبسط رداءه فقال: «اللّهمّ أره حرمة أوليائك عندك» فإذا رداءه مملوء درراً يكاد شعاعها يخطف الأبصار، ثمّ قال:«اللّهم خذها فلا حاجة لي فيها».[1]

ب. كان عبد الملك قد اطّلع على أنّ سيف رسول الإسلام بحوزة علي بن الحسين عليه السلام.

(وكان هذا أمراً رائعاً، لأنّه ذكرى الرسول صلى الله عليه وآله، ويبعث على الفخر والاعتزاز، وناهيك عن أنّه رمز الحكم والدولة، لذا كان وجوده في حوزة علي بن الحسين موجباً للقلق لدى عبد الملك، لأنّه كان يجذب الناس) ولذلك أرسل إليه رسولاً يطلب منه أن يبعث السيف إليه، وكتب في أسفل الرسالة بأنّني مستعد لأن أقضي ما تحتاج إليه، فرفض الإمام.

ثمّ كتب عبد الملك رسالة إليه يتوعّده فيها وانّه إذا لم تبعث بالسيف فسوف أحرمك من العطاء ـ و كان لجميع الناس في تلك الفترة عطاء من بيت المال و للإمام أيضاً ـ فكتب الإمام ردّاً على ذلك:

«أما بعد فانّ الله أمن للمتقين المخرج من حيث يكرهون والرزق من حيث لا يحتسبون، وقال جل ذكره﴿ انّ الله لا يحب كلّ خوّان فخور﴾[2] فانظر أيّنا أولى بهذه الآية.[3]

---

١. الخرائج والجرائح:١/ ٢٥٥؛ الصحيفة السجادية الخامسة، السيد الأمين، ص ٤٩٢.

٢. الحج:٣٢.

٣. أعيان الشيعة:١/ ٦٣٥؛ بحار الأنوار:٤٦/ ٩٥؛ دراسة حياة الإمام السجّاد، ص ٧٣.

هـ. نشر الأحكام والأفكار التربوية والأخلاقية

والصعيد الآخر من أصعدة الجهاد للإمام السجاد للمظالم والانحرافات في عصره هو بث الأحكام الإسلامية وتبيين القضايا التربوية والأخلاقية، وقد خطا الإمام خطوات عظيمة في هذا المجال، لدرجة انّه حاز على إعجاب العلماء كما كتب عن ذلك عالم الشيعة الكبير الشيخ المفيد:«وقد روى عنه فقهاء العامة من العلوم ما لا تحصى كثرة وحفظ عنه من المواعظ والأدعية وفضائل القرآن والحلال والحرام والمغازي والأيام ما هو مشهور بين العلماء ولو قصدنا شرحه لطال بنا الخطاب.»[١]

ومن آثار الإمام السجاد عليه السلام التربوية والأخلاقية رسالة الحقوق، وهي رسالة بيّن فيها الإمام وظائف الإنسان وواجباته تجاه الله تعالى ونفس الإنسان والآخرين، وقد عدّد الإمام هذه الوظائف التي تجاوزت الخمسين حقاً بشكل إجمالي في البداية ثمّ فصّلها بعد ذلك.[٢]

إنّ رسالة الحقوق هذه التي نقلها المحدّثون وسجلت في كتب الحديث قد طبعت مستقلة وشرحت وترجمت مرات عديدة.

أمّا فهرس الحقوق التي بيّنها فبالصورة التالية:

١ .حق الله، ٢. حق نفس الإنسان، ٣. حقّ اللسان، ٤. حقّ الاذن، ٥. حقّ العين، ٦ . حقّ اليد، ٧. حقّ القدم، ٨. حقّ البطن، ٩. حقّ العورة، ١٠.

---

١. الإرشاد: ٢٦٠.

٢. نقل المرحوم الشيخ الصدوق هذه الرسالة في كتاب الخصال(أبواب الخمسين وما فوقه) مسنداً، وفي كتاب من لا يحضره الفقيه مرسلاً. ونقلها الحسن بن شعبة في كتاب تحف العقول أيضاً بلا سند ولكن بشكل أكثر تفصيلاً. عدد الحقوق على نقل الصدوق واحد وخمسون، وعلى رواية ابن شعبة خمسون حقاً ـ راجع زندگانى علي بن الحسين ، الدكتور الشهيدي، ص ١٦٩ـ١٨٨.

حقّ الصلاة، ١١. حقّ الحجّ، ١٢. حقّ الصوم، ١٣. حقّ الصدقة، ١٤. حقّ الأضحية، ١٥. حقّ السلطان، ١٦. حقّ المعلم، ١٧. حقّ مالك الرقيق، ١٨. حقّ الرعية، ١٩. حقّ التلاميذ، ٢٠. حقّ المرأة، ٢١. حقّ العبد، ٢٢. حقّ الأُمّ، ٢٣. حقّ الأب، ٢٤. حقّ الابن، ٢٥. حقّ الأخ، ٢٦. حقّ المعتق، ٢٧. حقّ المعتَق، ٢٨. حقّ عامل الخير، ٢٩. حقّ المؤذن، ٣٠. حقّ الإمام، ٣١. حقّ الجليس، ٣٢. حقّ الجار، ٣٣. حقّ الصاحب، ٣٤. حقّ الشريك، ٣٥. حقّ المال، ٣٦. حقّ الدائن، ٣٧. حقّ المعاشر، ٣٨. حقّ العدو على الإنسان، ٣٩. حقّ الإنسان على العدو، ٤٠. حقّ المستشير، ٤١. حقّ المستشار، ٤٢. حقّ طالب النصيحة، ٤٣. حقّ الناصح، ٤٤. حقّ الكبير، ٤٥. حقّ الصغير، ٤٦. حقّ السائل المحتاج، ٤٧. حقّ المسؤول، ٤٨. حقّ مفرح الإنسان، ٤٩. حق المسيء، ٥٠. حقّ المسلم ٥١. حق الذمة.

و. ملاذ المساكين

ومن جوانب حياة الإمام الرابع المتألّقة هو خدماته الاجتماعية في ذلك العصر المظلم، وقد استمرت هذه الخدمات من قبل الإمام طيلة حياته، سواء في الأيام العصيبة والمضطربة التي عاشتها المدينة في مأساة الحرة، أو في الفترة المستقرة التي كان المحتاجون والمساكين ينتظرون اليد الحنون التي تمتد إليهم بحب وسخاء، وقد نقل التاريخ لنا نماذج بارزة من تلك الخدمات:

فقد كان الإمام السجاد عليه السلام يعول مائة عائلة فقيرة في المدينة.[1]

١. حلية الأولياء:٣/ ١٣٦؛ تذكرة الخواص، ص ٣٢٧؛ كشف الغمة:٢/ ٢٨٩؛ نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار ص ١٤٠؛ بحار الأنوار:٤٦/ ٨٨؛ مناقب آل أبي طالب:٤/ ١٥٤؛ الطبقات الكبرى:٥/ ٢٢٢؛ اسعاف الراغبين(في هامش نور الأبصار) الشيخ محمد الصبان ص ٢١٩؛ الإتحاف بحب الأشراف ص ١٣٦.

وكان جماعة من أهل المدينة يعيشون على الطعام الذي كان يأتيهم ليلاً ومن دون معرفة حامله إليهم، وبعد رحيل علي بن الحسين عرفوا لتوهّم بأنّ الشخص الذي كان يأتيهم بالطعام هو علي بن الحسين.[١]

فقد كان يحمل الطعام وجراب الخبز على ظهره متنكّراً إلى بيوت الفقراء، ويقول: «إنّ صدقةالسر تطفئ غضب الله».[٢]

وكان أهل المدينة يقولون:

ما فقدنا صدقة السر حتى مات علي السجّاد.[٣]

وكان الإمام عليه السلام لكثرة ما كان يحمله من جرب الدقيق والأطعمة الأُخرى على ظهره ويأخذه بنفسه إلى بيوت الفقراء طيلة سنوات مديدة حتى اسودّ ظهره، وانّه وبعد استشهاده غسّلوه وجعلوا ينظرون إلى آثار السواد في ظهره وقالوا: ما هذا؟ فقيل: كان يحمل جرب الدقيق ليلاً على ظهره يعطيه الفقراء.[٤]

ز. المركز التربوي

كانت العبودية حينما ظهر الإسلام سائدة في ذلك العصر في أنحاء العالم حتى في حضارة اليونان والروم، ولمّا كان القضاء على هذه الظاهرة المنتشرة غير ممكن دفعة واحدة، وفّر الإسلام ومن خلال طرق مختلفة الأرضية للقضاء عليها

١. كشف الغمة ٢/ ٢٨٩؛ نور الأبصار: ١٤٠، حلية الأولياء ٣/ ١٤٠؛ البحار: ٤٦/ ٨٨.
٢. كشف الغمة: ٢/ ٢٨٩؛ حلية الأولياء: ٣/ ١٣٦؛ تذكرة الخواص: ٣٢٧.
٣. حلية الأولياء: ٣/ ١٣٦؛ نور الأبصار: ١٤٠؛ البحار: ٤٦/ ٨٨؛ الإتحاف ١٣٦؛ كشف الغمة: ٢/ ٣١٣؛ تذكرة الخواص: ٣٢٧.
٤. حلية الأولياء: ٣/ ١٣٦؛ كشف الغمة: ٢/ ٢٨٩؛ مناقب ابن شهر آشوب: ٤/ ١٥٤؛ الخصال: ٥١٧و ٥١٨.

بالتدريج.

فمن ناحية قلّص طرق الاسترقاق وحدّدها، وقد جعل العتق كفّارة لكثير من الذنوب والمعاصي.

من ناحية ثانية وفّر لهم سبل الحرية.

ومن جهة ثالثة قد أوصى نبي الإسلام المسلمين بأن يعاملوا العبيد معاملة حسنة كما لو كانوا عضواً من أعضاء الأُسرة، وأمر الموالي بأن يطعموهم مما هم يأكلون ويكسوهم ما يكتسون هم به. وفضلاً عن ذلك قدّم عملية العتق بأنّها تحتوي على قيمة وثواب وفضل كبير لدرجة نجد انّ رواياتنا شبّهت الكثير من الأعمال الصالحة من ناحية كثرة الثواب والفضيلة بالعتق وتحرير العبيد، وبهذا النحو شُجع المسلمون على القيام بذلك .

كلّ ذلك يوضح نظرة الإسلام حول العبودية لدرجة ما.[1]

ومن هذا المنطلق ينبغي تحليل التعامل الخاص والرائع للإسلام وأئمته مع قضية العبودية.

وعلى أية حال تبقى قضية تحرير العبيد حينما ندرس حياة الإمام الرابع أيضاً ملفتة للنظر بيد أن نطاق هذه العملية واسع جداً لدرجة انّه لا يمكن تبريرها وفق التقديرات المسبقة، ويبدو انّ للإمام الرابع في عمله هذا دوافع أُخرى أرقى ممّا ذكر، ويوضح لنا التدقيق في هذا المجال انّه كان للإمام في عمله هذا نظرة تربوية وإنسانية، وذلك انّه كان يشتري العبيد ويخضعهم لأجواء تعليمية وتربوية ثمّ يحرّرهم بعد ذلك وكانوا يمارسون نشاطهم الثقافي والتربوي بصفتهم

١ . راجع في هذا المجال «العبودية في الإسلام» محمد صادق ايرجي، رسالة بكالوريوس.

شخصيات نموذجية، وتظل علاقتهم بالإمام مستمرة بعد تحريرهم أيضاً.

كتب علي بن طاووس ضمن أعمال شهر رمضان: وكان علي بن الحسين عليه السلام يعتق في آخر ليلة من شهر رمضان ما بين العشرين رأساً إلى أقل أو أكثر، وكان يقول: «إنّ لله تعالى في كلّ ليلة من شهر رمضان عند الإفطار سبعين ألف عتيق من النار كلاً قد استوجب النار، فإذا كان آخر ليلة من شهر رمضان أعتق فيها مثل ما اعتق في جميعه، وأنّي لأُحب أن يراني الله وقد أعتقت رقاباً في ملكي في دار الدنيا رجاء أن يعتق رقبتي من النار. وما استخدم خادماً فوق حول كان إذا ملك عبداً في أوّل السنة أو في وسط السنّة إذا كان ليلة الفطر أعتق واستبدل سواهم في الحول الثاني ثمّ أعتق كذلك كان يفعل حتى لحق بالله تعالى، ولقد كان يشتري السودان وما به إليهم من حاجة يأتي بهم عرفات فيسدّ بهم تلك الفرج والخلال، فإذا أفاض أمر بعتق رقابهم وجوائز لهم من المال.[١]

وحسب ما قاله أحد الكتّاب: إنّ العبيد ما ان يسمعون بذلك يحررون أنفسهم من أسر عبودية الأشراف والوجهاء ويقدّمون أنفسهم لخدمة زين العابدين.

وكانت الأيام تمضي وعلي بن الحسين يواصل تحريره للعبيد، فقد كان يكرر ذلك في كلّ عام وشهر وكلّ يوم وبمناسبات مختلفة، لدرجة انّه قد تشكّلت مجموعة ضخمة من العبيد والجواري الذين حرّرهم في المدينة.[٢]

وكما أُشير إليه يمكن أن نستنتج من كلّ ذلك انّ الإمام و من خلال هذا المنهاج قد أحدث مركزاً تربوياً كان يشتري العبيد ويعيّشهم في أجواء تعليمية

---

١. إقبال الأعمال ، دار الكتب الإسلامية ، ص ٢٦١.

٢. حياة زين العابدين، عبد العزيز سيد الأهل، ص ٥٥، مترجم.

وتربوية لفترة ثمّ بعد تحريرهم يصبح كلّ منهم نموذجاً يحتذى به، ولم يكونوا يقطعون علاقتهم المعنوية والروحية مع الإمام و كانوا بدورهم يقومون بنشاطهم التربوي تجاه الآخرين.

إنّ هذا المنهاج الذي اتّبعه الإمام وعلى الرغم من وجود التضييق من ناحية قيادة وإرشاد المجتمع بشكل مباشر جدير جداً بالالتفات والدراسة.[1]

١. استفدت في كتابة هذا الفصل من كتاب «الإمام الرابع حامي ثورة كربلاء» لصديقي وأخي العالم السيد علي أكبر الحسني (فارسي).

الإمام محمد الباقر عليه السلام

*مؤسس النهضة العلمية الكبرى

* تلاميذ مدرسة الإمام عليه السلام

* باقر العلوم وفاتح أبواب المعرفة

* تاريخ منع كتابة الحديث من قبل الخلفاء

* الشيعة مؤسسو كتابة الحديث

* الإمام الباقر في الشام

نبذة مختصرة من حياة الإمام عليه السلام

ولد الإمام الباقر عليه السلام عام ٥٧ هجرية في المدينة وكان عمره حينما رحل أبوه الإمام زين العابدين سبعة وثلاثين أو ثمانية وثلاثين عاماً، اسمه محمد، وكنيته أبو جعفر، ولقبه الباقر وباقر العلوم، أُمّه أُمّ عبد الله بنت الإمام الحسن المجتبى، ولذلك هو أوّل من كان علوياً وفاطمياً من الأب والأُمّ.

توفّي الإمام عام ١١٤ هجرية في المدينـة ودفن في المقبرة المعروفة بالبقيع إلى جانب قبر أبيه وجدّه، وقد استغرقت إمامته تسعة عشر أو عشرين عاماً.[١]

الخلفاء المعاصرون للإمام

عاصر الإمام الخامس خلال فترة إمامته من الحكام والخلفاء :

١. الوليد بن عبد الملك (٨٦ـ ٩٦هـ).

٢. سليمان بن عبد الملك(٩٦ـ ٩٩هـ).

٣. عمر بن عبد العزيز(٩٩ـ١٠١هـ).

٤. يزيد بن عبد الملك (١٠١ـ ١٠٥هـ).

---

١. الكليني، الأُصول من الكافي:١/ ٤٦٩؛ الإرشاد، ص ٢٦٢؛ إعلام الورى بأعلام الهدى، ص ٢٦٤.

٥. هشام بن عبد الملك(١٠٥ـ١٢٥هـ).

كان جميع هـؤلاء الخلفاء ـ باستثناء عمـر بن عبد العزيز الـذي كان عادلاً نسبياً ويميل إلى أهل البيـت ـ مثل أجدادهم في الظلم والاستبـداد والغطرسة ولا يقلّون عنهم شيئاً لا سيما انّهم كانوا يضايقون الإمام كثيراً.

مؤسس النهضة العلمية الكبرىٰ

مارس الإمـام الخامس خلال مـدة إمامتـه وفي تلك الظروف العصيبـة بثّ المعارف والعلـوم الإلهية وحلّ المعضـلات العلمية وأحـدث حركة علميـة عظيمة مهدت لتأسيس جامعة إسلامية ضخمة بلغـت ذروتها في فترة إمامـة ابنه الكـريم الإمام الصادق عليه السلام ، فقد كـان الإمام الخامس أبرز وجهـاء بني هاشـم في العلم والـزهد والفضـل وعلو المنـزلة، وقـد اعترف العدو والصـديق بمنـزلته العلميـة والأخلاقية الكبيرة، ولم يخلف أحد من أبناء الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام إلى ذلك الحين بقدر ما خلّفـه الإمام الباقر من الروايـات في مجال الأحكام الإسلامية والتفسير و تاريخ الإسلام والمعارف الأُخرى.(١)

وقد أفاد رجال وشخصيات علمية كبيرة وأيضاً بعض من أصحاب الرسول الذين كانوا على قيد الحياة من نمير علومه، منهـم:

جابر بن يزيد الجعفي وكيسان السجستاني (من التابعين) وفقهاء أمثال: **ابن المبارك، الزهري، الأوزاعي، أبو حنيفة، مالك، الشافعي، وزياد بن منذر النهدي** كلّهم قد أفادوا من معارفه ونقلوا أحاديثه بشكل مباشر تارة وبغير مباشر مرة أُخرى وانّ كتب ومؤلفات علماء أهل السنّة ومـؤرّخيهم مثل :الطبري، البلاذري، السلامي،

---

١. الإرشاد، ص ٢٦١.

الخطيب البغدادي، أبو نعيم الاصفهاني وكتب مثل موطأ مالك، سنن أبي داود، مسند أبي حنيفة، مسند المروزي، تفسير النقاش، تفسير الزمخشري والعشرات من أمثالها التي هي من أهمّ كتب أهل السنّة مليئة بأحاديث الإمام الخامس العميقة فيقولون :قال محمد بن علي، أو قال محمد الباقر.[1]

وقد امتلأت كتب الشيعة أيضاً من أحاديث وكلمات الإمام الباقر عليه السلام ، ويقرّ بذلك كلّ من له أدنى معرفة بتلك الكتب.

الإمام الباقر عليه السلام في رأي العلماء

ولاشتهاره بكثرة المعرفة والعلوم في أرجاء العالم الإسلامي تمتع الإمام الباقر عليه السلام بلقب باقر العلوم.

فكتب ابن حجر الهيتمي: «أظهر من مخبئات كنوز المعارف وحقائق الأحكام والحكم واللطائف ما لا يخفى إلاّ على منطمس البصيرة أو فاسد الطويةوالسريرة، و من ثمّ قيل فيه هو باقر العلم وجامعه، وشاهر علمه ورافعه».[2]

وقال عبد الله بن عطاء ،أحد الشخصيات البارزة ومن العلماء الكبار المعاصرين للإمام: ما رأيت العلماء عند أحد قط أصغر منهم عند أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين، ولقد رأيت الحكم بن عتيبة مع جلالته في القوم بين يديه كأنّه صبيٌّ بين يدي معلمه.[3]

---

١. مناقب آل أبي طالب:٤/ ١٩٥.   ٢. الصواعق المحرقة ، ص ٢٠١.

٣. تذكرة الخواص ص ٣٣٧؛ كشف الغمة:٢/ ٣٢٩؛ إعلام الورى بأعلام الهدى ص ٢٦٩؛ البداية والنهاية:٩/ ٣١١،و قد ذكر في بعض النسخ الحكم بن عيينة غير انّ الصحيح هو عتيبة، ويراجع علم الحديث ودراية الحديث ص ٦٧.

وكان عليه السلام غالباً ما يستشهد في كلامه بالآيات القرآنية ويقول: إذا حدّثتكم بشيء فاسألوني عن كتاب الله.[١]

تلامذة مدرسة الإمام الباقر عليه السلام

قد ربّى الإمام الباقر عليه السلام تلاميذ بارزين في مجال الفقه والحديث والتفسير والعلوم الأُخرى، وكان لكلّ واحد منهم ثقله العلمي فشخصيات كبيرة، مثل: **أبي محمد بن مسلم، زرارة بن أعين، أبو بصير، بريد بن معاوية العجلي، جابر بن يزيد، حمران بن أعين، وهشام بن سالم** قد تربت في مدرسته، و كان الإمام السادس يقول:«ما أحد أحيا ذكرنا و أحاديث أبي عليه السلام إلا **زرارة وأبو بصير ليث المرادي ومحمد بن مسلم وبريد بن معاوية العجلي**، ولولا هؤلاء ما كان أحد يستنبط هذا، هؤلاء حفّاظ الدين وأُمناء أبي على حلال الله وحرامه، وهم السابقون إلينا في الدنيا والسابقون إلينا في الآخرة».[٢]

وقد كان تلاميذ مدرسة الإمام الباقر عليه السلام من أكبر فقهاء ومحدّثي عصرهم، وكان لهم الأفضلية على الفقهاء والقضاة غير الشيعة في مجال البحث والمنافسة العلمية.

باقر العلوم وفاتح أبواب المعرفة

حوّلت آثار الإمام الخامس العلمية المتألّقة والتلامذة البارزون الذين قدمتهم مدرسته الكبيرة إلى المجتمع نبوءة نبي الإسلام إلى أمر حقيقي واقع وراوي هذه النبوءة هو **جابر بن عبد الله الأنصاري** الشخصية الشهيرة في صدر

١. الاحتجاج، ص ١٧٦.
٢. اختيار معرفة الرجال، المعروف برجال الكشي، ص ١٣٦ـ ١٣٧، الحديث رقم ٢١٩.

الإسلام. فقد كـان يقول وهو أحد أصحـاب نبي الإسلام الكبار ومـن محبي أهل بيت النبوة :سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إنّك ستدرك رجلاً منّي، اسمه اسمي، وشمائله شمائلي، يبقر العلم بقراً».

وقد تنبّأ نبي الإسلام بهذه النبوءة ولمّا يكن الإمـام الباقر مولوداً بعد. مضت عدة سنوات على ذلك وحان موعد ظهور الإمام الرابع.

فبينما جابـر ذات يوم يتردّد في بعض طـرق المدينة إذ مر محمـد بن علي، فلمّا نظر إليـه قال: أقبل، فـأقبل، فقال: أدبر، فـأدبر، فقال: شمائل رسـول الله والذي نفس جابر بيده، ما اسمك يا غلام؟ قال عليه السلام : «محمد بن علي بن الحسين» فقبّل جابر رأسـه ثمّ قال: أبوك رسول الله يقـرئك السلام، ومنذ ذلك الحين كـان جابر يأتيـه ويزوره مرتين في اليـوم تقديراً وتعظيماً لـه، وكان يجلس في مسجـد النبي بين الجموع من الناس ـ ردّاً على بعض المغرضين الذين كانوا ينتقدونه على عمله هذا ـ و يحدّثهم بنبوءة رسول الله.(١)

نقطة هامة

يجب أن نشير إلى نقطة هـامة هنا و هـي انّ قصة لقاء جابـر بالإمام البـاقر وإبلاغه سـلام رسول الله إليه قد وردت في روايات مختلفـة وبمضامين متشابهة في كتـب: رجـال الكشي، كشف الغمـة، أمـالي الصـدوق، أمالي الشيـخ الطـوسي، واختصاص المفيـد، وغيرها من الكتـب بيد انّ هذه الروايـات تبدو متناقضـة من جهتين:

الأُولى: هي انّ بعضها تفيـد انّ جابراً قد التقى بالإمـام الباقر عليه السلام في أحد

---

١. بحار الأنوار:٤٦/ ٢٢٦.

أزقـة المدينة، وبعضهـا الآخر يقـول في بيت الإمـام، ووفقاً للطـائفة الثـالثة منهـا انّه عليه السلام ذهب بنفسه إلى جابر و هناك تعرف عليه.

الثانية: انّه قد جاء في بعض هذه الروايـات وبصراحة انّ جابراً كان مكفوفاً في تلك الفترة، غير انّ البعض الآخـر منها يفيد بأنّ جابراً نظـر إلى الإمام الخامس بدقة و إمعان و من الواضح انّ هذا يتنافي مع عمى جابر.

وللإجابة عـن هذا التناقض يجب أن يقال بأنّه لو دقّقنـا لما كنّا نلاحظ أي تعارض بين هذه الروايـات، لأنّ القرائن تدلّ على أنّ جابراً لحبه وإخـلاصه لأهل بيت النبوة كـان يكرر نبوءة النبي و إقراء السـلام، وكان يرمي مـن خلال ذلك إلى تبيين عظمة الإمام الباقر بشكل أفضل، وعليـه ما الإشكال في أن يتكرر هذا الأمر مرات عديدة وفي مواضع ومناسبات مختلفة؟!

وأمّا الإجابـةعن التناقض الثـاني، فإنّه قد تكـون الروايات التي تنقـل رؤية جابر له عليه السلام متعلّقة بفترة مـا قبل عماه، كما ينقل الشيخ المفيـد عن الإمام البـاقر عليه السلام انّه قال: «دخلت على جابر بن عبد الله فسلّمت عليه، فردّ عليّ السلام، وقال لي: من أنت، وذلك بعد ما كفّ بصره...»[١]

وقد روى مثل هذا الحديث السبط ابن الجوزي أيضاً.[٢]

الظروف السياسية والاجتماعية

قلنا: إنّ الإمام الباقر عليه السلام كان معاصراً لخمسة من الخلفاء الأمويين، والآن سندرس طبيعـة كلّ واحد منهم وخصـوصياتهم في الحكم وإدارة المجتمـع حتى يتّضح نوع الظروف السياسية والاجتماعية التي كان يعيش في ظلها.

---

١. الإرشاد، ص ٢٦٢.
٢. تذكرة الخواص، ص ٣٣٧.

الوليد بن عبد الملك

كان الوليد بن عبد الملك أوّل مـن عاصر الإمام الخامس من الخلفاء، ولأنّا تحدّثنا حول خصوصياته خلال سيرة الإمام السجاد، فما سنضيفه هنا فقط هو انّ عهد خلافة الوليد كان فترة فتوحات وانتصارات المسلمين في حروبهم مع الكفّار، ففي عهده اتّسـع نطاق الحكم الأموي من الشرق إلى الغرب، ونتيجـة للاستقرار الذي كان سائداً في البلاد أبّان حكمه، استطاع أن يـواصل الفتوحات التي بدأها الخلفـاء السابقـون، ولـذلـك اتّسعت دائرة سلطتـه مـن نـاحية الشرق والغـرب والتحقت مناطق مـن الهند وكابل وكاشغر وطوس ومناطـق مختلفة واسعة أُخرى بالبلاد الإسلامية الشاسعة، وامتدت رقعة فتوحاته إلى الأندلس وانهزمت جيوش امبراطورية الأنـدلس أمام القوات التـي تحت قيادة موسى بـن نصير قائد الجيش الإسلامي وأصبحت هذه البلاد بيد المسلمين.(١)

سليمان بن عبد الملك

كانت فترة خـلافة سليمان بن عبد الملك قصيرة حيث إنّها لم تـدم أكثر من ثلاث سنوات.(٢)

وقد أبـدى سليمان ليونـة في بدايـة عهده ، ومـا أن سيطر على الأُمـور فتح أبـواب السجون في العـراق وأطلق سراح الآلاف مـن السجنـاء الأبريـاء الذيـن سجنهم الحجاج بن يـوسف، وعزل الولاة وجباة الخراج الذيـن نصبهم الحجاج، وألغى الكثير من سياساته الظالمة والقمعية.

---

١. الأندلس أو تاريخ دولة المسلمين في أوربا ص ١٧ـ١٨ (فارسي).

٢. الكامل في التاريخ :٥/ ١١ و ٣٧؛ مروج الذهب:٣/ ١٧٣ و١٨٢ .

نار الانتقام

كـان قرار سليمان في إطـلاق سراح سجنـاء العراق الأبـريـاء قراراً سريعـاً وعاجـلاً، فقد غيّر سياستـه هذه فيما بعد واعتماداً على تقـديرات شخصية وتـأثراً بمشاعر الانتقام لطخّ يده بالظلم والجرائم، فقد ضايق المضريّين ودعم منافسيهم من القبائل اليمنية(القحطانيّين) كلّ ذلـك بدافـع العصبية[١]، وقتل بعـض قادة الجيـش والشخصيات البـارزة، وأهمل موسـى بن نصير وطارق بـن زياد وهما مـن الأبطال الشجعان الذين فتحوا الأندلس.[٢]

وكتب مؤلف تاريخ الإسلام السياسي:

كان سليمان يتعـامل مـع ولاته حسب وجهـة نظر خاصـة، فقد كـان يهتم ببعض ويخطـط لبعض آخر للقضـاء عليه، وممّن عـاداهم سليمان محمد بن مسلم والي الهند، وقتيبة بـن مسلم عامله على ما وراء النهر، وموسى بن نصير واليه على الأندلس.[٣]

وقد انبثق كلّ هذا العداء من دوافـع شخصية ومنافسات قبلية ولا يسعنا ـ للأسف ـ التطرق إليها بشكل أعمق.

الفساد في بلاط الخلافة

وكان سليمان صـاحب أكل كثير يجوز المقدار، وكـان يلبس الثياب الـرقاق وثياب الوشي، و في أيّامه عمل الوشي الجيد بـاليمن والكوفة والاسكندرية، ولبس الناس جميعـاً الوشي جباباً وارديـة، وكان لا يدخـل عليه رجل من أهـل بيته إلاّ في

١. تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية عمر فروخ ص ١٩٧.
٢. مختصر تاريخ العرب: ١٢٥.
٣. تاريخ الإسلام السياسي:١/ ٤٠١.

الوشي، وكذلك عماله وأصحابه ومن في داره، وكان لا يدخل عليه أحدمن خدّامه إلاّ في الوشي.[١]

عمر بن عبدالعزيز

ومع أنّ وصية عبد الملك بن مروان أبي سليمان تنص على أنّ الخليفة بعد سليمان هو أخوه يزيد بن عبد الملك، غير انّه حينما مرض سليمان وعلم أنّ أجله آت اختار ـ لأسباب معينة ـ عمر بن عبد العزيز خليفة بعده، وحينما أُعلن عن خلافة عمر بن عبد العزيز في المسجد بعد وفاة سليمان رحب الحاضرون بهذا الاختيار وبايعوه.[٢]

وراح عمر بن عبد العزيز الذي واجه أوضاع الناس المتردية، وشاهد موجات غضبهم وكراهيتهم الكبيرة لجهاز الحكم الأموي يواسي المحرومين والمضطهدين، ويكتب كتاباً إلى عماله وولاته في أرجاء البلاد جاء فيه: أمّا بعد فإنّ الناس قد أصابهم بلاء وشدّة وجور في أحكام الله وسنن سيئة سنّتها عليهم عمّال السوء، قلّما قصدوا قصد الحقّ والرفق والإحسان، ومن أراد الحجّ فعجلوا عليه عطاءه، حتى يتجهّز منه، ولا تحدثوا حدثاً في قطع وصلب حتى تؤامروني.[٣]

مكافحة الفساد والتمييز

ومضافاً لذلك وبعد أن استتب له الأمر، عرض عمر بن عبد العزيز خيول

---

١. مروج الذهب:٣/ ١٧٥.

٢. نفس المصدر :٣/ ١٨٣.

٣. تاريخ اليعقوبي:٣/ ٥٠.

وركائب البلاط للمـزايدة العلنية، وأودع ثمنها في خزانة بيـت المال، وأمر زوجته فاطمة بنت عبدالملك بأن ترد جميع الأموال والحلي والهدايا الثمينة المهداة إليها من قبل أبيها وأخيهـا من بيت المال إليه، وخيّرهـا بين ردّها و بين تركه ومغـادرة بيته. فأطاعته وردّت جميع الحلي والمجوهرات المتعلّقة ببيت المال.[١]

ولم يكتف عمر بن عبد العزيز بتعريـف العدالة لزوجته وسلبها حقّ الناس فقط، بل راح يبيع جميع ممتلكات وثياب عبد الملك الثمينة ورد ثمنها البالغ أربعة وعشرين ألف دينار إلى بيت المال.[٢]

وقـد وسع عمـر بن عبـد العـزيز نطـاق كفاحـه، الـذي بدأ إصـلاحاتـه الاجتماعية ومكافحته للفساد بهذا النحو من بيتـه وجهاز الخليفة السابق ، وعرّض الأمويين وأبنـاء عمومته للمحـاسبة، وأمرهـم بإرجـاع الأموال العامـة التي تحت يـدهم إلى بيـت المال، واسترد وبكـلّ صلابـة جميع الأمـوال التـي استولى عليهـا الأمويـون وسلبوها من النـاس وأدّاها إلى أصحابها، وضيّق على الأمـويين، وكفى الناس وأموالهم شرّهم إلى حد كبير.[٣]

أثـارت هذه السيرة التـي اتّخذها عمـر بن عبـد العزيـز حفيظة الأمـويين وبدأوا يتحاملون عليه ويثيرون الفتن، ولذلك عنـدما التقاه بعض أقاربه قال له: ألا تخشى أن يثـور قومك عليك ويسلبـون الخلافة؟ فقال: إنّي لا أخشـى إلاّ يوم الحساب.[٤]

---

١. تاريخ الخلفاء ص ٢٣٢؛ الإمامة والسياسة: ٢/ ١١٦؛ مختصر تاريخ العرب ص ١٢٩.
٢. الإمامة والسياسة:٢/ ١١٦.
٣. تاريخ الخلفاء، ص ٢٣٢.
٤. الأخبار الطوال، ص ٣٣١.

سبُّ علي عليه السلام ممنوع

وكما لاحظنا كان عمر بن عبد العزيز ـ بالمقارنة بينه و بين الخلفاء الأمويين الآخرين ـ رجلاً عادلاً نسبياً وعلى الرغم من عدم تأييد حكمه من قبل المعصومين عليهم السلام ووضعه في قائمة الطغاة، غير انّه وعلى أيّة حال فقد كافح الكثير من مظالم أسلافه، ولم يكن حكمه خالياً من نفع وخدمة للمسلمين.

إنّ من أهمّ إنجازاته وخدماته للإسلام والإنسانية والتي تتألّق من بين صحيفة أعماله الشخصية و الحكومية هو إلغاء بدعة سبّ أمير المؤمنين عليه السلام، وقد قدّم خدمة عظيمة للشيعة، بل للإنسانية جمعاء من خلال إلغاء بدعة شائنة جاوز عمرها ٦٠ عاماً.

كانت هذه البدعة من تراث معاوية المشؤوم، معاوية الذي قرّر بعد استشهاد أمير المؤمنين عام ٤٠ هجرية وسيطرته على الأوضاع أن يقدّم علياً ومن خلال إعلامه المضاد، ويعرّفه بأنّه من أبغض شخصيات العالم الإسلامي، ولأجل تحقيق هذا الهدف ضيّق الخناق على أتباع أمير المؤمنين ومواليه وضغط عليهم من جهة وبسطوة السيف والرماح منع من تناقل فضائله ومناقبه، ولم يسمح حتى بأن ينقل حديث أو رواية أو بيت واحد في مدح وفضل الإمام علي عليه السلام.

ومن ناحية أُخرى ولأجل تشويه شخصية الإمام عليه السلام المتألّقة حثّ المحدّثين من مرتزقة جهاز الحكم الأموي بأن يضعوا أحاديث في طعن علي عليه السلام، ومن خلال ذلك وضعت أحاديث كثيرة وانتشرت بين الناس، ولم يكتف معاوية بذلك بل أصدر أمراً بأن يلعن ويسب على المنابر في كلّ خطبة من خطب أيام الجمعة في أرجاء العالم الإسلامي، فشاعت هذه البدعة المشؤومة وأثرت في الرأي العام وتحوّلت إلى أمر ذي جذور، لدرجة أصبح الأطفال يتربّون على بغض

علي عليه السلام، والكبار يرحلون عن الدنيا وهم يحملون له مشاعر الكراهية.

وبعد معاوية اتبع الخلفاء الأمويون هذه البدعة أيضاً، واستمرت حتى نهاية القرن الأوّل الهجري حيث تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة.[١]

تأثيرات معلم

ويظل هنا هذا السؤال مطروحاً وهو انّه ما هو دافع عمر بن عبد العزيز من ذلك، و ما السبب الذي جعله يقوم هو فقط بهذا العمل الكبير دون الخلفاء الآخرين؟

الإجابة على هذا السؤال هي انّه قد حدثت له حادثتان صغيرتان في الظاهر أيام طفولته غيّرتا مجرى تفكيره الذي كان متأثراً بالرأي العام وأحدثتا ثورة فيه، وفي الواقع انّ هذا الحدث الكبير الذي حدث في عهده كان مقدراً له منذ ذلك اليوم.

الحادثة الأُولى حدثت عندما كان يدرس على أُستاذه عبيد الله الذي كان رجلاً مؤمناً ورعاً وعالماً، كان عمر يلعب مع الصبيان فمر به أُستاذه يوماً وهم وعمر يلعنون علياً، فكره الأُستاذ ذلك ولم يقل شيئاً، ودخل المسجد، وترك عمر الصبيان وجاء إليه ليدرس عليه، فلما رآه أُستاذه قام إلى الصلاة وأطال فيها، فشعر عمر كأنّه معرض عنه، فلمّا أنهى صلاته، كلح في وجهه، فقال: فمتى علمت أنّ الله سخط على أهل بدر وبيعة الرضوان بعد ان رضي عنهم؟![٢] قال: هل كان علي من أهل بدر؟ فقال الشيخ: ويحك وهل كانت بدر كلها إلاّ له؟ فقال عمر:

١. شرح نهج البلاغة: ٣/ ٥٧.

٢. كان علي عليه السلام من المشاركين في حرب بدر وبيعة الرضوان، بل كان على رأسهم.

لا أعود لمثلها.

أثرت كلمات الأُستاذ المنطقية والبليغة عليه بشدة، وقرّر عمر منذ ذلك اليوم بأن لا يـذكر علياً بسوء، ولكنّـه كان يسمـع في الإزقة والسـوق وحينما يلعب مـع الأطفال وفي كـلّ مكان لعن النـاس لعلي بلا خوف حتى حـدثت الحادثة الثـانية وجعلته أكثر رسوخاً ومضياً في قراره.

الاعتراف الكبير

وكانت الحادثة الثانية هي انّ عبد العـزيز أبا عمر كان والياً على المدينة من قبل الحكم الأموي، وكان يلعن علياً في أيّام الجمعة كالعادة ويختم خطبته بلعنه.

وذات يوم سـأل عمر أباه: يـا أبتي أنـت أفصح الناس وأخطبهـم، فمابالي أراك إذا أتيت على ذكر علي عرفت منك تقصيراً؟!

فقال: يا بني لو علم من تحت منبرنا من فضل هذا الرجل ما يعلمه أبوك لم يتبعنا منهم أحد.

فلمّا سمع عمر هذا الاعتراف اهتز لذلك، وقد كانت كلمات أُستاذه لا تزال تدوي في أُذنه، وعاهـد الله بأن يقضي على هذه البدعة إذا ما تقلّـد الخلافة في يوم من الأيام.

فلماّ تقلّدها عام ٩٩ هجرية حقّق أُمنيتـه القديمة وأمر أن تقرأ آية: ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَـدْلِ وَالإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُربىٰ وَيَنْهىٰ عَنِ الْفَحْشـاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون﴾[١] بدل لعن علي عليه السلام على المنابر.

فرحب الناس بهذا القرار ومدح الشعراء والمحدّثون ذلك.[٢]

١. النحل: ٩٠.
٢. الكامل في التاريخ: ٥/ ٤٢؛ مروج الذهب: ٣/ ١٨٣؛ شرح النهج: ٣/ ٥٩.

رد فدك إلى أولاد فاطمة عليها السلام

العمل الكبير الآخـر الذي قام بـه عمر بن عبد العـزيز في دفع الظلـم عن أهل بيت النبوة هو رد فدك إلى أولاد فاطمة عليها السلام بنت نبي الإسلام الكريمة.

إنّ لفدك قصة مريرة مليئة بـالأحداث ليس محل بحثها هنا، غير انّها إجمالاً هو النبي قد أهداهـا في وقته إلى ابنته فاطمة عليها السلام ، وبعد رحيله صلى الله عليه وآله سلبها أبوبكر منها بالقوة وألحقها بالأموال الحكومية، ومنذ ذلك الحين وفدك تنتقل من يد إلى يد أُخرى على يد الخلفـاء إلى أن جاء حكم معاويـة فأهداها إلى مـروان، وهو بدوره أهداها إلى ابنه عبد العزيـز، وانتقلت بعد موته إلى ابنه **عمر بن عبد العزيز**، وقال: فدك لهم وليس لبني أُميـة حق فيها، غير انّه وللأسف وبعدموتـه حين تقلّد يزيد بن عبد الملك الخلافة أخذها مرة أُخرى من الفاطميين.[١]

وقد نقل **الصدوق** في كتاب **الخصال** انّ عمر بن عبد العـزيز قد ردّ فدك إلى الإمام الباقر عليه السلام خلال سفره إلى المدينة.[٢]

ولعلّه ولأجـل هذه الخدمات التـي قدّمها عمـر لأهل البيت ورفـع الظلم عنهم قال الإمام الباقر عليه السلام : **«عمر بن عبد العزيز نجيب بني أُمية»**.[٣]

دام حكم عمر بن عبد العزيز ما يقارب السنتين، وقد قيل: انّ بني أُميّة هم الذين سمّوه وقتلوه.[٤]

---

١. تاريخ اليعقوبي:٣/ ٥٠.

٢. الخصال، أبواب الثلاثة.

٣. تاريخ الخلفاء:٢٣٠.

٤. العقد الفريد:٤/ ٤٣٩.

منع كتابة الحديث

وجرّاء الانحرافات الكبيرة التي حدثت بعد رحيل النبي في المجتمع الإسلامي حدثت حادثة مؤسفة أُخرى ألقت بظلّها وآثارها المشؤومة والمخرّبة على العالم الإسلامي، وتلك هي المنع من كتابة ونقل الحديث، فبالرغم من أنّ حديث وكلام النبي يأتي في الرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد القرآن الكريم، ويعدّ بعد ذلك الكتاب السماوي أكبر مصدر للثقافة الإسلامية، وانّ هذين الاثنين لا ينفكّان عن بعضهما ولا ينفصلان من الأساس، راح الخليفة الأوّل والثاني يخالفان نقل وكتابة الحديث ومنعا منعاً باتاً المسلمين من كتابةالحديث كلّ ذلك تحت ذرائع تافهة وواهية وفي الواقع بدوافع سياسية.

قال أبو بكر لا تحدّثوا عن رسول الله ﷺ شيئاً، فمن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلّوا حلاله وحرّموا حرامه.[١]

وللمنع من كتابة السنّة كتب الخليفة الثاني إلى جميع الأمصار:

من كان عنده شيء فليمحه[٢].

ولم يكتف بهذا بل راح يتهدّد ويتوعّد جميع أصحاب النبي وحملة الحديث وحفظته بأن يمتنعوا من التحدّث بحديث النبي وكتابته.

يقول قرظة بن كعب أحد الصحابة المعروفين:

بعثنا عمر بن الخطاب إلى الكوفة، وشيّعنا، فمشى معنا إلى موضع صرار، فقال: تدرون لم مشيت معكم؟ قال: قلنا لحق صحبة رسول الله ﷺ ولحق الأنصار

١. تذكرة الحفاظ: ١/ ٣.

٢. أضواء على السنة المحمدية ص ٤٣.

قال: لكنّي مشيت معكم لحديث أردت أن أُحدثكم به، فأردت أن تحفظوه لمشاي معكم، انكم تقدمون على قوم للقرآن في صدورهم هزيز كهزيز المرجل، فإذا رأوكم مدّوا لكم أعناقهم وقالوا أصحاب محمد، فأقلّوا الرواية عن رسول الله ﷺ ثمّ أنا شريككم.

فلمّا قدم قرظة قالوا :حدِّثنا، قال: نهانا عمر.[1]

وحينما قرر عمر يوماً وأراد أن يكتب السنن استفتى أصحاب رسول الله ـ ليتظاهر بالحرية ــ فأشاروا عليه أن يكتبها، فطفق عمر يستخير الله فيها شهراً، ثمّ أصبح يوماً فقال: إنّي كنت أُريد أن أكتب السنن، وإنّي ذكرت قوماً قبلكم كتبوا كتباً، فأكبّوا عليها وتركوا كتاب الله، وانّي والله لا اشوب كتاب الله بشيء أبداً.[2]

ولم يكتف الخليفة بالتحذير من ذلك والتأكيد عليه بل كان يعاقب كلّ من تحدّث بالسنّة والحديث عقاباً شديداً، كما قال يوماً لابن مسعود و أبي الدرداء وأبي ذر وهم من أكبر الشخصيات في صدر الإسلام: ما هذه الأحاديث التي قد أفشيتم عن رسول الله في الآفاق، ثمّ حبسهم وظلّوا كذلك إلى أن مات.[3]

وأوجبت هذه العقوبات والمضايقات أن لا يتجرّأ المسلمون الآخرون على كتابة السنّة والتحدث بها.

---

١. تذكرة الحفاظ :١/ ٧؛ السنّة قبل التدوين ،ص ٩٧؛ سنن ابن ماجة:١/ ١٢؛ المستدرك:١/ ١٠٢.

٢. أضواء على السنّة المحمدية ص ٤٣؛ طبقات ابن سعد:٣/ ٢٨٧؛ نگاهى به سرنوشت حديث ، ص ٢٣؛ تدريب الراوي:٢/ ٦٤.

٣. المستدرك على الصحيحين:١/ ١١٠، وذكر في تذكرة الحفّاظ:١/ ٧، أبامسعود الأنصاري بدل أبي ذر الغفاري.

خسارة غير قابلة للتعويض

أوجبت هـذه المضايقات أن تظـلّ الأحاديث النبـوية حبيسة صـدور حملة الحديث وحافظيه، وأن يبقى المسلمون لمدة مـن الزمن محرومين من المصدر الكبير للثقافـة الإسلامية، لـدرجة انّ الشعبي قـال: «كنت جليسـاً لابن عمر مـدّة عام واحد ولم أسمع منه حديثاً واحداً»[١]

وقال السائب بن زيد: كنت مع سعد بن مالك في سفره من المدينـة إلى مكة ولم يحدّث خلال ذلك بحديث واحد عن الرسول.[٢]

ومن الواضح انّ الخسارة التي مني بها الإسـلام جرّاء هذا الحظر غير قابلة للتعويض، لأنّ كتابة الحديث باتت متروكـة قرابة مائة عام، وأصبح ذلك الكلام الراقي بعيداً عن التداول بين المسلمين.

والأسوأ من كلّ ذلـك انّ بعض المرتزقةوالوضّاعين والكـذّابين استغلّ هذه الفـرصة وراحـوا يضعـون الأحاديـث على لسـان الرسـول بما ينصـب في صالـح الحكـومـات والحكّام في تلـك الفترة، لأنّـه عنـدمـا يكـون مصدر الحديـث هـو المذاكرات والسماع مـن الأفراد فقط يكون مـن الطبيعي أن يتحدث ويـدّعي أي شخص بـأي شيء و كما يحلو له حيث لا كتـاب ولا حساب، وواضح انّـه يظهر العشرات من أمثال أبي هريرة في مثل هذه الظروف ولمصالح غير مشروعة يعتبرون أنفسهم محدّثين واقعيين.

استمر هذا الوضع حتى نهايـات القرن الأوّل الهجري أي حتى خلافة عمر بن عبد العزيز(٩٩ـ ١٠١هـ) وألغى عمر بـن عبد العـزيز و من خـلال مبادرة

---

١. سنن ابن ماجة:١/ ١١.

٢. نفس المصدر:١/ ١٢.

شجاعة هذه البدعة المشؤومة وشجّع الناس على كتابةالحديث.

فقد كتب ـ و بدافع تشجيـع وترغيب العلماء والمحدّثين في ذلك ـ : **انظروا حديث رسول الله فاكتبوه، فإنّي خفت دروس العلم وذهاب أهله**[١].

و كما نقل البخـاري انّ عمر بـن عبد العـزيز كتـب كتابـاً مماثـلاً للكتاب السابق إلى عامله في المدينة أبي بكر بن حزم.[٢]

ولكن كـانت هـذه هي البـداية وكان لابـدّ من مضي فترة طـويلة كـي يتم خلالها تعويض كل هذا التأخر والخسران وإحياء سنّة النبي وإنزال ما احتفظت به الذاكرات الذي اختلط ببعض التحريف والتزوير عمداً أو سهواً على الورق.

غير انّه ولأنّ فترة خـلافة عمر بـن عبدالعزيـز كانت قصيرة لم تتطـور هذه السيرة التي بدأها بسرعـة، لأنّه قد اعتلى يزيد بـن عبد الملك وهشام بن عبد الملك سدة الحكم بعده، والشيء الذي لم يكن له موضع في حكمهما هو الاهتمام بقضايا الإسلام والمسلمين.

وكتب بعضهم بأنّ أوّل مَن جمع الأحاديث بأمر من عمر بن عبد العزيز هو **محمد بن مسلم بن شهاب الزهري.**[٣]

وطبعاً ينبغي الالتفات إلى أنّه على الرغم من أنّ كتابة الحديث والتحدّث به صار مسموحـاً به منذ حكم عمر بن عبـد العزيز، غير انّ الروايات الموضـوعة قد دخلت المجاميـع الروائية خلال فترة منع كتابـة الحديث من ناحية، ومـن ناحية، أُخـرى راح المحـدِّثون الحكـوميـون ووعـاظ السـلاطين يمتنعون عـن التحـدّث بالروايات التي تنصب بنحو ما في صالح أهل البيت والشيعة.

---

١. السنة قبل التدوين،ص ٣٢٩.
٢. صحيح البخاري بشرح الكرماني:٢/ ٦.
٣. علم الحديث ودراية الحديث، ص ٣٠.

أعذار واهية

ويطرح هنا سؤال وهو انّه ما السبب الذي يكمن وراء منع كتابة الحديث، وبأي دليل أصدر الخليفة هذا الأمر؟ مع أنّنا نعلم جميعاً أنّ سنّة النبي حجة كالقرآن، واتّباعها واجب على جميع المسلمين، وقد قال القرآن حول ما قاله النبي صلى الله عليه وآله وسلم سواء كان قرآناً وهو كلام الله أو حديثاً ألفاظه من نفس النبي غير انّ ـ محتواه مستمد من عالم الوحي ـ ﴿وَما يَنْطِقُ عَنِ الهَوىٰ* إِنْ هُوَ إِلاّ وَحيٌ يُوحىٰ﴾.(١)

وفضلاً عن ذلك جعل الله كلام الرسول وما يأتي به حجّة على المسلمين وقال:

﴿وَما آتاكُمُ الرَّسُول فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهوا﴾(٢).

وقد روى عبد الله بن عمرو عن النبي انّه أومأ إلى شفتيه، فقال: يا ابن عمرو والذي نفسي بيده ما يخرج ممّا بينهما إلاّ حق فاكتب.(٣)

وبالرغم من أهمية السنّة النبوية والتي تعد من الطرق الهامة والموثوقة لتعرف الناس على حقيقة الإسلام، فهل كان يجدر بالخليفة الثاني أن يكتب وللمنع من كتابة السنّة النبوية كتاباً إلى الأمصار: من كان عنده شيء فليمحه؟ وهل يتلاءم هذا الأمر والقرار مع روح الإسلام، ذلك الدين الذي يدعو إلى التنمية والتوسع في العلم والمعرفة؟

---

١. النجم:٣ و ٤.

٢. الحشر:٧.

٣. المستدرك على الصحيحين:١/ ١٠٤؛ تدريب الراوي:٢/ ٦٢؛ جامع بيان العلم وفضله: ابن عبد البرّ القرطبي:١/ ٧١، باب ذكر الرخصة في كتاب العلم.

وفي الإجابة على هذا السؤال تمحّل مدافعو جهاز الخلافة في أن ينحتوا لعمل الخليفة فلسفة من عندهم وانّ أبا بكر قال: منعت التحدّث بالسنّة النبوية كي لا تختلط بالقرآن.[1]

وقد بلغ هذا العذر درجة من الوهن حتى أنّه لا يحتاج معها إلى إجابة، ذلك انّه لما رحل النبي الأكرم ﷺ كانت جميع الآيات والسور القرآنية محددة ومكتوبة، وكان كتبة الوحي وقرّاء القرآن قد حفظوا ـ و بما تمتعوا به من ذاكرة قوية ـ جميع القرآن، وقد بلغت الدقة في حفظ آيات القرآن وسوره وتحديدها درجةً لم يكن بمقدور أحد أن يحذف أو يضيف حرفاً منه أو إليه، إذن فهل كانت كتابة الحديث تضر بالقرآن وتؤثر عليه؟!

هذا مضافاً إلى أنّ القرآن لا يماثله أي كلام من ناحية فصاحته وبلاغته وعذوبة ألفاظه وتراكيبه، ولا يختلط أي كلام مهما بلغ من الرقي في الفصاحة ولا يشتبه بالقرآن، فهذا كلام أمير المؤمنين في نهج البلاغة وهذه خطب الرسول ﷺ نجدهما يعتليان ذروة الفصاحة والبلاغة وعذوبة الألفاظ وجمالها غير انّهما لا يختلطان بالقرآن أبداً، وانّ الآيات التي تضمنتها خطب أمير المؤمنين تشع كالدرر المتلألأة من بين كلامه، وكلّ من له معرفة بطبيعة الكلام العربي يجد الفرق بين هذين من أوّل نظرة.

الدافع السياسي

تدلّ القرائن على أنّه كان هناك دافع سياسي وراء ذلك القرار، و انّ المقصود هو طمس الميزة العظيمة التي تمتع بها أمير المؤمنين في تلك الفترة في

١. أضواء على السنة المحمدية، ص ٤٣.

ضوء ذلك، لأنّه عليه السلام قد ألّف كتباً في حياة النبي جمع فيها أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله والمعارف التي تعلّمها منه في مجالات مختلفة.

هل نهى النبي صلى الله عليه وآله عن كتابة الحديث؟

ومن المؤسف حقاً أن ينسب بعض المحدّثين منع كتابة الحديث إلى نبي الإسلام ويقولوا: انّه قال: لا تحدّثوا عنّي غير القرآن، و من كان عنده غيره فليمحه.(١)

وهناك أدلّة تدلّ على أنّ هذا الأمر غير صحيح وذلك:

أوّلاً: انّ أمير المؤمنين تلميذ مدرسة النبي قد حفظ الكثير من أحاديثه، وظل ما كتبه يتنقل من يد إلى أُخرى بين الأئمّة عليهم السلام ، فإذا كان النبي قد نهى عن كتابة الأحاديث ما كان علي ليخالف ما أمره به.

وثانياً: انّه قد كتبت رسائل عديدة في قضايا مختلفة من الأحكام والفرائض والمرافعات والسياسات في حياة النبي صلى الله عليه وآله وقد سجّل المحدّثون والمؤرّخون نصوصها بوثائق متقنة. ويتعلّق القليل من تلك الرسائل بالدعوة إلى الإسلام، غير انّ الكثير منها قد كتب حول فصل الخصومات وتحديد الحدود والجزاء في الإسلام وفي الأحكام والفرائض، وعليه كيف يمكن التصديق بأنّ النبي صلى الله عليه وآله قد نهى عن كتابة غير القرآن ومن ناحية أُخرى تكتب ٣٠٠ رسالة (يوجد منها الآن ٢١٦ رسالة بين أيدينا و بكلّ ما فيها) أمام عينيه دون أن يعارضها؟!

---

١. احمد بن حنبل، المسند: ٣/ ١٢؛ سنن الدارمي: ١/ ١١٩.

الشيعة هم أوّل من دوّن الحديث

ولحسن الحظ بذل الشيعة قصارى جهدهم في هذا المجال منذ الأيام الأُولى من عهد نبي الإسلام وتأسّياً بأمير المؤمنين حازوا قصب السبق في نقل وكتابة الحديث، وخلّفوا تراثاً قيماً ومجموعات ثمينة من الروايات والأحاديث.

فقد كان عليّ أوّل من جمع أحاديث رسول الله، فكان نبي الإسلام يملي الأحاديث وعلي يكتبها وأخرجها على شكل كتاب، وانتقل هذا الكتاب من علي عليه السلام إلى الأئمة عليهم السلام حتى صار في يد الإمام الباقر عليه السلام ، وقد رآه الحكم بن عتيبة يوماً عند الإمام الباقر، وكان قد اختلف مع الإمام الباقر عليه السلام في مسألة ما، فعرض الإمام الكتاب والحديث المتعلّق بالمسألة المختلف فيها عليه وقال: «هذا خط علي وإملاء رسول الله».[1]

وقد اعتبر السيوطي علياً عليه السلام وابنه الحسن من المدافعين عن كتابة الحديث.[2]

وإذا كان أهل السنّة ظلّوا بعيداً عن كتابة الأحاديث الإسلامية ما يقارب المائة عام بسبب بدعة النهي عن كتابة الحديث، فإنّ الشيعة ولحسن الحظ حازوا قصب السبق في ذلك، لأنّه قد كتب ــ عدا علي ـ أبو رافع، وهو أحد أصحاب النبي ومن أصحاب الإمام علي عليه السلام أيضاً كتاباً في عهد النبي باسم «السنن والأحكام والقضايا»[3] وجمع فيه الأحكام والسنن الخاصة في المجالات الإسلامية

١. فهرست أسماء مصنفي الشيعة ص ٢٥٥ ترجمة محمد بن عذافر؛ الشيعة وفنون الإسلام ص ٦٥، وجاء في بعض النسخ الحكم بن عيينة غير انّ الصحيح عتيبة كما أسلفنا .

٢. تدريب الراوي: ٢/ ٦١.

٣. فهرست أسماء مصنفي الشيعة ص ٤.

المختلفة، مثل الصلاة والصوم والزكاة والحج والمرافعات، وإذا ما اعتبرنا هذا الكتاب أوّل كتاب في الحديث ألّفه واحد من الصحابة، يمكننا أن نعدّه أوّل كتاب فقهي من هذا القبيل أيضاً.[١]

وقد كتب أبو رافع هذا الكتاب في وقت كانت كتابة الحديث وكلام الرسول تعد جريمة كبرىٰ في رأي جهاز الخلافة لكنّه لم يعبأ بهذا المنع وأقدم على تأليف الكتاب المذكور، وبعد أبي رافع قام الكتّاب الشيعيون في تلك الفترة التي منعت فيها كتابة الحديث بتسجيل وكتابة الأحاديث الإسلامية، وبذلك حافظوا على كلام أئمتهم من يد التحريف وآفات الأيام الأُخرى.

وقد استمرت هذه السيرة منذ عهد أمير المؤمنين إلى عهد الإمام الخامس، وتطوّرت في عهد الإمام الباقر عليه السلام بشكل ملحوظ، بحيث لمّا صدر أمر عمر بن عبد العزيز لتجميع وكتابة الحديث، كان كلّ واحد من أصحاب وتلاميذ الإمام الخامس قد حفظ الآلاف من الأحاديث.[٢]

ويعدّ محمد بن مسلم الذي هو من كبار شخصيات الشيعة وعظماء الرواة وفضلائهم؛ المثال البارز لتلامذة الإمام الخامس في الفقه والحديث، فقد كان كوفياً وخلال إقامته في المدينة التي استغرقت أربع سنوات تشرّف بلقاء الإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق بعده وأفاد من الإمامين العظيمين علوماً جمة، فقد

---

١. يراجع حول كتابة الحديث ، الملل والنحل جعفر السبحاني: ١/ ٥٨ـ ٧٣.

٢. قال السيوطي ـ الذي يصر على أنّ مؤسسي العلوم الإسلامية هم جماعة من أهل السنّة ـ: أوّل من كتب في الفقه هو أبو حنيفة في حين انّه ولد عام ١٠٠ هجرية ومات عام ١٥٠، وأمّا أبو رافع فقد مات قبل ولادة أبي حنيفة بستين عاماً. السيد الصدر تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام ص ٢٩٨، و عليه قام أهل السنة بكتابة الفقه والحديث من بداية القرن الثاني ولكن كبار الشيعة بدأوا بذلك منذ فترة أقدم من ذلك.

قال: ما شجر في رأيي شيء قـط إلاّ سألت عنه أبا جعفر، حتى سـألته عن ثلاثين ألف حديث، وسألت أبا عبد الله عن ستة عشر ألف حديث.(١)

وكان محمد بن مسلم قد ألّـف كتاباً باسم **الأربعمائة مسألة** الذي يحتمل أن يكون أجوبة سمعها من الإمامين الخامس والسادس لتلك المسائل الأربعمائة.(٢)

والشخصية الأُخـرى التي تربّت في مـدرسة الإمام الباقـر هو **جابر بن يزيد الجعفي**، وكان كوفياً أيضاً وهاجر إلى المدينة ليفيـد من الإمام الباقر، وبلغ درجات علمية عاليـة في ظل إفادته من مدرسـة الإمام الخامس الغنية، وقد خلّـف جابر ـ ممّا أفاده من معـارف الإمام الخامس الكثيرة ـ كتباً ومصنّفات عديـدة، وهو شاهد آخر على اهتمام الشيعة بمسألة كتابة الحديث وجمع المعارف الإسلامية، وأمّا كتب جابر فهي:

١. كتاب التفسير، ٢. كتاب النوادر، ٣. كتـاب الفضائل، ٤. كتاب الجمل، ٥. كتاب صفين، ٦. كتاب النهـروان، ٧. كتاب مقتل أمير المؤمنين عليه السلام ، ٨. كتاب مقتل الحسين عليه السلام(٣).

يزيد بن عبد الملك

اعتلى يزيد بن عبد الملك سدة الحكم بعد موت عمر بن عبد العزيز، وكان رجلاً مـاجناً وعابثـاً واهلاً للّهو والشرب، ولم يكـن ملتزمـاً بأي مبدأ مـن المبادئ الأخلاقية والدينية.

ومن هنا كانت أيام حكمه مـن أحلك الأيام وأظلم أيام الحكم الأموي، لم

١. الاختصاص: ٢٠١ ؛ اختيار معرفة الرجال: ١٦٣.
٢. مؤلّفو الشيعة في صدر الإسلام: ٦٤.
٣. نفس المصدر: ٣٦.

يحدث في عهده أي فتح وانتصار، ولا أي حدث بارز في المجتمع الإسلامي.

وحينما عهد إليه بولاية العهد في خلافة عمر بن عبد العزيز كان قد أخفى ماهيته ووجهه الحقيقي خلف مظهر خادع، ولفت من خلال ذلك الرأي العام نحوه، ولهذا واجهت حكومته في البداية ترحيباً من قبل الناس خاصة انّه أعلن في بداية تقلّده الحكم انّه سيسير بسيرة الخليفة السابق. وقد كان هذا الوعد للناس الذين ذاقوا طعم تطبيق العدالة وحلاوته في عهد عمر بن عبد العزيز ـ و لو بشكل نسبي وفي فترة قصيرة ـ أمراً يبعث على التفاؤل والأمل، ولكن سرعان ما تبدّل هذا الأمل إلى يأس وتشاؤم، لأنّه بعد أن مضت أيام قليلة من حكمه عدل عن سيرته وذهبت جميع الوعود أدراج الرياح.

الشهادة الكاذبة

ولأجل التغطية على انحرافاته ولأجل أن ينزّه نفسه عن أية معصية أتى بأربعين شيخاً ليشهدوا بأنّه منزّه عن الذنوب، وانّه ما على الخلفاء حساب ولا عذاب.[1]

والمؤكد انّ شهادة هؤلاء لم يكن أمراً بسيطاً، بل كان جزءاً من سياسة بني أمية المضللة لتثبيت حكمهم، لأنّهم ولأجل ضمان تحقيق أهدافهم السياسية أوجدوا حركة فكرية كالمرجئة[2] التي كانت تمارس نشاطاتها تحت غطاء الدين لترسيخ أركان الحكم الأموي.

١. تاريخ الخلفاء، ص ٢٤٦.

٢. المرجئة فرقة ترى أنّ الإيمان هو اعتقاد بالقلب وانّ أيّاً من المعاصي والأفعال اللا إسلامية لا تتنافى مع الإيمان.

وكانت هذه النوعية من الفرق التي وظّفها الحكم الأموي تبرر الأعمال اللا إسلامية التي يقوم بها الحكام الأمويون من خلال تنظيراتهم وتفسيراتهم الدينية.

ويقول ابن قتيبة الدينوري:

وكان يزيد قبل ولايته محبوباً في قريش بجميل مأخذه في نفسه وهديه وتواضعه وقصده، وكان الناس لا يشكّون إذا صار إليه الأمر أن يسير بسيرة عمر لما ظهر منه، فلمّا صارت إليه الخلافة حال عما كان يظن به، وسار بسيرة الوليد أخيه واحتذى على مثاله، فعظم ذلك على الناس حتى همّوا بخلعه، وجاءهم بذلك قوم من أشراف قريش وخيار بني أُمية وكانت قلوبهم قد سكنت إلى هدي عمر، واطمأنّت إلى عدله بعد النفار والإنكار لسيرته وعاد ذلك من قلوبهم إلى الرضا بأمر والقنوع بقصده عليهم وتقصيره في إدراك المطامع والعطايا عليهم واتهم منهم بالخلع والخروج؛ فأخذهم عمه محمد بن مروان بن الحكم فأسكنهم السجن عشرين شهراً، ثمّ دس لهم السم فماتوا جميعاً، وأقصى من سائر قريش ثلاثين رجلاً بعد أن أغرمهم مائة ألف ألف، وباع عقر أموالهم ورباعهم، وحمل العذاب عليهم والنكال حتى أصارهم عالة يتكفّفون الناس متفرقين في كور الشام وآفاق البلاد، وصلب من الناس جملة ممن ألف هؤلاء القوم واتّهم بمصانعتهم ومصاحبتهم.[1]

غناء وقمار

كان الحكام الأمويون في السابق يقضون أوقات فراغهم بالإصغاء إلى

---

١. الإمامة والسياسة:٢/ ١٢٥.

قصص وأخبار معارك الشجعان من العرب القدماء والقصائد الشعرية، غير انّه وفي عهد اللاحقين منهم ويزيد بن عبد الملك أيضاً أخذ الغناء مكان القصائد الشعرية، وأصبح هو البديل لقصائد الشعراء الحماسية وأخبار العرب في مجالس سمر البلاط الليلية.

هشام بن عبد الملك

وكان هشام بخيلاً، حسوداً، فظاً غليظاً، ظلوماً، شديد القسوة، بعيد الرحمة، طويل اللسان.[١] ويجمع الأموال ويعمر الأرض، وفي أيّامه عمل الخز والقطف، فسلك الناس جميعاً في أيّامه مذهبه، ومنعوا ما في أيديهم، فقل الافضال وانقطع الرفد، ولم ير زمان أصعب من زمانه.[٢]

سيطرة عناصر الفساد والانحراف

قدّم السيد أمير علي، المؤرّخ والعالم الشهير شرحاً وافياً حول الظروف الاجتماعية والسياسية للمجتمع الإسلامي في تلك الفترة وحلّل سيرة هشام بشكل واضح:

«بموت يزيد الثاني وصلت الخلافة إلى هشام أخوه، واستتبت له الأُمور عندما قمع الثورات الداخلية وأخمد نار المعارك الخارجية، لأنّ قبائل التركمان وخزر كانت تضغط من الشمال على الحكومة المركزية في تلك الفترة، وفي الشرق كان القادة العباسيون يمهّدون الأُمور للقضاء على الحكم الأموي، وفي الداخل كانت نار غضب الخوارج وحقدهم ـ و كانوا شجعاناً بسلاء ـ مستعرة أيضاً،

١. تاريخ اليعقوبي: ٣/ ٧٠.

٢. مروج الذهب: ٣/ ٢٠٥.

فمكان خيرة شبـان العرب في هذه النـزاعات إمّا أن يقتلـوا في الحروب الأهلية أو يكونوا ضحية سياسة التشاؤم والحسد لبـلاط الخلافة الفاسد، لأنّه ونتيجة للثقة العمياء التي منحها الخليفة السابق لوزرائه ورجـال بلاطه، صار الحكم بيد أُناس أنانيين غير جـديريـن، فأثاروا لعجـزهم وسـوء تدبيرهم للحكـم كراهيـة الناس وغضبهم.

ومن المؤكـد كان هناك القليـل من الـرجال الكبار والشخصيـات البارزة الـذين كـانـوا يقـومون بـواجبـاتهم ووظائفهـم الثقيلـة بكـل جديـة واهتمام غير انّ الاهتمام بالديـن كان آخر ما يفكّر فيـه الناس، وكان الديـن بين رجال البلاط وأتبـاع الجهـاز الحاكـم على وشـك الـزوال، لأنّهم لا هـمّ لهم غير اللهـث وراء مصالحهم.

وفي ذلك العصر الخطير والحسّاس كان المجتمـع الإسلامي يحتاج إلى ذراع قوية تنقذ سفينـة الحكم المنهارة من الغرق، ومن هنا كـان من الطبيعي أن يحتاج هشام إلى امتيـازات وخصوصيـات يستطيع في ظلهـا أن يواجـه المشكلات التـي أحاطـت العالم الإسلامي مـن كلّ حدب وصـوب، والأمر الذي لا شكّ فيـه هو انّ هشام أفضل من الخليفة السابق يزيد، لأنّ جهاز الخلافة في عهده كان قد طهر من وجود العناصر الفاسدة وخلف فيـه التروي والوقار النزق، وطهُر المجتمع من وجود الطفيليين الذيـن هم عالة على المجتمـع، غير انّ مبالغة هشام في الصـلابة وصلت إلى الغلظة والاضطهـاد، وتطبّع اقتصاده بطابع البخـل، وقد أدّى قصوره الأخـلاقي والإنسـاني إلى تدهـور الأوضاع إلى الأسـوأ، لأنّه كـان رجلاً سطحـي التفكير، مستبـداً، سيّء الظن، ومـن هنا لم يثـق بأي أحـد، واتّخذ من التجسّـس والخديعة وسيلة للقضـاء على المؤامرات التي كانت تحاك ضده، ولأنّـه كان سريع

التصديق كان يقتل خيرة رجال السلطة بمجـرد السعاية فيهم أو سوء الظن بهم، وأدّت هذه المبالغة في إساءة الظن إلى أن يكـون لتنحية ولاة الأمصار وقادته نتائج وخيمة.[1]

الإمام الباقر عليه السلام في الشام

إنّ إحدى مفاخر الإمام الخامس وأحداث حياته الهامة هو سفره إلى الشام، وكان هشام أحد الخلفاء المعاصرين للإمـام يخشىٰ دائماً منزلة الإمام الباقر الكبيرة وحب الناس له، ولأنّـه كان يعرف انّ شيعته تعتبره إماماً لهم، لـذلك دأب ساعياً أن يمنع بجد من اتساع تأثيره الروحي وازدياد شيعته.

وفي سنة من السنين حج الإمام الباقر عليه السلام ومعه ابنه الكريم جعفر بن محمد عليهما السلام وكـان قد حـجّ هشام في تلـك السنة أيضـاً، وخلال أيّـام الحج قال الإمـام الصادق عليه السلام كلامـاً في فضل أهل البيـت وإمامتهم، فبلـغ هشاماً ذلـك فضاق ذرعاً مـن ذلك وهو الـذي كان يرى في وجـود الإمام خطراً على حكمـه، ولكنّه لم يتعرّض ـ ولعلّـه لبعض الاعتبارات ـ لـلإمام ولا لابنه حتى انصرف إلى عـاصمته دمشق، فـأمر عـامل المدينـة بإشخاص وإحضـار الإمام البـاقر وابنـه جعفر إلى الشام، فترك الإمام المدينة مضطراً وذهب إلى دمشق، ولكنّ هشاماً لم يسمح بلقائه فترة ثلاثـة أيّام كي يتبجّـح بعظمته الظاهريـة، ظنّاً منه انّ ذلـك يقلّل من منـزلة الإمام، ولعلّه كان يفكّر خلال هذه الأيام الثـلاثة في كيفية مواجهته؟ وكيف يضع خطة تؤدي إلى تشويه سمعة الإمام والتقليل من منزلته بين الناس.

---

١. مختصر تاريخ العرب: ١٣٩.

سباق الرماية

ومن المؤكد انّه لـو كان بلاط هشام مركزاً لتربيـة العلماء ومنتدىً للخطباء لكان من الممكـن أن يستدعي العلماء البارزيـن ويقيم مجلساً للبحث والمنـاظرة، غير انّ هشامـاً لم يفكّر بإقامـة مثل هذا المجلـس من حيث إنّ بلاط أكثـر الملوك الأمويين ـ و منهم هشام ـ كان يخلو من مثل هؤلاء العلماء دائماً وقد أخذ الشعراء والقصّاصون مكانهم، ولأنّه كان يعلم جيداً انّه لو أراد أن يواجه الإمام من خلال المطارحة والمناظرة العلمية لما كان يستطيع أحد من رجال بلاطه أن يتغلّب عليه، ولهذا السبب قرر أن يواجه الإمام في صعيد آخر يعتقد بحتمية انتصاره فيه.

نعم قرّر هشام ـ و بكل غرابة ـ أن يقيم سباقاً في الرماية، ويدخل الإمام في ذلك السباق على أمل أن يهزم ويفشل فيه، وبالتالي يستصغر في أعين الناس.

ولأجل تحقيـق هذا الهدف أخـذ يحثّ بعض أشياخ قـومه بنصـب غرض ـ هدف ـ و رميه، وذلك قبل دخـول الإمام القصر، ثمّ دخل الإمـام القصر وجلس قليلاً، فنظر هشام وقال: ألا تريد أن ترمي مع أشياخ قومك.

قال الإمام: «إنّي قد كبرت عن الرمي، فهل رأيت أن تعفيني؟

فقال هشـام ـ وهو يظن انّ الفـرصة المناسبـة قد سنحت وانّه قـرب الإمام الباقر من الهزيمة ـ: وحق من أعزّنا بدينه ونبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا أعفيك.

وفي الوقت ذاته أومأ إلى شيخ من بني أُميّـة أن أعطه قوسك، فتناوله الإمام والسهم معه، فـوضع سهماً في كبد القوس، ثـمّ انتزع ورمى وسط الغـرض فنصبه فيه، ثمّ رمى فيه الثانية فشق فواق سهمه إلى نصله، ثمّ تابع الرمي حتى شق تسعة أسهم بعضهـا في جوف بعض، فأثـار ذلك العمل العجيب إعجـاب الحاضرين واستحسانهم.

وراح هشام الذي أخطـأ في تقديره وذهبت خططه أدراج الـرياح يضطرب في مجلسه، فلم يتمالـك نفسه إلاّ أن قال: أجدت يـا أبا جعفر وأنت أرمـى العرب والعجم، هلا زعمت أنّك كبرت عن الرمي!!

ثمّ أطرق يفكّر للحظة ثم أقعد الإمام الباقر وابنه الكريم عن يمينه وكرّمهما فقال له: يـا محمد لا تزال العرب والعجم تسـودها قريش مـادام فيهم مثلك، لله درّك مَن علّمك هذا الرمي، وفي كم تعلّمته؟

فقال الإمام: «قد علمت أنّ أهل المدينة يتعاطونه فتعاطيته أيّام حداثتي ثمّ تركته، فلمّا أردت أنت منّي ذلك عدت فيه».

وقال: أيـرمي جعفـر (الصادق عليه السلام) مثـل رميك؟ فقـال الإمام: «نحـن نتوارث الكمال والتمام اللّذين أنزلهما الله على نبيه صلى الله عليه وآله في قوله: ﴿اليَوم أَكْمَلت لَكُمْ دينكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَليكُمْ نِعْمَتي وَرَضيـتُ لَكُمُ الإِسْلام دِيناً﴾[1] والأرض لا تخلو ممّن ـ الحجّة ـ يكمل هذه الأُمور التي يقصر غيرنا عنها».[2]

مناظرة مع أُسقف المسيحيين

وعلى الرغم من أنّ بلاط هشام لم يكن المكـان المناسب لإظهار منزلة الإمام الباقر العلمية وعظمتهـا، ولكن ولحسن الحظ سنحت فرصة مناسبـة جداً للإمام قبل أن يغادر دمشق استطاع أن يستغلّها جيداً في تـوعية الرأي العام وتبيين مقامه العلمي الكبير ممّا دفع بالناس ان يموجوا ويخوضوا ويتحدّثوا عن ذلك، وحينها لم يكن لهشام الذريعة الكافية ليتجاسر على الإمام أكثر من ذلك، ولذا لم يكن أمامه غير السماح له بالرجوع إلى المدينة.

---

١. المائدة: ٣.
٢. دلائل الإمامة: ١٠٥.

وعندما خرج الإمام مع ابنه الكريم من القصر وإذا ميدان ببابه وفي آخر الميدان أُناس قعود عدد كثير سأل الإمام: «من هؤلاء؟ قالوا :هؤلاء القسّيسون والرهبان، وهذا عالم لهم يقعد إليهم في كلّ سنة يوماً واحداً يستفتونه فيفتيهم، فدخل الإمام بينهم متنكّراً وأُخبر هشام بذلك، فأمر بعض غلمانه أن يحضر الموضع فينظر ما يصنع الإمام، ولم يمض طويلاً حتى جاء الأُسقف الكبير الذي كان رجلاً طاعناً في السن وجلس في صدر المجلس، فأدار نظره، ولمّا لفت وجه الإمام الباقر انتباهه نظر إليه و قال: أمنّا أم من المسلمين؟

قال عليه السلام :من المسلمين.

فقال: من أيّهم أنت من علمائها أم من جهّالها ؟

فقال عليه السلام : لست من جهّالها.

ثمّ قال له: أأسألك أم تسألني؟

فقال عليه السلام : سل إن شئت.

فقال: من أين ادّعيتم انّ أهل الجنة يطعمون ويشربون ولا يحدثون ولا يبولون؟ وما الدليل فيما تدّعونه من شاهد لا يجهل؟

فقال عليه السلام : دليل ما ندّعي من شاهد لا يجهل الجنين في بطن أُمّه يطعم ولا يحدث.

ثمّ قال: هلا زعمت أنّك لست من العلماء؟! فقال عليه السلام : ولا من جهّالها.

فقال: أسألك عن مسألة أُخرى.

فقال عليه السلام : سل.

فقال: من أين ادّعيتم انّ فاكهة الجنة أبداً غضة طرية موجودة غير معدومة عند جميع أهل الجنة؟ وما الدليل عليه من شاهد لا يجهل؟

فقال عليه السلام : دليل ما نـدّعى النار في المصباح ،أنت لو قبسـت منها لتشعل مئات المصابيح ظلت نار المصباح الأوّل باقية أبداً لا تقل...

فراح الأُسقف يسأل الإمـام بكلّ ما خطر في ذهنه من أسئلـة صعبة، وكان يتلقّى الإجابـة المقنعة لذلك، ولمّا رأى نفسه عـاجزاً نهض عند ذلك قـائماً غاضباً وقـال: جئتموني بـأعلم منـي وأقعدتموه معكـم حتى هتكنـي وفضحني، وأعلـم المسلمين بأنّ لهم من أحاط بعلومنا وعنده ما ليس عندنا، لا والله لا كلّمتكم من رأسي كلمة واحدة، ولاقعدت لكم ان عشت سنة، ثمّ ذهب بعد ذلك.

تهمة غير نزيهة

شاع خبر هـذا الحدث بسرعة في مـدينة دمشـق وأثار مـوجة مـن الفرح في البيئة الشامية.

وكان هشام الـذي يفترض به أن يسعد بهذا الانتصار العلمـي الباعث على الفخر الذي تحقّق على يد الإمام الباقر عليه السلام قلقاً خائفاً أكثر من السابق من نفوذ وسيطرة الإمـام الروحية هناك، وفي نفـس الوقت الذي تظـاهر فيه بعكس مـا هو عليه وأرسـل جائزة إلى الإمام أبلغـه بأن يغادر دمشق فـوراً، ولأنّه قد غضـب من ذلك الانتصار الغلمي حاول أن يشوّه الشخصيـة العلمية والاجتماعية للإمام من خلال لعبة قذرة مكشوفة ويتّهم قائد الإسلام الكبير با لميول إلى المسيحية والخروج عن الإسلام.

ولذلك وبكل دنـاءة كتب إلى عامله على مدينة مـدين: انّ ابني أبي تراب ـ محمد و جعفر عليهما السلام ـ وردا عليّ ولمّا صرفتهما إلى المدينة مالا إلى القسّيسين والرهبان وأظهرا لهما دينهما ومرقا من الإسلام إلى الكفر وتقرّبا إليهم بالنصرانية، فكرهت ان

أنكل بهما لقـرابتهما، فإذا قـرأت كتابي هـذا ووصلا إليكـم فناد في النـاس: برئت الذمّة منهما.[١]

مقاومة الإمام الباقر عليه السلام لسياسة التمييع الثقافي

عاصر الإمام الباقر عليه السلام حكم بني أُمية، وكان واقفاً على الخطط والسياسات الشيطانيـة التي تستهدف طمس معـالم الإسلام وإغفال النـاس، ومطّلعاً على أنّ بني أُمية لم يـدخل الإيمان في قلوبهم ولم يؤمنوا بـالإسلام قط، وانّ ما يطـرحوه من الـدين ليسـت إلاّ ظـواهـر جوفـاء لا تمس صميـم العقيـدة، الأمر الـذي أتـاح للفاسدين والجهلـة أن يتصدّوا للأُمور الدينية وأن يهرجوا باطـلاعهم الواسع على المعارف الإسلامية.

فتجد الإمام وفي ضمن رسالة مطوّلة بعثها إلى سعد الخير[٢] أحد رموز بني أُمية المعروفة بالصلاح والفلاح والذي كانت تربطه بالإمام روابط حميدة، يشير إلى المسائل السالفـة الذكر، ويُذكر بتفشّيهـا في الأُمم الغابرة، وكتب ضمـن مقايسة بينهما يقول:

...وكلّ أُمّة قد رفع الله عنهم علم الكتاب حين نبذوه وولاّهم عدوّهم حين تولّوه، وكان من نبذهم الكتاب أن أقاموا حروفه وحرّفوا حدوده، فهم يروونه ولا يرعونه والجهال يعجبهم حفظهم للرواية والعلماء يحزنهم تركهم للرعاية... فأعرف أشباه الأحبار والرهبان الذين ساروا بكتمان الكتاب وتحريفه فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين، ثمّ اعرف أشبـاههم من هذه الأُمّة الذين أقامـوا حروف الكتاب وحرّفوا حدوده....[٣]

---

١. دلائل الإمامة: ١٠٥ ـ ١٠٧ ؛ بحارالأنوار: ٤٦/ ٣٠٧ ـ ٣١٣.

٢. هو سعد بن عبد الملك بن مروان.

٣. الروضة من الكافي، ص ٥٣ـ٥٥.

ومن ثم يقول الإمام الصادق عليه السلام الذي شهد اضمحلال حكم بني أُمية وزواله :إنّ بني أُمية أطلقوا للناس تعليم الإيمان ولم يطلقوا تعليم الشرك لكي إذا حملوهم عليه لم يعرفوه.(١)

ومعنى الشرك هنا هو الشرك في الطاعة، فلم يصادر بنو أُمية المحاولات التي تستهدف تعليم المسلمين الشرك في الذات والصفات والأفعال والعبادات، لأنّها لا تشكّل تهديداً لمصالحهم ولا تحد من سطوتهم، بل استهدفوا إغفال الناس حيال مسألة الشرك في الطاعة لتدوم طاعة الناس لهم ولسياستهم اللا إسلامية.

مناظرات الإمام الباقر عليه السلام

وقد نشطت في عصر الإمام الباقر عليه السلام فرق دينية وسياسية عديدة كالمعتزلة والخوارج والمرجئة، وكان الإمام الباقر عليه السلام كالطود الشامخ يقف صامداً أمام عقائدهم الباطلة ونفوذها، وقد قوّض أُسسهم الفكرية خلال مناظراته مع رؤوس هذه الفرق والمذاهب وأثبت وهنها وبطلانها بأدلّة وحجج دامغة.

وهنا سنعرض للقرّاء الكرام حوار الإمام مع نافع بن الأزرق، أحد رؤساء الخوارج على سبيل المثال:

روي أنّ نافع بن الأزرق جاء إلى محمد بن علي بن الحسين فجلس بين يديه يسأله عن مسائل في الحلال والحرام.

فقال له أبو جعفر ـ في عرض كلامه: قل لهذه المارقة بما استحللتم فراق أمير المؤمنين عليه السلام وقد سفكتم دماءكم بين يديه وفي طاعته والقربة إلى الله تعالى بنصرته؟! فسيقولون لك: إنّه حكّم في دين الله.

١. الأُصول من الكافي:٢/ ٤١٥.

فقل لهم: قد حكّم الله تعالى في شريعة نبيّه في موردين رجلين من خلقه:

قال جلّ اسمه: ﴿فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إنْ يُرِيدا إِصلاحاً﴾.[1]

وحكّم رسول الله ﷺ سعد بن معاذ في بني قريظة، فحكم بما أمضاه الله.

أوما علمتم أنّ أميرالمؤمنين إنّما أمر الحكمين أن يحكما بالقرآن ولا يتعدّياه واشترط ردّ ما خالف القرآن من أحكام الرجال، وقال حين قالوا له: حكمت على نفسك من حكم عليك فقال: ما حكّمت مخلوقاً انّما حكّمت كتاب الله، فأين تجد المارقة تضليل من أمر بالحكم بالقرآن، واشترط ردّ ما خالفه ولولا ارتكابهم في بدعتهم البهتان؟!

فقال نافع بن الأزرق: هذا والله ما طرق سمعي قط. ولا خطر مني ببال، هوالحق إن شاء الله تعالى.[2]

---

١. النّساء: ٣٥.

٢. الاحتجاج: ٢/ ١٧٦.

الإمام جعفر الصادق عليه السلام

* عظمة الإمام العلمية
* الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية
* الجامعة الجعفرية الكبرىٰ
* نموذج من تلامذة مدرسة الإمام عليه السلام
* لماذا رفض الإمام اقتراح قادة الثورة العباسية
* انتفاضة زيد بن علي عليه السلام

نبذة مختصرة

عن حياة الإمام عليه السلام

اسم الإمام السادس جعفر، كنيته أبو عبد الله، لقبه الصادق، أبوه الإمام الباقر وأُمّه أُمّ فروة.

ولد في السابع عشر من ربيع الأوّل عام ٨٣ في المدينة، ورحل في ٦٥ من عمره عام ١٤٨ هجرية، ودفن في المقبرة المعروفة بالبقيع بجانب أبيه العظيم.

الخلفاء المعاصرون للإمام

بلغ الإمام الصادق الإمامة عام ١١٤ هجرية تزامنت أمامته مع نهايات الحكم الأموي الذي انتهى عام ١٣٢ وبدايات الحكم العباسي الذي بدأ من ذلك التاريخ عاصر الإمام الصادق من الخلفاء الأمويين:

١. هشام بن عبد الملك(١٠٥ـ١٢٥هـ).

٢. الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ـ١٢٦هـ).

٣. يزيد بن الوليد بن عبد الملك (١٢٦هـ).

٤. إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك (٧٠ يوماً من عام ١٢٦هـ).

٥. مروان بن محمد المعروف بمروان الحمار (١٢٦ـ١٣٢هـ).

ومن الخلفاء العباسيين:

١ . عبد الله بن محمد المعروف بالسفّاح(١٣٢ـ١٣٦هـ).

٢ . أبو جعفر المعروف بالمنصور الدوانيقي (١٣٦ـ١٥٨هـ).

عظمة الإمام العلمية

هناك أدلّة كثيرة على عظمة الإمام الصادق عليه السلام العلمية، وهو أمر متفق عليه من قبل علماء الشيعة والسنّة، فالفقهاء والعلماء الكبار يتواضعون أمام عظمته العلمية ويمدحون تفوقّه العلمي.

فأبو حنيفة إمام المذهب الحنفي الشهير كان يقول:

ما رأيت أعلم من جعفر بن محمد.[1]

ويقول أيضاً: لما أقدمه (جعفر بن محمد) المنصور بعث إليّ فقال: يا أبا حنيفة انّ الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد فهيّئ له من مسائلك الشداد فهيّأت له أربعين مسألة، ثمّ بعث إليّ أبو جعفر وهو بالحيرة فأتيته، فدخلت عليه وجعفر جالس عن يمينه، فلمّا بصرت به دخلني من الهيبة لجعفر مالم يدخلني لأبي جعفر المنصور، فسلّمت عليه، فأومأ إليّ فجلست.

ثمّ التفت إليه فقال :يا أبا عبد الله هذا أبو حنيفة.

قال عليه السلام : نعم أعرفه.

ثمّ التفت إليّ فقال: يا أبا حنيفة ألق على أبي عبد الله من مسائلك.

فجعلت أُلقي عليه فيجيبني، فيقول أنتم تقولون كذا وأهل المدينة يقولون كذا ونحن نقول كذا، فربما تابعنا وربما تابعهم وربما خالفنا جميعاً، حتى أتيت على

---

١ . تذكرة الحفاظ:١/ ١٦٦.

الأربعين مسألة فما أخل منها بشيء.

ثمّ قال أبو حنيفة وبعد ما بلغ إلى هذا الوضع: أليس انّ أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس.[١]

وقال مالك إمام المذهب المالكي: اختلفت إلى جعفر بن محمد زماناً، فما كنت أراه إلاّ على إحدى ثلاث خصال: إمّا مصلياً، وإمّا صائماً، وإمّا يقرأ القرآن، وما رأيته قط يحدّث عن رسول الله إلاّ على طهارة.[٢] ولا يتكلم بما لا يعنيه، وكان من العلماء العبّاد والزهّاد الذين يخشون الله، وما رأت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق علماً وعبادة وورعاً.[٣]

وكتب الشيخ المفيد: ونقل الناس عنه ـ الصادق عليه السلام ـ من العلوم ما سارت به الركبان، وانتشر صيته في جميع البلدان، ولم ينقل عن أحد من أهل بيته ما نقل عنه من العلوم.[٤]

وابن حجر الهيثمي: جعفر الصادق نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان، وانتشر صيته في جميع البلدان، وروى عنه الأئمّة الأكابر كيحيى بن سعيد وابن جريج ومالك والسفيانيين وأبي حنيفة وشعبة وأيوب السجستاني.[٥]

ويقول أبو بحر الجاحظ أحد علماء القرن الثالث: جعفر بن محمد الذي ملأ الدنيا علمه وفقهه، ويقال انّ أباحنيفة من تلامذته وكذلك سفيان الثوري، وحسبك بهما في هذا الباب.[٦]

١. بحار الأنوار:٤٧/ ٢١٧؛ الإمام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة:٤/ ٣٣٥.
٢. تهذيب التهذيب:١/ ٨٨.
٣. الإمام الصادق عليه السلام و المذاهب الأربعة:١/ ٥٣.
٤. الإرشاد، ص ٢٧٠.
٥. الصواعق المحرقة، ص ٢٠١.
٦. الإمام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة:١/ ٥٥ نقلاً عن رسائل الجاحظ.

وفي معرض حديثه عن المدارس الفلسفية في عهد الحكم الأموي يكتب السيد أمير علي:

ولم تتّخذ الآراء الدينية اتجاهاً فلسفياً إلاّ عند الفاطميين، ذلك انّ انتشار العلم في ذلك الحين اطلق روح البحث والاستقصاء، وأصبحت المناقشات الفلسفية عامة في كلّ مجتمع من المجتمعات، والجدير بالذكر انّ زعامة تلك الحركة الفكرية إنّما وجدت في تلك المدرسة التي ازدهرت في المدينة، والتي أسّسها حفيد علي بن أبي طالب المسمّى جعفر والملقّب **بالصادق**، وكان رجلاً بحّاثة ومفكراً كبيراً، جيّد الإلمام بعلوم ذلك العصر، ويعتبر أوّل من أسّس المدارس الفلسفية الرئيسية في الإسلام.

ولم يكن يحضر محاضراته أُولئك الذين أسّسوا فيها بعد المذاهب الفقهية فحسب، بل كان يحضرها الفلاسفة وطلاب الفلسفة من الأنحاء القصية. وكان الإمام «**الحسن البصري**» مؤسس المدرسة الفلسفية في مدينة البصرة، و «**واصل بن عطاء**» مؤسس مذهب المعتزلة، من تلاميذه الذين نهلوا من معين علمه الفياض... .[1]

وكتب ابن خلّكان المؤرّخ الشهير: أبو عبد الله جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، أحد الأئمة الاثني عشر على مذهب الإمامية، وكان من سادات آل البيت، ولقّب بالصادق لصدقه، وفضله أشهر من أن يذكر، وكان أبو موسى جابر بن حيان الطوسي تلميذاً عنده، وصنّف جابر كتاباً في ألف ورقة يتضمّن رسائل الإمام جعفر الصادق وهي خمسمائة رسالة.[2]

١. مختصر تاريخ العرب ص ١٩٣.

٢. وفيات الأعيان: ١/ ٣٢٧.

الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية في عصر الإمام

كان عصر الإمام الصادق من بين الأئمّة عصراً فريداً والظروف الاجتماعية والثقافية التي عاشها الإمام لم يعشها أي واحد منهم، ذلك انّ تلك الفترة كانت من الناحية السياسية فترة تزلزل الحكم الأموي واشتداد شوكة العباسيين، وكان الطرفان في صراع مستمر إذ بدأ الصراع الإعلامي والنضال السياسي للعباسيين منذ عهد هشام بن عبد الملك، ودخل عام ١٢٩ نطاق الكفاح المسلح، وفي النهاية انتصر العباسيون عام ١٣٢ هجرية .

ولأنّ الأمويين كانوا في هذه الفترة منشغلين بالمشاكل السياسية الكثيرة لم تسنح لهم الفرصة لمضايقة الإمام الصادق وشيعته كما حدث في حياة الإمام السجاد.

كما أنّ العباسيين ولأنّهم كانوا يرفعون شعار الدفاع عن أهل البيت والثأر لهم قبل استلامهم مقاليد الحكم لم تكن هناك مضايقة من جانبهم أيضاً، ومن هنا كانت هذه الفترة فترة هدوء وحرية نسبية للإمام الصادق وشيعته، فكانت فرصة مناسبة جداً لتفعيل نشاطهم العلمي والثقافي.

الظروف الثقافية الخاصة

ومن الناحية الفكرية والثقافية كان عصر الإمام الصادق عصر النشاط الفكري والثقافي، وقد حدثت في ذلك العصر حركة علمية منقطعة النظير في المجتمع الإسلامي، ونشأت العلوم المتعددة؛ سواء العلوم الإسلامية، مثل علوم قراءة القرآن والتفسير والحديث والفقه والكلام و...؛ أو العلوم الإنسانية العامة، مثل علوم الطب والفلسفة والنجوم والرياضيات و...،لدرجة انّه كلّ من كان له بضاعة

فكرية وعلمية كان يعرضها على سوق العلم والمعرفة، وعليه حدث تعطّش علمي غريب كان على الإمام أن يجيب عليه ويستجيب له .

ويمكن حصر الأسباب التي أوجبت حدوث هذه الحركة العلمية في الأُمور التالية:

أ. حرية الفكر والعقيدة في الإسلام، ولم يكن العباسيون بلا تأثير في هذه الحرية الفكرية قطعاً، غير انّ لهذه الحرية جذور في تعاليم الإسلام بحيث لو كان العباسيون يريدون الوقوف أمامها لما كان بمقدورهم ذلك.

ب. كانت البيئة الإسلامية آنذاك بيئة دينية تماماً، وكانت الدوافع الدينية هي التي تحرك الناس.

كما أنّ لتشجيع نبي الإسلام على طلب العلم، وحثّ القرآن على التعليم والتعلّم وتأكيده على ذلك وعلى التفكير والتعقّل، الدور الأساسي في تنشيط وتفعيل هذه الحركة العلمية.

ج. كان للقوميات والأُمم التي دخلت الإسلام خلفية فكرية وعلمية، وكان لبعضها مثل العنصر الفارسي ــ الذي كان له خلفية حضارية أكثر ازدهاراً ـ والمصري والسوري حضارات عريقة في تلك الفترة، فراحت هذه الأُمم وبدافع فهم تعاليم الإسلام بشكل معمّق تبحث وتتفحص وتتبادل الآراء فيما بينها.

د. التساهل الديني أو التعايش السلمي مع غير المسلمين خاصة التعايش مع أهل الكتاب فقد تحمّل وقبل المسلمون أهل الكتاب ولم يروا في ذلك مخالفة لعقيدتهم الدينية، وكان لأهل الكتاب في تلك الفترة علماء وخبراء وكان المسلمون يواجهونهم مواجهة علمية، وكان هذا بدوره يؤدي إلى الجدل والبحث والمناظرة.[١]

---

١. سيرى در سيره أئمه أطهار، الشهيد المطهري، ص ١٤٢ـ ١٦٠.

صراع الفِرَق والطوائف الدينية

كان عصر الإمام عليه السلام عصر تلاقح وتضارب الأفكار، وظهور الفرق والطوائف والتيارات المختلفة، وانبثقت شبهات وإشكاليات متعدّدة جرّاء تضارب عقائد المسلمين مع عقائد أهل الكتاب وفلاسفة اليونان أيضاً.

وقد ظهرت تيارات وفرق، مثل المعتزلة، الجبرية، المرجئة، الغلاة[١]، الزنادقة، المشبّهة، المتصوّفة، المجسمة، والتناسخية وغيرها في ذلك العصر، وكانت كلّ فرقة تروّج أفكارها وعقائدها، وفضلاً عن ذلك كان الخلاف يدبّ في العلم الواحد من العلوم الإسلامية بين علماء ذلك العلم فعلى سبيل المثال كانت تحدث مناقشات حادة في علوم القراءة والتفسير والحديث والفقه والكلام[٢]، وكان كلّ واحد يدافع عن رأيه بشكل ما ويصوب عقيدته.

الجامعة الجعفرية الكبرىٰ

ونظراً لتوفر الفرصة السياسية المناسبة وحاجة المجتمع الماسّة واستعداد الأرضية الاجتماعية، واصل الإمام الصادق جهوده في النهضة العلمية والثقافية التي ابتدأها أبوه الإمام محمد الباقر وأسّس مدرسة وجامعة علمية كبيرة علّم وربى فيها تلامذة كباراً وبارزين؛ أمثال هشام بن الحكم، محمد بن مسلم، أبان ابن تغلب، هشام بن سالم، مؤمن الطاق، المفضل بن عمر، و جابر بن حيان و... في مختلف المجالات العقلية و النقلية، و قد ناهز عدد تلامذته الأربعة آلاف

١. الإمام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة: ٢/ ١١٣ـ١٢٦.

٢. ويراد بعلم الكلام هو علم أُصول الدين، فقد كان هذا العلم مشهوراً ومن أكثر العلوم شعبية في ذلك العصر وكان كبار المتكلّمين يبحثون في مختلف الجوانب العقائدية.

طالب[1] كما قالوا.

وكان كلّ واحد من هؤلاء الطلاب شخصية علمية كبيرة متألّقة، وقد قدّموا خدمات كبيرة، وكـان لبعض منهم مؤلفـات علمية وتلامذة كثيرون، فمثـلاً كان لهشام بـن الحكم واحد وثـلاثون كتـاباً[2]، وألّف جابر بـن حيان أكثر من مـائتي كتاب[3] في مواضيـع علمية مختلفة لا سيما العلـوم العقلية والطبيعية والكيميـاوية وقد اشتهر لذلك بأبي علم الكيمياء وقد ترجمت كتبه في القرون الوسطى إلى لغات أوروبية عديدة، وقد أطرى مؤرّخو العلوم جميعهم عليه.

رسالة توحيد المفضّل

وكما أشرنا كان الإمام الصادق قد بحث في العلوم الطبيعية، وقد توصل إلى نتائج أعجبـت العلماء المعاصريـن أيضاً، والشاهـد على هذا الأمـر ـ فضـلاً عن تعليمات جابر ـ هو كتاب توحيد المفضّل الذي أملاه خلال أربعة أيّام على المفضل بن عمر الكوفي، واشتهر باسم توحيد المفضّل.

وقد قال المفضّل في مقـدمة الرسالة: كنت ذات يـوم بعد العصر جالساً في الروضة بين القبر والمنبر (في مسجد النبي) وأنا مفكّر فيما خص الله تعالى به سيدنا محمد ﷺ من الشرف والفضائل و... فأنّي لكذلك إذ أقبل ابن أبي العوجاء وهو من زنادقة ذلك العصر فجلس حيث أسمع كـلامه، فلمّـا استقر به المجلس إذ رجل من أصحابه قـد جاء فجلس إليه، ثمّ دار بينهما الحديث عن نبـي الإسلام ثمّ قال ابن أبي العـوجاء: دع ذكـر محمد ﷺ فقـد تحيّر فيه عقلي، وضـلّ في أمره فكـري،

---

١. الارشاد: ٢٧١، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: ١/ ٦٩.

٢. هشام بن حكم مدافع حريم ولايت: ١٩، روضة الواعظين: ٢٢٩، اعلام الورىٰ: ٢٨٤.

٣. الفهرست لابن النديم: ٥١٢ـ٥١٧.

وحدّثنا في ذكر الأصل الذي نمشي له، ثمّ راحـا يتحدثان عن مبدأ العالم، وانتهيا إلى حيث إنّه لا صانع ولا مدبّر لهذا العالم، بـل الأشياء تتكون من ذاتها بلا مدبّر، وعلى هذا كانت الدنيا لم تزل ولا تزال.

قال المفضّل: فلماّ سمعت هذا الكلام الباطل من ذلك المطرود من رحمة الله لم أملك نفسي غضباً وغيظاً وحنقاً، فقلت: يا عدو الله ألحدت في دين الله وأنكرت الباري جلّ قدسه الذي خلقك في أحسـن تقويم، وصوّرك في أتم صورة، ونقلك في أحوالك حتى بلـغ إلى حيث انتهيت، فلو تفكّرت في نفسك وصـدقك لطيف حسّك، لوجدت دلائل الربوبية وآثار الصنعة فيك قائمة، وشواهده جلّ وتقدّس في خلقك واضحة، وبراهينه لك لائحة.

فقال ابن أبي العوجاء: يا هذا إن كنت من أهل الكلام ـ وهم الذين يبحثون في العقائد ويعلمـونها والمتمرسون في البحث والجدل ــ كلّمناك، فإن ثبتـت لك حجّة تبعناك، وإن لم تكن منهم فلا كلام لـك، وإن كنت من أصحاب جعفر بن محمد الصادق فما هكذا يخاطبنا، ولا بمثل دليلك يجادل فينا، ولا تعدّىٰ في جوابنا، وانّه الحليـم الرزيـن العاقـل الرصين لا يعتريـه خرق ولا طيـش ولا نزق، يسمـع كلامنـا، ويصغي إلينـا، ويتعرّف حجتنـا، حتى إذا استفرغنـا ما عنـدنا وظننـا انّا قطعنـاه، دحض حجتنـا بكلام يسير وخطـاب قصير، يلـزمنا بـه الحجة ويقطـع العذر، ولا نستطيع لجوابه رداً، فإن كنت من أصحابه فخاطبنا بمثل خطابه.

قال المفضل فخرجت من المسجد محزوناً مفكّراً فيما بلي به الإسلام وأهله من كفر هـذه العصابة وتعطيلهـا، فدخلت على مـولاي الصادق عليه السلام فـرآني منكسراً فقال: «مالك؟» فأخبرته بما سمعت من الدهريين.

فقال: «يا مفضّـل لألقين عليك من حكمة البـاري جلّ وعلا وتقـدّس اسمه في خلق العالم والسباع والبهائم والطير والهوام و كلّ ذي روح من الأنعام والنبات والشجرة

المثمرة وغير ذات الثمر والحبوب والبقول المأكول من ذلك وغير المأكول ما يعتبر به المعتبرون، ويسكن إلى معرفته المؤمنون، ويتحيّر فيه الملحدون، فبكّر عليّ غداً...».

راح المفضّل بعد ذلك يتردّد على الإمام الصادق مدة أربعة أيّام متتالية، وظلّ الإمام يلقي عليه بحوثاً حول خلق الإنسان منذ بدء الخلق والقوى الظاهرية والباطنية وصفاته الفطرية وكيفية خلق أعضائه وخلق أنواع الحيوان وخلق السماء والأرض و... وحول فلسفة الآفات ومواضيع وأبحاث أُخرى، و كان المفضل يكتب كلّ ذلك.(١)

وقد طبعت رسالة توحيد المفضل مستقلة مرات عديدة، وترجمها العلاّمة المجلسي وبعض آخر من العلماء المعاصرين إلى الفارسية.

سعة جامعة الإمام الصادق عليه السلام وضخامتها

قارع الإمام الصادق عليه السلام جميع التيارات الفكرية والدينية السائدة في تلك الفترة وأوضح موقف الإسلام حيالها جميعاً، وأثبت أفضلية العقيدة الإسلامية، ولم تقتصر جامعة الإمام الصادق على الطلاب الشيعة، وقد زخرت بطلاب العلم من مختلف المذاهب السنّية أيضاً، وكان أئمّة المذاهب السنّية المشهورين ـ بشكل مباشر وغير مباشر ـ تلامذة لديه يفيدون منه، و كان على رأسهم أبو حنيفة الذي لازم الإمام سنتين وجعل هاتين السنتين مصدر علمه ومعرفته وكان يقول: **لولا السنتان لهلك النعمان.**(٢)

---

١. توحيد المفضل، المقدمة (ترجمة العلاّمة المجلسي ص ٧ـ١١)؛ پيشواى ششم حضرت إمام جعفر صادق عليه السلام، مؤسسه در راه حق، ص ٤٧ـ ٥٨.

٢. الإمام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة: ١/ ٧٠، كان اسم أبي حنيفة النعمان بن ثابت.

وقد كـان تلامذة الإمـام من الأقطار المختلفـة مثل الكوفة والبصرة وواسط، والحجاز و غيرهـا، ومن مختلـف القبائل مثـل بنـي أسد، المخـارق، طي، سليـم، غطفان، الأزد، خـزاعة، خثعـم، بني ضبـة، وقريـش لا سيما بنو الحارث بـن عبد المطلب وبنو الحسن الذين اتصلوا بتلك الجامعة.(١)

وكفى بما قاله «الحسن بن علي بن زياد الوشّاء» في سعة جامعة الإمام ورحابتها الذي كان من تلامذة الإمام الرضا عليه السلام والمحدّثين الكبار: **أدركت في هذا المسجد ـ الكوفة ـ تسعمائة شيخ كلّ يقول حدّثني جعفر بن محمد.**(٢)

ووفقاً لما قاله ابن حجر العسقلاني فقد حدّث عنه فقهاء ومحدّثون؛ مثل: شعبة وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة ومالك وابن جريج وأبي حنيفة وابنه موسى ووهيب بن خالد والقطّان وأبي عاصم وجماعة كثيرة.(٣)

وكتب اليافعي: له كـلام نفيس في علوم التوحيـد وغيرها، وقد ألّـف تلميذه جابر بن حيان كتاباً يشتمل على ألف ورقة يتضمن رسائله وهي خمسمائة رسالة.(٤)

وكان الإمام الصادق عليه السلام يشجع ويعلّم ويـرغب تلاميذه في العلـم الذي يتناسـب مع ذوقهـم وطبيعتهم، وفي النهايـة كان كـلّ واحد منهـم يتخصّص في مجال علمي واحد أو مجالين مثل الحديث، التفسير، علم الكلام وغيرها.

وكان عليه السلام يرشد بعض العلماء الذين يراجعونه للبحث والمناظرة إلى المناظرة مع أحد الطلاب الذي تخصص في ذلك العلم.

قال هشام بن سالم: كنّا عند أبي عبد الله عليه السلام جماعة من أصحابه، فورد رجل

١. الإمام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة: ١/ ٣٨.
٢. فهرست مصنفي الشيعة ص ٣٩ و ٤٠.
٣. تهذيب التهذيب: ١/ ٨٨.
٤. مرآة الجنان: ١/ ٣٠٤.

من أهل الشام فاستأذن، فأذن له، فلمّا دخل سلّم، فأمره أبو عبد الله عليه السلام بالجلوس، ثمّ قال له: «حاجتك أيها الرجل؟» قال: بلغني انّك عالم بكلّ ما تسأل عنه، فصرت إليك لأُناظرك.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: في ماذا؟

قال: في القرآن، واسكانه وخفضه ونصبه ورفعه.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «يا حمران دونك الرجل!».

فقال الرجل: إنّما أُريدك أنت لا حمران.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «إن غلبت حمران فقد غلبتني».

فأقبل الشامي يسأل حمران حتى غرض وحمران يجيبه.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «كيف رأيت يا شامي؟».

قال: رأيته حاذقاً ما سألته عن شيء إلاّ أجابني فيه.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «يا حمران سل الشامي» فما تركه يكشر.

فقال الشامي: أُريد يا أبا عبد الله أُناظرك في العربية!

فالتفت أبو عبد الله عليه السلام فقال: «يا أبان بن تغلب ناظره»، فناظره فما ترك الشامي يكشر.

فقال: أُريد أن أُناظرك في الفقه!

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «يا زرارة! ناظره!» فناظره فما ترك الشاميّ يكشر.

ثمّ قال: أُريد أن أُناظرك في الكلام!

قال: «يا مؤمن الطاق ناظره»، فناظره فسجل الكلام بينهما، ثمّ تكلم مؤمن الطاق بكلامه فغلبه به.

وهكذا عند ما أراد الشامي أن يناظر في الاستطاعة ـ قدرة الإنسان على فعل

الشر والخير ـ والتوحيد والإمامة أمر الإمام و بالترتيب كلاً من حمزة الطيار وهشام بن سالم و هشام بن الحكم بمناظرته، فغلبوه بأدلّة قاطعة ومنطق مفحم.

وبمشاهدة ذلك المشهد المثير ارتسمت ابتسامة جميلة على شفتي الإمام فرحاً.[1]

مناظرات الإمام الصادق عليه السلام

وكما سبقت الإشارة منّا فانّ عصر الإمام الصادق عليه السلام كان عصر صراع الأفكار وظهور المذاهب والفرق المختلفة، وقد حدثت إشكاليات وشبهات عديدة نتيجة لالتقاء الثقافة والعلوم الإسلامية بالفلسفات اليونانية وآراء فلاسفتها، ولهذا كان للإمام الصادق الكثير من المناظرات والمطارحات المثيرة مع أصحاب هذه التيارات والمذاهب، وذلك لتعريف الإسلام والرؤية الشيعية وقد أبدى خلالها وباستدلالاته الرصينةومنطقه القويم تفوق المدرسة الإسلامية وأثبت أفضليتها وبطلان تلك العقائد ووهنها.

وهنا نقدم للقرّاء الكرام من بين تلك المناظرات والمطارحات المختلفة المناظرة التي دارت بين الإمام وأبي حنيفة إمام المذهب الحنفي على سبيل المثال:

جاء أبو حنيفة إلى بيت الإمام الصادق للالتقاء به ذات مرة واستأذن عليه، فحجبه الإمام، و قال أبو حنيفة: وتوقفت قليلاً عند الباب، فجاء قوم من أهل الكوفة، فاستأذنوا، فأذن لهم، فدخلت معهم، فلماّ صرت عنده قلت له: يا ابن رسول الله لو أرسلت إلى أهل الكوفة فنهيتهم أن يشتموا أصحاب محمد صلى الله عليه وآله، فانّي تركت بها أكثر من عشرة آلاف يشتمونهم.

١. اختيار معرفة الرجال، ص ٢٧٥ـ٢٧٨؛ قاموس الرجال:٣/ ٤١٦.

فقال الإمام: «لا يقبلون منّي».

فقلت: ومن لا يقبل منك وأنت ابن رسول الله؟!

فقال : «أنت ممن لم تقبل مني، دخلت داري بغير إذني، وجلست بغير أمري، وتكلّمت بغير رأيي، وقد بلغني انّك تقول بالقياس؟».[1]

قلت: نعم به أقول.

قال :«ويحك يا نعمان أوّل من قاس الله تعالى إبليس حين أمره بالسجود لآدم ، وقال: خلقتني من نار وخلقته من طين، أيّما أكبر يا نعمان القتل أو الزنا؟»

قلت: القتل.

قال :«جعل الله في القتل شاهدين وفي الزنا أربعة؟ أينقاس لك هذا؟».

قلت: لا.

قال :«أيما أكبر البول أو المني؟».

قلت: البول.

قال :« فلِمَ أمر الله في البول بالوضوء وفي المني بالغسل؟ أينقاس لك هذا؟» .

قلت: لا.

قال :«فأيّما أكبر الصلاة أو الصيام؟».

قلت:الصلاة.

---

١. والقياس هو عبارة عن أنّ الله تعالى يبيّن حكماً في مورد معين فيتم تسرية ذلك الحكم إلى مورد آخر لا يعلم وجود تلك العلة المعلومة في المورد الأوّل.

قال عليه السلام :«فلِمَ وجب على الحائض أن تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ أينقاس لك هذا؟»

قلت: لا.

قال عليه السلام :««أيّما أضعف المرأة أو الرجل؟»».

قلت: المرأة.

قال عليه السلام :«فلِمَ جعل الله تعالى في الميراث للرجل سهمين وللمرأة سهماً؟ أينقاس لك هذا؟».

قلت: لا.

قال عليه السلام :«فَلِمَ حكم الله تعالى في من سرق عشرة دراهم بالقطع وإذا قطع رجل يد رجلٍ فعليه ديتها خمسة آلاف درهم؟ أينقاس لك هذا؟ ».

قلت: لا.

قال عليه السلام : «وقد بلغني أنّك تفسر آية في كتاب الله وهي ﴿لتسئلن يومئذ عن النعيم﴾[1] أنّه الطعام والماء البارد في اليوم الصائف».

قلت: نعم.

قال له: «دعاك رجل وأطعمك طعاماً طيباً وأسقاك ماء بارداً ثمّ امتن عليك به ما كنت تنسبه إليه؟».

قلت: البخل.

قال عليه السلام :« أفيبخل الله تعالى؟!» قلت: فما هو؟

قال: «حبنا أهل البيت».[2]

١. سورة التكاثر:٨.

٢. بحار الأنوار:١٠/ ٢٢؛ مناظره درباره مسائل ايدئولوژيكى، ص ١٣٠ـ ١٣٢.

تبيين الأحكام بالطريقة الشيعية الخاصة

إنّ الذي خفى على الباحثين حول سيرة الإمام فيما يتعلّق بتأسيسه للجامعة العلمية والفقهية هو الجانب السياسي من هذه المبادرة العظيمة، ولكي يتّضح هذا الجانب السياسي منها ينبغي الالتفات في البداية إلى أنّ جهاز الخلافة في الإسلام يختلف عن كافة الأجهزة والأنظمة الحكومية الأُخرى في أنّه ليس نظاماً وجهازاً سياسياً فقط بل يمثل القيادة السياسية والدينية معاً، و الأمر الذي يوضح هذه الحقيقة هو عنوان الخليفة الذي يتمتع به الحاكم الإسلامي وانّه قبل أن يكون قائداً سياسياً عادياً فهو خليفة رسول الله والنبي هو من أوجد الدين وهو معلم الأخلاق، فالخليفة في الإسلام يتولىّ الشؤون الدينية للناس ويكون إمامهم الديني أيضاً، مضافاً إلى كونه مسؤولاً عن القضايا والشؤون السياسية .

دفعت هذه الحقيقة المسلم بها وبعد السلسلة الأُولى من الخلفاء الإسلاميين بالحكام اللاحقين الذين كانوا يتمتعون بقلة الوعي الديني و يفتقرون إليه كلياً أحياناً أن يسدّوا هذا الفراغ برجال الدين التابعين لهم، وبضم المرتزقة من الفقهاء والمفسرين والمحدّثين إلى جهازهم الحاكم جعلوا منه تركيبة من الدين والسياسة.

والفائدة الأُخرى التي جناها الخلفاء من هؤلاء المرتزقة آنذاك هو أنّهم كانوا يستطيعون وبسهولة تغيير أحكام الشريعة كيفما شاء واشتهى الحكام الظالمون والمستبدون بذريعة تطلب مصالح العصر وحاجاته، ويبدّلون حكم الله باسم الاجتهاد الذي قلّما يستطيع عامة الناس إدراك حقيقته لإرضاء أربابهم وتقرّباً لهم، وقد ذكر المؤرّخون لنا نماذج رهيبة من عمليات وضع الحديث والتفسير بالرأي الأمر الذي لاح منه تورّط القوى السياسية وأجهزة الحكام فيه.

وقد قاموا بنفس هذه العملية في تفسير القرآن أيضاً، فقد كان التفسير

بالرأي وحسبما يراه المفسر من الأعمال التي يمكن من خلالها تغيير الأحكام الإلهية عند الناس بسهولة وتجعلهم يعتقدون بما يراه المفسر الذي كثيراً ما كان ينفذ رغبات الحاكم وطلباته.

وهكذا كان فقد انقسم كل من الفقه والحديث والتفسير ومنذ بدايات التاريخ الإسلامي إلى اتجاهين: اتجاه يخدم أجهزة الحكم الغاصبة ويضحي بكثيرمن الحقائق لأجل مصالح تلك الأجهزة ويحرّف أحكام الله للحصول على متاع الدنيا ،والاتجاه الآخر هو ذلك الاتجاه الأصيل والأمين الذي لا يقدّم أية مصلحة على مصلحة نشر أحكام الشريعة وتبيينها، وكان طبعاً يواجه الجهاز الحاكم ومرتزقته من الفقهاء في كلّ خطوة يخطوها، ولأجل ذلك كان يمارس هذا الاتجاه نشاطه بشكل سري في أغلب الأحيان.

الطابع النقدي لمدرسة الإمام الصادق عليه السلام

وممّا تقدّم يمكن أن نعرف جيداً بأنّ الفقه الجعفري لم يكن يمثل وجهة نظر دينية مختلفة عن بقية آراء الفقهاء الفقهية في عصر الإمام الصادق عليه السلام فحسب، بل كان يحمل في طياته مفهومين نقديين في الوقت ذاته.

أوّلهما، وأهمهما : هو إثبات عدم تمتع جهاز الحكم بالوعي الديني اللازم وعجزه عن سد الفراغ الآيديولوجي الذي يعانيه الناس، ويعني في الواقع إثبات عدم جدارته في تولّي منصب الخلافة.

وثانيهما: هو تحديد موارد التحريف الديني في الفقه الحكومي الذي انبعث من استنتاجات غير إسلامية ومصالح ارتآها الفقهاء في بيان الأحكام الفقهية ممّا ينصب في صالح سياسات السلطات الحاكمة، ثمّ راح الإمام الصادق ومن خلال تفعيل البحوث العلمية وتبيين الفقه والمعارف الإسلامية وتفسير القرآن بطريقة

تختلف عن أُسلـوب العلماء التابعين للحكم يسجّل اعتراضـه العملي على الجهاز الحاكم.

وبهذه الطريقة خطّأ الإمـام جميع المؤسسات الدينية والفقهية التـابعة لجهاز الخلافة والتي تعدّ من أركانه وخلع عنه الصفة الدينية التي أضفاها على نفسه.

وفي الحوارات والتعاليم التي كان يلقيها على أصحـابه ومقرّبيه تتضح جلياً الاستفادة من عـامل عدم تمتع الخلفاء بـالوعي الدينـي بصفته دليلاً على أنّ رأي الإسلام هو عـدم استحقاقهم تولّي هذا المنصب. أي انّ الإمـام كان يصرّح بنفس ذلك المفهوم النقدي الذي كان متمثلاً في دروســه الفقهية والقرآنية أيضاً وبشكل علني، وفي حديث روي عنه :«**نحن قوم فرض الله طاعتنـا وأنتم تأتّمون بمن لا يعذر الناس بجهالته**»[1] أي انّ الناس الـذين قـد انحرفوا جـرّاء جهل القـادة والحكام وسلكوا الطريـق الخطأ لا يمكنهم أن يعتذروا لله تعـالى بأنّه: «لم نسلك الطـريق الخطأ بمعـرفتنا بل انّ أئمتنا وقـادتنا هـم الـذين دفعوا بنا جهـلاً إلى هذا الطريق» ذلك انّ إطاعة هـؤلاء القادة هو بنفسه عمل خاطئ، إذن فليـس بإمكانه أن يبرر الأعمال الخاطئة اللاحقة.[2]

نموذج من تلامذة مدرسة الإمام الصادق عليه السلام

وكما أشرنا مسبقـاً انّ عدد مـن تربّى وتعلـم في الجامعة الجعفريـة قد نـاهز الأربعة آلاف طالب، وكان المناسب ـ على أقل تقدير ـ أن نترجم لبعض منهم هنا غير انّنا وللاختصار سنقتصر على ترجمة وتقديم نموذج واحد منهم وهو هشام بن الحكم.

١. أُصول الكافي:١/ ١٨٦.

٢. پيشواى صادق، السيد علي الخامنئي، ص ٨٧ـ ٩١.

المستوى العلمي الكبير لهشام بن الحكم

كان هشام عالماً بارزاً ومتكلّماً كبيراً، ذا فصاحة وبلاغة، وعذوبة في الكلام، وحاذقاً جداً في المناظرة، وكان يعد من أكبر تلامذة مدرسة الإمامين الصادق والكاظم عليهما السلام، وقد قدّم خدمات كبيرة للشيعة في ذلك العصر الذي كان الشيعة فيه عرضة للضغط السياسي والإعلامي من قبل السلطات والمذاهب المختلفة، وبشكل خاص دافع بجدارة عن عقيدة الإمامة التي هي من أركان عقائد الشيعة الأساسية وبيّن مفهومها البنّاء في قيادة المجتمع بشكل رائع.

وفي هذه الجامعة ارتسمت خطوط تكامله الفكري والإسلامي، ولكن وبعد عام ١٤٨هـ فصاعداً ، أي بعد استشهاد الإمام الصادق عليه السلام تكاملت شخصيته الراقية في ظل تعاليم الإمام الكاظم وإرشاداته وبلغ إلى قمة الكمال والازدهار.

في طلب الحقيقة

توضح لنا دراسة حياة هشام انّه كان مغرماً بالعلم ومتعطشاً للحقيقة، فدرس أوّلاً وللوصول إلى هذا الهدف والارتواء من معين العلم والمعرفة علوم عصره، ودرس كتب اليونان الفلسفية لإتمام معرفته وإكمالها فتعلّمها جيداً لدرجة انّه كتب نقداً على أرسطاطاليس.

ثمّ بعد ذلك في سبيل إكمال سيرته الفكرية والعلمية تنقّل بين عدّة مدارس مختلفة، غير انّه لم يقتنع بفلسفة أي مدرسة من تلك المدارس، إلاّ تعاليم الإسلام المنطقية والواضحة والمستقيمة التي ألقت في روعه السكينة والاستقرار، ولذلك وبعد أن اطّلع على جميع التيارات السائدة آنذاك أعرض عنها وتعرّف على الإمام الصادق من خلال عمه، ومنذ ذلك الحين تغيّرت مسيرة حياته في ظل معرفة

الإسلام العميقة وقبول منطق التشيّع وتحوّل تحولاً أساسياً.

وقال بعض: إنّ هشام بن الحكم كان من تلامذة أبي شاكر الديصاني (الملحد المعروف) في البداية، ثمّ تبنّى عقيدة الجَهْمية وصار من أتباع جَهْم بن صفوان، و قد عدّوا ذلك ممّا يطعن فيه هشام ويتهم بفساد العقيدة.[١]

في حين انّه ليس فقط لم يكن تلميذاً لأبي شاكر، بل كان له معه مناظرات انتهت بتشرّف أبي شاكر بالدين الإسلامي.[٢]

وعلى فرض صحّة ما نسب إليه، فإنّ مساهمته في البحوث والمجالس التي كانت تقيمها المدارس المختلفة لا تثبت انّه كان يتبنّى تلك العقائد والآراء، بل كان اتّصاله بهم لأجل الاطّلاع والبحث والمناظرة هذا أوّلاً، وثانياً أنّ هذه التنقلات كانت بمثابة المعبر له في مسيرة تكامله العقلي والفكري، ولا يكون لمن يطلب الحق ويبحث بوعي ودراية عن الحقيقة عيباً ونقيصة، بل يجب أن ننظر إلى النقطة الأخيرة من مسيرته الفكرية والعقيدية ونحكم على أساسها[٣]، ونحن نعلم أنّ هشاماً بذل قصارى جهده في إشاعة وبث الإسلام والتعريف بالعقائد الشيعية وترك وراءه صحيفة أعمال مضيئة.

عصر صراع الأفكار

وكما أشرنا مسبقاً كان القرن الثاني من الهجرة واحداً من عصور الازدهار العلمي والمعرفي والبحث وصراع الأفكار وظهور المدارس والتيارات المختلفة في

---

١. وحول حياته يراجع هشام بن الحكم، عبد الله نعمة، ص ٣٩ـ ٥٣.

٢. قاموس الرجال، التستري:٩/ ٣٥١.

٣. هشام بن الحكم مدافع حريم ولايت، الصفائي ص ١٤؛ تنقيح المقال، المامقاني:٣/ ٣٠١.

المجتمع الإسلامي، وعلى الرغم من أنّ الإسلام كان يدعو للعلم والمعرفة منذ البداية غير انّ الجدل والحوارات العلمية والدينية والمناظرات وصلت إلى أوجها في هذا القرن وظهر علماء كثيرون في هذا المجال لكلّ منهم ثقله ومكانته، وكلّ ذلك بسبب تعرف المسلمين وعلمائهم على الفلسفة اليونانية وأفكار العلماء الأجانب من جهة وظهور المدارس الدينية المختلفة في المجتمع الإسلامي من جهة أُخرى.

هذا وبسبب انّ أكثر البحوث والآراء العلمية لم تكن منسقة ومدونة لذا كان المجال مفتوحاً للجدل والمناظرة بشكل كبير.[١]

ولما تقدّم من الأسباب اتّسمت المناظرات والحوارات بين المدارس والفرق المتعددة بأهمية خاصة، وكانت تحدث مناظرات وحوارات قيمة ومثيرة هنا وهناك كلّها جديرة بالاهتمام ويوجد اليوم الكثير منها بأيدينا.

كوّن مجموع هذه الأسباب الباعث على الازدهار والمعرفة والإدراك التحليلي للقضايا بين المسلمين لدرجة انّه قد خصص لهذا الموضوع فصلاً خاصاً في كتب تاريخ الإسلام، و هشام بن الحكم الذي كان قد تربى وترعرع في هذه الأجواء وللاستعداد الكبير والعلاقة الشديدة اللّذين كان يتمتع بهما، برز بسرعة من بين علماء ومفكّري عصره وأصبح على رأسهم.[٢]

اللقاء الأوّل

غير انّ هشاماً ما زال وهو في مسيرته العلمية لم يحصل على ضالّته المنشودة ومع أنّه درس مدارس فكرية متعددة وتباحث مع شخصيات علمية ودينية بارزة

---

١. ضحى الإسلام: ٢/ ٥٤.

٢. هشام بن الحكم مدافع حريم ولايت، ص ١٤.

في عصره إلاّ أنّه لم يكـن قد بلـغ ما يرومـه وقد بقيت شخصيـة واحدة لم يـواجهها وليست هي غير جعفر بن محمد إمام الشيعة السادس.

فقد كـان هشام يفكّـر بحق انّ الالتقـاء به سيفتـح له أُفقـاً جديـداً، ولهذا الغرض طلب من عمّه الذي كان شيعياً ومن الموالين للإمام السادس أن يرتّب له لقاء معه.

وقصة لقـائه الأوّل بالإمـام الصادق الذي غيّر مجرى حيـاته العلميـة تماماً قصة رائعة وجذابة، يقول عمر بن يزيد عمّ هشام:

كان ابن أخـي هشام يذهب في الـدين مذهب الجهمية، فسألني أن أدخله على أبي عبد الله ليناظره، فـأعلمته أنّي لا أفعل مالم استأذنه فيـه، فدخلت على أبي عبد الله عليه السلام، فاستـأذنته في إدخال هشـام عليه، فـأذن لي فيه، فقمت مـن عنده وخطوت خطوات فذكرت رداءته وخبثه، فانصرفت إلى أبي عبد الله عليه السلام فحدّثته رداءته وخبثه.

فقال لي أبو عبد الله: «يا عمر تتخوّف علي» فخجلت من قولي وعلمت أنّي قد عثرت، فخرجت مستحياً إلى هشام وأعلمته أنّه قد أذن له بالدخول.

فبادر هشام فاستأذن ودخل، فدخلت معـه، فلماّ تمكّن من مجلسه سأله أبو عبد الله عن مسألة فحار فيها وبقي، فسألـه هشام أن يؤجّله فيها، فأجّله أبو عبد الله، فذهب هشام فاضطرب في طلب الجواب أيّـاماً فلم يقف عليه، فرجع إلى أبي عبد الله فأخبره أبو عبد الله بها.

وسأله عـن مسألة أُخرى فيها فسـاد أصله وعقد مذهبه، فخـرج هشام من عنده مغتماً متحيراً، قال: فبقيت أياماً لا أفيق من حيرتي.

ثمّ طلب منّـي هشام أن استأذن له على أبي عبد الله ثالثـاً، فدخلت على أبي

عبد الله فاستأذنت له، فقال أبو عبد الله: لينتظرني في موضع سمّاه بالحيرة[١] لالتقي معه فيه غداً إن شاء الله، فخرجت إلى هشام فأخبرته بمقالته فسّر واستبشر وسبقه إلى الموضع الذي سمّاه.

ثمّ رأيت هشاماً بعد ذلك، فسألته عمّا كان بينهما؟

فأخبرني انّه سبق أبا عبد الله إلى الموضع الذي كان سمّاه له، فبينا هو إذا بأبي عبد الله قد أقبل على بغلة له، فلمّا بصرت به وقرب مني هالني منظره وأرعبني حتى بقيت لا أجد شيئاً أتفوّه به، ولانطق لساني لما أردت من مناطقته، ووقف عليّ أبو عبد الله ملياً ينتظر ما أكلّمه، وكان وقوفه عليّ لا يزيدني إلاّ تهيّباً وتحيراً، فلمّا رأى ذلك مني ضرب بغلته وسار حتى دخل بعض سكك الحيرة.[٢]

ويوجد هنا عدة نقاط هامة في هذه القضية:

الأُولى: هو وجود الموهبة والقدرة العالية في التباحث والمناظرة في هشام ممّا جعل عمه يتخوّف، ويعبّر عن ذلك الاستعداد بالخباثةوالرداءة، وكان يشعر ـ جهلاً بمنزلة الإمامة السامية ـ بالقلق حيال هذه المواجهة ممّا جعله يفاتح الإمام في ذلك منذ البداية .

الثانية: رغبة هشام وتعطّشه العجيب لطلب المعرفة والعلم والتعلّم أكثر لدرجة انّه لا يفوّت أية فرصة في هذا السبيل ويستغل كلّ فرصة تسنح له، وبعد العجز عن الإجابة على أسئلة الإمام يجدد لقاءه معه ويسبقه في اللقاء الأخير إلى محل اللقاء، وهنا يتجلىّ بوضوح عطشه واشتياقه الكبير.

١. نظراً إلى أنّ الحيرة كانت واحدة من مدن العراق وكان هشام يسكن الكوفة، فلعل هذا اللقاء كان قد تم في إحدى أسفار الإمام الاجبارية إلى العراق.

٢. اختيار معرفة الرجال، الطوسي، ٢٥٦؛ هشام بن الحكم مدافع حريم ولايت، الصفائي ص ١٥.

الثالثة: عظمة شخصية الإمام الصادق لدرجة انّها جعلت هشاماً مضطرباً عاجزاً عن أن يتفوّه بما كان قد أعدّه له لمناظرته وينسى كلّ ما كان في جعبته من العلم، فيعترف وبلغة العيون والنظرات الأخّاذة الممزوجة بالهيبة والاحترام بصغره أمام ذلك الإمام العظيم.

وعلى كلّ حال كان لذلك اللقاء الروحي أثره وغيّر مجرى حياة هشام، ومنذ ذلك اليوم اتصل بمدرسة الإمام السادس، وتخلّى عن عقائده السابقة، وتألّق في هذه المدرسة ،لدرجة انّه حاز على قصب السبق من بين أصحابه.

مؤلّفات هشام

وفي ظل ما أفاده هشام من المعارف الجمّة من مدرسة الإمام السادس قطع المراحل العلمية العليا وبذل قصارى جهده في إشاعة العقائد الشيعية والدفاع عنها، وقد ترك في هذا المجال تراثاً علمياً ضخماً، وتوضح لنا ملاحظة فهرس أعماله ومؤلّفاته التي ناهزت الثلاثين مجلداً مدى مستوى علمه وعمقه وضخامة أعماله، وها هو فهرس أعماله في المجالات المتنوعة:

١. كتاب الإمامة، ٢. كتاب الدلالة على حدوث الأشياء، ٣. كتاب الرد على الزنادقة، ٤. كتاب الرد على أصحاب الاثنين، ٥. كتاب التوحيد، ٦. كتاب الرد على هشام الجواليقي، ٧. كتاب الرد على أصحاب الطبائع، ٨. كتاب الشيخ والغلام، ٩. كتاب التدبير[1]، ١٠. كتاب الميزان، ١١. كتاب الميدان، ١٢. كتاب الرد على من قال بإمامة المفضول، ١٣. كتاب اختلاف الناس بالإمامة، ١٤. كتاب الوصية والرد على من أنكرها، ١٥. كتاب الجبر والقدر، ١٦. كتاب الألفاظ، ١٧. كتاب المعرفة، ١٨. كتاب الاستطاعة، ١٩. كتاب الثمانية أبواب،

---

١. جمع الكتاب علي بن منصور من تلامذة هشام بن الحكم.

٢٠. كتاب الرد على شيطان الطاق، ٢١. كتاب الأخبار كيف يفتح، ٢٢. كتاب الرد على أرساطاطاليس في التوحيد، ٢٣. كتاب الرد على المعتزلة وعقيدتهم في طلحة والزبير، ٢٤. كتاب الحكمين، ٢٥. كتاب القدر، ٢٦. كتاب الرد على مذهب المعتزلة، ٢٧. كتاب المجالس حول الإمامة[١]، ٢٨. كتاب علل التحريم، ٢٩. كتاب الفرائض.[٢]

نشاطات الإمام السياسية

ويجب التأكيد على هذه النقطة هنا، وهي انّه وعلى العكس ممّا يتصوره الجميع فإنّ نشاطات الإمام الصادق لم تنحصر في المجالات العلمية بكل ما لها من سعة وعمق، بل كان له نشاطات سياسية أيضاً غير انّ هذا الجانب من نشاطاته ظل خافياً على كثير من المحدّثين والكتّاب، ولأجل أن يتضح وهن وخطأ هذا التصوّر وهو ـ انّ الإمام الصادق و نظراً للظروف السائدة آنذاك لم يتدخل في القضايا السياسية أبداً ولم يكن له موقف سياسي أصيل بل كان يسير في ضوء ما ترسمه له سياسة الخلفاء والحكام آنذاك ـ نقدم نموذجاً من نشاطاته بالنحو التالي:

إرسال ممثليه لدعوة الناس إلى الإمامة

وبدافع بثّ فكرة الإمامة أرسل الإمام الصادق عليه السلام من يمثّله إلى سائر أرجاء البلاد، ومنهم رجل كوفي بعثه الإمام نيابة عنه إلى خراسان يدعوهم لإمامته، ففرقة أطاعت وأجابت، وفرقة جحدت وأنكرت، وفرقة

١. الفهرست، الطوسي، ٣٥٥؛ فهرست مصنفي الشيعة ص ٣٠٤؛ الفهرست، ابن النديم، ص ٢٦٤؛ تأسيس الشيعة، الصدر، ص ٣٦١.
٢. فهرست أسماء مصنفي الشيعة، ص ٣٠٤.

ورعت ووقفت ـ خوفاً من الفتنة ـ.

ثمّ خـرج من كلّ فرقـة رجل يمثّل فرقتـه للقاء الإمام الصادق، وكـان ممثل الفرقة الثالثة قد قام بعمل قبيح مع إحدى جواري بعض من معه دون أن يعلم به أحد، و لمّا دخلوا على الإمـام كان المتكلم هو ذلك الرجـل، فقال: أصلحك الله قدم علينا رجـل من أهل الكوفة فدعـا الناس إلى طاعتك وولايتك، فـأجاب قوم وأنكر قوم وورع قوم ووقفوا .

قال الإمام: «فمن أي الثلاث أنت؟».

قال: أنا من الفرقة التي ورعت ووقفت.

قال الإمام: فأين كان ورعك ليلة قيامك بذلك العمل الشائن؟![1]

وكما هو ملحوظ كان مبعوث الإمام كوفياً ومحل أداء مهمته خراسان بينما كان الإمام يقيم في المدينة، وهذا يوضح لنا اتساع رقعة نشاطاته السياسية.

أسباب سقوط الحكم الأموي

ولأنّ سقوط الحكـم الأموي كان في عهد الإمـام الصادق عليه السلام ، لهذا ارتأينا من المناسب أن نستعرض أسبابه بشكل موجز: فقد أظهر الخلفاء الأمويون الكثير من البـدع والفساد والانحـراف في حكمهم وسياستهـم ممّا أدى إلى إثـارة غضب الناس وانتهى إلى ثورة المسلمين وسقوط حكمهم، وأمّـا الذي أثار غضب الناس وكراهيتهم فهو:

١ . انّه منـذ عهد معـاوية فصاعـداً تحول نظام الحكـم الإسلامـي إلى نظام ديكتاتوري واستبدادي وراثي وفردي.

١ . بحار الأنوار:٤٧/ ٧٢.

٢. ان دخل الدولـة الذي كان ينبغي أن يصرف في الأُمـور والأعمال العامة والغنائم الحربية والفيء الـذي هو للمجاهدين استولت الحكـومة على كلّ ذلك وصرفتها على مجالس لهوها وقصورها وزخرفتها وبذخها ولذّاتها.

٣. تفشّي الاعتقالات والتنكيل والمذابح والمجازر العامة أحياناً.

٤. ومع أنّ الفقه الشيعي قبل قيام الحكم الأموي كان مهملاً وأئمّة الشيعة الذين كانوا على علم واسع بالأحكام الإسلامية لم يعرفوا كمراجع الأحكام الدينية غير انّ المعايير الدينية والفقهية الرسمية والسائدة كانت تراعى في الظاهر.

وعلى سبيل المثال عندما كانوا يريـدون الحصول على حكم مسألة ما فانّهم يرجعـون إلى القرآن و سنّة النبـي في البدايـة، فإذا لم يحصلوا عليـه فيهما رجعوا إلى الصحابـة من المهاجريـن والأنصار ويسألونهم هـل سمعوا حديثاً عـن النبي في ذلك أو لا؟ وإذا لم يحصلوا على دليل الحكم بعد كلّ هذا البحث والفحص كان الذين لهم حظّ من الفقه يحددون الحكـم الشرعي باجتهادهـم بشرط أن لا يخالف ذلك ظاهر القرآن والسنّة بشكل كامل.ولكنّ الخلفاء الأمويين ما كانوا يرون بأساً في أن يصدروا حكماً يخالف القـرآن وسنّة النبي كما ألحق معاويـة زياد الابن الغير الشرعي لأبي سفيان بنسبه واعتبره أخاً له خلافاً لما صرّح به حديث النبي.

٥. قد حدد الفقه الإسـلامي ـ كما نعلم ـ أحكاماً جـزائية للمجرمين تعرف بالحدودوالديات.

والمجـرم يجب أن يلقى جـزاءه وفقـاً لها غير انّنـا لا نجد أي تنـاسـب بين الجريمـة والجزاء المقرر لها في عصر الأمـويين وغالبـاً مـا كانـت الأحكام الجزائيـة منوطة برأي الحاكم إن شاء عفا عن المجرم أو شاء قتل بريئاً وكان يحدث أحياناً أن يحكموا على الناس بأكثر ممّا قرره الشارع!

٦. وبالرغـم من انّه قد نشأ فقهاء كبار في المجتمع الإسلامي ولكن لم يكن

هنـاك من يعير لكـلامهم أي أهميـة، ولو انّ فقيهـاً أفتى بحكـم يخالف مصلحـة الحاكم كانت حياته عرضة للخطر، ولهذا تعطّل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللّذين هما مـن فروع الدين المهمـة ولم يكن هناك من يجرأ على نهي الخليفـة عمّـا يقوم به من العمل القبيح.

٧. انتهكت حرمـة الشعائر والمظاهر الإسلامية، وسمحـوا أن يهان كلّ ما هو مقدس في عين المسلمين، كما هـدموا الكعبة والمسجد الحرام وانتهكـوا حرمة ضريح النبي ومنبره ومسجده واستباحوا المدينة قتلاً و تنكيلاً ثلاثة أيام.

٨. قتلـوا أولاد النبي بشكـل جماعـي لأوّل مـرة في الإسلام، وأخـذوا نسـاء وبنات أهل بيته سبايا يجولون بهن المدن.

٩. ظهور نظم الشعر للمدح ـ الذي كان من مظاهر الجاهلية وعدّ مذموماً في عهـد النبي ـــ مرة أُخـرى وشيـوعه وراح الشعـراء في العصر الأموي ينسجـون قصائد المدح يمدحـون الخلفاء بأشياء ليسـت فيهم قدر استطاعتهـم وينزّهونهم عن كلّ ما فيهم.

١٠. ظهور مجمـوعة من العلماء الدنيـويين ومن تجار الدين الـذين اشتروا رضا الحكّام بغضب الرب، وكان يفسّر هؤلاء ظـاهر آيات القرآن وأحاديث النبي برأيهم وحسب رغبتهم ويبررون أعمال وسلوك الحكام.

١١. ازديـاد الرغبـة في حيـاة يسودهـا البذخ والـزينـة في الأكل والألبسـة والقصور، والاهتمام بمظـاهر الحيـاة، وبناء القصور الفخمـة في مركـز الحكم وفي المصايف والأماكن التي يرتادونها للصيد.

١٢. الإدمان على الخمرة والانشغال بـالنساء واللهو معهن، وشراء الجواري المغنيات، لـدرجة انّهن شكّلـن جلّ أحـاديث بعـض الخلفاء الأمـويين اليوميـة،

مضافاً إلى الحديث عن الأكل والشراب.[١]

١٣. كان مبدأ المساواة أحد أهم أركان النظام الإسلامي، ولكنّه أُلغي واستبدل بالعنصرية العنيفة لصالح العرب وبضرر القوميات الأُخرى الغير عربية، وفي الوقت الذي يلغي القرآن والسنّة النبوية الفوارق والامتيازات العنصرية ويجعل ملاك التفاضل هو التقوىٰ، نجد الأمويين يفضّلون العنصر العربي ويقولون: لأنّ نبي الإسلام مبعوث من العرب فالعرب أفضل من الآخرين وقريش أفضل من العرب الآخرين، وكان العرب في ضوء هذه السياسة يفضّلون على العجم في جميع الأُمور، وكان نظام الأمويين الارستقراطي يمنع الموالي ـ المسلمين من غير العرب ــ من التمتع بجميع حقوقهم الاجتماعية كالإماء والعبيد، وكان التحقير والاستصغار يرافقان الموالي أينما كانوا ويحرمون من مزاولة أي عمل محترم، فلم يكن يحق لهم أن يصنعوا السلاح ويركبوا الخيول أو يتزوّجوا من العربيات حتى لو كانت بدوية بلا نسب وحسب، وإذا ما حدث ذلك بشكل سري فكان الطلاق هو مصير المرأة والرجل مصيره السجن والضرب بالسياط.

الحكم والقضاء والإمامة أيضاً كان جميع ذلك مختصاً بالعرب فقط أينما كانوا، ولا يحق لغير العربي أن يتقلد هذه المناصب.

وكان العرب الأمويون يعتقدون بأنّهم خلقوا للسيادة والحكم، وانّ العمل والعناء خاص بالموالي.

فكان هذا النوع من التعامل مع الموالي أحد أكبر أسباب سقوط الحكم الأموي على أيدي الإيرانيين الفرس، وخلال موجة التمرد والثورة على الأمويين استغل العباسيون تلك الأسباب لتشويههم وتحريض الناس عليهم، غير انّه كان

١. تاريخ تحليلى اسلام تا پايان امويان، ص ٢٠٤ (بتصرف).

لسببين من تلك الأسباب أثره الأكبر في ذلك وهما: احتقار الموالي، ومظلومية أهل البيت. فاستغل العباسيون هذين الأمرين بشكل كبير وفي الواقع انّهما شكلا الجسر الذي عبر من خلاله العباسيون للوصول إلى أهدافهم.

هل كانت ثورة العباسيين إسلامية؟

والموضوع الآخر الذي يسترعي الانتباه في دراسة حياة الإمام الصادق عليه السلام هو امتناعه عن قبول اقتراح بيعة قادة الثورة العباسية له، وإذا ألقينا نظرة سطحية إلى هذا الأمر فانّا سنظن انّ للدوافع الدينية أثراً كبيراً فيها، لأنّ الشعارات التي حملوها كانت جميعها إسلامية، والكلمات التي كتبوها على راياتهم كلّها آيات قرآنية، وكانوا يتظاهرون بالولاء لأهل البيت وانّهم يريدون الانتقام لدماء أهل البيت التي أُريقت ظلماً من بني أُمية وبني مروان، وكان كلّ هدفهم هو ربط الثورة بأهل البيت.

ومع أنّهم لم يعلنوا عن اسم الخليفة الذي كان يدعون الناس إليه غير انّ شعارهم كان «**الرضا من آل محمد**» أي ثرنا لبيعة شخص منتخب من آل محمد صلى الله عليه وآله.

قالوا: كان لأبي مسلم أصحاب وأنصار كثيرون بين العرب، وعندما بايعوه أقسموا بأن يصمدوا ويثبتوا في اتّباع كتاب الله وسنّة النبي وفي طاعة الرضا من آل البيت، وأن لا يتأخّروا في اتبّاع قادتهم، وأن ينفّذوا كلّ أوامرهم بدون مناقشة حتى أنّهم أقسموا بأنّهم إذا انتصروا على عدوهم لا يقتلونهم إلاّ بما أمر به الإسلام وزعماءهم، وكان شعارهم الذي يعرفون به بعضهم ويتصلون من خلاله ببعضهم هي الملابس والرايات السوداء، وكان راياتهم سوداء باعتبار انّ راية النبي كانت سوداء، وهدفهم هو الرجوع إلى دين النبي، أو أن يكون رمزاً لمطالبتهم بدماء أهل

البيت وحزنهم عليهم. ولعلّهم أرادوا أن يجعلوا أنفسهم مصداقاً لأخبار الملاحم التي تقول بأن ظهور الرايات السوداء من خراسان علامة على زوال سلطان الطغاة وظهور الحكومة الحقة العادلة[1].[2]

وعلى أي حال دلّ ظاهر الأمر انّ ثورة العباسيين ثورة عظيمة ذات مغزى إسلامي.

رسائل قادة الثورة إلى الإمام الصادق عليه السلام

وبعد موت إبراهيم الامام كتب أبو مسلم إلى الإمام الصادق عليه السلام: إنّي أدعو الناس إلى موالاة أهل البيت، فإن رغبت فليس مزيد عليك.

فأجابه الإمام: ما أنت من رجالي ولا الزمان زماني.[3]

وكذلك يقول الفضل الكاتب: كنت عند أبي عبد الله، فأتاه كتاب أبي مسلم؛ فقال: «ليس لكتابك جواب، أُخرج عنّا».[4]

وهكذا قرر أبو سلمة الخلال[5] الذي عرف فيما بعد بوزير آل محمد أن يبتعد عن العباسيين ويتصل بالعلويين، لأنّه لاحظ انّ الظروف قد انقلبت ضده بعد موت إبراهيم الإمام، ولذلك كاتب ثلاثة من أعيان العلويين، وهم: جعفر بن

---

١. يراجع حول راياتهم وثيابهم السوداء: دو قرن سكوت، زرين كوب، ص ١١٦؛ الكامل في التاريخ: ٥/ ٤٧٩؛ تاريخ بغداد: ١٠/ ٢٠٨؛ البداية والنهاية: ١٠/ ٦٧.

٢. واعتبر مجيء الرايات السود من المشرق علامة ظهور الدولة العادلة في روايات علائم الظهور؛ بحار الأنوار: ٥٢/ ٢١٧ـ ٢٢٩ باب علائم الظهور؛ إرشاد المفيد، ص ٣٥٧.

٣. الملل والنحل، الشهرستاني: ١/ ١٥٤.

٤. الروضة من الكافي، الكليني: ٨/ ٢٧٤؛ بحار الأنوار: ٤٧/ ٢٩٧.

٥. ذكرت في سبب تسمية أبي سلمة بالخلال، ثلاثة أوجه (راجع ابن طقطقا، الفخري، ص ١٥٣ـ١٥٤).

محمد الصادق، وعبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب(عبد الله المحض)، وعمر الأشرف بن زين العابدين، و أرسل الكتب مع رجل من مواليهم، وقال للرسول: اقصد أوّلاً جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، فإن أجاب فأبطل الكتابين الآخرين، وإن لم يجب فالق عبد الله المحض، فإن لم يجب فالق عمر. فذهب الرسول إلى جعفر بن محمد أوّلاً ودفع إليه كتاب أبي سلمة.

فقال الإمام عليه السلام: «مالي ولأبي سلمة؟ وهو شيعة لغيري».

فقال له الرسول:اقرأ الكتاب، فقال الإمام لخادمه:ادن السراج مني، فأدناه، فوضع الكتاب على النار حتى احترق !

فقال الرسول: ألا تجيبه.

قال الإمام: «قد رأيت الجواب»!

فخرج الرسول فأتى عبد الله بن الحسن ودفع إليه الكتاب، فقرأه وقبله، ثمّ ركب حتى أتى منزل أبي عبد الله الصادق عليه السلام، فقال هذا كتاب أبي سلمة يدعوني إلى الخلافة وقد قدمت عليه شيعتنا من أهل خراسان، فقال الإمام: «ومتى كان أهل خراسان شيعة لك؟! أنت بعثت أبا مسلم إلى خراسان؟! وهل تعرف منهم أحداً؟! فإن لم تعرفهم ولم يعرفوك فكيف صاروا شيعة لك؟!».

فقال عبد الله: كان هذا الكلام منك لشيء.

فقال الصادق عليه السلام: «قد علم الله أنّي أُوجب النصح على نفسي لكلّ مسلم، فكيف ادّخره عنك، فلاتمن نفسك بالأباطيل، فإنّ هذه الدولة ستتم لبني العباس، وقد جاءني مثل الكتاب الذي جاءك».

فخرج عبد الله غاضباً، وكان موقف عمر بن زين العابدين سلبياً تجاه كتاب أبي سلمة أيضاً ورفضه، وقال: أنا لا أعرف صاحب الكتاب حتى

أرد عليه.[١]

ولمّا أقبلت رايات الانتصار ترفرف وظهرت علائم النجاح كاتب أبو سلمة الإمام مرة ثانية: إنّ سبعين ألف مقاتل وصل إلينا، فننتظر أمرك.

فقال عليه السلام: «إنّ الجواب كما شافهتك».[٢]

ويروي لنا أبو بكر الحضرمي انّه: دخلت أنا وأبان على أبي عبد الله الصادق عليه السلام، وذلك حين ظهرت الرايات السود بخراسان فقلنا: ماترى؟

فقال: «اجلسوا في بيوتكم، فإذا رأيتمونا قد اجتمعنا على رجل فانهدوا إلينا بالسلاح».[٣]

وقال الإمام عليه السلام في حديث آخر لأصحابه: كفّوا ألسنتكم، وألزموا بيوتكم، فإنّه لا يصيبكم أمر تخصون به أبداً ـ الحكومة الإسلامية الحقة ـ ».[٤]

لماذا رفض الإمام الصادق عليه السلام اقتراح قادة الثورة العباسية؟

و بالنظر إلى ما تقدم يبدو موقف الإمام في الوهلة الأُولى تجاه اقتراحات أبي سلمة وأبي مسلم أمر يصعب فهمه وتحليله، ولكن إذا أمعنّا النظر قليلاً في الأُمور أدركنا السبب الكامن وراء هذا الموقف، فقد كان الإمام الصادق يدرك بأنّ قادة الثورة لا هدف لهم إلاّ الحصول على مقاليد السلطة، وليس رفع شعار الولاء لأهل البيت إلاّ لجذب واستقطاب الموالين لأهل البيت.

وتشهد الروايات التاريخية بوضوح انّ أبا سلمة الخلاّل تسلّم مقاليد الأُمور السياسية بعد وصول القوات الخراسانية إلى الكوفة، وراح يوزع المناصب السياسية والعسكرية بين جماعته وأصحابه، فقد أراد باختياره خليفة علوياً أن

١. الفخري، ابن طقطقا، ص ١٥٤؛ مروج الذهب:٣/ ٢٥٣ـ ٢٥٤، ولم يذكر المسعودي رسالةعمر ابن زين العابدين.

٢. بحار الأنوار:٤٧/ ١٣٣.

٣ و ٤. بحار الأنوار: ٥٢/ ١٣٩.

يكون هو صاحب القرار والسلطة في الحكومة ويكون منصب الخليفة منصباً شكلياً.[١]

وكان الإمام يدرك بأنّ أبامسلم وأبا سلمة يبحثان عن شخصية مرموقة من أهل البيت حتى يستغلا مكانتها وشعبيتها للوصول إلى أهدافهما وبأنّهما لا يعتقدان بإمامته، وإلاّ فما معنى إرسال ثلاث رسائل بمضمون واحد إلى ثلاث شخصيات من آل الرسول ؟!

كان الإمام يدرك وبكلّ ذكاء انّ المخطط الرئيسي للثورة هم العباسيون، وهؤلاء ليس لهم هدف غير تحقيق آمالهم في استلام مقاليد الحكم والسلطة، وليس أبو مسلم وأبو سلمة وغيرهما إلاّ بيادق بأيديهم، وكان يعلم أنّهم سرعان ما سيقضون على كلّ من لم يعد يفيدهم أو يقف سداً في طريقهم، وقد كان كذلك مصير أبي مسلم وأبي سلمة وسليمان بن كثير والآخرين حيث لقوا حتفهم.

كان الإمام يعلم جيداً انّ أمثال أبي سلمة وأبي مسلم قد انخدعوا وانّهم لا يتحركون على خط الإسلام المستقيم وخط أهل البيت، لذلك لم يكن مستعداً للتعاون معهم وإضفاء الشرعية على أعمالهم، لأنّهم ـ وهم قادة الثورة ـ ليسوا من أبناء مدرسته، فقد أفرطوا وأسرفوا في الانتقام وطلب السلطة والإرهاب والعنف، وقد ارتكبوا أعمالاً لا يمكن لأي مسلم ملتزم أن يرضى بها ويؤيّدها.

وصايا إبراهيم الإمام المرعبة إلى أبي مسلم

سنواجه بمراجعتنا للتاريخ نصاً ووصية لإبراهيم الإمام إلى أبي مسلم الخراساني في بداية الثورة. فقد التقى أبو مسلم ـ البطل الشهير الذي لقب بلقب

---

١. طبيعة الدعوة العباسية ـ عمر فاروق، ص ٢٢٦.

أمير آل محمد[١] ـ إبراهيم الإمام خلال سفره إلى مكة، فأوصاه إبراهيم بوصاياه على راية سوداء صارت فيما بعد شعاراً للعباسيين، وأمر بالتوجه إلى خراسان والثورة العلنية هناك.

ومن حيث إنّ هذه الوصية تبيّن لنا حقيقة إبراهيم وأبي مسلم وقادة الثورة العباسية الآخرين ووثيقة هامة ننقلها هنا بنصها، ولكي يخدعه أكثر يقول إبراهيم في بدايتها لأبي مسلم:

إنّك رجل منّا أهل البيت فاحفظ وصيتي، فاقتل من شككت في أمره، ومن وقع في نفسك منه تهمة... إن استطعت أن لا تدع بخراسان أرضاً فيها عربي فافعل، وأيّما غلام بلغ خمسة أشبار فاتهمته فاقتله.[٢]

وهكذا يصدر إبراهيم الإمام أمره بالقتل و إراقة الدماء في وصيته لأبي مسلم بصراحة.

يقول المقريزي: وتالله لو توجّه أبو مسلم إلى أرض الحرب ليغزو أهل الشرك بالله، لما جاز أن يوصى (إبراهيم) بهذا، فكيف و إنّما توجّه إلى دار الإسلام وقتال أبناء المهاجرين والأنصار و ...؟![٣]

جرائم أبي مسلم

وللأسف طبّق ونفّذ أبو مسلم هذه الوصية المرعبة والتعسفية بحذافيرهاحتى صار ـ كما يقول اليافعي ـ حجّاج زمانه، و قتل في سبيل تثبيت الحكم العباسي مالا عد ولا حصر له من الناس.[٤]

---

١. ابن أثير، الكامل في التاريخ: ٥/ ٤٣٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ١٠/ ٥٤.

٢. العبر، ابن خلدون، ترجمة آيتي: ٢/ ١٦٧؛ الكامل في التاريخ: ٥/ ٣٤٨؛ النزاع والتخاصم، المقريزي ص ٦٦؛ البداية والنهاية: ١٠/ ٢٨.

٣. النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، ص ٦٧.

٤. مرآة الجنان: ١/ ٢٨٥.

ويقول المؤرّخون بلغ عدد من قتلهم أبو مسلم في عهده ستمائة ألف.[١]

وقد اعترف هو نفسه بهذه الجرائم عند ما شعر بالخوف من ناحية المنصور في رسالة كتبها إليه:

أمّا بعد فقد كنت اتخذت أخاك (السفّاح) إماماً... وأمرني أن آخذ بالظنة وأقتل على التهمة ولا أقبل المعذرة، فهتكت بأمره حرمات حتم الله صونها، وسفكت دماء فرض الله حقنها، وزويت الأمر عن أهله ووضعته في غير محله.[٢]

وقد اعترف المنصور بهذا الأمر أيضاً فقال عندما أراد أن يقتل أبا مسلم و لما عدّد جرائمه: لماذا قتلت ستمائة ألف بتعذيبهم والتنكيل بهم؟

فأجاب أبو مسلم وبدون أن ينكر هذا الأمر الشنيع: كان كلّ ذلك لتوطيد سلطانكم.[٣]

وفي موضع ذكر انّ عدد ضحاياه في غير الحروب التي خاضها مائة ألف قتيل.[٤]

ولم يسلم من أبي مسلم حتى أصدقاؤه القدماء، كصديقه وزميله أبي سلمة الخلاّل الذي لقب بلقب وزير آل محمد[٥] ولعب دوراً كبيراً في نجاح الثورة العباسية وكان في الواقع الذراع المالي والاقتصادي للدعوة العباسية.[٦]

---

١. البداية والنهاية: ١٠/ ٧٢؛ وفيات الأعيان: ٣/ ١٤٨؛ الكامل في التاريخ: ٥/ ٤٧٦؛ تاريخ الطبري: ٩/ ١٦٧.

٢. الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: ٢/ ٥٣٣؛ تاريخ بغداد: ١٠/ ٢٠٨.

٣. طبيعة الدعوة العباسية ص ٢٤٥.

٤. تاريخ اليعقوبي: ٣/ ١٠٥.

٥. الكامل في التاريخ: ٥/ ٤٣٦؛ البداية والنهاية: ١٠/ ٥٤.

٦. وفيات الأعيان: ٢/ ١٩٦.

وعليه فليس عجيباً أن نقرأ في التاريخ: انّه حينما حج أبو مسلم كان أهل البادية يفرّون منه كلّما مر عليهم، لأنّهم سمعوا الكثير عن سفكه للدماء![1]

الانتخاب والتخطيط

إنّ ما قلناه حول رفض الإمام الصادق عليه السلام لاقتراح قادة الثورة العباسية يتلخّص في أنّ أصحاب الاقتراح لم يكونوا متمتعين بالصلاحية والجدارة الكافية لثورة دينية وعقائدية أصيلة، ولم يكونوا من القوات والطاقات الأصيلة التي يمكن من خلالها قيادة ثورة إسلامية خالصة، ولو كانت هناك قوات وطاقات أصيلة وعقائدية بالقدر المطلوب لكان الإمام ينتخب الثورة لا محالة.

وبعبارة أُخرى: انّ الإمام الذي كان يفهم الأُمة من الناحية الفكرية والعملية، ويدرك الظروف السياسية والاجتماعية التي تحيط بها، ويعرف محدودية قدرته وإمكاناته التي كان يمكن في ضوئها بدء نضال سياسي، لم يكن يرى القيام بالسيف والانتصار بالسلاح كافياً في إقامة حكومة إسلامية، لأنّ إعداد القوات للهجوم العسكري فقط لا يكفي لتشكيل حكم إسلامي خالص، بل كان لابدّ أن يسبق ذلك إعداد جيش عقائدي يؤمن بالإمام وعصمته ويعرفهما بشكل كامل، ويدرك أهدافه العالية، ويدافع عن مخططه لتكوين الحكومة، ويحرس الانجازات التي تحقّقها للأُمة.

الحوار الذي دار بين الإمام الصادق عليه السلام وأحد أصحابه يوضح لنا مفاد ما قلناه آنفاً؛ فقد روي عن سدير الصيرفي أنّه قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقلت له: والله ما يسعك القعود؟

فقال: «ولِمَ يا سدير؟».

---

١. وفيات الأعيان: ٣/ ١٤٨.

قلت: لكثرة مواليك وشيعتك وأنصارك...

فقال: «يا سدير وكم عسىٰ أن يكونوا؟».

قلت: مائة ألف .

قال: «مائة ألف؟!»

قلت: نعم ومائتي ألف .

قال: «مائتي ألف؟!» .

فقلت: نعم ونصف الدنيا.

ثمّ بعد هذا الحوار ذهب الإمام برفقة سدير إلى ينبع، فرأى هناك غلاماً يرعى جداء فقال عليه السلام :« والله يا سدير لو كان لي شيعة بعدد هذه الجداء ما وسعني القعود».[1]

ونستنتج من هذه الرواية انّ هذا كان رأي الإمام حقاً، وانّه لا يكفي اعتلاء سدة الحكم فقط، وطالما انّ الحكومة غير مدعومة من قبل القوات والعناصر الواعية من الأُمة، فانّ البرنامج الإسلامي للإصلاح والتغيير لن يكون داخلاً حيز التنفيذ. فالعناصر والقوات التي تعرف أهداف الحكومة وتؤمن بمبادئها تسعى لحمايتها ودعمها وتشرح مواقف الحكومة لعموم الناس وتصمد أمام الأحداث وأعاصيرها .

ونفهم من حوار الإمام الصادق أيضاً انّه لو كان يمكنه الاعتماد على أصحابه وقواته في أن يحقق أهداف الإسلام ومبادئه بعد الانتصار المسلح على العدو لكان مستعداً للقيام بالسيف دائماً، لكن الظروف وتقلّباتها لم تسمح بذلك، لأنّ ذلك لو لم يكن يمنى بالفشل والهزيمة يقيناً لكانت نتائجه غير مضمونة أيضاً.

---

١. الأُصول من الكافي:٢/ ٢٤٢.

وبتعبير آخر: انّ الثورة لو لم تفشل في تلك الظروف لكان نجاحها غير مؤكد أيضاً.(١)

الإمام في مواجهة العباسيين

قد جعل العباسيون في بداية صراعهم مع بني أُميّة ـ كما لاحظنا ـ شعارهم هو الولاء لأهل البيت وبني هاشم وبسط القسط والعدالة، وفي الواقع ولأنّ مظلومية أهل بيت النبي في عهد الحكم الأموي قد جرحت مشاعر المسلمين من جهة، وكان الأمويون لا يألون جهداً في الظلم باسم الخلافة الإسلامية من جهة أُخرى، استطاع العباسيون ومن خلال استغلال كراهية الناس للأمويين والتظاهر بالولاء لأهل البيت أن يكسبوا دعم الناس لهم.

غير انّهم ليس فقط لم يفوا بوعودهم في دفع الظلم عن أهل البيت وتطبيق العدالة، بل سرعان ما راحوا يتبعون المخططات اللا إسلامية للأمويين، لكن هذه المرة بشكل أوسع وأكثر شدة، لدرجة جعلت الناس يتمنّون رجوع الحكم الأموي!

حتّى راح أبوعطاء السندي ينشد ويقول:

يا ليت جورَ بني مروان عادَ لنا وأنّ عدلَ بني العباس في النارا!(٢)

ومن حيث كانت مدة حكم السفّاح أوّل خليفة عباسي قصيرة ولم يتوطّد سلطانهم فيها كان الضغط على الناس قليلاً آنذاك ولم يضيّق على أهل البيت، غير انّه وبمجيء المنصور الدوانيقي اشتدت الضغوط والمضايقات، ولأنّ المنصور عاصر الإمام الصادق عليه السلام مدة طويلة نسبياً أي ما يقارب الواحد

١. حياة الأئمة الاثني عشر، عادل الأديب، ص ١٨٠ـ ١٨٣.

٢. تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، دكتور شوقي ضيف، ص ٣٤٠.

والعشرين عاماً، لذا كانت دراسة جرائمه وأعماله ومضايقاته في هذه الفترة الطويلة لا تخلو من مناسبة.

سياسة الضغط الاقتصادي

كان أبو جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين ظالماً وقاسياً وسفّاكاً للدماء وقد جلب للمجتمع الإسلامي الويلات، وأكثر من مضايقاته للناس، وكان يجيب أقل اعتراض بالسيف، وكان مضافاً إلى ذلك محباً للمال بخيلاً وغاية في الحرص، وكان مشهوراً من بين الخلفاء العباسيين بالبخل والحرص وحب المال ممّا حدا بالمؤرخين أن ينقلوا قصصاً عن بخله وحرصه وحبه للمال، غير انّه لا يمكن تبرير تشديده وضغوطه المالية ومضايقاته الاقتصادية المفرطة في ضوء ما يتمتع به من البخل وحب الدنيا فانّه تسبب في أن يصاب اقتصاد المجتمع الإسلامي بالشلل في عهده، وجعل الناس يعيشون ظروفاً قاسية جداً، فهو لم يكتف باكتناز أموال المسلمين في خزينة الخلافة والامتناع عن صرفها في مجال العمران والبناء وتوفير العيش الرغيد للناس، بل راح يسلب حتى الأموال التي في أيديهم بالقوة دون أن يبقي لهم شيئاً بحيث بلغ مجموع الأموال التي أخذها بهذا النحو ما يناهز الثمانمائة مليون درهم، وفقاً لما كتبه المؤرّخون.[١]

نعم كان هذا البرنامج الواسع متّبعاً في أرجاء البلاد، ذلك البرنامج الذي لا يمكن أن يقال انّ سببه هو مجرد بخل المنصور الذاتي وحبه المفرط للمال، بل هناك أدلّة وشواهد تدلّ على أنّ برنامج التجويع وتدمير الاقتصاد كان برنامجاً مدروساً وشاملاً أعدّه المنصور لأهداف خاصة.

---

١. تاريخ اليعقوبي: ٣/ ١٢٥.

وقد كـان هدف المنصور مـن هذه السياسة المشـؤومة هو أن يجعـل الناس محتاجين وجائعين ومعتمدين عليه دائماً، وبالتالي يكون شغلهم الشاغل هو إشباع بطونهم دون أن يكون هناك مجال للتفكير في القضايا الاجتماعية الكبرى.

وقد قـال يومـاً بحضور عـدة من رجال البـلاط وبطريقـة ساخـرة ممّا يبين الـدافع مـن وراء تجويع النـاس بهذا النحـو: صدق الأعـرابي حيث يقـول: «**أجع كلبك، يتبعك**» فانزعج أحد الحاضريـن من ذلك فقال: «**أخشى أن يلـوّح له غيرك برغيف فيتبعه ويدعك**».[1]

ولم يكتـف المنصور بتنفيـذ سياسـة التجويـع السـوداء هذه أبّـان خلافتـه وحكمه فقط، بل راح يوصي ابنه المهدي بتلك السياسة اللا إنسانية، فقد قال في إحدى وصاياه إليه:

إنّي تركـت الناس ثلاثة أصنـاف: فقيراً لا يرجو إلا غناك، وخـائفاً لا يرجو إلاّ أمنك، ومسجوناً لا يرجو الفرج إلاّ منك، فإذا وليت فأذقهم الرفاهية ولا تمدد لهم كل المد.[2]

توضح لنا هذه الحقائق انّ هذه السياسة كانت بدافع تقوية حكم المنصور، وانّ الهدف منها هـو الوقـوف أمام تحرك النـاس واعتراضهم مـن خلال إضعـاف العناصر المناضلة وليس هو الاقتصاد في الأموال الحكومية .

موجة الإبادة والدم

لم تقتصر سياسة المنصور على تجويع الناس والقضاء على مواردهم المعاشية فقط، بـل ساد فضلاً عـن الضغط الاقتصـادي والفقر والتشتت رعـب وإرهاب

---

١. حياة الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام: ١/ ٣٦٩.

٢. تاريخ اليعقوبي: ٣/ ١٣٣.

واضطهاد غريب في المجتمع، وبدت في الظهور موجة من القتل والتعذيب على يد عماله وولاته ويروح كلّ يوم ضحيتها جماعة من الناس.

وقال عم المنصور له يوماً: لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنّك لم تسمع بالعفو! فقال: لأنّ بني مروان لم تبل رممهم وآل أبي طالب لم تغمد سيوفهم، ونحن بين قوم قد رأونا أمس سوقة واليوم خلفاء، فليس تتمهد هيبتنا في صدورهم إلاّ بنسيان العفو واستعمال العقوبة.[1]

وقطعاً انّ هذا الإرهاب كان في كلّ أرجاء العالم الإسلامي الذي يرزح تحت حكم المنصور، لكن المدينة كانت أكثر من غيرها تحت الضغط والمراقبة، لأنّ لأهلها المعرفة عن كثب بتعاليم الإسلام ونظام الحكم الإسلامي منذ البداية، فلم يكونوا على استعداد لتحمّل حكم فاسد ومنحرف كحكم المنصور، وكانوا لا يقبلون أي حكم باسم الإسلام.

هذا مضافاً إلى أنّ المدينة كانت بعد رحيل الرسول مركزاً للوعظ والإرشاد لأئمة الإسلام الكبار والعظماء من سادات أهل بيت الوحي والنبوة الذين كان كلّ واحد منهم يحمل رسالة حفظ الإسلام وصونه وإرشاد المجتمع الإسلامي حتى عصر الإمام السادس، وكان وجودهم يلهم الحركات الإسلامية في المدينة ويدعمها معنوياً.

كان الإمام السادس في عهد حكم المنصور وبعد رحيله ابنه الكريم موسى بن جعفر يشكل مركز الثقل للنضال والتحرك الإسلامي **وكانت المدينة القاعدة الساخنة للحركات والانتفاضات الإسلامية الأصيلة ضد الاستبداد والدكتاتورية التي يتمتع بها الطغاة الظالمون.**

١. الإمام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة: ١ـ٢/ ٤٨٠؛ تاريخ الخلفاء، ص٢٦٧.

المدينة تحت الحظر الاقتصادي

قلّد المنصور رياح بن عثمان أمارة المدينة، وهو رجل قاسي القلب لا يعرف الرحمة، وذلك بعد انتفاضة محمد بن عبد الله بن الحسن المشهور بالنفس الزكية[١] (حفيد الإمام الحسن المجتبىٰ) فلمّا قدم رياح المدينة قام على المنبر فخطب خطبة يقول فيها: «يا أهل المدينة أنا الأفعى بن الأفعى ابن عثمان بن حيان وابن عم مسلم بن عقبة [٢]، المبيد خضراكم، المفني رجالكم، والله لأدعها بلقعاً لا ينبح فيها كلب.

وفي هذه الأثناء وثب عليه قوم معترضين عليه: والله ابن المجلود حدين لتكفّنّ أولنكفّنّك عن أنفسنا.

فكتب إلى المنصور يخبره بسوء طاعة أهل المدينة، فكتب المنصور رسالة شديدة اللهجة إلى أهل المدينة هددهم ضمنها بأنّه إذا ما استمروا بتمردهم فسيقطع عليهم البر والبحر ويحاصرهم اقتصادياً، ويبعث عليهم رجالاً غلاظ الأكباد، بعاد الأرحام.

فدعا رياح الناس للاجتماع في المسجد، وصعد المنبر وقرأ كتاب المنصور، فلمّا بلغ «يذكر غشّكم» ـ و هو في بدايته ـ صاحوا من كل جانب: كذبت يا ابن المجلود حدّين ورموه بالحصى، وبادر المقصورة فأغلقها...[٣].

بعد هذه الأحداث نفذ المنصور تهديده وقطع عن أهل المدينة البر والبحر، وفرض عليهم حصاراً اقتصادياً استمر إلى حكم ابنه المهدي العباسي.[٤]

---

١. سيأتي مفصلاً البحث عن ثورة النفس الزكية.

٢. وقد قلنا في سيرة الإمام الرابع مفصّلاً انّ مسلم بن عقبة كان أحد قادة يزيد بن معاوية الذي استباح المدينة ثلاثة أيام قتلاً ونهباً وسلباً وسبياً ولجرائمه سمّي بمسرف بن عقبة.

٣. تاريخ اليعقوبي:٣/ ١١٤ـ ١١٥.

٤. الكامل في التاريخ:٥/ ٥٥١.

الإمام الصادق والمنصور

كان أبو جعفر المنصور قلقاً جداً من نشاطات وتحركات الإمام الصادق السياسية، وممّا جعله يزداد قلقاً هو محبوبية الإمام الصادق ومنزلته العلمية الكبيرة، لذلك كان يُحضر الإمام إلى العراق بين الحين والآخر بذريعة وأُخرى، ويخطّط لقتله وفي كلّ مرة كان الخطر يزول عن الإمام بنحو أو بآخر.[1]

كان المنصور يراقب تحركات الشيعة في المدينة بدقة، وكان له جواسيس ينظرون من ثبتت شيعيته فيضربون عنقه.[2]

وكان الإمام الصادق يمنع أصحابه من التعاون والتعامل مع الجهاز الحاكم.

وقد سأله أحد أصحابه يوماً:

جعلت فداك ـ أصلحك الله ـ انّه ربما أصاب الرجل منّا الضيق والشدة، فيدعى إلى بناء يبنيه أو نهر يكريه أو المسناة يصلحه، فما تقول في ذلك؟

فقال عليه السلام: «ما أحب ان اعقد لهم عقدة أو وكيت لهم وكاء ـ يعني بني العباس ـ وانّ لي مابين لابتيها ولا مدة بقلم، انّ أعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار حتى يحكم الله بين العباد».[3]

وكان الإمام يمنع الشيعة من الترافع إلى قضاة الجهاز العباسي، وينهاهم ولا يعتبر الأحكام التي يصدرونها واجبة التنفيذ شرعاً.

---

١. بحار الأنوار:٤٧/ ١٦٢ـ ٢١٢ وقد عقد المجلسي فصلاً خاصاً للمواجهات التي كانت بين الإمام والمنصور.

٢. اختيار معرفة الرجال ص ٢٨٢، ط مشهد.

٣. وسائل الشيعة:١٢/ ١٢٩، ط ـ بيروت.

وكان يحذّر الفقهاء والمحدّثين من الانتماء إلى الحكومة ويقول: «الفقهاء أُمناء الرسل، فإذا رأيتم الفقهاء قد ركبوا إلى السلاطين فاتهموهم»[١]

وكتب أبو جعفر المنصور إلى الإمام يوماً: لولا تغشانا كما تغشانا سائر الناس.

فأجابه الإمام :«ما عندنا من الدنيا ما نخافك عليه، ولا عندك من الآخرة ما نرجوك له، ولا أنت في نعمة فنهنّيك عليها، ولا تعدها نقمة فنعزيك بها، فلم نغشاك؟!» فكتب المنصور: تصحبنا. لتنصحنا فأجابه الإمام: «من أراد الدنيا فلا ينصحك، ومن أراد الآخرة فلا يصحبك».[٢]

اختلاق العلماء والوعاظ وصنعهم

كان الأمويون يبذلون جهدهم و بشتى الوسائل لإبعاد الناس عن مدرسة أهل البيت وبناء جدار بينهم و بين أئمة الإسلام الكبار، ولهذا كانوا يرجعون الناس إلى أهل الفتيا والعلماء المنتمين إلى الجهاز الحاكم أو على الأقل إلى الفقهاء الذين لا يشكلون خطراً عليهم .

وتابع العباسيون الذين حملوا في بداية أمرهم شعار الولاء لأهل البيت والدفاع عنهم وجعلوه وسيلة للوصول إلى أهدافهم نفس هذه الطريقة أيضاً بعد أن وطّدوا سلطانهم، فقد كان الخلفاء العباسيون يرون ـ كالأمويين ـ في أئمة أهل البيت الكبار الذين استقطبت وجذبت مدرستهم النابضة بالحياة الناس ومنحتهم النشاط واليقظة مركزاً للخطر، ولهذا السبب حاولوا أن يعزلوهم بعيداً عن الناس.

---

١. الإمام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة:٣ـ٤/ ٢١، نقلاً عن حلية الأولياء.

٢. بحار الأنوار:٤٧/ ١٨٤.

وبات هذا الأمر ملحوظاً في عصر الإمام الصادق أكثر من زمن آخر، فقد سعى الحكم آنذاك أن يجلس أشخاصاً كانوا في فترة من الفترات تلاميذ في مدرسة الإمام على كرسي الفقه والفتيا وفي النقطة المقابلة لمدرسة الإمام، ويقدّمونهم على أنّهم المرجع الذي يرجع إليه، كما فعلوا ذلك لابن أبي ذئب[١] ومالك بن أنس وأجلسوهما على ذلك الكرسي.

ولهذا القصد كان المنصور الدوانيقي يكرم مالك بن أنس كثيراً ويقدّمه على انّه المفتي والفقيه الرسمي، وقد أعلن الناطق باسم العباسيين في المدينة:

ألا لا يفتي الناس إلاّ مالك بن أنس و ابن أبي ذئب.[٢]

التأليف الإجباري

و قد أمر المنصور مالكاً أيضاً بأن يؤلّف كتاباً في الحديث ليكون في متناول المحدّثين، فامتنع مالك عن ذلك، ولكنّ المنصور أصر عليه وقال له يوماً: يجب أن تكتب هذا الكتاب، لأنّه ليس هناك من هو أعلم منك.

ثمّ ألّف مالك كتا ب «الموطأ» تحت ضغط المنصور وإصراره.[٣]

وراح الجهاز الحاكم أثر ذلك يناصر مالكاً وينشر فتاواه ويروّج آراءه مستخدماً جميع وسائله كي يقصي الناس عن مدرسة الإمام الصادق عليه السلام .

---

١. للمزيد من الاطلاع على سيرة أبي الحارث محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب راجع كتاب وفيات الأعيان بتحقيق يوسف علي الطويل والدكتورة مريم قاسم الطويل:٤/ ٣٦، والمعارف، تحقيق ثروة عكاشة، ص ٤٨٥.

٢. وفيات الأعيان:٤/ ١٣٥؛ تنوير الحوالك على موطأ مالك، السيوطي، المقدمة.

٣. حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام :١/ ٩١، نقلاً عن شرح الزرقاني على موطأ مالك ، و كتاب الموطأ اليوم أحد أشهر كتب أهل السنّة ومؤلّفه هو مالك بن أنس صاحب المذهب المالكي أحد المذاهب السنيّة الأربعة.

وقال المنصور لمالك:... **لئن بقيت لأكتبن قولك كما تكتب المصاحف ولأبعثنّ به إلى الآفاق فاحملهم عليه.**[١]

وطبعاً كان هؤلاء الفقهاء ــ شئنا أم أبينا ـ ينتمون إلى السلطة ويحمون مصالحها إزاء دعمها ومناصرتها لهم، وإذا ما أدرك الخليفة انّ فقيها ومفتياً ممّن ينتمون إلى حكمه يعمل خلافاً لمصالحه أو يخالفه باطناً كان يعاقبه أشد عقاب كما جلد مالك بن أنس الذي حظي بكلّ تلك العناية من المنصور بسبعين جلدة أثر سعاية أحدهم لدى ابن عمه، وكانت هذه السعاية تتعلّق بفتوى كان أفتى بها خلافاً لرغبة الخليفة.[٢]

قيام زيد بن علي بن الحسين وانتفاضته

كان زيد بن علي عليه السلام أخاً للإمام الباقر عليه السلام، ومن سادات أهل البيت الفضلاء، وعالماً زاهداً ورعاً شجاعاً ومقداماً، وكان يعيش في عهد الحكم الأموي، وقد تأثر زيد كثيراً من مشاهدة مشاهد الظلم والجور واعمال الحكم الأموي التعسفية وكان يعتقد بضرورة القيام المسلح لتقويض هذا الحكم المنحرف.

إحضار زيد إلى دمشق

كان هشام بن عبد الملك مطّلعاً على طبيعة زيد الثورية، لذلك حاول أن يقضي عليه بالحيلة، وينقذ نفسه من خطره، أعدّ هشام خطة قذرة ليصل من خلالها إلى هدفه الوضيع، واحضر أثرها زيداً من المدينة إلى دمشق، فلمّا دخلها وذهب إلى قصر هشام ليحاوره ومثل بين يديه، لم يرحب به الترحيب الحار ظنّاً منه

١. تذكرة الحفاظ: ١/ ٢١٢.

٢. وفيات الأعيان: ٤/ ١٣٧.

انّ ذلك يقلّل من شأنه في الرأي العام ولم يعين له مكان جلوسه.

ثمّ قال: إنّ يوسف بن عمر الثقفي كتب يذكر ان خالد بن عبد الله القسري[1] ذكر له انّ عندك ستمائة ألف درهم وديعة.

فقال: ما لخالد عندي شيء.

قال: فلابدّ أن تشخص إلى يوسف بن عمر حتى يجمع بينك وبين خالد.

قال: لا توجه بي إلى عبد ثقيف يتلاعب بي.

قال: لابدّ من إشخاصك...

ثمّ قال هشام: لقد بلغني أنّك تؤهّل نفسك للخلافة وأنت ابن أمة!!

قال: ويلك! مكان أُمّي يضعني؟ والله لقد كان إسحاق ابن حرة وإسماعيل ابن أمة، فاختص الله عزّوجلّ ولد إسماعيل فجعل منهم العرب، فمازال ذلك ينمي حتى كان منهم رسول الله، ثمّ نصح هشاماً فقال: اتق الله يا هشام .

فقال: أو مثلك يأمرني بتقوى الله؟!

فقال: نعم انّه ليس أحد دون أن يأمر بها، ولا أحد فوق أن يسمعها.

السفر الإجباري

أخرج هشام زيداً بعد ذلك الحوار الحاد إلى العراق وكتب إلى يوسف بن

---

١. كان خالد بن عبد الله يحكم العراق قبل يوسف بن عمر و قد كان رجلاً قوياً وشجاعاً، ولطالما تولى أعمالاً من قبل هشام في عدة مناطق، سلطته النافذة أثارت الأعداء عليه، وسعوا به إلى هشام ليعزلوه عن منصبه من خلال التأثير على هشام، وأخيراً عزله هشام من عمل العراق وسجنه وولّى يوسف بن عمرو بدله.

ومن أهمّ ما اتهم به خالد هو الميول إلى الشيعة وبني هاشم، ولهذا كانت التهمة التي اختلقوها لزيد هي انّ خالداً كان قد أعطاه أموالاً من بيت المال ، مختصر تاريخ العرب، مير علي ،ص ١٥٤.

عمر: إذا قدم عليك زيد بن علي فاجمع بينه وبين خالد، ولا يقيمن قبلك ساعة واحدة، فإنّي رأيته رجلاً حلو اللسان ،شديد البيان، خليقاً بتمويه الكلام، وأهل العراق أسرع إلى مثله.

فلمّا قدم زيد الكوفة دخل إلى يوسف فقال: لم أشخصتني من عند أمير المؤمنين؟

قال: ذكر خالد بن عبد الله انّ له عندك ستمائة ألف درهم.

قال: فاحضر خالداً؟ فأحضره وعليه حديد ثقيل، فقال له يوسف: هذا زيد بن علي فاذكر مالك عنده!

فقال:والله الذي لا إله إلاّ هو مالي عنده قليل ولا كثير ولا أردتم بإحضاره إلاّ ظلمه.

فأقبل يوسف على زيد وقال له: إنّ أمير المؤمنين أمرني ان أخرجك من الكوفة الساعة .

قال: فاستريح ثلاثاً ثم أخرج.

قال: ما إلى ذلك سبيل.

قال: فيومي هذا .

قال: ولا ساعة واحدة.[1]

وبعد هذا ترك زيد الكوفة برفقة بعض أزلام يوسف، فلمّا ابتعدوا قليلاً عن الكوفة انصرفوا عنه .

---

١. تاريخ اليعقوبي:٣/ ٦٧ـ٦٨.

في الكوفة

أثار قدوم زيد إلى الكوفة ضجة فيها، وشاع ما دار بينه و بين هشام في كلّ مكان و كان أهل الكوفة يراقبون الأوضـاع عن كثب، وما ان علموا انّ زيداً وصل إلى المدينة لحقوا به وأعلنوا ولاءهم له ومناصرتهم، وقالوا له: أين تذهب يرحمك الله ومعك مائة ألف سيفٍ نضرب بها دونك.

وليس عندنا من بني أُمية إلاّ نفر قليل، لو انّ قبيلة واحدة منّا صمدت لهـ لكفتهم بإذن الله.

غير انّ زيـداً الـذي لم ينـس غدر أهـل العـراق وخـذلانهم لأمير المؤمنين والإمام الحسن والإمام الحسين لم يعلّق آمالاً على ولائهـم ووعودهم، ولكن ونتيجة لإلحاحهم الكبير عليـه عدل عن الذهـاب إلى المدينة ورجع إلى الكوفـة، وأقبلت الشيعة تختلـف إليه يبـايعونـه، و قد بلـغ عدد المبـايعين من الكـوفة فقـط خمسة وعشرين ألفاً كلّهم على أهبة الاستعداد للقتال.

الحرب الكبرىٰ

وكتـب يوسـف بن عمـرو إلى هشام عـن اجتماع قوات المعـارضة للحكـم الأموي حـول زيد، وأمر هشـام ـ الذي ارتعـب من ذلك ـ يوسف بـالهجوم على قوات زيد دون تأخير، وأن يطفئ نار الثورة بأسرع وقت ممكن.

والتقىٰ الفريقان وجرى بينهما قتال شديد، فأبلىٰ زيد بلاء حسناً وقاتل قتالاً شديداً داعياً أصحابه إلى الصمود، واستمر القتال إلى الليل، وفي هذه الأثناء جاء سهم فـأصاب جبين زيد، فـأمر بالانسحـاب وقد أصبح عـاجزاً عن القتـال أثر إصابته وقتل بعض أصحابه وتفرق البعض الآخرعنه.

استشهاد زيد

وفي الليل أحضروا طبيباً لينزع السهم من جبينه غير انّه لم يكن من السهل نزعه لعمق دخوله، وفي النهاية نزع الطبيب السهم من جبينه، فاستشهد زيد للجرح الكبير الذي أحدثه فيه ذلك السهم[1]، وقرّر أصحابه أن يدفنوه في ساقية كانت هناك ويجروا عليه الماء حتى لا يجده أزلام هشام، ثمّ غيروا مجراها فدفنوه فيها فأجروا الماء عليها مرة أُخرى.

ولكن وللأسف كان أحد أزلام هشام موجوداً هناك وشاهد عملية الدفن وأخبر يوسف بن عمرو بذلك، فأمر بنبش قبره وإخراج جسده ففصلوا رأسه عن بدنه وصلبوه في كناسة الكوفة لمدة أربع سنوات، ثمّ أنزلوه فأحرقوه وذري رماده في الهواء.

موقف الإمام الصادق عليه السلام إزاء ثورات العلويّين

وهنا يطرح هذا التساؤل: ماذا كان موقف الإمام الصادق إزاء الثورات الشيعية ـ و منها ثورة زيد ـ التي قادها العلويون؟ هل وقف إلى جانبها؟ فإن لم يكن كذلك فما هو السبب؟

وجواباً على ذلك يجب التذكير بأنّ لكلّ ثورة هدفين رئيسيين عادة:

الأوّل: تقويض النظام القائم الذي أثار غضب الثوريين.

الثاني: إقامة نظام مثالي آخر بدل النظام السابق.

ويظهر من دراسة ثورات العلويين منذ نهايات الحكم الأموي حتّى عصر الحكم العباسي انّ تلك الثورات كانت تمثل تمرداً على الحكم القائم في

---

١. استشهد زيد بن علي يوم الجمعة في صفر سنة إحدى وعشرين ومائة (مقاتل الطالبيين، ص١٣٩).

الأغلب، أي انّ الظلم اللا محدود للأمويين والعباسيين كان يثير حفيظة الأحرار من المجتمع فكانت الهزات الاجتماعية تحدث بين الحين والاخر، وكان الناس المتعطشون للعدالة والذين قد استاءوا من فساد وظلم الحكمين الأموي والعباسي وعنصريتهما يبحثون عن منقذ يصغي إلى آلامهم ولذلك ما ان ترفرف راية ثورة ما ـ و هو ما كان يحدث على يد العلويين وساداتهم غالباً ـ كانوا يلتفون حولها. صحيح انّ هذه الثورات كانت تبدأ من قبل الشيعة استلهاماً من مذهبهم وانّ المؤيدين لها هم شيعيون و من الصفوة غير انّ إقامة حكم أفضل بعد سقوط الحكم الأموي والعباسي لا يبدو أمراً مضموناً، وذلك للأسباب التالية:

١. انّ قادة هذه الثورات لم يكونوا يملكون مخططاً متكاملاً في الأغلب، فكان الاضطراب والتقييمات الخاطئة غالبة على أعمالهم.

٢. لم يكن أُولئك القادة من ناحية العدد والعدة العسكرية بحيث يمكن الأمل بانتصارهم.

٣. انّ أصحاب الثورة لم يكونوا شيعيّين مائة بالمائة.

ولذلك لم يكن هناك أي ضمان لئن يحكموا وفقاً للشريعة الإسلامية في حالة نجاحهم. ولعل أفضل شاهد على ذلك ظهور الحكم العباسي بعد سقوط الحكم الأموي، لأنّه ـ و كما لاحظنا في هذا الكتاب ـ انّ الحكم الأموي الفاسد قد سقط على يد الثوار الموالين لخط أهل البيت غير انّ عدم أصالة الثوريين وخلوصهم جعل العباسيين يجنون ثمرة الثورة ويتمادون في غيّهم وظلمهم أكثر من الأمويين. ومن هنا كانت مواقف الأئمّة عليهم السلام غير مؤيدة لتلك الثورات نظراً للأسباب المذكورة آنفاً.

وقد كتب أحد علماء الشيعة وباحثيهم الكبار حول ذلك:

«لقد كان أئمّة أهل البيت يدركون بوضوح تام انّ القوى التي يعتمد عليها العلويـون قوى منهكة لا تستطيع أن تقـود حركة ثوريـة في رقعة جغرافيـة واسعة النطاق إلى نهاية مظفرة ومن ثمّ فإنّ حـركة ثورية تعتمد على هذه القوى محكوم عليها بالفشل الذي يتعداها ليكون نقمة تنزل بالأُمّة كلّها من قبل النظام الأموي.

وكانوا يـدركون في مقابـل ذلك انّ العناصر المـؤهلة للقيام بحركـة ثورية ناجحة هي عناصر غير إسلامية غالباً ولذا لم يجوزوا لأنفهسم التعامل معها وإن كانـوا لـم يقفـوا في وجه حـركتها ذات القيـادة العباسية فقـد كان إسقـاط النظام الأموي مطلباً تـاريخياً وحضارياً لا يمكن الـوقوف في وجهه وكانـوا يدركون انّ الإسلام سيذوب كلّ الجماعات المشبوهة من حيث عقيدتها ويدمجها في الأُمة الإسلامية ديناً وحضارة. لقد ثبت أئمّة أهل البيت على موقفهم هذا في العهد العباسي وأمروا شيعتهـم بتجنب المساهمة في هذا النشاط وكـانوا ينصحون بني عمهم من العلويين يتجنب القيام بالثورات ذات المصير المحكوم عليه بالفشل دون أن يؤثروا فيهم». [1]

كان هذا الكلام حول موقف أهل البيـت تجاه ثورات العلويين، وأمّا عن ثورة زيد فهذا ما سنتحدث عنه تالياً:

هل تمت انتفاضة زيد بموافقة الإمام الصادق عليه السلام؟

قد نقلت روايات متغايرة حول زيد وانّه كان يدّعي الإمامة أو يأخذ بإمامة الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام حيث قد طعن في بعضهـا ومدح في البعض الآخر

١. أنصار الحسين للشيخ محمد مهدي شمس الدين: ٢١.

منها، ويرى أكثر العلماء والباحثين في علم الرجال والحديث قديماً وحديثاً انّ الروايات التي تطعن في زيد ساقطة سنداً ولم يعولوا عليها.

وعلى سبيل المثال اعتبر المرحوم آية الله العظمى السيد الخوئي قدس سره بعد دراسة الروايات الطاعنة في زيد تلك الروايات ضعيفة من ناحية السند لا يمكن التعويل عليها فكتب: حاصل ما قلناه هو انّ زيداً رجل جليل وممدوح، ولا يوجد أي دليل على انحراف عقيدته أو الطعن فيه.[1]

ويكتب العلّامة المجلسي بعد نقل الروايات المتعلّقة بزيد: اعلم أنّ الأخبار اختلفت وتعارضت في أحوال زيد، لكنّ الأخبار الدالّة على جلالة زيد ومدحه وعدم كونه مدّعياً لغير الحقّ أكثر، وقد حكم أكثر الأصحاب بعلو شأنه، فالمناسب حسن الظن به وعدم القدح فيه.[2]

وأمّا حول انتفاضته وقيامه فهناك أدلّة كثيرة تدلّ على أنّ ثورته كانت بإذن من الإمام الصادق وموافقته، ومنها كلام الإمام الرضا عليه السلام في جوابه للمأمون حيث قال: نقل أبي موسى بن جعفر ، أنّه قد سمع أبيه جعفر بن محمّد يقول:... لقد استشارني في خروجه فقلت له يا عمّ ان رضيت أن تكون المقتول المصلوب بالكناسة فشأنك، فلمّا ولّى قال الإمام الصادق: « ويل لمن سمع واعيته فلم يجبه».[3]

وهذه الرواية دليل جيد على أنّ قيام زيد كان بإذن الإمام، ولكن وبسبب انّ انتفاضة زيد كان يجب أن تكون مدروسة ويتوخّى فيها جوانب الحذر، وكان

١. معجم رجال الحديث:٧/ ٣٤٥ـ ٣٥٦.

٢. بحار الأنوار:٤٦، ويراجع شخصيت و قيام زيد بن علي ص ٥١٤ـ ٥٢٧، ويجب الانتباه إلى أنّ مدح علماء الشيعة لزيد لا يعني بالضرورة تأييد وقبول المذهب الذي ظهر باسمه.

٣. عيون أخبار الرضا:١/ ٢٢٥، الباب ٢٥،الحديث ١، شخصيت و قيام زيد بن علي.

يحتمل أن يسمع العدو بتدخل الإمام وموافقته لها، لذلك لم يرغب الإمام ولا زيد ولا أصحابه في إظهار ذلك.

وقد قال الإمام الصادق عليه السلام في حوار مع أحد أصحاب زيد و قد قتل ستة من جيش الأمويين: «أشركني الله في تلك الدماء، والله لقد مضى عمي زيد مثل ما مضىٰ علي وأصحابه».[١]

وكان زيد من المعتقدين بإمامة الإمام الصادق عليه السلام كما روي عنه أنّه قال: جعفر إمامنا في الحلال والحرام.[٢]

ويقول أيضاً: في كلّ زمان رجل منّا أهل البيت يحتج الله به على خلقه، وحجّة زماننا ابن أخي جعفر بن محمد، لا يضل من تبعه، ولا يهتدي من خالفه.[٣]

وكان الإمام الصادق عليه السلام يقول: «رحم الله عمي زيداً أما إنّه لو ظفر لوفى، انّه كان يدعو الناس إلى الرضا من آل محمد، وذاك هو أنا».[٤]

وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام انّه قال عن زيد: «رحمه الله أما إنّه كان مؤمناً، و كان عارفاً، وكان عالماً، وكان صدوقاً، أما إنّه لو ظفر لوفّى ، أما إنّه لو ملك لعرف كيف يضعها».[٥]

ترك نبأ استشهاد زيد وأصحابه حزناً كبيراً على أهل المدينة لا سيّما الإمام الصادق عليه السلام الذي تأثّر أكثر من غيره، وقد خيّم الحزن عليه بعده ممّا جعل الدموع

---

١. قاموس الرجال:٤/ ٥٧٠.
٢. اختيار معرفة الرجال، ص ٣٦١.
٣. الأمالي، ص ٣٢٥، المجلس ٨١، الحديث٦؛ قاموس الرجال:٤/ ٥٧٤.
٤. قاموس الرجال:٤/ ٥٦٦.
٥. اختيار معرفة الرجال ص ٢٨٥، و قد روى المرحوم الكليني حديثاً مماثلاً في الروضة من الكافي في هذا المجال أيضاً.

تتصبب من على خديـه كلّما سمع اسم الكوفة واسم زيـد ويبكي دون إرادة وكان يذكـره بعبارات مـؤثرة وكبيرة مزيجة بـالتقدير والاحترام الكبيريـن له ولأصحـابه المضحين تكريماً لذكرى استشهاده ويقول أحد أصحاب الإمام السادس حمزة بن حمران:

دخلـت على الصادق جعفـر بن محمـد عليهما السلام ، فقـال لي:«يا حمزة مـن أيـن أقبلت؟» .

قلت: من الكوفة، فبكى عليه السلام حتى بلـت دموعه لحيتـه، فقلت له :يـا ابن رسول الله مالك أكثرت البكاء؟!

فقال:« ذكرت عمي زيداً وما صنع به».

فبكيت فقلت: وما الذي ذكرت منه ؟

فقال: «ذكرت مقتلـه وقد أصاب جبينه سهم و...» ثـمّ راح يذكر عليه السلام له كيفية استشهاده....[١]

ثورة محمد النفس الزكية

ومن الأحداث الهامة في الأيام الأخيرة من حياة الإمام الصادق عليه السلام والتي من المهم جـدّاً أن يتضح موقف الإمام تجـاهها هو قيام محمد النفـس الزكية[٢] على حكم أبي جعفر المنصور الدوانيقي ثاني خلفاء بني العباس .

كان محمـد الذي ينتسـب من ناحيـة الأب إلى الإمـام الحسن عليه السلام ومن

١ . أمالي الصدوق ص ٢٣٦،المجلس ٦٢،الحديث ٣؛ بحار الأنوار:٤٦/ ١٧٢ .

٢ . محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي اشتهر أبوه بعبد الله المحض.

ناحية الأُم إلى الإمام الحسين عليه السلام زاهداً عابداً ومن الصالحين حتى لقب بالنفس الزكية، لما توارثه من صفات راقية عن أجداده.[١]

فقد كان من كبار بني هاشم وساداتهم وكان شخصية فريدة وممتازة من ناحية تمتعه بالصفات الحميدة والعالية كالتقوى والعلم والشجاعة والوعي السياسي والكرم و... .[٢]

لم يكن باستطاعة النفس الزكية الذي ولد وتربّىٰ في بيت الوحي والرسالة أن يؤيد الحكومات الطاغية التي استولت على مقدرات الأُمّة باسم الإسلام.

ومن هنا بدأ تمرّده على الحكم الأموي في أيامه الأخيرة وشكّل نواة مركزية لتقويضه وأخذ البيعة من مواليه وأصحابه لذلك.

وكان ممّن بايعه في ذلك الحين أبو جعفر المنصور[٣] الذي تقلد الخلافة فيما بعد وتلطخت يده بدمائه كما سنشير إليه.

ومن الواضح انّ بيعة المنصور له كانت بهدف إسقاط الحكم الأموي ولتحقيق أهداف سياسية، ذلك انّ محمد النفس الزكية كان شخصية سياسية واعية وبارزة لم يكن للمنصور وأمثاله أن يكونوا بمستواه.

بداية الثورة

ونظراً لهذه الخلفية عندما أزال العباسيون الأمويين من على السلطة وتقلّد أبو العباس السفاح الخلافة لم يعترف محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم بشرعية خلافته ولم يهنّئوه وتواريا عن الأنظار. كان النفس الزكية يرى نفسه جديراً

١. مروج الذهب: ٢/ ٢٩٤؛ الأخبار الطوال، ص ٣٨٥.

٢. الفخري، ص ١٦٥.

٣. مقاتل الطالبيين، ص ١٧٣ و ١٩٧.

بالخلافة ويعتبر السفاح غاصباً لها، وكان يعتقد انّ على السفاح والمنصور أن يطيعاه بموجب بيعتهما له وليس العكس.

ولهذا كان أبو العباس قلقاً منهما وكان يسأل أباهما عنهما، وذات مرة وقعت رسالة لمحمد ـ يدعو فيها شخصية كبيرة لمناصرته في ثورته ـ في يد السفاح ممّا زاد في توجسه وقلقه.[١]

ومن حينها بدأت الحياة السرية والعمليات الخفية للأخوين الثائرين وراحا ينظمان حركتهما الثورية ويعبّآن القوات المناهضة للسلطة الحاكمة.

وقد زار في نهايات خلافة أبي العباس أخوه وولي عهده أبو جعفر المنصور المدينة عام ١٣٦ هـ واستقبله كبار المدينة ووجهاؤها وامتنع محمد وأخوه مع بقية بني هاشم عن ذلك.[٢]

وعندما تقلد المنصور الخلافة أخذ في البحث عنهما بشدة وراح يستجوب العلويين الواحد تلو الآخر عنهما وعن أهدافهما.[٣] ولمّا باءت محاولته بالفشل أعدّ جواسيس مدعومين بالمال والمراكب للحصول على أثر لهما.[٤]

وقد جعل في عام ١٣٨ هـ الفضل بن صالح أميراً على الحج وأمره بالعثور على النفس الزكية وأخيه إبراهيم واعتقالهما.

دخل الفضل المدينة واستقبله الناس والحسنيون ما عدا محمد و إبراهيم وقد سأل أباهما عبد الله عن سبب غيابهما، فاعتذر بالنيابة عنهما وقال: إنّهما منشغلان في الصيد و اللعب.[٥]

١. مقاتل الطالبيين:١١٨ـ١٢٠و ١٥٨.
٢. تاريخ الأُمم و الملوك:٩/ ١٨٠؛ الكامل:٥/ ٥١٣.
٣. تاريخ الأُمم والملوك:٩/ ١٨١.
٤. نفس المصدر:٩/ ١٨١.
٥. نفس المصدر:٩/ ١٨١.

وقد حدثت بعد ذلك أحداث هامة جعلت المنصور يعبّئ قواته لمواجهتهما وظل محمد بعيداً عن الضغط مؤقتاً واستغل ذلك لنشر دعوته وتعبئة قواته وإرسال مبعوثيه إلى المناطق المختلفة. [١]

وبعد ان سيطر المنصور على الأمور وهدأت الأوضاع ركز جميع ضغوطه وقواته على الحجاز حتى يمتلك زمام الأمور فيها بعد أن شاع عن انتشار دعوة النفس الزكية وحركته. [٢]

تصاعد الضغوط

سافر المنصور تحت ذريعة الحج إلى الحجاز عام ١٤٠ وقد قرر خلال ذلك أن يقضي على محمد وعلى حركةالعلويين السياسية بشكل تام و مهما كان، ولذلك راح يلتقي بكبار العلويين وسياسيّيهم بعد دخوله المدينة وأخذ يغدق عليهم بالأموال وحاول أن يعرف مكان اختفاء محمد بالمال والتهديد، وتحقيقاً لهذا الغرض أحضر أباه عبد الله وضغط عليه وسأله عن مكان اختفائهما، فأجاب بعدم معرفته عن ذلك، وتبادلا كلمات جارحة فيما بينهما، وعندما أصر المنصور في كلامه، أجاب عبد الله بأنّه لو كان محمد مختبئاً تحت قدمي ما كنت أرفعها لتراه، استشاط المنصور غضباً من ذلك وأمر باعتقاله هو وبعضاً من أهل بيته وسجنوا لمدة ثلاث سنوات. [٣]

---

١. الكامل في التاريخ:٥/ ٥١٧و ٥٢٢.

٢.جهاد الشيعة الدكتورة سميرة مختار الليثي، ص ١١٥.

٣. تاريخ الأمم والملوك:٩/ ١٨٣ـ ١٨٤.

راجع تاريخ اليعقوبي:٣/ ١٠٩ـ ١١٠؛ الفخري١٦٥ ومقاتل الطالبيين ص ١٤٦. هذا وانّ قصة اعتقال عبد الله وتعذيبة مع السادة الحسنيين قصة مثيرة للاشمئزاز والتقزز.

بداية التحرك العسكري ونهايته

مع كلّ ما قام به المنصور من ممارسات قمعية لم ينجح في القضاء على انتفاضة النفس الزكية، وبالرغم من أنّ الأخير كان يعيش خارج المدينة متخفياً فانّ عدد أنصاره أخذ بالتزايد وبدأت المدينة تتحول إلى ساحة للثورة وبعد فترة من النضال والجهاد ووقوع الكثير من الأحداث التي انتهت بانتصار محمد ونجاحه، دخل محمد المدينة عام ١٤٥هجرية وراح يأخذ البيعة لنفسه وسيطر على الأُمور في حين انّ شروط نجاح الثورة لم تتوفر بعد ولم ينه قادته المبعوثين إلى إرجاء البلاد مهامّهم.

وعلى أية حال بدأت الثورة المسلمة باقتحام السجن وتحرير السجناء. بعث المنصور جيشاً بقيادة أخيه عيسى لقمع تلك الثورة وسقطت المدينة بعد قتال مرير وحرب دامية وفشل الثوار وقتل محمد وكثيرمن أصحابه.[1] وثار في تلك السنة أخوه إبراهيم في البصرة ولم ينجح وقتل.[2]

ولفشل ثورةالنفس الزكية أسباب سياسية واجتماعية واقتصادية وعسكرية لا مجال لشرحها هنا.[3]

موقف الإمام الصادق ازاء ثورة محمد النفس الزكية

ما قلناه قبل قليل ـ في هامش كلامنا على ثورة زيد ـ حول موقف

---

١. مقاتل الطالبيين ص ١٨٤ـ ١٨٥؛ تاريخ اليعقوبي:٣/ ١٤٥؛ مروج الذهب:٣/ ٢٩٤.

٢. مقاتل الطالبيين، ص ٢١٠ ومابعدها.

٣. ويراجع للاطلاع أكثر كتاب المقاتل وكتاب جهاد الشيعة، تأليف الدكتورة سميرة الليثي، ص ١٦٦ ومابعدها.

الأئمة عليهم السلام ازاء ثورات العلـويين ينطبق إلـى حد كبيـر على ثورة محمـد النفس الـزكية أيضـاً، لأنّ ثورتـه هذه لـم تخـرج عن الطبيعـة العامـة لمجموع ثـورات العلويين، ومن الطبيعي أن يكون موقف الصادق هـو نفس ذلك الموقف الذي كان يتخـذه الأئمّة ازاء تلـك الثورات. وفيمـا يتعلّق بثـورة النفس الـزكية يجـب إضافة انّ الإمام الصادق عليه السلام لم يوافق على تحركـه ذلك انّ محمداً كان يستغل المهدوية ـ (اي انتظار ظهور الإمام المهدي الموعود من بيت النبوة وسمّي رسول الله ...) لصالح ثـورته على نطاق واسع، وكـان أبوه وأصحابه ينطلقـون من هذه النقطـة فـي نشـر دعـوتهـم، وهكـذا أصبح هـذا الاعتقـاد عقيـدة عـامـة فـي المجتمع.[1]

ولـم يكن هذا الأمر بالشيء الـذي يتغاضى عنه الإمام الصادق عليه السلام، ففي الأيام الأخيـرة من الحكـم الأموي في اجتمـاع حضره مجموعـة من العبـاسيين والعلوييـن ـ كعبـد الله المحض وابنيـه محمد وإبـراهيم وأبـي جعفر المنصـور وصالـح بن علي ومحمـد بن عبد الله حفيـد عثمان ــ في الأبواء انْتخـب محمد النفس الزكية كقائد للثورة وبايعه الحـاضرون، فدعا أبوه عبد الله المحض الذي كان شخصية سياسية بارزة ونافذة ومن أسياد الحسنيين الإمام الصادق للمشاركة فـي هـذا الاجتماع، ولمّـا حضـره أخبـره عبـد الله بمـا آل إليه الاجتمـاع فقـال الصادق عليه السلام: ما معناه: لا تفعلوا فليس اليوم زمـان هذا الأمر فإن رأيت انّ ابنك

١. مقاتل الطالبيين ص ١٤٠ و١٤٢و١٥٧و١٥٨ و ١٦٠ـ ١٦٥؛ الفخري ص ١٦٥ـ ١٦٦، وللحد من شعبية محمد النفس الزكية التي كانت تنشأ من ادّعائه للمهدوية أطلق المنصور اسم محمد على ابنه ولقّبـه بالمهـدي وادّعى انّ المهـدي الموعود هـو ابنه لا النفـس الزكيـة (مقاتـل الطالبيين ص ١٦٢): وتحقيقاً لهذا الهدف وضع أحد المتقرّبين من العباسيين حديثاً يقول: قال رسول الله المهدي من ولد العباس عمي. (تاريخ الخلفاء ص ٢٧٢).

هو المهدي فليس هو، وليس هذا الزمان زمان ظهوره، وإن كنت ترغب على الخروج غضباً لله وأمراً بمعروفه ونهياً عن المنكر فوالله أنت سيدنا ولا ندعك وحيداً في هذا ونبايع ابنك.

غضب عبد الله من هذا الكلام وتصوره ناشئاً عن الحسد. [1]

هذا ومن ناحية أُخرى فانّ الإمام الصادق عليه السلام وفي ضوء علمه ومعرفته النابعة من الإمامة كان يتنبأ بفشل ثورة محمد النفس الزكية فقد قال له في خاتمة ذلك الاجتماع: انّ ابنك لا ينالها ـ يعني الخلافة ـ ولن ينالها إلاّ صاحب القباء الأصفر ـ يعني المنصور ـ. [2]

وكما ينقل أبو الفرج الاصفهاني انّ الإمام الصادق عليه السلام أجاب بعد أن اتّهمه عبد الله بالحسد واضعاً يده على ظهر أبي العباس: «إنّ هذا وإخوته وأبناءه سينالون الخلافة وليس أنت». ثمّ وضع يده عليه السلام على عاتق عبد الله وقال: «والله لن تنال الحكم لا أنت ولا ابناك بل ينالها هذان وسيقتل ابناك». [3]

وفي تلك الفترة أي قبل فشل ثوره محمد النفس الزكية كانت نبوءة الإمام الصادق قد ذاعت في المدينة فكان الناس يرتادون بيته ويسألونه عن ذلك، وممّن راجعه أُمّ الحسن ابنة أُخت الإمام عليه السلام فقد سألته عن خروج محمد فقال: «إنّه سيقتل بجانب البيت الرومي[4] وسيقتل أخوه لأُمّه وأبيه في العراق وحوافر فرسه في الماء». [5]

إنّ الإمام الصادق عليه السلام وإن لم يؤيد خروج محمد ولم يدعمه غير انّه لم

---

١. مقاتل الطالبين، ص ١٤٠ و ١٤١.
٢. الفخري، ص ١٦٥.
٣. مقاتل الطالبين، ص ١٤١ـ ١٤٢، ١٧٢.
٤ اسم لمكان في المدينة.
٥. مقاتل الطالبين ص ١٦٨.

يعارضه في نفس الـوقت بل بعث بابنيه موسى و عبـد الله لمناصرته[١] وكانا إلى جانبه[٢] وقد آوى عليه السلام الحسين بن زيـد الشهيد الذي كان مـن أصحاب محمد بعد فشل ثورته[٣] كما ينقـل أبو الفرج الاصفهـاني، وبـالطبع أثار هـذا غضب المنصور.

غير انّ عـدم دعم الإمـام للنفس الزكيـة لم يكن بمعنـى ميله إلـى الحكم العباسـي أبداً. بل كـان يراه حكماً غيـر شرعي وقـد تعرض عليه السلام مرات عـديدة لاضطهاد المنصـور وعنجهيته، وقد أحضـره من المدينـة للكوفة وحـاول قتله، لكن اللطف الإلهي كان يبطل نوايا المنصـور الشيطانية ويجعلها هباء منثوراً كلّما حاول ذلك.[٤]

وخلال حوادث قيام النفـس الزكية تلقّى الإمام عدة مضـايقات ومشاكل من قبل المنصور، ففي زحفه على المدينة عام ١٤٤ للقضاء على ثورة النفس الزكية عسكر في الزبدة[٥]، وأمر باعتقال الإمام و إحضاره إلى هناك وخاطبه بلهجة وقحة وقاسية.[٦]

وفي عام ١٤٥ هـ ليلة انطـلاق ثورة النفس الزكية اعتقل الإمـام مع مجموعة من سادات العلويين على يد حاكم المدينة آنذاك.[٧]

وقال عليه السلام : لما دفعت إلى أبي جعفر المنصور ـ بعد فشل الثورة ـ انتهرني وكلّمني بكلام غليـظ ثمّ قال لي: يا جعفـر قد علمت بفعل محمـد بن عبد الله

١. نفس المصدر، ص ١٧٠.
٢. المصدر نفسه ص ١٨٦.
٣. المصدر نفسه، ص ٢٥٧.
٤. بحار الأنوار:٤٧/ ١٦٢ـ ٢١٢.
٥. الكامل في التاريخ:٥/ ٥٢٤.
٦. مقاتل الطالبيين، ص ١٧٠ ؛ بحار الأنوار:٤٧/ ١٩٢.
٧. الكامل في التاريخ:٥/ ٥٣٠.

الذي يسمّونه النفس الزكية وما نزل به، وإنّما انتظر الآن أن يتحرك منكم أحد فأُلحق الكبير بالصغير.[١]

وفضلاً عن ذلك صادر عيسى قائد جيش المنصور خلال قمعه لحركة النفس الزكية أملاك ومزرعة الإمام الصادق المسمّاة بعين أبي زياد والقريبة من المدينة.

ولمّا التقى المنصور قال عليه السلام له: «اردد علي عين أبي زياد آكل من سعفها» فقال المنصور: إياي تكلّم بهذا الكلام؟! والله لأزهقن نفسك.[٢]

ولم يكتف المنصور بذلك بل أمر بحرق بيت الإمام في المدينة غير انّ الإمام أنقذ نفسه من بين لهيب النيران برحمة ربّه جلّ وعلا، وفي إشارة إلى نجاة إبراهيم من نار نمرود قال الإمام الصادق عليه السلام: «أنا ابن إبراهيم الخليل».[٣]

---

١. بحار الأنوار: ٤٧/ ٢٠٦؛ نور الأبصار ص ١٤٧.

٢. مقاتل الطالبيين ص ١٨٤.

٣. أُصول الكافي: ١/ ٤٧٣.

الإمام موسى الكاظم عليه السلام

* حارس الجامعة الجعفرية وحاميها

*صحيفة أعمال الخلافة السوداء في عصر الإمام الكاظم

* مأساة فخّ الدامية

* حكومة القلوب

* هارون الرشيد رجل متعّدد الشخصيات

* مبادئ تشكيل الحكومة الإسلامية

نبذة مختصرة
عن حياة الإمام عليه السلام

اسمه موسى لقبه كاظم ، أُمّه امرأة فاضلة تدعى حميدة، وأبوه الصادق الإمام السادس عليه السلام ، ولد عام ١٢٨ من الهجرة في الأبواء ـ قرية على مقربة من المدينة ـ و استشهد في عام ١٨٣ أو ١٨٦ هـ.

الخلفاء المعاصرون للإمام

منذ ان استشهد الإمام الصادق عام ١٤٨ هـ بدأ عهد إمامة الإمام الكاظم، وقد عاصر من الخلفاء:

١ . المنصور الدوانيقي (١٣٦ـ١٥٨ هـ).

٢ . محمد المعروف بالمهدي (١٥٨ـ١٦٩ هـ).

٣ . الهادي(١٦٩ـ١٧٠ هـ).

٤ . هارون الرشيد(١٧٠ـ١٩٣ هـ).

وعندما رحل الإمام الصادق عليه السلام كان المنصور الدوانيقي الخليفةالعباسي المعروف والظالم في قمة قدرته وسيطرته.

والمنصور هـو الذي قتل الكثير من النـاس لتوطيد سلطانـه، ولم يكتف في سبيل ذلك بـإيذاء الشيعة والتضييق عليهـم بل راح يضطهد حتى فقهـاء السنة وشخصياتهم البارزة ممّن كانوا يخالفونه كما جلد أباحنيفة وسجنه لكونه أفتى بتأييد إبراهيم[1] والخروج عليه.[2]

واجه الإمام الكـاظم بعد وفاة أبيـه وهو في العشرين من عمـره هذا الحاكم الظالم الذي كان يعد حاكم البلاد الإسلامية بلا منازع.

وعندمـا اطّلع المنصور مـن خلال عامله على المدينة محمد بن سليمان على رحيل الإمام كتب إليه: إذا كان جعفر بـن محمد قد عيّن أحداً خليفة له، فاحضره واضرب عنقه.

ولم تمض فترة طويلة حتـى جاء كتاب من عاملـه على المدينة إلى بغداد بهذا المضمون:

إنّ جعفر بن محمد قد عيّن في وصيته خمسةأوصياء له، وهم:

١. الخليفة المنصور الدوانيقي.

٢. محمد بن سليمان (عامل المدينة).

٣. عبد الله بن جعفر بن محمد (أخو الإمام الكاظم الأكبر).

٤. موسى بن جعفر عليهما السلام.

٥. حميدة زوجته.

وكان عامل المدينة قد سأل في آخر الـرسالة عن الشخص الذي يجب قتله من بين هؤلاء، فصاح المنصور الذي لم يتوقـع ذلك وغضب بشدة: لا يمكن قتل هؤلاء.

---

١. ابن عبد الله المحض صاحب الانتفاضة ضد العباسيين.

٢. تاريخ الخلفاء: ٢٥٩.

ومن المؤكد كانت وصية الإمام هذه حركة سياسية، لأنّه كان قد عين الإمام التالي من بعده وعرّفه ـ أي الإمام الكاظم ـ لخاصته من الشيعة والعلويين، غير انّه وبسبب علمه بمخططات المنصور المشؤومة والخطيرة أوصى بهذه الوصية حفاظاً على الإمام السابع.

حارس الجامعة الجعفرية وحاميها

إنّ دراسة الأوضاع والظروف تدلّ على أنّ القيام بأي عمل خطير وتخطيط يثير حساسية جهاز المنصور من البداية فليس من الصحيح فعله، ومن هنا واصل الإمام الكاظم سيرة أبيه العلمية وأسّس مدرسة ـ و إن لم تكن بضخامة الجامعة الجعفرية ـ و راح يربّي شخصيات علمية كبيرة.

وكتب السيد ابن طاووس: انّه كان جماعة من خاصة أبي الحسن موسى عليه السلام من أهل بيته وشيعته يحضرون مجلسه ومعهم في أكمامهم ألواح ابنوس لطاف وأميال فإذا نطق عليه السلام بكلمة وأفتى في نازلة أثبت القوم ما سمعوا منه فيها.[1]

وكتب السيد أمير علي: قد توفّي الإمام جعفر الصادق عليه السلام عام ١٤٨ في المدينة غير انّ مدرسته ولحسن الحظ لم تنته بل حافظت على ازدهارها بقيادة خليفته وابنه موسى الكاظم عليه السلام.[2]

ولم يلق موسى بن جعفر بظلّه من الناحية العلمية على جميع العلماء والشخصيات العلمية فقط، بل كان معروفاً لدى الخاصة والعامة بفضائله الأخلاقية وصفاته وخصاله الإنسانية البارزة، لدرجة انّ جميع العلماء الذين كان

١. الأنوار البهية: ١٧٠.
٢. مختصر تاريخ العرب: ٢٠٩.

لهم اطّلاع على حياة الإمام المقرونة بالاعتزاز كانوا يتواضعون أمام منزلته الأخلاقية العظيمة ومقامه الروحي.

وكتب ابن حجر الهيتمي: موسى الكاظم هـو وارث أبيه علماً ومعرفة وكمالاً وفضلاً، سمّي الكاظـم لكثرة تجاوزه وحلمه، وكان معروفاً عنـد أهل العراق بباب قضاء الحوائج عند الله، وكان أعبد أهل زمانه وأعلمهم وأسخاهم.[١]

صحيفة أعمال الخلافة السوداء
في عصر الإمام الكاظم عليه السلام

أ. المهدي العباسي

انتهى عصر خلافة المنصور الأسود الذي كان ظلّه المشؤوم يشكل عبأً على أرجاء العـالم الإسلامي بموتـه، وتنفس الناس الصعـداء بعد ٢٢ عاماً مـن تحمّل الاضطهاد والعناء، وتقلّد بعده الخلافة ابنه محمد المعروف بالمهدي، وقد تلقّى حكم المهدي ترحاباً كبيراً من قبل الناس في البـداية حيث تظاهر لهم بحسن السيرة، ثمّ أمر بإخراج من في السجون من الطـالبيّين وغيرهم من سائر الناس، وبذلك أنهى عمليات القتل والتعذيب والإبادة التي كـان يقوم بها الجهاز الحاكم بحقّ الناس، وأمـر برد جميـع الأموال المنقـولـة والغير منقولـة التـي صادرهـا أبوه المنصـور إلى أصحابها، ووزّع الكثير من الأموال التي كانت في بيت المال بين الناس.[٢]

ووفقاً لما كتبـه المسعودي المؤرّخ الشهير فـإنّ مجمـوع الأموال التـي غصبهـا المنصور من الناس بالقوة قد نـاهز الستمائة مليون درهم وأربعة عشر مليون دينار

١. الصواعق المحرقة: ٢٠٣.

٢. تاريخ اليعقوبي:٣/ ١٣٢.

سوى ما جباه في أيامه من الضرائب والخراج من المزارعين.[١] ولأنّه كان يحتفظ بهذه الأموال باعتبارها أموال المظالم في موضع خاص يكتب اسم صاحب المال على ماله، حرّر المهدي جميعها وردّها إلى أصحابها أو ورثتها.[٢]

ولعل أحد أسباب موقف المهدي هذا هو انّه لمّا تقلّد الخلافة كانت الانتفاضات العلوية والحركات النهضوية المضادة للاستبداد قد قمعت على يد المنصور، وكان الهدوء والاستقرار متفشيّين نسبياً، وعلى أية حال استقطب الرفاه الاقتصادي والوضع الأمني المستقر رضا طبقات المجتمع جميعاً، وأوجب أن يجري دم طازج في عروق الحياة الاجتماعية والاقتصادية للناس.

ومن المؤكد انّه لو كان هذا الوضع يستمر ويدوم لكان يترك آثاراً ونتائج رائعة، غير انّه وللأسف انّ هذه السيرة قد تبدّلت وكشف الخليفة الجديد عن حقيقته وراحت السياسة اللا إسلامية تبدأ من جديد.

مركز الفساد والمجون

كان المهدي في أوّل أمره يحتجب عن الندماء تشبيهاً بالمنصور، ولم يستغرق ذلك سنة واحدة حتى غيّر سيرته وراح يحيي مجالس اللهو والمجون، واستجمع ندماءه وقرّبهم وقد أشير عليه أن يحتجب عنهم وحذّروه من مغبة ذلك فقال: إنّما اللذة مع مشاهدتهم.[٣]

وقد أفرط المهدي في ممارسة ذلك كثيراً لدرجة انّه لم يأخذ بنصائح وزيره الفاضل والحكيم يعقوب بن داود على الرغم من أنّه فوض الأُمور إليه كلّها وكان

١. مروج الذهب:٣/ ٣١٢.

٢. مختصر تاريخ العرب ص٢١٣.

٣. تاريخ الخلفاء: ٢٧٧.

يأخذ برأيه في جميع القضايا التي تخص أمر السلطة وكان يعرض عن سماع كلماته المنطقية التي كان يقولها عن حسن نية، وقد كان يعقوب يعاني الكثير من مشاهدة الانحراف والفساد واللهو ومظاهر التحلل التي كانت متفشية في بلاط الخلافة، وعندما كان يشاهد أصحاب المهدي يشربون عنده النبيذ في قصر الخلافة ينهى المهدي عن ذلك ويعظه ويقول: ألهذا استوزرتني؟ أبعد الصلوات في المسجد تفعل هذا؟

غير انّ أصحاب المهدي الذين اعتادوا على أن يلهوا ويلعبوا ويعبثوا بأموال المسلمين ليلاً ونهاراً كانوا يستهزئون بكلام يعقوب ويشجّعون المهدي على معاقرةالخمرة ويقولون له شعراً:

فدع عنك يعقوب بن داود جانباً وأقبل على صهباء طيبة النشر[1]

وشاع اللهو في عهد المهدي وانتشر المجون وسادت الميوعة والتحلّل في المجتمع الإسلامي، فقد ذاع شعر بشار وحفظ الناس تغزّله بالنساء، وقد ضجّ الأشراف والغيارىٰ من ذلك.[2]

وانشغل المهدي بلهوه وملذّاته عن رعيته، فأهمل شؤونها، فأخذ ذئاب عماله ينهبون الأموال ويسلبون الثروات، وانتشرت الرشوة انتشاراً هائلاً عند جميع الموظفين، وأمر المهدي بجباية أسواق بغداد للمرة الأُولى[3]، وشدّد في أخذ الخراج، وعمد إلى ظلم الناس والإجحاف بحقهم، واشتد الضغط على المواطنين، ونال أهل الخراج والمزارعون من الشدة والعذاب مالا يمكن تصوره.[4]

١. الكامل في التاريخ:٦/ ٧٣؛ الفخري: ١٨٥.
٢. حياة الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام:١/ ٤٣٦.
٣. تاريخ اليعقوبي: ٣/ ١٣٧.
٤. حياة الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام:١/ ٤٤٢.

المبالغة في التضييق على العلويين

كـان سلوك المهـدي يختلـف عن سلـوك أبيه المنصـور مـن عدّة جهـات، ولكنّهما كانـا يتشابهان من جهـة واحدة وهـي التضييق على العلويين والمبالغة في ذلك، وقد ورث المهدي من أبيه العداء الشـديد للعلويّين، وكان لا يألو جهداً في مضايقتهـم، وكانت قمعيتـه تتجاوز قمعية المنصـور أحياناً، وكـان على استعداد دائم لقمع أي حـركة تظهر مـن جانبهـم، لأنّه كان يـرىٰ في أولاد علي خطراً على سلطانه، وحارب التشيّع والقادة العلويين بشكل كبير.

وكتب المؤرّخون انّ القاسم بـن مجاشع التميمي بعث عند احتضاره بوصيته إلى المهدي ليشهد فيهـا، ولما قرأ بعد الإقرار بـوحدانية الله ونبوة نبـي الإسلام صلى الله عليه وآله الفقرات التي يقول فيها انّ علي بن أبي طالب عليه السلام وصي رسول الله ووارث الإمامة بعده، رماها من يده ولم ينظر في باقيها.[1]

تحريم الخمر في القرآن

المثال الآخر لعداء المهدي للشيعة والتشيع هو الحوار الذي دار بينه و بين الإمام موسى الكاظم في المدينة.

وفي سنة من السنين قدم المهدي المدينة وبعد زيارة قبر النبي التقى بالإمام الكاظم وأراد أن يختبر علـم الإمـام ومعرفته، فتناول موضوع حـرمة الخمر في القرآن وسأل:هل هي محرمة في كتاب الله عزّ وجلّ، فانّ الناس إنّما يعرفون النهي عنها ولا يعرفون التحريم لها؟

فقال الإمام: «بل هي محرمة في كتاب الله».

١. الكامل في التاريخ:٦/ ٨٤.

فقال: في أي موضع هي محرمة؟

فقال عليه السلام : «قول الله عزّوجلّ: ﴿قُل إنّما حَرّمَ رَبّيَ الفواحِشَ ما ظَهَر مِنها وَما بَطَنَ وَالإثمَ والبَغْيَ بِغَيرِ الحَقّ﴾[١] ثمّ بعد أن تناول عدة أشياء أُخرى حرمت في هذه الآية قال: وأمّا الإثم فانّها الخمرة بعينها، وقد قال الله تعالى في موضع آخر: ﴿يَسألُونَكَ عَنِ الخَمرِ وَالمَيْسِر قُل فِيهِما إثمٌ كَبيرٌ وَمَنافِعُ لِلنّاس وَإثمُهُما أكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما...﴾.[٢] والإثم الذي ذكر انّه حرام في سورة الأعراف بشكل صريح أُريد منه الخمر والميسر في سورة البقرة، وعليه فالخمر محرم في القرآن بشكل صريح».

انبهر المهدي بهذا الاستدلال فرأى نفسه يقول لعلي بن يقطين وقد كان حاضراً: والله هذه فتوى هاشمية.

فقال علي: الحمد لله الذي لم يخرج هذا العلم منكم أهل البيت.[٣]

فانزعج المهدي من هذا الجواب، وهو يبتلع غضبه بصعوبة، وقال: صدقت يا رافضي.[٤]

ب: الهادي العباسي

كان عام ١٦٩ من الهجرة عاماً يعج بالأزمات والظلام والاضطراب والأحزان، لأنّه قد تقلّد فيه الهادي ابن المهدي منصب الخلافة، وهو ذلك الشاب الخليع الماجن الطائش، وكان حكمه مصدراً لأحداث مريرة دفع المجتمع

١. الأعراف: ٣٣. ٢. البقرة: ٢١٩.
٣. لعلّه يقصد القرابة التي بينهما حيث يكون علم الإمام الكاظم عليه السلام باعثاً على الفخر والاعتزاز للمهدي.
٤. الفروع من الكافي: ٦/ ٤٠٦.

الإسلامـي ثمنها بـاهظاً، وبـالطبع ليـس جلوس الهادي على كـرسي أبيه بـالأمر الجديد ،لأنّه قد صـار الحكم الإسلامي على يد الخلفاء الظالمين نظـاماً وراثياً منذ فترة طويلة، وكان ينتقل من شخص إلى آخـر بين الأُسرة العباسية، وأصبح انتقاله بهذه الطريقة ـ و هو ما كان يقارنه صمت الناس الإجباري والمرير ـ أمراً عادياً.

إنّ هذا الأمـر الجديد جعل مصير المسلمين في يد شـاب غير ناضج فـاقد للمـؤهّلات وخليـع ماجـن كالهادي حيـث قـد تقلّد الخلافـة ولمايبلغ الخامسـة والعشرين.[1] ولم يكن متمتعـاً بالمؤهّـلات الأخلاقيـة لتولّي منصـب الخلافة الهام واستلام قيـادة المجتمع الإسلامـي وقد كان شـاباً يتنـاول المسكر طائشـاً خليعاً، وراح يمارس أعماله تلك حتى بعد تقلّـد الخلافة ودون مرعاة لحرمتها.[2] وكان مع ذلك قاسي القلب، سيء الأخلاق، صعب المرام.[3]

تربّى الهادي في بيئـة البلاط العباسي الملوثـة، ورضع من ثدي هـذا النظام المستبد والظالم الغـاصب، وبهذه التربية التي تربّى بها الهادي لـو لم يصبح خليفة لكان مـن أُولئك الشبـاب المتغطرسين الطـائشين الذيـن لا هدف لهم غير اتّبـاع الملذّات والشهوات.

المجالس الشائنة

فقد كان في عهد خلافة أبيه يدعـو هو وأخوه هارون مجموعة من المغنين إلى مجلسهـم الارستقراطـي الذي كـان يقام بـأموال بيـت المال، ويلهون ويسكـرون ويطربون، وقد أفرط في ذلـك وبالغ لدرجة انّه أثار غضب أبيـه المهدي: فعاقب

---

١. مروج الذهب:٣/ ٣٢٤. ٢. مروج الذهب:٣/ ٣٢٥؛الأغاني:٥/ ١٨٤.
٣. مروج الذهب: ٣/ ٣٢٥؛ تاريخ الخلفاء: ٢٧٩.

ندماءه ومغنّيه الذين كان يحبهم[١]، كما منع يوماً إبراهيم الموصلي، المغني الشهير آنذاك من المشاركة في مجلسه، ولكن الهادي كان يواصل ذلك، فسجن المهدي إبراهيم لهذا السبب.[٢]

وراح الهادي الذي كان يواجه معارضة أبيه أحياناً بسبب سلوكه الشائن في عهده يمارس مجونه ولهوه بعد تقلّد الخلافة ويصرف أموال المسلمين العامة في مجالسه الليلية الملوثة.

ويروي المؤرّخون انّه كان يدعو إبراهيم الموصلي إلى قصر الخلافة ويستمع إلى غنائه ساعات طويلة، وقد بلغت درجة شغفه به ان أهدى له أموالاً طائلة، وقد بلغ المال الذي حصل عليه إبراهيم من الخليفة يوماً مائة وخمسين ألف دينار.

وكان ابن إبراهيم يقول: **لو عاش لنا الهادي لبنينا حيطان دورنا بالذهب والفضة.**[٣]

وقد غنّى إبراهيم الموصلي يوماً له بأغنيات أطربته بشدة، فطلب منه أن يغنّيها مرة أُخرى، وأمر في نهاية المجلس أحد خدمه بأن يقود إبراهيم إلى خزينة بيت المال ليأخذ ما يشاء منها (من أموال المسلمين)، بل لو أراد أن يأخذ كلّ ما فيها فلا يمنعه من ذلك! وقال إبراهيم: دخلت خزانة بيت المال **وأخذت ثلاثين ألف دينار فقط!**[٤]

وكان من الواضح من سيرته هذه انّه غير قادر على تحمّل مسؤولية قيادة المجتمع الإسلامي، ولهذا السبب ساد الاضطراب في البلاد الإسلامية التي كانت مستقرة في البداية والأقطار راضخة للحكم المركزي، وتسبّب سلوكه الشائن

---

١. الكامل في التاريخ:٦/ ١٠٢.
٢. الأغاني:٥/ ١٦٠.
٣. الأغاني:٥/ ١٦٣.
٤. الأغاني: ٥/ ١٨٥.

وسيرته وأعماله القبيحة في ذلك أكثر، وراحت تظهر موجة غضب عارمة في جميع الأرجاء.

ومن المؤكد هناك أسباب عديدة تسببت في حدوث هذه الأوضاع غير انّ السبب الذي أثار غضب الناس أكثر من أي شيء آخر هو التضييق على بني هاشم والعلويين.

فقد ضغط على العلويّين وبني هاشم وضيّق عليهم منذ بداية خلافته، ومنعهم حقوقهم التي كانوا يتقاضونها من بيت المال منذ عهد المهدي، وأحدث الرعب والخوف بينهم من خلال مطاردته المستمرة لهم، وأمر باعتقالهم في جميع الإرجاء وبإحضارهم إلى بغداد.(١)

مأساة فخ الدامية

أثارت هذه المضايقات الأحرار والشجعان من رجال بني هاشم ودفعتهم إلى مواجهة الاضطهاد والقمع المستمر الذي يقوم به الحكم العباسي، وراحت تنمو بذرة حركة مناهضة للحكم العباسي بقيادة واحد من أحفاد الإمام الحسن المجتبى يسمّى الحسين صاحب فخ.(٢)

ولم يكن قد آن أوان تشكيل هذه الحركة، ولم يأت موعد ظهورها الذي هو موسم الحج، غير انّ مضايقات عامل المدينة الشديدة آنذاك تسبّبت في أن تندلع نارها بشكل أسرع، وكان عامل المدينة الذي هو من المعادين لأهل بيت النبوة يعامل ـ ليكون قد خدم جهاز الخلافة بشكل جيد ولعله لإثبات جدارته ـ

١. تاريخ اليعقوبي: ٣/ ١٤٢.

٢. وهو الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وحيث قد قتل بأرض تسمّى فخ على بعد ٦ أميال من مكة في حربه مع جيش العباسيين اشتهر بصاحب فخ أو شهيد فخ.

سادات الهاشميين وشخصياتهم المرموقة معاملة قاسية كلّ يوم بذريعة ما، ومن ذلك إجبارهم على تسجيل حضورهم في قصر الأمارة كلّ يوم، ولم يقتصر على ذلك فقط بل راح يجعل بعضهم يضمن حضور الآخر، ويعاقب ويسجن البعض بسبب عدم حضور الآخر.(١)

وقد عاقب يوماً حسيناً صاحب فخ ويحيى بن عبد الله بسبب عدم حضور أحد سادات بني هاشم بشدة واعتقلهم كرهائن عنده، وأصبح ذلك كشرر أصاب مخزناً للبارود، فتسبب في انفجار غضب الهاشميين وثورتهم، وسرّع في ظهور حركتهم، واندلعت نار الحرب في المدينة.

من هو شهيد فخ؟

وكما أشرنا قاد هذه الانتفاضة الحسين بن علي المعروف بشهيد فخ حفيد الإمام الحسن، وكان من رجال بني هاشم و سادتهم وفضلائهم، وكان شهماً كريماً، وقد اجتمعت فيه جميع الصفات الحميدة من العلم والصلاح والزهد في الدنيا والسخاء والصفات الإنسانية الراقية.(٢)

فقد ترعرع في ظل أبوين صالحين يتمتعان بكلّ الصفات الكريمة والإنسانية العالية وكان يقال لهما الزوج الصالح لعبادتهما. واستشهد أبوه وخاله وجدّه وعمه من ناحية أُمّه وبعض آخر من أقاربه على يد المنصور الدوانيقي، وعاشت أُسرته الكبيرة التي ضحت بعدة رجال في سبيل مقارعة أعداء الإسلام

١. تاريخ الطبري: ١٠/ ٢٥ ؛ مقاتل الطالبيين ص٢٩٤ـ٢٩٥؛ الكامل في التاريخ: ٦/ ٩٠.

٢. وعندما جاءوا برأس الحسين بن علي بعد استشهاده إلى المدينة حزن الإمام السابع عليه السلام كثيراً من مشاهدته فقال ـ والألم والحزن العميق يعلوه ـ: والله كان مسلماً صالحاً صواماً، كثير الصلاة، محارباً للفساد، آمراً بالمعروف، وناهياً عن المنكر، ولم يكن مثله بين أهله (مقاتل الطالبيين، ص ٣٠٢).

وقتالهم في ظل الآلام والأحزان[١] فانطوت نفسه على حزن وأسى عميق، ولم يكن ينسى ذكرى استشهاد أبيه وأقربائه على يد جلادي المنصور، وكانت ذكراهم تبعث في روحه الأبية والمفعمة بمشاعر العداء للعباسيين مرارتها، غير انّ الظروف الغير مناسبة كانت تضطره إلى السكوت الأليم، ولكن دفعته أعمال الظلم التي كان يقوم بها الهادي العباسي لا سيما عامله على المدينة إلى الثورة ضد الحكم العباسي إذ قد ضاق ذرعاً بذلك.

فشل الثورة

ما إن ثار الحسين التحق به الكثير من الهاشميين وأهل المدينة وبايعوه وقاتلوا قوات الهادي، وبعد أن أجبروا قوات الهادي على التراجع قاموا بتجهيز أنفسهم وأخذوا استعداداتهم، وانطلقوا نحو مكة كي يستغلوا اجتماع المسلمين هناك خلال موسم الحج، وجعلوا مكة مركز انطلاقتهم لتوسيع رقعة الثورة.

أُخبر الهادي بثورة المدينة وتحرّك الثوار باتجاه مكة، فأرسل إليهم جيشاً لمقاتلتهم والتقى الجيشان في أرض فخ، ونشبت بينهما حرب طاحنة، فاستشهد فيها الحسين وجماعة أُخرى من الرجال وسادات بني هاشم، وتفرّق بقية جيشه، وأُسر بعض آخر منهم وقتلوا في بغداد بعد نقلهم إليها، ولم يكتف جلاوزة الهادي بقتلهم، بل تركوهم دون أن يدفنوهم، وفصلوا رؤوسهم عن أجسادهم، فأرسلوها لؤماً إلى الهادي في بغداد، وقد تعدّى عددهم المائة كما يقول بعض المؤرخين.[٢]

---

١. مقاتل الطالبين، ص ٢٨٥.

٢. الكامل في التاريخ:٦/ ٩٣؛ تاريخ الطبري:١٠/ ٢٨، وقد ذهب يحيى بن عبد الله مع جماعة إلى الديلم بعد استشهاد الحسين صاحب فخ وهزيمة جيشه ونشط هناك وانضم إليه الناس وكون قوات معتد بها غير انّ هارون ـ و بتدبير الدسائس ـ أحضره إلى بغداد وقتله بشكل فظيع، وسنورد ذلك في فصل حيل هارون.

إن فشل ثـورة شهيد فـخ مأسـاة مريـرة ومؤلمة أوجعـت قلوب شيعـة أهل البيت عليهم السلام بشكل خاص وذكّرتهم بمأساة كربلاء المفجعة.

وقد بلغ أثـر هذه المأساة وفداحتها حداً دفـع بالإمام الجواد عليه السلام أن يقول بعد عدة سنوات: **لم يكن لنا بعد الطف مصرع أعظم من فخ.**[١]

الإمام السابع وشهيد فخ

لم يكن هذا الحدث بلا اتصال وعلاقة بالإمام السابع ونهجه، ولم يكن عليه السلام يعلم بالثورة منـذ ولادتها حتى اكتمالها فحسب، بل كانت تـربطه بالحسين شهيد فخ عـلاقة وطيدة، ومع أنّ الإمـام السابع كان يتنبّـأ بفشل الثورة، غير انّه عنـدما شعـر بأن الحسين مـاضٍ فيما هـو مصمّـم عليه قـال لـه: «إنّـك مقتول، فـأجـد الضراب، فإنّ القوم فسّـاق، يظهرون إيماناً، ويضمرون نفـاقاً وشكاً، فإنّـا لله وإنّا إليه راجعون، وعند الله عزّوجلّ احتسبكم من عصبة».[٢]

ومن ناحية أُخرى انّ الهادي غضب غضباً شـديداً بعد وقعة فخّ، لأنّه كان يعلم أنّ الإمام موسى أكبر شخصية في آل النبي، وهو الملهم والمرشد الروحي لبني هاشم، وانّـه هو المخطط الوحيـد لهذه الثورة والأحداث لكن بشكـل غير علني، ولهذا هدّد الهادي الإمام بالقتل وقال:

والله ما خرج حسين إلّاعن أمره، ولا اتّبع إلّا محبّته، لأنّـه صاحب الوصية في أهل هذا البيت، قتلني الله إن أبقيت عليه.[٣]

---

١. بحار الأنوار:٤٨/ ١٦٥.

٢. بحار الأنوار:٤٨/ ١٦٩؛ أُصول الكافي:١/ ٣٦٦؛ مقاتل الطالبيين، ص ٢٩٨.

٣. بحار الأنوار:٤٨/ ١٥١.

وعلى الرغم من أنّ هذا التهديد قد جوبه ببرودة وهدوء من قبل الإمام غير انّه قد أوجد رعباً شديداً بين أهل البيت وشيعتهم والموالين للإمام، ولكن وقبل أن ينفذ وعيده وهدفه الوضيع انطوت صفحة عمره، وأحدث نبأ وفاته موجة من البهجة والفرج في المدينة.

ج. هارون الرشيد

حاول الحكام الأمويون والعباسيون الذين حكموا المجتمع الإسلامي لعدة قرون أن يكون لهم نفوذ روحي في القلوب، وأن يجلبوا ثقة واحترام الناس لهم، كي يرضوا بحكمهم روحاً وقلباً، ويروا في طاعتهم لهم واجباً دينياً، كلّ ذلك من أجل توطيد سلطانهم، وتثبيت قواعد حكمهم حتى يسيطروا على الناس أكثر، غير انّ الاعتقاد القلبي والروحي ليس بالأمر الذي يحدث أو يعدم بالقوة والإجبار، لذلك راح كلّ منهم يتوسّل بوسائل الخداع لاستغفال عامة الناس وحياكة الدسائس لاكتساب تعاطفهم والنفوذ فيهم روحياً.

وطبعاً كان للعباسيّين الورقة الرابحة ـ ظاهراً ـ دون الأمويين، و تلك هي صلة القرابة التي تربطهم بنبي الإسلام صلى الله عليه وآله، فقد كانوا يستغلون وهم من أحفاد عم النبي العباس بن عبد المطلب صلتهم هذه إعلامياً، ويقدّمون أنفسهم على أنّهم هم ورثة الخلافة.[1]

ومع ذلك كان سيفهم الإعلامي هذا مسلولاً على أئمة الشيعة الكبار،

١. ومع أنّ بني أُمية لم يكونوا يتمتعون بهذه الذريعة لتقلّد الخلافة، ولكنّهم حاولوا وبطرق أُخرى أن يكتسبوا عطف الناس نحوهم فانّ مبادرات معاوية المحتالة في وضع الحديث لصالحه وشراء ذمم الرواة الكذّابين والوضّاعين تمثل محاولات الحكم الأموي الماكرة في ذلك.

ذلك انّ الوراثـة أمر مستبعد من مـوضوع الخلافة وانّ الأمر الهام فيهـا هو جدارة وعظمة القـائد والإمام وطهارته أوّلاً. وثـانياً حتى لو كـان للوراثة دخل فيهـا فإنّ أولاد أمير المؤمنين هـم المفضّلون على غيرهـم، لأنّهم أقرب إلى رسـول الله ﷺ وقد كان أئمّة الشيعة الكبار الذين كانوا يتمتعـون بجدارة ذاتية وقرابة للرسول يحظون بـاهتمام النـاس واحترامهـم دائماً، وعلى الـرغـم مـن محاولات الحكـام الأمـويين والعباسيين في اكتساب عطف الناس والنفوذ الروحـي فيهم، فإنّ الكفّة الراجحة والثقيلة في ميزان التمتع بحب الناس وتقديرهم هي كفة أئمّة الدين الكبار.

إمامة القلوب

وقد تجلّى هذا الأمر من بين الخلفاء العبـاسيين في عصر هارون الرشيد أكثر من غيره، وعلى الرغم ممّـا كان تحت ملكه من الحدود كان يشعر بـأنّ قلوب الناس مع الإمام السابع **موسى بن جعفر بن محمد** عليهم السلام، وكان ذلك يـؤلمه كثيراً، وحاول محاولات يائسة في التقليـل من مكانة الإمـام الروحية بين الناس ونفـوذه فيهم، لم يكن بـالأمر الـذي يسكت عليـه أن يصله خبر دفـع الناس الضرائب الإسـلامية للإمام موسى بـن جعفر بشكل سري ممّا يعني في الواقع هو الـرضا بحكمه رسمياً ورفض الحكم العباسي.

وعلى هذا الأساس قال هارون ذات يوم لـلإمام و قد رآه في جانب الكعبة: هل أنت من بـايعه الناس خفية ورضوا به إمـاماً؟! فقال الإمام: «**أنا إمام القلوب وأنت إمام الجسوم**».[1]

١. الصواعق المحرقة، ص ٢٠٤.

من هو ابن النبي ؟

وكما أشرنا مسبقاً كان هارون يعوّل كثيراً وعلناً على صلة القرابة التي تربطه بالرسول صلى الله عليه وآله، وكان يؤكد على ذلك في كلّ مناسبة، وقد قدم المدينة يوماً وزار قبر نبي الإسلام ولما وصل إليه كان هناك جموع كثيرة من قريش والقبائل الأُخرى، فتوجّه إلى القبر الشريف و قال: السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا ابن عم. ليذكّر الناس بالصلة التي تربطه بنبي الإسلام، وكان يتفاخر بذلك عمداً ليعلم الناس أنّه ابن عمّ النبي.

وفي تلك اللحظة قال الإمام السابع، وقد كان حاضراً هناك، وعرف هدف الرشيد من ذلك، بصوت عال قرب الضريح: «السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبة».

فتغيّر وجه هارون و تبيّن الغيظ فيه، فقال: هذا هو الفخر حقاً.[1]

ولم يكتف هارون بالتأكيد على صلة القرابة التي تربطه بالرسول فحسب، بل أراد أن ينكر انتساب الأئمّة عليهم السلام وبنوتهم له أيضاً، فقد قال للإمام السابع يوماً: لمَ يقولون لكم يا بني رسول الله وأنتم بنو علي، وإنّما ينسب المرء إلى أبيه وفاطمة إنّما هي وعاء والنبي جدكم من قبل أُمّكم؟!

فأجابه الإمام وقرأ له آية يقول الله تعالى ضمنها: ﴿وَمِنْ ذُرِّيتِهِ داودَ وَسُلَيمانَ وَأَيُّوبَ وَ... *وَ زَكريا ويَحيى وعِيسى وإِلياسَ كُلٌّ مِنَ الصّالِحين﴾[2]

ثمّ قال الإمام:« إنّما أُلحق عيسى بذراري الأنبياء من قبل مريم، وأُلحقنا

---

١. الإرشاد، ص ٢٩٨؛ الكامل في التاريخ :٦/ ١٦٤؛ البداية والنهاية: ١٠/ ١٨٣؛ الصواعق المحرقة، ص ٢٠٤.

٢. الأنعام: ٨٥ و ٨٦.

بذراري النبي من قبل أُمّنا فاطمة».[١]

فلم يحر هارون جواباً.

وفي حوار مماثل ومثير وأكثر تفصيلاً للإمام السابع عليه السلام مع هارون حيث قال: لم جوزتم للعامّة والخاصّة أن ينسبوكم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ويقولون لكم: يا بني رسول الله، وأنتم بنو علي وإنّما يُنسب المرء إلى أبيه وفاطمة إنّما هي وعاء، والنبيّ عليه السلام جدّكم من قبل أُمّكم؟

فقلت: «يا أمير المؤمنين لو أنّ النبي صلى الله عليه وآله نشر فخطب إليك كريمتك هل كنت تجيبه؟».

فقال: سبحان الله ولم لا أُجيبه؟ بل أفتخر على العرب والعجم بذلك.

فقلت: «لكنّه عليه السلام لا يخطب إلي ولا أزوّجه».

فقال: ولم؟!

فقلت: «لأنّه ولدني ولم يلدك».

فقال: أحسنت يا موسىٰ.[٢]

لمن هذا القصر؟

دخل الإمام الكاظم عليه السلام ذات مرة أحد قصور هارون الفخمة في بغداد، فراح هارون الذي كان مغروراً بسلطته يتساءل ما هذه الدار؟

١. نور الأبصار، ص ١٤٩؛ الفصول المهمة ص ٢٢٠؛ الصواعق المحرقة، ص ٢٠٣، و قد استدلّ الإمام في هذا الحوار بآية المباهلة أيضاً حيث اعتبر الحسن والحسين (ولاستخدام عبارة أبنائنا) من أبناء النبي.

٢. بحار الأنوار:٤٨/ ١٢٧.

و قد أراد بذلـك أن يستعرض قوته وشوكتـه أمام الإمام عليه السلام ، فأجابه عليه السلام بدون اكتراث بما حوله بصراحة.

فقال عليه السلام : هـذه دار الفاسقين قـال: وقـرأ ﴿سَأَصْـرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّـذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْـرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوا كُلَّ آيَةٍ لا يُـؤْمِنُوا بِهٰا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيـلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبيلاً وإِنْ يَرَوْا سَبيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبيلاً﴾ .[1]

فاستشاط هارون غضباً ... و هو يخفي غضبه بصعوبة.

فدار من هي؟ قال:« هي لشيعتنا فترة ، ولغيرهم فتنة».

قال: فما بال صاحب الدار لا يأخذها؟

قال: أخذت منه عامرة، ولا يأخذها إلاّ معمورة.[2]

هارون رجل متعدّد الشخصيات

لكلّ إنسان ميـزات خاصة تميّزه مـن ناحية طريقـة التفكير والخصوصيات الأخلاقيـة، وانّ صفاته الأخلاقيـة وسلوكه يمثـلان ـ كشكله ومظهره ـ شخصية محددة، غير انّ لبعـض النـاس نـوعـاً مـن التضـاد النفسي وعـدم الانسجـام في شخصيتهم وأُسسهم الفكـرية نتيجة الحرمان التربوي وأسبـاب أُخرى، فتراهـم لا يتمتعون بشخصية واحدة من ناحية الطبيعة والمميزات الشخصية، بل تجد انّ لهم شخصيتين أو شخصيات متعـدّدة، ولذلك تصـدر منهم أعمال متضـادة تبعث على التعجب أحيانـاً، وبالرغم من أنّ قبـول هذا النوع من التضاد قـد يكون أمراً

١. الأعراف: ١٤٦.

٢. بحار الأنوار:٤٨/ ١٣٨؛ تفسير العياشي:٢/ ٣٠.

عسيراً في الوهلة الأُولى، لكنّه ونظراً إلى طبيعة الإنسان يتضح انّ هذا ليس ممكناً فقط، بل انّ كثيراًمن الناس يعانون من ذلك، ونحن اليوم نقرأ في كتب علم النفس انّه من الممكن وبسهولة أن تنتاب الإنسان المشاعر الكاذبة والنزوات والرغبات الغير المستقرة والملتهبة، أي أن يكون حسّاساً وعديم المشاعر في الوقت ذاته، وصادقاً وكاذباً، ومخلصاً ومخادعاً حتى مع نفسه في آن واحد، وهذه الأضداد ليس اجتماعها في الإنسان أمر ممكن فحسب، بل انّها من خصوصيات عالمي الشعور واللاشعور في النفس البشرية.(١)

إنّ لهذا الصنف من الناس مشاعر زائفة ومتضادة، ولهذا السبب لا يتمتعون بسلوك متوازن، فانّهم في الوقت الذي يتشبّثون فيه بالبذخ والارستقراطية تراودهم نزعات زهدية صوفية، وتشغل التعاليم الدينية قسماً من فكرهم بينما يكون القسم الآخر منه مسرحاً لطلب اللذة والخلاعة والمجون ،وإذا مرّوا بالمسجد صدفة يقفون في صفوف العبّاد، وكلّما وقعت عينهم على حانات الخمور لا يتعدّونها دون ارتشاف خمرتها، فمرة يضطهدون وأُخرى يذرفون دموع العطف والإشفاق.

ويحتفظ التاريخ لنا بنماذج لهذا الصنف من الناس ممّن لهم شخصيات متعددة والتي منهم شخصية هارون الرشيد.

ولد هارون في بلاط الخلافة وقد اعتاد منذ الصغر على اللهو والمجون والخلاعة، وكان ميالاً بطبيعته إلى طلب الملذّات والارستقراطية واللهث وراءها ، ومن ناحية أُخرى كانت البيئة الإسلامية ومكانته توجب أن يكون شخصية مسلمة ملتزمة بتعاليم الإسلام، ومن هنا كانت شخصيته خليطاً من الصفات

---

١. آنسوى چهره ها ، الدكتور ناصر الدين صاحب الزماني، ص ٣١.

الطيبة والسيئة والقبيحة والجميلة، فقد كان يتمتع بصفات غريبة متضادة قلّما توجد في الإنسان، وقد اختلط الظلم والعدل، الرحمة والقسوة، الإيمان والكفر، والليونة والغلظة بشكل عجيب في شخصيته.

فمن جهة كان لا يعبأ بالظلم الذي يقوم به ويريق الدماء الطاهرة للناس الأبرياء لا سيما دماء أبناء رسول الله الأحرار بلا أدنى مبالاة، ومن ناحية كان عندما يستمع إلى نصائح وعظات العلماء والزهّاد ويستذكر يوم القيامة يبكي بشدة، فقد كان يصلّي ويلهو ويشرب الخمرة ويطرب أيضاً، وكان يبدو أكثر الناس زهداً وإيماناً عند استماع المواعظ ونصائح العلماء، غير انّه عندما كان يجلس على كرسي الخلافة ويتناول قضايا الحكم والدولة لا يكون أقلّ من نيرون وجنكيز!!

وكتب المؤرّخون: انّ هارون ذهب ذات مرة إلى لقاء **الفضيل بن عياض**، وهو من الرجال المعروفين بالعلم والورع والفضل في ذلك الزمان، فراح الفضيل يعظه ويخوّفه حتى بكى هارون بكاءً شديداً، وقد أُغمي عليه اثر ذلك، فلمّا أفاق طلب من الفضيل أن يعظه ثانياً، فراح يعظه وينصحه، فكان بكاء الرشيد وإغماؤه يتكرر عدّة مرات، ثمّ أعطاه ألف دينار ليصرفها عند الضرورة.

يجسد لنا هارون بسلوكه هذا مثالاً كاملاً للإزدواجية في الشخصية، لأنّه قد يكون معتقداً بأنّه يكفي أن يبكي المرء ويغمى عليه خوفاً من الله ليفعل بعد ذلك ما يحلو له دون مبالاة لأي شيء، و قدكان عنده **ألفا جارية، ثلاثمائة منهنّ مختصات للغناء والرقص والأناشيد.**[1]

ويروى أنّه قد طرب ذات مرة بشدة، فأمر بأن ينثر ثلاثة ملايين درهم على

١. تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان: ٥/ ١٦٢.

رؤوس الحاضرين في مجلسه، ولمّا طرب مرة أُخرى أمر بأن يجعلوا المطرب الذي أطربه حاكماً على مصر!![1]

واشترى جارية بمائة ألف دينار وأُخرى بستة وثلاثين ألفاً غير انّه لم يحتفظ بالثانية إلاّ ليلة واحدة وقد أهداها في اليوم التالي إلى أحد ندمائه، وأمّا سبب هذا الإهداء والسخاء، الله أعلم!![2]

ومن الواضح كان هذا الإسراف الذي يقوم به هارون من بيت المال وأموال المسلمين، لأنّه حينما تقلّد جدّه المنصور الخلافة لم يكن يملك في السماوات التسع حتى نجمة واحدة. كما يقول المثل وعليه كانت تلك الأموال هي حاصل كدح المزارعين الفقراء والطبقات الفقيرة المعدمة ومن عرق جبينهم، وهكذا كانت تصرف فيما يرضى الله تعالى![3]

ولكنّه ومع كلّ هذه الخيانة للمسلمين وأموالهم يذرف دموع التماسيح ويرى نفسه أمرئ صالحاً ورعاً مثل بقية الصالحين.

شخصية هارون الحقيقية

كتب أحمد أمين الكاتب المصري ــ بعد ان ذكر علّتين لتوجه هارون وأهل زمانه إلى اللهو والمجون ــ:

الأُولى هي: الرفاهية العامة في عهده.

والثانية: نفوذ الإيرانيين ــ الذين يعتقد هو انّهم ميّالون إلى اللهو والمجون

١. نفس المصدر: ٥/ ١٧٣.
٢. تاريخ التمدن الإسلامي: ٥/ ١٦١.
٣. وعاظ السلاطين للوردي، ص ٣٩.

منذ القدم ـ في بلاطه ـ قائلاً:

وسبب ثالث يرجع إلى طبيعة الرشيد نفسه وتربيته، فيظهر لي انّه كان شاباً حادّ العاطفة، ولكن ليس من هذا النوع الذي يستسلم كلّ الاستسلام لشهواته، بل هو مع ذلك قوي النفس، جندي بالغريزة وبالتربية، طالما قاد الجيوش وشرّق وغرّب، هذه الحدة في العاطفة وقوة النفس ونضارة الشباب أظهرته بمظاهر مختلفة، يوعظ فيتأثر بالموعظة إلى أن يجهش بالبكاء، ويسمع الغناء فيطرب له كلّ الطرب، يسمع إبراهيم الموصلي يغنّي وبرصوما يزمر وزلزلاً يضرب بالدف، فيدعوه الطرب أن يتكلم بكلمة فيها شيء من عدم التورع الديني، يقول: يا آدم لو رأيت من يحضرني من ولدك اليوم لسرّك.[1]

نمت عنده العاطفة الدينية ونمت بجانبها أيضاً عاطفة الفنون، فهو يصلّي و يكثر من الصلاة، وهو يسمع الغناء فيستجيده، والشعر فيطرب له، تتجه عواطفه إلى جهات مختلفة فيصل فيها إلى نهايتها....

و يرضى عن البرامكة فيعجب بهم كلّ الإعجاب ويقرّبهم كلّ القرب، ثمّ يغضب عليهم ويستفز الحساد عواطفه عليهم فينكل بهم كلّ التنكيل.

ويعجبه الغناء فيقرّب إبراهيم الموصلي تقريبه للعلماء والقضاة ولا يسأل نفسه أي مجوّز شرعي يجعله ينفق من بيت مال المسلمين على المطربين وأمثالهم.

تعجبني جملة لصاحب الأغاني يصف بها الرشيد تمثّل خير تمثيل قوة عاطفته، إذ يقول: «كان الرشيد من أغزر الناس دموعاً في وقت الموعظة، وأشدهم عسفاً في وقت الغضب والغلظة» من أجل ذلك لاعجب أن تراه متديّناً شديد التديّن يصلّي في اليوم مائة ركعة، و ان تراه حيناً غضوباً يسفك الدم لشيء لا

١. وقد نقل أحمد أمين هذه العبارة عن الاصفهاني، الأغاني:٥/ ٢٤١.

يستحق سفك الـدم، وطروباً يملك الطـرب عليه نفسه ومشاعـره، وهذه صفات ليس من السهل أن تتصوّر اجتماعها في شخص واحد.[١]

ويتضح ممّا قلنا وجه هارون الحقيقي وحقيقته، وقد كتم بعض المؤرخين ـ و للأسـف ـ الحقـائق عند الحديـث عن نفسيتـه وسيرته وحكمـه وحكم أمثـاله، وقدّموا النصف المضيء ـ كما يقال ـ مـن شخصيته و حقيقته من حيث يدرون ولا يدرون، وأمّـا النصف الآخر فقـد عرضوه بشكـل مقلوب مع أنّ البحـث العلمي المستقل يلزمه أن يدرس جميع جوانب شخصية الإنسان وسلوكه.

مكر هارون وتظاهره بالتديّن

وكما قلنـا قبل عـدة صفحـات بأنّ الخلفـاء الأمـويين والعبـاسيين كانـوا يشتركون في تحريف الحكم الإسلامي عن خطه الأصيل والتموضع أمام أهل بيت النبوة، ويفترقون عن بعضهم في أنّ الأمويين ـ باستثناء معاوية و بعض آخر منهم ـ لم يكونوا على اتصال بالعلماء ورجال الدين، ولم يتدخلوا في شؤونهم، بل عطفوا توجّههم إلى القضايا السياسية من قبيـل قمع الانتفاضات الداخلية والفتوحات، وتعديـل الأمور المالية، وغير ذلـك بشكل متزايد، وكـانوا كثيراً ما يـدعون العلماء وشأنهم، و من هنا لم يكن حكمهم يتمتع بالصبغة الدينية.

ولكـن عندمـا انهار حكمهـم وجاء العبـاسيـون تغيّر الحال وانقلب، فقـد أضفـى الحكم العبـاسي على نفسه صبغـة دينية وبـدأت المحاولات في استغـلال العوامـل الدينية لصـالح السلطة، وسـاد التظاهـر بالتديّـن، وتوطّدت عـلاقتهم برجال الدين والعلماء الإسلاميين، والسبـب في ذلك هو انّ العباسيين لم يرغبوا في

---

١. ضحى الإسلام، أحمد أمين:١/ ١١٢ ـ ١١٣ .بتصرف يسير.

أن ينظر إليهم كزعماء سياسيين، بل أرادوا مضافاً إلى الزعامة السياسية أن يتمتعوا بطابع ديني أيضاً حتى ينالوا التقدير والاحترام في الرأي العام، وتوجد هناك أمثلة عديدة لتظاهر الخلفاء العباسيين بالتديّن والدين واستلفات عواطف الناس الدينية التي تمثل محاولاتهم المخادعة والمزيفة لاكتساب الطابع الديني .[١]

كتب جرجي زيدان: وانظر إلى الدول العربية التي جمعت بين الخلافة والسلطة كالعباسيين والفاطميين والأمويين في الأندلس مع ما طرأ عليها من أسباب فقد صبرت وطال جهادها، كذلك كان دوام الحكومات الغير عربية كالحكم العثماني الذي كان له طابع ديني أكثر من بقية الحكومات...، و كان هؤلاء و لأجل أن يحظوا بحب الناس يرفعون من شأنهم ويعدّون أنفسهم عباد الله المقربين وحكمهم حكماً منزلاً من قبل الله تعالى.

ويضيف جرجي زيدان حول تأثير إعلام الخلفاء المخادع على عامة الناس ومدى اعتقاد الناس بهذا الكلام وتصديقهم: واعتقدوا انّ خلافتهم تبقى أبد الدهر حتى يأتي السيد المسيح، وغرس في أذهان الناس بتوالي الازمان انّ الخليفة إذا قتل اختل نظام العالم واحتجبت الشمس وامتنع المطر وجف النبات.[٢]

وقد صدق العباسيون هذه الخزعبلات على أنفسهم أيضاً حتى هارون ـ الذي كان رجلاً فطناً وترقّت الثقافة الإسلامية في عهده ـ كانت تعجبه هذه التملّقات...وإذا كان الخلفاء يعجبهم التملّق لهذه الدرجة وهم في عصر رقي الإسلام وعظمته، فمن الواضح انّ الأوهام ستكون في موضع الحقيقة في عصر الفساد والانحطاط ويأتي المتملّقون و يرضى الحكام والملوك بالكلام أكثر من

---

١. ضحى الإسلام، أحمد أمين:٢/ ١٦٢ـ١٦٣

٢. ويقصد جرجي زيدان بذلك أهل السنّة، لأنّ الشيعة يرون ومنذ البداية انّ الخلفاء الثلاثة والأمويين والعباسيين والعثمانيين وغيرهم غاصبين للخلافة ولم يؤمنوا بهم.

العمل، ومن هنا كان نفس هؤلاء المتملّقين يعدّون المتوكل العباسي ظل الله، ويقولون: إنّ ظل الرحمة هذا قد انتشر من السماء ليقي الناس حرقة الحر.

ومدح ابن هاني شاعر البلاط المتملّق المعز الفاطمي:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار![١]

ولعلّه لم يهتم من بين العباسيين أكثر من هارون الرشيد بهذا الجانب، ولم يستغل ذلك التظاهر مثل ما تظاهر هو.

وكان لهارون إصرار غريب على أن يضفي على جميع أعماله وسلوكه صفة دينية، وكان يضع على جميع جرائمه وخلاعته ومجونه غطاء دينياً، ويعتبرها ومن خلال مجموعة من التبريرات مطابقة للمعايير الدينية.

ويقولون: إنّه قد ذهب إلى مكة في سنة من سني خلافته وخلال أدائه لمناسك الحج دعا كثيراً لطبيبه المسيحي جبريل بن بختيشوع، فانزعج بنو هاشم من ذلك، و قال في مقابل اعتراضهم بأنّه رجل ذمّي غير مسلم لا يجوز الدعاء له: هذا صحيح غير انّ سلامتي وصحتي بيده، وصلاح المسلمين منوط بسلامتي، وعليه فإنّ خير المسلمين وصلاحهم منوط بطول عمره وسلامته، ولا عيب في الدعاء له.[٢]

إنّ منطق هارون هذا منطق غريب، فإنّ جميع المصالح العليا للمجتمع الإسلامي منوطة بوجوده هو وحده وفقاً لمنطقه هذا وتجب التضحية بكلّ شيء حفاظاً على نفسه، لأنّه وحسب ما يقتضيه استدلاله لم يكن مجرّد حاكم بل وجوده ضرورة حيوية للمجتمع الإسلامي، وقد يتصوّر انّ تبرير جميع أعمال شخص

---

١. تاريخ التمدن الإسلامي: ٤/ ٢٤٢.

٢. وعاظ السلاطين، الوردي ص ٥٥.

كهارون وأفعاله لأمر عسير في ضوء المنطق الديني، ولكنّه قد سهل الأمر على نفسه في تبرير أعماله بشراء ذمم المرتزقة من الفقهاء والقضاة المتهالكين على حب الدنيا.

مجلس القضاء

ومن مصاديق مكر هارون البارزة وتظاهره بالديّن والتدين هي قضية استشهاد وقتل يحيى بن عبد الله. و قد كان يحيى بن عبد الله وهو من أحفاد الإمام الحسن من سادات بني هاشم وشخصية ممتازة ومن أصحاب الإمام الصادق وخاصته.(١)

وخلال أحداث ثورة الحسين شهيد فخ على الحكم العباسي الظالم شارك يحيى في جيشه، وقد عدّ من قادة جيشه الكبار، وقد ذهب بعد هزيمة الحسين واستشهاده إلى الديلم برفقة جماعته، ونشط هناك وانضم إليه الناس وشكّل قوات معتد بها.

ثمّ أرسل هارون الفضل بن يحيى البرمكي مع جيش إلى الديلم وبعد ان دخل

١. مقاتل الطالبيين ص ٣٠٨ . وينقل المرحوم الكليني في الكافي(١/ ٣٦٦) رسالة من يحيى بن عبد الله إلى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ينتقد خلالها أسلوب الإمام وأسلوب أبيه القدير الإمام الصادق، ويجيب عليه الإمام إجابة حادة.
و قال المرحوم العلامة المامقاني في كتابه (تنقيح المقال:ج٣ مادة يحيى) مشيراً إلى هذه الرسالة: لا يمكن الطعن في سند هذه الرواية غير انّ مضمونها يخالف ما نعرفه عن يحيى (أي قد يكون الخطأ من المحدّثين).
وقد أثبت مؤلف كتاب حياة الإمام موسى بن جعفر انّ هذه الرواية لا يمكن التعويل عليها، لأنّها مرسلة أوّلاً وفي سندها مجاهيل ليس لهم ذكر في الكتب الرجالية ــ حياة الإمام موسى بن جعفر:٢/ ٩٩.

الديلم بدأ ـ و بـأمر من هارون ـ يراسل يحيى ويعـده الوعود الجميلة واقترح عليه بأن يمنحـه الأمان، فقبل يحيـى الذي ـ كـان يرى أنصـاره وأصحابه يتخلّـون عنه نتيجة المؤمرات التي حاكها هارون والفضل ـ ذلك الاقتراح مكرهاً.

وبعـد ان كتب هـارون كتاب الأمـان بخطه إليـه وأشهد عليـه جماعة مـن الشخصيات الكبيرة دخل يحيى بغداد، فعامله هـارون بكل رفق وليونة في البداية، وأعطاه أموالاً جـزيلة، غير انّه كان يخطـط لقتله بشكل سري، فاتهمـه بشق عصا الطاعة وتحريض الناس ضدّ الحكم، ولكن ولأجل منحه الأمان لم يكن قتله بالأمر الهيّن، ولذلك قرر أن يتسلّح بفتوى مـن فتاوى الفقهاء لينقض بها الأمان ويحصل على الإذن الشرعي في ذلك، فاستدعى فقهـاء العصر وعرض عليهم الأمان الذي أعطاه له، فأجمعوا ـ و هـم: محمد بن الحسن الشيباني، والحسن بن زياد اللؤلؤي، وأبو البختري ـ أن لا طريق إلى نقضه سوى أبي البختري.[1]

وبعد إحضـار الفقهاء وتشكيل مجلس قضـاء قرأ[2] محمد بن الحسن الذي كان عالماً مستقلاً نسبياً ولم يبـع نفسه مثل أُستاذه أبي يوسف إلى الرشيد[3] كتاب الأمان وقال: كتاب صحيح وأيمان مغلظة لا سبيل إلى نقضه[4] وأمّا أبو البختري فانّه نظر إلى الأمان و قـال: هذا باطل منتقض قد شقّ يحيى عصـا الطاعة وسفك الدماء فاقتله ودمه في عنقي.

فقال له الرشيد: خرّقه إن كان باطلاً بيدك.

---

١. وهب بن وهـب أبو البختري القرشي المدني، سكن بغـداد، وولي قضاء عسكر المهدي ثـمّ قضاء المدينة، كان متهماً في الحديث كذّاباً يضع الحديث. ميزان الاعتدال:٣/ ٢٧٨.

٢. وكان يحيـى بن عبـد الله قد عـرض الأمان على مـالك بـن أنس وآخـرين مـن الفقهاء وقـد أيّدوا صحته.

٣. ضحى الإسلام:٢/ ٢٠٣.

٤. ضحى الإسلام:٢/ ٢٠٤.

فأخذه وبصق فيه ومزّقه قطعة قطعة، فوهب له الرشيد عوض فعله ألف ألف وستمائة وولّاه القضاء، وكان هارون قد سرّ بهذه الفتيا كثيراً، وقد أجمع على إعدامه استناداً إلى هذه الفتيا.(١)

وقد حظر على محمد بن الحسن الفتيا(٢) عقب رأيه الذي أبداه، وحكم على يحيى بالقتل استناداً إلى قرار مجلس القضاء.(٣)

فتيا مصلحية!

وكما قلنا كان القاضي أبو يوسف من القضاة المأجورين الذي تولّى القضاء من قبل هارون.(٤) وكان ملازماً لهارون دائماً، وكان يضفي وبما يتمتع به من قوة الاستدلال وطاقة عجيبة في التبرير على أعمال هارون اللا شرعية صفة الشرعية من خلال مجموعة من التبريرات والتوجيهات ويظهرها بشكل يتناسب مع المعايير

١. حياة الإمام موسى بن جعفر:٢/ ١٠٠؛ وعاظ السلاطين:٥٢.

٢. اضافة إلى ذلك فقد عزله عن القضاء(ضمن الإسلام:٢/ ٢٠٤).

٣. اختلف المؤرخون في كيفية استشهاد يحيى(حياة الإمام موسى بن جعفر:٢/ ١٠٠) وكتب اليعقوبي: انّه مات جوعاً، وخبرني رجل من موالي بني هاشم قال: كنت محبوساً في الدار التي فيها يحيى بن عبد الله فكنت إلى جانب البيت الذي هو فيه، فربما كلّمني من خلف حائط قصير، فقال لي يوماً: إنّي قد منعت الطعام والشراب منذ تسعة أيام، فلمّا كان اليوم العاشر دخل الخادم الموكل به ففتش البيت ثمّ نزع عنه ثيابه، ثمّ حل سراويله فإذا بأنبوبة قصب شدّها في بطن فخذه فيها سمن بقر كان يلحس منه الشيء بعد الشيء يقيم رمقه، فلما أخذها لم يزل يفحص برجله حتى مات. تاريخ اليعقوبي:٣/ ١٤٥.

٤. يقولون: إنّ لقب قاضي القضاة كان يطلق في ذلك العصر على من كان يتولى ـ بلغة اليوم ـ وزارة العدل ورئاسة الديوان الأعلى للدولة والمدّعي العام ومناصب القضاء في الجيش والمحاكم العسكرية في آن واحد، ونظراً إلى أهمية هذه المناصب تتضح أهمية القاضي أبي يوسف في جهاز هارون الحاكم جيداً، ومن الواضح انّ هذه المناصب والاختيارات لا تمنح مجاناً.

الدينية، وسنشير هنا إلى نموذجين من ذلك:

١. لمّا أفضت الخلافة إلى الرشيد وقعت في نفسه جارية من جواري المهدي، فراودها عن نفسها، فقالت: لا أصلح لك انّ أباك قد طاف بي، فشغف هارون بها ولم يكن ليدعها، فأرسل إلى أبي يوسف فسأله:أعندك في هذا شيء؟ فقال: يا أمير المؤمنين أو كلّما ادّعت أمة شيئاً ينبغي أن تصدق!! لا تصدّقها فإنّها ليست بمأمونة.[1] مع أنّ الشريعة الإسلامية تقبل في هذه الحالات إقرار المرأة على نفسها بذلك ويكون هو الأساس الذي يرتّب الأثر عليه .

خداع الضمير

٢. دعا الرشيد يوماً طبّاخه فقال: أعندك في الطعام لحم جزور؟ وطلب منه إعداد ذلك.

وبعد تناول الطعام قال جعفر البرمكي: إنّ هذا الطعام من لحم الجزور يقوّم عليك بأربعمائة ألف درهم، فتعجب هارون من ذلك!!

فقال جعفر إنّك طلبت من طباخك لحم جزور قبل هذا اليوم بمدة طويلة، فلم يوجد عنده، ومنذ ذلك الحين ينحر كلّ يوم جزوراً لأجل مطبخ أمير المؤمنين، فصرف في لحم الجزور من ذلك اليوم إلى هذا اليوم أربعمائة ألف درهم، ولم يطلب الخليفة لحم جزور إلاّ في هذااليوم، فتكون كلّ لقمة بأربعمائة ألف.

هارون الذي كان يعبث ببيت المال ويصرف أموال المسلمين في مجالس لهوه و مجونه ولم يأل جهداً في هدر أموال المسلمين المعدمين، ولا يأسف على ذلك أراد هذه المرة أن يتظاهر بأنّه حريص وذو ضمير حي ومتعاطف مع شعبه، فأظهر

١. تاريخ الخلفاء، ص ٢٩١.

الحزن من ذلـك وأمر ـ و لتـدارك ما فاته ــ بتوزيع عـدة ملايين من الـدراهم بين الفقراء تصـدّقاً عليهـم مع أنّ هـذا المال ليس مـن مالـه الخاص، بل مـن أموال المسلمين، ذلك المال الـذي كان عليه أن يـوزعه على المسلمين بشكـل عادل ولا يسوغ عنونة عمله هذا بعنوان التصدّق أو هبات الخليفة.

وعلى أية حال وصـل نبأ ذلك إلى أبي يوسـف ـ الذي كانـت فلسفة وجوده تتبلور في جهاز هارون في هذه الموارد ـ فأعدّ خطة رائعة لتبرير عمل الخليفة هذا، وحضر لديه وسأل عن سبب حزنه وبكائه، فذكر هارون أمره.

فقال أبو يوسـف: هل كان ما تذبحونه من الجزور يفسـد أو يأكله الناس؟ فأجاب جعفر ـ و يبدو انّه عرف ما يرمي إليه أبو يوسف ـ : بل يأكله الناس.

فقال أبـو يوسـف مسروراً: أبشر يا أمير المؤمنين بثـواب الله فيما صرفته مـن المال الذي أكله المسلمون في الأيام الماضية، وبما يسرّه الله عليك من الصدقة.[١]

نعم انّ لحم الجزور التي تنحر كل يوم لمائدة الخليفة كانت تقدم أحياناً ـ و قبل فسـادها و تقـديمها إلى كـلاب بغداد ــ إلى بعض الجيـاع وتكون صـدقة في منطق أبي يـوسف، ويكـون ما قام بـه هارون مـن الأعمال الخيرية لا إسرافـاً وعبثاً بأموال المسلمين وتفريغاً لخزانة بيت المال تحت عنوان الصدقة.

وممّا تقدّم مـن الحقائق يتضح جيّداً مدى صعـوبة عمل الإمام مـوسى بن جعفر عليه السلام ، لأنّه كـان يواجه خليفـة مخادعاً مثـل هارون الذي يتستر بمجمـوعة كبيرة من المظاهر المخادعة والحيل والرياء ويقدم نفسه بصفته خليفة عادلاً ورعاً.

ولكي يمزّق الإمام السـابع هذا الستار المزركش بالحيـل والمظاهر الخادعة ويكشف ماهيـةالخليفة الخبيثة كان يجب عليه أن يبذل قصـارى جهده في إجلاء

---

١. البداية و النهاية: ١٠/ ٢١٦.

حقيقته، وفي الـواقع لولا شخصية الإمـام الممتازة والعظمةالتي يتمتـع بها لما كان يمكن التسليم بنجاح مثل هذا النضال.

علي بن يقطين
صاحب الإمام في بلاط هارون

كان علي بن يقطين أحد تـلامذة الإمام السابـع البارزين والـرائعين. وكان شخصية نزيهة وذا مكانة قديرة وشأن كبير لدى الإمام، وهو يتمتع بمكانة عظيمة وقيّمة عند الشيعة أيضاً.[1]

فقد ولد عام ١٢٤هـ في الكوفة نهايات الحكم الأموي، وكان أبوه يقطين من أنصار العباسيين الكبـار، لذلك كان مطـارداً من قبل مروان الحمار الخليفة الأموي لاعتقاله فيختفي عنه. ورحلـت زوجة يقطين إلى المدينة برفقة ابنيهما علي و عبيد في غيابه، ورجع يقطين بعد انهيار الحكـم الأموي وظهور العباسيين إلى الكوفة وانضـم إلى أبي العباس السفاح، والتحقت به زوجته مع ابنيهما[2]، وعلى أيّة حال ترعرع علي بن يقطين في الكوفة وأصبح من أصحاب الإمام السابع.

مكانة علي بن يقطين العلمية

وبشهـادة علماءعلم الـرجـال والمؤرّخين كان علي مـن أصحـاب وتلامـذة الإمام السابع البارزين وأفاد منه كثيراً، وروى عنه الكثير من الروايات، غير انّه لم

---

١. الفهرست، الشيخ الطوسي، ص ٢٣٤.

٢. الفهرست ٢٣٤، فهرست أسماء مصنّفي الشيعة: ١٩٤.

ينقل عن الإمام الصادق عليه السلام سوى رواية واحدة.[١]

وقد كان ذائع الصيت وذا شخصية اجتماعية، مرموقة مضافاً إلى أنّه كان يعدّ من العلماء ورجال العلم في عصره، وله مؤلفات هي:

١. ما سئل عنه الصادق عليه السلام من الملاحم.[٢]

٢. مناظرة الشاك بحضرته.[٣]

٣. مسائل تعلّمها من الإمام الكاظم عليه السلام.[٤]

قدّم علي بن يقطين وبسبب ما يتمتع به من موقع اجتماعي وسياسي خدمات قيّمة للشيعة، وكان ـ كما سنبحثه آتياً ـ ملاذاً منيعاً للشيعة.

وزارة علي بن يقطين مظلة وقائية للشيعة

كانت الانتفاضات المسلحة المتوالية التي يقوم بها العلويون والهاشميون أبّان عهد المنصور و هارون تمنى بالفشل دائماً، وثبت فعلاً بأنّ أي تحرك حاد ومسلح في تلك الظروف فإنّ مصيره الفشل، فينبغي بدء الجهاد والنضال على صعيد آخر؛ ولذلك غض الإمام السابع الطرف عن القيام بتحركات شديدة وحادة، وكرّس وقته لتربية الشخصيات، وتنوير الأفكار، وكشف حقيقة الحكم العباسي الخبيث، ونشر الثقافة الشيعية على نطاق أوسع في المجتمع.

وتنفيذاً لهذا المنهاج لم يكن الإمام يخالف في أن يتقلّد رجال الشيعة

---

١. فهرست أسماء مصنفي الشيعة: ١٩٥.

٢. هي نبوءات الإمام الصادق عليه السلام حول الأحداث والفتن المستقبلية جوابا على أسئلة طرحت عليه في ذلك.

٣. مناظرة مع أحد المشكّكين بحضور الإمام.

٤. الفهرست، الطوسي، ص ٢٣٤.

الصالحون والمؤهّلون المناصب الهامة والحسّاسة على الرغم من حظره العام من التعاون مع تلك السلطة الجائرة، لأنّ ذلك يجعلهم ينفذون في الجهاز الحاكم من ناحية، ومن ناحية أُخرى يوجب ذلك انضواء الناس والشيعة خاصة تحت مظلتهم الوقائية.

وكان نفوذ علي بن يقطين في جهاز هارون الحاكم جزءاً من هذا المخطط أيضاً، كان علي بن يقطين من الشيعة الواعين الثابتة أقدامهم، ورؤيته رؤية شيعية حقّة صادقة، وعلى العكس من أبيه الذي كان من أنصار العباسيين والذين لا يعتقدون بالإمامة، أي قيادة الأمة من وجهة نظر الشيعة[1] لدرجة انّ موضوع الانتظار ـ أي الأمل بظهور دولة الحقّ والعدل الذي يستلزم نفي مشروعية الحكومة الجائرة الموجودة ـ شكّل محور تفكيره.

واتّضح ذلك من الحوارات التي دارت يوماً بينه و بين أبيه بشكل جيد.

فقد قال يقطين لابنه يوماً: كيف تحقّق ما تنبّأ به أئمّتكم حولنا ــ بني العباس ـ و لكن لم يتحقّق ما قيل و تنبّأ به عنكم ـ الشيعة وظهور الدولة الموعودة ـ ؟!

فأجاب علي: ما قيل عنكم و عنّا من موضع واحد، ولكن سلطانكم في هذا الزمان، فقد أُخبر عنكم بوضوح، وقد تحقّق ذلك، ولأنّ دولتنا لم يحن موعدها بعد، لذلك نأمل ونتمنى أن تظهر، ولو كان أئمتنا يقولون إنّ دولة أهل البيت ستظهر بعد مائتين أو ثلاثمائة عام لربما ــ و بسبب طول المدة ـ ضاقت القلوب، وقلّ إيمان الناس بها، ولكن ـ و لأجل أن يبقى أمل الناس ـ قال أئمتنا ـ و دون

---

١. واعتبر ابن النديم في فهرسته يقطين أبا علي شيعياً وقد تابعه في ذلك بعض علماء الشيعة قديماً وحديثاً بدون ذكر الدليل والمصدر غير انّ بعض الباحثين المعاصرين أثبت انّه لم يكن شيعياً ـ قاموس الرجال: ٧/ ٩٠.

توقيت لها ـ ستظهر عاجلاً ليمنحوا النـاس الأمل، و يقرّبوا موعد ظهور الإمام.[١]
ونظراً إلى هـذه الخلفية يتّضـح مدى أهميـة نفوذ علي بـن يقطين في جهاز هـارون الحاكم بشكل جيد.

موافقة الإمام المشروطة

قبل علي بن يقطين وزراة هارون بعـد موافقة الإمام عليه السلام[٢] و قد طلب فيما بعد الاستقالة عدّة مرات غير انّ الإمام كان يردعه عن ذلك.[٣]

ودافع الإمـام من تـرغيب علي في تولّـي الـوزارة وتشجيعه هـو الحفاظ على أرواح الشيعة وأموالهم وحقوقهم ودعم حركتهم السرية.

وقال الإمام الكاظم عليه السلام: «أضمن لي خصلة أضمن لك ثلاثاً».

فقال علي: وما هنّ؟

فقال الإمام: الثلاث اللواتي أضمنهنّ لك:

الف: أن لا يصيبك حر الحديد أبداً بقتل .

ب: ولا فاقة.

ج: ولا سجن حبس.

«وأمّا ما تضمنه هو أن لا يأتيك ولي أبداً إلاّ أكرمته». فقبل علي بن يقطين، وضمن الإمام الثلاث له.[٤]

---

١. الغيبة النعماني: ٢٩٥. وقد اعتمـد علي بن يقطين في هذه الرؤيـة على الإمام السابع، لأنّـه كان قد سأل نفس هذا السؤال من الإمام وأجابه بنفس هذا الجواب. الغيبة ٢٩٦ـ الهامش ـ نقلاً عن علل الشرائع.

٢. اختيار معرفة الرجال: ٤٣٣.

٣. بحار الأنوار: ٤٨/ ١٥٨.

٤. نفس المصدر ١٣٦؛ اختيار معرفة الرجال: ٤٣٣.

وقد قال الإمام خلال تلك الحوارات: «فإنّ لنا بك أُنساً ولإخوانك بك عزّاً، وعسى أن يجبر الله بك كسراً، ويكسر بك نائرة المخالفين عن أوليائه».

وعلى كلّ وفّى علي بن يقطين بعهده، وكان طوال مدة تصدّيه لهذا المنصب حصناً منيعاً وملاذاً آمناً للشيعة، ولعب دوراً كبيراً في تلك الظروف العسيرة لتوفير الظروف المناسبة واللازمة للحفاظ على حياة الشيعة واستقلالهم.

مهمة سرية خطيرة

وكان علي بن يقطين يرسل خمس أمواله بشكل سري إلى الإمام السابع، ويدعمه مالياً في الظروف الحرجة والخطيرة أحياناً.

ويروي لنا اثنان من أصحابه انّ علي بن يقطين بعث إلينا فقال: اشتريا راحلتين وتجنّبا الطريق ـ ودفع إلينا مالاً وكتباً ـ حتى توصلا ما معكما من المال والكتب إلى أبي الحسن موسى عليه السلام ولا يعلم بكما أحد!

قالا :فأتينا الكوفة فاشترينا راحلتين، وتزوّدنا زاداً، وخرجنا نتجنّب الطريق حتى إذا صرنا ببطن الرمة شددنا راحلتنا ووضعنا لها العلف وقعدنا نأكل، فبينا نحن كذلك إذا راكب قد أقبل ومعه شاكري، فلمّا قرب منّا فإذا هو أبو الحسن موسى عليه السلام ، فقمنا إليه وسلمنا عليه، ودفعنا إليه الكتب وما كان معنا، فأخرج من كمّه كتباً فناولنا إياها، فقال: «هذه جوابات كتبكم».

قلنا: إنّ زادنا قد فنى، فلو أذنت لنا فدخلنا المدينة فزرنا رسول الله صلى الله عليه وآله و تزوّدنا بزاد؟

فقال: «هاتا ما معكما من الزاد». فأخرجنا الزاد إليه، فقلّبه بيده فقال:«هذا يبلغكما إلى الكوفة، وأمّا رسول الله فقد رأيتماه». وكان الإمام يرى أن

لا نـزور المدينـة.[1]

تقوية بنية الشيعة الاقتصادية

لا شكّ انّ كـلّ حركـة ومجموعة لها هـدف مشترك تحتاج لتنظيـم قواتها إلى مصادر مـالية تحقيقـاً لتلك الأهـداف حيث تصـاب جميع نشـاطاتها وفعـالياتها بالشلل عند انقطاع الدعم المالي عنها.

فكـانـــت الشيعـة ووفقــاً لهذا المبـدأ العـــام تحتـاج دائماً إلى دعـــم مـالي لاستمراريتها وتحقيق أهدافها المقدسة غير انّ رمـوزها المناضلة كانت وفي مختلف مراحل التاريخ تعاني من الضغط الاقتصادي، وكثيراً ما كانت الحكومات ولأجل القضاء عليهم تمارس ذلك الضغط ومن خلال طرق عديدة.

وفي هذا المجال توجـد مضافاً إلى سلب فدك من فاطمة الزهراء عليها السلام الذي كان بـدافع سياسي ولأجـل زعزعة موقـف أمير المؤمنين وبني هاشـم الاقتصادي نماذج كثيرة في تاريخ الإسلام، والتي منها سيـاسة معاوية ازاء الشيعة لا سيما بني هاشم، ومن الأساليب التي تمسّك بها معاوية لأخذ البيعة من الحسين بن علي عليهما السلام لولاية عهـد ابنه هو امتناعه من دفـع العطاء إلى بني هاشم مـن بيت المال خلال سفره إلى المدينة حتى يضغط عليه من خلال ذلك ويجبره على البيعة.[2]

والنموذج الآخـر هو الحظـر الاقتصادي الـذي فرضـه أبو جعفـر المنصور الخليفة العباسي الثاني، فقد طبّق سياسة التجويع وإفقار الرعية على نطاق واسع، وكان دافعه مـن وراء ذلك هو أن يجعلَ الناس جيـاعاً وفي فاقة وحـاجة إليه، وأن

---

١. اختيار معرفة الرجال:٤٣٦ـ٤٣٧.

٢. الكامل في التاريخ :٣/ ٥٥١؛ الإمامة والسياسة:١/ ١٩١.

يكـون شغلهم الشـاغل هـو مـلء بطونهم حتـى لا يبقى لـديهم مجال للتفكير في القضايا الاجتماعية الكبرىٰ.

وقد بيّن ذات يـوم وبحضور جمع مـن خاصته مـن رجال البـلاط و بلهجة مشينـة دأفعه مـن تجويـع الناس وقـال: **صـدق الأعرابي حيـث يقـول أجع كلبـك يتبعك.**[١]

وكان نصيـب الشيعة العلـويين من سياسـة الضيق والحظـر الاقتصادي أكثـر مـن غيرهـم، لأنّهم كانـوا دائماً على رأس المخـالفين والمنـاضلين للخلفـاء الظالمين.

وعلى كلّ لم تكن خلافة هارون مستثناة مـن هذه الخطة العامة أيضاً، لأنّه وبعد ان استولى على بيت المال وصرفها على ملذّاته ولهوه ورغبـاته هو ومن حوله، راح يمنع الشيعة من حقوقهم المشروعة ليضعفهم من خلال ذلك .

وكسب علي بن يقطين صاحب الإمام المخلص الوفي ثقة هارون على الرغم من سعـاية أعـداء الشيعة به لـديه وتسلّم وزارة العـالم الإسلامـي الكبير ويعرف خطورة هذا الأمر وأهميته فلم يأل جهداً في تـوظيف جميع الامكانيات لأجل دعم الشيعة وحمايتهم خـاصة دعمهم مالياً وإيصـال خمس ماله ـ الـذي كان يشكل مبلغاً ضخماً و يبلـغ المائة والثلاثمائة ألـف درهم أحياناًـ[٢] إلى الإمام الكاظم، ونحن نعلم انّ الخمس دعامة مالية للحكومة الإسلامية.وقال ابن علي بن يقطين: كان أبو الحسـن ـ الكاظم ـ إذا أراد شيئـاً من الحوائج لنفسه أو ممّا يعنـي به من أموره كتب إلي أبي (يعني علياً) اشتر لي كذا و كذا واتخذ لي كذا و كذا وليتول ذلك

١. وقد أشرنا إلى ذلك في سيرة الإمام الصادق.

٢. اختيار معرفة الرجال، ص ٤٣٤.

هشام بن الحكم ولم يذكر هشاماً إلاّ فيما يعنى به من أُموره.[١]

ولما قدم موسى بن جعفر عليهما السلام العراق قال علي بن يقطين: أما ترى حالي وما أنا فيه (يشتكي إليه من عمله في الوزارة) فقال عليه السلام :يا علي إن لله تعالى أولياء مع أولياء الظلمة ليدفع بهم عن أوليائه وأنت منهم يا علي.[٢]

وقد سأل علي بن يقطين الإمام مرة أُخرى وقال: ما تقول في أعمال هؤلاء؟ قال عليه السلام : إن كنت لابدّ فاعلاً فاتق أموال الشيعة؛ فأطاع علي الإمام وكان يجبيها من الشيعة علانية ويردها عليهم في السر.[٣] وسبب ذلك هو انّ حكم هارون لم يكن حكماً إسلامياً ليجب امتثال قوانينها على المسلمين فقد كانت الولاية والخلافة لموسى بن جعفر عليهما السلام الذي كان ابن يقطين يعيد الأموال إلى الشيعة بأمره.

النيابة في الحجّ

ومن افتخارات علي بن يقطين في التاريخ هو انّه كان يرسل كلّ عام عدة إلى الحجّ نيابة عنه، وكان يدفع لكلّ منهم عشرة إلى عشرين ألف درهم،[٤] وكان يبلغ عدد المبعوثين في العام ١٥٠ شخصاً وأحياناً ٢٥٠ أو ٣٠٠.[٥]

ويعبر هذا العمل ونظراً إلى أهمية وفضيلة الحجّ في الدين الإسلامي مدى ورع وإيمان علي بن يقطين الخاص غير انّ التدقيق في عدد هؤلاء المبعوثين ونظراً للمبالغ الكبيرة التي كانت تدفع إليهم يعطي عمقاً أكبر لهذا الموضوع.

١. نفس المصدر، ص ٢٦٩.
٢. نفس المصدر، ص ٤٣٣.
٣. بحار الأنوار:٤٨/ ١٥٨.
٤. اختيار معرفة الرجال:٤٣٤.
٥. نفس المصدر: ٤٣٧ و ٤٣٤.

ولو أخذنـا عدد المبعوثين والمبالغ التـي تدفع إليهم بشكـل متوسط ونعتبر عددهم ٢٠٠ شخص في السنة مثلاً ولكـلّ واحد عشرة آلاف، لكان مجموع المبلغ المدفوع إليهم قرابة المليونين درهم.

ومن ناحية أُخرى كان هذا المبلغ الذي يدفع في كلّ عام هو قسماً من مؤونة علي بن يقطين السنويـة والفائض عن مصارفه بعـد دفع الحقوق الشرعية كـالزكاة والخمس والصدقات المستحبة والهبات وغيرها.

وعليه كم ينبغي أن تكون إيرادات علي بن يقطين السنوية حتى تكفي لكلّ ذلك؟!

ويبدو أنّ الشيخ البهائي هو الوحيد من بين علماء الشيعة قد التفت إلى هذه النقطة، وقد بيّن هـذه النقطة الدقيقة بهذا النحو: ظنّـي انّ الكاظم عليه السلام قد أحلّ التصرّف في الخراج وهو ـ علي بن يقطين ـ جعل أجـر الحجّ وسيلة لدفع هذا المال إلى الشيعة الأطهار لئلاّ يطعن عليه أعداؤه.[١]

وممّا يؤيد هذا الأمر وجود شخصيات كبيرة كعبد الرحمان بن الحجاج و عبد الله بن يحيى الكاهلي،[٢] و هما من أصحاب الإمام و مقرّبيه، ومن المغضوب عليهم

---

١. تنقيح المقال:٢/ ٣١٧.

٢. عبد الرحمان بن الحجاج أفاد من الإمامين الصادق والكاظم وكان ثقة ثقة ثبتاً وجهاً؛ فهرست أسماء مصنّفي الشيعة؛ رجال النجاشي، ٦٥؛ تنقيح المقال: ٢/ ١٤١.

وقد قال له الإمام الصادق عليه السلام : «يا عبد الرحمان كلم أهل المدينة فانّي أحبّ أن يرى في رجال الشيعة مثلك». ـ جامع الرواة ـ الأردبيلي:١/ ٤٤٧؛ اختيار معرفة الرجال: ٤٤٢.

وكان عبد الله بن يحيى الكاهلي يحظى باهتمام خاص من قبـل الإمام الكاظم عليه السلام حتى أنّه كان يوصي علي بن يقطين بـه كما قال له يوماً: «اضمـن لي الكاهلي وعياله أضمن لـك الجنة». اختيار معرفة الرجال، ص ٤٠٢.

فكان علي رحمه الله لم يزل يجري عليهم الطعام والدراهم وجميع النفقات مستغنين حتى مات الكاهلي. نفس المصدر، ٤٤٨.

من قبل السلطة.[١]

والنقطة الأُخرى التي يمكن ملاحظتها في خطة علي بن يقطين هذه هو إشراك الشيعة لا سيما شيوخهم في موسم الحجّ بدافع التعريف بالمذهب الشيعي والمناظرة مع الفرق الدينية الأُخرى وإيجاد موجة ثقافية شيعية.

حافظ على هذه الثوب

وقد كان علي بن يقطين وفي ضوء هذه الخدمات مؤيداً ومدعوماً من قبل الإمام الكاظم عليه السلام دائماً، و قد نجا عدة مرات من خطر الموت المحقّق بسبب تدخل الإمام وتدبيره، والتي منها: حمل الرشيد في بعض الأيام إلى علي بن يقطين ثياباً أكرمه بها، وكان في جملتها دراعة خز سوداء من لباس الملوك مثقلة بالذهب، فأنفذ علي بن يقطين جل تلك الثياب إلى موسى بن جعفر عليه السلام وأنفذ في جملتها تلك الدراعة، وأضاف إليها مالاً كان أعدّه على رسم له فيما يحمله إليه من خمس ماله، فلمّا وصل ذلك إلى أبي الحسن عليه السلام قبل ذلك المال والثياب وردّ الدراعة على يد الرسول إلى علي بن يقطين، وكتب إليه احتفظ بها ولا تخرجها عن يدك، فسيكون لك بها شأن تحتاج إليها معه.

فارتاب علي بردّها عليه، ولم يدر ما سبب ذلك واحتفظ بالدراعة، فلمّا كان بعد أيام تغير علي بن يقطين على غلام كان يختص به، فصرفه عن خدمته، وكان الغلام يعرف ميل علي بن يقطين إلى أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام ويقف على ما يحمله إليه في كلّ وقت من مال وثياب وألطاف، فسعى به إلى الرشيد فقال: إنّه يقول بإمامة موسى بن جعفر، ويحمل إليه خمس ماله في كلّ سنة، وقد حمل إليه الدراعة التي أكرمه بها الخليفة في وقت كذا وكذا.

١. اختيار معرفة الرجال: ٤٣٥.

فاستشاط الرشيد لذلك، وغضب غضباً شديداً وقال: لأكشفن عن هذه الحال، فإن كان الأمر كما تقول أزهقت نفسه؛ وأنفذ في الوقت بإحضار علي بن يقطين، فلمّا مثل بين يديه، قال له: ما فعلت بالدراعة التي كسوتك بها ؟

قال: هي يا أمير المؤمنين عندي في سفط مختوم وفيه طيب قد احتفظت بها قلّما أصبحت إلاّ وفتحت السفط ونظرت إليها تبركاً و...

فقال: احضرها الساعة.

فاستدعى ابن يقطين بعض خدمه، فقال له: امض إلى البيت الفلاني من داري، فخذ مفاتحه من خازني وافتحه، ثمّ افتح الصندوق الفلاني، فجئني بالسفط الذي فيه بختمه، فلم يلبث الغلام ان جاء بالسفط مختوماً، فوضع بين يدي الرشيد، فأمر بكسر ختمه وفتحه، فلمّا فتح نظر إلى الدراعة فيه بحالها مطوية مدفونة في الطيب.

فسكن الرشيد من غضبه، ثمّ قال لعلي بن يقطين: أرددها إلى مكانها، وانصرف راشداً، فلن أصدق عليك بعدها ساعياً، وأمر أن يتبع بجائزة سنية، وتقدّم بضرب الساعي به ألف سوط.[1]

أهداف تشكيل الحكومة الإسلامية

كان هارون يعلم بأنّ موسى بن جعفر عليه السلام وأتباعه يرونه غاصباً لخلافة الرسول، وحاكماً ظالماً مسك مصير المسلمين بيده قسراً وبالقوة، وانّهم لو تجهّزوا من الناحية العسكرية يوماً لما كانوا ينتظرون لحظة واحدة في القضاء على حكمه.

---

١. الإرشاد:٢٩٣؛ نور الأبصار الشبلنجي:١٥٠؛ الفصول المهمة، المالكي: ٢١٨؛ مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب:٤/ ٢٨٩.

ويكشف الحوار التالي الذي دار بين الإمام السابع وهارون عن أهداف الإمام جيداً فيما يتعلّق بتشكيل الحكومة الإسلامية وعن نوايا هارون الخبيثة.

فقد أعلن هارون ـ ولعلّه بدافع الاختبار ولمعرفة أهداف الإمام ـ للإمام بأنّه على استعداد لأن يرد إليه فدك.

فقال الإمام: «ما آخذها إلاّ بحدودها».

فقال هارون: وما حدودها؟

قال الإمام: «إن حددتها لم تردها».

قال هارون:بحق جدّك إلا فعلت.

فقال الإمام: **«أمّا الحدّ الأوّل فعدن، والحدّ الثاني سمرقند، والحدّ الثالث افريقيا، والرابع سيف البحر مما يلي الخزر وأرمينية.**

هارون الذي تغيّر وجهه بسماع كلّ واحد من هذه الحدود وغضب غضباً شديداً فقد بعد استماع الحدود الأربعة صوابه وقال وقد علاه الحزن والغضب: فلم يبق لنا شيء.

قال الإمام : «قد أعلمتك انّني إن حددتها لم تردها لذا امتنعت».[1]

أراد بهذا الجواب أن يقول لهارون انّ فدك رمز لمجموع حدود الحكومة الإسلامية، وانّ عمل أصحاب السقيفة بسلبهم فدك من بنت الرسول وصهره هو في الواقع مظهر من مظاهر مصادرة حقّ سيادة أهل بيت العصمة والطهارة سلام الله عليهم أجمعين، وعليه إذاكان من المقرر أن ترد حقنا إلينا فعليك أن تضع جميع حدود الحكومة الإسلامية في قبضتنا. عبّر هذا الحوار عن أهداف الإمام الكبيرة بشكل جيد.

---

١. تذكرة الخواص، ابن الجوزي: ٣٥٠؛ المناقب ابن شهر آشوب:٤/ ٣٢٠؛ مقاتل الطالبيين: ٣٥٠.

جمع الأموال

ومن ناحيـة أُخرى فانّ هارون وإن كـان يمتلك السلطة والقوة في الظـاهر غير انّ سلطته كانـت على الأبدان فقط، ولم يكن له مكان في قلـوب الناس، وأمّا سلطة القلوب والسيطـرة عليها فقد كانـت من نصيب الإمام السـابع وفي ضوء شعبيته الواسعة ومكانته في الرأي العـام كان المجاهدون والمتنوّرون من المسلمين يبعثون بخمـس أموالهم والأمـوال الأُخرى التـي تتعلّق ببيـت المال إلى الإمام، ولم يكن ذلك خـافياً على هارون، لأنّه ومن خـلال تقارير جواسيسه كـان يعرف بأنّ الأموال والحقوق الشرعية تصل الإمام من أقطار العالم الإسلامي الكبيرة لدرجة انّه شكل صندوقاً لبيت المال.[1]

١. بحار الأنوار:٤٨/ ٢٣٢؛ نور الأبصار: ١٥١؛ الفصول المهمـة، المالكي:٢٢٠؛ الصواعق المحرقة، ابن حجر الهيتمي: ٢٠٤.

ولكي تعرف مقدار الأموال التي كانت تصل الإمام وترسل إليه يكفي أن نلاحظ الأرقام التالية:

مات موسى بن جعفر عليهما السلام وعند زياد بن مروان القندي سبعون ألـف دينار من ماله، وعند علي بن أبي حمزة ثلاثون ألف دينار، و قد كانا من نواب الإمام، مضافاً إلى ذلك كان عند عثمان بن أبي عيسى الرواسي نائب الإمام في مصر ثلاثون ألف دينار أيضاً. البحار:٤٨/ ٢٥٢ـ٢٥٣.

الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام

* الإمام في عهد هارون
* الأمين والمأمون ـ الاختلافات والتناقضات
* لِمَ أراد المأمون أن يسلّم الخلافة إلى الإمام؟
* مواقف الإمام السلبية ازاء خدعة المأمون
* دور الإمام قبال الموجات الفكرية الدخيلة
* مناظرات الإمام مع أتباع الأديان والمذاهب

نبذة مختصرة
عن حياة الإمام عليه السلام

ولد الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في اليوم الحادي عشر من ذي القعدة عام ١٤٨ من الهجرة.[١] و كانت أُمّه امرأة فاضلة اسمها: تُكْتَم، وقد سمّاها الإمام الكاظم بعد ولادة الرضا باسم الطاهرة.[٢]

كنيته أبو الحسن، ولقبه الرضا. وتولّى إمامة الأُمّة وقيادتها بعد استشهاد أبيه في سجن بغداد سنة ١٨٣ هجرية وهو في ٣٥ من عمره.

معاصروه من الخلفاء

كانت فترة إمامة الإمام عشرين عاماً، عشرة أعوام منها كانت في عهد هارون، وخمسة في عهد محمد الأمين، والخمسة الأخيرة منها في عهد عبد الله المأمون.

وكان الإمام مقيماً في المدينة المقدسة حتى بداية عهد المأمون، و بعد أن تقلّد الخلافة استدعى الإمام إلى خراسان، وفي النهاية استشهد الإمام في شهر صفر من عام ٢٠٣ من الهجرة وهو في ٥٥ من العمر، ودفن هناك.[٣]

---

١. إعلام الورىٰ: ٣١٣؛ أُصول الكافي: ١/ ٤٨٦؛ الإرشاد: ٣٠٤.

٢. إعلام الورى: ٣١٣؛ بحار الأنوار: ٤٩/ ٥ـ٧؛ عيون أخبار الرضا: ١/ ١٤.

٣. أُصول الكافي: ١/ ٤٨٦؛ الإرشاد: ٣٠٤.

الإمام في عهد هارون

منذ سنة ١٨٣ وهي السنة التي استشهد فيها الإمام الكاظم مسموماً في سجن بغداد بأمر من هارون، انطوت فترة عشرة أعوام من إمامة الإمام الثامن في عهده.

وتعدّ هذه الفترة في ذلك العصر المفعم بالاضطهاد والاستبداد على يد هارون فترة الحرية النسبية والنشاط الثقافي والعلمي للإمام، لأنّ هارون لم يتعرّض له فيها بشيء، وكان الإمام يقوم بنشاطاته بحرية، ولذلك كان كلّ ما حققه الإمام من تربية الطلاب ونشر العلوم والمعارف الإسلامية المستقاة من تعاليم القرآن إنّما كان في هذه الفترة .

ولربما كان السبب في قلة الضغط من قبل هارون هو قلقه من عواقب قتله للإمام موسى بن جعفر عليه السلام ،لأنّه وعلى الرغم من محاولاته الكثيرة لإخفاء هذه الجريمة غير انّها انكشفت في النهاية، وتسببت في استنكار الناس وشجبهم لها وحاول أن يبرّئ نفسه منها.

وممّا يؤيد ذلك هو انّ هارون كتب إلى عمّه **سليمان بن أبي جعفر** الذي أخذ الجثمان الشريف من يد جلاوزته ودفنه كما هو شأنه: **والله ما فعل السندي بن شاهك لعنه الله ما فعله عن أمرنا**[١].

وممّا يؤيده أيضاً هو ما اعترف به هارون نفسه في جواب **يحيى بن خالد البرمكي** حول علي بن موسى عليه السلام .

فقد قال يحيى ـ و هو الذي كان قد سعى بالإمام الكاظم لدى هارون

---

١ . بحار الأنوار:٤٨/ ٢٢٧؛ عيون أخبار الرضا:١/ ١٠٠.

سابقاً ـ لهارون: هـذا علي ابنه ـ الرضا ـ يـدّعي هذا الأمر (الإمامة) ويقـال فيه ما يقال في أبيه ـ و كأنّ رأي يحيى هو انّه من الأفضل أن يوضع علي بن موسى عليه السلام تحت المراقبة ــ فقال هـارون ـ الـذي لم ينس بعـد قتل مـوسى بـن جعفر ويخاف عواقبـه ـ: و ما تـرى ما يكفينـا ما صنعنا بـأبيه ؟ تريـد أن أقتلهم ــ العلويين ـ كلّهم؟[1]

فأسكت غضب هارون خاصته مـن رجال البلاط وأخرسهم ولم يجرأ بعدها أحد في أن يسعى بالإمام إليه.

وراح الإمام الرضـا وباستغلال هذه الفـرصة يعلن جهاراً عـن إمامته، ولم يتوخّ التقية في ذلـك على عكس آبائه الأطهار، ممّا دعا بعـض أصحابه المخلصين إلى تحذيره، وكان الإمام يطمئنهم بأنّه لن يصيبه من هارون ما يضره.

ويقول صفـوان بن يحيى: لما مضـى أبو إبراهيم مـوسى بن جعفـر، وتكلّم الرضا وأظهر إمامته، خفنا عليه من ذلك، فقلت له: إنّك أظهرت أمراً عظيماً وإنّا نخاف عليك من هذا الطاغي.

فقال: «ليجهد جهده فلا سبيل له علي».[2]

وقد روي عن محمد بن سنان أيضاً[3] أنّه قال للإمام:

إنّك قد شهرت نفسك بهذا الأمر ـ الإمامة ـ وجلست مجلس أبيك وسيف هارون يقطر الدم.

فقال عليه السلام : «جرّأني على هـذا ما قـال رسول الله صلى الله عليه وآله إن أخذ أبو جهـل من

١. عيون أخبار الرضا:٢/ ٢٢٦؛ كشف الغمة:٣/ ١٠٥.

٢. عيون أخبار الرضا:٢/ ٢٢٦؛ كشف الغمة:٣/ ١٠٥؛ بحار الأنوار:٤٩/ ١١٥.

٣. الروضة من الكافي:٢٥٧؛ زندگانى پيشواى هشتم:٥٢؛ بحار الأنوار:٤٩/ ١١٥.

رأسي شعرة فاشهدوا انّي لست بنبي، وأنا أقول لكم:

إن أخذ هارون من رأسي شعرة فاشهدوا انّي لست بإمام».[١]

الأمين والمأمون الاختلافات والتناقضات

منح هارون في خلافته ولاية العهد لابنه محمد الأمين ـ و هـو من زبيدة ـ و أخذ له البيعة من الناس وجعل عبد الله المأمون ـ وهو من أُم فـارسية ـ ولي العهد الثاني بعـد أخيه. وفي عام ١٩٣ أخبر هارون بحـدوث انتفاضة في مدن خـراسان وانّ قادة الجيش ومع كلّ ما أبدوه من قساوة ووحشية عجزوا عن إخماد نارها وبعد استشارة وزرائه ومستشـاريه رأى مـن الأفضل أن ينطلق بنفسـه إلى تلك الـديار ويستخدم قدرة الخلافـة في ضربة واحدة لقمع الثـورات وتمرد الخراسانيّين، فترك ابنه محمد الأمين في بغـداد وأخذ معه المأمون الـذي كان والياً على خراسـان إليها، واستطاع هارون أن يعيد الاستقرار إلى خراسـان المضطربة وأن يخمد نار الفتنة كما يقولـون غير انّه لم يقـدر بعدهـا على العودة إلى مـركز الخلافـة بغداد، ومـات في الثالث من جمادى الآخرة من سنة ١٩٣ هجـرية في طوس وترك الأخوين في حلبة الصراع والمنافسة.[٢]

---

١. وقد كان الإمام يذكر بعد ذلك في خراسان أيّامـه في المدينة وما كان يتمتع به من الشعبية والمكانة بارتياح وسرور، كما قال ذات مـرة للمأمون الذي توقع منه أشياء بسبـب ولاية العهد: «وما زادني هذا الأمر ـ ولاية العهد ـ الذي دخلت فيه في النعمـة عندي شيئاً، ولقد كنت بالمدينة وكتابي ينفذ في المشرق والمغرب، ولقـدكنت أركـب حماري وأمر في سكـك المدينةومـابها أعزّ منّـي...». بحار الأنوار:٤٩/ ١٥٥؛ الروضة من الكافي، ص ١٥١؛ عيون أخبار الرضا:٢/ ١٦٧.

٢. زندگانى پيشواى هشتم إمام على بن موسى الرضا عليه السلام: ٥٨ـ ٥٩.

هزيمة الأمين

وفي بغداد بايع الناس الأمين في الليلـة التي تـوفي فيهـا هارون بطوس ولم يمض على خـلافته أكثر مـن ١٨ يوماً حتـى راح يحاول أن ينتزع ولاية العهـد من أخيه المأمون ويمنحها ابنه موسى. وقد استشار في ذلك وزراءه فلم ينصحوه بذلك إلاّ واحد يُدعى علي بن عيسى بن ماهان الذي أصر على خلع المأمون، وفي النهاية كشف الأمين عـن قراره بخلع المأمون. وكـرد فعل على ذلك خلـع المأمون الأمين من الخلافة أيضاً، وبعد صراعات عديدة قتل الأمين عام ١٩٨ في النهاية.[١]

وهكذا استلم المأمون بعد قتل الأمين مقاليد الحكم في العالم الإسلامي.

حرية الإمام النسبية في عهد الأمين

ولم يلحـظ في التاريـخ ابّـان حكـم الأمين وفي السنوات التـي تخلّلـت بين مـوت هارون وخلافة المأمون أيّة مـواجهة بين الإمام ورجال الحكم العباسي، ومن الواضـح انّ الفرصة لم تسنح لجهـاز الحكم العباسي أن يضطهد العلـويين عامـة والإمـام الـرضـا بشكـل خاص في تلـك السنـوات القصيرة التـي انشغلـوا فيهـا بالصراعـات الداخلية والنزاعـات التي جرت بين الأمين والمأمـون وخلـع الأخير مـن ولايـة العهد ومنحهـا موسى ابـن الأمين . ونستطيع أن نعتبر هـذه السنوات (١٩٣ـ١٩٨هــ) هي فترة الحرية النسبية لـلإمام والفرصـة المناسبـة لنشاطـاته الثقافيـة.[٢]

---

١. الكامل في التاريخ:٦/ ٢٨٧.

٢. زندگانی پیشوای هشتم، ص ٦٠.

من هو المأمون؟

كانت أُمّ المأمون جارية خراسانية تدعى مراجل، وقد ماتت بعد أيّام من ولادته، فنشأ وترعرع المأمون كطفل يتيم، وقد كانت أُمّه ـ كما يقول المؤرّخون ـ أشوه وأقذر جارية في مطبخ الرشيد، وذلك هو الذي يجعلنا نصدق القصة التي تقال عن السبب في حملها به.[1]

كانت ولادته في سنة ١٧٠ هـ في نفس الليلة التي تولّى فيها أبوه الخلافة، وكانت وفاته سنة ٢١٨ هـ ودفعه أبوه إلى جعفر بن يحيى البرمكي، فنشأ في حجره وكان مربّيه الفضل بن سهل المعروف بذي الرئاستين ثمّ أصبح وزيره، وكان قائده طاهر بن الحسين ذو اليمينين.

وقد كانت حياته حياة جد ونشاط، وتقشف على العكس من أخيه الأمين، الذي نشأ في كنف «زبيدة» و ما أدراك ما زبيدة!! فقد كانت حياته حياة ترف، يميل إلى اللعب والبطالة، أكثر منه إلى الجد والحزم... يظهر ذلك لكلّ من راجع حياته، ولعل سرّ ذلك يعود إلى أنّ المأمون لم يكن كأخيه، يشعر بأصالة لوجوده، ولا كان مطمئناً إلى مستقبله وإلى رضا العباسيين به، بل كان يقطع بعدم رضاهم به خليفة وحاكماً، ولهذا فقد وجد انّه ليس لديه أي شيء يعتمد عليه غير نفسه؛

---

١. وتروى هذه القصة على النحو التالي: انّ زبيدة لاعبت الرشيد بالشطرنج على الحكم والرضا فغلبته، فحكمت عليه أن يطأ أقبح وأقذر وأشوه جارية في المطبخ، فبذل لها خراج مصر والعراق لتعفيه عن ذلك، فلم تقبل، ولم تجد جارية تجمع تلك الصفات غير مراجل، فطلبت إليه أن يطأها فجاء المأمون. حياة الحيوان للدميري.

ولا ينافي ذلك أنّه ولد في الليلة التي تولّى فيها أبوه الخلافة، فإنّ أولياء العهد كانوا يتولّون أعظم الولايات من قبل الخلفاء، و قد قسّم الرشيد الدولة كلّها بين أولاده الثلاثة ـ الحياة السياسية للإمام الرضا، ص ١٤٨ـ١٤٩، السيدجعفر العاملي .

فشمّر عـن ساعد الجد وبـدأ يخطط لمستقبلـه منذ اللحظة الأُولى التـي أدرك فيها واقعه والمميزات التي كـان يتمتع بها أخوه الأمين عليه ويمتاز بها عليه فـانّه كان يستفيد من أخطاء أخيه الأمين؛ فانّ «الفضـل» عند ما رأى اشتغال الأمين باللهو واللعب شـار على المأمون بـإظهار الورع والـدين وحسـن السيرة، فأظهـر المأمون ذلك...، وكان كلّما اعتمد الأمين حركة ناقصة اعتمد المأمون حركة شديدة.

وعلى كلّ حال فإنّ المأمون كان قد بـرع في العلوم والفنون، حتّى فاق أقرانه بل فاق جميع خلفاء بني العباس، وقـد قال بعضهم:«لم يكن في بني العباس أعلم من المأمون» وقال عنه ابن النديم:«انّه أعلم الخلفاء بالفقـه والكلام» بل روي عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال ـ و هو يصف خلفاء بني العباس ـ:« **سابعهم أعلمهم**» .

وقد وصفه السيوطي وابن تغري بردى، وابن شاكر الكتبي فقالوا:«وكان أفضل رجال بني العبـاس حزماً وعزمـاً وحلماً وعلماً ورأياً ودهاءً وهيبة وشجـاعة وسؤدداً وسماحة لـولا انّه شان ذلـك كلّه بالقـول بخلق القـرآن، و لم يل الخلافة مـن بني العباس أعلم منه...».

وقـد شهد لـه أبـوه نفسه بـالتقدّم على أخيـه الأمين، قـال:... وقد عنيـت بتصحيح هـذا العهد وتصييره إلى مـن أرضى سيرته وأحمد طـريقته، وأثـق بحسن سياسته، وآمن ضعفه ووهنه، وهو: عبد الله، و بنو هاشـم ـ يعني العباسيين ـ مائلون إلى محمد بأهوائهم ، و فيه ما فيه مـن الانقياد لهواه، والتصرف مع طويته، والتبذير لما حوته يده، ومشاركة النساء والإمـاء في رأيه، وعبد الله المرضي الطريقة، الأصيل الرأي، الموثوق به في الأمر العظيم.[1]

---

١. الحياة السياسية للإمام الرضا:٩٧ـ١٠٠.

الإمام الثامن في عهد المأمون

وما ان تسنّم المأمـون كرسي الخلافة بدأت صفحـة جديدة من حيـاة الإمام تلك الصفحة التي عانى الإمام فيها الكثير من الآلام والأحزان لسنوات عديدة. وكان غـاصبو الخلافـة ـ سـواء الأمويين منهم أو العبـاسيين ـ أكثـر ما يخافـونه ويرعبون منه هم العلويون وآل علي أُولئك الذين يرى الناس ـ أو الكثير منهم على الأقل ـ انّهم أحـقّ بالخلافة وانّهم كانـوا يرون فيهم الفضيلة بكـل أنواعها، ولهذا كـان أولاد علي الكـرام مضطهـديـن معـذّبين مـن قبـل الحكـام والخلفـاء دائماً ومستشهدين على أيديهم في النهاية.

غير انّ المأمون كـان يُبدي حبّه للتشيّع أحيـاناً، وكان رجال جهـازه الحاكم إيـرانيين في الغالـب، وهـم يميلون إلى آل علي والأئمـة الشيعـة ويحبونهم بشكـل خاص، ولهذا لم يكن بمقدوره أن يسجن الإمام و ينكل به كآبائه هارون والمنصور، ومن هنـا اتبع أُسلـوباً جديـداً (مع أنّـه لم يكن أمـراً حديثاً لهذه الـدرجة وجـرّبه الخلفاء السابقون) غير انّـه كان أفضل مظهراً وأقلّ محذوراً، ولذلـك اتّبعه الخلفاء اللاحقون أيضاً.

قرر المأمون أن يستـدعي الإمام إلى «مرو» مركز حكمه ويفتـح معه صفحة صداقـة وود مضافـاً إلى الإفادة مـن مكانتـه العلمية والاجتماعيـة أن يجعله تحت مراقبته بشكل كامل.

استدعاء الإمام من قبل المأمون إلى خراسان

وقد استدعى المأمـون الإمام باحترام في البداية ودعاه أن يـأتي مع سادة آل

علي إلى مركز الخلافة.[1]

فامتنع الإمام من قبول دعوته وأصرّ المأمون كثيراً على ذلك وتبودلت الكتب والرسائل بينهما إلى أن تحرك الإمام في النهاية مع مجموعة من آل أبي طالب باتجاه مرو.[2]

وقد أمر المأمون الجلودي أو رجاء بن أبي الضحاك على قول الذي تولّى إحضار الإمام ومرافقته قافلته بأن لا يأل جهداً في إكرام الإمام وخاصته، غير انّ الإمام كان يبدي انزعاجه من هذه الرحلة وذلك توعية للناس.

وذات يوم لمّا أراد الانطلاق من المدينة جمع أهل بيته وطلب منهم أن يبكوا عليه وقال: أما إنّي لا أرجع إلى عيالي أبداً.[3] ثمّ دخل مسجد رسول الله ليودعه صلى الله عليه وآله، فودّعه مراراً كلّ ذلك يرجع إلى القبر ويعلو صوته بالبكاء والنحيب.

وقال مخول السيستاني: بينما هو عليه السلام كذلك تقدّمت إليه وسلّمت عليه وهنّأته، فقال: «ذرني فانّي أخرج من جوار جدي، وأموت في غربة، وأدفن في جنب هارون».[4]

---

١. ولم يأت في الوثائق التاريخية المعتمد عليها أي ذكر للخلافة أو ولاية العهد عند استدعائه للإمام، ولعلّ هذه الفكرة قد انقدحت في ذهن المأمون مؤخراً، أو إذا كان يفكر في ذلك مسبقاً فانّه لم يبد شيئاً منه، ومن بين كلّ ذلك فانّ البيهقي هو الوحيد الذي ينقل لنا تلك الأحداث بنحو آخر وكتب يقول: إنّ طاهراً بايع الإمام بولاية العهد في العراق، غير انّ هذا غير صحيح، لأنّ طاهراً كان في بغداد، وقد روى الكثير انّ مسير الإمام كان من طريق البصرة، وثانياً انّ رواية البيهقي تتحدث منذ البداية عن ولاية العهد، ولا تقول شيئاً عن انتقال الخلافة بينما قد كتب أكثر المؤرّخين: انّ المأمون قد اقترح الخلافة في البداية، ومع ذلك انّ الأمر يبدو ــ وذلك كما في بعض الكتب الفارسية أو العربية التي ترجمت للإمام ـ مبهماً وغامضاً تماماً، وقد اعتبروا انّ استدعاء الإمام هو دعوته إلى قبول الخلافة بشكل رسمي. زندگانى امام هشتم: ٧٢.

٢. كشف الغمة:٣/ ٦٥؛ الإرشاد: ٣٠٩؛ روضة الواعظين: ٢٤٧.

٣. بحار الأنوار:٤٩/ ١١٧؛ كشف الغمة: ٣/ ٩٥.

٤. بحار الأنوار:٤٩/ ١١٧.

وكان الطريـق الذي سلكه الإمام مـن المدينة إلى مرو هو طـريق البصرة ، الأهواز، وفارس حسب أوامر المأمون [١]، ولعلّ ذلك كان لأجل إبعاد قافلة الإمام عن الجبل ـ المناطق الجبلية التي تبدأ من همدان وحتى قزوين ـ والكوفة وكرمنشاه وقم.[٢]لأنّها كانت مراكز تجمع للشيعة.[٣]

عرض الخلافة على الإمام

دخل مـوكب الإمـام مرو في العـاشر من شـوال و على مقربـة من المدينـة استقبل مـن قبل المأمـون و الفضل بن سهـل ومجموعـة كبيرة من القـادة والأُمراء العباسيين.

ودخل المدينة بكلّ إجـلال و إكرام ووفّرت له جميع وسائل الراحـة بأمر من المأمون، وبعد مضي بضعـة أيّام من الاستراحة مـن عناء السفر بدأت مفـاوضات بين الإمـام والمأمون اقترح هـذا الأخير خلالها الخلافـة على الإمـام دفعة واحـدة . فاعرض الإمام عن قبولها ورفض.

وقد قـال الفضل بن سهـل متعجباً: فما رأيـت خلافة أضيـع منها انّ أمير

---

١ . يقول رجاء بن أبي الضحاك: بعثني المأمون في إشخاص علي بن موسي عليهما السلام من المدينة، و قد أمرني أن آخـذ بـه على طـريـق البصرة والأهـواز وفـارس ولا آخـذ بـه على طـريـق قـم (عيـون أخبـار الرضا:٢/ ١٩٤؛ البحار:٤٩/ ٩١).

٢. وللمرحوم السيد عبـد الكريم بن طاووس صاحـب فرحة الغري والمتوفّى سنة ٦٩٣هـ كلام حول كيفية قدوم الإمام إلى قم وهو ما لم يشاهد في موضع آخر. ونظراً إلى أنّ الشيخ الصدوق رحمه الله الذي كان قمياً ولا تفصله مدة زمنيـة كبيرة عن الإمام لم يرو شيئاً عن قدوم الإمام إلى قـم ويذكر طريقاً آخر فلا يبدو ما قاله ابن طاووس قريباً من الواقع. زندگانى پيشواى هشتم:٧٤.

٣. زندگانى پيشواى هشتم:٧٠ـ٧٤.

المؤمنين ـ المأمون ـ يتفصّى منها ويعرضها على علي بن موسى الرضا وهو يرفضها ويأباها.[١]

فقال المأمون الذي كان يحتمل رفض الإمام لذلك: فإنّي مولّيك العهد من بعدي. فقال الإمام: «اعفني من ذلك!».

فلم يقبل المأمون عذره وتكلم بكلام فيه تهديد للإمام على الامتناع، فقد قال: إنّ عمر بن الخطاب جعل الشورىٰ في ستة أحدهم جدّك أمير المؤمنين علي عليه السلام، وشرط فيمن خالف منهم أن يضرب عنقه، ولابدّ من قبولك ما أُريده منك، فإنّني لا أجد محيصاً عنه.[٢]

ولقد هدّد الإمام بأكثر من ذلك صراحة وقال: إنّك تتلقاني أبداً بما أكرهه، وقد أمنت سطواتي، والله لئن قبلت ولاية العهد وإلاّ أجبرتك على ذلك، فإن فعلت وإلاّ ضربت عنقك.[٣]

فلم ير الإمام بدّاً من قبول اقتراح المأمون فقال:

«إنّي أُجيبك إلى ما تريد من ولاية العهد على أنّي لا آمر ولا أنهى ولا أُفتي ولا أقضي، ولا أُولّي ولا أعزل، ولا أُغير شيئاً ممّا هو قائم». فأجابه المأمون إلى ذلك كلّه.[٤]

ولاية العهد التي لم تتم أبداً

لقد كان أهالي مرو قد استعدّوا لاستقبال شهر رمضان المبارك عام ٢٠١ هـ و قد ذاع خبر ولاية عهد الإمام وقد تلقوا هذه البشرىٰ بفرحة مزيجة بالاستغراب،

١. كشف الغمة: ٣/ ٦٦؛ الإرشاد: ٣١٠؛ روضة الواعظين: ٢٤٨.

٢. الإرشاد: ٣١٠؛ كشف الغمة: ٣/ ٦٥؛ إعلام الورى: ٣٣٣؛ روضة الواعظين: ٢٤٨.

٣. علل الشرائع: ١/ ٢٢٦؛ روضة الواعظين: ٢٤٧.

٤. إعلام الورىٰ: ٣٣٤؛ الإرشاد: ٣١٠.

وفي يوم الاثنين السابع من شهر رمضان كتبت وثيقة ولاية العهد بخط المأمون وأبدى الإمام خلف تلك الرقعة قبوله بذلك بعد ذكر مقدمة مفعمة بالإشارات والتلويحات، غير انّه قد ذكر بأنّ هذا الأمر لن يتم، ثمّ شهد وفي الجانب الأيمن والأيسر من المكتوب جماعة من رجال الحكم والقادة والوزراء مثل يحيى بن أكثم وعبد الله بن طاهر، والفضل بن سهل على مضمون تلك الوثيقة.[١]

ثمّ تقلّد الإمام الرضا وخلال مراسم فخمة لأخذ البيعة له ـ ولاية العهد ـ في يوم الخميس العاشر من رمضان.

وأوّل من مدّ يده بأمر من المأمون لمبايعة الإمام هو العباس بن المأمون، ثمّ تلاه الفضل بن سهل الوزير الأعظم، ويحيى بن أكثم مفتي البلاط، وعبد الله بن طاهر قائد الجيش، ثمّ بايع بعد ذلك جميع الأشراف من العباسيين الذين كانوا حاضرين هناك.[٢]

وطبيعي انّ أمر ولاية العهد وعقدها للإمام كان مدعاة للسرور والبهجة لدى أصحاب الإمام وشيعته، ولكن نفس الإمام كان حزيناً ومنزعجاً من ذلك، ولمّا رأى رجلاً كان يبدي ابتهاجه بتلك الولاية طلب منه أن يدنو فقال له: «لا تشغل قلبك بهذا الأمر ولا تستبشر له، فإنّه شيء لا يتم».[٣]

مشاكل المأمون السياسية

توضح دراسة الأوضاع والظروف السياسية في عهد المأمون انّه واجه

١. وقال علي بن عيسى الاربلي: إنّي قد اطّلعت على هذه الوثيقة المكتوبة بخط الإمام والمأمون عام ٦٧٠ هـ وقد نقلها في كتابه حرفياً (كشف الغمة: ٣/ ١٢٣ـ ١٢٨).

٢. زندگانى پيشواى هشتم: ٨٢ـ ٨٧.

٣. كشف الغمة: ٣/ ٦٧؛ الإرشاد: ٣١٢؛ روضة الواعظين: ٢٤٩.

صعوبات ومشاكل سياسية كثيرة، وحاول جاهداً أن يخرج من هذه الازمات.

وفي النهايـة راح المأمون وبدافع التخلّـص من المأزق يتبع سياسـة متعدّدة الجوانب المتمثلـة في خطة عقد ولايـة العهد للإمام الـرضا. وسوف نـدرس لاحقاً مشاكل المأمون السياسية:

عدم رضا العباسيين بالمأمون

مع أنّ المؤرّخين يشهدون بـأنّ المأمون كان أجدر بكثير مـن الأمين في الرأي العام غير انّ العباسيين كانوا لا يرضون به ويخالفونه، وكما قدمنا كان هارون عارفاً تماماً بـالاختلاف الـواضح بين الأخويـن، وكان يشكو مـن عدم رضـا العباسيين بالمأمون.

ولعلّ سر إعـراض العباسيين عن المأمون هـو انّ أخاه الأمين كان عبـاسياً أصيلاً، فأبوه هارون، وأُمّه زبيدة حفيدة المنصـور الدوانيقي هاشمية وكانت أكبر امرأة عباسية، وكان قد تربى في حجر الفضـل بن يحيى البرمكي أخي الرشيد من الرضاعة وأعظم رجل نفوذاً في بلاط الرشيد، وكان يشرف على مصالحه الفضل بن الربيع العربي الذي كان جدّه من طلقاء عثمان والذي لم يكن هناك شكّ في ولائه للعباسيين.

وأمّا المأمون فقـد تربىٰ في حجر جعفر بـن يحيى الذي كان أقـل نفوذاً من أخيه الفضل؛ وكان مؤدّبه والذي يشرف على مصالحه الفضل بن سهل الفارسي، ذلك الرجل الذي لم يكن العباسيون يـرتاحون إليه بشكل خاص، لأنّه كان متهماً بـالميل إلى العلـويين، والذي كـانت العـداوة بينه و بين مـربي الأمين الفضل بـن الربيـع على أشدهـا، ذلك الرجـل الذي أصبـح فيما بعد وزيراً للمـأمون ومـدبراً لأُموره. وقد ضاق العباسيون بالفرس ذرعاً وخـافوهم، ولذا سرعان ما استبدلوهم بالأتراك وغيرهم.

مركز الأمين الأقوى

كان للأمين جماعة وأنصار أقوياء يستطيع أن يعتمد عليهم يعملون لتقويته وتأمين الحكم له وهم أخواله، والفضل بن يحيى البرمكي، وأكثر البرامكة إن لم يكن كلّهم، وأُمّه زبيدة بل والعرب أيضاً.

ونظراً إلى أنّ هذه الشخصيات هي التي كانت تؤثر على الرشيد بشكل كبير والتي لها دور كبير في توجيه سياسة الدولة، فإنّه كان من الطبيعي أن يضعف الرشيد أمام هذه القوة ويرضخ لها في جعل ولاية العهد من بعده لولده الأصغر سناً وهو الأمين ويجعل الأكبر أي المأمون ولي العهد الثاني بعد أخيه الأصغر.

ولعلّ تعصّب بني هاشم القومي، وجلالة عيسى بن جعفر خال الأمين قد لعبا دوراً كبيراً في تقدّم الأمين بولاية العهد لأبيه، وكان لزبيدة الدور الرئيسي في إنهاء هذا الأمر لصالح ولدها، وفضلاً عن ذلك فانّ المحتمل جداً أن يكون الرشيد وبملاحظة الدور الذي كانت تلعبه الأنساب والتصوّر القبلي في التفكير العربي قد التفت إلى سمو نسب الأمين على المأمون.

و قد أشار بعض المؤرخين إلى ذلك فقال: وفي سنة ١٧٦ هـ عقد الرشيد لابنه المأمون عبد الله العهد بعد أخيه الأمين، وكان المأمون أسن من الأمين بشهر واحد، غير انّ الأمين أُمّه زبيدة بنت جعفر هاشمية والمأمون أُمّه أمّ ولد اسمها مراجل ماتت أيّام نفاسها به.

على من يعتمد المأمون؟

ومع أنّ أباه قد استطاع أن يضمن له المركز الثاني بعد أخيه الأمين، غير انّ ذلك لا يكفي لأن يجعل المأمون يطمئن إلى مستقبله في الحكم، لأنّه لا يأمن أخاه

وبني أبيه العباسيين أن لا ينكثوا العهد، فهل كان بمقدوره أن يعتمد على غيرهم إذا ما أحس يوماً انّ مركزه عرضة للخطر؟

وكيف يستطيع أن يتقلّد السلطة؟ ومن ثمّ كيف يقدر أن يقوّي دعائمها؟

هذه أسئلة كانت تشغل بال المأمون دائماً، وكان لابدّ له من أن يجد الإجابة عليها بكلّ دقة ووعي وإدراك وأن ينطلق بعدها وفقاً لتلك الإجابات، ولنلق نظرة سريعة على مواقف كلّ من هذه الجماعات من المأمون لنرى أي هذه الفئات يستطيع المأمون الاعتماد عليها في مواجهة الأخطار والتحديات التي تنتظره هو وحكمه.

١. موقف العلويين من المأمون

وكان من الطبيعي أن لا يرضى العلويون بالمأمون كما أنّهم ما كانوا ليرضوا بغيره من العباسيين خليفة وحاكماً، لأنّ من بينهم من هو أجدر من كلّ العباسيين، ولأنّ المأمون كان من السلالة التي لا يمكن أن تصفو لها قلوب العلويين، لأنّها قد فعلت بهم أكثر ممّا فعله بنو أُمية معهم. وكلنا نعلم كيف سفك العباسيون دماء العلويين وسلبوهم أموالهم وشرّدوهم عن ديارهم وأذاقوهم شتى صنوف العذاب والاضطهاد، وكفى المأمون عاراً انّه ابن الرشيد الذي حصد شجرة النبوة واجتث غرس الإمامة.

٢. موقف العرب من المأمون ونظام حكمه

وأمّا العرب فهم أيضاً كانوا لا يرضون بالمأمون خليفة وحاكماً، وذلك بسبب انّ أُمّه ومؤدّبه والقائم بأمره ليسوا بعرب، وهذا ما لا يتناسب مع التعنصر العربي المتطرّف الذي كان يرى ـ وعلى عكس تعاليم القرآن و الرسول ـ أفضلية

العرب على القـوميات والشعوب، لا سيما انّ الفرس قـد أبدوا جدارة عاليـة لتولّي المناصـب العلمية والسياسية وضيّقـوا على العرب المتكبّرين الفاشلين، ومـن هنا كان مـن الطبيعي أن يحقد العرب على الفـرس وعلى كلّ من يتصـل بهم بنحو ما، ولذلك كان المأمون مكروهاً ومغضوباً عليه من قبل العرب.

٣. قتل الأمين وخيبة الأمل

إنّ قتل الأمين وإن كان يمثّل ــ في ظاهره ـ انتصاراً عسكريـاً للمأمون، إلاّ أنّـه كان ذا نتـائج سلبية وعكسيـة بالنسبـة إليه هـو وأهدافـه ومخططاتـه لا سيما الأسـاليب التـي اتّبعها المأمـون للتشفّي مـن أخيه الأمين زادت مـن حدة تلـك الردود، وأمر طاهـراً بقتل الأمين، وقد أعطى الذي جاءه بـرأس أخيه مليون درهم بعد أن سجد لله شكراً، ثمّ أمر بنصب رأس أخيه على خشبة في صحن الدار، وأمر كلّ من قبض رزقه أن يلعنـه ثمّ يقبض ماله، ولم يكتف المأمون بذلـك بل انّه بعد ان طيف برأس الأمين بخـراسان أرسل إلى إبراهيـم بن المهدي يعنّفه ويلـومه على أنّه أسف على قتل الأمين!!

وبعد كـلّ ما قام بـه المأمون فماذا يمكن أن يتـوقع من العبـاسيين والعرب وغيرهم من الناس؟! وماذا يمكن لهم أن يتخذوه من مواقف تجاهه؟!

إنّ أيسر ما نستطيع أن نقـوله هنا هو أنّه كـان لقتله أخاه، وفعالـه الشائنة تلك أثر سيء على سمعته، ومـن أسباب زعزعة ثقة الناس به وتأكيـد نفورهم منه سواء في ذلك العرب وغيرهم.

الموقف الصعب

أضف إلى ذلك أيضاً الخطر الذي كان يكمن في موقف الخراسانيين الذين

رفعوا المأمون على العرش وسلّموا إليه أزمة الحكم، مضافاً إليه موقف العلويين الذين اغتنموا فرصة الصدام بينه و بين أخيه لتجميع صفوفهم ومضاعفة نشاطاتهم، و بعد هذا يكون من الممكن أن نجسد الملامح الحقيقية للظروف التي كان يعاني منها المأمون، سيما لو لاحظنا مجموعة الثورات العلوية التي كانت تظهر من كلّ جانب من جوانب مملكته.

ثورات العلويين

فأبو السرايا الذي كان يوماً ما من حزب المأمون خرج **بالكوفة**، وكان هو وأتباعه لا يلقون جيشاً إلاّ هزموه، ولا يتوجّهون إلى بلدة إلاّ دخلوها و يقال:

إنّه قد قتل من أصحاب الخليفة في حرب أبي السرايا فقط مائتا ألف رجل مع أنّ مدته ـ من خروجه إلى يوم ضربت عنقه ـ لم تزد على العشرة أشهر.

وحتى **البصرة** التي هي معقل العثمانية قد أيّدت العلويين ونصرتهم وقد خرج فيها زيد النار.

وفي **مكة** ونواحي الحجاز خرج **محمد بن جعفر** الذي كان يلقّب **بالديباج** ، وتسمّى بأمير المؤمنين.

وفي اليمن إبراهيم بن موسى بن جعفر.

وفي المدينة خرج محمد بن سليمان بن داود بن الحسن.

و في واسط التي كان قسم كبير منها يميل إلى العثمانية خرج جعفر بن محمد بن زيد بن علي والحسين بن إبراهيم بن الحسن بن علي.

وفي المدائن محمد بن إسماعيل بن محمد.

بُل انّك لا تجد قطراً إلاّ وفيه علوي يُمنّي نفسه أو يمنّيه الناس بالثورة على العباسيين، حتى اتّجه أهل الجزيرة والشام المعروفة بتعاطفها مع الأمويين وآل

مروان إلى محمد بن محمد صاحب أبي السرايا، فكتبوا إليه انّهم ينتظرون أن يوجه إليهم رسولاً ليسمعوا ويطيعوا.(١)

حلول متعددة الجوانب

وكان المأمون يدرك انّه للخروج من هذا المأزق يجب أن يتم:

١. إخماد ثورة العلويين.

٢. أن يحصل من العلويين على اعتراف بشرعية خلافة العباسيين.

٣. إزالة ما يتمتع به العلويون من شعبية واحترام بين الناس.

٤. اكتساب ثقة العرب ومحبتهم.

٥. استمرار تأييد الخراسانيين وعامة الإيرانيين.

٦. إرضاء العباسيين والمتشيعين لهم.

٧. تعزيز ثقة الناس بشخص المأمون الذي كان لقتله أخاه أثر سيّء على سمعته وثقة الناس به.

٨. وبالتالي أن يأمن الخطر الذي كان يتهدّده من تلك الشخصية الفذة التي كانت ترعبه. نعم كان المأمون يخشى شخصية الإمام الرضا القوية بشكل كبير وكان يريد أن يبقى في أمان منها.

وهكذا وبعقد ولاية العهد للإمام الرضا وجعله شريكاً في الحكم تتحقق أهدافه التي يطمح إليها، لأنّه وبدخول الإمام الجهاز الحاكم ــ و هو سيد العلويين ــ كان العلويون سيُسلبون السلاح وتموت أهدافهم وشعاراتهم وتزول

١. الحياة السياسية للإمام الرضا عليه السلام السيد جعفر مرتضى الحسيني: ١٥٥ـ ١٨٥.

شعبيتهم بين النـاس بسبب خروجهـم، ومن ناحيـة أُخرى كان المأمـون سيحظى برضا الخراسانيين وعـامة الإيرانيين المناصرين لأهل البيت، وكان يتظـاهر بأنّه إن كان قد قتل أخاه، فلأنّه كان يريـد ردّ الحكم إلى أهله، وفضلاً عن كلّ ذلك يبقى بإحضار الإمام الرضا عليه السلام إلى مرو و مراقبة نشاطاتـه في أمان من خطره. فلم يبق غير العـرب والعباسيين الـذيـن يستطيع أن يصمـد أمامهـم بمعـونة الإيـرانيين والعلويين.

عرض وتحليل

هناك أدلّـة واضحة تثير الشكـوك حول صدق المأمـون وإخلاصـه في عقد ولاية العهد لـلإمام الرضا، لأنّه لو كـان صادقاً في ذلك و في منح الخلافـة للإمام إيماناً بذلك واعتقاداً:

١ . فلماذا لم يفعل ذلـك لما كان الإمام في المدينة؟ و لمَ أحضره إلى مـرو وهو كاره تحت حـراسة جـلاوزته، وهـو يستطيع أن يقـرأ الخطبة بـاسم الإمـام ويحكم فارس عنه وكان الإمام يتقلّد الخلافة وهو في المدينة مركز النبوة؟

٢ . لماذا أمر المأمون بأن يحضروا الإمام على طريق البصرة والأهواز وفارس ـ و يحتمل اتخاذ طريق صحراء لوت وصولاً إلى خراسـان ـ دون طريق الكوفة وقم؟ في حين انّه كان سيستقبل بحفاوة أكثر ويكون الظرف مساعداً جداً لهدفه لو كان يسلك ذلك الطريق.

٣ . لماذا جعل المأمون نفسـه ولياً للعهد في المرحلة الأُولى من مفاوضـاته مع الإمام وعرضـه الخلافة عليه، وقد كـان المفروض أن يعقد ولاية العهـد بعد الإمام الرضا عليه السلام لابنه الإمام الجواد عليه السلام أو على الأقل يترك ذلك للإمام؟

٤. كون الإمام ﷺ ولياً للعهد وبشرط أن لا يتدخل الإمام في أي عمل من أعمال الدولة فإلى كم يستطيع ذلك أن يقرب الأُمة الإسلامية من الواقع؟ وبملاحظة انّ الإمام ﷺ كان يكبر المأمون بعشرين عاماً، وكان المتوقع أن يرحل الإمام قبل المأمون وفق الحسابات العادية، فإنّ الخلافة سوف لن تصل لآل علي في النهاية.

٥. ولو كان المأمون صادقاً في عمله وانّه بادر بذلك إيماناً واعتقاداً، فلماذا راح يهدد الإمام عندما رفض اقتراحه ويجبره على قبول ولاية العهد؟

٦. ولماذا لم يعقد ولاية العهد للإمام الجواد ﷺ عندما استشهد الإمام الرضا ﷺ، وقد كان يتظاهر بنفس ما تظاهر به من الحب لأبيه؟

٧. ولماذا منع الإمام من الصلاة في قضية صلاة العيد الشهيرة ورفض أن يتوجه الناس إليه ويلتفون حوله؟

٨. ولماذا عندما انطلق المأمون من مرو إلى بغداد لم يسمح ببقاء الإمام في مرو؟ ولو كان الإمام ولياً للعهد حقاً فما المانع في أن يكون في مرو وأن يحكم هذه المقاطعة من العالم الإسلامي؟

هذه أسئلة قد تبدو سهلة وبسيطة في البداية غير انّ الدقة فيها تكشف بوضوح انّ المأمون لم يكن صادقاً ومخلصاً في مبادرته هذه، بل هناك أسباب أُخرى دفعته إلى ذلك.[1]

مبررات قبول الإمام لولاية العهد

قبل الإمام ولاية العهد لما عرف انّ الرفض سوف لن يفقده نفسه مجاناً

---

١. زندگانى پيشواى هشتم امام علي بن موسى الرضا: ١٣٨ ـ ١٤١.

فحسب، بل سوف يعرض العلويين وشيعته إلى الخطـر، فكان عليه أن يحافظ على حياتـه وحياة شيعته ومحبّيه، لأنّ الأُمّـة الإسلامية كانـت بحاجة ماسّـة إلى وعيهم وتوعيتهم ليصبحـوا لها قدوة ومناراً تهتدي بـه في حلّ المشاكل وتـراكم الشبهات. نعم كانت الأُمّة في أمسّ حاجة إلى الإمام وإلى من ربّاهم حيث قد غزاها في تلك الفترة تيار فكري وثقافي على شكل فلسفات وشبهات حول مبادئ الإلهيات تخلف الكفر والإلحاد، لـذلك كـان على الإمام أن يصمـد ويقوم بـواجبه في إنقـاذ الأُمّة، ونحن رأينا كيف قام بواجبه رغم قصر الفترة التي عاشها بعد البيعة.

ولو كان الإمـام رفض ولاية العهد لعـرّض حياته وحياة شيعتـه للخطر، ولا يعلم أن يكون لتضحيته أثر في حلّ عقدة الأُمّة كأثر استشهاد سيد الشهداء عليه السلام الذي أحيا الأُمّة وحلّ مشكلتها.

ومضافاً إلى ذلـك انّ قبول الإمام ولاية العهد معنـاه اعتراف من العباسيين بأنّ للعلويين حقّ في هذه الخلافة.

هذا ومـن أسباب قبول ولايـة العهد من قبـل الإمام هو أن يـرى الناس انّ أهل البيـت حاضرون في السـاحة السياسيـة ولكي لا ينسـاهم النـاس وحتى لا يصدق النـاس ما يشـاع عنهم من أنّهم علماء فقهـاء فقط لا يعملـون لما فيه خير الأُمّة، ولعلّ ما أجاب به سؤال ابن عرفة يرمي إلى ذلك فقد سأل الإمام و قال له: يا ابن رسـول الله ما حملك على الدخـول في ولاية العهد؟ فأجـابه عليه السلام : «ما حمل جدي على الدخول في الشورى».[1]

وفضلاً عن كلّ ذلك يكون الإمام في مدة ولاية العهد قد كشف عن حقيقة المأمون أمـام الناس وعرّفهـم بواقع وأهـداف كلّ ما قـام به وأزال كلّ شبهـة من أذهان الناس.

---

(1) مناقب آل أبي طالب: ٤/ ٣٦٤؛ عيون أخبار الرضا: ٢/ ١٤١؛ بحار الأنوار: ٤٩/ ١٤٠.

هل الإمام كان راغباً في هذا الأمر؟

وكلّ ما قلناه لا يعني انّ الإمام كان راغباً باطناً بولايةالعهد، وقد كان يعلم ـ كما أظهرت الأحداث بعد ذلك ـ انّه لـن يسلم من دسائس المأمون وأشياعه ولن ينجو بحياته فضلاً عن مركزه، وكان متيقناً من أنّ المأمون سوف يقوم وبكلّ وسيلة بالقضاء عليه جسدياً أو معنوياً للتخلّص منه.

حتى لو انّ المأمون لم يبيّـت له أيّة نيّة سوء، فإنّ أمله بـالبقاء على قيد الحياة إلى ما بعد وفاة المأمون وهو بهذه السن ضعيف جداً. إذن ألا يبرر كلّ ذلك مبادرة الإمام لقبول ولاية العهـد؟! وفضلاً عن كلّ ذلك لو كان الإمام يـأمل بالبقاء على قيد الحياة إلى ما بعد وفاة المأمون لكان يصطدم بتلك العناصر القوية النافذة التي لم ولن ترضى عن سلوكه في الحكم.

وكذلـك كان سيصطدم بمؤامـرات العباسيين وأشياعهم في حكمـه، وهو الذي يريد أن يحكـم بحكم جديه رسول الله وعلي و يسير بسيرتهما ممّا قـد يخلق له مشاكل هائلة.

فالسلبية هي الموقف الصحيح

وبملاحظة ما تقدّم نفهم انّه من الطبيعي أن لا يفكّر الإمام في الوصول إلى الحكم عن مثـل هذاالطريق المحفوف بـالأخطار الذي ليس فقـط لا يحقّق له أي هدف من أهدافه، بل على العكس سوف يكون سبباً للقضاء عليه وعلى العلويين وآمالهم وأهدافهم. ولسوف يكون إقدامه على هذا النوع من العمل عملاً انتحارياً غير منطقي.

مواقف الإمام السلبية ازاء مؤامرة المأمون

هذا وبملاحظة انّه لم يكن للإمام الرضا خيار في قبول ولاية العهد ولم يكن بمقدوره أن يجعلها وسيلة لتحقيق أهدافه المقدسة وأن يسكت ويظهر بمظهر الموافق، فلابدّ إذن أن يضع خطة يستطيع من خلالها إحباط مخطّطات المأمون.[١] وقد اتخذ الإمام الرضا عليه السلام مواقف مختلفة لإحباط مخطّطات المأمون ومؤامراته لم يكن قد حسب لها حساباً، وهي:

الموقف الأوّل

إنّ الإمام رفض اقتراح المأمون وهو في المدينة وأصرّ على عدم القبول، ليقول للناس: إنّ المأمون لا يكف عنه، حتى أنّ بعض النصوص التاريخية تشير إلى أنّه قد حمل إلى مرو بالرغم عنه لا باختياره.

وما اتخاذ هذا الموقف المتصلّب إلاّ ليعلم الجميع بأنّه عليه السلام لا تنطلي عليه لعبة المأمون وحيلته، وانّه على علم تام بمخططاته وأهدافه الخفية، ومن خلال ذلك استطاع الإمام أن يثير شكوك الناس حول طبيعة هذا الحدث.

الموقف الثاني

إنّه رغم انّ المأمون كان قد طلب من الإمام وهو في المدينة أن يصطحب معه من أحب من أهل بيته في سفره إلى مرو، غير انّ الإمام لم يصطحب معه حتى ولده مع طول مدّة هذا السفر الذي سوف يتقلد فيه زعامة الأُمّة الإسلامية كما يقول المأمون.

١. الحياة السياسية للإمام الرضا عليه السلام: ٣٠٦ـ٣٠٨، السيد جعفر مرتضى الحسيني، بقليل من التصرّف.

الموقف الثالث

وفي محطة نيشابور قـرأ الإمام ـ وهو يظهر خلقه النبـوي الكريم للعشرات، بل للمئات من الناس الذين جاءوا لاستقباله هذه الرواية ـ:

قال الله تعالى: «**كلمة لاإله إلاّالله حصني، فمن دخـل حصني أمن من عذابي**» وقد كتب هـذا الحديث في تلك اللحظة مـا يقارب العشرين ألفاً مـن الحاضرين بمجرّد سماعه من لسان الإمام.

والملفت للنظـر انّه عليه السلام لم يحدّثهم وفي هـذا الظرف عـن المسائل الفـرعية المرتبطة بحياة النـاس كالصوم والصلاة ومثيـلاتها، كما أنّه لم يلق عليهم مـوعظة تزهـدهم في الدنيا، ومـع أنّه كان يتـوجه إلى مرو لأمر سيـاسي لم يحاول أن يستغل الموقف لأهـداف شخصية وسيـاسية، بـل كلّم النـاس باعتبـاره القائد الحقيقـي ليوجّههم إلى أهمّ مسألةترتبط بحياتهم الحاضرة والمستقبلية.

نعـم حدّثهـم الإمـام في ذلك الظـرف الحسّـاس عن التـوحيـد الذي هـو الأساس للحيـاة الفضلى والذي به تنجـو الأُمم مـن كلّ عناء وشقـاء، والذي إذا فقده الإنسان فانّه يفقد كلّ شيء في الحياة.

مضافاً إلى ذلك وبمـلاحظة الكلام الذي تكلّم به بعـد لحظات أراد الإمام أن يقول: إنّ المجتمع الإسلامي الكبير والناشـط في تلك الفترة بعيد كلّ البعد عن التوحيد.

علاقة مسألة الولاية بمسألة التوحيد

وبعد إنهاء حديث التوحيد سارت ناقة الإمام في الوقت الذي كانت أنظـ

الناس مشدودة إليه وهم غارقون في التفكير، أو كانوا يفكّرون بحديث التوحيد تقف الناقة فجأة ويخرج الإمام رأسه من العمارية، فيملي عليهم كلماته الخالدة الأُخرى وبصوت جهوري: «**بشروطها وأنا من شروطها**» ولقد أبلغهم الإمام مسألة أساسية أُخرى هي مسألةالولاية التي هي غصن متفرع عن شجرة التوحيد.

نعم هي مسألة بالغة الأهمية بالنسبة لأُمّة تريد أن تحيا الحياة الفضلى، إذ ما دامت مسألة القيادة الحكيمة والعادلة لم تحل فسوف لن تستقر أُمورها، وسوف يبقى الناس تحت نير حكم الظلمة والطواغيت الذين يجعلون لأنفسهم صلاحيات التشريع الخاصة بالله، وبالحكم بغير ما حكم الله يجعلون العالم يعاني الشقاء والبلاء ويعيش في الحيرة والضياع.

وإذا ما أدركنا بعمق مدى ارتباط مسألة الولاية بمسألة التوحيد، فلسوف نعرف أنّ قول الإمام:«**وأنا من شروطها**» لم تمله عليه مصلحته الخاصة الشخصية، بل أراد أن يوضح أمراً هاماً ورئيسياً، ولهذا ذكر سلسلة سند الرواية وأراد أن يقول: إنّ هذه الرواية هو كلام الله الذي سمعه من أبيه وجدّه وأجداده حتى رسول الله، وهذا أمر غير مألوف من الأئمّة عليهم السلام إلاّ في حالات نادرة كهذه التي أراد الإمام فيها أن يربط مسألة القيادة با لمبدأ الأعلى وأن يعرفهم بشجرة الأئمّة المعصومين وتاريخهم، واستغل الإمام الفرصة في نيشابور بشكل جيد لتبيين هذه الحقيقة أمام مئات الآلاف من الناس ليقول لهم: إنّه هو بنفسه حارس حصن التوحيد وحاميها، وبذلك يكون ضيّع أكبر هدف كان يرمى إليه المأمون من إحضار الإمام إلى مرو وهو الحصول على اعتراف بشرعية خلافته وخلافةالعباسيين.

الموقف الرابع

مـرّت عدّة شهـور على الإمـام في مرو وهـو يتحدّث عـن مـواقف المأمـون السلبية؛ ورفـض كلا عرضي المأمون: عـرض الخلافة، وولاية العهد؛ حتـى هدّده المأمون أكثر من مـرة بالقتل، و بهذه المواقف يكون الإمام قد مهّد الطـريق ليواجه المأمون بالحقيقة حيث صارحه: انّه يـريد أن يخبر الناس انّ علي بن موسى لم يزهد في الدنيا و إنّما الدنيا هي التي زهدت فيـه، وبذلك يكون قد اتّهم المأمون انّ لعبته لم تنطلي عليـه، ولذلـك يجب عليـه أن يكف عـن كـلّ مؤامـراتـه ومخططاتـه في المستقبل، وبـالتالي أقلق المأمـون بذلك وجعلـه غير مطمئن لأي عمل يقـوم به ، مضافاً إلى أنّه ألقى الشك في قلوب الناس حول المأمون وأعماله وأفعاله.

الموقف الخامس

ولم يكتف الإمام بـذلك كلّه، بل كـان لا يدع فرصة تمر دون أن يـؤكد فيها على أنّ المأمون قد أكرهه على هذا الأمر وهدّده بالقتل إن لم يقبل به، مضافاً لذلك انّه كان يخبر الناس أحياناً انّ المأمون سوف ينكث العهد ويغدر به، حتى لقد كان يصرح بأنّه لا يقتلـه إلاّ المأمون ولا يسمّه غيره، وقد واجه نفـس المأمون بهذا الأمر، ولم يكتف عليه السلام بمجرّد القـول فقد كانـت حالتـه بشكل عام في فترة ولايـة العهد تشير إلى عدم رضاه بهذا الأمر وانّه مجبر عليه.

وواضـح انّ كلّ ذلـك سوف يـؤدّي إلى عكـس النتيجة التـي كان المأمـون يتوقعها من البيعة.

الموقف السادس

كان الإمام عليه السلام لا يدع فرصة إلاّ ويؤكد فيها على أنّ المأمون لم يمنحه إلاّ ما

هو حقّ له، وانّه لم يزد بذلك على أن أرجع الحق إلى أهله بعد أن كانوا قد اغتصبوه منهم، مضافاً لذلك هو إثبات انّ خلافة المأمون ليست صحيحة ولا شرعية.

الموقف السابع

ولقد شرط الإمام على المأمون شروطاً لقبول ولاية العهد وهي:

أن لا يولّي أحداً، ولا يعزل أحداً، ولا ينقض رسماً، ولا يغيّر شيئاً ممّا هو قائم، ويكون في الأمر مشيراً من بعيد.

فأجابه المأمون لذلك وقبل كلّ تلك الشروط، وبذلك يكون الإمام قد ضيّع بعضاً من الأهداف على المأمون، لأنّ اتخاذ هذا الموقف لدليل ساطع على:

الف: عدم الاعتراف بشرعية نظام حكمه.

ب: انّ النظام القائم لا يمثل وجهة نظره في الحكم.

ج: انّ المأمون وعلى عكس ما كان يخطط له أصبح غير قادر على أن يتصرف تصرفاً باسم الإمام بعد قبوله لتلك الشروط.

د: انّ الإمام لم يكن على استعداد أن يلبي طلبات المأمون.[1]

الظروف الثقافية الخاصة للمجتمع الإسلامي في عصر العباسيّين

وعلى الرغم من أنّ الإسلام لم يخرج في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن دائرة الحجاز، غير انّه ولتمتعه بأساس رصين أخذ يتسع وينمو بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم بسرعة، كما أنّه وفي مدة قصيرة أخذ يحتوي جميع العالم المتحضر آنذاك، وصهر في بوتقته ما تبقى من

١. الحياة السياسية للإمام الرضا عليه السلام: ٣٤٧ـ٣٤٨.

الحضارات الخمس العظيمة: الروم، إيران، مصر، اليمن، والحضارة الكلدانية والآشورية، التي كانت في الشمال والشرق والغرب وفي جنوب الحجاز، حتى يذوب وينصهر ما هو من الخرافات والظلم والانحراف والفساد والاستبداد ويبقى الإيجابي المفيد تحت مظلة الحضارة الإسلامية العظيمة بصبغة إلهية وتوحيدية، بل ويتسع وينمو كذلك.

وقد اقتضت طبيعة حب العلم والمعرفة في الإسلام أن ينتقل ما احتوته تلك الحضارات من تقدّم في المجال العلمي والفكري إلى المجتمع الإسلامي، ويترجم كتب اليونان والروم ومصر والهند وفارس إلى اللغة العربية التي كانت لغة القرآن.

فأخذ علماء الإسلام الذين استنار فكرهم بمشعل القرآن يدرسون علوم الآخرين وينقدونها فأبدعوا إبداعات جديدة وكثيرة وأضافوها إليها، كما أنّهم منحوا الثقافة والحضارة السابقة صورة جديدة بطابع إسلامي.

فقد بدأت ترجمة الأعمال العلمية للآخرين منذ عهد الأمويين الذين كانوا بعيدين عن العلم والإسلام وبلغت في عصر العباسيين لا سيما في عهد الرشيد والمأمون ذروتها كما اتسعت دائرة العالم الإسلامي إلى أقصى حدودها في العصر الحاضر على طول التاريخ، ومن المؤكد انّ هذه الحركة العلمية لم تكن أمراً قد أسّسه العباسيون أو الأمويون، بل كانت حصيلة تعاليم الإسلام في العلم والمعرفة مباشرة.

الإسلام الذي لم يحدد وطناً معيناً للعلم والمعرفة وحثّ المسلمين على طلبه أينما كان حتى لو كان بأقصى نقطة في العالم أي الصين حينذاك، ومهما بلغ الأمر من العناء والمشقة بقوله: اطلبوا العلم ولو بالصين، واطلبوا العلم ولو بسفك المهج وخوض اللجج.

وقد ذكر في كتب التاريخ انّ المأمون قد رأى ذات ليلة أرسطو طاليس

الفيلسوف اليوناني الشهير في المنام وسأله عن بعض المسائل، و ما ان استيقظ من نومه أخذ يفكر بترجمة كتبه، فأرسل رسالة إلى ملك الروم يطلب منه أن يرسل إليه مجموعة من الكتب العلمية القديمة التي كانت في بلاد الروم، فقبل ملك الروم ذلك الطلب بعد كثير من تبادل الرسائل، وقد أرسل المأمون مجموعة من العلماء من أمثال الحجاج بن مطرد وابن البطريق وسلما مدير بيت الحكمة ـ المكتبة الكبيرة والشهيرة في بغداد ـ في تنفيذ هذه المهمة.

فراحوا يرسلون ما وجدوه في بلاد الروم ورغبوا فيه إلى المأمون، وهو يأمر بعد ذلك بترجمتها.[١]

وممّا لا شكّ فيه انّ أحلام السياسيّين المجرّبين من أمثال المأمون ليست بهذه البساطة، وينبغي أن يكون لها دافع سياسي، فإنّهم يرون في هذه الأحلام الأشياء التي تقوّي أُسس سلطان ظلمهم.

وعلى أية حال فانّ لعمل المأمون هذا عدة احتمالات من وجهة نظر التحليل السياسي، وهي:

١. انّ المأمون قد أقدم على هذا الأمر حتى يضع نفسه في عداد المسلمين الذين يناصرون العلم والمعرفة، ولكي يتميّز بهذه الخصلة المميّزة.

٢. انّه أراد من خلال ذلك أن يجعل الناس ينشغلون عن المشاكل الاجتماعية والاضطهاد السياسي وينسونها.

٣. استمالة فكر المفكّرين في المجتمع الإسلامي وعلمائه نحوه وبالتالي تقوية قواعد سلطانه.

٤. انّه أراد بذلك أن يخلق تياراً فكرياً ازاء مدرسة أهل البيت العلمية

---

١. الفهرست: ٣٥٣.

الذين اشتهروا بالعلم والمعرفة حتى يقلل من شأن أبناء تلك المدرسة ويطفئ نورها.

٥. انّه أراد أن يثبت انّ جهاز بني العباس الحاكم يتمتع بجدارة تولّي الحكم لبلاد كإيران والروم ومصر.

وطبعاً لا توجد هناك أيّة مغايرة بين تلك الاحتمالات، ويمكن أن يكون المأمون قد التفت إليها جميعها، ومهما كان السبب فانّه لا شكّ في أنّه بذل جهداً كبيراً في ترجمة الكتب اليونانية، وصرف أموالاً طائلة لدرجة انّه كان يدفع بزنة الكتب ذهباً، وبلغ اهتمامه بالترجمة حداً جعله يضع على كلّ كتاب يترجم باسمه علامة، ورغّب الناس في تلك الكتب، وحثّهم على قراءتها وتعلّمها، وكان يختلي بالحكماء ويبتهج بمعاشرتهم.[1]

وهكذا أصبح بثّ علوم الآخرين إلى جانب العلوم الإسلامية حاجة العصر وموظته حتى تبع المأمون في ذلك الأشراف ورجال الحكم الذين لهم حاسة قوية وحساسة في هذا النوع من الأُمور، فأكرم طلاب العلم والفلسفة والمنطق واعتزوا به، وبالتالي وفد الكثير من المترجمين من إيران والشام وغيرها إلى بغداد.[2]

وكتب جرجي زيدان المؤرّخ المسيحي المشهور حول ذلك: فلمّا أفضت الخلافة إلى الرشيد(حكم من سنة ١٧٠ـ١٩٣هـ) كانت الأفكار قد نضجت والأذهان قد زادت تنبهاً إلى علوم الأقدمين بما كان يتقاطر إلى بغداد من الأطباء والعلماء من السريان والفرس والهنود، وكانوا أهل تمدن وعلم كما رأيت، وكانوا يتعلّمون العربية ويعاشرون المسلمين ويباحثونهم في تلك العلوم، والمسلمون

---

١. تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان:٣/ ٢١٦.

٢. مجموعة مؤلفات المؤتمر العالمي الثاني للإمام الرضا عليه السلام ، مقالة آية الله مكارم الشيرازي:١/ ٤٢٨ ـ ٤٣٢ بتصرّف قليل.

يتهيّبون من ذلك لما سبق إلى أذهانهم من مخالفته للدين إلاّ الكتب الطبية، فكانوا يرغبون في نقلها أو مطالعتها، ولكن الأطباء أنفسهم كانوا يومئذٍ من غير المسلمين ويغلب أن يكـونوا من محبي الفلسفـة والمنطق، وكانـوا من الجهة الثانيـة يخدمون الخلفـاء بذكـر الفلسفة، وأصبحـوا إذا فتحوا بلـداً ووجـدوا فيه كتبـاً لا يأمـرون بإحراقها أو إعـدامها، بل يأمرون بحملها إلى عـاصـمتهم والاحتفاظ بها لنقلها إلى لسانهم كما اتّفق للـرشيد في أثناء حربه في انقـرة وعمورية وغيرها مـن بلاد الروم، فإنّه عثـر هناك على كتب كثيرة حملها إلى بغداد وأمـر يوحنا بن ماسـويه بترجمتها، ولكنّها ليست من الفلسفة بشيء وإنّما هي في الطب اليوناني.

أيّـام الرشيـد نقل كتـاب أُقليدس النقلـة الأُولى على يد الحجـاج بن مطـر وتسمى الهارونية تمييزاً لها عن النقلة المأمونية التي نقلها للمأمون.

وفي أيّامه نقـل المِجَسْطي إلى العربية، وأوّل مـن عنى بنقله يحيى بـن خالد البرمكي، ففسّره له جماعـة لم يتقنوه، فندب لتفسيره أباحسان وسلماً صـاحب بيت الحكمة، فأتقناه واجتهدا في تصحيحه.

المأمون والفلسفة والمنطق

فالكتب الفلسفيـة لم يقدم المسلمون على ترجمتها إلاّ في أيّـام المأمون لسبب متصل بـا لمأمون نفسه، وذلـك انّ المسلمين تعودّوا مـن أوّل الإسلام حريـة الفكر والقـول والمساواة فيما بينهـم، فكان إذا خطـر لأحـدهـم رأي في خليفـة أو أمير لا تمنعه هيبة الملـك من إبداء رأيه؛ وكان ذلـك شأنهم في الدين، فإذا فهـم أحدمن الآية أو الحديث غير مـا فهمه الآخر صرّح برأيـه وجادله فيه، فلـم ينقض عصر الصحابة حتى أخـذ المسلمون يفترقون في المذاهب، ولم يدخل القـرن الثاني حتى تعدّدت الفـرق وتفرعـت، وفي جملتها ـ المعتـزلة ـ طـوائف كثيرة أساس مـذهبهم تطبيق الأحكام العقليـة على النصوص الـدينية، ولـو طالعـت مذاهبهـم لرأيـت

بعضها يوافق أحـدث الآراء الانتقادية في الدين مع مـرور الأجيال على تمحيصها ولذلك فهم يسمّون أصحاب العدل والتوحيد.

المأمون والاعتزال

ظهر مـذهب الاعتزال في أواخـر القرن الأوّل للهجـرة وكثر أشياعـه بسرعة لارتياح العقـل إلى أدلّته، وقد تقـدم في كلامنا عـن الفقه انّ المنصور أخـذ يناصر الرأي والقياس، واستقـدم أبا حنيفة إلىٰ بغداد ونشطه لهذه الغايـة، وظل الميل إلى القياس متـواصلاً في بني العباس والاعتـزال أقرب المذاهب إلى أصحـاب الرأي، لأنّ عمدة المعتزلة في إثبات مذهبهم بـالبرهان العقلي، ولذلك كانوا إذا رأوا رجلاً مطّلعاً على منطق أرسطـو أو أقواله في الجدل ونحوه استعانوا بها يسمعـونه منه في تأييد مذهبهم، واحتاجوا إلى ذلك خصوصاً في أيّام المهدي لدفع أقوال الزنادقة كما تقدّم، فلعلهـم احتاجـوا إلى الاستعانـة بمنطق اليـونان وفلسفتهـم،أو شعروا باحتياجهم إليها على الأقل وأخذوا في انشاء علم الكلام.

وكـان البرامكةمـن أصحـاب الرأي أيضـاً وفيهـم ذكـاء وميل إلى العلـم، فاشتغلوا في تـرجمة الكتب القديمة قبل المأمـون، وكانوا يعقدون مجالـس المباحث والمجـادلة في منـازلهم، ولكن يظهـر انّ الرشيـد لم يكـن يوافقهـم على ذلك فلـم يتظاهروا به.

فلمّا أفضت الخلافة إلى المأمـون (١٩٨ـ ٢١٨هـ) تغيّـر وجه المسـألة ،لأنّه مع فطنته وسعة علمه، شديد الميل إلى القيـاس العقلي، وقد تعلم وتفقّه وطالع ما نقل إلى عهده من كتب القدماء فازداد رغبة في القياس والرجوع إلى أحكام العقل، فتمسّك بمذهب الاعتزال وقرب إليه أشياخـه، كأبي الهذيل العلاف وإبراهيم بن سيار النظام وجالس المتكلّمين فتمكن من مذهب الاعتزال.

فأخذ يناصر أشياعه وصرح بأقـوال لم يكونوا يستطيعون التصريح بها خوفاً مـن غضـب الفقهـاء في جملتهـا القول بخلـق القـرآن أي انّـه غير منـزل، وكـان المسلمون في أيّام الرشيد يخافون المأمون في ذلك، لأنّه ظهر فيه قبل تولّيه الخلافة، وكان الفضيل بن عيـاض يتمنّى طول عمر الرشيد لما تبيّنّ له مـن أمر المأمون من هذا القبيل.

فلمّا تظاهـر المأمون بـالاعتزال وقال بخلـق القرآن، قامـت قيامـة الفقهاء، وعظم ذلك على غير المعتزلة، وهم أكثر عدداً، ولم يعـد في وسعه الرجوع عن قوله، فعمل على تـأييده بـالبرهان، وجعل يعقـد المجالس للمنـاظرة في هـذا الموضوع، وتأييـداً لصحة الجدل أمر بنقل كتـب الفلسفة والمنطق مـن اليونانية إلى العـربية واطّلع هـو عليها، فقـويت حجته وازداد تمسّكـاً بالاعتـزال، ولمّا يئس مـن إقناع الناس بالبرهـان والقياس عمد إلى العنف باشر ذلك في العـام الأخير من حكمه وهو خارج بغداد، فكتـب إلى عامله فيها إسحاق بن إبـراهيم أن يمتحن القضاة والشهود وجميع أهل العلم بالقرآن فمن أقرّ أنّه مخلوق محدث خلا سبيله ومن أبىٰ فليعلمه به.

فالراجح عندنا انّ المأمون لسعة علمه وحرية فكره ورغبته في القياس العقلي لم يكن يـرى بأساً في نقل علـوم اليونان إلى العربيـة، وانّه بدأ بنقل كتـب الفلسفة والمنطق تأييداً لمذهـب الاعتزال، ثمّ جعل الترجمة عامة لكـلّ مؤلّفات أرسطو في الفلسفـة وغيرها، وقـد ابتـدأ بترجمة تلك الكتـب في أعـوام بضعة عشر ومـائتين، فتلقى المعتزلة تلك الفلسفة تلقي الظمآن لموارد الماء، وأقبلوا على تفحصها والتبحّر فيها، فاشتد ساعدهم بها فتولد من اشتغال المسلمين بالفلسفة علم الكلام، كما تولد من اشتغال النصارى بها الفلسفة الأفلاطونية الجديدة.[1]

١. تاريخ التمدن الإسلامي: ٣/ ٢١٦.

ترجمة الكتب العلمية الأجنبية

وكتب الدكتور إبراهيم حسن حول هذا الموضوع:

ولم يكن لترجمة الكتب إلى العربية حظ كبير في عهد بني أُميّة، وكان خالد ابن يزيد بن معاوية أوّل من عنى بنقل علوم الطب والكيمياء إلى العربية، فدعا جماعة من اليونانيين المقيمين في مصر وطلب إليهم أن ينقلوا له كثيراً من الكتب اليونانية والقبطية التي تناولت البحث في صناعة الكيمياء العملية، وعمل على الحصول على الذهب عن طريق الكيمياء. وذلك عرّبت الدواوين منذ عهد عبد الملك بن مروان بعد أن كانت بالفارسية واليونانية، ونقل ديوان مصر من اليونانية والقبطية إلى العربية في عهد الوليد بن عبد الملك.

فلمّا جاءت الدولة العباسية التي قامت بمساعدة الفرس ونشأ من ذلك اختلاط العنصرين العربي والفارسي اتجهت ميول الخلفاء العباسيين إلى معرفة علوم الفرس واليونان، فعنى أبو جعفر المنصور بترجمة الكتب، ونقل له حنين بن إسحاق بعض كتب سقراط وجالينوس في الطب، كما نقل ابن المقفّع كتاب كليلة ودمنة من الفهلوية وترجم كتاب أقليدس في الهندسة إلى العربية.

واشتهر في الترجمة من الفارسية إلى العربية غير ابن المقفع كثيرون، كآل نوبخت، والحسن بن سهل الذي استوزره المأمون، وأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري مؤلف فتوح البلدان، وعمرو بن الفرّخان .

وقد زادت العناية بترجمة الكتب في عهد هارون بعد أن وقع في حوزته بعض المدن الرومية الكبرىٰ، فأمر بترجمة ما عثر عليه المسلمون من كتب اليونان، كما نشطت حركة الترجمة بفضل تشجيع البرامكة للمترجمين وإدرار الأرزاق عليهم.

وفي عهد المأمون قويت حركة النقل والترجمة من اللغات الأجنبية وخاصة من اليونانية والفارسية إلى العربية، فأرسل البعوث إلى القسطنطينية لإحضار المصنّفات الفريدة في الفلسفة والهندسة والموسيقىٰ والطب.

وروى ابن النديم أنّ المأمون كان بينه و بين ملك الروم مراسلات، وقد استظهر عليه المأمون، فكتب إليه يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع، فأخرج المأمون لذلك جماعة، منهم: الحجاج ابن مطر وابن البطريق وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم، فأخذوا ممّا وجدوا ما اختاروا، فلمّا حملوه إليه أمر بنقله فنقل، ولم تكد تلك الذخائر النفيسة تصل إلى بغداد حتى عهد إليهم المأمون في ترجمتها وكان قسطا بن لوقا يشرف على الترجمة من الفارسية القديمة.

ولم تكن العناية بالترجمة مقصورة على المأمون، بل عنى جماعة من ذوي اليسار في عهده بنقل كثير من الكتب إلى العربية، ومن هؤلاء: محمد وأحمد والحسن أبناء موسى بن شاكر المنجم، الذين أنفقوا الأموال الضخمة في الحصول على كتب الرياضيات، وكانت لهم آثار قيمة في الهندسة والموسيقىٰ والنجوم، وقد أنفذوا حنين بن إسحاق إلى بلاد الروم فجاءهم بطرائف الكتب وفرائد المصنفات، وقد ظهرت في عهد المأمون طائفة من جهابذة الرياضيين من أمثال محمد بن موسى الخوارزمي الذي يعد أوّل من درس الجبر دراسة منظمة وجعله علماً منفصلاً عن الحساب.

وكان من أثر نشاط حركة النقل والترجمة في عهد المأمون العباسي أن اشتغل كثير من المسلمين بدراسة الكتب التي ترجمت إلى العربية وعملوا على تفسيرها والتعليق عليها وإصلاح أغلاطها، نخص بالذكر من هؤلاء يعقوب بن إسحاق الكندي الذي نبغ في الطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق والهندسة وعلم

النجوم، وقد حـذا في تأليفه حذو أرسطـو، وترجم كثيراً من كتـب الفلسفة وشرح غوامضها.

وقصارى القـول: إنّه كـان هناك أربعـة من مشـاهير المترجمين في الإسلام، هـم: حنين بن إسحـاق، ويعقوب الكنـدي، وثابـت بن قـرّة الحراني، وعمر بـن الفرخان الطبري. وانّ العباسيين ترجموا ما وصل إليـه اليونان والفرس وغيرهـم من العلـوم، كالفلسفـة والطب والنجـوم والريـاضيات والموسيقـى والمنطق والفلـك والجغرافية والتاريخ والحكم والآداب والسير.

وقد ذكر ابن النديم انّ بني المنجم كانوا يرزقون جماعة من النقلة منهم حنين بن إسحاق وحبيش الحسـن وثابت بن قرة وغيرهم في الشهـر نحو خمسمائة دينار للنقل والملازمة.

ولم يكن للمكتبات شأن كبير في العصر الأمـوي، ولما نشطت حركة الترجمة والتأليف في العصر العباسي وتقـدّمت صناعة الورق، وتبع ذلـك ظهور كثير من الورّاقين واتخاذ أمكنة فسيحة يجتمع فيها العلماء والأُدبـاء للتزود من العلم، كثرت المكتبات التي كانت تزخر بالكتب الدينية والعلمية والأدبية.

وصارت هذه المكتبـات فيما بعد أهم مراكـز الثقافة الإسلاميـة، وكان بيت الحكمة الذي يرجح انّ الرشيد هو الذي وضع أساسه وعمل المأمون من بعده على إمداده بمختلف الكتب والمصنّفات مـن أكبر خزائن الكتب في العصر العباسي، وقد ظلت هذه الخزانة قائمة حتى استولى المغول على بغداد سنة ٦٥٦هـ وكانت تحتـوي كلّ الكتـب في العلـوم التي اشتغـل بها العـرب، كما كان العلماء والأُدبـاء الذين يختلفون إليها.

ولم يقتصر تشجيع العلـم على الخلفاء بل تعـدّاهم إلى الوزراء وسـائر كبار رجال الدولة، فقد ذكر المسعودي انّ يحيى بن خالد البرمكي كان يميل إلى البحث

والمناظرة، وكان له مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل النحل.[١]

دور الإمام الرضا ازاء الموجة الفكرية الدخيلة

وبالرغم من وجود هذه الجهود العلمية، فانّ الذي كان مثاراً للقلق هو انّه كان يوجد من بين هؤلاء المترجمين أشخاص متطرفون ومتعصبون من الأديان الأُخرى مثل الزاردشتيين والصابئة والنساطرة والروم وبراهمة الهند، الذين كانوا يترجمون الكتب العلمية الأجنبية من اللغات اليونانية والفارسية و الهندية واللاتينية وغيرها إلى العربية.

ولا شكّ انّ جميع هؤلاء لم يكونوا يحملون نوايا حسنة في عملهم، وكان البعض منهم يحاول أن يتصيّد في الماء العكر ليحصل من سوق انتقال العلوم الأجنبية إلى المجتمع الإسلامي(ذلك السوق المزدهر) على فرصةمناسبة لبث عقائدهم المنحرفة المسمومة، ولهذا السبب وجدت العقائد الخرافية والأفكار المنحرفة اللا إسلامية طريقها ـ و هي بين دفتي هذه الكتب العلمية في الظاهر ـ إلى البيئة الإسلامية وأثّرت في أفكار جماعة من الشباب والبسطاء بشكل سريع.[٢]

---

١. تاريخ الإسلام السياسي، الدكتور إبراهيم حسن:٢/ ٢٩٦ـ ٢٩٩.

٢. وكتب الدكتور طه حسين المفكر المصري حول التأثير السيء الذي أحدثه تعرف المسلمين على الثقافات الأجنبية وخاصة الثقافة اليونانية:

ثمّ لم يلبثوا ان عرفوا ألواناً من الثقافات الأجنبية والثقافات اليونانية خاصة والفلسفة اليونانية على وجه أخص، فتأثروا بهذا كلّه واتّخذوه وسيلة إلى الدفاع عن دينهم كما فعل النصارى واليهود، ثمّ مضوا إلى أبعد من ذلك فآمنوا بالعقل وحكّموه في كلّ شيء وزعموا انّه وحده مصدر المعرفة، وقد غرهم إيمانهم بالعقل فدفعهم إلى شطط بعيد...وهذا هو الذي فتح عليهم أبواب هذا الاختلاف الذي لا ينقضي وجعلهم فرقاً نيفت على السبعين. مرآة الإسلام: ٣٤٠.

ومن المؤكّد انّه لم يكن هناك لجنة علمية مقتدرة كفوءة تتمتع بالتقوى وتشعر بالمسؤولية في البلاط العباسي في تلك الفترة كي تدرس وتنقد الأعمال والكتب العلمية الأجنبية بشكل دقيق وتغربلها بغربال الرؤية الإسلامية الأصيلة تعزل الفاسد منها وتقدم النقي المفيد إلى المجتمع الإسلامي، والمهم هنا هو انّ هذه الظروف الفكرية والثقافية الخاصة ألقت مسؤولية كبيرة على عاتق الإمام الرضا عليه السلام ، فشمّر ذلك الإمام الهمام الذي كان يعيش في ذلك العصر وعارفاً بخطورة الموقف عن ساعد الجد، وأحدث ثورة فكرية عميقة، ودافع عن أصالة العقيدة الإسلامية وثقافة المجتمع الإسلامي أمام هذه التيارات الفكرية الجارفة والخطيرة وبالتالي قاد هذه السفينة بقيادته الحكيمة وخلصها من السقوط في دوامة الانحراف الخطيرة، وتتضح أهمية هذا الأمر أكثر عندما نعلم بأنّ اتساع العالم الإسلامي قد بلغ ذروته لدرجة انّ بعض المؤرخين المشهورين صرحوا بأنّه لم يكن هناك وفي أي زمن من الأزمان دولة كبيرة بهذه الدرجة في العالم، ويعتقدون بأنّه لا يمكن مقارنتها إلاّ بمملكة الاسكندر الكبير.

وكانت في تلك الفترة جميع البلدان التالية تخضع للحكومة الإسلامية: إيران، أفغانستان، الهند، تركستان، القوقاز، تركية، العراق، سورية ، فلسطين، الجزيرة العربية، السودان، الجزائر، تونس،المغرب، اسبانيا(الأندلس) وهكذا كانت مساحة العالم الإسلامي في العصر العباسي ـ و بغض النظر عن الأندلس ـ تعادل مساحة القارة الأوربية أو أكثر.[١]

١ . ويقول غوستاف لوبون الفرنسي: والواقع هو انّ السلطة السياسية للعرب قد بلغت ذروتها في عهد هارون وابنه المأمون حيث كان الحد الشرقي لسلطانهم في آسيا هو حدود الصين، و في إفريقيا طرد العرب القبائل الوحشية حتى حدود الحبشة، والروم إلى مضيق البسفور وكذلك وصلوا حتى ضفاف المحيط الاطلسي.

تاريخ حضارة الإسلام والعرب، غوستاف لوبون، ص ٢١١

وكان من الطبيعي ان تخترق ثقافات هذه البلدان السابقة المركز الإسلامي وتؤثر عليه، ويكون لهذا النفوذ الأثر في امتزاجها بالفكر والثقافة الإسلاميين الأصيلين بينما كانت تتمتع بالغث والسمين والصحيح والفاسد في آن واحد.

دافع المأمون الرئيسي من وراء إقامة مجالس المناظرة

وبعد ان فرض المأمون ولاية العهد على الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام راح يقيم مجالس كبيرة للمناظرة وندوات علمية، وكان يدعو إليها كبار العلماء في ذلك العصر من مختلف الأديان. ومما لا شكّ فيه انّ الغلاف الظاهري لهذه الدعوة هو إثبات وتبيين منزلة الإمام الراقية ولكن ما الذي يكمن وراءها من حقيقة؟ فهذا ما بحثه الباحثون:

١. فيقول جماعة وهم ينظرون إلى هذا الموضوع بنظرة متشائمة ـ و لهم الحقّ في ذلك، لأنّ القاعدة الأوّلية في تحليل رؤى الطغاة السياسية هو التشاؤم ـ لم يكن للمأمون هدف من وراء ذلك غير الحط من شأن الإمام في عيون الناس لا سيما الإيرانيين الذين يميلون إلى أهل بيت العصمة بشدة، ظناً منه انّ الإمام لا يتمتع بدراية عن المعرفة وطرق الاستدلال سوى إلمام بسيط بالقرآن والحديث، وقد استدلّ هؤلاء لإثبات نظريتهم بنفس كلام المأمون الوارد في كتب التاريخ كما جاء في رواية النوفلي أحد أصحاب الإمام المقرّبين حيث نقرأ:

قدم سليمان المروزي متكلّم خراسان على المأمون فأكرمه ووصله، ثمّ قال له: إنّ ابن عمي علي بن موسى قدم علي من الحجاز، و هو يحب الكلام وأصحابه، فلا عليك أن تصير إلينا يوم التروية ـ ٨ ذي الحجة ـ لمناظرته.[1]

١. ولعل انتخاب هذا اليوم لمشاركة العلماء بشكل أكبر.

فقال سليمان وقد كان مغروراً بعلمه ومعرفته: إنّي أكره أن أسأل مثله في مجلسك في جماعة من بني هاشم، فينتقص عند القوم إذا كلّمني ولا يجوز الاستقصاء عليه.

قال المأمون: إنّما وجهت إليك لمعرفتي بقوتك، وليس مرادي إلاّ أن تقطعه عن حجة واحدة فقط.

فقال سليمان :حسبك يا أمير المؤمنين أجمع بيني وبينه، وخلّني والذّم.[1]

تشكلت هذه المناظرة بقرار مسبق واحتج الإمام على سليمان فيها بحجج قوية، أفحمه، فلم يحر جواباً، وكشف الإمام عن عجزه.

والدليل الآخر هو حديث يروى عن نفس الإمام الرضا، فلما كان المأمون يعقد مجالس البحث والنظر ويجمع المخالفين لأهل البيت ويكلّمهم في إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وتفضيله على جميع الصحابة تقرّباً إلى أبي الحسن علي بن موسى الرضا كان الرضا عليه السلام يقول لأصحابه الذين يثق بهم: «لا تغترو بقوله، فما يقتلني والله غيره، ولكنّه لابدّ لي من الصبر حتى يبلغ الكتاب أجله».[2]

ومن المؤكد انّه من حقّ المأمون أن يدافع عن مذهب أمير المؤمنين بكلّ هذه الصراحة، لأنّ شعار العباسيين الأوّل هو شعار الرضا من آل محمد، هذا من جهة.

و من جهة أُخرى كان الإيرانيون يشكّلون العمود الفقري لحكمه وسلطانه، وهم يعشقون مدرسة أهل البيت عليهم السلام ، فلم يكن أمامه غير الحفاظ عليهم.

١. عيون أخبار الرضا:١/ ١٧٩؛ بحار الأنوار:٤٩/ ١٧٧.

٢. نفس المصدر:٢/ ١٨٥؛ البحار:٤٩/ ١٨٩.

وعلى أيّة حال يدلّ كلام الإمام السابق على أنّ المأمون لم يكن صادقاً في شأن عقد ندوات البحث و المناظرة كما يقول أبو الصلت خادم الإمام:

«...فلما لم يظهر منه ـ الرضا عليه السلام ـ في ذلك للناس إلاّ ما ازداد به فضلاً عندهم ومحلاً في نفوسهم، جلب عليه المتكلّمين من البلدان طمعاً من أن يقطعه واحد منهم، فيسقط محله عند العلماء، وبسببهم يشتهر نقصه عند العامة، فكان عليه السلام لا يكلمه خصم من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والبراهمة والملحدين و... إلاّ قطعه وألزمه الحجة...».[1]

والملفت للنظر انّ بلاط المأمون كان دائماً مكاناً لعقد هذه الندوات والمناظرات، ولكن بعد استشهاد الإمام لم يبق أثر للندوات العلمية والمناظرات الكلامية، وهذا أمر يستدعي الدقة والتأمل.

وكان الإمام ـ و هو على علم بقصد المأمون ـ يقول: «إذا سمع احتجاجي على أهل التوراة بتوراتهم، وعلى أهل الانجيل بإنجيلهم، وعلى أهل الزبور بزبورهم، وعلى الصابئين بعبرانيتهم، وعلى أهل الهرابذة بفارسيتهم، وعلى أهل الروم بروميّتهم، وعلى أصحاب المقالات بلغاتهم، فإذا قطعت كلّ صنف ودحضت حجته وترك مقالته ورجع إلى قولي، علم المأمون أنّ الموضع الذي هو بسبيله ليس بمستحق له فعند ذلك تكون الندامة منه...».[2]

وهكذا تستحكم نظرية المتشائمين في هذا المجال بشكل تام:

٢. لو أعرضنا عن هذا الدافع الذي يقول به أصحاب النظرية الأُولى، فهناك دافع آخر يسترعي الانتباه، وهو أنّ المأمون أراد أن يحصر شخصية الإمام

١. عيون أخبار الرضا:٢/ ٢٣٩؛ بحار الأنوار:٤٩/ ٢٩٠.

٢. بحارالأنوار:٤٩/ ١٧٥؛ مسند الإمام الرضا، الشيخ العطاردي، المؤتمر العالمي للإمام الرضا: ٢/ ٧٥.

الثامن في الإطار العلمي فقط وينحيـه عن القضايا السياسية بـالتدريج، وليقول للآخـرين: إنّ الإمام شخصيـة علمية وملاذ الأُمة الإسـلامية في القضايـا العلمية فقط، ولا صلة له بالأُمور السياسية، وبهذا يصبح شعار فصل الدين عن السياسة عملياً.

٣.والدافع الآخر الذي يخطر بالبال هو انّ السياسيين المحتالين والمحترفين لطالما يوجدون ما يشغل الشعـوب ويلهيهم في فترات مختلفة حتى يبعدون الناس والرأي العام عن قضايا المجتمع الرئيسية ومواطن الضعف في حكمهم من خلال ذلك، فقد كـان المأمون يرغب في أن يكـون عقد المناظرة بين الإمـام الرضا وعلماء عصره الكبار حديث الأوسـاط العلمية، ويتناقله شيعة أهل البيـت في أحاديثهم اليوميـة ويتحدّثون عـن انتصارات إمامهـم في هذه البحوث لكـي يمارس أعماله السياسية بهدوء وراحة بال، ويكون ذلك غطاءً لنقاط الضعف في حكومته.

٤. والدافـع الرابـع الذي يظهـر هنا هـو انّ المأمون الـذي لم يكن عـديم الفضل والمعـرفة قـد رغب في أن يقدم نفسـه للمجتمع الإسـلامي بصفـة الحاكم العالم، وان يصدق الجميع حبه للعلم والمعرفة سواء في البيئة الإيرانية أو الإسلامية عموماً، ويكون هذا امتيازاً لحكمه، فيلفت توجه الناس نحوه من خلال ذلك.

ومن حيث إنّ هذه الندوات والمناظرات كـان لها دوافع سياسية، والقضـايا السياسيـة لا تكون أُحاديـة السبب عادة فـلا مانـع من أن نقول: إنّ جميـع تلك الدوافع الأربعة كانت تقف وراء عمل المأمون في عقده لهذه الندوات.

وعلى أيّة حال كانت تعقد مناظرات وندوات بحث واسعة وبتلك الدوافع من قبل المأمـون ولكن كان ـ كما سنرى ـ يخرج منها خائباً وفـاشلاً دائماً و فضلاً عن بلوغ أهدافه نراه يحصل على نتائج عكسية.

والآن ونظراً لما مهّدناه نلقي الضوء على بعض هذه الندوات والمناظرات العلمية، وعلى الرغم من أنّ كتب التاريخ والحديث لا تذكر ـ و للأسف ـ هذه البحوث التي كانت تدور فيها بالتفصيل أحياناً وتعرضها بشكل مضغوط جداً، وليت تلك التفاصيل تكون بأيدينا اليوم حتى ندرك عمق كلام الإمام ونرتوي من عين علمه الصافية، طبعاً هذا القصور والتساهل في عمل نقلة الحديث والرواة ليس قليلاً ولم يبق لنا غير الأسف، بيد انّه ولحسن الحظ نقل قسم منها بالتفصيل وهو غيض من فيض.

مناظرات الإمام مع علماء الأديان والمذاهب

ومع أنّ مناظرات الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام كثيرة ولكن الأهم منها جميعاً هو سبع مناظرات نورد فهرسها بالصورة التالية:

وقد ذكر المرحوم العالم الكبير الشيخ الصدوق هذه المناظرات في كتاب عيون أخبار الرضا، ونقل عنه المجلسي أيضاً في المجلد٤٩ من بحاره وذكرت في كتاب مسند الإمام الرضا في المجلد الثاني وهي:

١. مناظرة الإمام مع الجاثليق.[١]

٢. مناظرته مع رأس الجالوت.[٢]

٣. مناظرته مع هربذ الأكبر.[٣]

---

١. الجاثليق لفظة يونانية تعني كبير الأساقفة، وهو لقب يطلق على كبار علماء النصارى وليس اسماً خاصاً، وربما هو معرب كلمة الكاثوليك.

٢. وهو لقب كبار علماء اليهود

٣. الهربذ أو الهيربد الأكبر اسم مختص بكبير الزرادشتيين، ويعني: الإمام الكبير الروحي والقاضي الزردشتي وخادم معبد النار.

٤. مناظرته مع عمران الصابي.[١]

وقد حدثت هذه المناظرات الأربع في مجلس واحد وبحضور المأمون وجماعة من العلماء ورجال خراسان.

٥. مناظرته مع سليمان المروزي[٢] في مجلس منفرد بحضور المأمون ورجاله.

٦. مناظرته مع علي بن محمد بن الجهم.[٣]

٧. مناظرته مع أصحاب الأديان المختلفة.

ولكلّ واحدة من هذه المناظرات مغزى رائع وعميق، وهي ما تزال إلى اليوم وبعد مرور ألف ومائتي عام عليها تقريباً نبراساً يهتدى بها، وتحتوي على تعاليم كبيرة وقيمة، سواء من ناحية المضمون أو من ناحية كيفية الاستدلال.

فإليك نموذجاً من مناظرته مع الجاثليق في ندوة كبيرة عقدها المأمون.

محاولات المأمون

و نقرأ في «عيون أخبار الرضا» لمّا قدِمَ علي بن موسى الرضا عليه السلام على المأمون، أمر الفضل بن سهل أن يجمع له أصحاب المقالات مثل الجاثليق ورأس

---

١. وكما يبدو من اسمه كان يدافع عن دين الصابئة، وهم فرقة تدّعي انّها على دين النبي يحيى غير انّهم انقسموا مذهبين: مشركين وموحدين، فمنهم: عبدوا الكواكب والنجوم ـ و هم ماعرفوا بعبّاد الكواكب ـ كان مركزهم مدينة حران في العراق ثمّ هاجروا إلى مدن أُخرى وخوزستان، و يحبذون العيش قرب الأنهار الكبيرة وفقاً لعقيدتهم، وبعضهم بعيش الآن في الأهواز ومناطق أُخرى.

٢. كان سليمان المروزي من أشهر علماء الكلام في خراسان في عصر المأمون وكان الأخير يكن له الكثير من التقدير الاحترام.

٣. كان علي بن محمد بن الجهم ناصبياً ومبغضاً لأهل البيت، وقد نقل المرحوم الصدوق رواية عنه تدلّ على أنّه يكن الحب للإمام الرضا وقد علّق عليها : هذا الحديث غريب عن طريق علي بن محمد بن الجهم مع نصبه وعداوته لأهل البيت ؛ عيون أخبار الرضا: ١/ ٢٠٤.

الجالوت ورؤساء الصابئين والهربذ الأكبر وأصحـاب زردهشت ونسطاس الروميّ والمتكلمين ليسمع كلامه وكلامهم، فجمعهم الفضل بن سهل، ثمّ أعلم المأمون باجتماعهم، فقال : أدخلهم عليّ ففعل.

فرحب بهم المأمون، ثمّ قـال لهم: إنّي إنّما جمعتكم لخير وأحببت أن تناظروا ابن عمـي هذا المدنيّ القادم علي، فإذا كـان بكرة فاغدوا عليّ، ولا يتخلّـف منكم أحد.

فقالوا: السّمع والطاعة يا أمير المؤمنين نحن مبكرون إن شاء الله.

قال الحسن بن محمد النوفليّ [١]: فبينا نحـن في حديث لنا عنـد أبي الحسن الرضا عليه السلام ، إذ دخـل ياسر الخادم فقـال لـه: يـا سيدي انّ أمير المؤمنين يقـرؤك السـلام ويقول: فـداك أخوك إنّـه اجتمـع إلي أصحاب المقـالات وأهل الأديـان والمتكلمون من جميع الملل، فرأيك في البكور إلينا إن أحببت كلامهم و إن كرهت ذلك فلا تتجشم، وأن أحببت أن نصير إليك خفّ ذلك علينا.

فقال أبـو حسن: «أبلغـه السلام وقل لـه: قد علمـت ما أردت وأنـا صائر إليك بكرة إن شاء الله».[٢]

قال الحسن بـن محمد النوفلي: فلمّا مضى يـاسر التفت الإمام إلينا، ثـمّ قال لي:«يا نوفلي أنت عراقي ورقة العـراقي غير غليظة، فما عندك جمع ابن عمك علينا أهل الشرك وأصحاب المقالات؟ ».

فقلت: جعلت فـداك يريد الامتحان ويحب أن يعرف ما عنـدك؟ ولقد بنى على أساس غير وثيق البنيان، وبئس والله ما بنى.

---

١. ومع أنّ علماء الـرجال لم يـوثّقوا الحسـن بن سهـل النوفلي غير انّهم قالـوا انّ له كتابـاً حسناً كثير الفائدة. جامع الرواة: الأردبيلي: ١/ ٢٢٦.

٢. عيون أخبار الرضا:١/ ١٥٥.

فقال لي:«وما بناؤه في هذا الباب؟ ».

قلت: إنّ أصحاب الكلام والبدعة خلاف العلماء، وذلك أنّ العالم لا ينكر غير المنكر، وأصحاب المقالات والمتكلّمون وأهل الشرك أصحاب إنكار مباهتة إن احتججت عليهم بأنّ الله واحد قالوا: صحّح وحدانيته ولئن قلت: إنّ محمّداً ﷺ رسول الله قالوا: أثبت رسالته، ثمّ يباهتون الرجل وهو يبطل عليهم بحجته ويخالطونه حتى يترك قوله: فاحذرهم جعلت فداك.

قال: فتبسّم ثمّ قال لي:« يا نوفلي أفتخاف أن يقطعوا علي حجتي؟!».

فقلت: لا والله ما خفت عليك قطّ، وأنيّ لأرجو أن يظفرك الله بهم إن شاء الله تعالى.

فقال لي: «يا نوفلي أتحب أن تعلم متى يندم المأمون؟».

قلت: نعم.

قال: «إذا سمع احتجاجي علىٰ أهل التوراة بتوارتهم وعلى أهل الإنجيل بإنجيلهم، وعلى أهل الزبور بزبورهم، وعلى الصابئين بعبرانيتهم، وعلى أصحاب الهبرابذة بفارسيتهم، وعلى أهل الروم بروميّتهم، وعلى أصحاب المقالات بلغاتهم، فإذا قطعت كلّ صنف ودحضت حجته وترك مقالته ورجع إلى قولي، علم المأمون أنّ الموضوع الذي هو بسبيله ليس بمستحق له: فعند ذلك تكون الندامة ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العليّ العظيم».

فلمّا أصحبنا أتانا الفضل بن سهل فقال له: جعلت فداك إنّ ابن عمّك ينتظرك وقد اجتمع القوم، فما رأيك في إتيانه.

فقال له: الرضا عليه السلام تقدّمني فأني صائر إلى ناحيتكم إن شاء الله.

ثمّ توضأ وضوء الصلاة، وشرب شربة سويق[1] وسقانا منه، ثمّ خرج وخرجنا معه حتى دخلنا على المأمون وإذا المجلس غاص بأهله ومحمد بن جعفر[2] وجماعة من الطالبيين والهاشميين والقواد حضور.

فلمّا دخل الرضا عليه السلام قام محمد بن جعفر وجميع بني هاشم فمازالوا وقوفاً والرضا عليه السلام جالس مع المأمون حتى أمرهم بالجلوس، فجلسوا، فلم يزل المأمون مقبلاً عليه بجدته ساعة.

ثم التفت إلى الجاثليق، فقال: يا جاثليق هذا ابن عمّي علي بن موسى بن جعفر وهو من ولد فاطمة بنت نبينا وابن علي بن أبي طالب (صلوات الله عليهم) فأحب أن تكلّمه أو تحاجّه وتنصفه.

فقال الجاثليق: يا أمير المؤمنين كيف أُحاج رجلاً يحتج عليّ بكتاب أنا منكره ونبي لا أومن به؟

فقال له الرضا عليه السلام: «يا نصراني، فان احتججت بإنجيلك أتقرّ به؟».

قال الجاثليق: وهل أقدر على رفع ما نطق به الإنجيل؟! نعم والله أقر به على رغم أنفي.

فقال له الرضا عليه السلام: «سل عمّا بدا لك واسمع الجواب».

فقال الجاثليق: ما تقول في نبوّة عيسى وكتابه هل تنكر منها شيئاً؟

قال الرضا عليه السلام: «أنا مقرّ بنبوة عيسى وكتابه و ما بشر به أُمّته وأقرّت به الحواريّون، وكافر بنبوة كلّ عيسى لم يقرّ بنبوة محمّد صلى الله عليه وآله بكتابه ولم يبشّر به أُمّته».

قال الجاثليق: أليس إنّما تقطع الأحكام بشاهدي عدلٍ؟

قال عليه السلام: «بلى».

قال: فأقم شاهدين من غير أهل ملتك على نبوّة محمّد ممّن لا تنكره

---

١. السويق من الأشربة يعدونه بالدقيق.

٢. ابن الإمام الصادق وعمّ الإمام الرضا عليهما السلام.

النصرانية، وسلنا مثل ذلك من غير أهل ملّتنا .

قال الرضا عليه السلام : «الآن جئت بالنصفة يا نصراني، ألا تقبل منّي العدل المقدّم عند المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام ؟».

قال الجاثليق: ومن هذا العدل؟ سمّه لي؟

قال: «ما تقول في يوحنّا الديلمي؟».

قال: بخّ بخّ ذكرت أحبّ الناس إلى المسيح.

قال: «فأقسمت عليك هل نطق الإنجيل: أنّ يوحنا قال: إنّما المسيح أخبرني بدين محمد العربيّ، وبشّرني به أنّه يكون من بعده، فبشّرت به الحواريين فآمنوا به؟».

قال الجاثليق: قد ذكر ذلك يوحنّا عن المسيح وبشّر بنبوّة رجل وبأهل بيته ووصيّه ولم يلخّص متى يكون ذلك؟ ولم يسمّ لنا القوم فنعرفهم؟

قال الرضا عليه السلام : «فإن جئناك بمن يقرأ الإنجيل فتلا عليك ذكر محمّدٍ وأهل بيته وأُمّته، أتؤمن به؟».

قال: قلت سديداً: قال الرضا عليه السلام لنسطاس الرومي: كيف حفظك للسّفر الثالث من الانجيل؟» قال: بلى لعمري.

قال: «فخذ علي السفر [الثالث]، فإن لم يكن فيه ذكر محمّد وأهل بيته [سلام الله عليهم] وأُمّته فاشهدوا لي، وإن لم يكن فيه ذكره فلا تشهدوا لي، ثمّ قرأ عليه السلام السّفر الثالث حتّى بلغ ذكر النبي صلى الله عليه وآله وقف وقال: يا نصراني إنّي أسألك بحقّ المسيح وأُمّه، أتعلم أنّي عالم بالإنجيل؟ قال: نعم، ثمّ تلا علينا ذكر محمّد وأهل بيته وأُمّته ثمّ قال: «ما تقول يا نصراني؟ هذا قول عيسى بن مريم عليهما السلام . فإن كذّبت بما ينطق به الإنجيل، فقد كذّبت موسى وعيسى عليهما السلام ، ومتى أنكرت هذا الذكر وجب عليك القتل، لأنّك تكون قد كفرت بربّك ونبيّك وبكتابك».

قال الجاثليق: لا أنكر ما قد بان لي في الإنجيل وإنّي لمقرّ به.

قال الرضا عليه السلام : «اشهدوا على إقراره» . ثمّ قال«يا جاثليق سل عمّا بدا لك».

قال الجاثليق: أخبرني عن حواري عيسى بن مريم عليه السلام كم كان عدتهم؟ وعلماء الإنجيل كم كانوا؟

قال الرضا عليه السلام : «على الخبير سقطت، أمّا الحواريون فكانوا اثني عشر رجلاً، وكان أعلمهم وأفضلهم لوقا؛ وأمّا علماء النصارى فكانوا ثلاثة رجال: يوحنّا الأكبر باخ، ويوحنّا بقرقيسيا، ويوحنّا الديلمي برجاز وعنده كان ذكر النبي صلى الله عليه وآله وذكر أهل بيته وأمّته، وهو الذي بشر أُمّة عيسى وبني إسرائيل به ـ ثمّ قال له : «يا نصراني والله إنّا لنؤمن بعيسى الّذي آمن بمحمّد صلى الله عليه وآله. وما ننقم على عيساكم شيئاً إلاّ ضعفه وقلّة صيامه وصلاته».

قال الجاثليق: أفسدت والله علمك وضعّفت أمرك، وما كنت ظننت إلاّ أنّك أعلم أهل الإسلام!

قال الرضا عليه السلام :«وكيف ذلك ؟».

قال الجاثليق:« من قولك: إنّ عيسى كان ضعيفاً قليل الصيام، قليل الصلاة، وما أفطر عيسى يوماً قطّ، ولا نام بليل قطّ وما زال صائم الدّهر، قائم الليل!

قال الرضا عليه السلام : «فلمن كان يصوم و يصلّي؟» قال فخرس الجاثليق.

قال الرضا عليه السلام : «يا نصراني أسألك عن مسألة».

قال: سل، فإن كان عندي علمها أجبتك.

قال الرضا عليه السلام : «ما أنكرت أنّ عيسى عليه السلام كان يحيي الموتى بإذن الله عزّوجلّ».

قال الجاثليق: أنكرت ذلك من أجل أنّ من أحيا الموتى وأبرأ الأكمه

والأبرص فهو ربّ مستحقّ لأن يعبد.

قال الرضا عليه السلام: «فانّ اليسع قد صنع مثـل ما صنع عيسى عليه السلام مشى على الماء وأحيا الموتى وأبـرأ الأكمه والأبرص، فلم تتخـذه أُمّته ربّاً ولم يعبده أحـد من دون الله عزّ وجلّ، ولقد صنع حزقيل النبي عليه السلام مثل ما صنع عيسى بن مريم عليهما السلام فأحيـا خمسةوثلاثين ألـف رجل من بعـد موتهم بستين سنة، ثـمّ التفت عليه السلام إلى رأس الجالوت فقـال له: يـا رأس الجالوت أتجد هـؤلاء في شباب بنـي إسرائيل في التوراة؟!! اختـارهم بخـت نصر من سبـي بني إسرائيـل حين غزا بيـت المقدس ثمّ انصرف بهم إلى بـابل فـأرسله الله عزّ وجـلّ إليهم فأحيـاهم هـذا في التوراة لا يدفعه إلاّكافر منكم».

قال رأس الجالوت: قد سمعنا به وعرفناه.

قال: «صدقت»، ثمّ قال عليه السلام: «يا يهودي خذ علي هذا السفر من التوراة» فتلا عليه السلام علينا من التـوراة آياتٍ، فأقبل اليهـودي يترجّج لقراءته ويتعجّـب! ثمّ أقبـل على النصراني و كان قـد أشار إلى بعـض معجزات رسـول الله حول إحيـاء بعض الموتـى على يديه وعـلاج بعض المرضى المصـابين بأمراض مستعصيـة، ثمّ قال عليه السلام: «ولم نتخذه رباً من دون الله عزّوجلّ ولم ننكـر لأحد من هؤلاء فضلهم، فمتى اتّخذتم عيسى رباً جاز لكم أن تتخذوا اليسع وحزقيل رباًً؟! لأنّهما قد صنعا مثل مـا صنع عيسى بن مـريم عليه السلام من إحيـاء الموتى وغيره، وإنّ قـوماً مـن بني إسرائيل خرجوا مـن بلادهم من الطاعون وهم أُلـوف حذر الموت فأماتهم الله في ساعة واحدة، فعمد أهل تلك القريـة فحظروا عليهم حظيرة فلم يزالوا فيها حتى نخرت عظامهم وصاروا رمياً فمرّ بهم نبيّ من أنبياء بني إسرائيل، فتعجب منهم و من كثرة العظام البالية، فأوحى الله عزّوجلّ إليه : أتحب أن أحييهم لك فتنذرهم؟ قال: نعـم يا ربّ، فأوحى الله عـزّوجلّ إليه أن نادهـم، قال: أيّتها العظام البـالية

قومي بإذن الله عزّ وجلّ! فقاموا أحياءً أجمعون ينفضون التراب عن رؤوسهم؛ ثمّ إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام حين أخذ الطيور، فقطّعهن قطعاً ثمّ وضع على كلّ جبل منهن جزءاً ثمّ ناداهن فأقبلن سعياً إليه، ثمّ موسى بن عمران عليه السلام وأصحابه السبعون الذين اختارهم صاروا معه إلى الجبل، فقالوا له: إنّك قد رأيت الله سبحانه، فأرناه كما رأيته، فقال لهم: إنّي لم أره، فقالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة فاحترقوا عن آخرهم وبقي موسى وحيداً، فقال: يا رب اخترت سبعين رجلاً من بني إسرائيل فجئت بهم وأرجع وحدي، فكيف يصدّقني قومي بما أخبرهم به؟ فلو شئت أهلكتهم من قبل وإيّاي أفتهلكنا بما فعل السفهاء منّا؟ فأحياهم الله عزّ وجلّ من بعد موتهم؛ وكلّ شيء ذكرته لك من هذا لا تقدر على دفعه، لأنّ التوراة والإنجيل والفرقان قد نطقت به، فإن كان كلّ من أحيا الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص والمجانين يتخذ من دون الله فاتخذ هؤلاء كلّهم أرباباً ما تقول يا نصراني؟!

فقال الجاثليق: القول قولك ولا إله إلاّ الله.

ثمّ التفت إلى رأس الجالوت فقال: «يا يهودي أقبل علي أسألك بالعشر الآيات الّتي أُنزلت على موسى بن عمران عليه السلام هل تجد في التوراة مكتوباً نبأ محمد وأُمّته إذا جاءت الأُمة الأخيرة أتباع راكب البعير يسبحون الربّ جداً جداً تسبيحاً جديداً في الكنائس الجدد، فليفزع بنو إسرائيل إليهم وإلى ملكهم لتطمئنّ قلوبهم، فإنّ بأيديهم سيوفاً ينتقمون بها من الأُمم الكافرة في أقطار الأرض أهكذا هو في التوراة مكتوب؟!».

قال رأس الجالوت: نعم إنّا لنجده كذلك.

ثمّ قال للجاثليق: «يا نصراني كيف علمك بكتاب شعيا؟».

قال: أعرفه حرفاً، حرفاً.

قال لهما:« أتعـرفان هذا مـن كلامه:«يـا قوم إنّي رأيت صـورة راكب الحمار لابساً جلابيـب النور ورأيت راكب البعير ضـؤوه مثل ضوء القمر»؟، فقـالوا: قد قال ذلك شعيا.

قال الرضا عليه السلام : «يا نصراني هل تعرف في الإنجيـل قول عيسى عليه السلام : إنّي ذاهب إلى ربّكم وربّي والفارقليطا[1]جاء هو الذي يشهد لي بالحقّ كما شهدت له، وهو الذي يفسر لكم كلّ شيء، وهو الذي يبدي فضائح الأُمم، وهو الذي يكسر عمودالكفر».

فقال الجاثليق: ما ذكرت شيئاً من الإنجيل إلاّ ونحن مقرّون به.

فقال: «أتجد هذا في الإنجيل ثابتاً يا جاثليق؟».

قال: نعم.ثمّ سأل الإمام أسئلة أُخرى حول الإنجيل وانقراض أوّل إنجيل وكتابته على يد مُرْقُس، لوقا، يُوحِنّا ومَتّى الذين كتب كلّ منهم إنجيلاً ـ الأناجيل الموجودة بأيدينا اليوم ـ وأشار إلى بعض التناقضات في كلام الجاثليق.

فبهت الجاثليق ولم يحر جواباً بذلك عند ما سألة الإمام مرّة أُخرى وقال:«يا جاثليق سل عمّا بدالك» وكان يمتنع عن الجواب وقال: ليسألك غيري، فلا وحق المسيح ما ظننت انّ في علماء المسلمين مثلك.[2]

---

١. والمقصود من البارقليطا أو الفارقليطا الذي أخبر السيد المسيح عليه السلام بمجيئه هو النبي محمد صلى الله عليه وآله وقد جـاءت هذه البشارة في إنجيل يـوحنّا في الباب ١٤ و١٥و١٦، وقـد نقل القرآن الكريـم هذا المضمون في الآية ٦ من سورة الصف عن السيد المسيح عليه السلام.

وللاطّـلاع أكثر يراجع كتـاب «أحمد موعود إنجيـل» تأليف الأُستاذ جعفـر السبحاني، ص ٩٧ـ ١٣٣.

٢. عيون اخبار الرضا:٢/ ١٣٩ـ ١٥٠ مجموعه آثار دومين كنكره جهانى حضرت رضا عليه السلام :١/ ٤٣٢ـ ٤٥٢؛ مقاله آية الله ناصر مكارم شيرازي بتصرف.

الإمام محمد الجواد عليه السلام

* المولود الأعظم بركةً
* الإمام الصغير
* قاضي القضاة يندهش
* فضيحة وضّاعي الحديث
* شبكة الاتصالات النيابية
* مدرسة الإمام العلمية

نبذة مختصرة

من حياة الإمام عليه السلام

اسم الإمام التاسع هو محمد، وكنيته أبو جعفر، ولقبه: التقي والجواد، ولد في رمضان من سنة ١٩٥ هـ في المدينة [١]، أُمّه سبيكة من آل مارية القبطية زوج نبي الإسلام [٢] وكانت تتمتع بفضائل أخلاقية سامية، وكانت أفضل نساء عصرها [٣]، حتى قال الرضا عنها: «قدست أُمّ ولدته قد خلقت طاهرة مطهرة». [٤]

ولما مات أبوه الكريم كانت سنّه ثمانية أعوام تقريباً واستشهد وله خمس وعشرون سنة [٥]، ودفن في مقابر قريش ببغداد إلى جانب جدّه موسى بن جعفر عليهما السلام.

الخلفاء المعاصرون له

وعاصر الإمام التاسع في كلّ فترة إمامته خليفتين عباسيين، هما: المأمون

١. أُصول الكافي: ١/ ٤٩٢؛ الإرشاد: ٣١٦. وذكر بعض انّ ولادته كانت في شهر رجب من تلك السنة، إعلام الورى: ٣٤٤.

٢. أُصول الكافي: ١/ ٣١٥ و٤٩٢؛ المناقب، ابن شهر آشوب: ٤/ ٣٧٩.

٣. إثبات الوصية، المسعودي: ٢٠٩.

٤. بحار الأنوار: ٥٠/ ١٥.

٥. أُصول الكافي: ١/ ٤٩٢؛ الإرشاد: ٣١٦؛ إعلام الورى: ٣٤٤.

(١٩٣ـ٢١٨هـ) والمعتصم (٢١٨ـ٢٢٧هـ) وقد اجبراه كلاهما على القدوم إلى بغداد، ووضعاه (ووفقاً للطريقة السياسية التي اتخذها المأمون تجاه الإمام الرضا) في العاصمة تحت المراقبة.

المولود الأعظم بركة

وعادة ما كان يذكر الإمام الجواد في أُسرة الإمام الرضا والأوساط الشيعية بأنّه المولود الذي لم يولد أعظم منه بركة، كما يقول أبو يحيى الصنعاني كنت عند أبي الحسن الرضا فجيء بابنه أبي جعفر وهو صغير، فقال عليه السلام: «هذا المولود الذي لم يولد مولود أعظم على شيعتنا بركة منه».[١]

والظاهر انّ الإمام كان يذكر ابنه الكريم بهذه الصفة دائماً ولمناسبات مختلفة وكان هذا الأمر مشهوراً بين الشيعة وأصحاب الإمام الرضا، والشاهد على ذلك هو ما قاله اثنان من الشيعة هما: ابن أسباط وعبّاد بن إسماعيل: إنّا لعند الرضا عليه السلام بمنى إذ جيء بأبي جعفر عليه السلام، قلنا: هذا المولود المبارك؟

قال عليه السلام: «نعم هذا المولود الذي لم يولد في الإسلام أعظم بركة منه».[٢]

وقال أبو يحيى الصنعاني أيضاً: دخلت على أبي الحسن الرضا عليه السلام وهو بمكة وهو يقشر موزاً ويطعم أبا جعفر عليه السلام، فقلت له: جعلت فداك هو المولود المبارك؟

قال عليه السلام: «نعم يا يحيى هذا المولود الذي لم يولد في الإسلام مثله مولود أعظم بركة على شيعتنا منه».[٣]

١. الإرشاد: ٣١٩؛ إعلام الورى: ٣٤٧؛ روضة الواعظين: ٢٦١؛ أُصول الكافي: ١/ ٣٢١؛ كشف الغمة: ٣/ ١٤٣.

٢. بحار الأنوار: ٥٠/ ٢٠.

٣. فروع الكافي: ٦/ ٣٦١؛ الإمام الجواد من المهد إلى اللحد، السيد القزويني: ٣٣٧.

ولعلّه يتصوّر في البداية انّ المراد من هذا الحديث هو انّ الجواد عليه السلام كان أعظم بركة للشيعة من بقية الأئمّة السابقين بينما هذا التصوّر غير مقبول.

بل انّ دراسة الظروف وملاحظة الأدلّة والروايات تدلّ على أنّ المراد من هذا الحديث هو انّ ولادة الإمام الجواد قد حدثت في ظروف مباركة للشيعة، بمعنى انّ فترة إمامة الإمام الرضا فترة خاصة حيث واجه الإمام بعض المشاكل في تعيين الخليفة بعده، ولم تكن تلك المشاكل موجودة في عصر الأئمّة السابقين، حيث قد ظهرت بعد استشهاد الإمام الكاظم فرقة الواقفية وقد أنكرت هذه الفرقة إمامة الرضا بدوافع مادية من ناحية، ومن ناحية أُخرى بلغ عمر الإمام الرضا الأربع والأربعين سنة وهو لم ينجب، وكانت الروايات المنقولة عن النبي تقول بأنّ الأئمّة اثنا عشر من ولد الإمام الحسين، فأصبح عدم وجود الخليفة الابن للإمام وإمامته وامتدادها مثاراً للتشكيك، فراحت تتخذ الواقفية ذلك ذريعة لإنكار إمامة الإمام الرضا عليه السلام.

وممّا يدلّ على ذلك اعتراض حسين بن قياما الواسطي على الإمام الثامن في ذلك وجواب الإمام عنه.

فقد كتب ابن قياما وهو من رؤساء الواقفية[1] رسالة إلى الإمام الرضا يتّهمه فيها بالعقم: كيف تكون إماماً وليس لك ولد؟!

فكتب الإمام في جوابه: «وما علمك انّه لا يكون لي ولد، والله لا تمضي الأيام والليالي حتى يرزقني الله ولداً ذكراً يفرق بين الحقّ والباطل».[2]

ولم ينحصر أُسلوب ابن قياما الإعلامي هذا في هذه المرة، بل راح يكرّر

١. الإرشاد: ٣١٨؛ كشف الغمّة: ٣/ ١٤٢؛ قاموس الرجال: ٣/ ٣٧.

٢. أُصول الكافي: ١/ ٣٢٠؛ إعلام الورىٰ: ٣٤٦؛ الإرشاد: ٣١٨؛ كشف الغمة: ٣/ ١٤٢.

ذلك وبمناسبات مختلفة، وكان الإمـام يرد عليه ويدحض حججه دائماً[١] إلى أن قطعت ولادة الإمام الجواد دابر الفتنـة وقوي موقف الإمام وشيعته الـذين كانوا في موقف حرج وارتفع شأن التشيع من خلال ذلك.[٢]

وقد بلغت تشكيكات الواقفية وأعـداء أهل البيت درجة ـ و رغم انّ ولادة الإمام الجواد دحضت أدلّة الواقفية ـ جعلت بعض أقرباء الإمام الرضا يتمادون في جسـارتهم وجرأتهم لـدرجـة انّهم أنكروا كـون الإمـام الجواد ابناً لـلإمـام الرضـا كلّ ذلك حسداً وجهلاً؟! ولم يجدوا في تهمتهم الغادرة واللاإسلاميةالتي أرادوا من خلالها أن يعبّروا عمّـا يـدور في خلدهم من أفكار إلاّ التمسك بعـدم التشابه بين الأب والابن من ناحيـة البشرة تلك الذريعة الواهية التـي لا تخدع إلاّالبسطاء من الناس، وراحـوا يجعلون سمرة وجه الإمـام الجواد ذريعة لتشكيكهم ويقولـون: ما كان فينا إمام قط حائل اللون!!

فقال لهم الإمام الرضا : «هو ابني»

قالوا: فإنّ رسول الله قد قضى بالقافة[٣] فبيننا وبينك القافة.

---

١. كشـف الغمّة:٣/ ١٤٢؛ أُصـول الكـافي: ١/ ٣٢١؛ قامـوس الرجـال:٣/ ٣١٦؛ اختيـار معرفـة الرجال:٥٥٣، حديث برقم ١٠٤٥.

٢. الإمام الجواد من المهد إلى اللحد: ٣٣٧.

٣. تأييد واعتبـار علم القيافة من قبـل نبي الإسلام كان ادّعـاء يدّعونه هم فقـط، ولا يعني انّ الإمام الرضا عليه السلام كان يـؤيد ذلك، وليـس قبولـه لهذا الاقتراح إلاّ للضرورة، أو لأنّه كان يعلـم انّ ذلك سيؤدي إلى كشف الحقيقة و إثبات وهن ادعائهم في النهاية.

والقافـة هم الـذين يحكمـون بالنسـب بين الأشخاص مـن خلال الشبـه القائم بين الأشكـال والأعضاء، وكان للقافة مكانة راقية لدى العرب، وأفتى علماء الإمامية بحرمة تعليم وتعلم القيافة والكسب بها، واعتبرها بعضهـم محرمة مطلقاً، وآخر اعتبرها محرمة فيما إذا أوجبـت فعلاً محرماً، أو أدّت إلى الاعتقاد القطعي، وكلّ مـن له اطّلاع على الفقه الإسلامي فانّه يقطـع بعدم جواز العمل بها فضلاً عن إثبات الإرث والنكاح وغيرها من خلالها . نگاهى گذرا بر زندگانى امام جواد عليه السلام مقرّم، ص٣٥.

قال عليه السلام: «ابعثوا أنتم إليهم، فأمّا أنا فلا، ولا تعلموهم لما دعوتموهم ولتكونوا في بيوتكم».

فلمّا جاءوا أقعدونا في البستان واصطف عمومته وإخوته وأخواته، وأخذوا الرضا وألبسوه جبة صوف وقلنسوة منها ووضعوا على عاتقه مسحاة، وقالوا له: ادخل البستان كأنّك تعمل فيه، ثمّ جاءوا بأبي جعفر، فقالوا: ألحقوا هذا الغلام بأبيه فقال القافة: ليس له هاهنا أب ولكن هذا عمّ أبيه وهذا عمّ أبيه وهذا عمه وهذه عمّته وإن يكن له هاهنا أب فهو صاحب البستان فان قدميه وقدميه واحدة، فلما رجع أبو الحسن الرضا قالوا: هذا أبوه، وهنا قام علي بن جعفر عمّ الرضا و قبّل الإمام الجواد وقال: اشهد انّك إمامي عند الله.[1]

وهكذا تفشل دسائس ومؤمرات أعداء الإمام لإطفاء نور الله مرّة أُخرى ويفضحهم الله ثانية.

الإمام الصغير

إنّ الإمام الجواد كان أوّل إمام يبلغ الإمامة في طفولته، فمن الطبيعي أن يكون أوّل سؤال يخطر بالبال عند دراسة حياته هو انّه كيف يمكن لحدث أن يتحمل مسؤولية ومهمة إمامة وقيادة المسلمين الحسّاسة والكبيرة؟ فهل من الممكن أن يبلغ إنسان وهو بذلك العمر إلى هذا الكمال الذي يجعله خليفة

١. أُصول الكافي: ١/ ٣٢٢؛ نگاهى گذرا بر زندگانى امام جواد عليه السلام: ٣٦. ولذلك كان الإمام الرضا يشبّه نفسه برسول الله وابنه الجواد بإبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وآله، لأنّه قد اتّهمت مارية القبطية أُم إبراهيم من قبل بعض أزواج النبي حسداً مثل هذه التهمة، و قالوا: هذا الولد ابن جريح مولى رسول الله، ولكن بعد الفحص قد تبيّن انّ جريحاً ليس له ما للرجال، وهكذا فضحهن الله تعالى وبرئت مارية من هذه التهمة: المناقب، ابن شهر آشوب: ٤/ ٣٨٧؛ دلائل الإمامة محمد بن رستم الطبري: ٢٠١ـ٢٠٤.

رسول الله ؟

وهل حصل ذلك في الأُمم السابقة؟

يجب الالتفات في الإجابة على تلك الأسئلة إلى أنّه صحيح انّ مرحلة نضوج عقل الإنسان وجسمه تتعيّن في فترة زمنية معينة عادة بتوفرها ينضج الإنسان روحاً و جسماً، ولكن ما المانع في أن يجعل الله القادر الحكيم تلك المرحلة ـ مرحلة النضج ـ تحدث في بعض عباده قبل موعدها المقرر لمصلحة ما فتقصر المسافة.

كان وما يزال في المجتمع البشري أفراد شذّوا عن هذه القاعدة العادية وبلغوا منصب الإمامة وقيادة الأُمّة في سن الطفولة في ضوء عناية الباري تعالى الخاصة ورحمته.

ولتوضيح ذلك أكثر نشير هنا إلى بعض تلك الاستثناءات من تلك القاعدة:

١. قال القرآن المجيد حول النبي يحيى ورسالته وانّه بعث وهو صبي: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾[1] وقد فسّر بعض المفسّرين كلمة الحكم في الآية بالفهم والعقل، وقال بعض آخر :إنّ المراد منها هو النبوة.

والذي يؤيد النظرية الثانية روايات ذكرت في أُصول الكافي ومنها رواية تنقل عن الإمام الخامس يفسّر فيها كلمة الحكم بنبوة النبي يحيى في طفولته، ويستشهد بذلك ويقول: ثمّ مات زكريا فورثه ابنه يحيى الكتاب والحكمة وهو صبي صغير أما تسمع لقوله عزّوجلّ: ﴿يا يَحْيىٰ خُذِ الكِتابَ بِقُوّة وَآتَيْناهُ الحُكْمَ صَبِيّاً﴾[2].[3]

---

١. مريم: ١٢.
٢. مريم: ١٢.
٣. أُصول الكافي:١/ ٣٨٢(باب حالات الأئمّة في السن).

٢. وعلى الرغم من أنّ لبداية التكلّم لدى الطفل يحتاج عادة إلى فترة زمنية تقارب الاثني عشر شهراً غير أنّنا نعلم أنّ النبي عيسى عليه السلام تكلم منذ أيّامه الأُولى ودافع عن أُمّه ـ التي حملت بأمر الله وولدت طفلاً وسيء الظن بها واتّهمت ـ بصلابة، ودحض خزعبلات المكابرين بالحجج المنطقية، مع أنّ التكلّم بهذا المستوى وبهذا المضمون ليس إلاّ في وسع الكبار ويروي لنا القرآن ذلك بهذا النحو: ﴿قالَ إِنّي عَبْدُ اللهِ آتانيَ الكتابِ وَجَعَلنِي نَبِيّاً* وَجَعَلَنِي مُباركاً أَيْنَ ما كُنْتُ وَأَوصانِي بِالصَّلاةِ وَالزّكاةِ ما دُمْتُ حَيّاً * وبَراً بِوالدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبّاراً شَقِيّاً﴾.[1]

وممّا تقدم نستنتج بأنّه كان هناك رجال إلهيون آخرون تمتعوا بهذه النعمة الإلهية قبل الأئمّة وهذا ليس مختصاً بالأئمّة فقط.

كلام الأئمّة حول ذلك

ويتبيّن من خلال دراسة حياة الأئمّة انّهم كانوا يواجهون هذا الأمر أيضاً لا سيما في عهد الإمام الجواد، وكانوا يدحضون التشكيكات بنفس ذلك الاستدلال المذكور آنفاً، وهنا نسترعي انتباهكم لثلاث روايات في هذا المجال:

١. عن علي بن أسباط قال: قدمت المدينة وأنا أُريد مصر، فدخلت على أبي جعفر محمد بن علي الرضا عليه السلام، وهو إذا ذاك خماسي فجعلت اتأمّله لأصفه

---

١. مريم: ٣٠ ـ ٣٢. ويفهم من بعض الروايات انّ النبي عيسى عليه السلام كان وهو في تلك السن نبياً لا رسولاً وأصبح رسولاً في السابعة وعليه فليس بمستبعد أن يبلغ الأئمّة منزلة الإمامة في ذلك العمر أيضاً، أُصول الكافي: ١/ ٣٨٢.

لأصحابنا بمصر[١]، فنظر إليّ وقال: يا علي انّ الله أخذ في الإمامة كما أخذ في النبوة فقال سبحانه في يوسف: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّه آتَيْنَاهُ حُكماً وَعِلْماً﴾[٢] وقال عن يحيى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِيّاً﴾.[٣][٤]

٢. ويقول أحد أصحاب الرضا عليه السلام: كنت واقفاً بين يدي أبي الحسن الرضا بخراسان فقال له قائل: يا سيدي إن كان كون فإلى من؟ قال: «إلى أبي جعفر[٥] ابني» فكأنّ القائل استصغر سن أبي جعفر، فقال أبوالحسن عليه السلام: «إنّ الله تبارك وتعالى بعث عيسى بن مريم رسولاً نبيّاً صاحب شريعة مبتدأة في أصغر من السن الذي فيه أبو جعفر».[٦]

٣. وقال الإمام الرضا لأحد أصحابه ويدعى معمر بن خلاد:

«هذا أبو جعفر قد أجلسته مجلسي، وصيّرته مكاني، إنّا أهل بيت يتوارث أصاغرنا عن أكابرنا القذة بالقذة».[٧]

أزمة عقائدية

وعلى الرغم من كلّ ما قيل حول إمكانية الوصول إلى المناصب الإلهية الكبيرة في حداثة السن كانت مشكلة حداثة سن الإمام الجواد لا تزال غير محلولة

---

١. ويفهم من كلام ابن أسباط انّ للإمام شيعة في مصر ويرغبون في أن يتعرّفوا على صفاته البدنية.

٢. يوسف: ٢٢. ٣. مريم: ١٢ ٤. مرآة العقول: للمجلسي، ج٤، ص ٢٥٠.

٥. أبو جعفر هي كنية الإمام الجواد، ولتمييزه عن الإمام الباقر يقال أبو جعفر الثاني.

٦. أُصول الكافي: ١/ ٣٢٢ و٣٨٤؛ الإرشاد: ٣١٩؛ روضة الواعظين: ٢٦١؛ كشف الغمة: ٣/ ١٤١؛ إعلام الورى بأعلام الهدى: ٣٤٦.

٧. الإرشاد: ٣١٨؛ إعلام الورى: ٣٤٦؛ كشف الغمة: ٣/ ١٤١؛ بحار الأنوار: ٥٠/ ٢١؛ أُصول الكافي: ١/ ٣٢٠.

ليس لكثير من عوام الشيعة، بل أصبحت مثاراً للجدل لدى علماء الشيعة أيضاً، وبهذا السبب واجه الشيعة ـ لا سيّما العامة منهم ـ أزمة عقائدية حادة فريدة من نوعها بعد استشهاد الإمام الرضا وبداية إمامة ابنه الصغير الإمام الجواد الذي أصبحت حداثة سنّه معضلة كبيرة.

وكتب ابن رستم الطبري من علماء القرن الرابع الهجري: ولما بلغ سنّه ـ الإمام الجواد ـ ست سنوات وبضعة شهور قتل المأمون أباه، فحار الشيعة، ووقع الخلاف بين الناس، واستصغروا سن أبي جعفر واحتارت الشيعة في البلاد.[1]

ولذلك اجتمعت الشيعة وأجروا لقاءات مع الإمام الجواد وطرحوا عليه أسئلة لاختباره والتأكد من أنّه يتمتع بعلم الإمامة، فكانوا يطمأنّون ويهدأ بالهم عندما يتلقّون الإجابات الحاسمة والمقنعة.

وكتب المؤرّخون حول ذلك : فلمّا مضى الرضا عليه السلام في سنة اثنتين ومائتين كانت سن أبي جعفر نحو سبع سنين، واختلفت الكلمة من الناس ببغداد وفي الأمصار، واجتمع الريان بن الصلت و صفوان بن يحيى ومحمد بن حكيم وعبد الرحمان بن الحجاج ويونس بن عبد الرحمان وجماعة من وجوه الشيعة وثقاتهم في دار عبد الرحمان بن الحجاج في بركة زلزل[2] يبكون ويتوجعون من المصيبة فقال لهم يونس بن عبد الرحمان: دعوا البكاء، من لهذا الأمر؟ وإلى مَن يقصد بالمسائل إلى

---

١. دلائل الإمامة، الطبري: ٢٠٤.

٢. وذكرت في بعض المصادر بركة زلول غير انّ زلزل هو الصحيح، لأنّه قد كتب بعضهم: انّ هذه البركة قد حفرها زلزل مولى عيسى بن جعفر بن المنصور ووقفها على المسلمين لذا نسبت إليه. نگاهى گذرا بر زندگانى امام جواد عليه السلام: ١٠٩.

وكتب ياقوت الحموي: حضر إبراهيم الموصلي الضارب برصوما وزلزل من أطراف الكوفة إلى بغداد وعلّمهما الموسيقى والغناء العربي ومنه وجدا طريقهما إلى البلاد، واسم زلزل الحقيقي هو المنصور وكانت أُخته زوجة إبراهيم الموصلي. معجم البلدان: ١/ ٤٠٢.

أن يكبر هذا الصبي ـ يعني أبا جعفر ـ فقام إليه الريان بن الصلت فوضع يده في حلقه ولم يزل يلطمه ويقول: ...أنت تظهر الإيمان لنا وتبطن الشك والشرك، إن كان أمره من الله تعالى فلو انّه ابن يوم واحد كان بمنزلة ابن مائة سنة، وإن لم يكن من عند الله فلو عمره ألف سنة فهو كواحد من الناس هذا ما ينبغي أن يفكّر فيه. فأقبلت العصابة على يونس تعذله.[١]

وقرب موسم الحجّ واجتمع من فقهاء بغداد والأمصار وعلمائهم ثمانون رجلاً وقصدوا الحجّ والمدينة ليشاهدوا أبا جعفر، فلمّا وافوا أتوا دار أبي عبد الله جعفر بن محمد، فدخلوها واجلسوا على بساط كبير أحمر، وخرج إليهم عبد الله بن موسى عمّ الإمام الجواد فجلس في صدر المجلس، وقام مناد فنادى هذا ابن رسول الله فمن أراد السؤال فليسأله، فسئل عن أشياء أجاب عنها بغير الواجب.[٢]

فورد على الشيعة ما حيّرهم وغمّهم واضطرب الفقهاء للقيام والانصراف، وقالوا: لو كان أبو جعفر يكمل لجواب المسائل لما كان من عبدالله ما كان ومن الجواب بغير الواجب ـ أي الخطأ ـ.

ففتح عليهم باب من صدر المجلس، ودخل موفق وقال: هذا أبو جعفر،

---

١. يونس وصفوان بن يحيى من أصحاب الإجماع، أي انّ علماء الإمامية قد أجمعوا على صحّة رواياتهم، ويتمتع يونس بدرجة عالية ومكانة رفيعة لجلالة قدره وعلو شأنه، وقد مدحه أئمّتنا كثيراً وأكثر علماء الرجال في الثناء عليه، ومع كلّ ذلك فإذا كانت شخصية كبيرة مثله تتخذ هذا الموقف، فكيف يكون حال عامة الناس من الشيعة؟!! و من هنا لم يستطع بعض العلماء المعاصرين أن يصدق انّه يقول هذا الكلام وحمل كلامه: «دعوا البكاء» على اختبار الحاضرين في المجلس حتى يظهر الذين لهم قدم ثابتة في معرفة الحقّ لعلّه يستطيع أن يهدى من ضلّ عن إمامه. نگاهى بر زندگانى امام جواد عليه السلام: ١١٠.

٢. وقد ذكر المؤرخون تلك الأسئلة وأجوبتها ولكنّنا حذفناها للاختصار.

فقاموا إليه بأجمعهم واستقبلوه وسلّموا عليه، فدخل عليه السلام وجلس وأمسك الناس كلّهم ،فقام صاحب المسألة فسأله عن مسائله، فأجاب عنها بالحقّ، ففرحوا ودعوا له وأثنوا عليه، وقالوا له: إنّ عمّك عبد الله أفتى بكيت وكيت.

فقال: «...يا عمّ انّه عظيم عند الله أن نقف غداً بين يديه فيقول لك لِمَ تفتي عبادي بما لم تعلم وفي الأُمة من هو أعلم منك».[1]

وقال إسحاق بن إسماعيل الذي كان يرافق تلك الجماعة في هذه السنة: فأعددت له ـ للإمام الجواد ـ في رقعة عشر مسائل وكان لي حمل فقلت إن أجابني عن مسائلي سألته أن يدعو الله أن يجعله، ذكراً فلما سأله الناس قمت والرقعة معي لأسأله، فلما نظر إلي قال: «يا إسحاق سمه أحمد» فولد لي ذكر فسمّيته أحمد.[2]

تسبب هذا اللقاء والحوار واللقاءات المماثلة الأُخرى مع الإمام الجواد عليه السلام في اطمئنان الشيعة واعتقادهم وإيمانهم التام بإمامته، وانقشعت سحب الغموض والشك من سماء فكرهم وطلعت شمس الحقيقة.[3]

مناظرات الإمام الجواد عليه السلام

وكما تقدم كان للإمام الجواد ـ ولأنّه أوّل من تقلد الإمامة وهو صغير[4]، ـ

١. بحار الأنوار: ٥٠/ ٩٩ـ ١٠٠ (نقلاً عن عيون المعجزات) دلائل الإمامة: ٢٠٤ـ ٢٠٦؛ إثبات الوصية: ٢١٣ـ ٢١٥؛ خاندان وحى؛ القرشي: ٦٤٢ـ ٦٤٤؛ الحياة السياسية للإمام الجواد عليه السلام ، السيد مرتضى العاملي: ٢٥ـ ٢٧.

٢. إثبات الوصية، المسعودي: ٢١٥.

٣. بحار الأنوار: ٥٠/ ٩٠؛ إثبات الوصية: ٢١٠؛ الاختصاص: ١٠٢.

٤. وقد تقلّد ابنه علي الهادي عليه السلام الإمامة في هذه السن أيضاً بل وأصغر من ذلك وتقلّدها الإمام المهدي عليه السلام بعد وهو لما يبلغ الست سنوات.

عدّة مناظرات وحوارات كان لبعضها صدى كبير و إثارت جدلاً واسعاً، والسبب الرئيسي في حدوثها هو انّ إمامته لم تثبت لكثير مـن الشيعة بسبب حداثة سنّه من ناحية ـ مع أنّ علماء الشيعة وكبارهم لم يشكّوا بذلك مطلقاً من هنا كانوا يطرحون عليه الكثير من الأسئلة بهدف الاختبار و الاطمئنان.

ومن ناحية أُخرى كان نفوذ المعتزلة قد ازداد في تلك الآونة، وكانت مدرسة الاعتـزال قد ازدهـرت، وكـان الجهـاز الحاكم يـدعمهـا، وكـان يوظّـف سلطتـه و إمكاناتـه المادية والمعنوية الأُخرى لتقـوية وترويج اتجاههـم الفكري وتضعيف الاتجاهات الفكرية الأُخرى بكلّ وسيلة.

ونحن نعلـم أنّ الاتجاه المعتزلي كان يفرط كثيراً في تعويله على العقل البشري القاصر والمحدود، فقد كان المعتزلة يعـرضون الأحكام الدينية على عقلهم فيقبلون ما قبله عقلهم وينكرون الباقي، و إذ كان بلـوغ منصب الإمامة في حداثة السن لا يتناسب مع عقلهم المحـدود بالظاهر، كانوا يطرحون أسئلـة معقّدة وغامضة على الإمام الجواد ظنّاً منهم انّهم سيهزمونه في المنافسة العلمية.

غير انّ الإمام الجواد كان في هذه المناظرات العلمية يدحض كلّ شبهة تثار حول إمـامته بالحجـج الدامغـة والساطعة ويـرسخ أصل الإمـامة في ضـوء علم الإمامة.

ولهذا لم يسبّب هذا الأمر مشكلة في عهد الإمام الهادي عليه السلام الذي تولّى هو الآخر الإمامة وهو صغير أيضاً، إذ قد اتّضـح للجميع بأنّه لا تأثير لحداثة السن في الوصول إلى هذا المنصب الإلهي.

مناظرة مع يحيى بن الأكثم[١]

ولمّا قدم المأمون بغـداد من طوس بعث برسـالة إلى الإمام الجواد عليه السلام يدعوه بالقدوم إلى بغداد، وطبعاً كـانت هذه الدعوة دعوة ظاهرية كدعـوته الإمام الرضا عليه السلام إلى طوس، وفي الـواقع هي إحضار جبري، قبـل الإمام الدعوة، وبعـد عدّة أيام من دخوله بغداد دعاه المأمون إلى القصر واقترح عليه الزواج بابنته أُمّ الفضل، فسكت الإمام[٢]، واعتبر المأمون سكـوته عـلامة لـرضاه، وقـرّر أن يهيّأ مقـدّمات ذلك.

وقـد كان ينـوي أن يقيم احتفـالاً غير انّ انتشـار هذا الخبر بين العبـاسيين أحدث ضجة، فاجتمعـوا وقالوا للمأمون بلهجة مـزيجة بالغضب: ننشدك الله أن تقيم[٣] على هذا الأمـر الذي عـزمت عليه، فـانّا نخاف أن يخرج بـه عنّا أمـر قد ملّكناه الله عزّ وجلّ وينزع منّا عزّاً قد ألبسنـاه الله، وقد عرفت ما بيننا و بين هؤلاء القوم (العلويين) قديماً وحديثاً، وقد كنّا في وهلة من عملك مع الرضا ما عملت، فكفانا الله المهم من ذلك، فالله الله أن تردّنا إلى غمّ قد انحسر عنّا.

---

١. كان يحيى من علماء عصر المأمـون المشهوريـن الذي أصبحـت شهرتـه بالعلـوم والاطّلاع عليهـا حديث العامة والخاصة، وكان متضلعاً بالفقه كثيراً، ومع انّ المأمون كان يتمتع بعلمية عالية، لكنّه ولكثرة إعجابه بمستوى يحيى العلمي منحه مسؤولية ادارة الحكم مضافاً إليه منصب القضاء وتولّي ديوان المحاسبات والاهتمام بالفقراء، وعلى أيّة حال كانت جميع أعمال الدولة الإسلامية الكبيرة في تلك الفترة تحت إشرافه، وبلغ من المكانة في بلاط المأمون منزلة كأنّه لم يكن هناك أقرب إليه منه، غير انّه ولـلأسف ومع مـاله من منزلـة علمية كبيرة وقد عجـز عن مجاراته العلماء، لكنّـه لم يكن يتمتع بشخصية روحيـة معنوية، إذ انّه قد تعلـم للوصول إلى المنصب والشهـرة وللتفاخر والتكبّر على الآخرين.

٢. ستتحدث فيما بعد حول زواج الإمام الجواد عليه السلام.

٣. المراد أي: أن لا تقيم.

فقال المأمون: ما الذي ترمون إليه؟

فقالوا: إنّ هـذا الفتى ـ و إن راقك منه هديـه ـ فإنّه صبيٌ لا معـرفة له ولا فقه.

قـال المأمون: ويحكـم إنّي أعـرف بهذا الفتى منكـم، وانّ أهـل هذا البيـت علمهم من الله تعالى ومواده و إلهامه... فإن شئتم فامتحنوا أبا جعفر بما يتبيّن لكم به ما وصفت لكم من حاله.

فاختار بنو العباس يحيى بن أكثم من بين العلماء لشهرته العلمية لهذا الأمر، وأعدّ المأمون مجلساً لتقييم المستوى العلمي للإمام الجواد، وقد قال يحيى للمأمون: أيأذن أمير المؤمنين أن أسأل هذا الفتى.

فقال المأمون: استأذنه في ذلك. فاستأذنه، فقال الإمام: «سل إن شئت».

فقال يحيى: ما تقول...في محرم قتل صيداً؟[1]

فقال الإمام الجواد : «قتله في حلٍّ أو حرم، عالماً كان المحرم أو جاهلاً، قتله عمداً أو خطأً، حراً كان المحرم أو عبداً، صغيراً كان أو كبيراً، مبتدئاً بالقتل أو معيداً، من ذوات الطير كان الصيد أم من غيرها، من صغار الصيد أم من كبارها، مصّراً على مـا فعل أو نـادماً، في الليـل كان قتلـه للصيد أم في النهـار، محرماً كـان بالعمرة إذ قتله أو بـالحج كان محرماً؟» فتحيّر يحيى بن أكثم مـن كلّ هذه الفروع التي فـرعها الإمـام على هذه المسألـة، وبان في وجهـه العجز والانقطـاع، وتلجلج وتعتع في الكلام حتى عرف جماعة أهل المجلس أمره.

١. ان إحدى الأعمال المحظورة ارتكابها على المحرم في أيّـام الحجّ أو العمرة هي الصيد، وأحكام الحجّ تتميز عن سائر الأحكام الفقهية بتعقيد خاص، لهذا السبب فقـد اختارها يحيى بن أكثم وطرحها على الإمام كي يوقعه في مأزق علمي ـ حسب زعمه ـ.

فقال المأمون :الحمد لله على هذه النعمة والتوفيق لي في الرأي، ثمّ نظر إلى أهل بيته فقال: أعرفتم الآن ما كنتم تنكرونه؟![1]

حكم صيد المحرم وأقسامه

ولمّا انتهت تلك الندوة وتفرّق الناس وبقي من خاصة المأمون من بقي قال المأمون للإمام الجواد عليه السلام: إن رأيت جعلت فداك أن تذكر الفقه الذي فصّلته من وجوه من قتل المحرم لنعلمه ونستفيده.

فقال الإمام عليه السلام : نعم انّ المحرم إذا قتل صيداً في الحل وكان الصيد من ذوات الطير وكان من كبارها، فعليه شاة؛ فإن أصابه في الحرم، فعليه الجزاء مضاعفاً . وإذا قتل فرخاً في الحل فعليه حمل قد فطم من اللبن، وإذا قتله في الحرم فعليه الحمل وقيمة الفرخ .فإذا كان من الوحش وكان حمار وحش فعليه بقرة، وإن كان نعامة فعليه بدنة، وإن كان ظبياً فعليه شاة؛ وإن كان قتل شيئاً من ذلك في الحرم فعليه الجزاء مضاعفاً هدياً بالغ الكعبة. وإذا أصاب المحرم ما يجب عليه الهدي فيه وكان إحرامه بالحج نحره بمنى، وإن كان إحرامه بالعمرة نحره بمكة.

وجزاء الصيد على العالم والجاهل سواء، وفي العمد عليه المأثم، وهو موضوع عنه في الخطأ.

والكفّارة على الحر في نفسه، وعلى السيد في عبده، والصغير لا كفارة عليه،

---

١. بحار الأنوار:٥٠/ ٧٥ـ ٧٦؛ الإمام الجواد عليه السلام من المهد إلى اللحد، القزويني:١٦٨ـ ١٧٢. و راوي هذه الرواية هو الريان بن شبيب خال المعتصم وهو من أصحاب الإمام الرضا والإمام الجواد عليهما السلام و من الرواة الثقات ؛ القزويني، الإمام الجواد عليه السلام من المهد إلى اللحد: ١٦٨؛ الارشاد، ٣١٩ـ ٣٢١؛ الاحتجاج، ص ٢٤٥؛ إثبات الوصية، ص ٢١٦؛ الاختصاص، المفيد: ٩٩.

وهـي على الكبير واجبة، والنـادم يسقط نـدمه عنـه عقاب الآخـرة، والمصر يجب عليـه العقاب في الآخرة.[١]

قاضي القضاة يندهش

فقال المأمون: أحسنـت يا أبا جعفر، أحسن الله إليك، فـإن رأيت أن تسأل يحيى عن مسألة كما سألك؟

فقال أبو جعفر ليحيى: أسألك؟

قال يحيـى: ذلك إليك جعلت فـداك، فإن عرفـت جواب ما تسألنـي عنه وإلاّ استفدته منك.

فقال أبـو جعفر: أخبرني عن رجل نظـر إلى امرأة في أول النهار فكـان نظره إليها حرامـاً عليه، فلمّا ارتفع النهار حلّـت له، فلمّا زالت الشمس حـرمت عليه، فلمّا كان وقت العصر حلّت له، فلمّا غربت الشمس حرمت عليه، فلمّا دخل وقت العشاء الآخـرة حلّت له، فلمّا كـان وقت انتصاف الليـل حرمت عليـه، فلمّا طلع الفجر حلّت له، ما حال هذه المرأة؟ وبماذا حلّت له وحرمت عليه؟!

فقال له يحيى بن أكثم:

لا والله لا أهتدي إلى جواب هذا السؤال ولا أعرف الوجه فيه، فإن رأيت أن تفيدناه.

فقال أبو جعفر: هذه أمة لرجـل من الناس نظر إليها أجنبي في أوّل النهار فكان نظره إليها حراماً عليه، فلمّا ارتفع النهـار ابتاعها عن مولاها فحلّت له، فلمّا كان عند الظهـر اعتقها فحرمت عليـه، فلمّا كان وقت العصر تزوّجهـا فحلّت له،

---

١. بحـار الأنـوار: ٥٠/ ٧٧؛ الإمـام الجواد عليه السلام مـن المهـد إلى اللحـد: ١٧٤؛ الإرشـاد: ٣٢٢؛ الاحتجاج: ٢٤٦؛ إثبات الوصية: ٢١٧؛ الاختصاص: ١٠٠.

فلمّا كان وقت المغرب ظاهر منها فحرمت عليه، فلمّا كان وقت العشاء الآخرة كفّر عن الظهار[١] فحلّت له، فلمّا كان نصف الليل طلقها واحدة فحرمت عليه، فلمّا كان عند الفجر راجعها فحلّت له.[٢]

غيض من فيض علم الإمام

١. فتيا الإمام في القضاء وفشل فقهاء البلاط

وما عدا مناظرات الإمام الجواد التي عرضنا نموذجين منها فيما تقدم كان الإمام يكشف ــ و من طرق أُخرى وبمناسبات مختلفة ـ عن عدم جدارة فقهاء وقضاة البلاط وعدم أهليتهم، ويثبت أفضليته عليهم في ضوء ما كان يتمتع به من علم الإمامة، وبذلك يكون قد رسّخ أصل الإمامة في ذهنية الرأي العام.

ومثال ذلك الفتوى التي أصدرها الإمام حول قطع يد السارق، فهاك تفصيلها:

عن زرقان[٣] صاحب ابن أبي دُؤاد[٤] وصديقه بشدة قال: رجع ابن أبي دؤاد

---

١. الظهار هو أن يقول الرجل لزوجته: ظهرك عليّ كظهر أُمّي أو أُختي أو ابنتي، وحينئذٍ تجب عليه كفّارة الظهار حتى تحلّ عليه زوجته، وكان الظهار طلاقاً في الجاهلية، وبه تحرم الزوجة على زوجها إلى الأبد، غير انّ ذلك قد تغيّر في الإسلام، ولا يوجب على المظاهر غير الحرمة والكفّارة.

٢. بحار الأنوار: ٥٠/ ٧٨؛ الإمام الجواد عليه السلام من المهد إلى اللحد: ١٧٥؛ الإرشاد: ٣٢٢؛ الاحتجاج: ٢٤٧.

٣. زرقان كعثمان لقب أبي جعفر الزيات المحدث ووالد عمرو شيخ الأصمعي؛ البحار: ٥٠/ ٥ الهامش.

٤. ابن أبي دؤاد كغراب، كان قاضياً ببغداد في عهد المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل؛ البحار: ٥٠/ ٥، الهامش.

ذات يوم من عنـد المعتصم وهو مغتم، فقلت له في ذلـك، فقال: وددت اليوم انّي قد متّ منذ عشرين سنة، فقلت: ولِمَ ذاك؟ قال: لما كان من أبي جعفر الجواد اليوم يبن يدي الخليفة المعتصم، قلت له: وكيف كان ذلك؟

قـال: إنّ سارقـاً أقـرّ على نفسـه بالسرقـة، وسـأل الخليفـة تطهيره بإقـامـة الحدّ عليه، فجمع لـذلك الفقهاء في مجلسه، وقـد أحضر«محمد بن علي» (الجواد) فسألنا عن القطع في أي موضع يجب أن يقطع؟

فقلت: من الكرسوع قال: وما الحجة في ذلك؟

قلت: لأنّ اليـد هي الأصـابع والكف إلى الكـرسوع(المعصـم) لقول الله في التيمّم: ﴿فَٱمۡسَحُوا بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيَكُم﴾[1] واتّفق معي في ذلك قوم.

وقال آخرون: بل يجب القطع من المرفق.

قال الخليفة: وما الدليل على ذلك؟

قالوا: لأنّ الله لما قال: ﴿وأيديكم إلى المرافق﴾[2] في الغسل دلّ ذلك على أنّ حد اليد هو المرفق.

ثمّ التفت المعتصم إلى محمد بن علي ـ الإمام الجواد عليه السلام ـ فقال: ما تقول في هذا يا أبا جعفر؟

فقال: «قد تكلّـم القوم فيه فاعفنـي عن هذا» فأصرّ المعتصـم وأقسم عليه بأن يقول رأيه.

فقال:« أما إذا قسمـت عليّ بالله إنّي أقول إنّهم أخطأوا فيـه ...، فانّ القطع يجب أن يكون من مفصل أُصول الأصابع فيترك الكف».

قال المعتصم:وما الحجة في ذلك؟

١.و ٢ المائدة: ٥.

قال الإمام: «قول رسول الله ﷺ: «السجود على سبعة أعضاء: الوجه واليدين والركبتين والرجلين» فإذا قطعت يده من المعصم أو المرفق لم يبق له يد يسجد عليها، وقال الله تبارك و تعالى ﴿وأنَّ المساجِدَ للهِ﴾[1] يعني به هذه الأعضاء السبعة التي يسجد عليها ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً﴾ وما كان لله لم يقطع». [2]

قال ابن أبي دؤاد: فأعجب المعتصم ذلك وأمر بقطع يد السارق من مفصل الأصابع دون الكف، وتمنّيت انّي لم أك حياً.[3]

٢. فضيحة وضّاعي الحديث

وروي أنّ المأمون بعد ما زوّج ابنته أُمّ الفضل أبا جعفر الجواد عليه السلام[4] كان في

---

١. سورة الجنّ: ١٨.

٢. المسجد ــ بكسر الجيم على وزن مجلس أو بفتحها على وزان مشعل جمعه مساجد ــ هو مكان السجود، وكما أنّ المساجد و بيت الله وما توضع عليه الجبهة هو محل السجود كذلك نفس الجبهة والأعضاء الستة الأُخرى التي نسجد بها تعدّ كلّ منها محلاً للسجود، ولذلك فسر المساجد بالأعضاء السبعة التي يسجد بها في الرواية، وقد فسرت المساجد بالأعضاء السبعة في روايتين أُخريين نقلت في أُصول الكافي عن الصادق عليه السلام، و كذلك رواية أُخرى جاءت في تفسير علي بن إبراهيم القمي. وقد فسر الشيخ الصدوق المساجد بالأعضاء السبعة في كتاب «الفقيه».

وهذا ما نقل عن سعيد بن جبير و الزجاج والفراء ويجب الانتباه إلى أنّه لو كان تفسير المساجد بالأعضاء السبعة قابلاً للنقض، لكان الفقهاء الحاضرون في مجلس المعتصم يعترضون على ذلك، وهم يترصدون لذلك، وعليه فمن عدم اعتراضهم يتضح بأنّ المساجد تعني الأعضاء السبعة أيضاً في رأيهم أو انّها من معانيها على الأقل . پيشواى نهم امام محمد تقي عليه السلام : ٢٦ـ ٢٩، نقلاً عن تفسير الصافي: ٢/ ٧٥٢؛ تفسير نور الثقلين:٥/ ٤٤٠؛ تفسير مجمع البيان: ١٠/ ٣٧٢.

٣. پيشواى نهم: ٢٦ـ ٢٩؛ مجمع البيان الطبرسي: ١٠/ ٣٧٢؛ تفسير العياشي: ١/ ٣٢٠؛ البرهان في تفسير القرآن:١/ ٤٧١؛ بحار الأنوار: ٥٠/ ١ــ٥؛ الإمام الجواد عليه السلام من المهد إلى اللحد : ٢٩٤؛ وسائل الشيعة، الحر العاملي: ١٨/ ٤٩٠ (أبواب حدّ السرقة، الباب ٤).

٤. يأتي الكلام عن هذا الزواج في الصفحات المقبلة.

مجلس وعنده أبو جعفر الجواد ويحيى بن أكثم وجماعة كثيرة، فقال يحيى للإمام: ما تقول يا ابن رسول الله في الخبر الذي روي أنّه نزل جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله وقال يا محمد: إنّ الله عزّوجلّ يقرئك السلام ويقول لك سل أبا بكر هل هو عني راض فإنّي عنه راض؟![1]

فقال أبو جعفر الجواد عليه السلام: «لست بمنكر فضل أبي بكر، ولكن يجب على صاحب هذا الحديث أن يأخذ مثال الخبر الذي قال رسول الله في حجة الوداع: «قد كثرت عليّ الكذابة وستكثر، فمن كذب علي متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار، فإذا أتاكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله وسنّتي، فما وافق كتاب الله وسنّتي فخذوا به، وما خالف كتاب الله وسنّتي فلا تأخذوا به» وليس يوافق هذا الخبر كتاب الله، قال الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[2] فالله عز وجلّ خفي عليه رضا أبي بكر من سخطه حتى سأل عن مكنون سره، هذا مستحيل في العقول!!».

ثمّ قال يحيى بن أكثم وقد روي أنّ مثل أبي بكر وعمر في الأرض كمثل جبرئيل وميكائيل في السماء.

فقال الإمام:«وهذا أيضاً يجب أن ينظر فيه، لأنّ جبرئيل وميكائيل ملكان لله مقرّبان لم يعصيا الله قطّ ولم يفارقا طاعته لحظة واحدة، وهما قد أشركا بالله عزّ وجلّ وإن أسلما بعد الشرك و كان أكثر أيامهما في الشرك بالله، فمحال أن يشبههما بهما!!».

١. وكتب العلاّمة الأميني في كتاب الغدير: ٥/ ٣٢١، هذا الخبر كذب وضعه محمد بن بابشاذ.
٢. سورة ق: ١٦.

وقال يحيى: وقد روي أيضاً أنّهما ـ أبا بكر و عمر ـ سيدا كهول أهل الجنة، فما تقول فيه ؟[١]

فقال عليه السلام : «وهذا الخبر محال أيضاً، لأنّ أهل الجنة كلّهم يكونون شباباً ولا يكون فيهم كهل ـ حتى يكون أبو بكر وعمر سيداهم ـ و هذا الخبر وضعه بنو أُمية لمضادّة الخبر الذي قال رسول الله في الحسن والحسين بأنّهما سيدا شباب أهل الجنة».

فقال يحيى: وروي أنّ عمر بن الخطاب سراج أهل الجنة .

فقال عليه السلام :«وهذا أيضاً محال، لأنّ في الجنة ملائكة الله المقربين وآدم ومحمد وجميع الأنبياء والمرسلين لا تضيء بأنوارهم حتى تضيء بنور عمر!!» .

فقال يحيى بن أكثم: وقد روي أنّ السكينة تنطق على لسان عمر ــ أي فكلّ ما يقوله عمر فهو من قبل الملائكة ـ فقال عليه السلام : «لست بمنكر فضائل عمر، ولكن أبا بكر أفضل من عمر، فقال على رأس المنبر: انّ لي شيطاناً يعتريني فإذا ملت فسدّدوني».

فقال يحيى: قد روي أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: لو لم أُبعث لبعث عمر.[٢]

فقال عليه السلام :« كتاب الله أصدق من هذا الحديث يقول الله في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوح﴾[٣] فقد أخذ الله ميثاق النبيين، فكيف يمكن أن يبدل ميثاقه؟! وكان الأنبياء عليهم السلام لم يشركوا طرفة عين فكيف يبعث

---

١. اعتبر العلاّمة الأميني هذه الرواية من موضوعات يحيى بن عنبسة التي لا يمكن قبولها، لأنّ يحيى كان دجّالاً ووضاعاً. الغدير:٥/ ٣٢٢، واعتبره الذهبي وضاعاً ودجّالاً كذّاباً ومعلوم الحال ولا يأخذ بأحاديثه(ميزان الاعتدال:٤/ ٤٠٠).

٢. اثبت العلاّمة الأميني انّ رواة هذا الحديث وضاعون (الغدير:٥/ ٣١٢و٣١٦).

٣.الأحزاب:٧.

بالنبوة من أشرك وكان أكثر أيّامـه مع الشرك بالله؟! وقال رسول الله نبِّئت وآدم بين الروح والجسد».

فقال يحيـى: و قد روي أنّ النبـي عليه السلام قال: مـا احتبس الوحي عنـي قط إلاّ ظننته قد نزل على آل الخطاب.

فقال عليه السلام :«وهذا أيضاً محال، لأنّه لا يجوز أن يشك النبـي في نبوته قال الله تعالى: ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِـنَ الْمَلائكةِ رُسُلاً وَمِـنَ النّاسِ﴾[١] فكيف يمكـن أن تنتقل النبوة ممن اصطفاه الله تعالى إلى من أشرك به».

قال يحيى: روي أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: لو نزل العذاب لما نجا منه إلاّ عمر .

فقال عليه السلام: وهذا محال أيضاً انّ الله تعالى يقول: ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَـا كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُـمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[٢] فأخبر سبحـانه أن لا يعـذب أحداً مادام فيهم رسول الله وما داموا يستغفرون الله».[٣]

شخصية الإمام الجواد عليه السلام في رأي العلماء

أثارت مناظـرات الإمام الجواد وكلماته ومعالجته للقضايـا العلمية والفقهية الكبرىٰ تقدير وإعجاب العلماء والباحثين الإسلاميين شيعيّهم وسنيّهم، ودفعتهم إلى أن يكنوا الاحترام له ولمنزلته العلمية الراقية، فراح كلّ منهم يثني عليه.

وعلى سبيل المثـال هذا السبط ابـن الجوزي كتب: وكـان الجواد على منهاج أبيه في العلم والتقى والزهد والجود.[٤]

---

١. الحجّ: ٧٥. ٢. الأنفال: ٣٣.

٣. الاحتجاج: ٢/ ٢٤٧ـ ٢٤٨؛ بحار الأنوار: ٥٠/ ٨٠ ـ ٨٣؛ خانـدان وحى، السيـد القرشي، ص ٦٤٤ـ٦٤٧؛ نگاه گذرا بر زندگانى امام جواد عليه السلام : ٩٨ـ ١٠٠.

٤. تذكرة الخواص: ٣٥٩.

وكتب ابـن حجر الهيتمي: وكان المأمـون زوّجه ابنته لمّا رأى من فضلـه مع صغر سنّه، وبلوغه في العلم والحكمة والحلم ما برز به على جميع العلماء.[١]

وقال الشبلنجـي: وكان المأمون قد شغـف به لما أظهره من الفضـل والعلم وكمال العقل مع صغر سنه وأظهر برهانه.[٢]

وقال أُستـاذ الشيعة الشيخ المفيد والفتـال النيشابوري حول الإمـام: وكان المأمون قد شغـف بأبي جعفر عليه السلام لما رأى من فضلـه مع صغـر سنّه، وبلـوغه في العلـم والحكمة والأدب وكمال العقـل مـا لم يسـاوه فيه أحـد مـن مشـايخ أهـل الزمان.[٣]

وعدّ الجاحظ[٤] العثماني المعتزلي الذي كان معادياً لآل علي الإمام الجواد من العشرة الطالبيين الـذين وصفهـم بهذا النحو: كـلّ واحد منهـم عالم زاهـد عابـد شجاع جواد طاهرٌ مطهرٌ، بعض منهم خليفة، وبعض رُشّح للخلافة.

كلّ واحـد منهم ابن لـلآخر إلى عشرة أشخـاص وهم: الحسن بـن علي بن محمد بـن علي بن موسـى بن جعفر بن محمـد بن علي بن الحسين بـن علي، وليس لبيت من بيوت العرب والعجم نسب مثل هذه النسب شرفاً.[٥]

---

١. الصواعق المحرقة: ٢٠٥.

٢. نور الأبصار: ١٦١.

٣. الإرشاد: ٣١٩؛ روضة الواعظين: ٢٦١.

٤. كان الجاحظ يعيش في البصرة ويتمتع بثقافة عالية، وكتب في الكثير من علوم عصره، وكان معاصراً للإمام الجواد وابنه عليهما السلام.

٥. نگاهى به زندگـانى سياسى امام جواد عليه السلام، سيد مـرتضى عـاملى، ص ١٠٦، نقلاًعـن رسائل الجاحظ.

زواج أم مؤامرة؟

وقد قلنا في سيرة الإمام الرضا إنّ المأمون قرر أن يقرب نفسه من أهل البيت بعد أن واجه ظروفاً سياسية حرجة، وفرض ولاية العهد على الإمام الثامن انطلاقاً من ذلك مريداً بذلك تنفيذ سياسته المتعدّدة الجوانب لمعالجة الموقف.

ومن ناحية أُخرى كان العباسيون منزعجين كثيراً من سياسته هذه التي كانت من الممكن أن تنقل الخلافة من العباسيّين إلى العلويّين، لذا راحوا يعادونه وما رضوا عنه إلاّ بعد استشهاد الإمام مسموماً على يد المأمون.

وقد تمت عملية قتل الإمام الرضا بالسمّ على يد المأمون بسرية تامة، وحاول أن يغطّي على جريمته هذه فراح يتظاهر بالحزن والجزع عليه، ولكن رغم كلّ هذا التستر والرياء انكشفت جريمته للعلويين واتضح لهم انّه لم يقتل الإمام غير المأمون، فثار غضبهم وانزعجوا من ذلك كثيراً، ولاحظ المأمون انّ حكمه مهدّد مرة أُخرى وللوقاية من النتائج السيئة بدأ ينسج مؤامرة أُخرى من خلال تظاهره بالحب للإمام الجواد والاهتمام به، وقرر أن يزوّجه ابنته ليحصل على نفس النتيجة التي حصل عليها من فرض الولاية على الإمام الرضا، وانطلاقاً من هذه الخطة أحضر الإمام الجواد من المدينة عام ٢٠٤هـ بعد عام واحد من استشهاد الإمام الرضا وبعد المناظرة التي دارت بين الإمام ويحيى بن أكثم ـ و قد نقلناها مسبقاً ـ زوّجه ابنته أُمّ الفضل.

وقد انتقلت إلى بيت الإمام عام ٢١٥هـ وجاء تفصيل تلك الحادثة في التاريخ على النحو التالي:

خرج المأمون من الشماسية إلى البردان، يوم الخميس، صلاة الظهر لست

بقين من المحرم، سنة خمس عشرة ومائتين وهو اليـوم الرابع والعشرون من آذار ثمّ سار حتّى أتى تكريت. وفيها قدم محمد بـن علي بن موسي بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب من المدينة في صفر ليلة الجمعة.

فخرج من بغـداد حتّى لقي المأمون بتكريـت فأجازه وأمره أن يـدخل عليه امرأته ابنة المأمـون، فادخلت عليه في دار أحمد بن يوسف التـي على شاطئ دجلة فأقـام بها، فلما كان أيّام الحجّ خـرج بأهله وعيالـه حتّى أتى مكـة، ثمّ أتى منـزله بالمدينة فأقام به.[1]

دوافع المأمون

كـان لهذا الزواج الـذي أصرّ عليه المأمـون دوافـع سياسيـة تماماً، ويمكـن التعرّف عليها بالصورة التالية:

١. بتزويجه ابنته للإمام يكون قد وضـع الإمام تحت سيطرته ومراقبته ليعرف الصغيرة والكبيرة مـن أفعالـه، وقد أدّت ابنتـه مهمتهـا في إعداد التقـارير لأبيهـا جيداً، والتاريخ يشهد على ذلك.

٢. انّه أراد من هذا الزواج أن يربط ـ بتصوّره الساذج ـ الإمام ببلاطه الذي يسوده المجون والخلاعـة ويجره إلى اللهو واللعب والفسوق، و بذلك يشـوّه قداسة الإمام ولتسقط مكانته وعصمته ويبدو ذليلاً طائشاً في عيون الناس.

٣. انّـه أراد أن يضع حـداً لثورات العلـويّين وانزعـاجهم منـه، وليتظاهـر

---

١. الحياة السياسية للإمام الجواد عليه السلام ٧٩ نقلاً عن كتاب «بغداد» تأليف أبوالفضل أحمد بن أبي طاهر الكاتب.

بميوله إليهم.[١]

٤. الدافع الرابع للمأمون هو خداع عامة الناس كما كان يقول: إنّي أحببت أن أكون جداً لامرئٍ ولده رسول الله وعلي بن أبي طالب، غير انّ هذه الخدعة لم تستمر لحسن الحظ حيث لم تلد ابنته وكان أولاد الإمام جميعهم من امرأة أُخرى.[٢]

كانت هذه دوافع المأمون لهذا الزواج، ولكن يجب أن نعرف الآن لماذا وافق الإمام الجواد على هذا الزواج؟

وانطلاقاً من أنّ الإمام كان يعلم أهداف المأمون الواقعية من وراء ذلك، ويعرف أيضاً انّه هو الذي ارتكب تلك الجريمة العظمى بحقّ أبيه الإمام الرضا يبدو ان قبول الإمام بهذا الزواج كان على أثر الضغوط التي تلقّاها من المأمون مسبقاً، لأنّ هذا الزواج لا يعود بنفع إلاّ على المأمون وحده.

ويمكن أن نحتمل بأنّ تقرب الإمام من البلاط كان يمكن أن يكون له درعاً واقياً يمنع اغتياله على يد المعتصم، وعاملاً وقائياً من قمع رجال الشيعة البارزين وأصحاب الإمام بيد جلاوزة الخليفة، وهذا يشبه من جهة قبول الوزارة لهارون من علي بن يقطين بمعنى النفوذ في بلاط الخلافة لصالح الجبهة الشيعية.

قال حسين المكاري أحد أصحاب الإمام الجواد عليه السلام: دخلت على أبي جعفر ببغداد وهو على ما كان من أمره، فقلت في نفسي هذا الرجل لا يرجع إلى موطنه أبداً وهو بهذه الدعة والسعة، فأطرق الإمام رأسه ثمّ رفعه وقد اصفرّ لونه فقال: ياحسين خبز شعير وملح جريش في حرم رسول الله أحب

---

١. پيشواى نهم حضرت امام محمد تقى عليه السلام: ٣٨.

٢. تاريخ اليعقوبي: ٣/ ١٨٩؛ مناقب آل أبي طالب: ٤/ ٣٨٠، كان المأمون قد زوّج إحدى بناته للإمام الثامن، وبنفس تلك الدوافع غير انّه خاب أيضاً في ذلك.

إليّ ممـا تراني فيها.[١]

ولهذا لم يبق الإمـام في بغداد طويلاً ورجـع إلى المدينة مع زوجتـه أُمّ الفضل وبقي فيها حتى عام ٢٢٠هـ.

شبكة الاتّصلات النيابية

وعلى الرغـم من المضايقـات التي كان يعاني منهـا الإمام، فقد حـافظ على علاقتـه بالشيعة مـن خلال نصب الـوكلاء والممثّلين عنـه، فقد كان لـه وكلاء في جميع أرجـاء العالم الإسلامـي التي هي تحت حكـم الخليفة العباسي، وبنشـاطهم الكبير كان يتم المحافظة على القوات الشيعية من التشتّت.

وقد بعـث بهم إلى كثير من المدن مثل الأهواز، همدان، سيستـان، بُست[٢]، الري، البصرة، واسط، بغداد، و إلى مراكز الشيعة التقليـدية أي الكوفة وقم، وكان الإمام يسمح لأتباعه أن ينفذوا في الجهاز الحاكم ويتقلّدوا المناصب الحسّاسة.

ومن هنا كـان لمحمد بن إسماعيل بـن بزيع وأحمد بن حمزة القمـي مناصب راقية في الجهاز الحاكم، و كان نوح بن دراج قاضيـاً لبغداد بعض الوقت وبعدها قاضياًللكوفة.

وأصبح البعـض الآخر من الشيعة، مثـل الحسين بن عبد الله النيشـابوري حاكماً لبُست وسيستان، وتولّى الحكم بن عليا الأسدي حكم البحرين، وكان هذان

---

١. الخرائج والجرائح، ابـن الـراونـدي:١/ ٣٤٤؛ الإمـام الجواد عليه السلام ، القـزوينـي:١٥٢؛ بحـار الأنوار:٥٠/ ٤٨.

٢. كتب أبـو الفداء (٦٧٢ـ ٧٢١هـ) تقـع بُست على ضفـاف نهر الهند منـد، مدينـة من سجستـان (سيستان) مدينة كبيرة وفيها نعـم كثيرة ونخيل وكروم وتبعد عن غزنة أربع عشرة مـرحلة.(تقويم البلدان: ٣٩١).

يدفعان الخمس إلى الإمام الجواد مما يعني ارتباطهم السري بالإمام التاسع.[١]

وكما قلنا في موضوع صغر سن الإمام كان علي بن أسباط ينظر بدقة إلى قامة الإمام ووجهه كي ترسخ صورته في ذهنه ويصف ملامحه للشيعة عندما يرجع إلى مصر، وهذا يدلّ على أنّه كان هناك أتباع وشيعة للإمام ،ويقال انّ اتّساع نفوذ الشيعة في مصر في تلك الفترة كان بسبب مهاجرة كثير من محدّثي الكوفة مثل: محمد بن محمد بن الأشعث وأحمد بن سهل والحسين بن علي المصري وإسماعيل بن موسى الكاظم إلى مصر ونشاطهم هناك.[٢]

ويروي المرحوم الكليني أنّ الإمام الجوادعليه السلام قد أوصى والي بُست وسيستان ـ بناء على طلب واحد من الشيعة هناك ـ بأن لا يضيق عليه في أمر الخراج. فلم يكتف الوالي الذي كان من محبّي الإمام بإعفاء الرجل من الخراج بل أخبره بأن لا يؤدّي خراجاً مادام هو الوالي ثمّ عين له راتباً شهرياً.[٣]

مدرسة الإمام الجواد العلمية

نحن نعلم بأنّ أحد الجوانب الكبيرة لحياة أئمتنا هو الجانب الثقافي. وقد كان لكلّ واحد من هؤلاء الأئمّة الكبار نشاط ثقافي في عصره، فقد كانوا يربّون الشخصيات في مدرستهم ويبثّون علومهم ومعارفهم في المجتمع من خلالهم، ولكن ظروفهم الاجتماعية والسياسية لم تكن متساوية، فقد كانت الظروف الاجتماعية في عهد الإمام الباقر والإمام الصادق ـ كما تقدم ـ مناسبة، ولذلك لاحظنا انّ عدد تلامذة الإمام الصادق ورواته قد بلغ الأربعة آلاف، ولكن

١. التاريخ السياسي لغيبة الإمام الثاني عشر: ٧٩.
٢. نفس المصدر: ٧٨.
٣. فروع الكافي: ٥/ ١١١.

نشـاطهم قـد قلّ منـذ عهد الإمـام الجواد حتـى عهد الإمـام العسكري بسبـب الضغوط السيـاسية ومراقبة نشـاطاتهم من قبل جهـاز الحكم، ولذلك تنـزل عدد رواتهم وتلاميذ مدرستهم بشكل ملحوظ با لمقارنة مع عهد الإمام الصادق.

وعليه لا عجب إذا قرأنا انّ مجموع رواة الإمام الجواد وأصحابه يقارب المائة وعشرة رواة[١]، وقـد رووا عنه ٢٥٠ حـديثاً[٢]، لأنّه كـان مراقبـاً بشدة مـن جهة واستشهد في وقت مبكر ـ و قد عاش خمساً وعشرين سنة بإجماع العلماء ـ من جهة أُخـرى، وفي الوقـت ذاته يجب الالتفـات إلى أنّ مـن بين هذا العـدد القليل مـن أصحاب الإمـام والرواة هنـاك شخصيات بـارزة مثل: علي بـن مهزيـار، أحمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي، زكريا بن آدم، محمد بن إسماعيل بن بزيع، الحسين بن سعيد الأهوازي، أحمد بن محمد بن خالد البرقـي، وكان كلّ واحد منهم علماً بذاته في المجالات العلمية والفقهية، وكان بعضهم صاحب تأليفات.

هـذا ومـن نـاحية أُخـرى انّ رواة أحـاديـث الإمـام الجواد لا ينحصرون في الشيعة، بل قد نقـل بعض المحدّثين والعلماء السنّة للأحكام الإسـلامية من ذلك الإمـام، ومنهـم على سبيـل المثـال: الخطيب البغـدادي الـذي روى عـن الإمـام أحاديث بسنده الخاص به هو[٣]، كذلك روى عنه الحافظ عبد العزيز بن أخضر الجنابذي في كتاب معالم العترة الطاهرة[٤]، ومؤلفون آخرون مثـل أبي بكر أحمد بن

١. رجال الطوسي: ٣٩٧ـ ٤٠٩. و يرى مؤلف: مسنـد الإمام الجواد عليه السلام انّ عدد أصحابه ١٢١؛ وقال القزويني: إنّهم ٢٥٧ راوياً ؛ الإمام الجواد عليه السلام من المهد إلى اللحد.

٢. هذا الإحصـاء هو الذي قـدّمه الشيخ العطـاردي في مسنده هو مجمـوع أحاديث الإمـام في الفقه والعقائد والأخلاق.

٣. تاريخ بغداد: ٣/ ٥٤ـ ٥٥.

٤. أعيان الشيعة: ٢/ ٣٥.

ثابت، وأبو إسحاق الثعلبي، ومحمد بن مندة بن مهربذ في كتبهم التاريخية والتفسيرية.[١]

استشهاد الإمام عليه السلام

مات المأمون عام ٢١٨هـ فأصبح المعتصم(أخوه) الخليفة بعده، وأحضر الأخير الإمام الجواد عام ٢٢٠ هـ إلى بغداد من المدينة حتى يراقبه عن كثب، وكما تقدّم جعل الإمام يشترك في المجلس الذي أقيم لتحديد محل قطع يد السارق مما تسبّب في خجل قاضي بغداد ابن أبي دؤاد والفقهاء الآخرين.

فجاء ابن أبي دؤاد بعد بضعة أيام إلى المعتصم وقال: إنّ نصيحة الخليفة عليّ واجبة انّ ما حدث قبل أيّام ليس بصالح حكمكم، إذ جمعت في مجلسك الفقهاء لأمر ثمّ تركت أقاويلهم وفتاواهم كلّهم لقول رجل ـ الإمام الجواد ـ يقول شطر من هذه الأُمّة بإمامته ويدّعون انّه أولى منك بالحكم، وقد حضر مجلسك العلماء والقوّاد والوزراء.

فتأثر المعتصم الذي كان يحمل الاستعداد لعداء الإمام في داخله بكلام ابن أبي دؤاد، فقرر قتل الإمام، ونفّذ نيّته الخبيثة في النهاية وقتل الإمام على يد كاتب أحد وزرائه بالسم.[٢] ولم يكن عمر الإمام لما استشهد أكثر من خمس وعشرين سنة وبضعة شهور.[٣]

---

١. مناقب آل أبي طالب:٤/ ٣٨٤.

٢. تفسير العياشي:١/ ٣٢٠؛ البحار:٥٠/ ٧؛ بيشواى نهم :٤١؛ الإمام الجواد من المهد إلى اللحد:٣٨٢، وهناك أقوال أُخرى حول كيفية استشهاد الإمام لم نذكرها للاختصار، وللاطّلاع أكثر يراجع مناقب آل أبي طالب :٤/ ٣٨٠؛ البحار: ٥٠/ ٨ـ٩؛ روضة الواعظين: ٢٦٧.

٣. الإرشاد، ص ٣٢٦؛ البحار: ٥٠/ ٧؛ دلائل الإمامة: ٢٠٨.

الإمام الهادي عليه السلام

* النشاطات السرية

*شبكة الاتّصالات النيابية

*انفضاض مجلس اللهو و الشراب

*جرائم المتوكل

*الإمام الهادي والمدارس الكلامية

*تلامذة مدرسة الإمام عليه السلام

نبذة مختصرة

عن حياة الإمام عليه السلام

ولـد الإمام أبـو الحسن علي التقـي الهادي عليه السلام إمـام الشيعة العـاشر في النصف من ذي الحجة عام ٢١٢هـ في قرية صريا من قرى المدينة.[١] أبوه الإمام التاسع الإمام الجواد عليه السلام، وأُمّه السيدة القـديرة سمانة التي كانت أُمّ ولـد فاضلة مؤمنة.[٢]

أشهر ألقاب الإمام العاشر هو: النقي والهادي، ويقال له أبو الحسن الثالث أيضاً.[٣]

تقلّد الإمام الهادي الإمامة عام ٢٢٠هـ بعد استشهاد أبيه الكريم، وكان له من السن حينها ثمانيـة أعوام، وكانت فترة إمامته ٣٢ عـاماً ،واستشهد عام ٢٥٤ في مدينة سامراء ودفن في بيته، وعمره ٤١ سنة وبضعة شهور .[٤]

الخلفاء المعاصرون للإمام

عـاصر الإمام الهادي في فترة إمـامته ستـة خلفاء عبـاسيّين، وهـم حسـب

---

١ و ٢. إعلام الورى: ٣٥٥؛ الإرشاد: ٣٢٧.

٣. إعلام الورى: ٣٥٥. وفي عرف رواة الشيعـة المراد من أبي الحسن الأوّل هو موسى بـن جعفر، و من أبي الحسن الثاني الإمام الرضا عليه السلام.

٤. نفس المصدر.

الترتيب الزمني:

١. المعتصم أخو المأمون(٢١٨ـ ٢٢٧هـ).[1]

٢. الواثق بن المعتصم (٢٢٧ـ ٢٣٢هـ).

٣. المتوكل أخو الواثق(٢٣٢ـ٢٤٨هـ).

٤. المنتصر بن المتوكل(٦ أشهر).

٥. المستعين ابن عم المنتصر (٢٤٨ـ ٢٥٢هـ).

٦. المعتز بن المتوكل الآخر(٢٥٢ـ ٢٥٥هـ).

واستشهد الإمام الهادي في عهد الخليفة الأخير مسموماً ودفن في داره.

الأوضاع السياسية والاجتماعية في عصر الإمام

ولهذه الفترة من الخلافة العباسية خصوصيات تميّزها عن غيرها من الفترات، وهي:

١. **زوال هيبة الخلافة وعظمتها:** كان للخلافة سواء في العصر الأموي أو العباسي هيبة، غير انّ تلك العظمة قد زالت في هذه الفترة بسبب سيطرة الموالي والأتراك على جهاز الخلافة التي أصبحت كرة بأيديهم يرمونها أينما شاءوا، وكان للخليفة دور شكلي فقط، ولكن عندما يكون شعور بالخطر من قبل المخالفين تتحد آراء الخليفة ورجال الحكم في القضاء على ذلك الخطر حينئذٍ.

٢. **مجون وخلاعة رجال البلاط:** وكان الخلفاء العباسيون يقيمون مجالس اللهو والشرب الليلية في هذه الفترة بسبب الفراغ الذي يعانيه جهاز الخلافة، وأصبح

١. تمثل الأعداد في الأقواس مدة حكمه.

البلاط غاصاً في الفساد والمعصية، وقد سجّلت كتب التاريخ أخبار هذه الليالي الحمراء الأسطورية التي كانوا يحيونها.

٣. **ازديادالظلم والاستبداد:** وجعل الظلم والبذخ والعيث ببيت المال وصرفه في توفير المتعة واللهو الناس يضيقون ذرعاً بهذه التصرفات.

٤. **تصاعد الثورات العلوية:**

حاول الحكم العباسي في هذه الفترة الزمنية أن يقضي على العلويّين من خلال بث الكراهية لهم بين الناس. وكان كلّما يلاحظ ظلاً ولو قصيراً لثورة علوية كان مسلسل القمع والاضطهاد يبدأ بلا رحمة بحقها، والسبب في سرعة مواجهتها هو انّ جهاز الخلافة كان يرى نفسه ضعيفاً ومتزلزلاً، ويخاف هذا النوع من الثورات على الرغم من أجواء الرعب والاضطهاد التي أوجدها.

وكانت سياسة العلويين في هذه الفترة هو عدم ذكر شخص معين، وكانوا يدعون الناس إلى قيادة وإمامة الرضا من آل محمد، لأنّهم كانوا يشاهدون انّ أئمتهم المعصومين يخضعون لسيطرة ومراقبة تامة في قلب معسكر سامراء، فكانت الدعوة لشخص معين تعني القضاء عليه.

وقد كانت هذه الثورات ردّة فعل للظلم والاضطهاد اللّذين كانا يخيّمان على المجتمع الإسلامي في تلك الفترة، وكانت تتناسب تناسباً طردياً معهما، وعلى سبيل المثال لم تحدث أية ثورة أو انتفاضة في عهد الخليفة المنتصر الذي كان يميل إلى أهل البيت إلى حدٍ ما والذي لم يتعرض أحد للشيعة والعلويين في عهده.

وقد سجلت كتب التاريخ ١٨ ثورة بين الفترة ٢١٩ـ إلى ٢٧٠ هـ وغالباً ما كانت هذه الثورات تمنى بالفشل، ويتم القضاء عليها من قبل الدولة العباسية.

أسباب فشل الثورات

ويجب البحث عن أسباب فشل هذه الثورات في قياداتها وضعفها أوّلاً، و في رجال واتباع تلك القيادات ثانياً.

فإنّ قيادة هذه الثورات لم تكن تملك مخططاً صحيحاً وكاملاً تسير في ضوئه، وكانت تفتقر إلى التنظيم.

ومن ناحية أُخرى لم يكن لهذه الثورات طابع إسلامي مائة با لمائة، ولذلك لم تحظ بتأييد الأئمّة المعاصرين لها عادة.

ومن المؤكد كان هناك بين أصحاب تلك الثورات وأنصارها رجال مخلصون وشيعة واقعيون ناضلوا حتى الموت لأجل المبادئ الإسلامية الساميةغير انّ عددهم قليل، وكان أغلب الثوار ممّن لم يكن لهم أهداف إسلامية واضحة، بل كانوا منزعجين من الظلم والاضطهاد اللّذين كانوا يتلقونهما، وأرادوا تغيير الأوضاع المتردية، وكانت هذه الجماعات تترك قائدها وتتفرّق عنه بمجرد أن تشعر بالهزيمة أو الموت.

وكما تقدم فانّ السبب في عدم تأييد الأئمّة لها يكمن في أنّها لم تكن إسلامية خالصة، ولوحظت بعض الانحرافات في أهدافها وقادتها، أو انّ خططها كانت بنحوٍ يمكن التنبّؤ بفشلها، ولذلك لو كان الإمام يؤيد هذه الثورات علناً، لكان التشيع والإمامة ونواة الشيعة المركزية عرضة للخطر فيما لو فشلت في حركتها.

نشاطات الإمام السرية

وكما يبيّن لنا الجدول الزمني لحكم العباسيين فانّ المتوكل قد عاصر الإمام الهادي أكثر من غيره من الخلفاء، وفيما يلي نستعرض موقفه تجاه الإمام.

كان المتوكل يسيء معاملة بني هاشم ويضطهدهم كثيراً وكان يسيء الظن بهم ويتّهمهم دائماً، وكان وزيره عبد الله بن يحيى بن خاقان يسعى بهم لديه ويشجعه على الاساءة إليهم، وقد حاز المتوكل على قصب السبق في ظلم أهل البيت واضطهادهم من بين الخلفاء العباسيين.[1] فقد كان يكن لعلي وآله حقداً وعداء عجيبين، وإذا عرف أنّ هناك من يحب الإمام علياً فانّه يصادر أمواله ويقضي عليه.[2]

ولأجل ذلك كان الإمام الهادي يمارس خاصة في عصر المتوكل نشاطاته بشكل سري، ويراعي السرية التامة في مختلف أحواله مع الشيعة، والذي يؤيد ذلك هو الحدث الذي ينقله المؤرخون:

يقول محمد بن شرف: كنت أمشي مع الإمام الهادي بالمدينة، فقال: ألست ابن شرف؟ قلت: بلى، فأردت أن أسأله عن مسألة فابتدأني من غير أن أسأله، فقال: «نحن على قارعة الطريق وليس هذا موضع مسألة».[3]

تبينّ هذه الواقعة شدة أجواء الرعب السائدة ومدى سرية الإمام الإجبارية بشكل جيد.

وقد كان الإمام يتبع ـ اضطراراً ـ نفس هذه الطريقة في الاتصال بالشيعة القاطنين في المدن والمناطق المختلفة ويستلم الحقوق الشرعية والأموال المرسلة من قبلهم بسرية تامة. وقد قدمت لنا كتب التاريخ والرجال نموذجاً ممّا أشرنا إليه: فقد روى محمد بن داود القمي ومحمد الطلحي: حملنا مالاً من خمس ونذر وهدايا وجواهر اجتمعت في قم وبلادها، و خرجنا نريد بها سيدنا أبا الحسن الهادي،

---

١. مقاتل الطالبيّين: ٣٩٥؛ امام هادى: ٦٧.

٢. الكامل في التاريخ: ٧/ ٥٥.

٣. البحار: ٥٠/ ١٧٦؛ كشف الغمة: ٣/ ١٧٥.

فجاءنا رسوله في الطريق أن ارجعوا فليس هذا وقت الوصول، فرجعنا إلى قم وأحرزنا ما كان عندنا، فجاءنا أمره بعد أيام أن قد أنفذنا إليكم إبلاً عيراً فاحملوا عليها ما عندكم وخلّوا سبيلها، فحملناها وأودعناها الله، فلمّا كان من قابل قدمنا عليه فقال عليه السلام: «انظروا إلى ما حمّلتم إلينا» فنظرنا فإذا المنايح كما هي.[1]

ومع أنّه لا يعلم أين حدث ذلك أفي فترة إقامة الإمام في المدينة أو في سامراء ــ إذ كانت تخضع لمراقبة وسيطرة أكثر شدة ـ غير انّ هذه القضية تمثل على أية حال حالة بارزة للاتصالات السرية البعيدة عن أعين جواسيس جهاز الخلافة.

وفرضت على الإمام عليه السلام حين إقامته بسامراء رقابة شديدة وضيق الخناق عليه من قبل الجهاز العباسي الحاكم.

حتّى أنّه أرسلت إليه مرّة أموال من قم ـ و على الرغم من أوامر المتوكل التي صدرت للفتح بن خاقان بضبطها والجهود التي بذلها الأخير في هذا الصعيد إلاّ انّ الإمام عليه السلام استلمها ليلاً وبذلك باءت جهود الجهاز الأمني للبلاط العباسي بالفشل.[2]

شبكة الاتصالات النيابية

الظروف المتأزّمة التي كان يعاني منها أئمّة الشيعة في عصر العباسيين دفعتهم إلى إيجاد آلية جديدة لإقامة الاتصال بأتباعهم، ولم تكن هذه الآلية الجديدة إلاّ شبكة الاتصالات النيابية ونصب الوكلاء في البلدان المختلفة من قبل الإمام، والهدف الرئيسي لهذه المنظمة هو جمع الخمس والزكاة والنذور والهدايا من

١. بحار الأنوار: ٥٠/ ١٨٥.
٢. أمالي الشيخ الطوسي: ٢٨٢.

المناطق المختلفة مـن خلال الوكلاء ثمّ تحويلها إلى الإمام، مضافـاً إلى نقل أجوبة الإمام على الاستفسارات الفقهية والعقائدية للشيعة وتوجيههم سياسياً.

وقد كان لهذه الشبكـة أو المنظمة تأثير كثير في تحقيق أهـداف الإمام الذي كان خاضعـاً لمراقبة شديدة في سامـراء، و قد سار في أمر نصب الـوكلاء والنوّاب على خطـا أبيـه الإمـام الجواد عليه السلام ، فنصـب الـوكلاء والنـوّاب في مختلـف المدن والمناطـق، وهكذا يكـون قد أحدث شبكـة ومنظمة اتصالات مـوجهة ومتنـاسقة تحقّق تلك الأهداف المذكورة آنفاً.

وصعّد عـدم الاتصال المباشر بين الإمام وشيعتـه من دور الوكلاء الـديني والسياسي لدرجـة انّهم تحملوا مسؤولية أكبر في إدارة الأُمور، وقد حصـل الوكلاء على تجارب قيّمـة في تنظيم وتعبئـة الشيعة في المجـالات المستقلة، وتـدلّ الوثـائق التاريخية على أنّ الوكلاء كانوا يقسمـون الشيعة حسب المناطق المختلفة إلى أربع مجموعات من النواحي:

الناحية الأُولى تشمل بغداد، المدائن والكوفة.

والناحية الثانية تشمل البصرة والأهواز.

والناحية الثالثة قم وهمدان.

وأخيراً تشمل الناحية الرابعة الحجاز واليمن ومصر.

وكانت كلّ ناحية تمنح لوكيـل مستقل يوظّف هو بدوره كوادر محليّين تحت إشرافه، ويمكن مـلاحظة أعمال المنظمة النيابية هذه في تـوجيهات الإمام الهادي لمدراء هذه المنظمـة، فقد روي أنّ الإمام قد كتـب عام ٢٣٢هـ رسالـة إلى علي بن بلال وكيله المحليّ في بغداد:

«...إنيّ أقمت أبا علي مقام علي بن الحسين بن عبد ربّه[١]، وائتمنته على ذلك بالمعرفة بما عنده الذي لا يتقدمه أحد، وقد اعلم أنّك شيخ ناحيتك، فأحببت إفرادك وإكرامك بالكتاب بذلك، فعليك بالطاعة له والتسليم إليه جميع الحق قبلك، وأن تخص مواليّ على ذلك، وتعرّفهم من ذلك ما يصير سبباً إلى عونه وكفايته...».[٢]

وكتب الإمام في رسالة أُخرى إلى أحد وكلائه باسم «أيّوب بن نوح»:

«وأنا آمرك يا أيوب بن نوح أن تقطع الإكثار بينك و بين أبي علي، وأن يلزم كلّ واحد منكما ما وكّل به وأمر بالقيام فيه بأمر ناحيته، فإنّكم إذا انتهيتم إلى كلّ ما أمرتم به استغنيتم بذلك عن معاودتي، وأن لا تقبل من أحد من أهل بغداد والمدائن شيئاً يحملونه، ولا تلي لهم استيذاناً عليّ، ومر من أتاك بشيء من غير أهل ناحيتك أن يصيّره إلى الموكل بناحيته، وآمرك يا أبا علي في ذلك بمثل ما أمرت به وليقبل كلّ واحد منكما قبل ما أمرته به».[٣]

وكذلك حمّل الإمام أبا علي بن راشد رسالة إلى شيعته في بغداد والمدائن والعراق ـ الكوفة ـ و أطرافها كتب فيها:

«و إنّي أقمت أبا علي بن راشد مقام علي بن الحسين بن عبد ربّه و من كان

١. مات علي بن الحسين بن عبد ربه في مكة عام مائتين وتسعة وعشرين ونصب الإمام الهادي أبا علي مكانه. اختيار معرفة الرجال: ٥١٠ الحديث ٩٨٤. وقد ذكر هذا الشخص باسم الحسين بن عبد ربه (أبو علي) في بعض الروايات غير انّ العلاّمة محمد تقي التستري قدم أدلّة تدلّ على أنّ من كان وكيلاً للإمام الهادي هو علي بن الحسين بن عبد ربه لا أبوه. قاموس الرجال: ٣/ ٤٦٨.

٢. اختيار معرفة الرجال: ٥١٣، الحديث ٩٩١، الدكتور جاسم حسين؛ تاريخ سياسى غيبت امام دوازدهم (ترجمة): ١٣٧.

٣. نفس المصدر: ٥١٤، الحديث ٩٩٢، الدكتور جاسم حسين نفس المصدر: ١٣٧ـ١٣٨.

قبله من وكلائي، وصار في منزلته عندي، وولّيته ما كان يتولّاه غيره من وكلائي قبلكم ليقبض حقي، وارتضيته لكم، وقدمته على غيره في ذلك وهو أهله وموضعه، فصيروا رحمكم الله إلى الدفع إليه ذلك وإليّ، وأن لا تجعلوا له على أنفسكم علة، فعليكم بالخروج عن ذلك، والتسرّع إلى طاعة، وتحليل أموالكم، والحقن لدمائكم، وتعاونوا على البر والتقوىٰ، واتقوا الله لعلكم ترحمون، واعتصموا بحبل الله جميعاً، ولا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون، **فقد أوجبت في طاعته طاعتي، والخروج إلى عصيانه الخروج إلى عصياني**، فالزموا الطريق يأجركم الله ويزيدكم من فضله، فإنّ الله بما عنده واسع كريم متطوّل على عباده رحيم، نحن وأنتم في وديعة الله وحفظه، وكتبته بخطي والحمد لله كثيراً».[1]

وكان علي بن جعفر وكيلاً لأبي الحسن الهادي عليه السلام، وكان رجلاً من أهل همينيا قرية من قرى سواد بغداد فسُعي به إلى المتوكل فحبسه، وبعد قضاء فترة طويلة في السجن أفرج عنه، وانطلق إلى مكة بأمر الإمام وأقام بها.[2]

ويجب عد إبراهيم بن محمد الهمداني من وكلاء الإمام أيضاً، فقد كتب إليه الإمام: «**قد وصل الحساب، تقبل الله منك ورضى عنهم، وجعلهم معنا في الدنيا والآخرة**».

وتدلّ هذه الرسالة بوضوح على أنّ إبراهيم قد كلّف مضافاً إلى القيام بمهام أُخرى القيام بجمع الأموال من الشيعة وإرسالها إلى الإمام، و في تكملة هذه الرسالة كتب الإمام حول تقديره وتأييده: وقدكتبت إلى النضر[3] امرته أن ينتهي

١. اختيار معرفة الرجال:٥١٣ـ ٥١٤ ، نفس الحديث؛ امامان شيعه و جنبشهاى مكتبى،المدرسي، ص ٣٢٣.

٢. نفس المصدر، ص ٦٠٧، الحديث ١١٢٩؛ إثبات الوصية، ص ٢٣٣ وسنتحدث إن شاء الله في سيرة الإمام الحسن العسكري حول نشاطات علي بن جعفر في مكة.

٣. النضر بن محمد الهمداني، تنقيح المقال:٣/ ٢٧١.

عنك وعن التعرض لك وبخلافك، وأعلمته موضعك عندي، وكتبت إلى أيّوب[١] أمرته بذلك أيضاً، وكتبت إلى موالي بهمدان كتاباً أمرتهم بطاعتك والمصير إلى أمرك وأن لا وكيل سواك».[٢]

وعلى أية حال كان دور منظمة الوكالة بارزاً لا سيما في عهد المتوكل، وقد حاول المتوكل ومن خلال تجنيد الذين يحملون فكر العداء للعلويّين أن يقضي على مخالفيه ويمحو النشاطات المنظمة والسرية للعلويين والإمامية خاصة. وبدأ بسلسلة من عمليات اعتقال الشيعة وقمعهم، واستمر في سياسته هذه بكل قساوة وبدون رحمة حتى نكّل ببعض وكلاء الإمام في بغداد، المدائن والكوفة ومختلف مدن العراق ومات منهم تحت عمليات التعذيب ومنهم ظل مسجوناً.[٣]

وقد أنزلت هذه الأعمال ضربة كبيرة على منظمة الوكالة غير انّ الإمام الهادي وبمساعيه الناضجة حافظ على حيويتها ونتاجاتها.

انتقال الإمام من المدينة إلى سامراء

ولأجل مراقبة الإمام الهادي عن كثب اتّبع المتوكل نفس طريقة أجداده الخبيثة، وكان يعد لأن يريح نفسه من ناحية الإمام بأي وسيلة كانت، وقد رأينا قبل ذلك طريقة المأمون في مراقبة تحركات الإمام الجواد عليه السلام، فقد استطاع أن يراقب تحركات الإمام حتى في بيته من خلال زواج ابنته منه وأن يضبط جميع لقاءات الإمام وسكناته وحركاته.

---

١. أيّوب بن نوح بن دراج، قاموس الرجال: ٢/ ٢٤٢.

٢. اختيار معرفة الرجال: ٦١١ـ٦١٢، الحديث ١١٣٦.

٣. نفس المصدر، ص ٦٠٣ و ٦٠٧، الحديث ١١٢٢ و ١١٢٩ و ١١٣٠؛ جاسم حسين، تاريخ سياسى غيبت امام دوازدهم ص ٨٣؛ الغيبة، الطوسي: ٢١٢.

وبعد استشهاد الإمام الجواد واستخلاف الإمام الهادي كان تنفيذ هذه السياسة يبدو ضرورياً للخليفة، لأنّه لو أقام الإمام في المدينة بعيداً عن متناول الخليفة، لكان ذلك يشكل خطراً كبير على سلطته الطاغية.

وحينئذٍ سيجعل أقلّ تقرير حول خطر الإمام المحتمل الخليفة أن يخرج خطته وسياسته تلك إلى حيز التنفيذ، كما أقلقت الخليفة رسالة عامله على المدينة بشكل كبير، ممّا انتهى إلى نقل الإمام من المدينة إلى سامراء، وذلك انّ عبد الله بن محمد الهاشمي عامل المدينة قد أقلق الخليفة من نشاطات الإمام السياسية وبيّن له اتساع قاعدته الشعبية[1] غير انّ الإمام الهادي كذّب جميع ادّعاءات عبد الله برسالة أرسلها إلى المتوكل وشكا منه إليه.

وكأكثر سياسي العالم وفي حركة مخادعة ومزدوجة نحّىٰ المتوكل عبد الله من عمله من ناحية، وأمر كاتبه بأن يكتب رسالة إلى الإمام يعبّر فيها عن مدى حبّه للإمام، ولكنّها كانت في الواقع بمثابة أمر بالاعتقال وبطريقة مهذبة، وسنلاحظ فيما بعد كمية الضغوط والمضايقات التي قام بها المتوكل على الإمام.

وأمّا الرسالة فهي: بسم الله الرّحمن الرّحيم أمّا بعد فانّ أمير المؤمنين عارف بقدرك، راع لقرابتك، موجب لحقّك، مؤثر من الأُمور فيك وفي أهل بيتك ما يصلح الله به حالك وحالهم ويثبت به من عزّك وعزّهم، ويدخل الأمن عليك وعليهم، يبتغي بذلك رضا ربّه وأداء ما فرض عليه فيك وفيهم، فقد رأى أمير المؤمنين صرف عبد الله بن محمد عمّا كان يتولى من الحرب والصلاة بمدينة الرسول، إذ كان على ما ذكرت من جهالته بحقّك واستخفافه بقدرك وعندما قرفك

١. بحار الأنوار: ٥٠/ ٢٠٠؛ الإرشاد. ٣٣٣، ومضافاً إلى عبد الله كتب بريحة العباسي الذي كان يتولّى الإشراف على الصلاة في الحرمين إلى المتوكل عدّة مرات: إن كان لك في الحرمين حاجة فاخرج علي ابن محمد منهما، فانّه قد دعا إلى نفسه واتّبعه خلق كثير.، إثبات الوصية: ٢٢٥.

به ونسبك إليه من الأمر الذي علـم أمير المؤمنين براءتك منه وصدق نيتك في برك وقولك وانّك لم تؤهل نفسك لما قرفت بطلبه، وقد ولى أمير المؤمنين ما كان يلي من ذلـك محمد بـن الفضل، وأمـر بإكـرامـك وتبجيلك والانتهـاء إلى أمرك ورأيـك والتقـرّب إلى الله وإلى أمير المؤمنين بـذلـك، وأمير المؤمنين مشتـاق إليـك يحب إحداث العهد بك والنظر إلى وجهك، فإن نشطت لـزيارته والمقام قبله ما أحببت شخصت ومن اخترت من أهل بيتك ومواليك وحشمك على مهلة وطمأنينة، ترو إذا شئت وتنزل إذا شئت وتسير كيف شئت، فإن أحببت أن يكون يحيى بن هرثمة مولى أمير المؤمنين ومن معـه من الجند يرحلون برحيلـك، يسيرون بمسيرك، فالأمر في ذلك إليك، وقد تقدمنا إليه بطاعتك، فاستخر الله حتى توافي أمير المؤمنين، فما أحد مـن إخوته وولـده وأهل بيته وخـاصته ألطف منـه منزلة ولا أحمد لـه أثرة ولا هولهم أنظـر وعليهم أشفـق وبهم أبر وإليهـم أسكن منـه إليك، والسـلام عليك ورحمة الله وبركاته.(١)

ولا شكّ انّ الإمام كـان على اطّلاع على ما يبيّته لـه المتوكل من سـوء النية، ولكن لم يجد مفـرّاً من الـذهاب إلى سـامراء، إذ سيكـون رفض دعـوته دليـلاً على صحّة كلام جلاوزته الساعين به، ومثيراً لغضبه، ويعطيه الذريعة الكافية لتصعيد الضغوط والمضايقات عليه عليه السلام.

والذي يدلّ على أنّه كان عالماً بسوء نيّة المتوكل، وانّه أُجبر على هذه السفرة هي الكلمات التي قالها الإمام بعد ذلك في سامراء: «أُخرجت إلى سامراء كرهاً».(٢)

---

١. بحار الأنوار: ٥٠/ ٢٠٠؛ أُصول الكافي: ١/ ٥٠١؛ الإرشاد: ٣٣٣؛ كشف الغمة: ٣/ ١٧٢.
٢. بحار الأنوار: ٥٠/ ١٢٩.

وعلى أي حال استلم الإمام الرسالة ورافق يحيى بن هرثمة إلى سامراء كرهاً.(١)

تقرير كبير جلّادي المتوكل

ويروي لنا يحيى بن هرثمة الذي كُلّف بإحضار الإمام الهادي من المدينة إلى سامراء قصة مهمته بالصورة التالية:

فلمّا دخلتها ـ المدينة ـ ضجّ أهلها ضجيجاً عظيماً ما سمع الناس بمثله خوفاً على علي (الهادي عليه السلام)، وقامت الدنيا على ساق، لأنّه كان محسناً إليهم، ملازماً للمسجد، لم يكن عنده ميل إلى الدنيا، فجعلت أسكّنهم وأحلف لهم انّي لم أؤمر فيه بمكروه، وانّه لا بأس عليه، ثمّ فتشت منزله فلم أجد فيه إلاّ المصاحف وأدعية وكتب العلم، فعظم في عيني، وتوليت خدمته بنفسي، وأحسنت عشرته.

فلمّا قدمت به بغداد بدأت بإسحاق بن إبراهيم الطاهري والي بغداد فقال لي: يا يحيى انّ هذا الرجل قد ولده رسول الله والمتوكل من تعلم، فإنّ حرضته عليه قتله، وكان رسول الله خصمك يوم القيامة.

---

١. ويرى ابن شهر آشوب في المناقب انّ احضار الإمام إلى سامراء كان في عام ٢٣٤هـ إذ انّه يرى أنّ مدة إقامته في سامراء استغرقت عشرين عاماً ووفاته كانت عام ٢٥٤ وهو يقتضي أن يكون انتقاله إلى سامراء قد تم في سنة ٢٣٤.

و كتب الشيخ المفيد في «الإرشاد» انّ المتوكل كتب الرسالة عام ٢٤٣، ولكن رواية الكليني تقول إنّه قد استنسخت نسخة من الرسالة عام ٢٤٣ على يد أحد الشيعة وقد أخذها من يحيى بن هرثمة. (أُصول الكافي:١/ ٥٠١).

إذن يكون ذلك العام هو تاريخ أخذ تلك النسخة لا تاريخ الإحضار إلى مركز الخلافة، ويبدو انّ رأى ابن شهر آشوب أكثر صواباً من الناحية السياسية، إذ من المستبعد أن يكون المتوكل غافلاً عن نشاطات الإمام أو متجاهلاً لها لمدة إحدى عشرة سنة حيث قد تقلّد الخلافة عام ٢٣٢.

فقلت له :والله ما وقعت منه إلاّ على كلّ أمر جميل، ثمّ صرت به إلى سامراء فبدأت بوصيف التركي[١]، فأخبرتـه بوصوله فقـال :والله لئن سقط منـه شعرة لا يطالب بها سواك، فعجبت كيف وافق قوله قول إسحاق، فلمّا دخلت على المتوكل وقصصت عليه ماحدث، فشاهدت انّ المتوكل يكرمه أيضاً.[٢]

ورود الإمام سامراء

وبأمر من المتوكل أُنزل الإمام يوم وروده سامراء في مكان وضيع يعرف بخان الصعـاليك ــ خان المشرّديـن والمسـاكين ـ بـذريعـة انّ محل إقامتـه لم يهيّأ بعـد، فقضى عليه السلام يومـه هناك، ومـن المؤكد انّ القصـد من وراء هـذه الحركة هـو تحقير الإمام وإهانته بشكل دبلوماسي.[٣]

واعدّوا له داراً للسكن في اليوم التالي فأقام فيه.[٤]

كان الإمام في هذه المدينة حراً في الظـاهر غير انّه كان يعيش كالسجين، إذ كانت داره بحيث تخضع جميع تحركاته وسكناته ولقاءاته للمراقبة من قبل جلاوزة الخليفة.

وكان يزداد، الطبيب المسيحي وتلميذ بختيشوع وخلال إشارته إلى إحضار

١. كان وصيف من المتنفّذين في بلاط المتوكل.

٢. تذكرة الخواص: ٣٥٩ـ ٣٦٠. ويتّضح مـن كلام يحيى بن هرثمة عن دخولـه المدينة مدى شعبية الإمام جيـداً، وهكذا يعلم مـن كلمات إسحاق بن إبـراهيم ووصيـف مدى محبوبيتـه بين الناس وحتى أهل البلاط.

٣. كما لم يخف ذلك على شخصيـات واعية مثل صـالح بن سعيـد فقد قال: دخلـت على أبي الحسن الهادي يـوم وروده فقلـت: أرادوا إطفاء نـورك والتقصير بـك حتـى أنـزلوك هـذا الخان الأشنـع. (الإرشاد: ٣٣٤؛ كشف الغمة: ٣/ ١٧٣).

٤. الإرشاد، ص ٣٣٤.

الإمـام كرهـاً وإجباراً إلى سـامـراء يقول: إن كـان مخلـوق يعلم الغيـب فهو وقـد استقدمه الخليفـة من الحجاز فرقاً منـه لئلا ينصرف إليه وجوه النـاس فيخرج هذا الأمر ـ الخلافة ـ عنهم[1].

ويمكن معرفة مـدى خشية المتوكل من نفوذ الإمام الـروحي بين الناس من خلال اختياره لمحل إقامته.

وعلى أي حال ورغـم كلّ هذه الاحتيـاطات والمراقبـة كان المتوكـل يرى في الإمام خطراً يهدّد حكمـه ويخشى أن يتصل به أصحابه وشيعتـه خفية فيخططون للثورة عليه ويمهدون لأنفسهم من خلال إعداد العدة والعدد لهذا الأمر.

وكانـت حاشيـة الخليفة تحذره أحيـاناً مـن احتمال قيام الإمـام وثورتـه هو وأصحابـه، لذلـك كان يأمـر بين الحين والآخر بتفتيش دار الإمـام بدقـة، ومع أنّ جلاوزته كـانوا يرجعون بخفـي حنين في كلّ مرة ظل المتـوكل قلقاً يشعر بـالخطر. سنشير هنا إلى نموذج من ذلك:

انفضاض مجلس اللهو والشراب

وذات مرة سعـي بالإمام الهادي إلى المتـوكل انّ في منزلـه كتباً وسلاحـاً من شيعته مـن أهالي قـم وهو ينـوي الثورة على الدولـة، فبعث المتـوكل إليـه جماعة، فهاجموا داره ليلاً فلم يجدوا فيهـا شيئاً، ووجدوا الإمام في غرفة مغلقـة وعليه ثوب من صوف وهـو جالس على الرمل والحصـى متوجهاً إلى الله تعالى يتلـو آيات من القـرآن، فحملوه على حـاله تلـك إلى المتوكـل، وقالـوا له: لم نجـد في بيته شيئـاً، ووجدناه مستقبل القبلة يقرأ القرآن .

١. بحار الأنوار: ٥٠/ ١٦١.

وكان المتوكل جالساً مجلس الشراب، فأُدخل عليه الإمام والكأس في يده، فلمّا رآه هابه وعظّمه وأجلسه إلى جانبه وناوله الكأس التي كانت في يده.

فقال: «والله ما خامر لحمي ودمي قط، فاعفني» فأعفاه.

فقال: أنشدني شعراً.

فقال الإمام: «أنا قليل الرواية للشعر».

فقال: لابدّ، فأنشده الإمام عليه السلام:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم ... غلب الرجال فما أغنتهم القلل
واستنزلوا بعد عزّ عن معاقلهم ... فاودعوا حفراً يا بئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما قبروا ... أين الأسرّة والتيجان والحلل؟
أين الوجوه التي كانت منعّمة ... من دونها تضرب الأستار والكلل؟
فافصح القبر عنهم حين ساء لهم ... تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طالما أكلوا دهراً وما شربوا ... فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا
وطالما عمّروا دوراً لتحصنهم ... ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا
وطالما كنزوا الأموال وادّخروا ... فخلّفوها على الأعداء وارتحلوا
أضحت منازلهم قفراً معطلة ... وساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا

فأثّر على المتوكل حتى بلت لحيته دموع عينه وبكى الحاضرون، وأمر المتوكل برفع الشراب، وقدّم للإمام أربعة آلاف درهم، وردّه إلى منزله مكرّماً.(١)

---

١. مروج الذهب:٤/ ١١؛ نور الأبصار:١٦٦؛ تذكرة الخواص: ٣٦١؛ وفيات الأعيان، ابن خلكان:٣/ ٢٧٢؛ مآثر الإنافة في معالم الخلافة:١/ ٢٣٢، ويوجد بعض الاختلاف في عدد الأبيات بين المؤرّخين.

الإمام في سجن المتوكل

كان المتوكل يحمل حقداً غـريباً على الإمام، و قد حاول دائماً أن يسيء إليه ويؤذيه، ومع أنّ الإمام كان يعيش كالسجين في سامـراء، فقد أمر المتوكل باعتقاله وسجنه بعد إحضاره من المدينة.

فقد قال الصقر بن أبي دلف الكرخي: لماّ حمل المتوكل أبا الحسن الهادي إلى سامراء جئت أسـأل عن خبره، فنظر إليّ الزرّافي، حاجب المتوكـل، فأمر أن أدخل إليه، فأدخلت إليـه، فقال:يا صقر ما شأنك؟ فقلت: خير، فقـال: اقعد. فأخذني ما تقدم و ما تأخر وانتابني خوف وقلق كبير، فقلت في نفسي أخطأت في المجيء.

وبعد انّ نظـر في أُمور النـاس وانتهى مـن ذلك قـال لي :ما شـأنك وفيـم جئت؟ قلت: لخير ما، فقال: لعلك تسأل عن خبر مولاك؟

فقلت له: ومن مولاي؟! مولاي أمير المؤمنين .

فقال: اسكت! مولاك هو الحق فلا تحتشمني فإنّي على مذهبك.

فقلت: الحمد لله.

فقال: أتحب أن تراه؟ قلت: نعم، قال: اجلـس حتى يخرج صاحب البريد من عنـده، فلمّـا خرج قـال الزرافي لغلام له: خـذ بيد الصقر وادخلـه إلى الحجرة التي فيها العلوي المحبوس وخلّ بينه و بينـه، فأدخلني إلى الحجرة فدخلت، فإذا هو ـ الإمام عليه السلام ـ جالـس على صدر حصير وبحذاه قبر محفور، فسلمـت عليه، فردّ علي، ثمّ أمر بالجلوس.

ثمّ قال لي :«يا صقر ما أتى بك؟».

قلت: سيدي جئت أتعرف خبرك، ثمّ نظرت إلى القبر فبكيت.

فنظر عليه السلام إليّ فقال: «يا صقر لا عليك لن يصلوا إلينا بسوء الآن» فقلت الحمد لله.[١]

وهذه الرواية تدلّ من ناحية على اضطهاد المتوكل للإمام الهادي والإساءة إليه، وعلى نفوذ الإمام في رجال البلاط ومقرّبي الخليفة من ناحية ثانية.

وقد أمر المتوكل في أواخر أيامه خادمه سعيد بن الحاجب بقتل الإمام ولكن الإمام قد قال: «إنّ المتوكل لا يلبث أكثر من يومين حتى يسفك الله دمه» فحدث ذلك.[٢]

جرائم المتوكل وظلمه بحقّ الشيعة

كان المتوكل من أكثر خلفاء بني العباس إجراماً، فقد كنّ مشاعر العداء والحقد لعلي أمير المؤمنين وآله وشيعته، وكانت فترة حكمه من أحلك الفترات على الشيعة والعلويّين، ولعدم إمكان عرض جميع جرائمه في هذا البحث المختصر، فسنعرض بعض النماذج منها:

١. فقد اعتقل وطورد جماعة من العلويين في حكمه، منهم: محمد بن صالح ـ أحد أحفاد الإمام الحسن عليه السلام ـ و محمد بن جعفر وهو من دعاة الحسن بن زيد الذي ثار في طبرستان.[٣]

٢. وأمر عام ٢٣٦هـ بهدم قبر سيد الشهداء الإمام أبي عبد الله، وهدم ما حوله من الدور[٤]، وأن يعمل مزارع، ووضع هناك مراكز للشرطة لمنع الزائرين.

وعلى ما يبدو لم يتجرأ أحد من المسلمين على هدم قبر الإمام الحسين

---

١. بحار الأنوار: ٥٠/ ١٩٤.
٢. كشف الغمة: ٣/ ١٨٤.
٣. مقاتل الطالبيّين: ٣٩٧ـ٤١٨.
٤. مآثر الأنافة: ١/ ٢٣١.

وتخريبه، فكلّف شخصاً يدعى ذيرج ـ وهـو ذو أصل يهودي ـ للقيام بذلك، وقد أعلن انّه يعاقب كلّ من قام بزيارة قبر الحسين بن علي عليه السلام.[١]

فقد كان المتوكل يخشىٰ من أن يتحول مرقد الإمام الحسين إلى معقل للثوار، وتصبح ملحمـة ذلك الشهيد العظيم وشهـادته ملهمة لثورة النـاس ونهضتهم في وجه ظلم الخليفة وجهاز حكمه، ولكن الشيعة ومحبّي سيد الشهداء ظلوا يزورون تلك التربة الطاهـرة ولم يتوقفوا عن زيارتها في مختلف الظـروف، وتحمّلوا في سبيل ذلك أنواع التعذيب.

وبعد قتل المتوكل أعاد الشيعة وبتعاون مع العلويين بناء الضريح.[٢]

وقد أثـار هدم قبر الإمام الحسين غضـب المسلمين بشدة حتى كتـب أهل بغداد شتمه على الحيطان والمساجد وهجاه الشعراء الهادفون، ومما قيل في ذلك:

بـالله إن كـانـت أميـة قـد أتـت	قتـل ابـن بنـت نبيهـا مظلـومـا
فلقـد أتـاه بنـو أبيـه بمثلـه	هـذا لعمـري قبره مهـدومـا
أسفـوا على أن لا يكـونوا شـاركـوا	في قتلـه فتتبعـوه رميما[٣]

٣. وقتل في عهـده شخصيات بـارزه من المسلمين الـذين يميلـون إلى أهل البيت، ومن أُولئك ابن السكّيت الشـاعر والأديب الشيعي الشهير ومن أصحاب الإمامين الجواد والهادي المخلصين، وقد قتله بذنب حبه لعلي عليه السلام.[٤]

---

١. مقاتل الطالبين، ص ٣٩٥؛ مروج الذهب:٤/ ٥١؛ تاريخ الخلفاء:٣٤٧.

٢. مقاتل الطالبيّن: ٣٩٦؛ الكامل في التاريخ:٧/ ٥٥.

٣. تاريخ الخلفاء: ٣٤٧؛ الأمالي: الطوسي،ص ٣٢٩.

٤. واسمه يعقـوب واسم أبيه إسحـاق، وكان من علماء وأُدباء الشيعـة المعروفين، وقد كـان متبحّراً في علوم عصره مثل علوم القـرآن ، الشعر ، اللغة والأدب وألّف فيها كتباً بعضها فـريدة في نوعها كما قال بعض الباحثين، (ريحانة الأدب:٧/ ٥٧٠).

وقـد كان المتـوكـل ينظر ذات يـوم إلى ولـديه المعتـز والمؤيـد، فقال لابـن السكيت: من أحب إليك هما أو الحسن والحسين؟

فقال: «والله قنبر مولى علي خير منك ومنهما »، فأمر المتوكل الذي كان طاغياً ومتغطرساً بسل لسانه من قفاه.[1]

٤. وكتب الخطيب البغدادي حول اضطهاد شيعة أهل البيت والتنكيل بهم على يد المتـوكل انّه ضرب النصر بـن علي الجهضمي ألف سـوط، لحديث رواه في فضل علي وفاطمة والحسن والحسين، ولم يدعه حتى شهدوا انّه من أهل السنّة.[2]

٥. وكان يعطي الشعراء المرتزقة ـ أمثال مروان بن أبي الجنوب ـ مبالغ طائلة لينشدوا أشعاراً حول شرعية حكم بني العباس وهجو بني هاشم.[3]

٦. ولما شكّل جيشاً جـديداً وسماه الشاكريّـة جعل فيه كلّ مـن كان ينتمي إلى بلاد يحمل أهلها مشاعر العداء للعلويين لا سيما من سورية، الجزيرة، الجبل، الحجاز وعنبا.[4]

٧. وأمر عـامل مصر أن ينفي الطالبيين إلى العـراق، فنفّذ ذلك، ثـمّ نقلهم بعد ذلك إلى المدينة.[5]

٨. كان يطـرد الشيعة مـن جهاز حكمه ويشـوّه سمعتهم في الـرأي العام، وعلى سبيل المثال يمكن الإشـارة إلى عزل إسحاق بن إبراهيم الذي عـزله المتوكل بتهمة التشيّع من منصب الولاية في سـامراء، وسيروان من محافظة الجبل، وقد طرد

١. تاريخ الخلفاء:٣٤٨؛ تنقيح المقال:٣/ ٥٧٠.

٢. تاريخ بغداد:١٣/ ٢٨٩.

٣. حياة الإمام الهادي:٢٩٢.

٤. تاريخ سياسى غيبت امام دوازدهم: ٨٢.

٥. تاريخ سياسى غيبت امام دوازدهم، الدكتور جاسم حسين: ٨٤.

وعزل آخرين لنفس هذا السبب.[١]

ومنع المتوكل بسياسته هذه من ظهور أي حركة شيعية مناهضة لنظامه، غير انّه لم ينجح في أن يقضي على النشاطات السرية التي كانوا يقومون بها، وكما تقدم فإنّ كتب التاريخ تخبرنا انّ الإمام الهادي عليه السلام استمر في علاقته بشيعته وأنصاره بشكل سري.

الضغوط الاقتصادية على الشيعة

وبهدف تضعيف الجبهة الشيعية والقضاء على القوات الشيعية المناضلة راح المتوكل يستخدم وسيلة الضغط الاقتصادي، فضيّق عليهم وأمعن في إفقارهم كثيراً بشكل لم يسبق له نظير إلى ذلك الحين.

ونحن نعرف ـ طبعاً ـ انّ الشيعة ظلت تعاني من سوء الوضع المالي وترزح تحت الضغوط الاقتصادية بعد رحيل الرسول صلى الله عليه وآله دائماً.

ومضافاً إلى سلب فدك من فاطمة الزهراء عليها السلام الذي تم بدوافع سياسية ولتضعيف بنية أمير المؤمنين وبني هاشم الاقتصادية، توجد هناك أمثلة كثيرة في التاريخ الإسلامي، والتي منها سياسة معاوية تجاه الشيعة خاصة بني هاشم.

فإنّ أحد الأساليب التي اتّبعها معاوية لأخذ البيعة من الحسين بن علي عليهما السلام لولاية عهد يزيد هو قطع العطاء من بيت المال عن بني هاشم خلال سفره إلى المدينة.[٢]

والمثال الآخر هي سياسة التجويع والإفقار التي اتّبعها أبو جعفر المنصور

١. تاريخ سياسى غيبت امام دوازدهم: ٨٤.
٢. الكامل في التاريخ: ٣/ ٥١١؛ الإمامة والسياسة: ١/ ١٩١.

الـدوانيقي ثـاني خلفاء بنـي العباس، فقـد أمعـن هذا الأخير في تطبيـق سياسـة التجويع والإفقار على نطـاق واسع، وكان هدفه من ذلك هـو إخضاع الناس من خلال تجويعهـم وإفقارهـم، لكي يظل الشعـب يفكّر في سـد جوعـه دائماً حتى ينسى القضايا الاجتماعية الكبرى والتفكير بها. وقـد تحدث ذات يوم أمام حاشيته وخواصـه عن الأسباب التي دعتـه أن يبالغ في سياسـة التجويع وبشكل سـاخر فقال: صدق ابن الأعرابي حيث يقول: اجع كلبك يتبعك.[1] وهذا الكلام يوضح لنا مدى استهانة بني العباس بالأُمّة الإسلامية واحتقارهم لها.

وقـد شملت سيـاسـة التجويـع والإفقار والضغـوط الاقتصـادية الشيعـة والعلويين أكثر من غيرهم، لأنّهم كانوا في طليعة المجـاهدين الذين وقفوا في وجه ظلم الخلفاء، ولم تكـن حكومة هارون مستثناة مـن هذه الخطة العامـة إذ حرم هو الآخر الشيعة مـن حقوقهم المشروعة للقضـاء على حركتهم النهضويـة من خلال سيطرته على أموال المسلمين وصرفها على ملذّاته ورغباته وأهوائه هو وحاشيته.

وعليه كـان الشيعة على معرفـة بهذه المعانـاة والمضايقات، غير انّ سيـاسة التجويع والضغـوط والمضايقات الاقتصاديـة التي مارسها المتـوكل اتخذت أبعاد أكثر اتساعاً وخطورة، نشير إلى بعض منها:

١ . وقـد ضيّق على الشيعـة وبالـغ في ذلك، حتـى قيل انّـه لم يكن للنسـاء العلويات في تلك الفترة بالمدينة ثياب سالمة يـرتدينها للصلاة، وكنّ يملكن ثوباً واحداً بالياً يرتدينه في الصـلاة بالتناوب، ويعشن على بيع الغزل، وبقين على هذه الحالة من الفقر والفاقة حتى هلك المتوكل.[2]

---

١ . حياة الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام: ١/ ٣٦٩، نقلاً عن كتاب عصر المأمون.

٢ . تتمة المنتهى، الشيخ عباس القمي، ص ٢٣٨ـ ٢٣٩؛ مقاتل الطالبيين: ٣٩٦.

٢. ولّى عمر بن فرج الرّخجي على المدينة ومكة، وكان هذا يمنع الناس من التقرّب إلى آل أبي طالب والإحسان إليهم، وبالغ في ذلك، فاشتد الأمر على العلويين بعد أن خاف الناس من الالتفاف حولهم والتقرّب منهم.(١)

٣. وصادر المتوكل فدك التي كانت كلّ ما يملكه العلويون.(٢) وروي أنّ عائداتها كانت تبلغ ٢٤٠٠٠ ديناراً في تلك الفترة، وقد وهبها المتوكل لعبد الله بن عمر البازيار وهو من أصحابه.(٣)

٤. أمر عامله على مصر بأن يعامل العلويين وفق القواعد التالية:

الف: أن لا يسمح لأي واحد من العلويين بأن يمتلك أي شيء، مضافاً إلى عدم السماح لهم بركوب الخيل والتنقّل من الفسطاط إلى المدن الأُخرى.

ب: أن لا يسمح لأي واحدٍ من العلويين بامتلاك أكثر من عبد واحد.

ج: وإذا ما وقع تخاصم بين علوي وغيره، فعلى القاضي أن يستمع أوّلاً إلى كلام خصم العلوي، ومن ثمّ يأخذ بكلامه دون الاستماع إلى كلام العلوي.(٤)

القصور الفخمة ومجالس البذخ

وإلى جانب كل ما مارسه من ضغوط وتضييق وإفقار مضني ضد الشيعة لم

---

١. تتمة المنتهى، الشيخ عباس القمي، ص ٢٣٨ـ ٢٣٩؛ مقاتل الطالبيين: ٣٩٦.

٢. كانت هناك أحد عشرة نخلة في فدك غرسها نبي الإسلام بيده فيها، وكان أولاد فاطمة يهدون ثمارها للحجاج فتعود عليهم بالبركة. وقد أمر عبد الله بن البازيار شخصاً يدعى بشران بن أبي أميّة الثقفي بأن يذهب إلى المدينة ويقطع تلك النخلات، فلمّا رجع إلى البصرة أُصيب بالشلل. («فدك» السيد محمد حسن القزويني الحائري: ١٩٥).

٣. تاريخ سياسى غيبت امام دوازدهم، الدكتور حسين جاسم، ص٨٤.

٤. نفس المصدر، ص ٨٤، نقلاً عن كتاب ولاة مصر، تأليف الكندي.

يأل المتوكل جهداً في العبث بأموال المسلمين، وتشييد القصور الفخمة، و إقامة المجالس المفعمة بالبذخ والمجون والتبذير.

فقد بنى قصوراً عديدة أنفق عليها أموالاً طائلة منها: الشاه، والعروس، الشبداز، البديع، والغريب، والبرج. وأنفق على قصر البرج مليون وسبعمائة ألف دينار.[١]

وبنى قصراً آخر اشتهر باسم البُرْكُواء. وقد أنفق على هذا القصر الذي كان من أحسن وأكبر قصوره عشرين مليون درهم.[٢]

وكان قد بنى قصوراً أُخرى للّهو، كالجعفري، والمليح، والغرو، و المختار، والحير، التي أنفق على كلٍّ منها آلاف الملايين من الدراهم، وقد ذكرها المؤرّخون بالتفصيل.[٣]

وقرر يوماً أن يختن ابنه «عبد الله المعتز» فأقام احتفالاً ضخماً أنفق فيه أموالاً عظيمة ذكرها المؤرّخون بالتفصيل، ونحن نشير إلى جانب من ذلك:

فقد هيّأوا لذلك الاحتفال سجّادة طولها مائة ذراع وعرضها خمسون ذراعاً لقاعة القصر التي كانت بهذه المساحة، ونصبوا أربعة آلاف كرسي من الذهب المرصّع بالجواهر لاستضافة المدعوّين، ونثروا عشرين مليون درهم على رؤوس النساء والخدم والحاشية، ومليون درهم ـ وقد كانت منقوشة برسوم الاحتفال والختان ـ على رؤوس الحلاق والخاتن والغلمان والخدم الخاصين.

وقد سئل الخاتن في ذلك اليوم على كم حصلت من الأموال حتى بدء أكل

١. تاريخ اليعقوبي: ٣/ ٢٢٣.
٢. آل بويه، علي أصغر الفقيهي، ص٤١٥.
٣. حياة الإمام الهادي عليه السلام، القرشي: ٣٠٩ـ ٣١٥.

الطعام؟ فقال: ثمانون ألفاً وبضعة آلاف دينار عدا الذهب والخواتيم والجواهر والحلي.

وعند ما سلمت قائمة ما أنفق على «احتفال الختان» إلى المتوكل تبيّن أنّ الإنفاق في ذلك بلغ ستة وثمانين مليون درهم.(١)

كان ذلك جانباً من عبث المتوكل بأموال المسلمين وهو غيض من فيض، ولو أردنا التفصيل لطال بنا الكلام، غير انّنا نضيف هنا انّ السيوطي قد كتب: انّه كان له ـ المتوكل ـ أربعة آلاف سرِّية ووطي الجميع.(٢)

ويقول المسعودي المؤرّخ المعروف: إنّه لم تكن النفقات في عصر من الأعصار ولا وقت من الأوقات مثلها في أيام المتوكل.(٣)

وثيقة تاريخية

وفي رسالته التي يذكر فيها ظلم العباسيين واضطهادهم للشيعة والعنف الذي حاق بالعلويين يكشف أبو بكر الخوارزمي كاتب العصر البويهي الكبير (المتوفّى ٣٨٣أو٣٩٣هـ) عن جرائم المتوكل ويشير إلى هذا الاحتفال الشائن:

...ويموت إمام من أئمة الهدى وسيد من سادات بيت المصطفى، فلا تتبع جنازته، ولا تجصص مقبرته، ويموت لهم ـ بني العباس ـ لاعب أو مسخرة أو ضارب، فتحضر جنازته العدول والقضاة، ويعمر مسجد التعزية عنه القوّاد والولاة، ويسلم منهم ـ العباسيين ـ

١. آل بويه، الفقيهي: ٤١٧، بين الخلفاء والخلعاء، صلاح الدين المنجد، ص ٣٣ـ ٣٥. وقد ذكر القلقشندي احتفالات الختان في كتاب مآثر الانافة في معالم الخلافة باختلاف يسير: ٣/ ٣٦٧.

٢. تاريخ الخلفاء: ٣٥٠.

٣. مروج الذهب: ٤/ ٤٠.

من يعـرفونه دهـرياً أو سوفسطـائياً، ولا يتعـرضون لمن يدرس كتـاباً فلسفياً ومانـوياً، ويقتلون من عـرفوه شيعياً ويسفكون دم مـن سمّى ابنه علياً... وأنّ بعض شعراء الشيعة يتكلّم في ذكر مناقب الوصي بل ذكر معجزات النبـي فيقطع لسانه ويمزّق ديوانـه، كما فعل بعبد الله بن عمار البرقي و... حتى أنّ هارون بـن الخيزران وجعفراً المتوكل على الشيطان لا على الرحمان كـانا لا يعطيان مالاً ولا يبـذلان نوالاً إلاّ لمن شتـم آل أبي طالـب، و نصر مذهـب النـواصب مثـل عبد الله بـن مصعب الزبيري و وهب بن وهب البختري ومن الشعراء مثل مروان بن أبي حفصة، ومن الأُدباء عبد الملك بن قريب الأصمعي وبكار بن عبد الله الزبيري.

...يشتهـي العلـوي الأكلـة فيحرمهـا، ويقترح على الأيـام الشهـوة فـلا يطعمهـا، وخـراج مصر والأهواز وصـدقـات الحرمين والحجـاز تصرف إلى مطربين أمثال ابن أبي مريـم المدني وإبراهيم الموصلي وابن جامع السهمي وزلـزل الضارب وبرصوما الزامـر... والمتوكل يتسرى بـاثني عشر ألـف سرية، والسيـد مـن سادات أهـل البيت يتعفـف بزنجية أو سندية، وصفـوة مال الخراج مقصورة على أرزاق الصفاعنة وعلى مـوائد المخاتنـة وعلى طعمة الكـلابين ورسـوم القراديـن وعلى مخارق وعلويـة المغني وزرزر وعمـر بن بـانة المهلبـي، ويبخلون على الفـاطمي بـأكلة أو شربـة ... وهم القـوم الذيـن أحل لهم الخمـس وحرمـت عليهم الصدقـة، وفرضـت لهم الكرامة والمحبـة، يتكفّفون ضراً، ويهلكـون فقـراً ويـرهـن أحدهم سيفـه ويبيع ثوبه... ليس له ذنب إلاّ انّ جدّه النبـي وأبـوه الوصي وأُمّه فاطمة و جـدّته خديجة و

مذهبـه الإيمـان و إمامـه القرآن... .

وماذا أقـول في قوم حرثوا قبر وتـربة الحسين بالفـدان، ونفوا زوّاره إلى البلدان....[١]

قتل المتوكل وخلافة المنتصر

وأخيراً وفي ليلته الحمـراء وعندمـا كان غـارقاً في لهوه وسكـره قتل المتـوكل، وبتخطيط مسبق من قبل المنتصر ابنه، فقد قتله هو ووزيره الفتح بن خاقان شوال عام ٢٤٧ وبتعاون من الأتراك ثمّ تقلد الخلافة.[٢]

وكان من جملة نـدمائه عبادة المخنّث وكان يشد على بطنـه تحت ثيابه مخدة ويكشف رأسـه وهو أصلع ويـرقص بين يـدي المتوكل والمغنّـون يغنّون:قد أقبل الاصلع البطين خليفة المسلمين.

يحكي بذلـك علياً عليه السلام . والمتـوكل يشرب ويضحـك، ففعـل ذلـك يومـاً والمنتصر حاضر، فأومأ إلى عبادة يتهدّده، فسكت خوفاً منه.

فقال المتوكل: ما حالك؟ فقام وأخبره .

فقال المنتصر: يـا أمير المؤمنين انّ الذي يحكيه هـذا الكلب ويضحـك منه الناس هو ابن عمك وشيخ أهل بيتـك وبه فخرك، فكلّ أنت لحمه إذا شئت ولا تطعم هذا الكلب وأمثاله منه.

فقال المتوكل للمغنّين غنّوا جميعاً:

---

١. رسائل الخوارزمي:٧٦ـ ٨٣، آل بويه، الفقيهي: ٤٥٣.

٢. مروج الذهب:٤/ ٣٨؛ تتمة المنتهى: ٢٣٨.

غـار الفتـى لابـن عمـه   رأس الفتـى فـي حـر أُمّه[١]

وأثر ذلك راح المنتصر يخطط وبالتعاون مع الأتراك لقتل أبيه.

وأظهر المنتصر وخلافـاً لأبيه حبه لعلي وآله، وأمر الناس بـزيارة الحسين بن علي، ومنـح العلويين الأمـان بعد مـا لاقوه مـن الخوف والرعـب في زمن أبيـه.[٢] وفضلاً عن ذلك قام بثلاثة أُمور كبيرة:

١. رد فدك إلى العلويين.

٢. ورد موقوفاتهم إليهم.

٣. عزل والي المدينة صالح بن علي الذي كان يسيء المعاملة معهم، ونصب علي بن الحسين بديلاً له، وأوصاه بـأن لا يأل جهداً في إكرام الهاشميين والإحسان إليهم.[٣]

ولكن لم يستمر ذلك طويلاً حيـث كانت فترة خلافة المنتصر قصيرة، وعاد الرعب والاضطهاد مرة أُخرى.

الإمام الهادي عليه السلام في مواجهة فقهاء البلاط

ومـع أنّ سياسـة الخلفاء العبـاسيين كـانت مبنيـة على لفت اهتمام النـاس وانتباههم نحو فقهاء البلاط والالتزام بآرائهم رسمياً. غير انّه قد اتّفق ان حدثت اختلافات عديدة بين فقهاء البلاط أثناء إقـامته في سامراء، فكانوا لم يجدو بدّاً من الرجوع إليه، وكان الإمام ولما كان يتمتع بـه من علم الإمامة والاستدلال الواضح

---

١. الكامل في التاريخ:٧/ ٥٥ـ ٥٦، مآثر الأنافة:١/ ٢٣٠ـ٢٣١؛ امام هادى:٦٣.

٢. مآثر الانافة في معالم الخلافة، القلقشندي:٣/ ٢٣٨.

٣. الكامل في التاريخ:٧/ ١١٦؛ مروج الذهب:٤/ ٥١؛ حياةالإمام الهادي: ٢٧٥.

يتناول المسائل المطروحة عليه بدقةعالية، ممّا كان يبعث الفقهاء على الإعجاب والقبول بما يصل إليه ويفتي به.

١. حدّ المسيحي الزاني

قُدّم إلى المتوكل رجل نصراني فجر بامرأة مسلمة، فأراد أن يقيم عليه الحد، فأسلم ذلك الرجل، فقال يحيى بن أكثم: الإيمان يمحو ما قبله، و قال بعضهم يضرب ثلاثة حدود، وقال بعض آخر قولاً آخر.

دفع هذا الاختلاف في الفتوى المتوكل إلى أن يكتب إلى الإمام الهادي يستفتيه ويسأله عن الحكم؟

فقال الإمام: «يُضرب حتى يموت».

فأنكر الفقهاء ويحيى بن أكثم ذلك وقالوا: لم يرد هذا في آية أو رواية، وطلبوا من المتوكل أن يكتب إليه يسأله عن العلة والدليل.

فأجاب الإمام بعد البسملة: ﴿فَلَمّا رَأَوا بَأْسَنا قالُوا آمَنّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بِمَا كُنّا بِهِ مُشْرِكينَ* فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إيمانُهُمْ لَمّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللهِ الَّتي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ﴾ [1]

فقبل المتوكل استدلال الإمام وأمر بضربه.[2]

وقد أفهمهم الإمام بذكره لهذه الآية انّه كما انّ إيمان المشركين لم يمنعهم عذاب الله، كذلك إسلام هذا المسيحي لا يسقط الحدّ عنه.

---

١. غافر: ٨٤ـ ٨٥.

٢. وسائل الشيعة:١٨/ ٤٠٨، باب٣٦ من أبواب حدّ الزنا، ط بيروت؛ حياة الإمام الهادي، باقر شريف القرشي: ٢٤٠.

٢. نذر المتوكل

ومرض المتـوكل ذات يوم، فنذر ان عـوفي ليتصدقن بدنـانير كثيرة، فعوفي، فسأل الفقهـاء عن ذلك فلـم يجد عندهم فـرجاً وجوابـاً شافياً، فبعـث إلى الإمام الهادي فسأله؟

فقال عليه السلام: «يتصدّق بثلاثة وثمانين ديناراً».

فقال المتوكل: من أين لك هذا؟

فقال عليه السلام: من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾[١]، فعددنا تلك المواطن والغزوات فكانت ثلاثة وثمانين.[٢]

الإمام الهادي والمدارس الكلامية

وقد سادت المدارس الدينيـة والفكرية كالمعتزلة والأشـاعرة في عصر الإمام الهادي، وظهرت في المجتمع الإسلامي آراء ونظريات كلامية متعددة، وثار الجدل والبحث على قـدم وساق حول مسائل كـلامية، مثل الجبر والتفويـض، وإمكان رؤية الله وعدم ذلك، وجسميته تعالى، وغيرها من القضايا الأُخرى، و من هنا كان الإمام يواجه أسئلة ناتجة عن هذه الآراء والنظريات.

وجعل انتشـار هذه الآراء المنحرفـة وتفشّيها قيادة الشيعـة فكرياً مـن قبل الإمـام أمراً ضروريـاً للغـاية، ولـذلـك راح الإمـام يثبت بطـلان الآراء والمدارس المنحرفة مثـل الجبرية والمجسمة خلال مناظراتـه ورسائله بأدلّة قاطعـة وساطعة،

---

١. التوبة: ٢٥.

٢. تذكرة الخواص: ٣٦٠؛ الأنساب: للسمعاني: ٤/ ١٩٦؛ حياة الإمام الهادي عليه السلام: ٢٤٠.

وقدم الإسلام الحقيقي مجرداً عن كلّ شائبة انحراف إلى المجتمع الإسلامي وهذا أحد مظاهر عظمة الإمام العلمية.[١]

توضح لنا دراسة حياة الإمام العلمية انّ أغلب مناظرات الإمام الهادي كانت تدور حول هذا النوع من المسائل الكلامية ورويت عنه روايات عديدة في هذا المجال تثبت روعة أُسس الشيعة العقائدية وأفضليتها.

وعلى سبيل المثال يمكن الإشارة إلى رسالة الإمام التفصيلية حول الجبر والتفويض جواباً على أسئلة أهالي الأهواز، والتي أثبت وبرهن خلالها على النظرية الصحيحة: لا جبر ولا تفويض، ببيان ساطع واستدلال قاطع.[٢]

وبما انّ هذه المواضيع خارجة عن موضوع هذا الكتاب الذي هو تاريخي غالباً أعرضنا عن التفصيل حول ذلك، ونحيل الراغبين إلى الكتب المختصة.

مواجهة الغلاة

ومن الفرق الباطلة والمنحرفة التي كان لها نشاط كبير في عصر الإمام الهادي عليه السلام هي فرقة الغلاة التي كانت تتبنّىٰ أفكاراً منحرفة وعقائد باطلة وواهية وتدّعي التشيع، فقد غلوا في الإمام حتى ألّهوه، وكانوا يدّعون في بعض الأحيان انّهم قد نصبوا من قبله، وهكذا راحوا يتسبّبون في تشويه الشيعة لدى الفرق الأُخرى.

وقد تبرّأ الإمام الهادي من هذه الفرقة وخاصمهم، وحاول من خلال طردهم أن يبعد وصمة العار التي كانت تلحق التشيع بهم.

---

١. حياة الإمام الهادي: ١٣٠؛ الاحتجاج: ٢٤٩.

٢. تحف العقول، الحسن بن شعبة: ٤٥٨ـ ٤٧٥.

وقد يمكن القول بأنّ السبب في ظهور عقيدتهم بألوهية الإمام والعقائد الأُخرى المنحرفة هو الأُمور التالية:

أ: معجزاته وعلمه الغيبي والأُمور الأُخرى الغير العادية التي شوهدت من الإمام ممّا لم يستطع هؤلاء تفسيرها بشكل صحيح وناضج، فجعلوها ذريعة للخرافات والبدع، وكلّ ما هو لا إسلامي.

ب: أرادت هذه الفرقة الباطلة أن تدوس على جميع الحدود الإسلامية وقوانين الدين ليتصرّفوا حسب رغباتهم وأهوائهم، ولذلك حلّلوا جميع المحرمات.

ج: كانوا يطمعون فيما كان بأيدي الناس من الأموال، وأرادوا أن يحصلوا على الأموال التي كان الشيعة يدفعونها لأئمتهم.

وعلى أي حال كان الغلاة فرقة خطيرة مضلّة تقودها الشخصيات التالية:

١. علي بن حسكة القمي.

٢. قاسم اليقطيني.

٣. الحسن بن محمد بن بابا القمي.

٤. محمد بن نصير الفهري.

٥. فارس بن حاتم.

وعلى سبيل المثال كان علي بن حسكة يعتقد:

أ: أنّ الإمام الهادي عليه السلام هو الله والخالق لهذا العالم.

ب: انّ ابن حسكة نبي مبعوث من قبل الإمام الهادي لهدايةالناس.

ج: الفرائض الإسلامية مثل الزكاة والحج والصوم و... غير واجبة.

وكان محمد بن نصير الفهري يقول:

أ: انّ الإمام الهادي عليه السلام هو ربّ هذا العالم وخالقه.

ب: يجوز الزواج بالمحارم مثل الأُمّ والأُخت والبنت.

ج: اللواط مباح، وهو أحد الطرق لإشباع الرغبات والشهوة ولم يحرمه الله.

د: انّ أرواح الأموات تحل في أبدان المواليد (التناسخ).[1]

وفي رسالة يجيب خلالها على أسئلة حول هذا الموضوع يقول الإمام لشيعته: «إنّ هذه الفرقة ضالّة ومنحرفة وكافرة» ويوصيهم بالابتعاد عنها، ففي جواب كتبه ردّاً على سؤال أحد الشيعة حول ابن حسكة وآرائه الباطلة يقول الإمام:

«كذب ابن حسكة عليه لعنة الله، وبحسبك انّي لا أعرفه في موالي، ماله لعنه الله، فوالله ما بعث الله محمداً والأنبياء قبله إلاّ بالحنيفية والصلاة والزكاة والصيام والحجّ والولاية، وما دعا محمد صلى الله عليه وآله إلاّ إلى الله وحده لا شريك له، وكذلك نحن الأوصياء من ولده عبيد الله لا نشرك به شيئاً، إن أطعناه رحمنا، وإن عصيناه عذبنا، مالنا على الله من حجة بل الحجّة لله عزّ وجل علينا وعلى جميع خلقه أبرأ إلى الله ممن يقول ذلك، وانتفي إلى الله من هذا القول، فاهجروهم لعنهم الله، والجؤوهم إلى ضيق الطريق، فإن وجدت من أحد منهم خلوة فاشدخ رأسه بالصخر».[2]

وخلال رسالة كتبها إلى العبيدي يتبرّأ الإمام من الفهري وابن بابا القمي أيضاً ويقول: «أبرأ إلى الله من الفهري والحسن بن محمد بن بابا القمي، فابرأ منهما فإنّي محذّرك وجميع موالي، وانّي ألعنهما عليهما لعنة الله مستأكلين يأكلان بنا الناس،

١. حياة الإمام الهادي، القرشي: ٣٣٥.

٢. اختيار معرفة الرجال: ٥١٩، الحديث ٩٩٧؛ وسائل الشيعة: ١٨/ ٥٥٤.

فتّانين آذاهما الله وأركسهما في الفتنــة ركساً، يزعـم ابن بابـا انّي بعثته نبياً وانّـه باب عليـه لعنة الله سخـر منه الشيطـان فأغـواه، يـا محمد إن قـدرت أن تشدخ رأسـه بالحجر فافعل، فانّه قد آذاني آذاه الله في الدنيا والآخرة».(١)

وكان فارس بن حـاتم الذي قلنا إنّه من رؤوس الغلاة قـد كذب ولعن من قبل الإمام، وفي اختلافه ونزاعه مع علي بن جعفر(٢)، دافع الإمام عن علي وأيّده، و قد بلغت انحرافات فارس وبدعه وتضليـلاته حدّاً جعل الإمام يصدر أمراً بقتله، ويضمن لقاتله الجنة وكتب عليه السلام:

«هذا فارس لعنه الله يعمل من قبلي، فتّانـاً داعياً إلى البدعة ودمه هدر لكلّ من قتله، فمن هذا الذي يريحيني منه ويقتله وأنا ضامن له على الله الجنة».(٣)

ونفذ أحـد أصحاب الإمام باسـم الجنيد حكم الإعدام بـه، وأراح المجتمع الإسلامي بقتله.

فتنة خلق القرآن

ومن أكثر القضايا الفكريـةوالعقائدية جدلاً وإثارة في عصر الإمام الهادي هي قضية خلق القرآن وعدمه التي دارت حولها مناقشات ونزاعات كبيرة.

فـالمعتزلـة الـذين اعتمـدوا على العقـل إلى درجة كبيرة وتنـاولـوا القضايـا الاعتقـاديـة في ضوء معطيـاتـه، اعتقـدوا بحـدوث وخلـق القرآن وربطـوا ذلـك

١. اختيار معرفة الرجال: ٥٢٠، الحديث ٩٩٩.

٢. كان علي بن جعفر من أكثر أصحاب الإمام الهادي نشاطاً وأهمية، وقد تحدّثنا عنه مسبقاً في منظمة الوكالة.

٣. اختيار معرفـة الرجال: ٥٢٤، الحديث ١٠٠٦؛ تحليلى از تـاريخ دوران دهمين خورشيد امـامت، امام هادى عليه السلام :١٣٢ـ ١٣٤.

بالصفات الإلهية وخالفوا قدمه كما يدعيه الأشاعرة وأهل الحديث، فنشب النزاع بين النظريتين على أشدّ ما يمكن.

وقد بدأ البحث حول خلق القرآن ـ كما يقول المحقّقون ـ منذ نهايات الحكم الأموي[١] (بدايات القرن الثاني)، وأوّل من عرض هذا البحث في الأوساط الإسلامية هو جَعْد بن درهم أُستاذ مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، وقد أخذ هذه الفكرة من أبان بن سمعان، وأخذها الأخير من طالوت بن أعصم اليهودي أيضاً. أصبح جعد بعد ذلك مطارداً وفر إلى الكوفة وهناك نقل فكرته هذه إلى جهم بن صفوان الترمذي.[٢]

ويعتقد البعض بأنّ فكرة قدم القرآن قد تسربت إلى المجتمع الإسلامي من المسيحية، لأنّهم كانوا يؤمنون بأنّ المسيح كلمة الله وبالتالي يرون كلام الله ـ و هو من الله ـ قديماً أيضاً. وممّا يؤيد هذا الرأي انّ المأمون وفي بيان أصدره إلى إسحاق بن إبراهيم حاكم بغداد في هذا الموضوع يتهم الأشاعرة بأنّهم قالوا في القرآن بمثل ما قاله النصارى.

وعلى أي حال تابع بشر المريسي الذي يقال انّه يهودي الأصل هذا البحث في عهد هارون، وأخذ يشيع هذه الفكرة ـ فكرة خلق القرآن ـ مدة أربعين عاماً، ولمّا سمع انّ هارون قد سمع ما قاله وهدّده بالموت غياباً ابتعد عن الأنظار، وقد استمر هذا البحث بين الطرفين حتى جاء المأمون وأقحم نفسه فيه، فأصبحت نار الاختلاف أكثر اشتعالاً، وهو الذي كان عالماً خبيراً وعلى معرفة بالفلسفة والفقه

١. راجع حول خلق القرآن و الجذور التاريخية لهذه المسألة كتاب الكامل في التاريخ:٧/ ٧٥.

٢. وقد قتل خالد بن عبد الله القسري جعداً يوم عيد الأضحى في الكوفة بسبب ذلك كأضحية، وقتل جهم على يد سالم بن أحوز عام ١٢٨ في مرو. (ضحى الإسلام:٣/ ١٦٢)، ولعلّ هذا هو الذي جعل أحمد بن حنبل حامل لواء أهل الحديث أن يعتبر أصحاب خلق القرآن كفّاراً وجهميّين.

والأدب وباحثاً ثـاقب الرأي قد أبدى رغبـة وميلاً منذ شبابـه إلى الاعتزال، ودافع عن فكرة خلق القرآن، وكان الفقهاء يخشون من أن يصبح هو الخليفة ويشيع هذه العقيدة ،لدرجة انّ الفضيل بن عياض كان يقول علانية:

ادعوا الله أن يطيل في عمر هارون ليريحني من شر خلافة المأمون.[١]

وقد كان تـوقعهم في محله، فقد تبنّـى المأمون المذهب المعتزلي ونظـرية خلق القرآن رسمياً بعد وصوله إلى الخلافة واستخدم سلطته وسطوته في قمع المعارضين لهذا الرأي، ولأنّ المخالفين الذيـن كانوا يعرفون في تلك الفترة بـأهل السنّة يبدون صموداً ومقـاومة، وصلـت الأزمة إلى أوجهـا، وخرجـت المسألـة عن كـونها بحثاً علمياً دينياً، وتحولت إلى قضية سياسية عقائدية مثيرة للقلاقل، وأصبحت حديث الساعة حتى صار عوام الناس تتناولها بحرارة.

وفي سنة ٢١٨ أصدر المأمون أمراً إلى إسحاق بـن إبراهيم عامله على بغداد بأن يمتحـن ويختبر جميع القضـاة والشهود والمحـدثين ورجال الـدولة، فمـن أقرّ بخلق القرآن أُبقي على ما كان عليه وإلاّ فيعزل.[٢]

وعرف هذا الأمـر الذي كان نوعـاً من تفتيش العقائد وفحصهـا بِمحنة[٣] خلق القرآن في التاريخ.

والذي كان يحثّ المأمون وبعده المعتصم والواثق العباسيين على الخوض في ذلك هـو ابن أبي دؤاد القـاضي الشهير لبلاط بنـي العباس الـذي أصبح قـاضي القضاة بعـد يحيى بـن أكثم، وقـد كان يتمتـع بصيت وشهـرة علمية ويقـارنونـه بالبرامكة في الجود والكـرم والسلطة والنفوذ في بلاط العبـاسيين، ولعب دوراً كبيراً

١. تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان:٣/ ٢١٤.
٢. الكامل في التاريخ:٦/ ٤٢٣؛ تاريخ الخلفاء:٣٠٨.
٣. المحنة تعني الامتحان.

في محنة القرآن، ولأجل ذلك تصوروا انّه هو الذي أسّس هذه النظرية، وقد لاحظنا انّه ليس كذلك.

وعلى أي حال بلغ تشدّد العباسيين درجة حتى نكل با لمخالفين واضطهدوا وملئت بهم السجون، وجلد أحمد بن حنبل الذي كان يدافع عن رأيه بصلابة.[١] وقتل أحمد بن نصر الخزاعي في عهد الواثق، وعُذّب يوسف بن يحيى البُرَيطي تلميذ الشافعي ومات بسجن مصر، وينقل اليعقوبي قصة غريبة حول هذا، فقد كتب يقول:

وكتب طاغية الروم يذكر كثرة من بيده من أسرى المسلمين ويدعو إلى الفداء، فأجابه الواثق إلى ذلك، ووجه بمن ينوب عنه في ذلك، وكان من بعثهم كلّما مرّ رجل من الأسرى امتحنوه في القرآن ،فمن قال إنّه مخلوق، فودي به ودفع إليه ديناران وثوبان.[٢]

كلّ هذه الإجراءات التعسفية جعلت الناس تكره المعتزلة، ولذلك عندما تقلّد المتوكل العباسي الخلافة دافع عن أهل الحديث وحسم محنة القرآن، غير انّ هذه المناقشات لم تنتهي مباشرة، بل استمرت في المجتمع الإسلامي لمدة طويلة.[٣]

موقف الإمام الهادي عليه السلام

ولم يجز الأئمة المعصومون الذين حملوا لواء الفكر الإسلامي الأصيل وقيادته السكوت لأنفهسم أزاء هذا الجدل الفكري القائم، فراحوا عليهم السلام ينتقدون الفكر

١. مروج الذهب:٣/ ٤٦٤. ٢. تاريخ اليعقوبي: ٣/ ٢١٥.

١. للتوسع أكثر في الاطّلاع على مسألة خلق القرآن يراجع مضافاً إلى تلك المصادر الكتب التالية: تاريخ الخلفاء للسيوطي: ٣٠٦ـ ٣١٢؛ ضحى الإسلام:٣/ ١٥٥ـ ٢٠٧؛ بحوث في الملل والنحل، جعفر السبحاني:٢/ ٢٥٢ـ٢٦٩.

المنحرف ويبطلونه، ويقدّمون الفكـر الإسلامي الصحيح، وحذروا المسلمين من الولـوج في هذا الجدل الـذي لا طائل مـن ورائه من خـلال مواقفهـم الواضحـة والإرشادية.

قال الإمام الصادق عليه السلام للأعمش حين سرده لشرائع الديـن: والقرآن كلام الله ليس بخالق ولا مخلوق.[1]

وقد سأل الريان بن الصلت الإمام الرضا وقال: يابن رسول الله ما تقول في القرآن؟

فقال عليه السلام: «كلام الله ولا تتجاوزوه، ولا تطلبوا الهدىٰ في غيره فتضلّوا».

ويـروى عـن الإمـام الهـادي عليه السلام حـديث حول هـذا الموضوع، وهـو أكثر تفصيـلاً ووضوحـاً نسبيـاً، فقـد كتب الإمـام جـواباً على سـؤال أحـد شيعتـه ببغـداد:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم عصمنا الله وإيّـاك من الفتنة، فإن يفعل فقـد تعظم بها نعمـة، وإن لا يفعل فهـي الهلكـة، نحن نـرى أنّ الجدال في القرآن بـدعة اشترك فيهـا السائل والمجيـب، فتعاطـى السائل ما ليس له، وتكلّف المجيب ما ليس عليه، وليس الخالق إلاّ الله عزّوجلّ وما سواه مخلوق، والقرآن كلام لا تجعل له اسماً من عندك فتكون من الضالّين، جعلنا الله وإيّاك **﴿من الذين يخشون ربّهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون﴾**[2]».[3]

---

١. الخصال: ٢/ ٦٠٩، أبواب المائة فما فوقه؛ بحار الأنوار: ١٠/ ٢٢٨.

٢. الأنبياء: ٤٩.

٣. التوحيد، الشيخ الصدوق: ٢٢٤.

أوجب هذا الموقف الذي اتخذه الأئمّة أن يبتعد الشيعة عن هذا النزاع، وأن لا يخوضوا في هذه البدع المضلّة.

تلامذة مدرسة الإمام الهادي عليه السلام

ومع أنّ عصر الإمام الهادي عليه السلام ـ كما أشرنا ـ كان عصراً يسوده الرعب والإرهاب والاستبداد ولم يفسح له المجال لممارسة نشاطه الثقافي، واختلف من هذه الناحية مع عصر الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام خاصة، غير انّه ورغم الظروف الحرجة ومضافاً إلى نشاطاته الثقافية ـ من خلال المناظرات والرسائل والإجابات على الأسئلة والشبهات وعرض الرؤية الصائبة ازاء المدارس الكلامية المنحرفة ـ ربّى رواة ومحدّثين وشخصيات بارزة من الشيعة، وعلّمهم علوماً ومعارف إسلامية، وقد نقلوا هذاالتراث الثقافي الضخم إلى الأجيال اللاحقة.

وقد عدّ الشيخ الطوسي العالم الإسلامي الشهير ١٨٥ تلميذاً من تلامذته في مختلف العلوم الإسلامية .(١)

ويوجد بينهم شخصيات علمية وروحية بارزة؛ مثل الفضل بن شاذان، والحسين بن سعيد الأهوازي،وأيّوب بن نوح، وأبي علي الحسن بن راشد،والحسن بن علي الناصر الكبير، وعبد العظيم الحسني ــ المدفون في مدينة الري ـ وعثمان بن سعيد الأهوازي. وللبعض منهم أعمال وتأليفات قيمة في مجالات مختلفة من العلوم الإسلامية، وقد ذكرت هذه المصنفات وخدماتهم العلمية وجهودهم الثقافية في كتب الرجال.

١. رجال الطوسي، ص ٤٠٩ــ ٤٢٩، وطبعاً يجب استثناء بعض الأشخاص كفارس بن حاتم وابن حسكة الذين انحرفوا ونبذهم الإمام وللاطّلاع على تلامذة الإمام الهادي أكثر يراجع حياة الإمام الهادي، القرشي: ١٧٠ــ ٢٣٠.

استشهاد الإمام عليه السلام

وعلى الرغم من أنّ الإمام كان تحت المراقبة في سامراء وعانى الكثير من الآلام والضغوط غير انّه لم يخضع للظالمين قيد أنملة.

ومن الواضح انّ شخصيته الإلهية وموقعه الاجتماعي ونضاله السلبي وعدم تعاونه مع الخلفاء كان كلّ ذلك أمراً لا يمكن احتماله لطواغيت عصره ومثيراً لمخاوفهم ومسبباً لهم القلق، وفي النهاية وجدوا انّ الطريقة الوحيدة هي إطفاء نور الله وحاولوا قتله، وهكذا لم يرحل الإمام الهادي عن هذا العالم بموت طبيعي مثل الأئمّة السابقين، ومات مسموماً[١] في عهد المعتز، وقد استشهد في رجب من عام ٢٥٤ هـ و دفن بسامراء في بيته.[٢]

---

١. نور الأبصار، الشبلنجي: ١٦٦.

٢. الإرشاد، المفيد: ٣٣٤.

الإمام الحسن العسكري عليه السلام

* الأوضاع السياسية والاجتماعية في عصر الإمام

*إجراءات الإمام الأمنية

*الجوانب السبعة لنشاط الإمام

*الاستفادة من علم الغيب على نطاق واسع

*إعداد الشيعة لعصر الغيبة

*سطوع شمس الحقيقة

نبذة مختصرة

عن حياة الإمام عليه السلام

ولد الإمام العسكري إمام الشيعة الحادي عشر عام ٢٣٢[١]، أبوه هو الإمام الهادي الإمام العاشر؛ وأُمّه امرأة زاهدة مـؤمنة اسمها :حُدَيثة[٢]، وقال بعض: إنّ اسمها سوسن[٣]، وقد كانت من العارفات الصالحات، وكفى في فضلها انّها كانت مفزع الشيعة بعد وفاة أبي محمد وفي تلك الظروف الحرجة.[٤]

ولأنّ الإمام كان يقيم في سامرّاء مجبراً في حـي يسمّى بالعسكر بناء على أمر الخليفة العباسي سمي لذلك بالعسكري.[٥]

أشهر ألقابه الأُخرى هي: النقي والزكي[٦]، وكنيته أبو محمد، كان عمره ٢٢ عاماً عنـدما استشهد أبوه الكـريم، كانت إمـامته ستة أعوام، وعـاش ٢٨ عاماً ، واستشهد سنة ٢٦٠هـ ودفن في بيته بجوار أبيه في سامرّاء.[٧]

---

١. أُصول الكـافي:١/ ٥٠٣؛ الإرشاد: ٣٣٥؛ مناقب آل أبي طـالب:٤/ ٤٢٢؛ إعـلام الورى: ٣٦٧، واعتقد المسعودي والاربلي انّه ولادته كانت عام ٢٣١.

٢. الإرشاد:٣٣٥؛ اعلام الورى: ٣٦٦.

٣. أُصول الكافي:١/ ٥٠٣؛ كشف الغمة: ٣/ ١٩٢.

٤. الأنوار البهية: ١٥١.

٥. علل الشرائع:١/ ٢٣٠، باب ١٧٦؛ معاني الأخبار : ٦٥.

٦. دلائل الإمامة: محمد بن جرير الطبري:٢٢٣.

٧. الإرشاد: ٣٤٥؛ الإتحاف بحب الأشراف، الشيرواني: ١٧٨ـ ١٧٩.

الخلفاء المعاصرون للإمام عليه السلام

عاصر الإمام في مدّة إمـامته القصيرة ثلاثة خلفاء عباسيين كـان كل منهم أظلم من الآخر وهـم:

١. المعتز بالله (٢٥٢ـ ٢٥٥).

٢. المهتدي بالله (٢٥٥ـ ٢٥٦).

٣. المعتمد بالله(٢٥٦ـ ٢٧٩).

راح العباسيون الذين ثاروا في بداية ثورتهم باسم العلويين والطلب بثأرهم يمارسون الظلـم والاضطهاد كـالأمويين وأكثر منهـم، ونسوا أو تنـاسوا مـا وعدوا الناس به في السابق.

ولأجل تقـديم صحيفـة أعمال الخلفاء العباسيين السـوداء الذيـن عاصروا الإمام، نورد ما حدث من الأحداث وكيفية حكمهم في تلك الفترة بشكل مختصر:

١. المعتز

وهو ابـن المتوكل العبـاسي، وقد وصـل إلى الحكم بعد عـزل المستعين عام ٢٥٢، وواصل سيرة من سبقه.

سيطر الاتراك بعد قتل المتوكل على الأُمور وأصبح الخلفاء تحت أمرتهم بدل أن يكونـوا هم كذلـك، لدرجة انّـه لو رفض الخضـوع لمطالبهم خططـوا لخلعه أو قتله، والقصة التالية تؤكد ذلك:

لمّا جلس المعتز على سرير الخلافة قعـد خواصه وأحضروا المنجمين، وقالوا لهم: انظروا كم يعيش وكم يبقى في الخلافة؟ وكان با لمجلس بعض الظرفاء فقال: أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته، فقالوا له: فكم تقول إنّه يعيش؟ وكم

يملك؟قال: مهما أراد الأتراك، فلم يبق في المجلس إلّا من ضحك.[١]

قتل المعتز

وبسبب النفوذ والسيطرة التي يتمتع بها الأتراك في بلاط الخلافة كان الوضع بنحو لم يكن للخليفة فيه إلّا منصب شكلي، وكان زمام الأُمور بيد الأتراك حقيقة.

فحضروا ذات يوم إلى قصره وأخرجوه منه جرّاً برجله وضربوه بالدبابيس ـ الهراوات ـ وحرقوا قميصه، وأقاموه في الشمس في يوم صائف، فكان يرفع رجلاً ويضع أُخرى لشدة الحر، وفي هذه الأثناء خلعوه من منصب الخلافة وأشهدوا على ذلك جماعة، ثمّ قرّروا بعد ذلك وللتخلّص أن يودعوه لدى أحدهم حتى يقضي عليه بالتجويع والتعذيب المستمر ويموت عطشاً، وهكذا وضعوا الخليفة الذي لم يكن به غير الرمق في سرداب وسدّوا بابه عليه وبنوا عليه بالآجر حتى مات وهو حي.[٢]

٢. المهتدي بالله

المهتدي هو ثاني الخلفاء المعاصرين للإمام الحادي عشر والخليفة العباسي الرابع عشر الذي جلس على كرسي الخلافة بعد قتل أخيه المعتز عام ٢٥٥، ولم يكن المهتدي(مثل أخيه أيضاً) يتمتع باستقلالية في الأُمور، وكان لعبة بأيدي الأتراك المتنفذين في البلاط العباسي.

---

١. الفخري، ابن طقطقا: ٢٤٣.

٢. الفخري، ابن طقطقا: ٢٤٣؛ الكامل في التاريخ: ٧/ ١٩٥ـ ١٩٦، ويوجد هناك أقوال أُخرى حول كيفية مقتله راجع: تاريخ الخلفاء: ٣٦٠؛ مروج الذهب: ٤/ ٩٧.

كانت شخصيـة المهتدي بالنسبة إلى الخلفاء العباسيّين الآخـرين شخصية معتدلة، وغير بعيدة الشبه عن شخصية عمر بن عبد العزيز من الخلفاء الأمويين وكان يقول أحياناً: إنيّ استحيي أن يكون في بني أُميّـة مثله ـ عمر بن عبد العزيز ـ ولا يكون مثله في بني العباس .

ولذلك كان يجلس مثل عمر بن عبـد العزيز للمظالم، ويهتم بأُمور الناس، ويجانب الإسراف في المأكـل والملبس ويقتصـد فيهما، وقد أطـرح الملاهي، وحـرّم الشراب، ونبذ الارستقراطيـة بعد تقلّده الخلافة، وقد تحدث المؤرّخـون حول ذلك وأثنوا عليه.[1]

ويبـدو انّ المهتدي قـد بادر إلى هـذه الأعمال بسبـب الظروف الاجتماعيـة والسياسية، فقـد كان يعرف بأنّه يوجـد في المجتمع الإسلامي من هـو أفضل منه بكثير وأعلم وأليق بمنصـب الخلافة ولذلك كان يجب أن يمنحهـم هذا المنصب ويعتزل هو عـالم السياسة والحكم، ولهذا أراد أن يكوّن لنفسـه بهذه الأعمال قاعدة شعبية، وإلاّ فانّ شخصـاً مثله يصوم نهاره و يفطر بالـرغيف والخل والملح[2] كما يدّعي بعض المؤرخين كان من المفروض أن يكبت أهواءه النفسية ورغباته ويحتقر الخلافة ويرفضها ولا يتهالك على كرسي الخلافة حتـى آخر لحظاته ومقتله كأخيه المعتز، ويعرف التـاريخ الكثير من هؤلاء الحكام و من المستبعـد أن يكون لأعماله دوافع إلهية.

وأوضـح شاهـد على دنيـويـة المهتدي وظلمـه هـو اعتقـال الإمام الحسـن العسكري وسجنه وظل معتقلاً حتى قتل وكان ينوي قتل الإمام .[3]

١. تـاريخ الإسـلام السياسي :٣/ ٣٧٧؛ مـروج الذهـب:٢/ ٩٦ـ١٠٣؛ الفخـري:٢٤٦، الكامـل في التاريخ:٧/ ٢٣٣ـ ٢٣٤؛ تاريخ الخلفاء: ٣٦٢.

٢. الكامل في التاريخ:٧/ ٢٣٤؛ الفخري: ٢٤٦؛ تاريخ الإسلام السياسي:٢/ ٣٧٧.

٣. بحار الأنوار:٥٠/ ٣١٣؛ إثبات الوصية: ٢٤٥.

٣. المعتمد

وهو ثالث الخلفاء العباسيين المعاصرين للإمام العسكري وقد مضت أربعة أعوام من إمامة الإمام العسكري في عهده، ولد المعتمد عام ٢٢٩، ووصل إلى الحكم على يد الأتراك عام ٢٥٦ ومات عام ٢٧٩.

وإذا كان المؤرّخون قد ذكروا للمهتدي (ابن عم المعتمد[١]) ما يحمد عليه وأثنوا على أعماله، فقد قالوا من ناحية أُخرى الكثير حول فساد المعتمد وانحرافه الأخلاقي وأجمعوا على أنّه مولع باللهو والخلاعة والمجون، والشيء الوحيد الذي لم يفكر فيه هو هموم الناس ومشاكلهم، ولهذا السبب رغب الناس عنه وأعرضوا وعلّقوا الآمال على أخيه الموفق:(طلحة بن المتوكل)، لأنّه غرق في الفساد والانحراف الخلقي واللهث وراء أشباع الرغبات[٢]، فاستلم هو مقاليد الحكم في عهده.

وقد كتب المؤرّخون حول سيطرة وسلطة الموفق في عهد المعتمد: كان المعتمد ـ وهو الخليفة ـ مستضعفاً وكان أخوه الموفق طلحة هو الغالب على أُموره.[٣]

الظروف السياسة والاجتماعية في عصر الإمام العسكري عليه السلام

وكما لاحظنا فإنّ الخلفاء لم يألوا جهداً في إيذاء الأئمّة واضطهادهم والضغط عليهم، وقد بلغت هذه الضغوط والمضايقات ذروتها في عصر الإمام الجواد وخاصة في عصر الإمام الهادي والإمام العسكري عليهما السلام في سامراء. وقد

١. المهتدي هو ابن الواثق بن المعتصم والمعتمد هو ابن المتوكل بن المعتصم.

٢. تاريخ الخلفاء، ص ٣٦٣ـ ٣٦٧؛ مروج الذهب: ٤/ ١٢٣ـ ١٣١.

٣. الفخري: ٢٥٠؛ تاريخ الإسلام السياسي، الدكتور حسن إبراهيم حسن: ٢/ ٣٧٨.

كانت شدة هذه الضغوط والمضايقات والاضطهادات لدرجة انّ هؤلاء الأئمّة الثلاثة الذين كانوا يقيمون في سامراء مركز الحكم قد فارقوا الحياة مستشهدين وهم في ريعان شبابهم: فالإمام الجواد استشهد في الخامسة والعشرين، والإمام الهادي في الواحد وأربعين، والإمام العسكري في الثامنة والعشرين، فيكون مجموع أعمارهم ٩٢ عاماً، وهذا يوضح مدى الإيذاء والتعذيب والاضطهاد الذي لاقوه في حياتهم، ولكن درجة الضغط والمضايقة في عهد الإمام العسكري كانت أكبر منها في عهد الإمامين الآخرين، وذلك لسببين:

١. قد تحوّلت الشيعة في عصر الإمام العسكري إلى قوة ضخمة في العراق، وكان الجميع يعلم بأنّهم مخالفون للخلفاء والحكام ولا يعترفون بشرعية أي واحد من العباسيين ويؤمنون بأنّ الإمامة الإلهية باقية في أولاد علي عليه السلام ، وكانت الشخصية البارزة لهذا البيت في تلك الفترة هو الإمام الحسن العسكري.

والشاهد على قوة الشيعة آنذاك هو اعتراف عبيد الله وزير المعتمد بذلك، فقد ذهب جعفر الكذّاب أخو الإمام العسكري بعد استشهاده إلى عبيد الله وقال: اجعل لي مرتبة أخي وأنا أوصل إليك في كلّ سنة عشرين ألف دينار؛ فزبره وقال: يا أحمق انّ السلطان جرد سيفه في الذين زعموا انّ أباك وأخاك أئمة ليردهم عن ذلك فلم يتهيّأ له، فإن كنت عند شيعة أبيك وأخيك إماماً فلا حاجة بك إلى مرتب.[1]

٢. كان البيت العباسي وحاشيته يعلمون طبقاً للروايات المتواترة بأنّ المهدي المنتظر المبيد لجميع الحكومات المستبدة سيكون من أولاد الحسن العسكري عليه السلام ، ولهذا كانوا يراقبون كل صغيرة وكبيرة في حياة الإمام على أمل

١. كشف الغمة: ٣/ ١٩٧؛ مناقب ابن شهر آشوب: ٤/ ٤٢٢؛ أُصول الكافي: ١/ ٥٠٣؛ الإرشاد: ٣٣٨؛ إعلام الورى: ٣٧٦؛ روضة الواعظين: ٢٧٤؛ أعيان الشيعة: ٢/ ٤٣.

الحصول على ابنه عليه السلام للقضاء عليه ـ مثل محاولة الفراعنة البائسة للقضاء على موسى ـ كما سنوضحه في كيفية استشهاد الإمام.

ولما ذكرنا من الأسباب كان الضغط والاضطهاد على الإمام العسكري شديداً للغاية وأخضعوه للمراقبة من كل ناحية.

وقد بلغ قلق الحكم العباسي من مكانة الإمام الاجتماعية وشعبيته حداً جعلهم يجبرون الإمام على الحضور في البلاط كلّ اثنين وخميس من الاسبوع.[1]

ولم يكتف العباسيون بذلك، فقد اعتقل المعتز الإمام وسجنه[2] لشدة خوفهم وتوجّسهم حتى أمر سعيداً الحاجب بحمل الإمام إلى الكوفة وأن يقتله في الطريق غير انّ الأتراك قد قتلوه بعد ثلاثة أيام.[3]

---

١. المناقب، ابن شهر آشوب: ٤/ ٤٣٤؛ دلائل الإمامة، الطبري ص ٢٢٦؛ بحار الأنوار: ٥٠/ ٢٥١.
نعم وعلى الرغم من نية الخليفة الخبيثة كان كلّما تأتي نوبة حضور الإمام للبلاط يحضر من الناس المشتاقين لرؤيته عليه السلام جمع كبير ويغصُّ الشارع بهم وبدوابهم ويضج بحيث لا يكون لأحد مجال للمشي فيه وتنسد الطرق فإذا جاء الإمام سكن ضجيج الناس وهدأ صهيل الخيل وتفرّقت الناس وبهائمهم حتى يصير الطريق واسعاً يمكن المشي فيه، فيرجع الوضع الطبيعي إلى الشارع بعد مرور الإمام. (الغيبة، الطوسي: ٢٩).
ولعلّه يطرح هذا السؤال هنا وهو مع أنّ الجهاز الحاكم أصبح ضعيفاً متضعضعاً وسيطر الأتراك على الأُمور، فكيف استمر الضغط على الإمام واضطهاده بنفس الدرجة؟
وجواباً على ذلك يجب أن يقال: إنّ القلق من قوة الإمام الروحية والمعنوية لو كان ينتاب الخليفة وحاشيته فقط لكان الأمر سهلاً وكان الإمام يستطيع أن يمارس نشاطه وبطرق مختلفة وبسرية، غير انّ هذا الخوف والقلق كان قد ألقى بظلّه على شريحة سياسية كبيرة كان الخليفة جزءاً منها، وهي تشمل القوّاد وجميع الذين لهم مع الحكم العباسي مصالح مشتركة. ولهذا السبب كان فرض الضغوط والمضايقات على الإمام يشكل المحور الأساسي للجهاز الحاكم، وحتى لو قتل خليفة وجاء آخر فانّ ذلك لم يكن ليتغير.

٢. بحارالأنوار: ٥٠/ ٣١١.
٣. بحار الأنوار: ٥٠/ ٣١٣.

وقد سجن المهتدي بعد المعتز الإمام العسكري مرة أُخرى ونوى أن يقتله ولكن الله لم يمهله وثار الأتراك عليه وقتلوه.[1]

إجراءات الإمام الأمنية

ومضافاً إلى ما قلنا آنفاً هناك أدلّة ووثائق تدلّ من ناحية على مدى خباثة ومكر البلاط العباسي وضخامة مخططاته الشيطانية بحق الإمام وأصحابه وعلى صحوة الإمام ويقظته وإجراءاته الأمنية وتوخّيه الحذر، وسنشير إلى بعض من ذلك:

١. قال أبو هاشم داود بن القاسم الجعفري[2]: كنت في الحبس أنا وجماعة إذ دخل علينا أبو محمد العسكري وأخوه جعفر فخففنا له ــ أسرعنا إلى خدمته ـ وحففنا به، وكان معنا في الحبس رجل جُمَحي (خ ل: أعجمي) يدّعي انّه علوي، فالتفت الإمام أبو محمد فقال: «لولا انّ فيكم من ليس منكم لأعلمتكم متى يفرج عنكم» وأومأ عليه السلام إلى الجمحي أن يخرج فخرج فقال الإمام عليه السلام :«هذا ليس منكم فاحذروه، فإنّ في ثيابه قصة (تقريراً) قد كتبها إلى السلطان يخبره فيها بما تقولون فيه».

فقام بعضهم ففتّش ثيابه، فوجد القصةوالتقرير يذكرنا فيها بكلّ عظيمة![3] تدلّ هذه القضية على أنّ الإمام وشيعته مراقبون حتى وهم في السجن.

٢. وقال أحمد بن إسحاق أحد أصحاب الإمام:دخلت على أبي محمد عليه السلام

١. الغيبة، للطوسي: ١٣٤.
٢. انظر ترجمته في تاريخ بغداد: ٨/ ٣٦٩.
٣. الفصول المهمة، المالكي: ٣٠٤؛ نور الأبصار، الشبلنجي: ١٦٦، كشف الغمة: ٣/ ٢٢٢؛ إعلام الورى: ٣٧٣؛ المناقب، ابن شهر آشوب: ٤/ ٤٣٧.

فسألته أن يكتب لي لأنظر إلى خطه فأعـرفه إذا ورد (ولكي لا يتمكن الأعداء من تزويره).

قال عليه السلام: «إنّ الخط سيختلـف عليـك من بين القلـم الغليـظ إلى القلـم الدقيق فلا تشكّنّ».[1]

٣. وقال أحد أصحاب الإمام: اجتمعنا بالعسكـر (سامراء) وترصّدنا لأبي محمد العسكري عليه السلام يوم ركوبه فخرج توقيعه: «ألا لا يسلمن عليّ أحد، ولا يشير إليّ بيده، ولا يومئ أحدكم، فإنّكم لا تؤمنون على أنفسكم».[2]

٤. وقال عبد العزيز البلخي: أصبحت يوماً وجلست في شارع سوق الغنم فإذا أنا بـأبي محمد العسكري عليه السلام قد أقبل يـريد باب العامة بسـامراء، فقلت في نفسي تراني إن صحت يا أيها الناس هذا حجة الله عليكم فاعرفوه يقتلوني، فلمّا دنا مني ونظرت إليه أومـأ إليّ باصبعه السبابة ووضعها على فيـه أن اسكت، فأسرعت إليه حتى قبّلـت رجله، فقال لي:«أما إنّـك لو أذعت لهلكت» ورأيتـه تلك الليلة يقول: «إنّما هو الكتمان أو القتل، فأبقوا على أنفسكم».[3]

٥. خرج رجـل من العلـويّين من سامـراء إلى الجبل ـ يطلق على الأمـاكن الجبلية الممتدة من غـرب إيران إلى همدان وقزوين ـ يطلب الفضـل، فتلقّاه رجل بحلوان، فقـال: من أيـن أقبلت؟ قال: مـن سامراء، قـال: هل تعـرف درب كذا وموضع كذا، قـال: نعم، فقال عندك من أخبار الحسـن بن علي العسكري، قال: لا.

قال: فما أقدمك الجبـل؟ قال: طلب الفضل ـ للتجارة ـ قال:فلك عندي

١. المناقب:٤/ ٤٣٣.

٢. بحار الأنوار:٥٠/ ٢٦٩.

٣. إثبات الوصية:٢٤٣.

خمسون ديناراً فاقبضها وانصرف معي إلى سامراء حتى توصلني إلى الحسن بن علي، فقال: نعم، فأعطاه المال وعاد العلوي معه وأوصله إلى بيت الإمام.[١]

وتدلّ هذه القضية أيضاً على مدى صعوبة الالتقاء بالإمام بسبب أجواء الرعب والرقابة المفروضة من قبل الحكومة.

ومن ناحية أُخرى انّ المال الذي بذله الرجل الحلواني ازاء إيصاله إلى بيت الإمام يبيّن أهمية الالتقاء بالإمام في تلك الفترة حيث كان يعد الخمسين ديناراً مبلغاً كبيراً نسبياً في ذلك الزمن، إذ يرى بعض العلماء انّ الدينار في ذلك الوقت يساوي بعيراً[٢]، وعليه فإنّ الخمسين ديناراً في تلك الفترة يعني ان تتمكن في زمننا هذا من شراء خمسين بعيراً.

الجوانب السبعة لنشاط الإمام العسكري عليه السلام

وعلى الرغم من كلّ هذا الرعب والاضطهاد والمراقبة ـ التي يفرضها الحكم العباسي ـ راح الإمام العسكري يمارس نشاطاته السياسية والاجتماعية والعلمية للدفاع عن الإسلام ومواجهة الأفكار اللا إسلامية ويمكن حصرها بالنحو التالي:

١. المساعي العلمية في الدفاع عن الدين الإسلامي ومواجهة الشبهات والإشكاليات وعرض الفكر الإسلامي الأصيل.

٢. إيجاد شبكة اتصالات مع الشيعة في المناطق المختلفة من خلال نصب الوكلاء والممثلين والمراسلات.

٣. ممارسة النشاطات السياسية السرية رغم أجواء الرعب والرقابة من قبل

١. كشف الغمة: ٣/ ٢١٦.

٢. حياة الإمام العسكري، القرشي: ١٨١.

الحكم العباسي.

٤. دعم الشيعة مالياً لا سيما أصحابه المقرّبين.

٥. توجيه رجال الشيعة وشخصياتهم البارزة سياسياً والوقوف إلى جانبهم في الأزمات.

٦. الإفادة الواسعة من العلم الغيبي لاستقطاب المعاندين ورفع معنويات الشيعة.

٧. إعداد الشيعة لمرحلة غيبة ابنه الإمام الثاني عشر عليه السلام.

والآن سنتناول كلّ واحد من هذه النشاطات بشكل مستقل.

١. النشاطات العلمية

وعلى الرغم من أنّ الإمام العسكري وبسبب الظروف العصيبة والمضايقات الكبيرة التي كان يتلقّاها من الحكم العباسي لم ينجح في بث معارفه الواسعة على نطاق المجتمع بشكل عام، غير انّه ورغم تلك الظروف ربّى وعلّم طلاباً كان لكلّ واحد منهم دور في نشر المعارف الإسلامية ومواجهة شبهات الأعداء.

وقد عدّ الشيخ الطوسي تلامذة الإمام بما يزيدون على المائة[1] وكان من بينهم شخصيات بارزة ووجوه معروفة ورجال فضلاء، مثل: أحمد بن إسحاق القمي، أبو هاشم داود بن قاسم الجعفري، عبد الله بن جعفر الحميري، أبو عمرو عثمان بن سعيد العمري، علي بن جعفر، و محمد بن الحسن الصفار، ولا يسع هذا الكتاب البحث حول جهود ومساعي هؤلاء الرجال وخدماتهم، ويمكن معرفة حياتهم المفعمة بالفخر والعبر والدروس من خلال مراجعة الكتب الرجالية.

---

١. رجال الطوسي: ٤٢٧.

ومضافاً إلى تعليم وتربية الرجال والشخصيات كانت تظهر بعض المشكلات والشبهات العويصة للمسلمين لا يمكن حلها ومعالجتها إلاّ على يد الإمام الحسن العسكري.

فقد كان الإمام في هذه المواقف يخترق السدود و الموانع بحنكة عالية، ويقدم الحلول في ضوء علم الإمامة، ولتبيين ذلك نكتفي بذكر انموذجين:

ألف. خطأ الفيلسوف!

كتب ابن شهر آشوب: انّ إسحاق الكندي كان فيلسوف العراق[1] في زمانه أخذ في تأليف تناقض القرآن، و شغل نفسه بذلك، وتفرّد به في منزله، وانّ بعض تلامذته دخل يوماً على الإمام الحسن العسكري.

فقال عليه السلام له: «أما فيكم رجل رشيد يردع أُستاذكم الكندي عمّا أخذ فيه من تشاغله بالقرآن؟».

فقال التلميذ: نحن من تلامذته كيف يجوز منّا الاعتراض عليه في هذا وفي غيره.

فقال عليه السلام له: «أتؤدي إليه ما أُلقيه إليك؟».

فقال: نعم.

قال عليه السلام: «فصر إليه وتلطّف في مؤانسته ومعونته على ما هو بسبيله، فإذا وقعت الأُنسة في ذلك، فقل قد حضرتني مسألة أسألك عنها، فانّه يستدعي ذلك منك، فقل له إن أتاك هذا المتكلم بهذا القرآن هل يجوز أن يكون مراده بما تكلّم

١. الفيلسوف الذي كتب هذا الكتاب هو ابن إسحاق الكندي ويدعى يعقوب، وليس هو إسحاق وطبقاً لما كتبه محمد لطفي جمعة كان لإسحاق إمارة الكوفة في عهد ثلاثة من الخلفاء العباسيين أي المهدي والهادي وهارون. (تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب ص ١).
لعلّه قد خلطوا بين اسم الأب وابنه أو سقط اسم الابن عند الاستنساخ.

منه غير المعاني التي قد ظننتها انّك ذهبت إليهـا؟ فانّه سيقول لك انّه من الجائز، لأنّه رجل يفهم إذا سمع، فإذا أوجب ذلك، فقل له: فما يدريك لعلّه قد أراد غير الذي ذهبت أنت إليه فيكون واضعاً لغير معانيه».

فصار الرجل إلى الكندي وتلطّف إلى أن ألقى عليـه هذه المسألة، فقال له: أقسمت عليك ألا أخبرتنـي من أين لك؟ فقـال: إنّه شيء عرض بقلبي فـأوردته عليك، فقال: كلا مـا مثلك من اهتدى إلى هذا، ولا من بلغ هذه المنـزلة فعرّفني من أين لك هذا؟!

فقال: أمرني به أبو محمد الإمام العسكري.

فقال: الآن جئت بالحق، وما كان ليخرج مثل هذا إلاّ من ذلك البيت، فهم الذين يمكنهم أن يكشفوا عن الحقيقة.

ثمّ إنّـه ـ و بعـد ان عـرف الحقيقة وخطئه ـ دعا بالنـار وأحـرق جميع مـا ألّفـه.[1]

---

١. وقد روى هذه الرواية ابن شهر آشوب في المناقب:٤/ ٤٢٤ عن كتاب التبديل لأبي القاسم الكوفي، وقد أظهر بعض العلماء المعاصرين الشكّ في صحتها وكتب: وهذه الرواية تدلّ على أنّ الكندي مرّ بمرحلة فكرية لم يكن يعترف فيها بالإسلام، وهو وإن كان أمراً محتملاً إلاّ أنّنا لا نستطيع التشبّث بهذه الروايـة ضد الكندي ـ فـإنّه يرويها ابـن شهر آشوب في المنـاقب عن أبي القاسـم الكوفي في كتاب التبديـل مرسلة بدون سنـد ـ فانّها من المراسيل التـي لا تصلح للإثبات التـاريخي (محمد الصدر، تاريـخ الغيبة الصغرى: ١٩٦)غير انّه ونظـراً إلى بعض أفكار الكندي المذكـورة في كتب تاريخ الفلاسفة الإسلاميين لا يبدو ذلك أمراً مستبعداً.

كما كتب حنّا الفاخوري وخليل الجر خلال عرض أفكاره الفلسفية فقالا: وقد يلحظ التناقض بين التعاليم الفلسفيـة وآيات القرآن وهو مـا دفع البعض لمخالفـة الفلسفة. وجّه الكندي حـل هذه التناقضات في تأويل الآيات وكان يقول: إنّ للكلمات العربية معنيين معنى حقيقي ومعنى مجازي، ومن خلال ذلك يمكن للمفكّر أن يدرك المعنى المجـازي لها من منطوق بعض الآيات من خلال التأويل. تاريخ فلسفه در جهان اسلامى:٢/ ٣٨٠.

ب. الجاثليق يبسط راحتيه

قحط الناس بسامراء قحطاً شديداً، فأمر الخليفة المعتمد أن يخرج الناس إلى الاستسقاء، فخرجوا ثلاثة أيام يستسقون ويدعون فلم يسقوا، فخرج الجاثليق في اليوم الرابع إلى الصحراء وخرج معه النصارى والرهبان، وكان فيهم راهب كلما مدّ يده إلى السماء ورفعها هطلت بالمطر ثمّ خرجوا في اليوم الثاني وفعلوا كفعلهم، فهطلت السماء بالمطر، وسقوا سقياً شديداً حتى استعفوا.

فعجب الناس من ذلك وداخلهم الشك وصبا ومال بعضهم إلى دين النصرانية، فشقّ ذلك على الخليفة، فأمر أن يخرج الإمام العسكري من السجن وأحضره، فقال له: أدرك أُمّة جدّك .

فقال عليه السلام: « دعهم يخرجون غداً اليوم الثالث».

فقال الخليفة: قد استعفى الناس من المطر واستكفوا، فما فائدة خروجهم؟!
قال عليه السلام: «لأزيل الشك عن الناس».

فأمر الخليفة الجاثليق والرهبان أن يخرجوا أيضاً في اليوم الثالث، فخرجوا وخرج الإمام عليه السلام ومعه خلق كثير، فوقف الرهبان ورفعوا أيديهم إلى السماء فغيمت في الوقت ونزل المطر.

فأمر الإمام عليه السلام أن يقبض على يد الراهب ويؤخذ ما فيها، فإذا ما بين أصابعه عظم آدمي أسود، فأخذه عليه السلام ولفّه في خرقة وقال: « استسق الآن» ففعل ورفع يده فانكشف السحاب وانقشع الغيم وطلعت الشمس، فعجب الناس من ذلك!!

وقال الخليفة: ما هذا يا أبا محمد.

فقال عليه السلام : «عظم نبي من أنبياء الله عزّوجل ظفر به هؤلاء من بعض

قبورهم، وما كشف عن عظم نبي تحت السماء إلاّ هطلت با لمطر». فامتحن الناس ذلك فوجدوه كما قال عليه السلام .[1]

تسبّبت هذه القضية في الإفراج عن الإمام عليه السلام وازدياد شعبيته واحترامه في الرأي العام، وقد استغل الإمام هذه الفرصة وطلب من الخليفة الإفراج عن أصحابه الذين كانوا سجناء معه، فأفرج عنهم.

٢. إيجاد شبكة اتصالات مع الشيعة

اتّسعت رقعة التشيع في عهد الإمام العسكري وامتدت إلى مدن ومناطق مختلفة ومركز الشيعة في عدة مدن. فقد كانت الكوفة ، بغداد، نيشابور، قم، آبه(آوه)،المدائن، اليمن، الري، آذربايجان، سامراء، جرجان والبصرة تعد جميعاً من مراكز الشيعة، و قد كانت سامراء، الكوفة، بغداد، قم، نيشابور، تتمتع ـ ولأسباب خاصة ـ بأهمية كبيرة من بين تلك المدن.[2]

وقد أوجب تباعد المراكز الشيعية وجود شبكة اتصالات منظمة تؤمّن اتصال الشيعة بالإمامة من جهة واتّصالهم ببعض من جهة أُخرى، ويتم من خلال ذلك توجيههم دينياً وسياسياً وتعبوياً.

كانت الحاجة إلى هذه الشبكة ملحّة وماسّة منذ عهد الإمام التاسع عليه السلام ، وكما أشرنا في حياة ذلك الإمام عليه السلام والإمام العاشر فانّ إيجاد شبكة الاتصال النيابية ونصب الوكلاء في مختلف المناطق منذ ذلك العهد إنّما كان بهدف إيجاد

---

١. نور الأبصار: ١٦٧، الشبلنجي؛ المناقب، ابن شهر آشوب: ٤/ ٤٢٥؛ كشف الغمة، الاربلي: ٣/ ٢١٩؛ الصواعق المحرقة: ٢٠٧؛ الفصول المهمة: ٣٠٤ـ ٣٠٥.

٢. حياة الإمام العسكري، الطبسي: ٢٢٣ـ ٢٢٦؛ تاريخ الشيعة، محمد حسين المظفر، ص ٦٢، ٧٨، ١٠٢.

هذا الجهاز.

وقد طبق هذا المنهاج في عهد الإمام العسكري أيضاً، فقد انتخب الإمام عليه السلام شخصيات شيعية بارزة، ليكونوا وكلاءه في مناطق عديدة، وكان على اتصال بهم، وبذلك كان يراقب أوضاع الشيعة فيها من خلال ذلك، والوثائق والروايات التاريخية تؤكد ذلك. ويمكن الإشارة إلى إبراهيم بن عبده ممثل الإمام في نيشابور من بين ممثليه. وخلال رسالة تفصيلية إلى إسحاق بن إسماعيل وشيعة نيشابور وبعد ان بيّن دور الإمامة في هداية الأُمّة الإسلامية وقيادتها والتأكيد على ضرورة إطاعة الأئمّة والتحذير من مغبة عصيان أوامرهم كتب الإمام عليه السلام.

«... يا إسحاق أنت رسولي إلى إبراهيم بن عبده وفقه الله أن يعمل بما ورد عليه في كتابي مع محمد بن موسى النيسابوري... وأن يعمل كلّ من خلفك ببلدك بما ورد عليكم في كتابي المذكور... ويقرأ إبراهيم بن عبده كتابي هذا و من خلفه ببلده حتى لا يسألوني ولا يتساءلون... وعلى إبراهيم بن عبده سلام الله ورحمته وعليك يا إسحاق وعلى جميع موالي السلام كثيراً... وكلّ من قرأ كتابنا هذا من موالي أهل بلدك و من هو بناحيتكم ونزع عما هو عليه من الانحراف عن الحقّ، فليؤد حقوقنا إلى إبراهيم بن عبده، وليحمل ذلك إبراهيم إلى الرازي[1]، أو إلى من يسمّي له الرازي، فانّ ذلك عن أمري ورأيي...».[2]

ويفهم من هذه الرسالة مضافاً إلى قضية جمع أموال الشيعة التي كان لها دور كبير في تقوية البنية الاقتصادية للجبهة الشيعية انّ وكلاء الإمام كانوا

---

١. المراد ظاهراً هو أحمد بن إسحاق الرازي أحد كبار شيعة الري ومن ممثلي الإمام العسكري. حياة الإمام العسكري، الطبسي، ص ٣٣٢.

٢. اختيار معرفة الرجال، الطوسي: ٥٧٥ـ ٥٨٠، الحديث ١٠٨٨؛ بحار الأنوار: ٥٠/ ٣٢١ـ ٣٢٣ وقد جاءت هذه الرسالة باختصار في تحف العقول أيضاً ص ٤٨٤.

يتمتعون بدرجات مختلفة من الوظائف والمسؤولية، وانّ لكلّ واحد منهم مجالاً خاصاً لنشاطاته، وكانت الأموال المأخوذة يجب أن تنتهي في النتيجة إلى الوكيل والممثل الرئيسي، ومنه تنتقل إلى الإمام عليه السلام .

وكتب الإمام ـ ولعلّه لتقوية مكانة إبراهيم بن عبده وموقعيته وتحديد مجال وظيفته ـ رسالة إلى عبد الله بن حَمْدويه البِيْهَقي:

«فقد نصبت لكم إبراهيم بن عبده ليدفع النواحي وأهل ناحيتك حقوقي الواجبة عليكم إليه، وجعلته ثقتي وأميني عند مواليّ هناك، فليتقوا الله وليراقبوا، وليؤدّوا الحقوق، فليس لهم عذر في ترك ذلك، ولا تأخيره».[١]

ويبدو انّ بعض الشيعة كان قد شكّ في أن يكون ما ذكر حول إبراهيم هو نفس خط الإمام عليه السلام ، واحتمل أن يكون مزوراً ، ولهذا كتب الإمام في رسالة مستقلة: «وكتابي الذي ورد على إبراهيم بن عبده بتوكيلي إياه لقبض حقوقي من مواليّ هناك، نعم هو كتابي بخطي».[٢]

ومن وكلاء الإمام وممثّليه أحمد بن إسحاق بن عبد الله القمي الأشعري، الذي كان من خواص أصحاب الإمام، و من الشخصيات الشيعية البارزة في قم.

وقد اعتبره بعض علماء الرجال حلقة الوصل بين الإمام والقميين ومن خواص أصحابه.[٣]

غير انّ البعض الآخر منهم عدّه من وكلاء الإمام و نوابه.[٤]

١. اختيار معرفة الرجال: ٥٨٠، الحديث١٠٨٩.

٢. المصدر نفسه، الحديث١٠٨٩.

٣. فهرست أسماء مصنّفي الشيعة، النجاشي، ص ٦٦؛ الفهرست، الطوسي، ص ٢٣.

٤. حياة الإمام العسكري، ص ٣٣٣.

و يبدو من رواية في بحار الأنوار انّه كان وكيلاً للإمام في الأوقاف بقم.[1]

وكتب محمد بن جرير الطبري: كان أحمد بن إسحاق القمي الأشعري أُستاذ الشيخ الصدوق ووكيل الإمام أبي محمد العسكري، ولمّا قضى الإمام أصبح وكيلاً لصاحب الأمر، وظهرت من ناحيته عليه السلام تواقيع باسمه، وكان يجمع الحقوق من قم ونواحيها ويرسلها إلى الإمام عليه السلام.[2]

وكان مع أحمد بن إسحاق ـ من أموال قم ـ جراب قد ستره بكساء طبري، وكان فيه مائة وستون صرة من الذهب والفضة دفعها إلى الإمام ،ويدلّ هذا المبلغ الكبير على الحقوق المأخوذة من الشيعة.[3]

ومن وكلاء الإمام إبراهيم بن مهزيار الأهوازي. فقد اجتمعت لديه حقوق وأموال ولم يوفّق في دفعها إلى الإمام العسكري، و لمّا مرض إبراهيم بعد استشهاد الإمام عليه السلام أوصى ابنه بأن يأخذها إلى صاحب الزمان عليه السلام، ففعل ونصب وأُقيم مقام أبيه من قبل الإمام الثاني عشر.[4]

وقد كان على رأس وكلاء الإمام محمد بن عثمان العمري الذي كان حلقة الوصل بينهم و بين الإمام، فكانوا يأتون بالأموال إليه، وهو بدوره يدفعها إلى الإمام عليه السلام.[5]

---

١. البحار: ٥٠/ ٣٢٣.

٢. دلائل الإمامة: ٢٧٢.

٣. الاحتجاج: ٢٥٧.

٤. الإرشاد: ٣٥١؛ إعلام الورى: ٤٤٥؛ قاموس الرجال: ١/ ٣١٦؛ أُصول الكافي: ١/ ٥١٨.

٥. اختيار معرفة الرجال: ٥٣٢؛ قاموس الرجال: ١/ ٣١٥. وقد نصب العمري فيما بعد وكيلاً للإمام صاحب الزمان، وسوف نشير إلى فضله ومنزلته في الصفحات الآتية إن شاء الله.

الرسل والرسائل

وكان الإمام مضافاً إلى شبكة الاتصالات النيابية يتصل بشيعته من خلال إرسال الرسل والمبعوثين، فكان يعالج مشاكل الشيعة عن هذا الطريق، وعلى سبيل المثال يمكن أن نذكر أبا الأديان ـ أحد أصحاب الإمام المقربين ـ ونشاطاته شاهداً على ذلك[١]، فقد كان يحمل رسائل الإمام وخطاباته إلى شيعته، ويحمل منهم أيضاً الرسائل والأسئلة والخمس والحقوق الأُخرى إليه (الإمام العسكري) في سامراء.

وسنشير إلى آخر مهمة وسفرة له وقد حدثت في الأيام الأخيرة من حياة الإمام العسكري في القسم الذي تناولنا فيه كيفية استشهاد الإمام.

وفضلاً عن المبعوثين كان الإمام يتصل بالشيعة عن طريق المراسلة أيضاً، فكان ينعم عليهم من خلال ذلك بتوجيهاته وإرشاداته.

فالرسالة التي بعث بها الإمام إلى ابن بابويه ـ والتي سنذكرها في فصل الدعم والتوجيه السياسي لعناصر الشيعة البارزة ـ تعد نموذجاً من تلك الرسائل.[٢]

ناهيك عن الرسالتين اللّتين كتبها الإمام إلى شيعة قم وآبه (آوه) وهما موجودتان في كتبنا.[٣]

---

١. مات أبو الأديان البصري في أواخر القرن الثالث، وكنيته الحقيقية أبو الحسن، وقد اشتهر بهذه الكنية، لأنّه ناظر جميع أصحاب المذاهب والأديان وردّ عليهم. ريحانة الأدب، المدرس التبريزي:٧/ ٥٧٠. انّ اختيار أبي الأديان لهذه المهمة يدلّ على أنّ الإمام عليه السلام كان يعين أشخاصاً معينين لهذا النوع من الأعمال.

٢. المناقب، ابن شهر آشوب:٤/ ٤٢٥؛ بحار الأنوار:٥٠/ ٣١٧؛ معادن الحكمة في مكاتيب الأئمة:٢/ ٢٦٥.

٣. معادن الحكمة:٢/ ٢٦٤؛ البحار:٥٠/ ٣١٧.

وتوجد رسائل أُخرى أيضاً للإمام كتبها لمناسبات مختلفة.[١]

وطبقاً لإحدى الروايـات كان الإمام العسكري عليه السلام قد كتب قبيـل رحيله بلحظات في صبح يوم الثامن من ربيـع الأوّل عام ٢٦٠هـ رسائل عديدة إلى أهل المدينة.[٢]

٣. النشاطات السياسية السرّية

وعلى الرغم من كلّ المضايقات والضغوط والرقابة التي كان يفرضها جهاز الخلافة كان الإمـام يمارس ويقود مجموعة مـن النشاطات السياسيـة السرية ومن خلال اختيـار أساليـب دقيقة جـداً في التغطية كـان يبعد عنـه عيون الجواسيـس اليقظة، وتتوفر أمثلة كثيرة فيما يتعلّق بذلك نشير إلى نموذجين منها:

ألف. فقـد كان عثمان بن سعيـد العَمْري الـذي كان من أقـرب أصحاب الإمام منزلة لديه[٣] يمارس نشاطه تحت غطـاء تجارة السمن، وكان الشيعة الـذين يريدون دفع الحقوق إلى الإمام ينقلونها إليه، وهو يحملها إلى الإمام بعد أن يجعلها في جراب السمن وزقاقه.[٤]

ب. قال داود بن الأسود خادم الإمام ووقّـاد حمامه: دعاني سيدي أبو محمد العسكري فدفع إليّ خشبة كأنّها رجـل باب مدورة ملء الكف، فقال:« صر بهذه الخشبة للعمري» فمضيت فلما صرت إلى بعض الطريق عرض لي سقاء معه بغل،

١. تحف العقول: ٤٨٦.

٢. البحار: ٥٠/ ٣٣١.

٣. تشرف عثمان بن سعيـد فيما بعد بنيـابة الإمـام الثاني عشر في الغيبـة الصغرى، وسنتنـاول سيرته في فصل نوّاب الإمام الثاني عشر إن شاء الله.

٤. الغيبة، الطوسي، ص ٢١٤؛ سفينة البحار، الشيخ عباس القمي: ٢/ ١٥٨.

فزاحمني البغل على الطريق، فناداني السقّاء صح على البغل، فرفعت الخشبة التي كانت معي فضربت البغل، فانشقت، فنظرت إلى كسرها ،فإذا فيها كتب فبادرت سريعاً فرددت الخشبة إلى كمّي، فجعل السقّا يناديني ويشتمني....

فلمّا دنوت من الدار راجعاً استقبلني عيسى الخادم عند الباب فقال يقول لك مولاي أعزه الله:« لم ضربت البغل وكسرت رجل الباب؟».

فقلت له: يا سيدي لم أعلم ما في رجل الباب.

فقال عليه السلام :«ولم احتجت أن تعمل عملاً تحتاج أن تعتذر منه؟ إيّاك بعدها أن تعود إلى مثلها، وإذا سمعت لنا شاتماً، فامض إلى سبيلك التي أمرت بها، وإيّاك أن تجاوب من يشتمنا أو تعرّفه من أنت، فإنّنا في بلد سوء و مصر سوء، وامض في طريقك فإنّ أخبارك وأحوالك ترد إلينا، فاعلم ذلك.[1]

وتدلّ هذه الرواية على أنّ الإمام كان يضع رسائله السرية في جوف الخشب، ويبعث بها إلى عثمان بن سعيد الذي كان موضع ثقته وسره، ويأمر بذلك وقّاد الحمام الذي عمله جمع الحطب وكسره، وبالطبع انّ ذلك لا يثير الشك لدى الآخرين، ولكن كاد عدم توخّيه الاحتياط يفضح كلّ ذلك .

٤ . دعم الشيعة مالياً

ومن المواقف الأُخرى للإمام العسكري عليه السلام هو دعم واسناد الشيعة من الناحية المالية لا سيّما أصحابه المقرّبين، ويتّضح من خلال دراسة حياته جيداً انّه كان بعض أصحابه يشكو إليه العسر والضيق المالي أحياناً فيحل عليه السلام مشكلته، ويتفق انّه عليه السلام يبادر إلى حل مشاكلهم المالية قبل أن يظهروا ذلك.

١ . مناقب ابن شهر آشوب: ٤/ ٤٢٧.

هذه المواقف التـي اتخذها الإمام تجاه أصحابـه كانت تمنع مـن أن ينجذبوا تحت الضغوط المالية إلى الحكم العباسي الظالم، ويمكن الإشارة في هذا المجال إلى أمثلة من ذلك:

ألف. قال أبو هاشم الجعفري[١]: كنت مضيقاً فأردت أن أطلب منه معونة فاستحييت، فلمّـا صرت إلى منزل لي، وجّه إليّ بمائة دينار، وكتـب إلي:«إذا كانت لك حاجة فلا تستحي ولا تحتشم واطلبها، فإنّك ترى ما تحب إن شاء الله».[٢]

ب. قال علي بن زيد العلوي: أعطاني أبو محمد العسكري ﷺ دنانير قال: «اشتر بهذه الدنانير جارية، فإنّ جاريتك قـد ماتت». فأتيت داري وإذا بالجارية قد شرقت وماتت.[٣]

ج. قال أبو هـاشم الجعفري: شكوت إلى الإمـام العسكري ﷺ الحاجة، فحـك بسوطـه الأرض، فأخـرج منهـا سبيكة نحـو الخمسمائة دينار فقـال ﷺ: «خذها يا أبا هاشم واعذرنا».[٤]

د. حج أبو طاهر بـن بلال فنظر إلى علي بن جعفر [٥] و هو ينفق النفقات العظيمة، فلمّا انصرف كتب بذلـك إلى أبي محمد العسكري ﷺ ، فوقّع في رقعته:

---

١. تحدثنا حول شخصية الجعفري وفضله فيما مضى من الصفحات.

٢. الإرشاد ص ٣٤٣؛ مناقب ابن شهر آشوب:٤/ ٤٣٩؛ إثبات الوصية:٢٤٢؛ أعيان الشيعة، السيد الأمين:١/ ٤٠؛ إعلام الورى:٣٧٢؛ أُصول الكافي:١/ ٥٠٨.

٣و٤. المناقب:٤/ ٤٣١؛ كشف الغمة:٣/ ٢١٨.

٥. علي بن جعفر أحد أصحاب الإمامين الهادي والعسكري المقـربين إليهما، وقد كان فاضلاً مرضياً، ومن وكلائهما، واعتقل لفترة من قبل المتوكل بـذنب ممثليته عن الإمام الهادي، ورحل إلى مكة بعد إطلاق سراحه بـأمر الإمام واستقر هناك، ويحتمـل انّه كان هناك عنـدما شاهده أبو طـاهر ينفق الأمـوال. حيـاة الإمـام العسكـري، القـرشي، ص ١٥٥ـــ ١٥٦؛ الغيبـة، ص ٢١٢؛ تنقيـح المقال:٢/ ٢٧١ـ٢٧٢؛ اختيار معرفة الرجال، ص ٥٢٣و٦٠٧.

«قد كنّا أمرنا له بمائة ألف دينار، ثمّ أمرنا له بمثلها فأبى قبوله إبقاء علينا ما للناس والدخول في أمرنا فيما لم ندخلهم فيه» ودخل علي بن جعفر بعد ذلك على الإمام عليه السلام فأمر له بثلاثين ألف دينار.[١] تدلّ هذه الرواية انّ علي بن جعفر كان ينفق مبالغ ضخمة في الحجاز، وعلى الرغم من أنّ الرواية لم تعيّن مجال صرف هذه الأموال غير انّ ضخامتها تدلّ على أنّ هذا يدخل ضمن مخطط كبير مدروس، ومن المؤكد انّ فقراء الشيعة وشخصياتهم الكبيرةوالمناضلة كانوا يستفيدون منها، و كان هذا المنهاج يطبق في ضوء توجيهات الإمام ودعمه.

ولا يجب الشك والترديد في دفع الإمام لهذه المبالغ باعتبار الحظر المفروض عليه، لأنّه عليه السلام وعلى الرغم من أنّ نشاطاته الاجتماعية والسياسية كانت تخضع لمراقبة شديدة من قبل الحكم العباسي؛ كانت تصله مبالغ طائلة من الشيعة من مختلف البلدان من خلال وكلائه.

فإنّ التاريخ مثلاً يقول بأنّ رجلاً جاء من جرجان إلى الإمام يحمل حقوقاً وأموالاً أتى بها من شيعة تلك البلاد وقدّمها إلى مبارك خادم الإمام.[٢]

وآخر قد جاء من بلاد الجبل (من النواحي الجبلية في إيران حتى قزوين وهمدان) وصل إلى الإمام بمساعدة أحد العلويين، فدفع إليه أربعة آلاف دينار.[٣] وحمل وكيل الإمام في قم ــ أحمد بن إسحاق ـ جراباً فيه مائة وستون صرة من الذهب والفضة أخذها من الشيعة هناك ودفعها إلى الإمام.[٤]

---

١. الغيبة، الطوسي، ٢١٢، ورويت هذه الرواية في المناقب أيضاً باختلاف يسير، ويعتقد الكاتب انّ ما نقل في كتاب الغيبة أقرب للصحة.

٢. كشف الغمة: ٣/ ٢١٧. ٣. المصدر نفسه: ٢١٦.

٤. الاحتجاج: ٢٥٧.

وفضلاً عن ما ذكرنا كانت توجد حقوق وأموال طائلة أيضاً جمعت من قبل وكلاء الإمام العسكري والتي قد تأخّر تحويلها بسبب استشهاد الإمام العسكري ثمّ دفعت إلى إمام الزمان.

وعلى سبيل المثال يمكن الإشارة إلى هذا النوع هو ما كان بحوزة إبراهيم ابن مهزيار الذي دفعها من بعد موته ابنه محمد إلى وكيل الإمام.[١]

وكذلك السبعمائة دينار التي كانت بحوزة أحد أهالي الجبل[٢] والخمسمائة دينار التي كانت بيد أحد الشيعة باسم عِمْران الهَمْداني.[٣]

٥. توجيه رجال الشيعة سياسياً ودعم شخصياتهم البارزة

إنّ من أروع نشاطات الإمام العسكري السياسية هو توجيه رجال الشيعة المهمين ودعمهم سياسياً في قبال التحديات والضغوط السياسية لحماية أهداف التشيع العظيمة؛ وانطلاقاًمن أنّ شخصيات الشيعة البارزين كانوا أكثر عرضة للضغوط، كان الإمام وحسبما يقتضيه الموقف يرفع من معنوياتهم و يزرع الثقة في أنفسهم ويوجّههم كي يكونوا أكثر صبراً ووعياً وتحمّلاً أمام ما يتلقّونه من الضغوط والاضطهاد والفقر والفاقة، ولأجل أن يقوموا بمهامهم الاجتماعية والسياسية والدينية الكبرى على أحسن وجه .

قال محمد بن الحسن بن ميمون: كتبت إليه ـ الإمام العسكري ـ أشكو الفقر، ثمّ قلت في نفسي أليس قد قال الصادق عليه السلام :« الفقر معنا خير من الغنى مع عدونا، والقتل معنا خير من الحياة مع عدونا».

---

١. الإرشاد: ٣٥١؛ إعلام الورى: ٤٤٥.

٢. إعلام الورى: ٤٤٨.

٣. المصدر نفسه.

فجاء الجواب من الإمام: «إنّ الله عزّ وجلّ يخص أولياءنا إذا تكاثفت ذنوبهم بالفقر، وقد يعفو عن كثير منهم، وهو كما حدثتك نفسك الفقر معنا خير من الغنى مع عدونا، ونحن كهف من التجأ إلينا، ونور لمن استضاء بنا، وعصمة لمن اعتصم بنا، من أحبنا كان معنا في السنام الأعلى، ومن انحرف عنّا مال إلى النار».[1]

والنموذج الآخر لهذا الأمر هي رسالة كتبها الإمام العسكري عليه السلام إلى علي ابن الحسين بن بابويه القمي أحد كبار فقهاء الشيعة في هذه الرسالة وبعد إيراد الوصايا الضرورية يؤكد فيها: «عليك بالصبر وانتظار الفرج، قال النبي صلى الله عليه وآله: أفضل أعمال أُمّتي انتظار الفرج، ولا يزال شيعتنا في حزن حتى يظهر ولدي الذي بشّربه النبي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، فاصبر يا شيخي يا أبا الحسن علي، وأمر جميع شيعتي بالصبر، فإنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده و العاقبة للمتقين، والسلام عليك وعلى جميع شيعتنا ورحمة الله بركاته».[2]

٦. الاستفادة من علم الغيب على نطاق واسع

نحن نعلم أنّ الأئمّة عليهم السلام وفي ضوء اتّصالهم بربّ العالمين يتمتّعون بالمعرفة الغيبية، وكلّما تعرّض الإسلام أو المصالح العليا للأُمّة الإسلامية ـ كشرعية إمامتهم

---

١. مناقب ابن شهر آشوب: ٤/ ٤٣٥؛ كشف الغمة: ٣/ ٢١١.

٢. مناقب، ابن شهر آشوب: ٤/ ٤٢٥؛ الأنوار البهية: ١٦١؛ تتمة المنتهى: ٢٩٩، باختلاف يسير. ونظراً إلى أنّ استشهاد الإمام العسكري كان عام ٢٦٠ ووفاة علي بن الحسين بابويه كانت ٣٢٩ أي بعد ٦٩ عاماً من استشهاد الإمام، استبعد البعض صدور هذه الرسالة بهذا الأُسلوب من الإمام إليه وهو لم يزل شاباً في العشرينات، إلاّ إذا قلنا كان وهو في مقتبل العمر شيخاً جليلاً له المرتبة الفضلى التي تؤهله لأن يخاطبه الإمام بهذا الأُسلوب ويلقبه بهذا اللقب (يا شيخي). (تاريخ الغيبة الصغرى، محمد الصدر: ١٩٦).

ـ للخطر استخدموا هذه المعرفة كوسيلة إرشادية.

وتشكل أخبارهم وتنبّؤاتهم الغيبية قسماً مهماً من سيرتهم، ولكن عندما ندرس حياة الإمام العسكري نجد انّه عليه السلام أكثر الأئمّة إظهاراً لمعرفته الغيبية، ووفقاً لما قد توصل إليه أحد العلماء المعاصرين انّ العلماء قد سجلوا تنبّؤات الإمام العسكري وكراماته وأعماله الغير عادية في كتبهم بالنحو التالي: القطب الراوندي أربعون مرة في كتاب «الخرائج»، والسيد البحراني مائة وأربع وثلاثين مرة في كتاب «مدينة المعاجز»، والشيخ الحر العاملي في «إثبات الهداة» مائة وثلاث وثلاثين مرة، والمجلسي في «البحار» واحد وثمانين مرة.[1]

وهذا دليل على كثرة تنبّوءات الإمام الغيبية.

ويبدو انّ السبب في ذلك هو الظروف العصيبة والأجواء المفعمة بالاضطهاد التي عاشها الإمامان العسكري وأبوه الهادي عليهما السلام ،لأنّه عندما انتقل الإمام الهادي كرهاً إلى سامراء ـ كما قلنا مسبقاً ـ كان يخضع لمراقبة شديدة، ولهذا لم تتوفر فرصة تعريف وتقديم ابنه الحسن كإمام تالٍ له إلى الشيعة، وكان هذا الأمر يعرض حياته للخطر من قبل الحكم العباسي. ولأجل ذلك تم تعريف الإمام العسكري إلى الشيعة وإشهادهم على إمامته في الشهور الأخيرة من حياة الإمام الهادي عليه السلام[2] لدرجة انّه عندما رحل الإمام الهادي لم يكن لكثير من الشيعة علم بإمامة الحسن العسكري عليه السلام.[3]

ويمكن أن يكون هناك سبب آخر لهذا الموضوع لا يمكن إنكار تأثيره وهو اعتقاد جماعة من الشيعة بإمامة محمد بن علي أخي الإمام العسكري في عهد أبيهما

---

١. حياة الإمام العسكري، الشيخ الطبسي: ١٢١.

٢. نفس المصدر السابق: ٢١٧.

٣. إثبات الوصية: ٢٣٤.

الهادي عليه السلام، وطبقاً لمعتقدهم هذا كانوا يحترمونه بحضور الإمام الهادي غير انّه كان يواجه هذه العقيدة ويرفضها ويدعوهم لإمامة ابنه الحسن.

وقد اتخذ بعض الخونة والجهلة كابن ماهويه هذه العقيدة ذريعة وراح يضلّل أفكار الناس ويبعدهم بعد استشهاد الإمام الهادي عن إمامة الإمام العسكري.

اجتمعت هذه الأسباب وبعثت على إثارة الشك بين جماعة من الشيعة حول إمامته في البداية، كما أنّ بعضهم حاول أن يختبر الإمام[١] وكاتب بعضهم الآخر الإمام وراسله حول ذلك.[٢]

بلغ الشك والترديد في هذا الأمر حدّاً جعل الإمام عليه السلام يكتب في جواب جماعة من الشيعة والألم يعصر قلبه:

«ما مني أحد من آبائي بمثل ما مُنيتُ به من شك هذه العصابة فيّ».[٣]

كان الإمام العسكري ولإجلاء صدأ هذه الشكوك والشبهات أو لصيانة أصحابه من الخطر أحياناً أو لرفع معنوياتهم أو لهداية الضالين، يضطر إلى أن يرفع الستار والحجب عما وراء هذا العالم الظاهري ويخبرهم بما يلهم به من هناك، و هذا الأسلوب من أكثر الأساليب تأثيراً في استقطاب المعاندين والمخالفين وتقوية إيمان الشيعة.

يقول أبو هاشم الجعفري الذي قلنا مسبقاً انّه من أقرب أصحاب الإمام عليه السلام:

ما دخلت على أبي محمد العسكري يوماً قط إلاّ رأيت منه دلالة وبرهاناً[٤].

---

١. نفس المصدر: ٢٤٦.

٢. المصدر نفسه: ٢٣٨.

٣. تحف العقول: ٤٨٧.

٤. إعلام الورى: ٣٧٥.

والآن وقد اتضحت دوافع الإمام في هذا الموضوع سنذكر بعض الأمثلة من تنبّؤاته.

١. قال محمد بن علي السمري وقد كـان من أقرب أصحاب الإمام وأحبهم إليه:

كتب إليّ أبو محمد العسكري:« فتنة تظلّكم فكونوا على أهبة». فلمّا كان بعد ثلاثة أيـام وقع نزاع بين بني هاشـم و كانت لهم هنة لها شأن، فكتبت إليه أهي هذه؟

قال عليه السلام : «لا ولكن غير هذه فاحترسوا »فلمّا كان بعد أيام قتل المعتز.[١]

٢. كتب الإمام إلى إسحاق بن جعفر الزبيري قبـل عشرين يوماً تقريباً من موت المعتز:

«الـزم بيتك حتـى يحدث الحادث» فلمّا قتـل بريحة كتبـت إليـه قد حـدث الحادث فما تأمرني ؟

فكتب عليه السلام إليه : «ليـس هذا الحادث الحادث الآخر» لم يـدم طويـلاً حتى قتل المعتز.[٢]

٣. قال محمد بـن حمزة السروي: كتبت على يد أبي هاشـم الجعفري وكان لي مؤاخيـاً لأبي محمد العسكـري أسألـه أن يدعـو الله لي بالغنـى وكنت قـد أملقت وخفت الفضيحة.

فخرج الجواب على يـده: «أبشر فقد أتـاك الغنى مـن الله تعالى، مـات ابن عمك يحيـى بن حمزة وخلّـف مائة ألـف درهم ولم يترك وارثـاً سواك، وهـي واردة عليك عن قريب».[٣]

١. كشف الغمة:٣/ ٢٠٧؛ بحار الأنوار:٥٠/ ٢٩٨.

٢. الإرشاد: ٣٤٠؛ مناقب ابن شهر آشوب: ٤/ ٤٣٦؛ البحار: ٥٠/ ٢٧٧؛ أُصول الكافي:١/ ٥٠٦.

٣. كشف الغمة:٣/ ٢١٤؛ نور الأبصار: ١٦٨؛ الفصول المهمة، ابن صبّاغ المالكي: ٣٠٣.

٤. قال أبو هاشم الجعفري: شكوت إلى أبي محمد العسكري ضيق الحبس وشدة القيد (مسماره) فكتب إليّ: «تصلّي اليوم الظهر في منـزلك». فأخرجت وقت الظهر، فصليت في منزلي.[1]

٥. قـال أحمد بن محمـد: كتبـت إلى أبي محمـد حين أخذ المهتـدي في قتـل الموالي:

يا سيـدي الحمد لله الذي شغلـه عنّا، فقـد بلغني انّه يتهـددك ويقول والله لأجلينّهم عن جديد الأرض يخلّصها.

فوقّع الإمام بخطه:«ذاك أقصر لعمره، عدّ من يومك هذا خمسة أيام ويقتل في اليوم السادس بعد هوان واستخفاف يمرّ به». فكان كما قال عليه السلام.[2]

٦. قال جعفر بن محمد القلانسي: كتب محمد أخي إلى أبي محمد العسكري ـ و امرأته حامل مقرب ـ أن يدعو الله أن يخلّصها ويرزقه ذكراً ويسمّيه؟

فكتب عليه السلام : «رزقـك الله ذكراً سـوياً، ونعـم الاسم محمـد وعبد الـرحمان» فولدت اثنين، فسمّى أحدهما محمداً والآخر عبد الرحمان.[3]

٧. قال محمد بن عياش: تذاكرنا آيات الإمام، فقال ناصبي: إن أجاب بلا مداد علمت أنّه حـقّ، فكتبنا مسائل وكتب الرجل بـلا مداد على ورق وجعل في الكتب، وبعثنـا إليه، فأجـاب عن مسائلنـا وكتب على ورقـه اسمه واسم أبـويه، فدهش الرجل، فلمّا أفاق اعتقد الحق.[4]

---

١. إعلام الورى: ٣٧٢؛ مناقب ابن شهر آشوب:٤/ ٤٣٢؛ إثبات الوصية: ٢٤١.
٢. إعـلام الـورى:٣٧٥؛ إثبات الـوصيـة: ٢٤٢؛ أُصـول الكافي:١/ ٥١٠؛ الإرشـاد: ٣٤٤؛ كشـف الغمة:٣/ ٢٠٤.
٣. إثبات الوصية: ٢٤١.
٤. مناقب ابن شهر آشوب:٤/ ٤٤٠.

٨. قال إسماعيل بن محمد: شكوت إلى الإمام العسكري الحاجة، وحلفت انّه ليس عندي درهم فما فوقه.

فقال عليه السلام: «أتحلف بالله كاذباً، وقد دفنت مائتي دينار، وليس قولي لك هذا دفعاً عن العطية، اعطه يا غلام ما معك». فأعطاني مائة دينار ثمّ أقبل عليّ فقال عليه السلام: إنّك تحرم الدنانير التي دفنتها في أحوج ما تكون إليها».

فذهبت إليها فافتقدتها، فإذا هي في مكانها، فنقلتها إلى موضع آخر ودفنتها من حيث لا يطّلع أحد، ثمّ قعدت مدة طويلة، فاضطررت إليها فجئت إليها أطلبها في مكانها فلم أجدها، فجننت وشق ذلك علي، فوجدت ابناً لي قد عرف مكانها وأخذها ولم يحصل لي شيء، فكان كما قال عليه السلام.[١]

٩. قال رجل يدعى بالحلبي: اجتمعنا بالعسكر ـ سامراء ـ وترصّدنا للإمام العسكري يوم ركوبه، فخرج توقيعه: «لا يسلّمن علي أحد، ولا يشير إليّ بيده، ولا يومئ، فانّكم لا تؤمنون على أنفسكم».

وكان إلى جانبي شاب فقلت: من أين أنت؟ قال: من المدينة، قلت: ما تصنع هاهنا؟ قال: اختلفوا عندنا في أبي محمد عليه السلام فجئت لأراه وأسمع منه أو أرى منه دلالة ليسكن قلبي وانّي لولد أبي ذر الغفاري.[٢]

فبينما نحن كذلك إذ خرج الإمام العسكري مع خادم له، فلمّا حاذانا نظر إلى الشاب الذي بجنبي فقال عليه السلام: «أغفاري أنت؟» قال: نعم، قال عليه السلام: «ما فعلت أُمّك حمدوية؟ فقال: صالحة ومرّ، فقلت للشاب :أكنت رأيته قطّ وعرفته بوجهه قبل اليوم؟ قال: لا، قلت: فينفعك هذا؟ قال: ودون هذا.[٣]

---

١. الفصول المهمة: ٣٠٣؛ مناقب ابن شهر آشوب: ٤٣٢؛ نور الأبصار، الشبلنجي: ١٦٧، باختلاف يسير.

٢. غِفار اسم قبيلة أبي ذر.

٣. البحار: ٥٠/ ٢٦٩.

١٠. قال جعفر بن محمد: كنت قاعداً بالعشي فمرّ الإمام العسكري بي وهو راكب، وكنت اشتهي الولد شهوة شديدة، فقلت في نفسي ترى هل أُرزق ولداً؟

فقال عليه السلام برأسه: أي نعم، فقلت: ذكراً؟ فقال عليه السلام برأسه لا، فولدت لي ابنة.[1]

١١. قال علي بن محمد بن زياد: خرج إليّ توقيع أبي محمد عليه السلام: «فتنة تخصك، فكن حلساً من أحلاس بيتك» فنابتني نائبة فزعت منها، فكتبت إليه: أهي هذه؟

فكتب عليه السلام: «لا، أشد من هذه» فطُلبت بسبب جعفر بن محمود، ونودي من أصابني فله مائة ألف درهم.[2]

٧. إعداد الشيعة لعصر الغيبة

ولأجل انّ غيبة إمام قوم وقائد أي شعب تعد أمراً غير طبيعي وغير مألوف ويصعب على الناس تصديقها واحتمال المشاكل الناجمة منها، أخذ نبي الإسلام صلى الله عليه وآله والأئمّة السابقون عليهم السلام يعرّفون الناس بالتدريج على هذا الأمر وهيّأوا الأذهان لقبوله، وتبدو هذه المحاولات ملموسة أكثر في عهد الإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام، وهو عهد قريب من عصر الغيبة.

فكما لاحظنا في سيرة الإمام الهادي عليه السلام انّه كان يقوم بأعماله من خلال وكلائه وقلّما كان يتصل بالآخرين شخصياً.

---

١. حياة الإمام العسكري عليه السلام، الشيخ الطبسي:١٣٦، نقلاً عن كتاب الهداية الكبرىٰ تأليف حسين ابن حمدان الحضيني: ٣٨٦.

٢. كشف الغمة:٣/ ٢٠٧؛ بحار الأنوار:٥٠/ ٢٩٧.

وبدا هذا الأمر ملموساً ومشهوداً أكثر في عهد الإمام العسكري، لأنّه ورغم تأكيده على ولادة المهدي عليه السلام كان يسمح فقط لشيعته المقرّبين جداً برؤيته.

ومن ناحية أُخرى أصبح الاتّصال به نفسه عليه السلام محدوداً أكثر يوماً بعد يوم، لدرجة انّه عليه السلام كان يجيب على الأسئلة التي ترد عليه من نفس مدينته سامراء وشيعتها من خلال الرسائل أو الوكلاء.

وبذلك يكون قد عوّدهم على تحمّل الظروف والأوضاع الجديدة وتكاليف عصر الغيبة وطبيعته، وعلى قبول الاتصال الغير مباشر بالإمام، وكما سنلاحظه فانّ هذا الأسلوب هو نفس ذلك الأسلوب الذي اتبعه الإمام الثاني عشر في عصر الغيبة الصغرى بعد ذلك، وأعدّ الشيعة بالتدريج لعصر الغيبة الكبرىٰ.

قد أشرنا بأنّه كان بعض الشيعة المقرّبين يتوفّق في اللقاء بالإمام المهدي، وهنا سنشير على سبيل المثال إلى واحد من تلك اللقاءات.

التنبّؤ بغيبة المهدي ـ عجّل الله تعالى فرجه الشريف ـ

قال أحمد بن إسحاق أحد خواص الإمام العسكري وأصحابه المقرّبين الكبار: دخلت على أبي محمد العسكري عليه السلام وأنا أُريد أن أسأله عن الخلف بعده فقال لي مبتدئاً:

يا أحمد بن إسحاق إنّ الله لم يخل الأرض منذ خلق آدم ولا يخليها إلى أن تقوم الساعة من حجّة لله على خلقه، به يدفع البلاء من أهل الأرض، وبه ينزل الغيث، وبه يخرج بركات الأرض».

فقلت: يابن رسول الله فمن الإمام والخليفة بعدك؟

فنهض عليه السلام مسرعاً فدخل البيت ثمّ خرج وعلى عاتقه غلام كأنّ وجهه

القمر ليلة البدر من أبناء ثلاث سنين، فقال عليه السلام : يا أحمد بن إسحاق لولا كرامتك على الله وعلى حججه ما عرضت عليك ابني هذا، انّه سمي رسول الله صلى الله عليه وآله وكنيّه، والذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، مثله في هذه الأُمّة مثل الخضر ومثل ذي القرنين، والله ليغيبنّ غيبة لا ينجو من الهلكة فيها إلاّ من ثبّته الله على القول بإمامته ووفّقه فيها للدعاء بتعجيل فرجه.(١)

سطوع شمس الحقيقة

ورغم حقد رجال البلاط العباسي وعدائهم للإمام العسكري كانت عظمته الروحية والمعنوية وكمالاته وفضائله تجذبهم وتسيطر عليهم أحياناً، فيتواضعون أمامها، ويمطرونه بالمدح والثناء.

كان عبيد الله بن الخاقان من رجال بلاط الحكم العباسي المهمّين، وكان ابنه أحمد يتولّى الخراج والضياع بقم وكان ناصبياً.

وقد روى الحسن بن محمد الأشعري ومحمد بن يحيى وغيرهما أنّه جرى في مجلسه يوماً ذكر العلوية ومذاهبهم، فقال:

ما رأيت ولا عرفت بسامراء رجلاً من العلوية مثل الحسن بن علي العسكري في هديه وسكونه ونبله وعفافه وكبرته عند أهل بيته وبني هاشم كافة، وتقديمهم إياه على ذوي السن منهم والخطر، وكذلك كانت حاله عند القوّاد والوزراء وعامّة الناس، فاذكر انّي كنت يوماً قائماً على رأس أبي وهو يوم مجلسه للناس، إذ دخل حجابه، فقالوا:

---

١. إكمال الدين: ٢/ ٣٨٤.

أبو محمد بن الرضا عليه السلام [١] بالبـاب، فقال بصوت عالٍ: إئذنـوا له؛ فتعجبت ممّا سمعت منهم ومن جسارتهم أن يكنّوا رجلاً بحضرة أبي، ولم يكن يكنّىٰ عنـده إلاّ خليفة أو ولي عهد أو من أمـر السلطان أن يكنّى[٢]؛ فدخل رجل أسمر، حسن القامة، جميل الوجه، جيد البدن، حديث السـن، له جلالة وهيبـة حسنة، فلمّا نظر إليه أبي قـام فمشى إليه خطاً ولا أعلمـه فعل هذا بأحـد من بني هاشـم والقوّاد، فلمّا دنا منه عانقه وقبّل وجهه وصـدره وأخذ بيده، وأجلسه على مصلاّه الذي كان عليه، وجلس إلى جنبه مقبلاً عليه بوجهه وجعل يكلّمه ويفديه بنفسه، وأنا متعجب ممّا أرى منـه!! إذ دخل الحاجب فقال: الموفق ـ أخو الخليفة ـ قـد جاء، وكان الموفق إذا دخل على أبي تقدّمـه حجابه وخاصّة قـوّاده فقاموا بين مجلس أبي وبين بـاب الدار سماطين إلى أن يدخل ويخرج، فلم يزل أبي مقبلاً على أبي محمد عليه السلام يحدّثه حتى نظر إلى غلمان الخاصة فقال حينئـذٍ له عليه السلام :«إذا شئت جعلنـي الله فداك ذهبت».

ثمّ قال لحجابه: خذوا به خلف السماطين لا يراه هذا ـ يعني: الموفق ـ فقام وقام أبي يعانقه ومضى.

فقلت لحجاب أبي وغلمانه: ويحكم من هذا الذي كنّيتموه بحضرة أبي وفعل به أبي هذا الفعل؟!

---

١. كان يطلق في تلك الفترة وفي البلاط العباسي لقب ابن الـرضا على أبنائه من الأئمة كالإمام الجواد والهادي والعسكري عليهم السلام تقديراً لانتسابهم إلى الإمام الرضا عليه السلام.

٢. الشائع بين العرب هو انّهم إذا أرادوا مخاطبة شخص باحترام كنّوه.

فقالـوا هذا: علـوي يقال لـه الحسن بـن علي، ويعرف بـابن الـرضا فازددت تعجبـاً ولم أزل يومي ذلك قلقـاً متفكّراً في أمره وأمـر أبي وما رأيته منه حتـى كان الليل وكانـت عادته أن يصلي العتمة ثـمّ يجلس فينظر ما يحتـاج إليه من المؤامرات وما يـرفعه إلى السلطان، فلمّا صلى وجلس جئت وجلسـت بين يديه وليس عنده أحـد فقال لي: يا أحمد ألك حاجة؟

فقلت: نعم يا أبة، فإن أذنت سألتك عنها .

فقال: قد أذنت.

قلت: يا أبة مـن الرجل الذي رأيتك بالغداة فعلت بـه ما فعلت من الإجلال والكرامة والتبجيل، وفديته بنفسك وأبويك؟

فقال: يـا بني ذاك إمـام الرافضـة[1] الحسن بـن علي المعروف بـابن الرضا، ثمّ سكت ساعة وأنا ساكت، ثمّ قال: يا بني لو زالت الإمامة عن خلفـائنا بنـي العباس مـا استحقها أحـد من بنـي هاشـم غيره لفضله وعفافه وصيانته وزهده وعبادتـه وجميل أخلاقه وصلاحه، ولو رأيت أباه رأيت رجلاً جزلاً نبيلاً فاضلاً.

فازددت قلقاً وتفكّراً وغيظاً على أبي وما سمعته منه فيه، وما رأيت من فعله به، فلم تكن لي همّة بعد ذلك إلاّ السؤال عن خبره والبحث عن أمـره، فما سألـت أحداً مـن بني هـاشم والقـوّاد والكتاب والقضـاة والفقهاء وسائر الناس إلاّ وجدته عنـدهم في غاية الإجلال والإعظام والمحـل الرفيـع والقـول الجميـل والتقديـم لـه على جميـع أهل بيتـه

١ . أعداء الشيعة يسمّونهم رافضة طعناً فيهم.

ومشايخه، فعظم قدره عندي، إذ لم أر له ولياً ولا عدواً إلاّ وهو يحسن القول فيه والثناء عليه.(١)

استشهاد الإمام والمؤامرات الفاشلة

ولما لاحظ المعتمد العباسي الذي كان قلقاًمن شعبية الإمام ومحبوبيته ونفوذه الروحي في المجتمع انّ اهتمام الناس وانجذابهم بدأ يزداد نحوه عليه السلام يوماً بعد يوم، وانّ للاعتقال والاضطهاد مردوداً عكسياً، لجأ إلى الطريقة القذرة التقليدية وسمّ الإمام سراً.

وكتب عالم الشيعة الشهير الطبرسي: وذهب كثير من أصحابنا إلى أنّه عليه السلام مضى مسموماً، وكذلك أبوه وجدّه وجميع الأئمة عليهم السلام.(٢)

وقال الكفعمي عالم الشيعة المعروف: إنّ المعتمد هو الذي سمّه.(٣)

ويعتقد محمد بن جرير بن رستم الطبري العالم الشيعي في القرن الرابع بأنّ الإمام العسكري عليه السلام استشهد مسموماً.(٤)

وممّا يدلّ على استشهاد الإمام علىٰ يد البلاط العباسي هي التصرفات والأعمال التي قام بها المعتمد وجهوده في إظهار انّ موته كان بشكل طبيعي.

كتب ابن الصباغ المالكي أحد علماء أهل السنّة نقلاً عن عبيد الله بن الخاقان أحد رجال البلاط العباسي والذي ذكرنا مدى إجلاله للإمام:

لقد ورد على الخليفة المعتمد أحمد بن المتوكل في وقت وفاة الإمام العسكري

---

١. الإرشاد، ص ٣٣٨؛ روضة الواعظين، ص ٢٧٣ـ ٢٧٥؛ اعلام الورى: ٣٧٦ـ ٣٧٧؛ أُصول الكافي: ١/ ٥٠٣؛ كشف الغمة: ٣/ ١٩٧؛ پيشواى يازدهم امام حسن عليه السلام: ١٣ـ ١٧.

٢. إعلام الورى: ٣٦٧.

٣. الأنوار البهية: ١٦٢.

٤. دلائل الإمامة: ٢٢٣.

ما تعجبنا منه، ولا ظننا انّ مثله يكون مـن مثله، وذلك انّه لما اعتل أبو محمد عليه السلام ركب خمسة من دار الخليفة من خدام أمير المؤمنين وثقاته وخاصته كلّ منهم نحرير فقه وأمرهم بلزوم دار الإمام وتعرّف خبره ومشاركهم له بحاله وجميع ما يحدث له في مرضه ؛وبعث إليه من خدام المتطببين وأمرهم بالاختلاف وتعهده صباحاً ومساءً، فلمّا كان بعد ذلك بيومين أو ثلاثاً أخبروا الخليفة بأنّ قوته قد سقطت وحركته قد ضعفت وبعيد أن يجيء منه شيء، فأمر المتطببين بملازمته وبعث الخليفة إلى القاضي بن بختيار عشرة ممن يثق بهم بدينهم وأمانتهم يأمرهم إلى دار الإمام وبملازمته ليلاً ونهاراً فلم يزالوا هناك إلى أن توفي بعد أيّام قلائل.

ولمّا رفع خبر وفاته ارتجّت سامراء وقامت ضجّة واحدة وعطلت الأسواق وغلّقت أبواب الدكاكين، وركب بنو هاشم والكتّاب والقوّاد والقضاة والمعدلون وسائر الناس إلى أن حضروا إلى جنازته، فكانت سامراء في ذلك شبيهاً بالقيامة، فلما فرغوا من تجهيزه بعث الخليفة إلى عيسى بن المتوكل أخيه بالصلاة عليه.

فلمّا وضعت الجنازة للصلاة دنا عيسى منه وكشف عن وجهه وعرضه على بني هاشم من العلويةوالعباسية وعلى القضاة والكتاب والمعدلين فقال: هذا أبو محمد العسكري مات حتف أنفه على فراشه، وحضره من خدام الخليفة فلان وفلان؛ ثمّ غطى وجهه، وصلّى عليه، وأمر بدفنه.[1]

---

١. الفصول المهمة: ٣٠٧ـ٣٠٨، و قد روى هذه الرواية المرحوم الشيخ المفيد في الإرشاد والفتال النيشابوري في روضة الواعظين والطبرسي في إعلام الورى وعلي بن عيسى الإربلي في كشف الغمة نقلاً عن أحمد بن عبيد الله بن الخاقان، و تبيّن هذه الرواية ماهية قاعدة الإمام الشعبية واتساعها وتوضح سبب قلق الحكم العباسي، وتبيّن أيضاً مدى خوف الخليفة من انكشاف أمر قتله للإمام بالسم، ولذلك وبإعداد مسبق حاول أن يتظاهر بأنّ موت الإمام كان طبيعياً.

ومن المؤكد انّ هذه الصلاة كانت تشريفية وشكلية وكانت ضمن المخطط الذي مارسه الجهاز الحاكم للتغطية على استشهاد الإمام.

وكما هو مشهـور لدى علماء الشيعـة انّ الإمام المهـدي ـ عجّل الله تعـالى فرجه الشريف ـ صلّى على أبيه الكريم بشكل خاص.[١]

محاولات جعفر الكذّاب الفاشلة

قال أبو الأديان: كنت أخـدم الإمام الحسن العسكري ﴿ع﴾ وأحمل كتبه إلى الأمصار، فدخلت عليـه في علّته التي توفّي فيها، فكتب معـي كتباً، وقال: «امض بها إلى المدائن، فإنّك ستغيـب خمسة عشر يوماً، وتـدخل إلى سامراء يـوم الخامس عشر، وتسمع الواعية ـ الصراخ ـ في داري وتجدني على المغتسل».

فقلت: يا سيدي فإذا ذلك فمَن؟

قال :«من طالبك بجوابات كتبي فهو القائم من بعدي».فقلت: زدني.

قال ﴿ع﴾ :«من يصلي عليّ فهو القائم من بعدي».

فقلت: زدني.

قال ﴿ع﴾ : «من أخبر بما في الهميان فهو القائم بعدي». ثمّ منعتني هيبته ان أسألـه عمّا في الهميان، وخرجت بـالكتب إلى المدائن وأخذت جوابـاتها، ودخلت سامراء يوم الخامس عشر ـ من سفري ـ كما ذكر ﴿ع﴾ لي، فإذا أنا بالواعية في داره، وإذا به على المغتسل، وإذا أنا بجعفر (الكذّاب) أخيـه بباب الدار والشيعة حوله يعزّونه ويهنّئـونه، فقلت في نفسي: إن يكن هـذا إماماً، فقد بطلـت الإمامة، لأنّي

١. إكمال الدين ص ٤٧٥؛ بحار الأنوار: ٥٠/ ٣٣٢ـ ٣٣٣.

كنت أعرفه يشرب النبيذ ويقامر في الحوسق ويلعب بالطنبور، فتقدمت فعزّيت وهنّأت بالإمامة فلم يسألني عن شيء.

ثمّ خرج عقيد وقال لجعفر: يا سيدي قد كفّن أخوك، فقم وصلّ عليه؛ فدخل جعفر بن علي والشيعة من حوله يقدمهم السمان[1] والحسن بن علي المعروف بِسَلَمة.

فلمّا صرنا في الدار إذا نحن بالحسن العسكري على نعشه مكفّناً فتقدّم جعفر بن علي ليصلّي على الإمام، فلمّا همّ بالتكبير، خرج صبي بوجهه سمرة، بشعره قطط، بأسنانه تفليج، فجذب برداء جعفر، وقال:«تأخر يا عم فأنا أحقّ بالصلاة على أبي».

فتأخّر جعفر، وقد اربدَّ وجهه واصفرّ فتقدم الصبي، وصلّى عليه، ودفن إلى جانب قبر أبيه عليه السلام .

ثمّ قال الصبي: «يا بصري هات جوابات الكتب التي معك».

فدفعتها إليه، فقلت في نفسي: هذه بينتان، بقي الهميان، ثمّ خرجت إلى جعفر بن علي وهو يزفر، فقال له الحاجز الوشاء: يا سيدي من هذا الصبي؟ ليقيم الحجة عليه فقال جعفر: والله ما رأيته قط ولا أعرفه، فنحن جلوس، إذ قدم نفرٌمن قم فسألوا عن الحسن العسكري عليه السلام فعرفوا موته فقالوا: فمن نعزي؟

فأشار الناس إلى جعفر، فسلّموا عليه وعزّوه وهنّؤوه وقالوا: إنّ معنا كتباً ومالاً فتقول ممن الكتب وكم المال؟

فقام ينفض أثوابه، ويقول: تريدون منّا أن نعلم الغيب؟

---

١. ويقصد عثمان بن سعيد العمري أحد أصحاب الإمام العسكري المقرّبين الذي سمّي بالسمّان لاشتغاله به.

فخرج الخادم فقال: معكم كتب فلان وفلان و... وهميان فيه ألف دينار وعشرة دنانير منها مطلية.

فدفعوا إليه الكتب والمال، وقالوا: الذي وجّه بك لأخذ ذلك هو الإمام.[١]

جهود غير مثمرة

إنّ المعتمد الذي كان يعتقد ـ لسذاجته ـ انّه وصل إلى مبتغاه وحقّق أهدافه باستشهاد الإمام انّه لا يوجد هناك خطر يهدد حكمه المستبد، ولكنّه ولأجل أن يرتاح باله قام بأعمال أُخرى تبيّن مدى تعطّشه للسلطة ومدى قلقه من ابن الإمام العسكري عليه السلام، فقد أمر جلاوزته بأن يداهموا بيته ويفتشوا أثاثه بشكل تام، وختم على جميع ما فيها؛ ومن ناحية أُخرى كان قد سمع بأنّ للإمام ولداً فأمر بطلب أثر ولده عليه السلام، وجاءوا بنساء يعرفن الحمل، فدخلن إلى جواريه عليه السلام ينظرن إليهن، فذكرت بعضهن انّ هناك جارية بها حمل، فجعلت في حجرة ووكّل بها نحرير الخادم ـ أحد خدّام الخليفة ومن البلاط ـ و أصحابه ونسوة معهم ليعرفوا حقيقة الأمر[٢]، ولم يزل الذين وكّلوا بحفظ الجارية لازمين لسنتين حتى تبيّن بطلان ما توهّم عليها من الحمل.[٣]

ولكي يتظاهر بأن ليس للإمام ولد وييأس الشيعة ويفقدون الأمل في الإمام التالي، قسّم المعتمد ميراثه عليه السلام بين أُمّه وأخيه جعفر.[٤] غير انّ الشيعة كانوا

١. إكمال الدين، الشيخ الصدوق، ص ٤٧٥.

٢و٣. أُصول الكافي: ١/ ٥٠٥؛ البحار: ٥٠/ ٣٢٩.

٤. أُصول الكافي: ١/ ٥٠٥؛ البحار: ٥٠/ ٣٢٩.

يعتقدون بأنّ له عليه السلام ولداً هو الإمام التالي[١]، لأنّ منهم من شاهد الإمام وهو صغير مسبقاً كما تقدّم.

وعلى أيّة حال ظلت التحريات والمضايقات والتفتيش والضغوط مستمرة كلّ ذلك لأجل العثور على الإمام الثاني عشر، فدامت إلى أن ثار يعقوب بن ليث الصفاري في خراسان، ومات عبيد الله بن الخاقان فجأة، وثار أيضاً صاحب الزنج في البصرة، حينئذٍ راح الحكم العباسي يركّز جميع جهوده على مواجهة هذه الثورات، فلم تسنح الفرصة للتضييق على أهل البيت والتعرّض لهم.[٢]

١. كشف الغمة، الاربلي:٣/ ١٩٩؛ روضة الواعظين الفتال النيشابوري، ص ٢٧٦.

٢. البحار:٥٠/ ٣٣١؛ دلائل الإمامة: ٢٢٤؛ إكمال الدين: ٤٧٥.

وقد أفدت مضافاً إلى المصادر المذكورة آنفاً من المصادر التالية مع الشكر لمؤلفيها: پيشواى يازدهم حضرت امام حسن عسكرى، مؤسسه در راه حق؛ دورنمايى از زندگانى پيشوايان اسلام، تأليف الأُستاذ جعفر السبحاني؛ خاندان وحى، تأليف السيد علي أكبر القرشي.

الإمام المهدي ـ عجّل الله تعالى فرجه الشريف ـ

* الأسباب السياسية والاجتماعية للغيبة
* النواب الخواص
* المهدي في المصادر الشيعية
* المهدي في المصادر السنية
* ماهية دولة المهدي في القرآن
* فوائد وجود الإمام في عصر الغيبة

نبذة مختصرة
عن حياة الإمام عليه السلام

ولد الإمام الثاني عشر وهو الإمام الحجّة بن الحسن المهدي إمام الزمان ـ عجّل الله تعالى فرجه الشريف ـ في النصف من شعبان عام ٢٥٥ هجرية في مدينة سامرّاء[1] وهو سمي نبي الإسلام (م ح م د) وكنّيه (أبوالقاسم)[2] غير انّ الأئمّة المعصومين نهوا عن ذكر اسمه.[3]

ومن ألقابه: الحجّة، القائم، الخلف، الصالح، صاحب الزمان[4]، وبقية الله[5]، وأشهرها المهدي.[6]

---

١. الإرشاد: ٣٤٦؛ روضة الواعظين: ٢٩٢؛ أصول الكافي: ١/ ٥١٤؛ الغيبة، الطوسي: ١٤١؛ اعلام الورى: ٤١٨؛ الفصول المهمة: ٣١٠؛ وذكرت بعض المصادر انّ ولادته كانت في ٢٥٦؛ إكمال الدين: ٤٣٢؛ الغيبة، الطوسي: ١٣٩ـ ١٤٧؛ وفي البعض الآخر تقول عام ٢٥٨؛ كشف الغمة: ٣/ ٢٢٧؛ تاريخ الأئمة، ابن أبي الثلج البغدادي؛ ضمن مجموعة نفيسة، ص ١٥ ويعتقد أبو جعفر الطبري في دلائل الإمامة: ٢٧١ـ ٢٧٢ انّ ولادته كانت في عام ٢٥٧.

٢. الإرشاد: ٣٤٦؛ إعلام الورى: ٤١٧؛ كشف الغمة: ٣/ ٢٢٧؛ الفصول المهمة: ٣١٠.

٣. إكمال الدين: ٦٤٨؛ أصول الكافي: ١/ ٣٣٢؛ البحار: ٥١/ ٣١ـ ٣٤، و لكن هل كان نهي الأئمة عن ذكر اسمه الخاص موقفاً سياسياً مؤقتاً يتعلّق بعصر الغيبة الصغرى، أو ان حرمة ذكره مستمرة إلى لحظة ظهوره وقيامه؟ هناك خلاف بين علماء الشيعة؛ النجم الثاقب، ميرزا حسين الطبرسي النوري، ٤٨ـ ٤٩، الباب ٢ .

٤. إعلام الورى: ٤١٨؛ الفصول المهمة: ٣١٠.

٥. إثبات الوصية: ٢٤٨.

٦. الفصول المهمة: ٣١٠.

أبـوه هـو الإمام الحادي عشر الحسـن العسكـري عليه السلام ، وأُمّـه هي الامـرأة الفاضلة نرجس[١] التي تـذكر باسم ريحانـة وسوسن وصقيـل أيضاً[٢]، وقد بلـغ فضلها ومكانتهـاحداً جعل حكيمة أُخـت الإمام الهادي التي هي مـن نساء أهل البيت الكبيرات والقـديرات ان تعتبرها سيـدة أهل بيتهـا و ان تعد نفسهاخـادمة لها.[٣]

كان للإمـام المهدي عليه السلام غيبتـان: إحـداهما قصيرة ـ الغيبـة الصغـرىٰ ـ والأُخرى طويلة ـ الغيبة الكبرى ـ كانت الأُولى من ولادته حتـى نهاية فترة النيابة الخاصة، والثـانية بدأت بـانتهاء الأُولى وتستمر حتـى ظهوره ـ عجّل الله تعالى فـرجه الشريف ـ.[٤]

ولادة المهدي ـ عجّل الله تعالى فرجه الشريف ـ في رأي علماء أهل السنّة

إنّ الإيمان بالمهدوية ـ و كما سنـوضحه في الصفحـات التاليـة ـ لا يختـص بالشيعـة بل علماء أهل السنّـة وطبقاً لروايـات كثيرة رويت عن النبـي الأكرم صلى الله عليه وآله يؤمنون بذلـك أيضاً، غير انّهم ينكرون ولادته ويقولون: إنّ مـن أخبر عنه النبي لم

---

١ .الإرشـاد: ٣٤٦؛ إكمال الـديـن:٤٣٢؛ إعـلام الـورى: ٤١٨؛ إثبـات الـوصيـة: ٢٤٨؛ روضـة الواعظين:٢٨٣؛ الغيبة: ١٤٣؛ دلائل الإمامة: ٢٦٨؛ الفصول المهمة: ٣١٠.

٢. إكمال الـدين: ٤٣٢؛ روضـة الواعظين: ٢٩٢، واحتمـل بعـض الباحثين المعـاصرين انّ اسمهـا نرجـس، وقد أعطتها السيـدة حكيمة بقية الأسماء مـا عدا صقيل ـ و وفقاً لبعض الـروايات انّها كانت جارية من جواريها ـ وكـان الناس في تلك الفترة يطلقون على جواريهم أسماء مختلفة ترحيباً بهم، فإنّ نرجس وريحانة وسوسن كلّها أسماء للزهـور؛ تاريخ سياسى غيبت امام دوازدهـم، حسين جاسم: ١١٤.

٣. روضة الواعظين:٢٨٣؛ إكمال الدين: ٤٢٧؛ البحار:٥١/ ١٢

٤. الإرشاد:٣٤٦.

يولد بعد، وإنّما سيولد في المستقبل.[١]

ومع ذلك فقد ذكر عدد ملفت للنظر من المؤرّخين والمحدّثين السنّة ولادته في كتبهم واعتبروها أمراً واقعاً، وقال بعض الباحثين: إنّ عدد من قال بذلك من علمائهم بلغ أكثر من مائة مؤرّخ ومحدّث.[٢]

لقاءالإمام المهدي عليه السلام

وكما كتبنا في سيرة الإمام الحسن العسكري عليه السلام بالتفصيل، فإنّ الحكم العباسي الجائر كان ـ و بدافع العثور على ابنه وقتله عليه السلام ـ يضع بيته تحت المراقبة الشديدة، غير انّ الإمام العسكري عليه السلام ووفقاً لخطة دقيقة كان قد أعدّها مسبقاً قد أخفى ولادة الإمام المهدي عن عيون الناس حتى الشيعة.

إنّ أوثق روايةحول هذا الموضوع هو ما روته السيدة حكيمة عمة الإمام العسكري التي شاهدت ولادة الإمام وحضرتها، ولكن يجب الالتفات إلى أنّ هذا التستر لا يعني انّه لم ير الإمام أحد بعد ولادته عندما كان في الخامسة أو السادسة من عمره، وكان أبوه عليه السلام على قيد الحياة، بل كان هناك ـ كما ذكرنا ذلك في سيرة الإمام العسكري ـ أشخاص معيّنون من الشيعة يلتقون به في الفرص المناسبة حتى

١. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد:٧/ ٩٤؛ ١٠/ ٩٦.

٢. مهدى منتظر در نهج البلاغة، مهدي فقيه إيماني:٢٣ـ٣٩.

وإليك بعض هذه المصادر التي في متناول يد الكاتب وهي تصرّح بولادة المهدي عليه السلام:

الصواعق المحرقة، ص ٢٠٨؛ الاتحاف بحب الأشراف، الشبراوي : ١٧٩؛ سبائك الذهب، محمد البغدادي: ٧٨؛ نور الأبصار، الشبلنجي: ١٦٨؛ إسعاف الراغبين(في حاشية نور الأبصار)، الشيخ محمد الصبان:١٤١؛ الكامل في التاريخ:٧/ ٢٧٤(حوادث سنة ٢٦٠هـ)؛ تاريخ كزيده، مستوفي:٢٠٧؛ الأئمة الاثنى عشر، ابن طولون: ١١٧؛ الفصول المهمة: ٣١٠؛ ينابيع المودة:٣/ ٣٦.

يستيقنوا بولادته ووجوده ويخبروا الشيعة عند الضرورة. وقد ذكر علماؤنا هذه اللقاءات على نطاق واسع.[١]

ولعلّ أهمّ هذه اللقاءات هو لقاء أربعين شخصاً من أصحاب الإمام العسكري عليه السلام به وهو بالنحو التالي:

قال الحسن بن أيّوب بن نوح[٢]: اجتمعنا إلى أبي محمد العسكري نسأله عن الحجّة من بعده وفي مجلسه عليه السلام أربعون رجلاً، فقام إليه عثمان بن سعيد العمري ـ أحد وكلاء إمام الزمان فيما بعد ـ فقال له: يابن رسول الله أريد أن أسألك عن أمر أنت أعلم به منّي.

فقال عليه السلام له: «اجلس يا عثمان».

فقام مغضباً ليخرج فقال عليه السلام : «لا يخرجن أحد» فلم يخرج منّا أحد إلى أن كان بعد ساعة، فصاح عليه السلام بعثمان، فقام على قدميه فقال:«أخبركم بما جئتم؟».

قالوا: نعم يابن رسول الله.

قال عليه السلام : «جئتم تسألوني عن الحجّة بعدي؟».

قالوا: نعم. فإذا غلام كأنّه قطع قمر أشبه الناس بالإمام العسكري.

فقال عليه السلام : **«هذا إمامكم من بعدي، وخليفتي عليكم أطيعوه، ولا تتفرّقوا من بعدي فتهلكوا في أديانكم ألا...».**[٣]

---

١. إكمال الدين: ٤٣٤ـ ٤٧٨؛ الإرشاد: ٣٥٠ـ ٣٥١؛ ينابيع المودة، سليمان القندوزي: ٣/ ١٢٣ـ ١٢٥.

٢. وكما تقدّم في سيرة الإمام الهادي عليه السلام فانّ أيّوب بن نوح كان من وكلائه عليه السلام.

٣. الغيبة الطوسي: ٢٠٤؛ إكمال الدين: ٤٣٥؛ البحار: ٥١/ ٣٤٦؛ ينابيع المودة: ٣/ ١٢٣؛ منتخب الأثر، آية الله الشيخ لطف الله الصافي: ٣٥٥.

الأسباب السياسية والاجتماعية للغيبة

ولا شكّ في أنّ قيادة القادة الإلهيين ترمي إلى إيصال الناس إلى غاية الكمال، وهذا أمر يتم لو كانوا على استعداد للإفادة من هذه الهداية الربّانية، فإذا لم يتوفر هذا النوع من الاستعداد بين الناس، فسوف لن يكون هناك جدوى من حضور القادة الإلهيين بينهم.

وقد بيّنت ــ و للأسف ـ الضغوط والمضايقات الكبيرة التي تلقّاها الأئمّة عليهم السلام وبشكل خاص منذ الإمام الجواد عليه السلام وما بعده ـ الأمر الذي حدد نشاطات الإمامين العاشر والحادي عشر ـ انّ الأرضية غير ملائمة للتمتع بقيادة وإرشادات الأئمّة الرشيدة وانّها لم تصل إلى الحدّ المطلوب.

ولذلك اقتضت الحكمة الإلهية أن يختار الإمام الثاني عشر الغيبة إلى أن يحين ذلك الوقت الذي يكون المجتمع على استعداد تام لذلك، وهذا ما سنشير إليه تفصيلاً فيما بعد، ومن المؤكد انّه لم تتضح لنا جميع أسباب الغيبة، غير انّ النقطة التي قلنا إنّها السر الرئيسي للغيبة تتمحور في رواياتنا التي تتناول أسباب ودوافع الغيبة حول ثلاثة مواضيع :

الف: اختبار الناس

وكما شاهدنا فإنّ من السنن الإلهية الثابتة هو اختبار العباد واختيار الصالحين والطاهرين منهم انّ الحياة كانت وما تزال مسرحاً للاختبار لكي يستطيع العباد وفي ضوء إيمانهم وصبرهم وتسليمهم في طاعة الأوامر الإلهية أن يتربّوا ويبلغوا الكمال وتظهر مواهبهم الكامنة في وجودهم.

فالناس في غيبة الإمام المهدي يخضعون للاختبار، فالذين لم يتمتعوا برسوخ

في الإيمان ينكشف باطنهم ويكونون عرضة للشك والشبهات، والذين ضرب الإيمان بجذوره في أعماق قلوبهم يصبحون وبسبب انتظار ظهور ذلك الإمام القائد وصمودهم أمام الشدائد أكثر نضجاً وجدارة وينالون الدرجات العليا من الأجر والثواب الإلهيّين.

قال الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام: «إذا فقد الخامس من أولادي فالله الله في أديانكم، لا يزيلنكم عنها أحد... انّه لابدّ لصاحب هذا الأمر من غيبة حتى يرجع عن هذا الأمر من كان يقول به، إنّما هي محنة من الله امتحن الله تعالى بها خلقه».[1]

ويتضح من كلام أئمّة الإسلام انّ امتحان الناس بغيبة المهدي ـ عجّل الله تعالى فرجه الشريف ـ من أصعب الامتحانات الإلهية[2] وانّ هذه الصعوبة من جهتين:

١. من ناحية أصل الغيبة حيث يبتلي الكثير من الناس بالشك والترديد بسبب طول المدة، فبعض يشك في نفس ولادته، والآخر يشك في طول عمره ـ عجّل الله تعالى فرجه الشريف ـ فلن يبقى أحد على إيمانه بإمامة ذلك الإمام الهمام سوى المحنّكين الخلّص الذين يحملون معرفة عميقة ودركاً عالياً، وقد قال نبي الإسلام صلى الله عليه وآله «ليغبن المهدي عن شيعته وأوليائه، وليمحصن فلا ينجو إلاّ من أخذ الله ميثاقه وكتب في قلبه الإيمان».[3]

٢. من ناحية الضغوط والظروف العصيبة والحوادث المؤلمة التي تحدث في عصر الغيبة وتغير الناس وتؤثر عليهم حتى يصبح حفظ الإيمان والصمود في البقاء على الدين والاستقامة فيها أمراً عسيراً، وتتعرض عقيدة الناس إلى

١. الغيبة،الطوسي: ٢٠٤؛ الغيبة النعماني: ١٥٤؛ بحار الأنوار:٥١/ ١٥٠؛ أُصول الكافي:١/ ٣٣٧.
٢. الغيبة، الطوسي:٢٠٣ـ ٢٠٧؛ منتخب الأثر: ٣١٤ـ ٣١٥، الباب ٤٧.
٣. منتخب الأثر: ١٠١، ح٤،الفصل ١،الباب ٨.

هـزات عنيفة.[1]

ب: حفظ الإمام

فقد حفظ الله الإمام الثاني عشر من القتـل من خلال الغيبة، لأنّه ـ عجّل الله تعالى فرجه الشريف ـ لو كان قد ظهر من البداية بين الناس لكانوا يقتلونه كما سنشير إليه بالتفصيل.

وعليه إن ظهـر قبل الموعـد المقرر لكـان عرضـة للخطر أيضـاً، و ما كـان لينجح في تحقيق أهدافه الإصلاحية العليا ومهمته الإلهية.

قـال زرارة أحـد أصحـاب الإمـام الصـادق عليه السلام : سمعـت أبـا عبـد الله الصادق عليه السلام يقول:«للإمام المنتظر غيبة قبل أن يقوم».

قلت: ولم؟

قال عليه السلام : «يخاف على نفسه».[2]

ج: التحرر من نير البيعة لطواغيت العصر

إنّ الإمام الثاني عشر لم يعترف بشرعية أي حكم ونظام ولن يعترف ولو تقية، فهو غير ملـزم بالتقية تجاه أي حـاكم أو سلطان، ولم يرضـخ لدولة أي ظـالم، ولن يخضع لها، لأنّه ـ عجّـل الله تعالى فرجه الشريـف ـ يفعل ما يمليه عليـه واجبه الديني، ويطبق دين الله بشكل كامل وبدون خشية ولا خوف ولا تستر.

وعليه لن يكون للبيعـة والعهد والميثاق لأحد مكانة لديـه. قال الحسن بن

---

١. نويد أمن و أمان، الشيخ لطف الله الصافي١٧٧ـ١٧٨.

٢. أصول الكافي:١/ ٣٣٧؛ الغيبة، الطوسي٢٠٢؛ كمال الـدين: ٤٨١؛ منتخب الأثر: ٢٦٩؛ الغيبة، النعماني: ١٦٦.

فضال: قال الإمام الرضا عليه السلام :«كأنّي بالشيعة عند فقدهم الثالث من ولدي ـ الإمام العسكري ـ يطلبون المرعى فلا يجدونه».

قلت: ولم؟

قال عليه السلام :«لأنّ إمامهم يغيب عنهم».

قلت: ولم؟

قال عليه السلام :«لئلاّ يكون في عنقه لأحد بيعة إذا قام بالسيف».[1]

الغيبة الصغرى والكبرىٰ

تنقسم ـ كما أشرنا ـ غيبة الإمام المهدي إلى قسمين الغيبة الصغرى والغيبة الكبرى.

امتدت الغيبة الصغرى من عام ٢٦٠هـ ـ سنة استشهاد الإمام الحادي عشر ـ حتى عام ٣٢٩هـ و هي السنة التي مات فيها آخر سفير للإمام فكانت ٦٩ عاماً تقريباً.[2] ولم ينقطع اتصال الشيعة بالإمام كلية فيها بل كانوا يتصلون به ـ ولو على نطاق ضيق ـ و من قنوات خاصة.

وتوضيح ذلك هو انّه كان هناك أفراد معيّنون ـ سنأتي على ذكرهم ـ يتصلون بصفتهم نواباً بالإمام، و كان بإمكان الشيعة أن يحملوا أسئلتهم ومشاكلهم إلى

١. كمال الدين: ٤٨٠؛ البحار:١/ ١٥٢؛ منتخب الأثر:٢٦٨.

٢. عدّ الشيخ المفيد بداية الغيبة الصغرى منذ عام ولادته عليه السلام سنة ٢٥٥؛ الإرشاد: ٣٤٦، وعليه تكون الغيبة ٧٤ عاماً، ولعلّ رأي المفيد بسبب انّ الإمام لم يخالط ويعاشر الآخرين حتى في عهد أبيه فكان يعد عليه السلام غائباً كلية . ويحتمل انّ ذلك هو الذي جعل علماء مثل الطبرسي والسيد الأمين والسيد صدر الدين الصدر أن يعتقدوا انّ بداية الغيبة الصغرى كانت منذ الولادة وانّ غيبته ٧٤ عاماً ؛ إعلام الورى:٤٤٤؛ أعيان الشيعة:٢/ ٤٦؛ المهدي: ١٨١ .

الإمام ويستلموا أجوبتها من خلال هؤلاء النواب، وقد كانوا يتشرّفون بلقاء الإمام أحياناً ، ويمكن اعتبار هذه المرحلة مـرحلة تمهيد وإعداد للشيعة لاستقبال الغيبة الكبرى التي ينقطع اتصال الشيعة فيها بإمامهم حتى على ذلك المستوىٰ، فيكون عليهم مراجعـة الذين ينوبـون عن الإمام بالنيابـة العامة في أُمورهـم ومشاكلهم، أعني: الفقهاء، الذين تتوفر فيهم شروط المرجعية، والذين هم على معرفة بالأحكام الإسلامية.

ولـو كـانت الغيبـة الكبرى تحدث فجـأة، لكـان من الممكـن أن تنحـرف الأفكار وتتشتّت وترفض قبول هذه الظـاهرة، غير انّه وبالتمهيدات الحكيمة التي قام بها الأئمّة السابقون عليهم السلام تصبح فكـرة الغيبة الكبرى خلال الغيبـة الصغرى أكثر تقبّلاً ونضجاً، وكذلك انّ إمكانيـةاتصال السفراء والنواب بالإمام في الغيبة الصغرى وتشرّف بعـض الشيعة بلقـائه عليه السلام فيها يقـوى ويثبت كـلّ ذلك فكـرة ولادته وحياته عليه السلام.[١]

وبانتهاء مـرحلة الغيبة الصغرى تبـدأ غيبة الإمام الكبرى والطويلـة الأمد التي دامت إلى هذه اللحظة وستدوم إلى أن يأذن الله تعالى بالظهور والخروج، وقد أخبر الأئمّة عن غيبتيـه ـ الصغرى والكبرى ـ قبـل أن يولد بسنين عديـدة، ومنذ تلك اللحظـة حفظ الـرواة ذلك ورووه في كتبهـم الحديثية، نكتفـي بالإشـارة إلى بعض منها:

١. قـال أمير المؤمنين عليه السلام :«للغـائب منّـا غيبتان، إحـداهما أطـول مـن الأُخرى، فلا يثبت على إمامته إلاّ من قوي يقينه وصحت معرفته».[٢]

---

١. المهدي، السيد صدر الدين الصدر:١٨٣، پيشواى دوازدهم : ٣٨.

٢. ينابيع المودة، الشيخ القندوزي:٣/ ٨٢، الباب ٧١.

٢. قال الإمام الباقر عليه السلام: «للقائم غيبتان، يقولون في إحداهما هلك...».[1]

٣. قال أبو بصير: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام قال الإمام الباقر عليه السلام: «لقائم آل محمد صلى الله عليه وآله غيبتان إحداهما أطول من الأُخرى»؟ فقال عليه السلام: «نعم هو ذاك».[2]

٤. قال الإمام الصادق عليه السلام: «للإمام القائم غيبتان، إحداهما قصيرة وأُخرى طويلة».[3] فقد أيّدت حركة التاريخ صحت هذه التنبؤات وتحقّقت الغيبتان للإمام كما قال الأئمّة السابقون.

السفراء الأربعة

وقد شغل مركز النيابة عن الإمام في فترة الغيبة الصغرى أربعة من علماء الشيعة الكبار وزهّادهم ومن أصحاب الأئمّة السابقين، والذين عرفوا بالسفراء والنواب الأربعة[4]، وهم:

١. **أبو عَمْرو عثمان بن سعيد العَمْري.**

٢. **أبو جعفر محمد بن عثمان بن سعيد العَمْري.**

٣. **أبو القاسم الحسين بن روح النوبختي.**

٤. **أبو الحسن علي بن محمد السَّمَري.**

ومن المؤكد انّه كان للإمام وكلاء آخرون في مناطق مختلفة مثل بغداد،

---

١ و٢. الغيبة، النعماني: ١٧٣.

٣. الغيبة، النعماني: ١٧٠؛ منتخب الأثر: ٢٥١ـ٢٥٣؛ الفصل: ٢، الباب ٢٦.

٤. كان التعبير بالسفير والسفارة بدل النائب والنيابة هو الأكثر شيوعاً في تلك الفترة.

الكوفة، الأهواز، همدان، قم، الري، آذربايجان، نيشابور، وهم إمّا يتصلون بالإمام من خلال هؤلاء السفراء الأربعة وينقلون مشاكلهم ومسائلهم[١] إليه ـ عجّل الله تعالى فرجه الشريف ـ، وكانت التواقيع[٢]تصدر بحقهم من قبل الإمام.[٣]

أو ـ كما احتمله بعض الباحثين ـ انّ سفارة هؤلاء الأربعة ووكالتهم كانت سفارة عامة، و كان للآخرين وكالة خاصة في جهات معينة[٤] كمحمد بن جعفر الأسدي، أحمد بن إسحاق الأشعري القمي، إبراهيم بن محمد الهمداني، أحمد بن حمزة بن اليسع[٥]، محمد بن إبراهيم بن مهزيار[٦]، الحاجز بن يزيد ،محمد بن صالح[٧]، أبو هاشم داود بن القاسم الجعفري، محمد بن علي بن بلال، عمر الأهوازي، وأبو محمد الوجنائي.[٨]

الف: أبو عَمروْ عثمان بن سعيد العَمْري

كان عثمان بن سعيد من بني أسد، ولقّب بالعسكري لإقامته في مدينة سامراء، ويعرف بالسمّان في الأوساط الشيعية، لأنّه كان يمارس نشاطاته السياسية تحت غطاء الاتّجار بالسمن، وكان يضع الأمانات والأموال المتعلّقة بالإمام التي يجمعها من الشيعة في أواني السمن، فيسلّمها إلى الإمام.[٩] وقد كان يحظى بثقة واحترام جميع الشيعة.[١٠]

١ .وكما يروي الشيخ الطوسي كان هناك عشرة وكلاء لمحمد بن عثمان يقومون بنشاطاتهم في بغداد، الغيبة: ٢٢٥.

٢. التوقيع بمعنى التهميش والتحشية ويطلق عند علماء الشيعة على تلك الرسائل والأوامر الصادرة من الإمام المهدي إلى شيعته في الغيبة الصغرى.

٣. المهدي، صدر الدين الصدر: ١٨٩.

٤. أعيان الشيعة، السيد الأمين: ٢/ ٤٨.

٥. الغيبة، الطوسي: ٢٥٧ـ٢٥٨.

٦. أُصول الكافي:١/ ٥١٨، ح٥.

٧. المصدر نفسه: ٥٢١، ح١٤ و١٥.

٨. إعلام الورى: ٤٤٤.

٩. الغيبة، الطوسي: ٢١٤.

١٠.المصدر نفسه: ٢١٦.

والجدير ذكـره هو انّ عثمان كـان قبل ذلك مـن وكلاء وأصحـاب الإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام الموثوق بهم.

قال أحمد بن إسحـاق ـ وهو من شخصيات الشيعة البـارزة ـ: دخلت على الإمـام الهادي في يوم مـن الأيّام فقلـت يا سيـدي أنا أغيـب وأشهد ولا يتهيـأ لي الوصول إليك إذا شهدت في كلّ وقت فقول من أقبل وأمر من نمتثل؟

فقال عليه السلام: «**هذا أبـو عمرو الثقـة الأمين، ما قالـه لكم فعنّـي يقولـه، وما أدّاه إليكم فعنّي يؤدّيه**».

فلمّا مضى الإمام الهادي وصلت إلى أبي محمد العسكري ذات يوم فقلت له مثل قولي لأبيه عليه السلام.

فقال عليه السلام لي:« هـذا أبو عمـرو الثقـة الأمين ثقـة الماضي وثقتي في المحيـا والممات، فما قاله لكم فعنّي يقوله، وما أدّى إليكم فعنّي يؤدّيه».[1]

ولمّا مات الإمام العسكري حضر غسله عثمان بـن سعيد وتولّى جميع أمره في تكفينه وتحنيطه وتقبيره في الظاهر.[2]

وهو نفســه الذي استلم ذات يـوم أموالاً من شيعة اليمـن بأمر مـن الإمام العسكـري فقال الإمـام ردّاً على قولهم: يـا سيدنـا ولقـد زدتناعلماً بمـوضعه مـن خدمتك وانّه وكيلك وثقتك على مـال الله ولمن خيار شيعتك: «نعم واشهدوا عليّ انّ عثمان بن سعيد العمري وكيلي وانّ ابنه محمداً وكيل ابني مهديكم».[3]

وهكذا في خاتمة لقائه عليه السلام بالأربعين شيعياً ـ وقد أشرنا إلى ذلك ـ قال عليه السلام

١. الغيبة، الطوسي: ٢١٥.

٢. المصدر نفسه: ٢١٦.

٣. المصدر نفسه: ٢١٦.

للحاضرين: «فاقبلوا من عثمان ما يقوله، وانتهوا إلى أمره واقبلوا قوله فهو خليفة إمامكم والأمر إليه».[١]

إنّ تاريخ وفاة عثمان مجهول واحتمل البعض انّه مات بين سني ٢٦٠ـ ٢٦٧هـ واعتقد بعض آخر بأنّه مات عام ٢٨٠.[٢]

ب: محمد بن عثمان بن سعيد العَمْري

إنّ محمد بن عثمان ـ كأبيه ـ يعد من كبار الشيعة وكان يحظى باحترام وتقدير الشيعة [٣]، و هم يثقون بتقواه وعدالته، وكان من أصحاب الإمام العسكري الموثوق بهم كما قال الإمام العسكري رداً على سؤال أحمد بن إسحاق، وهو:عمّن آخذ وقول من أقبل؟: «**العمري وابنه ثقتان، فما أدّيا إليك فعنّي يؤدّيان، وما قالا لك فعنّي يقولان، فاسمع لهما وأطعهما فانّهما الثقتان المأمونان**».[٤]

وصدر بعد أن مات عثمان توقيع من الإمام الغائب يعلن فيه عزاءه لموته ونصب ابنه محمّداً وكيلاً مكانه.[٥]

قال عبد الله بن جعفر الحِمْيَري:لمّا مضى أبو عمرو عثمان بن سعيد أتتنا الكتب بالخط الذي كنّا نكاتب به بإقامة أبي جعفر محمد بن عثمان بن سعيد مقامه.[٦]

---

١. المصدر نفسه: ٢١٧.

٢. دكتر جاسم حسين، تاريخ سياسى غيبت امام دوازدهم: ١٥٥ـ ١٥٦.

٣. الغيبة: ٢٢١.

٤. المصدر نفسه: ٢١٩.

٥. المصدر نفسه: ٢١٩ـ ٢٢٠.

٦. المصدر نفسه: ٢٢٠؛ البحار: ٥١/ ٣٤٩.

وفي توقيع صادر من الإمام جواباً على أسئلة إسحاق بن يعقوب كتب عليه السلام: «وأمّا محمّد بن عثمان العمري رضي الله عنه وعن أبيه من قبل فإنّه ثقتي وكتابه كتابي».[1]

وقد كان لأبي جعفر تأليفات فقهية صارت بعد وفاته بيد الحسين بن روح ثالث سفراءالإمام أو بحوزة أبي الحسن السمري السفير الرابع.[2]

وتولّى محمد بن عثمان السفارة والوكالة عن إمام الزمان مدة ما يقارب الأربعين عاماً وأعدّ خلال هذه الفترة وكلاء محليين، وكان هو يشرف على نشاطاتهم ويدير أُمور الشيعة ويهتم بها، وصدرت تواقيع عديدة من الإمام ـ عجّل الله تعالى فرجه الشريف ـ فوصلت من خلاله إلى الآخرين وأخيراً قد توفّي في عام ٣٠٤ أو ٣٠٥.[3]

وقد أخبر عن يوم وفاته قبل أن يموت، فمات في نفس ذلك التاريخ الذي أخبر عنه.[4]

ج: أبو القاسم الحسين بن روح النوبختي

وفي الأيام الأخيرة من حياة أبي جعفر زاره جماعة من كبار الشيعة، فقال: إن حدث علي حدث الموت فالأمر إلى أبي القاسم الحسين بن روح النوبختي، فقد أُمرت ان اجعله في موضعي بعدي، فارجعوا إليه وعولوا في أُموركم عليه.[5]

١. الغيبة، الطوسي: ٢٢٠؛ البحار: ٥١/ ٣٥٠؛ إعلام الورى: ٤٥٢؛ كشف الغمة: ٣/ ٣٢٢.
٢. الغيبة، الطوسي: ٢٢١.
٣. الغيبة، الطوسي: ٢٢٣.
٤. المصدر نفسه: ٢٢٢؛ البحار: ٥١/ ٣٥١.
٥. الغيبة: ٢٢٦ـ ٢٢٧؛ البحار: ٥١/ ٣٥٥.

وقد كان الحسين بن روح من أصحاب السفير الثاني المقرّبين، وكان العمري يعدّه لأمر الوكالة والسفارة منذ وقت طويل، فكان يحيل الشيعة في دفع الأموال إليه حيث كان همزة الوصل بين عثمان بن سعيد والشيعة.(١)

كان الحسين بن روح قد ألّف كتاباً في فقه الشيعة تحت عنوان التأديب، وقد أرسله إلى فقهاء قم لينظروا فيه، فكتبوا رداً عليه: انّه كلّه صحيح ــ يطابق فتاوى الشيعة ـ وما فيه شيء يخالف إلاّ مسألة واحدة.(٢)

و قد أثنى بعض المعاصرين على عقله وفطنته ومعرفته فقال: وكان أبو القاسم من أعقل الناس عند المخالف والموافق.(٣)

وسجن الحسين بن روح مدة خمسة أعوام في عهد الخليفة المقتدر وأُفرج عنه سنة ٣١٧هـ(٤) وأخيراً وبعد نشاط في السفارة والوكالة دام واحداً وعشرين عاماً مات في سنة ٣٢٦هـ.(٥)

د: أبو الحسن علي بن محمد السَّمَري(٦)

بأمر من إمام العصر(٧) وترشيح وتقديم النوبختي تولى علي بن محمد السمري السفارة والوكالة الخاصة وشؤون الشيعة وإدارتها(٨).

كان السمري من أصحاب الإمام العسكري عليه السلام (٩). فقد تولّى مهمة

١. الغيبة: ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٧.
٢. الغيبة، الطوسي: ٢٤٠.
٣. البحار: ٥١/ ٣٥٦؛ الغيبة: ٢٣٦.
٤. دكتور جاسم حسين، تاريخ سياسى غيبت امام دوازدهم: ١٩٩.
٥. الغيبة: ٢٣٨.
٦ و قيل السيمري والصيمري أيضاً؛ تاريخ الغيبة الصغرى، محمد الصدر: ٤١٢.
٧. إعلام الورى: ٤٤٥.
٨. الغيبة، للطوسي: ص ٢٤٢.
٩. تاريخ الغيبة الصغرى: ٤١٢.

النيابة والوكالة الخاصة حتى عام ٣٢٩هـ وهي سنة وفاته .

وقد صدر قبل عدة أيّام من وفاته توقيع من طرف الإمام إليه بالنحو التالي:

بسم الله الرحمن الرحيم: يا علي بن محمد السمري أعظم الله أجر إخوانك فيك، فإنّك ميت ما بينك وبين ستة أيّام، فاجمع أمرك ولا توص إلى أحد فيقوم مقامك بعد وفاتك، فقد وقعت الغيبة التامة، فلا ظهور إلاّ بعد إذن الله ـ تعالى ذكره ـ، وذلك بعد طول الأمد، وقسوة القلوب، وامتلاء الأرض جوراً، وسيأتي لشيعتي من يدّعي المشاهدة، ألا فمن ادّعى المشاهدة قبل خروج السفياني والصيحة ـ من السماء ـ [٢] فهو كذّاب مفتر، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم». [٣]

وبعد ستة أيّام من صدور التوقيع مات أبو الحسن السمري. [٤]

وقد سألوه قبل موته: من يقوم مقامك؟ فقال: لم أُؤمر بأن أُوصي لأحد. [٥]

و بموت أبي الحسن علي السمري تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ الشيعة تعرف بالغيبة الكبرى، وهي مما سنتحدث عنه في الصفحات التالية.

مهام ونشاطات السفراء الرئيسية

إنّ انتخاب السفراء والوكلاء من قبل الإمام الثاني عشر يشكل في الواقع

٢. فقد قيل في علائم الظهور انّ من علاماته خروج السفياني والصيحة الصادرة من السماء.

٣. الغيبة: ٢٤٢ـ ٢٤٣؛ البحار: ٥١/ ٣٦١؛ إعلام الورى: ٤٤٥؛ تاريخ الغيبة الصغرى، محمد الصدر، ص ٤١٥.

٤. الغيبة: ٢٤٣.

٥. المصدر نفسه: ٢٤٢.

تواصلاً وتوسيعاً لنشاطات شبكة الاتصالات النيابية التي قلنا إنّها بدأت فعاليتها وفاعليتها في عهد الإمام التاسع عليه السلام واتسعت بشكل ملحوظ في عهد الإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام، ووصلت نشاطاتها إلى ذروتها في عهد الإمام القائم، ويمكن حصر نشاطات الوكلاء في الموارد التالية:

الف: إخفاء اسم ومكان الإمام

ومع أنّه كان يمكن رؤية الإمام المهدي في الغيبة الصغرى للنواب والسفراء الأربعة ولبعض الشيعة، وكانت تحدث هذه اللقاءات في بعض الأحايين[1]، غير انّه وبسبب الظروف السياسية العصيبة كان كلّ واحد من النواب الأربعة ملزماً بأن لا يذكر اسم ومكان الإمام في الأوساط العامة، لأنّه لولا ذلك لكان الإمام عرضة لخطر الجهاز الحاكم.

إنّ سياسة الاختفاء والتستر هذه كانت تتم وفقاً لأوامر وتوجيهات الإمام، كما صدر ذات يوم توقيع من الإمام ابتداءً ومن دون أن يسأل بشيء يخاطب فيه محمد بن عثمان السفير الثاني: «الذين يسألون عن الاسم امّا السكوت والجنة وإمّا الكلام والنار، فانّهم إن وقفوا على الاسم أذاعوه، وإن وقفوا على المكان دلّوا عليه».[2]

وكذلك عندما التقى ذات يوم عبد الله بن جعفر الحميري وأحمد بن إسحاق الأشعري وهما من كبار أصحاب الأئمّة ووجهاء الشيعة وشيوخها ـ بعثمان بن سعيد ـ السفير الأوّل ـ وسألاه: أنت رأيت الخلف من أبي محمد العسكري؟

١. الغيبة، الطوسي: ٢٢٢ـ٢٤٦؛ كمال الدين: ٤٤.
٢. الغيبة: ٢٢٢.

فقال: اي والله.

فسألاه عن الاسم؟ فقال: محرم عليكم أن تسألوا عن ذلك، ولا أقول هذا من عندي، فليس لي أن أُحلل ولا أُحرم ولكن عنه ﷺ، فانّ الأمر عند السلطان ـ الحكم العباسي ـ انّ أبا محمد العسكري مضى ولم يخلف ولداً وقسّم ميراثه، وأخذ من لا حقّ له فصبر على ذلك، وهو ذا عماله يجولون فليس أحد يجسر أن يتقرب إليهم ويسألهم شيئاً، وإذا وقع الاسم وقع الطلب، فالله الله اتقوا الله وامسكوا عن ذلك.[1]

وفي فترة سفارة أبي القاسم بن روح سئل أبو سهل النوبختي الذي كان من كبار الشيعة فقيل له: كيف صار هذا الأمر ـ السفارة ـ إلى الشيخ أبي القاسم بن روح دونك؟

فقال: هم أعلم وما اختاروه ولكن أنا رجل ألقى الخصوم وأُناظرهم، ولو علمت بمكانه كما علم أبو القاسم وضغطتني الحاجة على مكانه لعلّي كنت أدلّ على مكانه، وأبو القاسم فلو كان الحجّة تحت ذيله وقرض بالمقاريض ما كشف الذيل عنه.[2]

ب: إعداد الوكلاء وتعبئتهم

وكما أشرنا كان وكلاء الإمام المحليّون في عصر الغيبة ـ لكلّ منهم مهمته ومجال نشاطه ـ قد استقروا في المناطق التي تزدحم بالشيعة، وعلى الرغم من أنّ هؤلاء الوكلاء كانوا يتّصلون في عهد الإمامين العاشر والحادي عشر بهما عادة من خلال الوكيل الرئيسي، غير انّ إمكانية الاتصال المباشر بالإمام كانت موجودة لهم أيضاً، ولكن هذه الإمكانية قد انتفت في الغيبة الصغرى، و كان الوكلاء

---

١. الغيبة: ١٤٦و٢١٩.
٢. المصدر نفسه: ٢٤٠؛ بحار الأنوار: ٥١/ ٣٥٩.

الثانويّـون والمحليّون ـ و قد ذكـرنا بعضاً من أسمائهـم ـ [1] في المناطـق المختلفة يقـومـون بنشـاطاتهم تحت إشراف السفير الخاص ويحوّلـون الأسئلـة والـرسـائل والحقوق الشرعية التي يدفعها الشيعة لهم إلى السفير ومنه إلى الإمام الغائب.

وكما أشرنا مسبقاً كان في بغداد وحـدها عشرة وكلاء ناشطون تحت إشراف أبي جعفر محمد بن عثمان. [2]

وكان السفـراء الأربعة لا يدفعـون القبوض ازاء مـا يستلمونه مـن الأموال الشرعية، غير انّ الشيعـة كانـوا يطالبون الـوكلاء الآخريـن بتلك القبـوض، ففي الأيام الأخيرة من حيـاة محمد بن عثمان ـ و كما يقـول الشيخ الطوسي ـ كـان هناك شخص يـدفع الأمـوال المتعلّقة بالإمـام إلى الحسين بن روح ويطـالبه بـالقبوض، فشكا الحسين ذلك إلى محمد بن عثمان، فأمره أن لا يطالبه بذلك، وأضاف: كلّ ما وصل إلى أبي القاسم فقد وصل إليّ. [3]

ج: استلام أموال الإمام وتوزيعها

كان الوكـلاء والسفراء يستلمون الأموال المتعلّقـة بالإمام التي كـان الشيعة يدفعونها لهم مباشرة أو من خلال الوكلاء الآخرين ويوصلونها وبأي نحو كان إلى الإمام أو يصرفونها في المجالات التي كان الإمام يأمر بصرفها فيها.

و قد جاء في أيّام استشهـاد الإمام العسكري عليه السلام جماعة من شيعـة قم و مناطق أُخرى من إيران إلى سامراء، وعلموا هناك بموته عليه السلام وكانوا يحملون معهم

---

١ .وقد ذكـر المرحوم الطبرسي فهرسـاً جيداً عن أسماء هـؤلاء الوكلاء مـع ذكر منطقة مهمتهـم. إعلام الورى: ٤٥٤.

٢ . الغيبة، الطوسي: ٢٢٥.

٣ .المصدر نفسه: ٢٢٥ و٢٢٦.

أمـوالاً من شيعـة بـلادهم ليـدفعـونها إلى الإمـام، ولمّا سألـوا عـن خلف الإمـام العسكـري عرّف البعـض جعفـراً الكذاب لهم، فـراحـوا يسألـونـه عن الأمـوال وعلاماتها ـ كالعادة ـ حتى يتضح انّـه يحمل علم الإمامة ومعرفتها أو لا؟ وعندما عجز جعفـر عن الإجـابة امتنعـوا عن دفـع الأموال وهمّوا بـالرجـوع إلى وطنهم، وخرجـوا من سامـراء و في خارجهـا لحق بهم رسول الإمام القـائم السري ودلّاهم عليه.

وبعد تشرّفهم بلقاء الإمام وإخباره إيّاهـم بعلامات الأموال التي بحوزتهم دفعوها إليـه، ثمّ قال عليه السلام :«لا تحملوا إلى سـامراء شيئاً بعـد هذا، فإنّي سـأجعل أحدهم في بغداد فادفعوا الأموال إليه والتوقيع يخرج منه».[١]

ومنـذ ذلك الحين نصـب الإمام عثمان بـن سعيد سفيراً ووكيـلاً عنه، فبـدأ مهمته في بغداد.

د: الإجابة على الأسئلة الفقهية وحل المشاكل العقائدية

إنّ نشـاط السفراء الأربعـة لا ينحصر فيما ذكرنـاه، بل انّ نطـاق فعاليتهـم يشمل الإجابات على أنواع الأسئلة الفقهية والشرعية ومعالجة الشبهات العقائدية ومـواجهة الإشكـاليـات التـي كان يثيرهـا المخـالفـون ويسعون مـن وراء ذلـك لتضعيف وتشتيت عقـائد الشيعة وأفكارهم، وقـد كان النواب والسفراء يقـومون بواجبـاتهم هذه مـن خلال الإفادة مـن تعاليـم الإمام ومعرفتـه الراقيـة جداً على أحسن وجه.[٢] إلقاء نظرة عـابرة على جدول أعمال السفراء الأربعـة يبيّن الجوانب الواسعـة لجهودهـم الناجحـة في هذا المجـال، فقد كـانوا مـن جهة يستـأصلون

---

١. الغيبة: الطوسي: ٢٢٥ـ٢٢٦.

٢. إكمال الدين، الصدوق: ٤٧٦ـ٤٧٩.

الشبهات المتعلّقة بنفي وإنكار وجود الإمام بطرق مختلفة، ولذلك كانوا يكشفون اضطراراً عن لقاءاتهم السرية بالإمام[1] أحياناً، وكان يصدر توقيع من قبل الإمام حول ذلك، فكان يساهم عليه السلام في دفع ومعالجة تلك الشبهات والإشكاليات.[2]

ومن جهة أُخرى كانوا يحملون الأسئلة الفقهية والشرعية التي يطرحها الشيعة إلى الإمام، فيستلمون أجوبتها وينقلونها إليهم، وعلى سبيل المثال يمكن الإشارة إلى التوقيع الذي خرج على يد محمد بن عثمان وأُجيب خلاله على أسئلة إسحاق بن يعقوب في المجالات المختلفة.[3]

وهكذا يمكن الإشارة إلى التوقيع التفصيلي الذي صدر رداً على أسئلة رسول أهالي قم محمد بن عبد الله بن جعفر الحميري.[4]

وفضلاً عن ذلك كان السفراء يناظرون المخالفين ويتباحثون معهم أحياناً فيفحمونهم بالحجج ويؤكّدون على أنّ إجاباتهم هذه قد تعلموها من الإمام، كما دحض الحسين بن روح إشكالية أثارها أحدهم حول استشهاد الإمام الحسين في إحدى المناظرات وأجاب عنها على نطاق واسع، وقال في اليوم التالي لأحد الشيعة الذي كان يعتقد انّ إجاباته أمس كانت من عصارة فكره: لأن أخرّ من السماء فتخطفني الطير أو تهوي بي الريح من مكان سحيق أحب إلي من أن أقول في دين الله برأيي ومن عند نفسي، بل ذلك مسموع من الحجة.[5]

وكذلك قدّم إجابات رائعة حول أسئلة طرحها أحد المتكلّمين حول قاتل الإمام موسى بن جعفر وانّه هل مات الأئمّة المعصومون بالسم أو بالسيف؟ وسر

1. إكمال الدين: ٤٤٠ـ٤٤١.
2. الغيبة، الطوسي: ١٧٦ـ١٧٧.
3. المصدر نفسه: ٤٥٢ـ٤٥٣.
4. المصدر نفسه: ٢٢٩ـ٢٣٦.
5. الغيبة، الطوسي: ١٩٨ـ١٩٩.

أفضلية السيدة فاطمة عليها السلام على بنات رسول الله؟ مما أثار إعجاب ذلك العالم، فقال: فما رأيت أحداً تكلم وأجاب في هذا الباب بأحسن ولا أوجز من جوابه.[١]

هـ: مواجهة دعاة السفارة الكاذبين

وينبغي أن نضيف مواجهة الغلاة ومدّعي البابية والنيابة الكاذبين والكشف عن بطلان ادّعاءاتهم إلى نشاطات السفراء الأربعة أيضاً.

وكما وضحنا في سيرة الإمام الهادي كان هناك بعض المنحرفين المتهالكين على الدنيا يدّعون (ومن خلال بث أفكار واهية مثل تأليه الأئمّة لأنفسهم) بعض الدرجات والمقامات، ويأخذون الخمس والحقوق الشرعية الأُخرى باسم الإمام، ممّا وفر أسباب تشويه سمعة الشيعة وأثار المشاكل للأئمّة، ومضافاً إلى هؤلاء ظهر آخرون يدّعون النيابة والسفارة عن الإمام كذباً، ويعبثون بأموال الإمام، ويقولون في المسائل الفقهية والعقائدية بأقوال مضلّة باطلة.

ومن هنا راح السفراء الأربعة وبتوجيهات الإمام يواجهونهم، وكانت التواقيع تصدر أحياناً بلعنهم ونبذهم من قبل الإمام.

وكان أبو محمد الشريعي، محمد بن نصير النميري، أحمد بن هلال الكرخي، أبو طاهر محمد بن علي بن بلال، الحسين بن منصور الحلاج، ومحمد بن علي الشلمغاني من هذا الصنف.[٢]

وقد كان الشلمغاني في السابق أحد فقهاء الشيعة حتى أنّه ألّف كتاباً تحت عنوان «التكليف»، غير انّه انحرف بعد ذلك وغلا وتبنّى أفكاراً إلحادية، ومنها

---

١. المصدر نفسه: ٢٣٨ـ ٢٣٩.

٢. الغيبة: ٢٤٤.

انّه أصرّ على نظرية الحلول، وكان يقول: إنّ روح نبي الإسلام حلّت في محمد بن عثمان السفير الثاني، وروح أمير المؤمنين حلّت في بدن الحسين بن روح، وروح فاطمة حلّت في أمّ كلثوم بنت محمد بن عثمان.

وعدّ الحسين بن روح ذلك الرأي كفراً وإلحاداً وانّه يماثل ما قاله النصارى في المسيح ولعنه وتبرّأ منه. وفضحه من خلال إذاعة آرائه الانحرافية في عشيرته وقومه.

ونظراً لدور الشلمغاني المخرب صدر توقيع على يد الحسين بن روح في لعنه وتكفيره وارتداده في ذي الحجة عام ثلاثمائة واثني عشر، وأخيراً قد قتل عام ٣٢٣هـ.[١]

الغيبة الكبرىٰ

وكما أشرنا انّ الغيبة الكبرى تبدأ بموت رابع سفراء الإمام الثاني عشر، وفيها يكون للفقهاء ــ الذين تتوفر فيهم شروط ــ النيابة العامة عن إمام الزمان، وكما لاحظنا كانت النيابة الخاصة هي أن يعرّف الإمام شخصاً باسمه وصفته ويجعله نائباً عنه، ولكن النيابة العامة هي أن يضع الإمام شروطاً ومعايير عامة لتبقى على طول التاريخ مقياساً، كلّما ظهر شخص تتوفر فيه تلك الشروط أصبح نائباً عن الإمام ومرجعاً للشيعة في أُمور الدين والدنيا.

وقد وضّح الأئمّة المعصومون لا سيما الحجّة بن الحسن المهدي ـ عجّل الله تعالى فرجه الشريف ـ هذه الشروط في عدة روايات، وألزموا المسلمين بالرجوع إلى من

١. الغيبة، الطوسي: ٢٤٨ـ ٢٥٤؛ تاريخ سياسى غيبت امام دوازدهم: ٢٠٠ـ ٢٠٥. ويعتقد المسعودي انّه قتل عام ٣٢٢؛ التنبيه والاشراف: ٣٤٣.

تتوفر فيهـم تلك الشروط وأن يعملوا بها يقولـونه في عصر الغيبة الكبرىٰ، وسنشير هنا إلى بعض تلك الروايات ونذكرها للقرّاء الكرام:

١. قال عمر بن حنظلة: سـألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن رجلين من أصحابنا بينهما منـازعة في دَين أو ميراث فتحاكما إلى السلطـان وإلى القضاة أيحل ذلك؟

قال عليه السلام: «من تحاكم إليهم في حقّ أو باطل فإنّما تحاكم إلى الطاغوت، وما يحكم له فإنّما يأخـذ سحتاً و إن كان حقاً ثابتاً له، لأنّه أخـذه بحكم الطاغوت، وقد أمر الله أن يكفر به قال الله تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ أن يَتَحاكَمُوا إلى الطّاغُوتِ**[١] **و قَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ**﴾[٢].

قلت: فكيف يصنعان؟ قال عليه السلام: «ينظران إلى مَن كان منكم ممّن قد روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا، فليرضوا به حكماً، فانّي قد جعلته حاكماً عليكم، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبـل منه، فإنّما استخف بحكم الله وعلينا ردّ، والراد علينا الرادّ على الله، وهو على حدّ الشرك بالله».[٣]

إنّ هذا الحكـم الذي أصدره الإمـام الصادق عليه السلام هو حكم عـام يشمل جميع الفقهـاء الذين تتـوفر فيهم الشروط. وعنـد ما لا يرضـى الإمام بالـرجوع إلى الطواغيت وقضاتهم في القضايا البسيطة الشخصية فـانّه لن يرضى قطعاً بأن يقع زمام أُمـور المسلمين بيد الحكام الظالمين، بـل انّه جعل ذلك في عهـدة الفقهاء

١. والمراد من الطاغوت هو من يحكم بالباطـل ويتصدّى للحكم ولا يكون أهلاً له والطاغوت صيغة مبالغة مشتقة من الطغيان، وكان هؤلاء قد بلغوا الذروة في كسر الحدود والطغيان.

٢. النساء:٦٠.

٣. أُصول الكافي:١/ ٦٧، كتاب فضل العلم، ح١٠؛ وسائل الشيعة:١٨/ ٩٩، الباب ١١ من أبواب صفات القاضي.

العدول من الشيعة.

٢. قال إسحاق بن يعقوب: سألت محمد بن عثمان ـ السفير الثاني للإمام ـ أن يوصل لي كتاباً إلى الإمام ـ عجّل الله تعالى فرجه الشريف ـ قد سألت فيه عن مسائل أشكلت عليّ، فورد التوقيـع بخط مولانا صاحب الزمان ، و كـان من أسئلتي هو إلى من الرجوع في الحوادث الواقعة في عصر الغيبة؟

فجاء الجواب:

«وأمّا الحوادث الواقعـة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنـا، فانّهم حجّتي عليكم وأنا حجّة الله».[1]

ومع أنّ إسحاق بن يعقوب كان يسـأل عن وظيفته الشرعية، غير انّ الإمام أجاب بشكل عام وعيّن وظيفة الشيعة جميعاً.

المهدي في مصادر الشيعة

فقد رويت أخبار وأحاديث كثيرة عن نبي الإسلام والأئمّة عليهم السلام حول ولادة الإمام المهدي وغيبته وظهـوره وثورته العالمية وجميع صفاتـه، وفي الواقع قد أخبروا وقبل سنوات عديدة من ولادته عن صفاته وحالاته، من قبيل انّه من أهل البيت، ومن أولاد فاطمة والحسين، وانّه يملأ بثورته العالمية الأرض عدلاً وقسطاً.

وقد بلغت الروايات في هذا الموضوع حـداً قلما نرى موضوعاً من المواضيع الإسلامية قد تحدثت الروايات عنه بهذا الكم الهائل.

وفي البدايـة سنذكـر عدد الروايـات التي جاءت عـن أئمّة الشيعـة حول الإمام المهـدي، وأسماء الكتب التي ألّفها علماء هـذا المذهب حول ذلـك بشكل

---

١. الغيبة ص ١٧٧؛ إعلام الورى، ص ٤٥٢؛ الوسائل:١٨/ ١٠١؛ الاحتجاج:٢/ ١٦٣.

مستقل، ثـمّ نعرض الأحـاديث المرويـة عن نبي الإسـلام عن طـريق أهـل السنّة وكتبهم حول هذا الموضوع.

وهنا من المناسب أن نذكر بـأنّ عصر كلّ واحد من الأئمّة وإن كان يحمل طابعه الخاص به وانّ اهتمام أُولئك الكرام كان يدور حول قضايا عصرهم الملحّة، غير انّه وفي الـوقت ذاتـه كان مـوضوع الإمـام المهدي يستقطـب اهتمامهم دائماً، وكانوا ينتهزون الفرصة بين الحين والآخر للحديث عنه والتنبّؤ حوله، سنذكر الآن على سبيـل المثال عـدد الأحاديـث المرويـة عن الأئمّـة عليهم السلام حـول ذلـك إجمالاً، ونقدّمها إلى القراء الكرام.

١. أمير المؤمنين عليه السلام ٥١ حديثاً.

٢. الإمام الحسن عليه السلام ٥ أحاديث.

٣. الإمام الحسين عليه السلام ١٤ حديثاً.

٤. الإمام زين العابدين عليه السلام ١١ حديثاً.

٥. الإمام الباقر عليه السلام ٦٣ حديثاً.

٦. الإمام الصادق عليه السلام ١٢٤ حديثاً.

٧. الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام ٦ أحاديث.

٨. الإمام علي الرضا عليه السلام ١٩ حديثاً.

٩. الإمام الجواد عليه السلام ٦ أحاديث.

١٠. الإمام الهادي عليه السلام ٦ أحاديث.

---

١. دادگستر جهان: ٧٤ـ ٨٢ أعدّ هـذا الإحصاء نقلاًعن كتـاب «منتخب الأثر» ولو استمـر البحث أكثر لكانت الأحاديث أكثر من ذلك. هذا وفيما يتعلق بالأحاديث النبوية سنتحدث عنها في قسم أحاديث أهل السنّة.

١١. الإمام الحسن العسكري ٢٢ حديثاً.[١]

وسنكتفي بذكر بضعة أحاديث على سبيل المثال:

الف: قال أمير المؤمنين: قـال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا ينقضي عمر الدنيـا حتى يملك رجل من صلب الحسين ويملأها عدلاً كما ملئت ظلماً».[١]

وروي عنه أيضاً في نهج البلاغة أحاديث كثيرة حول ذلك[٢] ومنها:

«لتعطفنّ الدنيا علينا عطف الضروس على ولدها[٣] قال ا لله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أن نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ﴾[٤].

ب: قال الحسين بن علي عليه السلام : «لو لم يبق من الدنيا إلاّ يوم واحد لطوّل الله عزّوجـل ذلك اليـوم حتى يخرج رجل مـن ولدي يملأهـا عدلاً وقسطـاً كما ملئت جوراً وظلماً، كذلك سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول».[٥]

ج: قال الإمام الجواد عليه السلام مخاطباً عبد العظيم الحسنـي: «إنّ القائم منّا هو المهدي الذي يجب أن ينتظر في غيبته، ويطاع في ظهوره، وهو الثالث من ولدي، والذي بعث محمداً بالنبـوة وخصّنا بالإمامة انّه لو لم يبق مـن الدنيا إلاّ يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يخرج فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، وانّ الله يصلح أمره في ليله كما أصلـح أمر كليمه موسى ليقتبس لأهلـه ناراً فرجع وهو رسول نبي» ثمّ قال عليه السلام :«أفضل أعمال شيعتنا انتظار الفرج».[٦]

---

١. دلائل الإمامة، الطبري: ٢٤٠.

٢. مهدى منتظر در نهج البلاغة، إيماني.

٣. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٩/ ٢٩.

٤. القصص: ٥. ٥. إكمال الدين: ١/ ٣١٨.

٦. إكمال الدين: ٢/ ٣٧٧؛ البحار: ٥١/ ١٥٦.

الكتب التي أُلّفت حول المهدي قبل ولادته

بلغ موضوع غيبة الإمام المهدي وظهوره درجة من البداهة واليقين ان أُلّف حوله كتب متعدّدة، ويرجع تاريخ تأليف بعضها إلى سنوات قبل ولادته، فقد ألّف مثلاً الحسن بن محبوب الزراد(المتوفّى ٢٢٤هـ) ـ وهو من المحدّثين والمؤلّفين الشيعة الموثوقين ـ كتاب «المشيخة» قبل الغيبة الكبرىٰ بمائة عام، وروى فيه الأخبار المتعلّقة بالمهدي.[١]

وكتب المرحوم الطبرسي: وخلّدها ـ أخبار المهدي عليه السلام ـ المحدّثون من الشيعة في أُصولهم المؤلّفة في أيام الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام.[٢]

وكذلك كتب بعض أصحاب الأئمّة حول الإمام وخروجه، مثل: إبراهيم بن صالح الأنماطي[٣] وهو من أصحاب الإمام الباقر، والحسن بن محمد بن سماع[٤] وهو من أصحاب الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام ، ومحمد بن الحسن بن جمهور[٥] وهو من أصحاب الإمام الرضا، وعلي بن مهزيار[٦] وهو من أصحاب الإمام الجواد، والفضل بن شاذان النيشابوري[٧] من أصحاب وتلامذة الأئمة: الرضا والجواد والهادي.[٨]

---

١. إعلام الورى:٤٤٣ـ٤٤٤.
٢. إعلام الورى: ٤٤٣.
٣. الفهرست، الطوسي:١٤؛ فهرست أسماء مصنّفي الشيعة، النجاشي: ١١؛ الرجال، ابن داود:٣٢.
٤. فهرست أسماء مصنفي الشيعة: ٢٩؛ الفهرست: ٩٨.
٥. الفهرست: ٢٨٤.
٦. فهرست أسماء مصنّفي الشيعة: ١٧٨.
٧.المصدر نفسه:١٧؛ منتخب الأثر: ٤٦٦ـ ٤٦٧.
٨. وبديهي انّ إبراهيم الأنماطي والحسن بن محمد بن سماعة كانا واقفيين، ويرمون من وراء تأليف هذا النوع من الكتب إثبات نظريتهم، ولكن يدلّ هذا الأمر على كلّ حال على أنّ الغيبة كانت موضوعاً مفروغاً عنه، دكتور جاسم حسين، تاريخ سياسى غيبت امام دوازدهم: ٢١ـ ٢٢.

المهدي في مصادر أهل السنّة

ولا يختص الاعتقاد بالمهدي والمهدوية ـ كما أشرنا سابقاً ـ بالمذهب الشيعي، بل ذكر عدد كبير من محدّثي أهل السنّة الروايات المتعلّقة بالإمام ورووها عن كثير من الصحابة والتابعين في كتبهم لدرجة انّ كتب المذاهب الإسلامية الأُخرى ـ فضلاً عن الشيعة ـ كالمذهب الحنفي، الشافعي، المالكي، والحنبلي مفعمة بالروايات النبوية التي تتحدث حول المهدي وخروجه، ووفقاً لما حقّقه بعض الباحثين الكبار وتوصل إليه انّ محدّثي أهل السنّة قد رووا أحاديث المهدي عن ٣٣ شخصاً من الصحابة في كتبهم.[١]

فقد ذكر مائة وستة أشخاص من كبار علماء أهل السنّة المشهورين أحاديث ظهور الإمام الغائب في كتبهم.[٢]

وألّف ٣٢ منهم كتباً مستقلة حول المهدي عليه السلام[٣].

فإنّ مسند أحمد بن حنبل (المتوفّى ٢٤١ هـ) ؛وصحيح البخاري (المتوفّى ٢٥٦ هـ) من كتب أهل السنّة الشهيرة التي أُلّفت قبل ولادة الإمام القائم ـ عجّل الله تعالى فرجه الشريف ـ وجاء فيها تلك الأحاديث المتعلقة به عليه السلام.[٤]

ومن الأحاديث التي يرويها أحمد بن حنبل هو: «لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم

١. نويد امن وامان، لطف الله الصافي:٩١ـ ٩٢.

٢. المصدر نفسه: ٩٢ـ ٩٥.

٣. المصدر نفسه: ٩٥ـ ٩٩.

٤. صحيح البخاري، شرح الشماعي:٤/ ٦٣٣، الباب ٩٤٥؛ مسند أحمد:١/ ٨٤و ٩٩ و ٤٤٨ و ج٣/ ٢٧ و ٣٧؛ سنن ابن ماجة:٢/ ١٣٦٦ـ ١٣٦٨؛ كتاب الفتن الباب ٣٤، الحديث ٤٠٨٢ـ ٤٠٨٨.

لبعث الله عزّوجلّ رجلاً منّا يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً».[١]

وقد بلغت الأحاديث النبوية حول المهدي ـ عجّل الله تعالى فرجه الشريف ـ وصفاته وعلاماته في كتب ومصادر أهل السنّة القديمة حداً جعل علماءهم وحفّاظهم الكبار يعدّون تلك الأحاديث متواترة.[٢]

وطبقاً لدراسة إجمالية صرح ١٧ عالماً من علماء أهل السنّة الكبار بتواتر أحاديث المهدي في كتبهم.[٣]

وقد ألّف الشوكاني حول إثبات تواترها كتاباً تحت عنوان: «التوضيح في تواتر ما جاء في المنتظر والدجال والمسيح».[٤]

ومن المناسب هنا أن نذكر ـ على سبيل المثال ـ كلمات بعض علماء أهل السنّة المعروفين حول هذا الموضوع:

١. فقد قال الشوكاني في كتابه المذكور وبعد أن أورد أحاديث المهدي:

وجميع ما سقناه بالغ حد التواتر كما لا يخفى على من له فضل اطلاع، فتقرر بجميع ما سقناه انّ الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة... وهذا يكفي لمن

---

١. مسند أحمد بن حنبل: ١/ ٩٩.

٢. التواتر والمتواتر من اصطلاحات علم الحديث. ويقصد بالخبر المتواتر هو الخبر ـ بحد ذاته لا بانضمام القرائن ـ الذي يرويه جماعة يمتنع تواطؤهم على الكذب، وبالتالي يوجب اليقين بمحتواه. علم الحديث، كاظم مدير شانجي: ١٤٤.
وهكذا يمكن التعبير عن التواتر بالثبوت القطعي، وعن الخبر المتواتر بالثابت والقطعي الحديث الذي يرويه عدد كبير من الرواة في كثير من الكتب ونقل من خلال المحدّثين وشيوخ الحديث كابراً عن كابر و من جيل إلى جيل وثبوته وصدوره قطعي عن النبي الأكرم أو الأئمة الأطهار عليهم السلام (خورشيد مغرب، الحكيمي: ٩٩).

٣. نويد أمن وأمان، الصافي، ص ٩٠ـ ٩١.

٤. المصدر نفسه: ٩١.

كان عنده ذرة من إيمان وقليل من إنصاف.[١]

٢. قال الحافظ[٢] أبو عبد الله الكنجي الشافعي(المتوفّى ٦٥٨هـ) في كتاب «البيان في أخبار صاحب الزمان» (الباب ١١): تواترت الأخبار واستفاضت بكثرة رواتها عن المصطفى ﷺ في أمر المهدي.[٣]

٣. قال الحافظ الشهير ابن حجر العسقلاني الشافعي(المتوفّى ٨٥٢هـ) في كتاب «فتح الباري في شرح صحيح البخاري»: تواترت الأخبار بأنّ المهدي من هذه الأُمّة، وانّ عيسى عليه السلام سينزل ويصلّي خلفه.[٤]

٤. كتب المؤمن الشبلنجي: تواترت الأخبار عن النبي ﷺ انّه(المهدي) من أهل بيته وانّه يملأ الأرض عدلاً.[٥]

٥. وكتب الشيخ محمد الصبان: تواترت الأخبار عن النبي ﷺ بخروجه، وانّه من أهل بيته وانّه يملأ الأرض عدلاً.[٦]

٦. وكتب الشيخ منصور علي ناصف من علماء الأزهر الكبار المعاصرين ومؤلف كتاب «التاج الجامع للأُصول»[٧]:

١. نقلاً عن غاية المأمول في شرح التاج الجامع للأُصول، للشيخ منصور علي ناصف:٥/ ٣٢٧.

٢. الحافظ هو الذي أحاط علماً بسنن النبي الأكرم وعرف موارد اتفاقها واختلافهاواطّلع على أحوال الرواة وطبقات مشايخ الحديث بشكل كامل. علم الحديث، كاظم مدير شانجي:٢/ ٢٢.

٣. منتخب الأثر، ص ٥، الهامش.

٤. فتح الباري في شرح صحيح البخاري:٦/ ٤٩٣ـ ٤٩٤.

٥. نور الأبصار:١٧١.

٦. إسعاف الراغبين، هامش نور الأبصار:١٤٠.

٧. إنّ هذا الكتاب قد أُلّف ـ كما يبدو من مقدّمته ـ بهدف الحصول على مجموعة موثوق بها من أُصول الحديث الخمسة التي هي من أهمّ كتب الحديث لدى أهل السنّة، وطبع في خمس مجلدات، وقد كتب المؤلف شرحاً عليه باسم «غاية المأمول» وهو في هامشه.

واشتهر بين العلماء قديماً وحديثاً انّه سيظهر رجل من أهل البيت في آخر الزمان اسمه المهدي يملك جميع البلدان الإسلامية، ويتبعه جميع المسلمين، ويعدل بينهم ويؤيّد الدين، ثمّ يظهر الدجال، وينزل المسيح ويقتل الدجال، أو يتعاون مع المهدي في قتله.

وقد روى أحاديث المهدي النبوية جماعة من أصحابه صلى الله عليه وآله الصالحين، فقد رواها محدّثون كبار كأبي داود، الترمذي، ابن ماجة ، الطبراني، أبي يعلى، البزار، الإمام أحمد بن حنبل، والحاكم النيشابوري في كتبهم.[1]

وكتب ابن أبي الحديد أحد أكثر علماء أهل السنّة بحثاً وتتبعاً حول هذا الموضوع: وقد وقع اتّفاق الفرق من المسلمين أجمعين على أنّ الدنيا والتكليف لا ينقضي إلاّ عليه (المهدي).[2]

بيان رابطة العالم الإسلامي

ونختم هذا الفصل بنقل البيان الرسمي لرابطة العالم الإسلامي التي هي من أكبر مراكز الوهابية ومقرّها في مكة بصفته وثيقة وشاهداً حياً على عقيدة وإيمان جميع المسلمين بالمهدي، ومن جوانب أهمية هذا البيان هو انّه يبيّن انّ من أكثر الفرق تطرّفاً في عدائها للشيعة قد قبلت هذا الموضوع أيضاً، ولم تقبله فقط، بل راحت تدافع عنه بحماس، وتعدّه من العقائد الإسلامية البديهية المسلّمة، وذلك لكثرة الأدلّة والوثائق في هذا المجال، مضافاً إلى أنّ هذه الرابطة تمارس نشاطها كمركز إسلامي عالمي.

١. التاج الجامع للأُصول: ٥/ ٣١٠.
٢. شرح نهج البلاغة: ١٠/ ٩٦.

وعلى أي حال كان قد سأل شخص يدعى أبا محمد من كينيا حول ظهور المهدي المنتظر الرابطة عام ١٩٧٦م، و رداً على سؤاله وضمن تأكيده على أنّ ابن تيمية ـ مؤسس المذهب الوهابي ـ قد قبل أحاديث المهدي، أرسل الأمين العام للرابطة رسالة قصيرة إليه كتبها خمسة من علماء الحجاز المعروفين حالياً حول موضوع المهدي، وقد جاء فيها بعد ان ذكر اسم الإمام المهدي ومكان ظهوره:

ويظهر عند فساد الزمان وانتشار الكفر وظلم الناس، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً، يحكم العالم كلّه وتخضع له الرقاب...، هو آخر الخلفاء الراشدين الاثني عشر الذين أخبر عنهم النبي صلوات الله وسلامه عليه في الصحاح.

وأحاديث المهدي واردة عن الكثير من الصحابة يرفعونها إلى رسول الله ﷺ؛ ومنهم: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الرحمن بن عوف، و عبد الله بن عباس، وعمار بن ياسر، وعبد الله بن مسعود، و أبو سعيد الخدري، وثوبان، وقرّة بن أياس المزني، وعبد الله بن الحارث بن جز، و أبو هريرة، وحذيفة بن اليمان، وجابر بن عبد الله، وأبو أُمامة، و جابر بن ماجد الصدفي، وعبد الله بن عمر، وأنس بن مالك، وعمران بن الحصين، وأُمّ سلمة. هؤلاء عشرون منهم ممّن وقفت عليهم، وغيرهم كثير، وهناك آثار عن الصحابة مصرّحة بالمهدي من أقوالهم كثيرة جداً لهم حكم الرفع، إذ لا مجال للاجتهاد فيها أحاديث هؤلاء الصحابة التي رفعوها إلى النبي ﷺ، والتي قالوها من أقوالهم اعتماداً على ما قاله رسول الله ﷺ.

ورواها الكثير من دواوين الإسلام وأُمّهات الحديث النبوي من السنن والمعاجم والمسانيد؛ منها: سنن أبي داود، والترمذي، وابن ماجة، وابن عمرو الداني، ومسانيد أحمد وأبي يعلى والبزاز، وصحيح الحاكم، ومعاجم الطبراني الكبير

والآلوسي والروياني والدار قطني في الأفراد، وأبو نعيم في أخبار المهدي، والخطيب في تاريخ بغداد، و ابن عساكر في تاريخ دمشق، وغيرها.

وقد خصّ المهدي بالتأليف أبو نعيم في «أخبار المهدي» وابن حجر الهيثمي في «القول المختصر في علامات المهدي المنتظر »والشوكاني في« التوضيح في تواتر ما جاء في المنتظر والدجال والمسيح» وإدريس العراقي المغربي في تأليفه «المهدي» وأبو العباس بن عبد المؤمن المغربي في كتابه «الوهم المكنون في الرد على ابن خلدون».

وآخر من قرأت له عن المهدي بحثاً مستفيضاً مدير الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة في مجلة الجامعة أكثر من عدد.

وقد نصّ على أنّ أحاديث المهدي انّهامتواترة جمع من الأعلام قديماً وحديثاً، منهم: السخاوي في «فتح المغيث» ومحمد بن أحمد السفاويني في «شرح العقيدة» وأبو الحسن الابري في «مناقب الشافعي» وابن تيمية في فتاواه والسيوطي في «الحاوي» وإدريس العراقي المغربي في تأليف له عن المهدي، والشوكاني في تواتر ما جاء في المنتظر والدجال والمسيح، ومحمد بن جعفر الكناني في «نظم المتناثر في الحديث المتواتر»، وأبو العباس بن عبد المؤمن المغربي في «الوهم المكنون من كلام ابن خلدون»رحمهم الله.

وحاول ابن خلدون في مقدّمته أن يطعن في أحاديث المهدي محتجاً بحديث موضوع لا أصل له عند ابن ماجة: لا مهدي إلاّ عيسىٰ، ولكن ردّ عليه الأئمّة و العلماء، وخصّه بالرد شيخنا ابن عبد المؤمن بكتاب مطبوع متناول في المشرق والمغرب منذ أكثر من ثلاثين سنة ونصّ الحفّاظ والمحدّثون على أنّ أحاديث المهدي فيها الصحيح والحسن، ومجموعها متواتر مقطوع بتواتره وصحته،

وانّ الاعتقاد بخروج المهدي واجب، وانّه من عقائد أهل السنّة والجماعة، ولا ينكر إلاّ جاهل بالسنّة ومبتدع في العقيدة، والله يهدي إلى الحقّ ويهدي السبيل.

مدير إدارة المجمع الفقهي الإسلامي

محمد منتصر الكناني(١)

من هو أبو المهدي؟

والجدير ذكره هنا هو انّه قد ذكرت بعض مصادر أهل السنّة انّ اسم أبي الإمام المهدي هو عبد الله(٢)، في حين توجد أحاديث كثيرة في المصادر الشيعية والسنّية تقول إنّ اسمه هو الحسن عليه السلام ، والسبب في هذا الاختلاف هو انّه قد ذكرت في بعض روايات أهل السنّة حول صفات المهدي هذه العبارة عن نبي الإسلام وهي: ...يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي.(٣)

وهناك قرائن وأدلّة تدلّ على أنّ العبارة الأخيرة ـ أي اسم أبيه اسم أبي ـ قد أُضيفت من قبل الرواة عن عمد أو خطأ إلى الحديث حيث لم يكن فيه غير عبارة يواطئ اسمه اسمي.

وقال الحافظ الكنجي الشافعي حول هذا الموضوع:

إنّ الترمذي(٤) ذكر هذا الحديث ولم يذكر قوله: واسم أبيه اسم

١. مهدى انقلابى بزرگ:١٥١ـ١٥٥.
٢. وقد اعتمد بيان الرابطة على هذه المصادر أيضاً.
٣. سنن أبي داود:٤/ ١٠٦؛ كتاب الملاحم والفتن، ح٤٢٨٢؛ تاريخ الخلفاء، السيوطي:٢٧٢.
٤. محمد بن عيسى بن سورة الترمذي مات عام ٢٧٩هـ وهو صاحب أحد الصحاح الستة المشهورة والمعتبرة لدى أهل السنّة.

أبي[١]، وانّ الإمام أحمد بن حنبـل مع ضبطه وإتقانه روى هـذا الحديث في مسنده عدّة مواضع:«واسمه اسمي» وليس فيه القول الأخير.[٢]

ويضيـف الكنجي قـائلاً: وفي معظـم روايات الحفّـاظ والثقـات من نقلـة الأخبار «اسمه اسمـي» فقط والذي رواه «واسم أبيه اسـم أبي» فهو «زائدة» وهو يزيد في الحديث.

وقد جمع الحافظ أبو نعيم طرق هـذا الحديث عن الجم الغفير ـ و هم واحد وثلاثون إماماً من أئمّة الحديث ـ في كتاب «مناقب المهدي» كلّهم عن عاصم بن أبي النجود، وكلّهم رووا: «اسمه اسمـي»، إلاّ ما كان من عبيد الله بن مـوسى عن «زائدة» عن عاصم فانّه قال فيه:«واسم أبيه اسم أبي»، ولا يرتاب اللبيب انّ هذه الزيادة لا اعتبار بها مع اجتماع هؤلاء الأئمّة على خلافها.[٣]

ابن خلدون[٤] وأحاديث المهدي عليه السلام

وكما لاحظنا فـانّ أغلبية علماء أهل السنّة قـد اتّفقوا اتفاقاً متـاخماً للإجماع على أنّ أحاديث المهدي صحيحة ومقبولة، غير انّ البعض رفضها أو شكّك فيها، ومنهم ابن خلدون فقد قال:

اعلم أنّ المشهـور بين الكافة من أهـل الإسلام على ممر الأعصـار أنّه

١. أصل الحديث هو: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تذهب الدنيا حتى يملـك العرب رجل من أهل بيتي، يواطئ أسمه اسمي» ؛ سنن الترمذي:٤/ ٥٠٥، الباب ٥٢، ما جاء في المهدي، الحديث ٢٢٣٠ـ ٢٢٣١.

٢. مسند أحمد بن حنبل:١/ ٤٤٨.

٣. منتخب الأثر: ٢٣١ـ ٢٣٥؛ موسوعة الإمام المهدي:١/ ١٣ـ ١٦ واحتملوا احتمالات أُخرى في هذا المجال أعرضنا عن ذكرها للاختصار.

٤. عبد الرحمان بن محمد بن خلدون ٧٣٢ـ ٨٠٨هـ.

لابدّ في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين، ويظهر العدل، ويسمّى بالمهدي، ويتبعه المسلمون، ويستولي على الممالك الإسلامية، ويكون خروج الدجال وما بعده من أشراط الساعة الثابتة في الصحيح على أثره، وانّ عيسى ينزل من بعده أو ينزل معه فيساعده على قتله، و يأتم بالمهدي في صلاته...

إنّ جماعة من الأئمة خرّجوا أحاديث المهدي، منهم: الترمذي وأبو داود وابن ماجة والحاكم والطبراني وأبو يعلى الموصلي وأسندوها إلى جماعة من الصحابة، مثل: علي و ابن عباس وابن عمر وطلحة وابن مسعود وأبي هريرة وأنس وأبي سعيد الخدري وأُمّ حبيبة وأُمّ سلمة وثوبان وقرة بن أياس وعلي الهلالي وعبد الله بن الحارث بأسانيد ربما يعرض لها المنكرون كما نذكره، إلاّ أنّ المعروف عند أهل الحديث انّ الجرح مقدّم على التعديل[١]، فإذا وجدنا طعناً في بعض رجال الأسانيد بغفلة أو بسوء حفظ أو ضعف أو سوء رأي، تطرق ذلك إلى صحّة الحديث وأوهن منها....[٢]

ثمّ ينقل عدداً من تلك الأحاديث ويدرس حال رواتها ويعد بعضاً منهم غير موثوق به ويضيف: فهذه جملة الأحاديث التي خرّجها الأئمّة في شأن المهدي

---

١. انّ الجرح والتعديل اصطلاحان من اصطلاحات علم الحديث.

ويقصد بالجرح هو أن يوصف الراوي أو الرواة لحديث ما من قبل أئمة الحديث بأوصاف مثل: كذّاب، وضّاع، غال وأوصاف أُخرى متعارفة بينهم، فيكون الحديث واهياً على هذا الأساس.

ويقصد بالتعديل هو أن يذكر الراوي بعناوين مثل: عادل، موثّق، وأمثالها فيكون حديثه مقبولاً وطبعاً ما ذكرناه إنّما هو المقاييس التي يأخذ بها علماء الشيعة، وأمّا علماء أهل السنة فلهم مقاييسهم، وهي قد لا تتفق مع مقاييس الشيعة.

٢. مقدمة ابن خلدون: ٣١١ـ ٣١٢، ط ٤، إحياء التراث العربي.

وخروجه آخر الزمان، وهي كما رأيـت لم يخلص منها من النقد إلاّ القليل أو الأقلّ منه.[1]

كان ذلك خلاصة نظرية ابـن خلدون حول أحاديث المهدي المنتظر ـ عجّل الله تعالى فرجه الشريف ـ.

وقد انتقـد العلماء وأئمّة الحديث سنّيهـم وشيعيّهم نظريتـه ببراهين دامغة، واعتقدوا انّها نظرية واهية.[2]

ونحن هنا سنورد كـلاماً ملخّصاً للشيخ عبد المحسن العبـاد أُستاذ جامعة المدينة على سبيل المثال: فقد ألقى كلمة في مؤتمر وتحت عنوان «عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر» رداً على نظرية ابن خلدون:

ألف:انّـه لو حصـل التردّد في أمـر المهدي مـن رجـل له خبرة في الحديـث لاعتبر ذلك زلـلاً منه، فكيف إذا كـان من الأخباريين الذيـن هم ليسوا مـن أهل الاختصاص، وقـد أحسن الشيـخ أحمد شاكـر في تخريجه لأحاديـث المسند حيـث قال: أمّا ابن خلدون فقـد قفا ما ليس له به علم واقتحم قحماً لم يكـن من رجاله، وانّـه تهافت في الفصـل الـذي عقده في مقـدّمته للمهـدي تهافتـاً عجيباً، وغلـط أغلاطـاً واضحة، وانّـه لم يحسن قـول المحدّثين «الجرح مقـدّم على التعديـل» ولو اطّلع على أقوالهم وفقهها ما قال شيئاً مما قال .

ب:صدّر ابن خلدون الفصل الذي عقده في مقدّمته للمهدي بقوله: اعلم أنّ المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على ممـر الأعصار انّه لابدّ في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت ....

١. مقدمة ابن خلدون:٣٢٢.

٢. انظر: دادگستر جهان: ٣٠ـ ٤٩، مهدي انقـلاب بزرگ: ١٥٩ـ ١٦٥؛ منتخب الأثر:٥ـ٦، الهامش.

أقـول: هذه الشهـادة التي شهـدها ابـن خلدون، وهـي انّ اعتقاد خـروج المهدي هـو المشهور بين الكافـة من أهـل الإسلام على ممر الأعصـار ألا يسعه في ذلك ما وسع النـاس على ممر الأعصار كما ذكره هو نفسه؟! وهـل ذلك إلاّ شذوذ بعد معرفة انّ الكـافة على خلافه؟! وهل هؤلاء الكافـة اتّفقوا على الخطأ؟! والأمر ليس اجتهادياً وإنّما هو غيبي لا يسوغ لأحد إثباته إلاّ بدليل من كتاب الله أو سنة نبيّه ﷺ، والدليل معهم وهم أهل الاختصاص.

ج: انّه قال قبل إيراد الأحاديث: ونحن الآن نذكر هنا الأحاديث الواردة في هذا الشأن، وقـال في نهايتها: فهذه جملة الأحـاديث التي خرجهـا الأئمّة في شأن المهدي وخروجـه في آخر الزمان. وقال في مـوضع آخر بعد ذلـك: وما أورده أهل الحديث من أخبار المهدي قد استوفينا جميعه بمبلغ طاقتنا.

وأقـول: إنّه قـد فاتـه الشيء الكثير كما يتضح ذلـك بـالرجـوع إلى ما أثبتـه السيـوطي في «العـرف الوردي في أخبـار المهدي» عـن الأئمّـة، بل انّ ممـا فاتـه الحديث الذي ذكره ابن القيم في «المنار المنيف» عن الحارث ابن أبي أُسامة.

د: انّ ابن خلدون أورد بعض الأحاديث وقدح فيها برجال في أسانيدها هم من رجال الصحيحين أو أحدهما.

هـ: انّ ابـن خلدون نفسه قـد اعترف بسلامة بعـض أحاديث المهـدي من النقد.

وعليه انّ القليل الذي يسلم من النقد يكفي للاحتجاج به، ويكون الكثير الذي لم يسلم عاضداً له ومقوياً.[١]

---

١. نشرت كلمـة الشيـخ عبد المحسـن العبـاد تفصيـلاً في مجلـة الجامعـة الإسلاميـة في المدينـة عـام ١٣٨٨هـ.ق ذي القعدة العدد ٣ السنة الأُولى ونقلناها عن موسوعة الإمام المهدي، ج١.

انتظار المهدي ومدّعو المهدوية

إلقاء نظرة على تاريخ الإسلام يوضح انّـه كان هناك و على مر الزمن أُناس دنيويـون نفعيون قد ادّعـوا المهدوية، أو قسـم من عامـة الناس آمنوا بـأشخاص واعتقدوهم المهدي.

ويدلّ هـذا الأمر على أنّ موضوع المهـدي والإيمان بظهور منقذٍ غيبـي كان أمراً مسلّماً به بين المسلمين[١]، وكان كلّما تطابق اسم المهـدي أو بعض صفاته مع صفات بعض أُولئك المدّعين، استغلوا ذلك واعتبروا أنفسهم هم المهدي، أو ربما انّهم لم يدّعوا شيئاً لكن بعضاً من عامـة الناس يعتقدون انّه المهدي، إمّا جهلاً أو لشـدة الظلم الـذي يتلقـونه مـن الحكومـات أو الاستعجـال في ظهور الإمـام أو لأسباب أُخرى.

كلّ هذا يتم بعيداً عن التدقيق في جميع عـلامات الإمام وصفاته ممّا يوقعهم في الخطأ فيتصوّرونهم المهدي عليه السلام.

فعلى سبيل المثال قـالت فرقة انّ محمّـد بن الحنفية هو المهـدي، لأنّه سمي النبي وكنيّه ـ سمّـاه علي مهدياً، لم يمت ولا يموت ولا يجوز ذلك، ولكنّه غاب ولا يدري أين هو وسيرجع ويملك الأرض.[٢]

وفرقة زعمت انّ إسماعيل بن الإمام الصادق لم يمت، وقالوا :كان ذلك على جهة التلبيس من أبيـه على الناس، وانّه لا يموت حتى يملك الأرض ويقـوم بأمر الناس، وانّه هو القائم.[٣]

---

١. مقاتل الطالبيين :١٣٨، ١٨٤، ٢٠٧، ٢٥٤، ٤٤٠.

٢. فرق الشيعة، النوبختي، ص ٢٧؛ الملل والنحل، الشهرستاني:١/ ١٣٢.

٣. فرق الشيعة: ٦٧ـ ٦٨.

وخرج محمد المعروف بالنفس الزكية ابن عبد الله بن الحسن في أيّام المنصور، وكان في ابتداء الأمر قد شيع بين الناس انّه المهدي، وأثبت أبوه هذا بين الناس فمالوا إليه.[١]

وفي أيام خروج النفس الزكية وقف محمد بن عجلان الذي كان من فقهاء وعبّاد المدينة إلى جانبه، ولمّا انهزم محمد وقتل اعتقله جعفر بن سليمان والي المدينة وأحضره، وقال له: لماذا خرجت مع هذا الكذّاب؟ ثمّ أمر بقطع يده، وكان من حضر من فقهاء المدينة ووجوهها قد طلبوا العفو لابن عجلان وقالوا: أيّها الأمير انّ محمد بن عجلان فقيه المدينة وعابدها، وقد اشتبه عليه الأمر، وظن انّ محمد بن عبد الله هو المهدي الذي جاء في الأخبار.[٢]

وقد حدثت نفس هذه الورطة لعبد الله بن جعفر أيضاً الذي كان من علماء المدينة الكبار ومحدّثيها حيث قال رداً على سؤال حاكم المدينة: خرجت مع محمد بن عبد الله يقيناً مني انّه هو المهدي الموعود الذي جاء في الأخبار، ولم أشك في ذلك في حياته، ولمّا مات عرفت أنّه ليس المهدي ولن أُخدع ثانياً.[٣]

وأطلق المنصور الذي كان اسمه عبد الله واسم ابنه محمد لقب المهدي عليه، وزعم انّ المهدي المنتظر هو ابني وليس النفس الزكية.[٤]

وكذلك نجد انّ بعض الفرق كانت تعتقد بمهدوية بعض الأئمّة السابقين، فالناووسية اعتقدت انّ الإمام الصادق هو المهدي والإمام الحي والغائب.[٥]

---

١. الفخري: ١٦٥ـ١٦٦.
٢. مقاتل الطالبين:١٩٣.
٣. نفس المصدر: ١٩٥.
٤. مقاتل الطالبين:١٦٢.
٥. الملل والنحل، الشهرستاني:١/ ١٤٨.

وكـان للـواقفيـة نفـس هـذه العقيـدة بـالنسبـة إلى الإمـام مـوسـى بـن جعفر عليه السلام.[١]

و زعموا انّه عليه السلام لم يمـت وانّه حـيّ لا يمـوت حتى يملـك شرق الأرض وغربها ويملأها كلها عدلاً كما ملئت جوراً، وانّه القائم المهدي.[٢]

وأخيراً قالت فرقة وبعد رحيل الإمام العسكري انّه حي لم يمت وانّما غاب، وهو القائم.[٣]

كانت هـذه نماذج تدلّ على أنّ مسألة المهـدي كانت أمراً مسلّماً بـه في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وبعده، وكانـت الأُمّة الإسلامية تنتظر الشخـص الذي يخرج ويظهر ويقوم في وجه الظلم ويرفع راية العدل والقسط ويجعلها ترفرف عالياً في العالم.

ومـن الواضـح انّ استغلال المهـدوية في بعـض العصور مـن قبل بعـض المحتالين والمثلين لا يسوغ إنكـار أصل قضية الإمام المهدي، لأنّـه قد استغلت الكثير من الحقائق من قبل المخادعين والانتهازيين على مر التاريخ.

وليسوا هم بقلة من ادّعى الأُلوهية أو النبـوة والدرجات والمقامات الروحية العاليـة في هذا العالم، غير انّ كـلّ ذلك لم يدلّ يـوماً على أن ينكر أحـد وجود الله تعالى ونبوة الأنبياء.

وقـد استغل العلـم والتكنولـوجيا في عصرنـا أيضاً وأُسيء استخـدامها في مجالات لا إنسانية لكن هذا هل يوجب أن نرفض أصل العلم والتقنية؟!

ماهية دولة المهدي في القرآن

وقد تناول القرآن الكـريم مسألة ظهور الإمام المهدي وخـروجه شأنها شأن

١. نفس المصدر، ص ١٥٠.
٢. فرق الشيعة: ٨٠ ـ ٨٣.
٣. نفس المصدر: ٩٦.

كثير من المسائل الأُخرى دون أن يتعرض إلى التفاصيل، واكتفى ببيان ذلك بشكل عام، أي انّه تحدّث عن ظهور الدولة العالمية العادلة وانتصار الصالحين في الأرض بشكل تام.

وقد اعتقد المفسرون الإسلاميون انّ هذا النوع من الآيات التي تتناول موضوع المهدي إنّما فسرت به بالتعويل على الأخبار والأحاديث التفسيرية، وسنعرض نحن من مجموع تلك الآيات التي يعتقد المفسرون انّها تدور حول هذا الموضوع.[١] وتدلّ بصراحة على ذلك ثلاث آيات للاختصار:

١. **﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾**[٢] وتوضيحاً لمعنى هذه الآية نؤكد على أنّ الذكر يعني كلّ ما يوجب التذكر والتذكير، ولكن فسر في الآية بكتاب النبي موسى السماوي أي التوراة بقرينة انّه كان قبل الزبور. وبناء على تفسير آخر يراد به القرآن الكريم، لأنّه قد أطلقت الآيات القرآنية هذا الوصف على القرآن نفسه: **﴿إِنْ هُوَ إِلاّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ﴾**[٣] وعليه يكون معنى «من بعد» هو «علاوة على» و يكون تفسير الآية هو: انّا قد كتبنا ـ علاوة على ما كتبناه في القرآن ـ في الزبور انّ الأرض يرثها عبادي الصالحون.[٤]

وقد استشهد الشيخ المفيد في بداية الفصل الذي خصه بالإمام المهدي بهذه الآية والآية التي سنذكرها.[٥]

وروي في تفسير هذه الآية عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال : «هم أصحاب

---

١. خورشيد مغرب: ١٤٠ـ١٥١.

٢. الأنبياء: ١٠٥.

٣. التكوير: ٢٧.

٤. مهدى انقلابى بزرگ، ناصر مكارم: ١٢١ـ ١٢٢.

٥. الإرشاد، المفيد: ٣٤٦.

المهدي في آخر الزمان».[١]

وقال مفسر القرآن الكبير المرحوم الطبرسي في تفسيرها وبعد ذكر الحديث المذكور آنفاً: ويدلّ على ذلك ما رواه العام والخاص عن النبي أنّه قال: «لو لم يبق من الدنيا إلاّ يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً من أهل بيتي، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً».[٢]

وتدلّ إشارة القرآن وأخباره حول نبوءة دولة الصالحين في الأرض في التوراة والزبور على أنّ هذا الأمر يحظى بأهمية كبيرة لدرجة انّه ذكر في الكتب السماويةَ الواحد تلو الآخر.

والجدير ذكره هو انّ نفس هذا الموضوع يوجد في كتاب مزامير داود الذي يعد اليوم جزءاً من العهد القديم (التوراة) وهو مجموعة أدعية ومناجات وحكم داود النبي عليه السلام، ولكن عبر عنه بأشكال مختلفة.

ومنها ما جاء في المزمور ٣٧ حيث نقرأ: ... الاشرار ينتهون والمتوكّلون على الله سيرثون الأرض وسرعان ما سينعدم الشرير الذي مهما سألت عن مكانه فانّه يبقى مجهولاً لكنّ المتواضعين سيرثون الأرض وينعمون من كثرة السلامة».

وكذلك نقرأ في نفس ذلك المزمور «... المباركون سيرثون الأرض واللعناء سينتهون».[٣]

٢. ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ

---

١. مجمع البيان، الطبرسي: ٧/ ٦٦.

٢. المصدر نفسه: ٦٧.

٣. التوراة، الترجمة الفارسية التي قام بها وليم كِلن اكسي بأمر المجمع المعروف بريتش فاين بيبل سسيتي، طبعة لندن ١٨٥٦م، ص ١٠٣٠.

الْوارِثين﴾[١] وكما أشرنا في فصل المهدي في مصادر الشيعة ــ انّ أمير المؤمنين قد تلا هذه الآية بعد تنبّوئه برجوع الناس إلى أهل البيت[٢] والانضواء تحت لوائهم.

وقال محمد بن جعفر وهو أحد العلويين الذين خرجوا في أيّام المأمون: حدثت يوماً مالك بن أنس عمّا نلاقيه من الضيق، فقال: اصبر حتى يظهر معنى ﴿ونريد أن نمن على الذين...﴾.[٣]

٣. ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَما اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَني لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾.[٤]

و قال الطبرسي في تفسيرها: والمروي عن أهل البيت انّها في المهدي من آل محمد. وروى العياشي باسناده عن علي بن الحسين انّه قرأ الآية و قال: «هم والله شيعتنا أهل البيت، يفعل الله ذلك بهم على يدي رجل منّا وهو مهدي هذه الأُمّة، وهو الذي قال رسول الله: لو لم يبق من الدنيا إلاّ يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يلي رجل من عترتي اسمه اسمي، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً».

ثمّ يضيف الطبرسي: وروي مثل ذلك عن أبي جعفر الباقر وأبي عبد الله الصادق عليهما السلام.[٥]

---

١. القصص: ٥.
٢. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٩/ ٢٩، الحكمة ٢٠٥.
٣. مقاتل الطالبيين: ٣٥٩.
٤. النور: ٥٥.
٥. مجمع البيان: ٧/ ١٥٢.

فوائد وجود الإمام في عصر الغيبة

وحيث قد وصل البحث حول المهدي إلى هنا، فمن المناسب أن نجيب على أكثر الأسئلة شيوعاً حول المهدي، وهو انّه ما فائدة وجود الإمام في عصر الغيبة؟

وبتعبير آخر: انّ حياته في عصر الغيبة حياة شخصية خاصة وليست حياة اجتماعية يلعب فيها دور الإمام، وعليه ماهي الفوائد التي يمنحها وجوده المقدس للناس جميعاً ؟ وما هي نوع تلك الفائدة؟

ويجب أن نعرف أنّ غيبة الإمام لا تعني انّه حول إلى روح وأمواج غير مرئية أو حلم وما يشابه ذلك، بل له حياة اعتيادية وطبيعية في هذا العالم غير انّها مع عمر مديد.

إنّ الإمام يمارس حياته في قلب المجتمع ويعيش في عدّة أماكن ولكن على شكل إنسان مجهول، وهناك فرق بين اللا مرئي والمجهول.[1]

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **«للقائم غيبتان، يشهد في إحداهما المواسم، يرى الناس ولا يرونه».**[2]

وحضوره في موسم الحجّ خير شاهد على حياته، ولعلّه إشارة إلى أنّ الناس لا يرونه ولكن لا يعرفونه.

الشمس المحجوبة

وممّا يجب التأكيد عليه حول الإجابة على السؤال المذكور هو انّه ليس سؤالاً

١. مهدى انقلابى بزرگ، ناصر مكارم: ٢٥٠.
٢. أُصول الكافي: ١/ ٣٣٩.

جديداً يطرح لأوّل مرّة في عصرنا، بل يظهر من الروايات انّ هذا السؤال كان مطروحاً قبل ولادة الإمام المهدي أيضاً، و كان النبي والأئمّة السابقون عندما يتحدّثون عن المهدي وغيبته الطويلة يواجهون نفس هذا السؤال ويجيبون عليه، فمثلاً:

١. قال النبي رداً على سؤال انّ الشيعة هل تنتفع بالقائم في غيبته؟

«اي والذي بعثني بالنبوة انّهم لينتفعون به ويستضيئون بنور ولايته في غيبته كانتفاع الناس بالشمس وان جلّلها السحاب».[١]

٢. قال الإمام الصادق عليه السلام: «لم تخلو الأرض منذ خلق الله آدم من حجّة لله فيها ظاهر مشهور أو غائب مستور، ولا تخلو إلى أن تقوم الساعة من حجّة لله فيها، ولولا ذلك لم يعبد الله».

فسأل الراوي كيف ينتفع الناس بالحجّة الغائب المستور؟

قال الإمام: «كما ينتفعون بالشمس إذا سترها السحاب».[٢]

٣. وقد أكد الإمام المهدي نفسه على هذا المعنى أيضاً، ففي توقيع أصدره ردّاً على أسئلة إسحاق بن يعقوب وصل إليه على يدمحمد بن عثمان كتب يقول:

«وأمّا وجه الانتفاع بي في غيبتي فكالانتفاع بالشمس إذا غيّبها عن الأبصار السحاب».[٣]

وتوضيحاً لهذا التشبيه يجب أن نؤكد على أنّ للشمس إضاءتين:

١. إضاءة مباشرة.

٢. اضاءة غير مباشرة.

---

١. بحار الأنوار:٥٢/ ٩٣و٣٦/ ٢٥٠.
٢. نفس المصدر:٥٢/ ٩٢.
٣. الغيبة: الطوسي:١٧٧؛ بحار الأنوار:٥٢/ ٩٢؛ كشف الغمة:٣/ ٣٢٢.

ففي الأُولى تبـدو أشعة الشمـس مرئيـة واضحة، ولكـن في الثانيـة يصبح السحاب مثل زجاجة داكنة تحجب ضوء الشمس المباشر فينتشر فيه، غير انّ آثار الشمس الحيوية في نمو الموجودات لا تختص بالوقت الذي يكون فيه ضوؤها يشع على عالم الطبيعة مباشرة فقط، بل انّ كثيراً مـن هذه الآثار، كحدوث الحرارة ونمو النباتات وتـوليد الطاقة اللازمـة للحركة والحياة وإثمار الأشجـار وتفتح الأزهار ، تظل موجودة والشمس محجوبة وراء السحاب.

ولأشعة وجود الإمام الـروحية عندما تكون محجوبة بغيـوم الغيبة آثار مختلفة تبيّن فلسفته الـوجودية على الرغـم من توقّف دروســه التربوية والتعليمية وقيـادته المباشرة، وإليك بعض هذه الآثار.

١ . روح العالم

إنّ الإمام في الـرؤية الإسلاميـة وطبقاً لأحاديـث وأخبار كثيرة وأدلّة قـدمها العلماء هو روح العالم، وانّ العالم متـوقف عليه، انّ الإمام قلب عالم الـوجود ونواة الوجـود المركزيـة والواسطـة في الفيض بين العالم وخـالقه، مـن هنا فـانّ حضوره وغيبته سيان، ولو لم يكن في هذا العالم ـ و لو مجهولاً ـ لتلاشى عالم الوجود.

كما قال الإمام الصادق عليه السلام : «**لو بقيت الأرض بغير إمام لساخت**».[١]

وقال الإمام الرابع: «ونحن الذين بنا يمسك الله السماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه، وبنا يمسـك الأرض ان تميد بأهلها، وبنا ينزل الغيـث، وبنا ينشر الرحمة ويخرج بركات الأرض، ولولا ما في الأرض منا لساخت بأهلها».[٢]

---

١ . أُصول الكافي: ١/ ١٧٩؛ كمال الدين: ١/ ٢٠١ـ ٢١٠.

٢ . أمالي الشيخ الصدوق، ص ١١٢، المجلس ٣٥؛ كمال الـدين: ١/ ٢٠٧، الباب ٢١، ح٢٢؛ فرائد السمطين، الجويني الخراساني، ص ٤٥ـ ٤٦.

٢. حماية دين الله وحفظه

قال أمير المؤمنين عليه السلام حول ضرورة وجود القادة الإلهيين في كل عصر وزمان في إحدى كلماته: «اللّهمّ بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجّة، إمّا ظاهراً مشهوراً أو خائفاً مغموراً، لئلاّ تبطل حجج الله وبيّناته».[١]

إنّ مرور الزمن وامتزاج الآراء والأفكار الشخصية بالقضايا الدينية وتدخّل يد المفسرين في التعاليم السماوية، جعل بعض القوانين الربانية تفقد أصالتها، ويكون الدين عرضة للتغيّرات المضرة.

فلأجل أن تصان أصالة الدين الإلهي وأن يسد الطريق بوجه الانحرافات والخرافات يجب أن يمسك الإمام المعصوم سكان هذه السفينة.

فانّه في كلّ مؤسسة هامة يوجد هناك صندوق للأمان يودع فيه الوثائق المهمة حفظاً لها من السرقة أو الحريق و ما شابه، وصدر الإمام وروحه العالية أيضاً هما صندوق الأمان لحفظ وثائق الدين الإلهي إبقاءً على جميع الأصالات الأوّلية والسمات السماوية لذلك الدين فيه.[٢]

كتب الحافظ ابن حجر العسقلاني في شرح صحيح البخاري وبعد ان روى الأحاديث التي تقول بأنّ عيسى سيهبط إلى الأرض عند ظهور الإمام المهدي ويأتم به في الصلاة : وما يقال في أنّ عيسى سيأتم في الصلاة برجل من هذه الأُمّة في آخر الزمان، دليل على ما صحّ عند العلماء من أنّ الأرض لا تخلو من حجّة يخرج لله بالبراهين الساطعة.[٣]

---

١. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد:١٨/ ٣٤٧؛ المناقب، أخطب خوارزم: ٢٦٤.

٢. مهدى انقلابى بزرگ، ناصر مكارم: ٢٥٨ـ٢٥٩.

٣. فتح الباري، بشرح صحيح البخاري:٦/ ٤٩٤.

٣. بعث الأمل في النفوس

تتركز جميع جهود الجنود والمقاتلين الصناديد في ساحة المعركة على هذا الأمر، وهو أن تظل راية الجيش ترفرف أمام هجمات الأعداء، وفي المقابل يحاول جنود الأعداء أن يجعلوا رايتهم منكوسة دائماً، لأنّ بقاء الراية مرفرفة يبعث القوة في الجنود ويزرع الأمل ويرفع من معنوياتهم، كذلك وجود القائد في مقر القيادة ـ و إن كان صامتاً ـ يجعل الدماء تجري بسرعة في شرايينهم، ويحثّهم على بذل قصارى جهدهم، فيقولون: قائدنا حيٌّ ورايتنا ترفرف عالية.

فبمجرد أن ينتشر نبأ قتل القائد بين الجيش يصاب الجيش مهما كان عظيماً وكفوءاً بالإحباط ويتلاشىٰ، ومادام رئيس المجموعة أو الجيش حياً فانّه يبعث الحيوية والنشاط والاطمئنان والأمان في نفوسهم حتى لو كان مسافراً أو راقداً في الفراش، غير انّ سماع نبأ موته ينشر غبار اليأس والخيبة والإحباط على رؤوس الجميع.

والشيعةووفقاً لعقيدتهم في الإمام الحي الغائب لا يرون أنفسهم وحيدين بعيدين عن قائدهم بالرغم من أنّهم لا يشاهدونه بينهم، والأثر النفسي لهذه العقيدة في إبقاء سراج الأمل وهاجاً في قلوبهم وحثّهم على تربية وإعداد أنفسهم لتلك الثورة العالمية الكبرى أمر ممكن دركه واستيعابه.[١]

و قال البروفسور هنري كربن استاذ الفلسفة في جامعة السوربون والمستشرق الفرنسي الشهير:

اعتقد انّ المذهب الشيعي هو المذهب الوحيد الذي حافظ على علاقة الهداية الإلهية بين الخالق والمخلوق إلى الأبد، فقد جعل الولاية

١. مهدى انقلابى بزرگ، ناصر مكارم: ٢٥٥ـ٢٥٦.

مستمرة متصلة حيــة، فالدين اليهــودي ختم النبوة التي هــي علاقة واقعية بين الله والعالم الإنساني في النبي موسى عليه السلام وأنكر نبوة المسيح ومحمد بعد ذلك، كذلك المسيحيون توقّفوا عند المسيح أيضاً، وتوقّف أهل السنّة عنـد النبي محمّد صلى الله عليه وآله أيضاً، و اعتقـدوا انّ علاقـة الخالق بمخلوقـه قد انتهت بخـاتميته؛ وأمّـا المذهب الشيعي فهـو المذهب الوحيد الذي يؤمن بأنّ النبوة ختمت بنبوة النبي محمّد صلى الله عليه وآله، غير انّه يعتقد بأنّ الولايـة التي هي علاقة الهداية المكملـة مستمرة حية بعد النبي إلى الأبد.[1]

والحمد لله ربّ العالمين

١. سالنامـه ٢ مكتب تشيع، حوارات الأُستـاذ العلاّمة الطباطبـائي مع البروفسور هنري كـربن حول الشيعة، ص ٢٠.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
(٤)	
الإمام علي بن الحسين	
زين العابدين عليه السلام	

الموضوع	الصفحة
(٧)	
الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام	

الموضوع	الصفحة

قدم له
العلامة المحقق آية الله جعفر السبحاني

سيرة الأئمة عليهم السلام

عرض وتحليل للحياة الاجتماعية والسياسية والعلمية
للأئمة المعصومين عليهم السلام

تأليف
مهدي البيشوائي

تعريب
حسين الواسطي

مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام